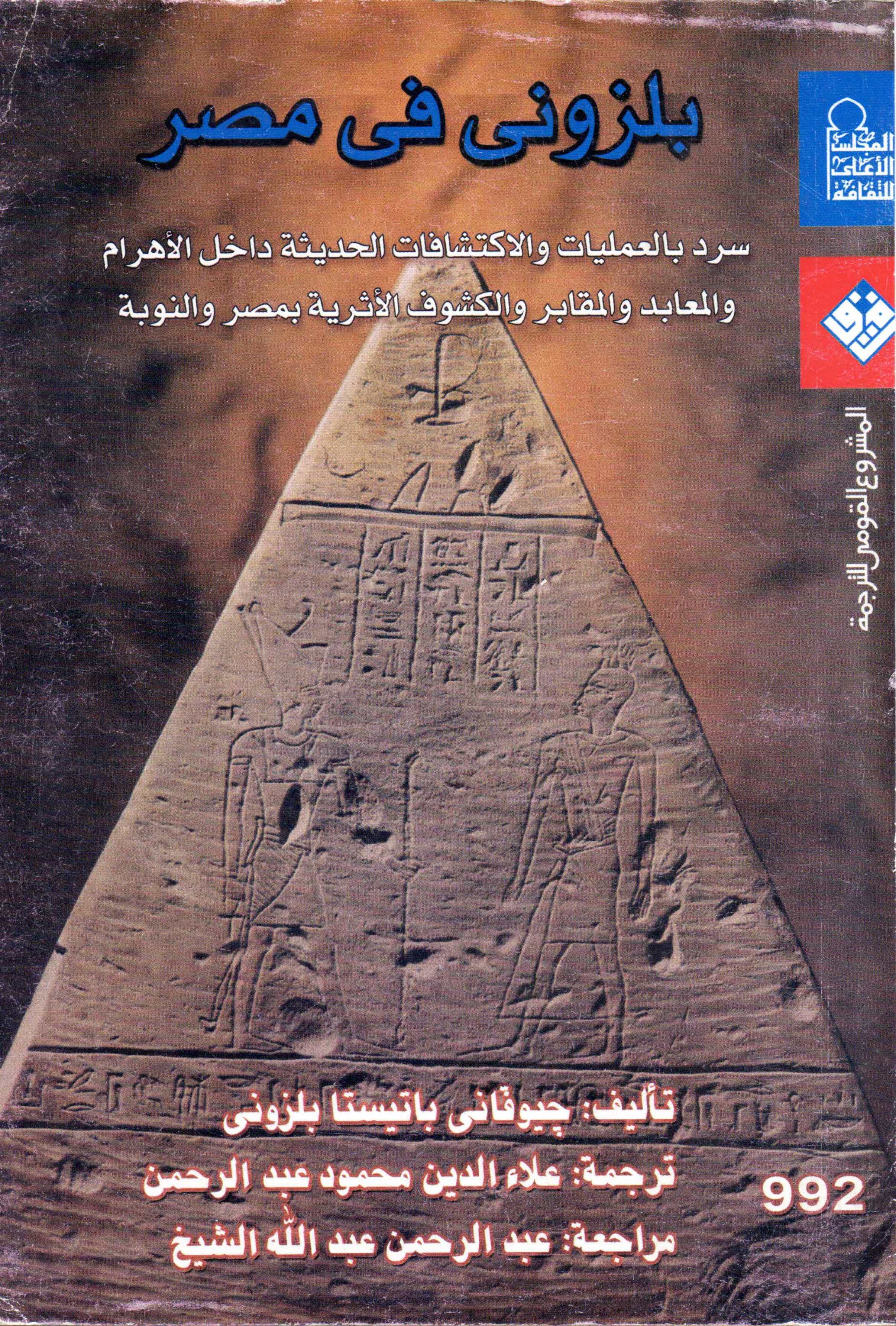

بلزونى فى مصر
سرد بالعمليات والاكتشافات الحديثة داخل الأهرام
والمعابد والمقابر والكشوف الأثرية بمصر والنوبة
المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومى للترجمة
تأليف: چيوڤانى باتيستا بلزونى
ترجمة: علاء الدين محمود عبد الرحمن
مراجعة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ
992







من سخرية الأقدار أن هذا الكتاب الذى يطالعه القارئ العربى لأول مرة لم ينشر أساسا إلا بهدف إعلام القارئ الأوروبى بإنجازاته الأثرية فى مصر، والتى بدأ بعض الرحالة الأوروبيين فى نسبتها إلى أنفسهم فى الصحافة الأوروبية، نجد أن هذا الكتاب يعتبر اليوم أول كتاب معروف حتى الآن فى علم المصريات الحديث يورد فيه بلزونى الأثرى بالصدفة ملاحظات تصيب تارة وتخطئ تارة أخرى عن أصل الأهرام أو التحنيط أو تمثال رمسيس الثانى (ممنون الصغير) إلى جانب تحديده لموقع مدينة برنيس القديمة. وفى عام ١٨١٨ أصبح بلزونى أول إنسان يتمكن من دخول هرم خفرع فى عصرنا الحديث، كما كان من أوائل الأوروبيين الذين زاروا واحة سيوة.

الغلاف: هنـد سمير

المشروع القومى للترجمة

بلزونى فى مصر

سرد بالعمليات والاكتشافات الحديثة داخل الأهرام والمعابد والمقابر والكشوف الأثرية بمصر والنوبة

تـأليـف : جيوفانى باتيستا بلزونى
ترجمـة : علاء الدين محمود عبد الرحمن
مراجعة : عبد الرحمن عبد الله الشيخ



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٩٩٢
- بلزونى فى مصر
- جيوفانى باتيستا بلزونى
- علاء الدين محمود عبد الرحمن
- عبد الرحمن عبد الله الشيخ
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

Narrative of the
Operations and Recent Discoveries
within the
Pyramids, Temples, Tombs, and Excavations,
in Egypt and Nubia
and of A
Journey to the coast of the red
Sea, in Search of the
Ancient Berenice;
and Another to
The Oasis of Jupiter Ammon
by : G. Belzoni
Original Publisher : John Murray, London, 1820

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
Tel. : 7352396 Fax : 7358084 E-Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتـــويات

الرحلة الثانى

الرحلة الثالثة

الرحلة إلى البحر الأحمر

سرد أحداث أخذ المسلة من جزيرة فيلة إلى الإسكندرية

الرحلة إلى واحة سيوة

استهلال

جاء حرصي على تأليف هذا الكتاب بنفسي لأنني وصلت إلى اكتشافاتي دون مشاركة من أحد، رغم أن القارئ - وهو في ذلك على حق - سيصفني بالجرأة والحماقة. ولعلّ جمهور القراء يفيد من أمانتي في سرد الأخبار رغم ما فقدته الرواية نفسها من بساطة وجمال. أنا لست إنجليزيًا، إلا أنني أُفَضِّلُ أن أقدم لقرائي - وأنا على هذا قادر - تفصيلاً برحلاتي في مصر والنوبة وساحل البحر الأحمر والواحة بدلاً من أن يسيء عرض مقصدي منه أحد غيري. فكل أملي أن يتضح المقصد أمام الجميع. لن أذكر شيئًا في هذا الكتاب سوى ما حدث لي كاملاً في تلك البلاد في الفترة ما بين عامي ١٨١٥ و ١٨١٩ . وسيعطي وصفي للوسائل التي انتهجتها في أعمال البحث، والصعاب التي واجهتني، وكيفية التغلب عليها فكرةً سليمةً إلى حد ما عن عادات وتقاليد مَنْ اضطررت للتعامل معهم. ربما أَفَضْتُ في الحديث عن العقبات التي ألقاها خصومي في طريقي بدافع الحقد والخداع، دون مراعاة أن الجمهور لن يعبأ بخلافاتي الشخصية إلا قليلاً، إلا أن تلك الخلافات بدت لي - بالطبع - أهم ما جرى على الساحة من أحداث في تلك البلاد. ما آمله أن يشاركني القارئ قليلاً في تلك الحوادث خاصة حينما أخبره أنني اضطررت للرحيل عن مصر قبل استكمال خططي بسببها.

عليَّ أن أعتذر أيضًا عن الملاحظات القليلة المتواضعة التي غامرت بوضعها في الكتاب عن بعض الموضوعات التاريخية، ذلك أنني أَلِفْتُ منظر المعابد والمقابر والأهرام لدرجة جعلتني أحاول تكوين رؤية عن أصل هذه الآثار وأسلوب بنائها. ولعل الدارس المتخصص والرحالة المثقف يتبسم بسخرية من آرائي الجريئة، لكن هل يتفق هؤلاء أنفسهم دائمًا في الرأي حول أمور من هذا القبيل، وإن كانت أقل منها صعوبة؟ ألَّف الرحالة كثيرًا عن مصر والنوبة في القرن الماضي ومنهم دينون Denon ورجال التنقيب

الفرنسيون الذين لم يترك وصفهم العام لهذه البلاد شيئًا إلا وخصَّهُ بذِكْر، ومستر هاميلتون Mr. Hamilton الذى أشهد له بالدقة شهادة صدق. لكن كيف لى أن أوفى المرحوم الشيخ بيركهارت Burckhardt حقه، هذا الرجل الذى تعرف إلى لغة هذه الشعوب وعاداتها لدرجة أن أيًا منهم لم يشك للحظة أنه أوروبى؟ وجاء وصفه للقبائل فى هذه البلاد متناهيًا فى الدقة حتى إنه لم يترك أى فرصة، أو كاد، لمزيد من الملاحظات عن مصر الحديثة والنوبة.

لدىَّ ملحوظة أخرى عن نفسى أخشى أن يظن القارئ أنها صادرة عن شخص يملؤه الغرور والكِبْر، وهى أنه لم تتح الفرصة لأى رحالة لدراسة تقاليد السكان الأصليين لهذه البلاد كما أتيحت لى؛ فلم يضطر أحد من قبل للتعامل مع هذه الشعوب بمثل هذه الصورة الغريبة. كان البحث عن الآثار شغلى الشاغل دائمًا، ولاحظت فى شتى التعاملات مع هذه الشعوب الشخصية الحقيقية للأتراك والعرب والنوبيين والبدو وقبائل العبابدة. وبذلك وُضِعْتُ فى ظروف مختلفة تمامًا عن الرحالة العادى الذى لا يفعل شيئًا سوى تدوين ملاحظاته عن البلد وآثارها بدلاً من إقناع هؤلاء الجهلة والمؤمنين بالخرافات من الناس بالعمل الجاد الشاق والاشتغال بأعمال كانوا عنها فى غفلة تامة.

مسقط رأسى مدينة بيدوا، لكنى أنحدر من أسرة من روما استقرت هناك منذ سنوات طويلة. أجبرنى الوضع والاضطرابات فى إيطاليا فى عام ١٨٠٠ – وهو أمر معروف لا يتطلب منى أى تعليق – على الرحيل. ومنذ ذلك الحين، زرت أجزاء مختلفة من أوروبا وعانيت من تقلبات الأحوال. قضيت معظم أيام شبابى فى روما – الموطن السابق لآبائى وأجدادى – لأننى كنت أعد نفسى لأكون راهبًا، لكن مباغتة الجيش الفرنسى لتلك المدينة بدَّل مسار تعليمى. ومنذ ذلك الوقت، صرت سائحًا جوالاً كُتِبَ عليه السفر. أعانتنى أسرتى بالمال بين الحين والآخر، وقررت نظرًا لعدم ثرائهم ألا أشكل عبئًا عليهم والعيش من عمل يدى وبما لدىَّ من معلومات فى مختلف فروع المعرفة. صرفت معظم اهتمامى إلى علم الهيدروليكا الذى تلقيته فى روما، ووجدت أن معرفتى بهذا العلم جاءت لصالحى بصورة كبيرة، بل كانت السبب الفعلى لذهابى لمصر. ذلك أننى كنت على علم لا بأس به بِعِظَمِ استفادة ذلك البلد من الماكينة الهيدروليكية

لرى الحقول التى لا تحتاج إلا الماء كى تنتج فى كل أوقات السنة. لكن لم تكن تلك إلا أمنيات. وفى عام ١٨٠٣ وصلت إلى إنجلترا، وتزوجت بعدها بفترة وجيزة، وقضيت بها تسع سنوات، قررت بعدها أن أسافر إلى جنوب أوروبا. اصطحبت زوجتى معى وزرنا البرتغال وإسبانيا ومالطة وأبحرنا من مالطة إلى مصر التى قضينا فيها الفترة من ١٨١٥ وحتى ١٨١٩، وفى هذا البلد ساعدنى الحظ على اكتشاف الكثير من بقايا آثار تلك الأمة القديمة، ونجحت فى فتح واحد من هرمى الجيزة الشهيرين بالإضافة إلى كثير من مقابر الملوك فى طيبة الأقصر. من بين هذه المقابر - وفقًا لرأى أحد أكثر علماء العصر فى الآثار تميزًا - قبر الملك بسمتك **Psammuthis** وهو فى هذه اللحظة أهم وأكثر الآثار فخامة واكتمالاً فى ذلك البلد. أما التمثال النصفى لممنون[١] الشاب **Memnon** الذى أحضرته من طيبة فهو فى طريقه الآن إلى المتحف البريطانى، وكذلك التوابيت المصنوعة من المرمر الأبيض التى عُثِرَ عليها فى قبور الملوك فى طريقها إلى إنجلترا.

فتحت معبد أبى سمبل[٢] **Ybsambul** بالقرب من الشلال الثانى فى النيل، ثم قمت برحلة إلى ساحل البحر الأحمر ومدينة برنيس، بعد ذلك قمت برحلة قصيرة إلى الواحة الغربية. ركبت السفينة الآن للرحيل إلى أوروبا لأعود إلى وطنى وأحضان أسرتى بعد غياب عشرين عامًا، ومن هناك استأنفت الرحلة إلى إنجلترا.

وعند وصولى إلى أوروبا، اكتشفت الكثير من الأخبار المغلوطة التى وصلت للجمهور عن أعمال البحث والتنقيب التى اشتغلت بها فى مصر، لذا كان من واجبى أن أنشر سردًا واضحًا للأحداث؛ فإذا أراد أحد أن يتساءل عن صحة قولى، أتمنى أن يكون ذلك صراحةً حتى أتمكن من إثبات حقيقة ما أقول.

(١) فى الأساطير الإغريقية، ممنون هو ملك إثيوبيا وابن الأمير الطروادى "تيثونوس" وأمه هى "إيوس" إلهة الفجر. قاد ممنون جيشه لمساعدة طروادة فى السنة العاشرة من حرب طروادة. قاتل ممنون فى هذه الحرب ببسالة حتى قتله البطل الإغريقى "أخيل". لكن الإله "زيوس" أراد أن تقرَّ عين أمه فجعله خالدًا لا يموت. وعُثِرَ على تمثال كبير بالقرب من طيبة فى مصر يقال إنه يمثل ممنون. [المترجم]

(٢) من الواضح أن أهل المنطقة كانوا ينطقون اسم المعبد هكذا: يبسامبول أو يابوسمبل . [المراجع]

الرحلة الأولى

أبحرنا من مالطة يوم ١٩ من مايو عام ١٨١٥، ووصلنا إلى الإسكندرية يوم ٩ من يونيو من العام نفسه. تشكلت صحبتي من زوجتي السيدة بلزوني وأنا وجيمس كيرتن، وهو غلام جلبته معي من أيرلندا. وكان السبب الرئيسي لذهابي إلى مصر مشروع إنشاء الماكينات الهيدروليكية لري الحقول باتباع نظام أسهل وأكثر توفيراً للمال من النظام القائم في تلك البلاد. أخبرنا القبطان عند دخولنا ميناء الإسكندرية أن الطاعون ضرب المدينة. كانت هذه الأخبار السرية ناقوس خطرٍ بالنسبة لأوروبي لم يَزُرْ هذه البلاد من قبل. لم ننزل إلى البر حتى اليوم التالي؛ لأنني أردت أن أجمع بعض المعلومات عن حالة هذا الوباء، وجاء رجلان أوروبيان بالقرب منا في قارب، وأخبرنا بأن الوباء يختفي بسرعة، فنزلنا، وفقًا لما سمعناه، إلى الشاطئ - بحذر شديد - لأننا اضطررنا للمرور بتلك البلدة في طريقنا إلى الأوكسال Occale الفرنسي؛ حيث كان علينا أن نخضع للحجر الصحي. لحسن الحظ أن عيد القديس جون (يوحنا) الموافق يوم ٢٤ من يونيو لم يكن بعيداً، ومن المفترض أن ينتهي الطاعون في ذلك اليوم. ويرجع بعض الناس المؤمنين بالخرافة ذلك إلى قوة القديس نفسه، لكن من المعروف للجميع أن الحرارة الشديدة توقف الطاعون تماماً كما يوقفه موسم البرد.

كان بارابراس Barabras "ريس" السفينة وطاقمها مسئولَيْن عن الذهاب بنا والتوقف حيثما نشاء، وكانوا يتقاضون أجرهم بالشهر حتى يتمكنوا من الحصول على قوتهم من الطعام. أما بالنسبة للإنكشاري[1] التابع للباشا، فإننا وجدنا أنه لم يكن ذا

(١) الإنكشاري Janizary Janissary : كلمة تطلق على مجموعة من الجنود المدربين تدريبًا عاليًا في عهد الإمبراطورية العثمانية. وقد اشتقت كلمة "إنكشاري" في صيغة المفرد من مصطلح تركي معناه "الجندي الجديد" (يطلق عليهم ايضًا اليكنجرية أو الينكجرية من Yen بمعنى جديد و Kerry بمعنى عسكر أي =

فائدة تُذكر لنا (لم يكن يقوم بأى عمل سوى معاملة الكلاب الأجنبية[٢] بجرأة ووقاحة)، لذا أرسلناه ثانية إلى الباشا بعد بضعة أيام من التجربة.

صاحب مغادرتنا لبولاق رياح عكسية، وقلما تهب هذه الرياح عند الإبحار فى النيل جنوبًا لأن الرياح الشمالية هى التى تسود المنطقة خلال تسعة أشهر من السنة على الأقل. مررنا بجزيرة الروضة ومصر القديمة وكل الأهرامات، وكنا نتقدم ببطء لدرجة أننا وصلنا إلى التبين فى أربعة أيام، وهى قرية تقع على الضفة الشرقية أمام دهشور. توقفنا فى هذا المكان قبل الأوان بكثير لأن الرياح لم تسمح لنا بالاستمرار، وتصادف وجود موقع عالٍ مكننا من إلقاء نظرة من بُعد على القاهرة وأهرام الجيزة وسقارة ودهشور. تحينت الفرصة لرسم لوحة أو اسكتش أقدمها بكل تواضع للقارئ (انظر لوحة رقم ٢٢). وبعد مضى يوم اقتربنا من الفشية Lafachie حيث ذهبنا لرؤية خيام البدو. وبمجرد أن سمع البدو أننا لسنا إلا رحالة نبحث عن الآثار، تصرفوا معنا بأدب ولطف شديدين بأقصى ما يستطيعه هؤلاء الناس. وعلى الفور علِمَ البدو من خدمنا وطاقمنا بما نعمل، فلا سرٌ يمكن الاحتفاظ به فى هذه البلاد بسبب هؤلاء. أخبرنا البدو بوجود تمثال نصفه مدفون فى الرمال رأوه بأنفسهم فى البُرُمْبُل Boorumbol وهى القرية التالية لقرية الفشية؛ فذهبنا فى اليوم التالى إلى هذه القرية،

= العسكر الجديد). قام أورخان أو أورهان – الذى أسس والده الدولة العثمانية – بتنظيم الإنكشارية باعتبارهم حرسًا فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى (١٣٢٦م). وقد تلقى الجنود دروسًا فى العقيدة الإسلامية كما شُغلت الرتب بالعبيد والأهالى الذين وقع عليهم الاختيار وبعض الأسرى. ثم تطور الإنكشاريون – بحلول القرن الخامس عشر – ليصبحوا من أقوى الوحدات العسكرية الموجودة فى العالم. وقد خدموا الحكام العثمانيين حتى عام ١٨٢٦م حيث ثاروا على السلطان محمود الثانى فى الأستانة (استنبول) فقضى عليهم. من المعروف أن الإنكشارية كانوا عزابًا فى عهد السلطان أورخان، ثم سمح لهم السلطان سليم بالزواج بشرط كبر السن، ثم أطلق حق الزواج. وارتبط الإنكشارية بالطريقة الصوفية البكتاشية. [المترجم نقلاً عن كتاب "آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى لابن زنبل الرمّال – تحقيق عبد المنعم عامر قدم له د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ – الألف كتاب الثانى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٨].

(٢) وردت فى الأصل الكلاب المسيحية Christian dogs وفى العبارة تعبير لا يحتاج إلى مزيد من التعليق عن مستوى التسامح الدينى فى تلك الفترة من تاريخ مصر! [المترجم].

وتزلنا إلى البر بسبب الرياح الخفيفة، ورحنا نبحث عن التمثال المذكور. وما إن وصلنا حتى رأينا صخرة ليس لها شكل محدد. أخبرنا الفلاحون أنها كانت يومًا ما جملاً، ثم حوله الله إلى حجر. كما كانت الصخور الأصغر التى تقع حولها ثمار بطيخ كان يحملها الجمل، وتحولت بدورها إلى حجارة. وبعد استمتاعنا الشديد بالحكاية، عدنا إلى سفينتنا الشراعية.

وصلنا فى المساء إلى مايموند Meimond ، استمعنا بعدها إلى العزف على الطار، وذهبنا لمشاهدة احتفال عربى فى القرية (انظر لوحة رقم ٣٠) حيث دعينا للوقوف أمام جمهور المشاهدين. وكان المشاركون فى العرض حوالى ثلاثين رجلاً يقفون فى صف واحد ويصفقون بأيديهم معًا حتى يُشَكِّل التصفيق نوعًا من المصاحبة لأغنيتهم المكونة من ثلاث أو أربع كلمات، ويحافظ هؤلاء على نوع من الحركة الدائمة الغامضة بوضع إحدى القدمين قبل الأخرى دون تغيير أوضاعهم. وتقف امرأتان أمام الرجال تحملان خناجر فى أيديهما، وتجريان – فى حركة مستمرة أيضًا – نحو الرجال ثم ترتدان عنهم بحركة غريبة، ملوِّحات بالخناجر وبأرديتهما. وظلوا على ذلك لمدة طويلة من الوقت لدرجة أننى تعجبت من قدرتهم على بذل هذا المجهود. كان هذا نوعًا من الرقصات البدوية، وهو أكثر أنواع الرقص الذى شاهدته فى مصر احتشامًا، لكن بمجرد أن انتهت هذه الرقصة حتى بدءوا رقصة أخرى على الفور – وأظن أن ذلك كان لإرضائنا – حسب المودة السائدة فى البلاد بما عوض تمامًا الأدب والاحتشام غير العادى فى الرقصة الأولى، إلا أننا عدنا إلى قاربنا ونحن متقززين أكثر منا راضين عن هذه الرقصة.

هبت رياح جنوبية قوية لمدة ثلاثة أيام، لذا لم نتقدم سوى بضعة أميال، ولم نصل إلى المنيا حتى الخامس من مارس. كان من الضرورى أن ننزل بها حتى نقابل حامد بك قائد كل المراكب فى نهر النيل. وهو يسمى نفسه أدميرال أو أمير بحر النيل، ويظن أنه لا يقل عظمة عن أى أدميرال بريطانى فى البحر. تصادف فى أحد الأيام وفى إحدى الحفلات المسيحية فى القاهرة أن جرى الحديث عن السير سيدنى سميث، فقال حامد بك "آه! السير سيدنى راجل ذكى وقوى ورتبته زيى تمام". كان علينا أن نحصل على

الحماية من هذا القائد العظيم حتى يضمن ريس سفينتنا عدم التضييق على قاربه أثناء استعمالنا لها. ووجدناه – أى حامد بك – جالساً على مقعد خشبى كبير يصاحبه اثنان أو ثلاثة من ملاَّحيه، ورضخ لطلبنا مُلَمِّحًا أنه يريد زجاجة من الرُّم (عرق السُّكر)(٣)، فأرسلنا له اثنتين ففرح بهما وطرب، ثم ذهبنا إلى بيت الدكتور فالسوماكى Valsomaky الذى يستخلص المشروبات الروحية aqua vita ويبيع الدواء بالجملة والتجزئة، كما يجمع الآثار من الفلاحين من كل أنحاء البلاد ويعرضها لأى أحد يريد أن يشتريها، لذا كانت زيارتنا له أملاً فى شراء بعض من هذا القبيل. وهناك رأينا قِبْطِيَّيْن فى زى الفرنسيين حيث كانا فى فرنسا مع الجيش، وكانا يعملان لدى مستر دروتى Drouetti القنصل الفرنسى السابق بالإسكندرية الذى أرسلهما جنوبيًا فى النيل بحثًا عن الآثار.

غادرنا المنيا على الفور لأننا لم نرغب فى التعامل مع هؤلاء الرجال، ووصلنا فى مساء اليوم التالى إلى الرِّيْرمون Eraramoun بالقرب من الأشمونين وهى مدينة هرموبوليس القديمة، حيث ذهبنا لرؤية مستر براين Mr. Brine الإنجليزى الذى أدخل صناعة السكر إلى البلاد. نجح براين، بعد مواجهة الكثير من العقبات، فى تنقية السكر وتكريره بدرجة عالية. وتكمن الصعوبات الرئيسية التى واجهته فى التغلب على الألاعيب والحيل التى مارسها ضده تجار السكر من العرب فى هذه البلاد، وتخليص السكر من رائحة معينة تنتقل له من الطين بما يؤثر سلبيًا على إدخال السكر إلى أوروبا رغم أنها رائحة غير كريهة. وفى منزل هذا الرجل، علمنا أن عميلىَ مستر دروتى انطلقا حثيثًا

(٣) الرُّم أو عرق السُّكر rum : مشروب كحولى مسكر يتكون من مستخلص منتجات قصب السكر المتخمرة المختلفة. أكثر مكونات عرق السكر شيوعًا هى المولاس والماء أو السكر والماء. ويصنع نوع آخر من عرق السكر من تخمر خليط من الزبد المتكون من عضير قصب السكر الخام عند تسخينه مع المولاس والسكر والماء وما يتبقى بعد عملية تكرير السكر. وبعد استخلاص عرق السكر، فإنه يصبح شرابًا كحوليًا ذا لون أبيض أو أصفر خفيفٌ تتفاوت درجة قوته من ٨٠ إلى ١٥٠ درجة (٤٠ إلى ٧٥ بالمائة كحول). يصنع عرق السكر داكن اللون بإضافة مقدار صغير من الكراميل أو بالحفظ مدة طويلة فى أوعية خشبية معينة. ويعتمد مذاق هذا المشروب على زبدية الإيثيل، وهى مادة من الأسترات العضوية. وأهم الدول المصدرة لعرق السكر بربادوس وترينداد وجمايكا وجويانا وكوبا وبورتوريكو. [المترجم نقلاً عن موسوعة إنكارتا الالكترونية].

إلى طيبة كما علمت الدوافع وراء هذا العمل؛ فقد أراد هؤلاء أن يصلوا إلى هناك قبلنا ويشتروا كل ما تكدّس لدى العرب من آثار من الموسم السابق؛ وبذلك لن يكون أمامنا أية فرصة لشراء أى شيء عند وصولنا. إلا أن سبب عدم شعورى بالارتياح لم يكن هذا الخبر، بل لأنه اتضح لى أن البقعة التى نَقَّبْتُ وعثرت فيها على تماثيل أبو الهول وغيرها من التماثيل كانت مليئة بأشياء تستحق مخاطرة التنقيب، ولا شك عندى أنهم لو وصلوا إلى طيبة قبلنا، فسوف يحصلون على حدق الحفر فى تلك الأرض، وبذلك لن يكون لنا أى حق فى التنقيب فيها بحثًا عن الآثار.

إيقاع السفر على الحمير أو الخيول أكثر سرعة بمراحل من تقدم قاربنا فى النيل، فمن المؤكد إذًا انعدام أية فرصة لاستعادة بقعة الأرض القديمة التى عثرت فيها على التماثيل. لذلك لم أُطِلْ التفكير، وحزمت الأمر على الانطلاق فورًا والسفر ليل نهار أملاً فى الوصول إلى المكان قبلهم. ووفقًا لذلك أحضرنا حصانًا وحمارًا على وجه السرعة، وأخذت معى خادمى اليونانى تاركًا الحرية لمستر بيتشى Mr. Beechey فى الصعود إلى القارب وقتما يشاء. فى تلك الأثناء كان الليل قد انتصف، لكننا انطلقنا على الفور حتى وصلنا فى المساء التالى إلى منفلوط. ومن هذا المكان أسرعنا دون تأخير ووصلنا إلى أسيوط قبل بزوغ ضوء الصبح الأول. وعند شروق الشمس ركبنا رحالنا ثانية ووصلنا بعد الغروب إلى طهطا. استرحنا فى الدير بطهطا لمدة أربع ساعات، ثم بدأنا الرحلة بنشاط فى ضوء القمر ووصلنا إلى جرجا فى الليل. استأنفنا رحلتنا فى تمام الساعة الواحدة صباحًا لنصل إلى فرشوط فى ساعة الظهيرة. وبعد تأخير دام أربع ساعات نتيجة عدم توافر ما نركب من دواب، وصلنا ليلاً إلى قرية تبعد ثلاثة فراسخ عن بَهْجورة حيث استرحنا لمدة ساعتين، انطلقنا بعدها فى ضوء القمر ووصلنا إلى قنا فى الساعة الثالثة. انطلقنا قدمًا بعد أن تناولنا طعام الغداء واسترحنا لمدة ساعتين فى أبنود(٤) Benut ليلاً، ووصلنا إلى الأقصر فى ظهر اليوم التالى.

(٤) أبنود : من النواحى القديمة اسمها القديم ، كما وردت فى قاموس جوتييه، وهى قرية من قرى مصر، دون قفط، ذات بساتين ونخل ومعاصر لقصب السكر. [المترجم نقلاً عن محمد رمزى - القاموس الجغرافى للبلاد المصرية - الهيئة العامة المصرية للكتاب - ١٩٤٥]

استغرقت رحلتنا كلها خمسة أيام ونصف، نمت خلالها إحدى عشرة ساعة، وباقى الوقت قضيناه فى الإسراع على ظهور الحمير والخيول أو الجمال أيًا ما استطعنا الحصول عليه فى طريقنا. أما أهم الأماكن التى مررنا بها فى هذه الرحلة فهى منفلوط وأسيوط وأبو تيج، وطهطا والمنشية وجرجا وفرشوط وبهجورة وقنا وقفط وقوص. أظن أن أى شخص زار هذه البلاد قادر على تصور مدى الصعوبات التى يتعرض لها أى إنسان يسافر فى أراضٍ محرومة تمامًا من ضروريات الحياة. إلا أن آباء أديرة التبشير Propaganda فى طهطا وجرجا وفرشوط قدموا لى الكثير من العون فى هذه الرحلة من دواب للركوب، ووفروا لنا الطعام للطريق فور وصولى مما جعلنى أشعر بالامتنان العميق نحوهم. ومن عادة العرب الترحيب بكل غريب عند حضوره طعامهم، وقد استفدت بوجه عام من هذه العادة متى سمحت الفرصة، لكن فى هذه الحالة سيؤدى ذلك إلى ضياع الوقت الذى حرصت أشد الحرص على كسبه. أما فى الأماكن التى لا يوجد بها أى دير فذهبت إلى بيت شيخ البلد حيث يجتمع كل المسافرين من كل حَدْبٍ وصَوْب ليلاً. كنت مرهقًا ومتوترًا إلى حد كبير لدرجة أننى قبلت أى مكان للاستراحة؛ بوجه عام كانت الأرض فراشى، والرفاهية هى أن أتمكن من الحصول على حصيرة أنام عليها. وذات ليلة عاد إلىَّ نشاطى بعد حصولى على بضعة عيدان من قصب السكر؛ فبعد أن تبصق المُصَاصَة حيث يستخلص العصير تصبح هذه المُصَاصَة طريةً للغاية بما يُشَكِّلُ فراشًا لا بأس به. واستمتعت أيضًا بقصب السكر كنوع من الحلويات بعد وجبة من الخبز والبصل. وقصب السكر طيب المذاق عند تناوله للمرة الأولى، لكن عند عصره لاستخلاص العصير يخرج منه حمض غير مرغوب فيه ولا مذاق له تقريبًا. ألا أن أهل هذا البلد يتناولونه باستمرار، وهم مغرمون به كما يباع فى الأسواق كنوع من الفاكهة عندما يحل الموسم.

قابلت فى الطريق بين أسيوط وطهطا مجموعة من فرسان البدو. ولم تتسنَ لى الفرصة من قبل أن أحظى بلقاء هؤلاء الرجال فى هذه المرة، وأحب أن أبين أننى لم أقابل أفضل من هؤلاء الرجال فى حياتى. كانت خيولهم قوية للغاية رغم هزالها إلى حد ما. أما راكبو الخيل فكانوا مُرْتَدِينَ نوعًا من الرداء المصنوع من الصوف الأبيض المحلى

لا يغطى سوى الرأس وجزء من الجسم. للخيول سروج صغيرة للغاية بخلاف عادة هذه البلاد، وكانوا مسلحين بالبنادق والمسدسات والسيوف. وعندما ذهبوا للقاهرة للدخول في خدمة الباشا، لم يجد الباشا وسيلة أكثر ملاءمةً للسيطرة على هذه المجموعة من قطاع الطرق من تقديم مبلغٍ لا بأس به من المال لهم إلى جانب الخيول والأسلحة وإرسالهم إلى مكة. وآتى هذا العرض ثماره المرجوة، فقد تمسك به كل الشباب من الرجال تاركين الشيوخ والنساء فى الصحارى. وبهذه الطريقة يضمر الباشا أمانيه فى التخلص من القسم الأعظم - إن لم يكن من كل - من هؤلاء الناس المقوتين فى هذه البلاد، الذين يستفيدون دائمًا من أعمال السلب والنهب فى حالة حدوث أى عصيان مسلح. مررت على خيامهم وقت اجتماعهم بالباشا، وبذلك أفلتُّ دون أن أتعرض إلى أى أذى، بل وربما دون أن يلاحظنى أحد لأننى تغطيت ببُرْنُس كبير مطرز على الطراز البدوى، وكانت لحيتى طويلة جدًا. تتكون خيام هؤلاء البدو من أربع عصيات مثبتة فى الأرض يصل ارتفاع كل منها حوالى ياردة واحدة[٥]، ويثبت بها غطاء أو شال كسقف، وشال أو غطاء آخر من الخلف كى يشكل حماية لهم من الشمس والرياح والندى. عادةً ما يَنْصِبُ هؤلاء خيامهم بالقرب من أى بقعة خصبة من الأرض، لكنها دائمًا فى أطراف الصحراء حتى يتمكنوا من العودة سريعًا إلى موطنهم الأصلى إذا ما باغتهم أحد بهجوم، فهم كالتمساح الذى يستمتع باليابسة، لكنه إن تعرض لمصدر إزعاج أو اقترب منه أى شخص، فإنه يغوص فورًا فى النهر حيث ينعم بالأمان. أما النساء فهن سافرات، والأطفال عراة تمامًا. البدو مقتصدون جدًا فى نظامهم الغذائى ولا يشربون أى نوع من المشروبات المُسْكِرة. إنهم عرب، لكن الاختلاف بينهم وبين عرب مصر كالاختلاف بين السيد والعبد. فالعرب المصريون اعتادوا على الطاعة، وجبلوا على ألا يفعلوا أى شىء حتى يجبروا عليه بالقوة؛ فهم خانعون مطيعون تحكمهم العصا دائمًا، وهم كسالى لأنهم غير مهتمين بأى شىء. أما العرب الهمجيون، فعلى العكس من ذلك، فى حركة وعمل دائب للحصول على ما يُطعمون به أنفسهم وحيواناتهم،

(٥) الياردة : مقياس للطول أقل قليلاً من المتر ويساوى ٣ أقدام و ٣٦ بوصة. [المترجم]

وحرب دائمة مع بعضهم البعض، لذا فهم يوظفون أفكارهم على الدوام فى تحسين فنونهم الدفاعية أو فى القيام بأعمال النهب والسلب.

لابد أن أذكر فى هذا المقام أحد الظروف التى أدت إلى حدوث الكثير من الحوادث غير السارة، وإلى ضياع الكثير من الوقت والجهد لدرجة أننى قررت ألا أعمل ثانية فى اكتشاف قبر آخر لأبيس. لم يكن ذلك إلا نتيجة لمترجم لم يشأ أن يجهد نفسه فى كتابة بضعة سطور. أذكر أننى توقفت فى أسيوط عند عودتى من طيبة إلى القاهرة، وقتما أرسل الدفتردار بك خطاباً على ظهر قاربنا إلى القنصل. طالبت القنصل قبل عودتى إلى الصعيد بضرورة إرسال بعض الهدايا إلى البك، وبالأخص الرد على خطابه المُرْسَل من أسيوط. إلا أن القنصل طلب مشورة مترجمه ظاناً أن هذا المترجم الذى استقر فى هذه البلاد لسنوات طوال سيعرف عادات هذا البلد أكثر منى، لكن هذا الرجل أخبر القنصل أنه لا داعى للرد على الخطاب لا لشىء إلا أن يوفر على نفسه جهد الكتابة. وذهبت احتجاجاتى سُدىً نظراً لاعتماد القنصل على هذه المشورة. فالبك الذى جُرِحَ كبرياؤه لعدم تسلمه أية هدايا أو رسائل كان ساخطاً على كل شىء ينتمى إلى طرفنا بصلة. أنا لا أقصد أن أنسب أى إهمال أو استهتار إلى القنصل لعدم إرسال هدية إلى البك لأننى أعلم أنه كان ينوى إرسال إحدى الهدايا إليه، لكن تفكير الدفتردار الجشع لم يترك مكاناً للمستقبل فى حسابه، خاصةً أنه لم يتسلم أى رد على خطابه – وهو لاشك على حقٍ فى أن ينتظر الرد. ومن ناحية أخرى، استغل خصومنا كل فرصة ولم يدخروا وُسْعًا فى اجتذاب نوايا البك الحسنة بإرسال الهدايا ونحوها باستمرار حتى دعم مصالحهم صراحةً فى كل شىء. هذا وما تلاه من أحداث هو الوضع الحقيقى للقضية، وليخترع الكونت دى فوربان قصة أخرى ليخفى وجه الحقيقة إن استطاع. عرفت حين وصولى إلى الأقصر أن الدفتردار رحل لتوه بعد أن استفسر عن الأرض التى اكتشفت فيها تماثيل أبى الهول، وأمر بإدارة أعمال التنقيب فيها، وعاد إلى أسيوط تاركاً طبيبه الدكتور موروكى **Moroki** مواطن مستر دروتى المنحدر من بيدمونت للإشراف على العمل. اندهشت كثيراً لما تعرضنا له من استغلال بسبب هذه الخديعة، ومن الدكتور الذى اشترك فى المؤامرة، والخَجِل – على ما أظن – من سلوكه الخسيس

حينما أخبرنى أن ما عثر عليه سيعطيه للبك الذى استقر لديه اعتقاد بأنه تاجر آثار. كشفت أعمال التنقيب عن الكثير من تماثيل أبى الهول، ولا يزال هناك المزيد من التماثيل لم تكتشف بعد، بينما اضطررت أنا للوقوف كمجرد متفرج لأعمال التنقيب التى تقام على نفس الأرض التى فتحتها أول مرة. إلا أن الكونت دى فوربان Forbin كان من السفه والحماقة لأن يؤكد اكتشاف أحد الرجال لتلك التماثيل، لكنه عاد ثانية للتعمية بقصص تافهة أخرى على شاكلته. عُثِرَ على الكثير من تماثيل أبى الهول فى أعمال التنقيب الخاصة بالدكتور، لكن أربعةً منها فقط جديرة بأن تُسْتَخرج. وبعد الانتهاء من أعمال الحفر والتنقيب، ترك الدكتور حارسًا على التماثيل، وعاد إلى أسيوط كما أمره سيده، لكنه ذهب قبل مغادرته إلى الجانب الغربى لطيبة وحظر على الفلاحين – مهددًا – بيع أى شىء للإنجليز. وعندما اكتشف الدكتور أننى اشتريت بالفعل بعض الآثار فور وصولى، استغل هذا الأمر للنكاية بى؛ وهو الأمر الذى لم ينسَه حتى هذا اليوم. كانت محصلة كل هذه التمثيلية عن البك والدكتور والتماثيل وأعمال التنقيب هى مجىء عملاء مستر دروتى (كما سنرى فيما بعد) واستيلائهم على التماثيل بمجرد وصولهم رغم إعطاء التماثيل للبك. وبعد فترة من الوقت، كتب الدكتور لى خطابًا يستفسر فيه عن حقيقة استيلاء عملاء مستر دروتى على التماثيل التى عثر عليها فى الكرنك متظاهرًا بأنه مصدوم تمامًا من هذا التصرف. اتضح لى جليًا أن الدكتور لم يُرِدْ أن يفتح عينىَّ على ما حدث، بل وعلى العكس، أراد أن يعمينى كليةً بأن يجعلنى أصدق أنه لا يد له فى المؤامرة. لكن ما عساه أن يقول عندما رأى كما رأينا مستر دروتى نفسه قادمًا إلى الأقصر ليأخذ وبكل برود تلك التماثيل أو تماثيل أبى الهول نفسها مدعيًا أنها من حق الدفتردار؟ سأترك المسرحية الهزلية كى يفسرها لنا الصادق الكونت دى فوربان الذى قد يخترع قصة فارغة أخرى للتغطية على حيلة مُثِّلت فصولها على الملأ.

لم أكن عاطلاً عن العمل فى ذلك الوقت حيث عينت عددًا من الرجال للعمل فى كلا جانبى طيبة، وذهبت إلى إرمنت لأقدم للكاشف(٦) الخطاب الذى حملته إليه من القاهرة.

(٦) الكاشف : جمعها كُشَّاف وكَشَفَة (بفتح الكاف والشين والفاء)، منصب الكاشف كان يفوق منصب والى الإقليم فى عهد السلطنة المملوكية. [المترجم نقلاً عن كتاب "آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغورى =

استقبلني الكاشف منذ لحظة وصولي بكثير من اللطف والتوقير، وبعد إظهار الاحتفاء المعهود بين الأصدقاء، استغللت أول فرصة كي أريه الخطاب المحمول إليه من الباشا. انزعج الكاشف قليلاً في بادئ الأمر، وحرص بشدة على معرفة مضمون الرسالة، لكنه شعر بارتياح لما علم أنني لم أقدم أي شكوى ضده لأن سلوكه الحسن قبيل رحيلي شفع له إلى حد ما الأخطاء التي ارتكبها من قبل. ثم نكَّرته بما فعله قائمقام مدينة القُرْنَة. فأقسم أنه سوف يعاقبه، وبل وسيقيله من منصبه إن شئت. قلت له إنني لا أرغب أن يفعل هذا ولا ذاك بسببي، لكنني أرغب في إدارة أعمالي مستقبلاً دون إزعاج من أحد، وانتهينا إلى أنه سيصل إلى القرنة في الصباح التالي لتسوية الأمر بصورة مناسبة.

بعد ذلك قدمني إلى واحد من أولئك القديسين المدهشين (المقصود الأولياء أو الحواة) الذين يصنعون المعجزات بالجملة، ويمسكون بالعقارب والحيات وما إلى ذلك. أحضر هذا الرجل أفعى بلا أسنان، وكان الكاشف خائفًا جدًا عندما وضعها في حِجْره. أخذت أنا الحية وفتحت فمها دون أن أنطق بكلمة، وكان من ذلك أن فهمني صانع المعجزة حق الفهم. بعد ذلك ذهبنا إلى حجرة مظلمة لرؤية إحدى المعجزات. بدأ الرجل صلاة طويلة، وبعد دقائق معدودة مد يده في أحد أركان الغرفة واستخرج عقربًا لترتسم علامات الدهشة البالغة على وجوه الجمهور. كنت أراقب هذا الولي أو الحاوي صانع المعجزات عن كَثَبْ، ورأيت بوضوح ما حدث، لقد كان الرجل يخفي العقرب في كُم ردائه الواسع الكبير، فما إن أخرجه حتى بدا لنا أنه خرج من الحائط. ثم اصطحبنا الرجل لرؤية الحجرات في البيت كله، وقام بنفس الخدعة مرة أخرى. وفي حجرة منخفضة معينة ادعى ابن هذا الولي أو الحاوي **Santon** أنه عثر على أفعى صغيرة، لكنه لم يكن بارعًا كأبيه، إذ قنع بأن يخبرنا أن الحية ليس لها أسنان مما جعلني أتساءل أين يمكن للمرء أن يعثر على الحيات عديمة الأسنان في هذه البلاد. لاحظت أن الكاشف رجل ممن تنطلي عليهم أكثر الحيل والخدع بدائية. فقد أخبرني بالكثير من الحكايات السخيفة حقًا،

* مع سليم العثماني لابن زنبل الرمّال – تحقيق عبد المنعم عامر قدم له د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ – الألف كتاب الثاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٨].

ومن بين هذه الحكايات ما قاله إن أبناء طبقته كانوا رعية لأحد الملوك فى جبال القصر Cassara (الأقصر)، وكان لهذا الملك قوة خارقة لدرجة أنه لو هبت عليه العاصفة فى البحر، فإنها ما تلبث أن تعود للهدوء فى لحظة، وإن أحدثت قنبلة مدفع خَرْقًا فى السفينة، فإن أى ولى من أولياء الله الصالحين يمكنه أنه يسده، كما أن هؤلاء الأولياء يستحضرون بسحرهم أشراف البندقية، وكان أحدهم يعمل لدى السلطان بالقسطنطينية لما أعلن السفير الفارسى الحرب على الباب العالى، فقال الولى إنهم سوف يغلبون الفُرْس، فهو إذا ما مد إصبعه فَقَدَ ملك الفرس قدرته على الإبصار.

غادرت إرمنت قاصداً الأقصر، وفى الصباح التالى قابلت الكاشف فى القرنة حسب وعده، فأصدر أوامره إلى القائمقام بشأن كل أمر ضرورى، وبعدم تهديد الفلاحين إذا باعونى أيًا من أوراق البردى، وبإمدادى برجال للتنقيب فى أى مكان أريد. كان العمل يجرى فى الكرنك على قدم وساق، وبدأت فى أعمال الكشف عن أحد التماثيل الضخمة الجالسة أمام المعبد الثانى بعد طريق الكباش الواسع المؤدى إلى المعبد الكبير. وجدت بعد تنظيفه تمامًا أن ارتفاعه يبلغ ٢٩ قدمًا من أسفل الكرسى، وهو مصنوع من الحجر الكلسى الأبيض الصلد. كما وجدت عند قدم الكرسى تمثالاً جالسًا لامرأة يبلغ ارتفاعه سبع أقدام ربما كان لإيزيس. غطاء الرأس ذو الحجم الكبير مختلف عن عامة التماثيل المصرية، ويبدو من أسلوبه أنه يعود إلى عصر موغل فى القدم، كما أن الصدر منفصل من ناحية الخصر عن باقى الجسم والكرسى. استخرجنا الصدر وعقدنا العزم على استخراج الكرسى بمجرد وصول القارب بالمعدات. رأيت بعد إصدار الأوامر للعمال للعمل فى اتجاه آخر - حيث كنت آمل أن أعثر على شيء - أن الفرصة سانحة لأن أتفحص على مهل الآثار الفخمة الباقية من هذه الصروح العمرانية، فعند النظر إليها من بعيد لا يمكنك أن ترى إلا بوابات المعابد المرتفعة كالأبراج، والمداخل العالية، والمسلات التى تظهر فوق المجموعات المختلفة من أشجار النخيل الباسقة مباهية بعظمتها ولو من على بعد. يمتلئ قلب الزائر بالخشوع والرهبة عند الاقتراب من طريق الكباش المؤدى إلى المعبد الكبير؛ فحجمها الهائل يملؤه بالعجب والتبجيل لتلك الآلهة التى كانوا يعبدونها. تتخذ هذه التماثيل هيئة أُسودٍ لها

رؤوس الكباش، وهى ترمز إلى القوة والبراءة أى قوة الآلهة وطهرها. وحين تسير قدماً فى طريق الكباش تجد أمامك المعابد المرتفعة التى تؤدى إلى ساحات داخلية توجد بها تماثيل هائلة الحجم على كل من جانبى البوابة كأنها تحرس مدخل الأرض المقدسة، فإذا تقدمت فى المسير تجد المعبد العظيم المخصص لعبادة إله الخلق العظيم The Great God of Creation . كانت هذه المرة الأولى التى أدخل فيها هذا المعبد وحدى دون أن يقطع خلوتى ضجيج العرب[٧] الذين لا يتركون أى رحالة للحظة واحدة. خرجت الشمس من مخدعها، وامتزجت الظلال الطويلة الممتدة من الأعمدة المختلفة على تلك الأطلال مع أشعة الضوء التى انعكست على مختلف الجهات مكونة منظراً بديعاً تحار معه ريشة الرسام. تعطى لوحة رقم (٢٤) فكرة عامة عن تلك الأطلال الممتدة، فى حين تعرض اللوحة الصغيرة رقم (٣١) جزءاً صغيراً من داخل المعبد الكبير. استغرقنى التأمل كثيراً فى أشياء كثيرة للغاية. كنت وحدى فى مثل هذا المكان؛ فجالت بخاطرى أفكار من الروعة والمهابة لم أدرِ معها لفترة من الزمن هل لا زلت أقف على سطح الأرض أم أننى انتقلت إلى كوكب آخر.

رأيت أيضاً معبد دندرة، ولا زلت على اعتقادى أنه لا شىء يفوق هذا الصرح المعمارى من ناحية قوة بنائه وجمال تصميمه وشكله المعمارى، لكنى تهت هنا بين مجموعة من الآثار هائلة الحجم يكفى الواحد منها لأن يشتت انتباهى كله. فكيف لى أن أصف ما اعترانى من أحاسيس ومشاعر فى تلك اللحظة! أبدو وحيداً بين كل تلك الأشياء الأكثر قدسية فى العالم، بين غابة من التماثيل الضخمة الهائلة الحجم مزينة من كل جوانبها بتماثيل جميلة وزخارف متنوعة من أعلاها إلى أدناها، ويظهر اللوتس - الذى يعمل بمثابة رؤوس أو تيجان لتلك الأعمدة - بمظهره البارع الجمال متناسباً بأحسن ما يكون مع حجم الأعمدة مضفياً على المنظر أبدع الأثر. البوابات والجدران وقواعد التماثيل ودعامات الأعمدة مزينة أيضاً من كل جانب بأشكال رمزية محفورة بالحفر الغائر والبارز، وتمثل معارك حربية ومواكب وانتصارات واحتفالات وقرابين وأضاحى ترجع كلها إلى التاريخ القديم لهذه البلاد. ويعلن محراب المعبد المكون كله من

(٧) العرب أى الفلاحين أو الصعايدة وهو لا يقصد البدو. [المراجع].

الجرانيت الأحمر المصقول ومعه مختلف المسلات التى تقف أمامه للمار من بعيد: "هنا مهد القداسة وموطنها". والمداخل العالية التى تُرى من بعيد من بوابات هذه المتاهة المترامية الأطراف من الصروح المعمارية، ومختلف الآثار الباقية من المعابد الأخرى على مرمى البصر، كلها أخذت من نفسى مأخذًا؛ فانعزلت بخيالى عن سائر الأحياء، وارتفعت عاليًا عن كل الأشياء، ونسيت تمامًا تفاهات الحياة وحماقاتها. انتابتنى السعادة ليوم كامل مضى سريعًا كلمح البرق، لكن ظلام الليل تسبب فى تعثرى بقالب كبير من الحَجَر، وانكسر أنفى نتيجة لذلك. وجاء كسر أنفى ليزيل أثر السحر والافتتان ويعيدنى إلى وعيى مرة أخرى. كان الوقت متأخرًا حين عودتى إلى الأقصر، إلى كوخ أحد العرب الذى تخلى لى عن جزء من بيته وأعطانى حصيرة كانت بمثابة فراش ممتاز.

كان انتقالى من تلك الأطلال إلى كوخ هذا العربى أشبه بانتقالى من التفكير فى تلك الخواطر الرفيعة التى أثارتها رؤية الآثار فى مخيلتى إلى التفكير فى كيفية الحصول على طعام العشاء إن استطعت.

فى ذلك الوقت وصل عميلا مستر دروتى، وشرعا على الفور بمجرد وصولهما فى العمل على استخراج تماثيل أبى الهول التى كانت موجودة فى مكان أعمق والتى اكتشفها الدكتور، وبدءوا العمل على نطاق واسع. ترك البك أوامره للقائمقام والشيوخ، فالآن قلما نستطيع أن نأتى بأحد الفلاحين. واجهتنى منذ اللحظة التى قدم فيها هذان الشخصان إلى طيبة سلسلة متصلة من الظروف الصعبة التى لا أستطيع وصفها إن أردت الوصف. ويكفى أن أقول إن البك الحاكم على البلد بأكملها استهدف – ولاشك – أن يعارض آراءنا ووجهات نظرنا، وبالتالى الاهتمام بالتعبير عن رغباته هو لكل فريق، وللقائمقامات والكُشَّاف الذين لم يكن أمامهم سوى طاعة رئيسهم. أما الفائدة التافهة التى حصلت عليها من هذه الحادثة فهى أنه سرعان ما ظهرت لى شخصية مَن تعاملت معهم. أنا لا أعنى العميلين الأولين اللذين وصلا إلى طيبة وحدهما، بل أولئك الذين أصدروا إليهما التعليمات، ومن أُرْسِلوا بعدهما من الخونة والمجرمين العتاة والمنفيين الأوروبيين. أشخاص بهذه الصفات، ليس لهم صادٌ ولا راد فيما يفعلون، أُرسلوا لعرقلة أعمالى، وقوبل هؤلاء بكل تشجيع من البك، وبالطبع من تابعيه.

بدأ العميلان الأولان - كما قلت سابقًا - أعمالهما فى البحث بصورة موسعة، وقررت أن أجرب العمل فى الغرب لأننى لم أستطع الحصول إلا على عدد قليل من الرجال لتشغيلهم على الضفة الشرقية من النيل، فنوايا الكُشّاف الحسنة هناك ورقة لصالحى، لكن لسوء الحظ لم يصل القارب الذى يُقِلُّ مستر بيتشى، ولم استطع التقدم لحاجتى إلى المال حيث إننى لم آخذ معى إلا القليل على سبيل الحيطة والحذر لسفرى عن طريق البر. ولذلك، تركت ترجمانى مصدراً إليه تعليمات حول كيفية التعامل مع الرجال القلائل الذين تعاملنا معهم، وانطلقت فى قارب صغير لمقابلته. وصلت إلى قنا فى أربع وعشرين ساعة لأن الرياح جرت كما أشتهى، وكنت محظوظًا لأننى وجدته فى ذلك المكان.

استغرقت الرحلة ثلاثة أيام للوصول إلى طيبة، وعندما أرسينا سفينتنا الشراعية فى الأقصر، استأنفت عمليات التنقيب بمن استطعت أن أحصل عليهم من الفلاحين، كما أُستئنف العمل فى القرنة أيضًا، ولابد أن أعترف أن العمل فى الكرنك شغل حيزاً أكبر من اهتمامى. ولو عُلِمَ على وجه الدقة أى أناس بؤساء فى تلك القبائل هؤلاء الذين يضطر الرحالة إلى التعامل معهم، وأخلاقهم الوضيعة وميلهم إلى اللصوصية والسلب والجشع، ومختلف الظروف التى تُصَعِّبُ عملية جمع الآثار، لكان أى شىء يأتى من هناك ذا قيمة ثمينة بالنظر إلى تلك الظروف.

أهل القرنة يفوقون غيرهم من العرب فى المكر والخديعة، وهم الأكثر تواكلاً بين كل أهل مصر. ويفاخر أهل القرنة بأنهم آخر من استطاع الفرنسيون أن يفرضوا سيطرتهم عليهم، وعندما خضعوا لسلطة الفرنسيين أجبروهم على أن يدفعوا للرجال أى مبلغ يطلبونه مقابل العمل لصالحهم، وهذه حقيقة أكدها البارون دينون نفسه، فهم لا يستسلمون أبداً إلى أى أحد سواء المماليك أو الباشا. تَعَرَّضَ أهل هذه المدينة إلى أشد أنواع العقاب، وكانت الحكومات المصرية كلها على تعاقبها تطاردهم كالحيوانات البرية. تتميز مواقعهم ومخابئهم بأنها منيعة لا يصل إليها أحد. القرنة بقعة أرض صخرية طولها حوالى ميلين تقع عند بسفح الجبال الليبية غربى طيبة وبنيت على أنقاض المدينة العظيمة ذات البوابات المائة. كل جزء من هذه الصخور مقطوع بشكل فنى على

هيئة غرف كبيرة وصغيرة لكل منها مدخلها المنفصل، ورغم قرب هذه الغرف من بعضها البعض، قلما نجد أى نوع من أنواع الاتصال الداخلى بين هذه الغرف وبعضها البعض. وأصدقكم القول إنه من المستحيل أن أصف بما يكفى لنقل أدنى فكرة عن تلك المساكن الموجودة تحت الأرض ومن يسكنون فيها. لا يوجد فى أى بقعة من بقاع العالم مثل هذه المقابر أو الأضرحة. فلا توجد أى مناجم أو أماكن للتنقيب تقارن بتلك الأماكن الرائعة بحق، ولا يمكن أن أصف هذه المقابر وصفًا دقيقًا من الداخل نظرًا لصعوبة دخول تلك الفتحات. ولا يستطيع كل الناس أن يدخلوا هذه الفجوات نظرًا لأن هذا جهد لا يقدر عليه الكثير.

عادة ما يُسر الرحالة عندما يرى البهو الكبير والرواق والسلم، وبالإضافة إلى ذلك - إن استطاع استكمال المشاهدة - فإنه يألف الأعمال الغريبة التى يراها منحوتة فى مختلف الأماكن، ومرسومة على كل جوانب الجدران، لذا فإنه عندما يصل إلى ممر ضيق وصعب، أو يضطر إلى النزول إلى قاع بئر أو كهف، تراه يُحْجِم عن تكبيد نفسه المشقة مدعيًا أنه لا يستطيع أن يرى فى تلك الحُفَر أى شىء ذا أهمية أكثر مما رآه، ومن ثَمَّ الاعتقاد أنه من غير المجدى الاستمرار فى العمل. ومن بين تلك المقابر ما لا يستطيع الكثير من الناس تحمل هوائه الخانق الذى يسبب فى الكثير من الأحيان حالات الإغماء. وتثير هذه المقابر عند فتحها كمية هائلة من الغبار الناعم الذى يدخل الحلق وفتحات الأنف ليصيب الأنف والفم بالانسداد البالغ، مما يتطلب قوة كبيرة من الرئتين لمقاومة الغبار والرائحة القوية المنبعثة من المومياوات. وليس هذا كل شىء، فالمدخل أو الممر الذى توجد فيه الجثث مقطوع تقريبًا فى الصخور، وأدى سقوط الرمال من الجزء العلوى أو سقف الممر لامتلائه تقريبًا بالرمال. وفى بعض الأماكن لا يوجد موضع لقدم مما يلزمك بأن توجد وسيلة لدخولها زاحفًا على بطنك كالحلزون على أحجار مدببة وحادة كالزجاج. بعد عبور تلك الممرات التى يبلغ طول بعضها مائتى أو ثلثمائة ياردة، ستجد بوجه عام أماكن أكثر راحةً تعلو بما يكفى لأن تجلس. لكن يا له من مكان للراحة! هذا المكان المحاط بالجثث وبأكوام من المومياوات فى كل اتجاه. وامتلأت نفسى رعبًا رغم اعتيادى على هذا المنظر، فظلام الجدران والضوء الخافت

الصادر عن الشموع أو الشعلات المتعطشة للهواء، ومختلف الأشياء من حولى يبدو لى كأنها تخاطب بعضها البعض، وكذلك العرب الحاملون للشموع أو الشعلات فى أيديهم بأجسادهم العارية التى يعلوها التراب - كأنها مومياوات على قيد الحياة - شكلوا منظراً لا يمكن وصفه. وجدت نفسى فى مواقف كهذه مرات متعددة، وعادة ما كنت أرجع مرهقًا أكاد أسقط من شدة التعب، حتى أصبحت فى النهاية معتاداً على هذا غير عابئ بما يجرى لى إلا من الغبار الذى لم يفوت فرصةً إلا ودخل فيها حلقى وأنفى، ورغم أننى - ولحسن الحظ - محروم من حاسة الشم، فإنى استطعت أن أعرف أن طعم المومياوات غير مستساغ عندما تبلعها. بحثت عن مكان أرتاح فيه بعد المجهود الذى بذلته لدخول هذا المكان من خلال ممر طوله خمسون أو مائة أو ثلثمائة بل وربما ستمائة ياردة، ووجدت مكانًا نجحت فى الجلوس فيه، لكن عندما جلست على إحدى جثث قدماء المصريين سُحِقَتْ كصندوق من الكرتون. كان من الطبيعى أن أسند جسمى على يدىَّ اللتيْن لم تكونا بالقوة الكافية؛ فسقطت تمامًا بين المومياوات المتفتتة وحطام العظام واللفافات القديمة والتوابيت الخشبية مما أثار كمية من الغبار أبقتنى غير قادر على الحركة لمدة ربع الساعة فى انتظار أن يهدأ هذا الغبار مرة أخرى. لكننى لم أستطع الانتقال من المكان دون أن أثيره مرة أخرى؛ ففى كل خطوة كنت أتسبب فى تفتت مومياء فى مكان ما من الأماكن. وسرعان ما انتقلت من هذا المكان إلى آخر شبيه به من خلال ممر يبلغ طوله حوالى عشرين قدمًا، أما عرضه فلا يكفى أن يمر من خلاله الإنسان إلا محشوراً. كان هذا المكان مملوءاً بالمومياوات، ولم أستطع المرور دون أن يلامس وجهى أيًا من المومياوات المصرية المتحللة ملامسة مباشرة. لكننى استطعت مع هبوط مستوى الممر إلى أسفل أن أحافظ على قدرتى على الاستمرار، لكننى لم أستطع أن أسيطر على العظام والسيقان والأذرع والرءوس التى تدحرجت علىَّ من أعلى لتغطينى. وبذلك انتقلت من كهف إلى آخر، كلها مملوءة بالمومياوات المكومة بشتى الطرق؛ فبعضها واقف وبعضها راقد والبعض الآخر منها مكوم على رءوسها. كان الغرض من أعمال البحث هذه أن أسلب المومياوات المصرية أوراق البردى التى عثرت على عدد قليل منها مخبوء فى صدورها وتحت أذرعها وفى منطقة ما فوق الركبة أو على الساقين، مغطىً باللفات المتعددة من القماش التى تغلف

المومـيـاء. أهل القـرنة الذين يتـاجـرون فى الآثار مـن هذا النوع أناس شـديدو الحـقـد والحذر من الغرباء، فـهـم لا يخبرونهم بمكان الآثار قدر المستطاع، ويخدعون الرحالة بإيهامـهم بـأنهم وصلوا إلى نهـاية الحُفَر فى الوقـت الذى تخطـوا المدخـل بالكـاد. ولم أسـتطع إمـالتـهم كى يقودونى إلى تلك الأمـاكن حتى قـمت برحلتى الثانية عندمـا نجحت فى الحصول على تصريح دخول أى كهف حيث توجد المومياوات.

كانت إقـامتى الدائمة فى طيبة السبب وراء نجـاحى. رأى العرب أننى اهتـممت اهتمـامًا خاصًـا بموضوع الدخول إلى المقابر، ولم يتمكن هؤلاء من إخفاء أنفسهم وهـم يعملون فى الحفر بحثًا عن مقبرة جديدة؛ رغم حرصـهم الشديد على ألا يعرف أى من الأجـانب فى القـرنة مكان أعـمـال الحـفـر تحت الأرض، ونظرًا لأن الرحـالة عـادة مـا يمكثون فى ذلك المكان لبضعة أيام فقط، فما أيسر أن يتوقفوا عن الحفر أثناء ذلك. فإن كان أحد الرحالة محبًا للاستطلاع لدرجة أن يطلب منهـم دخول إحدى المقابر، فـهم جاهزون دائمًا كى يروه إحداها على الفور؛ فيقودونه إلى إحدى المقـابر القديمـة حيث لا يـرى إلا الكهوف الحجرية التى كانت تودع فيها المومياوات من قبل أو المقابر التى لا يوجد بها إلا بضع مومياوات أو تلك التى تعرضت للسرقة والنهب، وبذلك لا يستطيع أن يكوِّن فكرة صحيحة عن المقابر الحقيقية التى لا تزال محتوياتها محفوظة لم تمسسها يد.

يعيش أهل القرنة عند مدخل هذه الكهوف المفتوحة من قبل، وبتقسيم تلك الجدران الأرضية، صنعوا مساكن لهم ولأبقارهـم وإبلهم وجاموسـهم وأغنامهم وماعزهـم وكلابهم، إلخ. ولست أدرى إن كان سبب عدم انتباه الحكومة لمـا يفعلون هو قـلة أعدادهـم، لكن ما من شك فى أنهم أكثر أهل مصر تمردًا(٨). تعرض أهل القرنة للنكبات مرات كثيرة، وبذلك تناقص عددهـم من ثلاثة آلاف – وهو تعدادهـم السابق – إلى ثلثمائة نسمة، وهو عدد السكان الحالى فى يومنا هذا. وليس فى هذه البلدة أى مسـجد، بل هـم لا يهتمون بذلك،

(٨) استعمل بلزونى لفظ unruly وهو يعنى الهمجية فى السلوك، وعدم قدرة أولى الأمر على التحكم فيه وهو عادة ما يطلق على الأطفال؛ أى أن unruly children يمكن ترجمتها أطفال "أشقياء" كما نقول فى الدارجة المصرية. [المترجم].

فلديهم كمية هائلة من قوالب الطوب بكل أنواعها فى كل أنحاء القرنة من المقابر المحيطة بها، ورغم هذا لم يبنوا بيتًا واحدًا. وقد أُجبروا على استزراع قسم صغير من الأرض يمتد من الصخور إلى نهر النيل يبلغ عرضه ميلاً واحدًا وطوله ميلين ونصفًا، حتى هذا الشريط من الأرض أهملوا فيه إلى حد ما، لأنهم إن تُركوا على هواهم، فلن يمسكوا بفأس واحد فى أيديهم إلا للذهاب للبحث عن المومياوات؛ فهم يعتقدون أن أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار تدر عليهم ربحًا أكثر من الزراعة. والخطأ هنا خطأ الرحالة الذين يبدون السرور البالغ لحظة أن يريهم أحد أى قطعة من الآثار بدرجة تقودهم إلى دفع مبالغ كبيرة أكثر بكثير مما يتوقعه هؤلاء الناس، دون التفكير فى الضرر الناجم عن هذا السلوك والذى يقع على من يأتى بعدهم من الرحالة. ومن ثَمَّ استحدثوا فرض أسعار باهظة على الآثار وبخاصة أوراق البردى. وكوَّن بعضهم مبالغ ضخمة من المال، وأصبحوا غير عابئين بتعطلهم عن العمل ما لم يدفع لهم الرحالة وفقًا للسعر الذى طلبوه. من الملاحظ أيضًا أنه استقر فى أذهانهم فكرة أن الفرنسيين لن يكونوا كرماء ومحترمين للآخرين ما لم يدفعوا فيما يشترون عشرة أضعاف ما يدفعه غيرهم.

وأحيانًا يُقَسِّم فلاحو القرنة الذين ينقبون عن الآثار أنفسهم إلى مجموعات، لكل مجموعة رئيس، وما تعثر عليه أى مجموعة من المجموعات يباع ويقسم المال على باقى المجموعات. ومن الواضح أنهم مخلصون لبعضهم إخلاصًا شديدًا ولاسيما فى غش الأجانب وخداعهم، لكنهم لا يتورعون أيضًا عن خداع بعضهم البعض إن سنحت الفرصة بذلك. ذات يوم اشتريت بعض الآثار وفقًا لاتفاق مسبق، وكنت ذاهبًا إلى مقبرة إحدى الشركات، فأخبرنى الدليل أثناء الطريق أن لديه بعض أوراق البردى للبيع عثر عليها بنفسه قبل دخوله فى شركة مع مساعديه، واتفقنا على أن أعود إلى منزله وحدى لأرى البردى. ومع ذلك اصطحبت مستر بيتشى معى، وكان من الصعوبة البالغة أن نمنع أولئك الذين كانوا يراقبوننا من اللحاق بنا، فمن العادات الشائعة بين هؤلاء الناس دخول بيوت بعضهم البعض متى شاءوا، ورؤية وسماع كل ما يجرى فيها. ورغم كل هذه الاحتياطات، تسرب الشك إلى نفوسهم من أن الرجل العجوز لديه مخزن

بسرى عامر بأوراق البردى، وقرَّ فى أذهانهم اعتقاد بأنه أراد ألا يعرفوا المبلغ الضخم الذى سيحصل عليه نظير بيع البردى. وبذلك لم يخفقوا فى مراقبتنا ونحن خارجون من عنده حتى يتسنى لهم رؤية ما اشتريناه، فما إن وقع بصرهم علينا وليس معنا شىء حتى تملكتهم الدهشة وخيبة الأمل. اقترب أحد رؤساء المجموعات الذى كان محظياً عند الإنجليز من الترجمان كى يعرف ما حدث، وعندما علم أنه لم يحدث شىء سوى تجاذب أطراف الحديث، قال الرجل إن الرجل العجوز لم يجرؤ على بيع أى ورقة بردى دون موافقة الشركة، كما يجب أن يحضر إلينا كل ما سيبيعه وكل ما يملك معًا. وليست لدى أدنى فكرة كيف خدعهم هذا الطبيب البيطرى حيث كان لديه بضاعة نادرة أخرى، ومع ذلك لم يَشُكُّوا فى امتلاكه لأى شىءسوى أوراق البردى ليتاجر فيها. إلا أن السن والخبرة منحاه الكثير من الدُربة فى فن الخداع. وعندما دخلت أنا ومستر بيتشى والمترجم إلى كهفه، خرجت زوجته لترى إن كان هناك أحد بالقرب من الكهف. وكان الحمَّارون الذين أوصلونا إلى الكهف على بعد منه، فيما عدا ذلك لم يكن ثمة مخلوق بالقرب منا. يسكن هذا الرجل فى كهف من الحجر الجيرى مقطوع فى الصخر كسائر الكهوف ويعلوه السواد كالمدخنة. أجلسنا على حصيرة من القش، وهذا لون من ألوان الترف والرفاهية فى القرنة، وبعد فترة قليلة من الاحتفاء بنا، وضع بين يدىَّ إناءً نحاسيًا، وهو من أبدع القطع الأثرية التى وقع عليها بصرى والأجمل من نوعها. الإناء مغطىً بالنقوش الهيروغليفية المشغولة بدقة شديدة، ويبلغ ارتفاعه حوالى ١٨ بوصة وقطره ١٠ بوصات. أما التكوين العام فهو فى غاية الروعة والرقى، ولا فرق بينه وبين الآنية النحاسية الكورنثية. تملكتنى الدهشة، فلم أكن أصدق أن بين يدىَّ كنزٌ كهذا. هذا الإناء – كما رأيته – إناء مقدس كان يستخدمه قدماء المصريين، وله مقبض يشبه كثيرًا مقابض السلال العادية. تفحصنا الإناء وقد ارتسمت على وجوهنا علامات الدهشة والعجب عندما أخذه الرجل العجوز من أيدينا وأرانا إناءً آخر يشبهه تمام الشبه. كنَّا فى قمة البهجة والسعادة لرؤيتنا لهاتين القطعتين الأثريتين، متانتهما المثيرة للإعجاب، والفرصة التى أتيحت لنا لشرائهما لدرجة أن الصفقة تمت مع الرجل العجوز دون تضييع الوقت فى الكلام. تكمن الصعوبة البالغة فى أخذهما إلى قاربنا،

ووعدنا الرجل العجوز أن يحضرهما إلى القارب ليلاً بعد أن ينام الجميع؛ وعدنا إلى الأقصر نكاد نطير من الفرح والسعادة؛ فبانتظارنا قطعتان من أروع القطع الأثرية المعدنية التى عثر عليها فى القُطْر المصرى. لم يأت الرجل العجوز بالليل مما جعلنى أشعر بعدم الارتياح، لكنه جاء فى الصباح وقال إنه لم يستطع إحضار الآنية معه لأنه كان مراقبًا من زملائه، لكنه لن يخفق فى إحضارهما ليلاً، كما أعرب عن سعادته أثناء ذلك بتسلم المال والهدية التى وعدنا بها، وأننا دفعنا له دون تردد بما يجعله لا ينقض الصفقة. لكنه لم يظهر ليلاً ولا فى اليوم التالى؛ فرأيت أن من الضرورى الذهاب إليه فى مسكنه. وجدته فى بيته، وقال لى – كما قال من قبل – إنه لن يخفق فى المجىء إلينا ليلاً. وحَلَّ الليل ولم يأت الرجل مرة أخرى، لكنه جاء فى الصباح الباكر من اليوم التالى ومعه الآنية إلى قاربنا. استفسر منى أحد أصدقائه – بعد فترة من الوقت – عما حصل عليه الرجل العجوز مقابل القطعتين الأثريتين، وتعجبنا من كيفية معرفة هذا الرجل بأى شىء مما حدث، عندما أخبرنا أن الآنية كانت ملكًا للشركة، وكان ادعاء السرية خطة من الرجل العجوز كى يحصل منا على هدية عبارة عن طربوش[٩] وهذا ما نجح فيه.

حان الوقت بعد أن وصفنا المقابر والمومياوات والصخور والمتشردين فى القرنة لأن نعبر النيل ونعود إلى الكرنك، وهناك استأنفنا العمل كما ذكرت آنفًا. استولى خصومنا على تماثيل أبى الهول الأربعة التى استخرجها الدكتور باسم الدفتردار بك من الأرض التى فتحتها فى العام السابق، لكنه لم يجد أية تماثيل أخرى ذات أهمية قياسًا إلى عدد الرجال الذين استعان بهم فى أعمال الحفر. فتحت آنذاك قطعة أخرى من الأرض فى خط موازٍ لنقطة المعبد، وكنت سعيد الحظ لأننى وجدت حوالى عشرين تمثالاً سليمًا منها خمسة بحالة جيدة. وعثرنا من بين هذه التماثيل على تمثال من الجرانيت الرمادى لشاب جالس فى حجم الإنسان الطبيعى تقريبًا. لكن ورغم وجود الوجه واليدين والذراعين بحالة جيدة، فإن الصدر والأجزاء السفلية من التمثال كانت

(٩) الطربوش : كاب أو بونيه أحمر اللون. [المؤلف]

متاكلة تماماً، كما أن النصف العلوى منه منفصل عن سائر الجسم. وجدت أيضًا فى نفس المكان تمثالين صغيرين جالسين من الجرانيت الأحمر يبلغ ارتفاع كل منهما قدمين تقريبًا، وحجرًا ذا شكل غير منتظم، وإن كان ناعمًا مصقولاً من السطح. هذا الحجر مُقَسَّم بخطوط إلى مربعات صغيرة متعددة طول كل منها نصف بوصة، ويوجد فى كل مربع نقش هيروغليفى مختلف عن باقى النقوش فى المربعات الأخرى. ولعل فى هذا الحجر فائدة عظيمة – فى رأيى – للدكتور يَنْج Young فى قيامه باكتشاف أبجدية قدماء المصريين خاصة بعد وصوله إلى هذه المرحلة المتقدمة من العلم فى الوقت الحالى. عثرنا على أثرين آخرين أثناء عملية التنقيب وهما شاهد مقبرة ومنجل حديدى أظن أنه جدير باهتمام تاجر الآثار. من المؤكد أن مدافن قدماء المصريين توجد فى الضفة الغربية من النيل لأنه لم يُعْثَر على مكان واحد فى الضفة الشرقية يدل على أثر لمدافن هناك. ومع هذا، فإن وجود شاهد مقبرة بين تماثيل أبى الهول يشبه تلك الشواهد التى توجد فى المقابر على الجانب الآخر من النيل يرجح – على أكثر تقدير– أنه كان سينقل إلى مقبرة إحدى الأسر فى الغرب. أما المنجل الحديدى الذى أدعو للاهتمام به، فقد عُثِر عليه تحت قدم أحد تماثيل أبى الهول بعد تحريكه. كنت حاضراً حينما عثر عليه أحد الرجال وسلمه لى. كان المنجل مكسوراً إلى ثلاث قطع، ومتآكلاً للغاية لدرجة أن الصدأ وصل حتى إلى القلب، وهو أكثر سمكًا إلى حد ما من مناجل أيامنا هذه، لكنه بنفس الشكل والحجم بالضبط، وهو الآن بحوزة مستر سولت. السؤال الذى يطرح نفسه هو: متى وضعت هذه التماثيل هناك؟ لا يمكن أن نُرجع هذه التماثيل بوضعها هذا إلى عصر يلى عصر البطالمة لأن البلاد لم تتعرض للغزو – على ما يبدو – منذ عهد قمبيز الذى دمر آلهة مصر، وهو الأمر الذى قد يجبر الناس على إخفاء التماثيل التى كانوا يَعْبدونها، ومن الواضح أن هذه التماثيل أخفيت فى عجلة نظرًا للطريقة العشوائية والمضطربة التى توجد عليها. والآن، وبما أننا عثرنا على المنجل تحت التمثال سالف الذكر، فأنا أظن أنه دليل كاف على وجود الحديد فى مصر قبل غزو الفرس بفترة زمنية طويلة حيث كان لدى قدماء المصريين منه ما يكفى لصنع أدوات الزراعة. ويمكنك أن ترى مناجل بهذا الشكل فى كثير من الرسومات الموجودة فى المقابر التى تعرض الزراعة، لكن ذلك لا يعنى أنها مناجل حديدية كهذا المنجل المذكور.

ولا أقصد من هذا القول أن أحدد رأيًا بافتراضاتى الخاصة، بل أضع الحقيقة أمام عينى القارئ حتى يتسنى له أن يكوّن رأيه الخاص عنها، ومع ذلك، فهناك ظروف مستقاة من هذا الكشف الأثرى تهدم هذا التخمين. فمن الغريب حقًا أنه ومع وجود الحديد بهذه الوفرة لدى قدماء المصريين بحيث يصنعون منه المناجل، فلِمَ لَمْ يصنعوا أدوات الحرب وغيرها من الأدوات شائعة الاستخدام من نفس المعدن، فلو استخدموه، فمن الغريب أننا لم نعثر على أى من هذه الأدوات بين مختلف أشكال مصنوعاتهم.

استكملت العمل بأقصى سرعة ممكنة بهذا العدد القليل من الرجال معى لأننى تنبأت بأن الدفتردار إذا تناهى إلى علمه أنباء نجاحى، فإنه سيعمل على وقف أعمال الحفر والتنقيب الخاصة بى بحيلة أو بأخرى. أبقانى عملى اليومى فى حلقة متصلة من الحركة الدائبة، ففى الصباح اعتدت أن أصدر توجيهاتى للعمل فى الكرنك. يأتى العرب بوجه عام للعمل مع شروق الشمس، ويتوقفون عن العمل منذ فترة الظهيرة حتى الساعة الثانية أو الثالثة مساءً. وعندما عينت الكثير منهم، قسمتهم إلى مجموعات وانتدبت ملاحظًا على كل مجموعة ليرى إن كانوا يعملون فى أوقات العمل الصحيحة وفى المناطق المخصصة من الأرض التى حددتها وبينتها من قبل، لكن لابد من أن يبقى بعض من رجالى هناك بوجه عام، فالعرب أناس لا يمكن الوثوق بهم فى حال عثورهم على قطع صغيرة من الآثار. وكانت العادة أن أعبر النهر، وأتفقد أحوال العمل فى القرنة قبل الظهيرة. أَلِفْتُ كل شىء فى طيبة، وعرفت كل عربى هناك، كما عرفونى هم أيضًا لأننى زرتها فى العام الماضى وكانت لى تعاملات مع هؤلاء الناس. استولى مستر بيتشى على المعبد فى الأقصر دون أن يأخذ تصريحًا من الآلهة، وجعلنا من إحدى غرف المعبد مكان إقامة لنا، أعتقد أنه لابد أن يكون حَرَمًا. دبرنا مكان معيشة لا بأس به ببعض الحصر، لكننا لم نستطع منع الغبار من الوصول إلى فراشنا وملابسنا، واستغرقت وقتًا طويلاً جداً من جانبى حتى تعودت على هذا الوضع. لم نعد نستطيع النوم فى القارب بعد ذلك لأن أعدادًا غفيرةً من الجرذان الكبيرة صاحبتنا طوال رحلتنا إلى الأقصر نتيجة لما خزّناه من أطعمة على ظهر القارب، ولم يهدأ لنا بالٌ ليلاً أو نهارًا، ونجحت هذه الجرذان فى النهاية فى طردنا تمامًا من القارب، لكننا ظننا أننا

تغلبنا عليها عندما أخذنا كل الأطعمة وتركنا القارب يغرق فى الأقصر، إلا أنها ونظراً لمهارتها فى السباحة نجت من الموت واختفت فى فتحات الأرصفة المطلة على النهر، وعندما نقلنا الطعام إلى ظهر القارب مرة أخرى، عادت جميعاً مبتهجة - إلا القليل منها - وكانت ولاشك ممتنة لنا لأننا منحناها شهية مفتوحة وفرصة جيدة للاستحمام.

استمرت أعمالنا فى القرنة بين المومياوات. أصبح العرب غير مهتمين بالمرة بمسألة سرية المقابر لأنهم رأوا أن من مصلحتهم أن ينقبوا عن الآثار فهم يُكافأون على ما يجدون منها، ولا يعبأ أولئك الذين دفعنا لهم باستمرار لو عثرنا نحن أو عثر إخوانهم على إحدى المقابر. انقسم الرجال إلى طبقتين، الأكثر علماً يقومون بأعمال البحث والتنقيب لحسابهم الخاص مستخدمين ثمانية أو عشرة رجال لمساعدتهم. فهؤلاء الخبراء يشيرون إلى بقعة الأرض التى يتوقعون أن يعثروا فيها على إحدى المقابر، وأحياناً يحالفهم الحظ لدرجة أنهم يشيرون إلى مدخل حفرة مومياوات من المرة الأولى. وفى أحيان أخرى، وبعد مضى يومين أو ثلاثة، لا يجدون شيئاً فى الغالب سوى حفرة مليئة بمومياوات تنتمى للطبقة الدنيا التى لا يوجد بينها شىء جدير بالاهتمام؛ وعلى هذا الأساس، فالأمر كله مجرد صدفة حتى بالنسبة للمستكشف ذى الخبرة العريضة. وربما عَثروا، من جهة أخرى، فى بعض مقابر الطبقة الأعلى على عينات جيدة للغاية من الآثار من كل نوع. واجهتنى بعض الصعوبات فى البداية لإقناع هؤلاء الناس بالعمل فى البحث والتنقيب عن المقابر مقابل الحصول على أجر يومى ثابت، وكان هؤلاء على قناعة بأن ذلك ضد مصلحتهم على افتراض أننى أحصل على الآثار بسعر زهيد جداً، لكن عندما وجدوا أننى أصرف لهم أجورهم بانتظام مقابل لا شىء بالنسبة لى، رأوا أن هذا يجرى إلى حد ما لصالحهم، فضمان عشرين بريزة (ثلاثة بنسات) يومياً أفضل من المخاطرة بعدم الحصول على شىء مقابل عملهم، وهو شىء كثيراً ما يحدث لمن يعملون فى مجال غير مضمون.

تعرفت من خلال تلك الأعمال بشكل أفضل على الطريقة التى كان قدماء المصريين ينظمون بها مدافنهم، ورأيت بوضوح مختلف درجات وعادات طبقات الموتى بدءاً من الفلاحين وحتى الملك. كان قدماء المصريين يحنطون جثث الموتى بثلاث طرق

مختلفة تختلف - كما أخبرنا هيرودوت - وفقًا لما يدفعه أقارب المتوفى من نفقات.
وعبَّر أبو التاريخ نفسه عن هذا الموضوع قائلاً :

"هناك أشخاص بعينهم معينون بموجب القانون لممارسة هذه المهنة. وعندما يأتون إليهم بجثة أحد الموتى، فإنهم يعرضون على أصدقاء المتوفى نماذج مختلفة من الخشب مجهزة تمامًا. ويقولون إن أكمل هذه النماذج يشبه أحدًا أظن أنه من التدين ألا أنكر اسمه فى هذا المقام، أما النموذج الثانى فهو أقل سعرًا، وأدنى من ناحية التنفيذ، وأما الثالث فهو أكثر وضاعة من النموذجين السابقين. ثم يسألون عن النموذج الذى يريدون أن يصمموه للمتوفى. وبعد تحديد السعر، ينسحب أقارب المتوفى ويشرع القائمون على التحنيط فى عملهم. ووفقًا لأفضل عينات هذه الصنعة، فهم يستخرجون المخ من خلال فتحتى الأنف بقطعة من الحديد المعقوف مع استخدام منقوع من العقاقير، بعد ذلك يُحْدِثون شقًا بحجر حبشى فى الجانب يُخرجون منه أحشاء المتوفى، ويطهرونها تطهيرًا كاملاً، ويغسلونها بنبيذ النخيل ويغطونها بعد ذلك بمسحوق من المواد العطرية، ثم يحشون الجسم بمسحوق نبات المُرّ صافيًا، والطلح وغيرها من البهارات فيما عدا حصى البان (اللبان الذكر). وبعد تخييط الجثة، تغطى بملح النطرون[١٠] فترة سبعين يومًا وهى فترة زمنية لا يجوز لهم تجاوزها. وعندما تنتهى هذه المدة، تغسل الجثة أولاً، ثم تلف بإحكام بلفافات من القطن المغموس فى الصمغ العربى الذى كان قدماء المصريين يستخدمونه كمادة لاصقة. بعدها يرجع أقارب المتوفى الذين يُسجون جثته فى تابوت من الخشب مصمم ليشبه

(١٠) ملح النطرون: ملح محلى (كربونات الصوديوم) يستخرج من البحيرات المالحة بوادى النطرون شمالى غرب مصر. [المترجم نقلا عن موسوعة إنكارتا الإلكترونية]

الجسم الآدمي، ويوضع أمام الحائط في مثوى أقاربهم من الموتى. هذا أكثر نماذج التحنيط تكلفة.

بالنسبة لهؤلاء الذين يرغبون في تحمل نفقات أقل، فإن الطريقة التالية هي المتبعة فهم لا يستخرجون الأحشاء، ولا يُحْدثون أي شق في الجثة، لكنهم يحقنونها بمرهم مصنوع من الأَرْز. تُغطى الجثة بعد اتخاذ الإجراءات الصحيحة لتأمين دخول المرهم إلى الجسم حقنًا بملح النطرون لمدة أطول من المدة سالفة الذكر. وفي اليوم الأخير يسحبون السائل الذي أدخلوه من قبل مُخْرِجًا معه الأحشاء كلها. ويؤدي ملح النطرون إلى تجفيف اللحم وتصلبه، وبذلك تبدو الجثة عبارة عن جلد فوق عظم. ويُعاد الجسم على هذه الحالة، ولا تلقى الجثة أي نوع من العناية فوق هذا.

وهناك نوع ثالث من التحنيط يلائم الفقراء، حيث يمرر القائمون على التحنيط نوعًا معينًا من الدهان خلال الجثة التي تترك بعدها في ملح النطرون فقط لمدة أطول من السبعين يومًا سالفة الذكر، ثم يستخرج الدهان مرة أخرى".

هذا ما أخبرنا به هيرودوت.

من الواضح أنه لا شيء يميز بين طبقات الشعب المختلفة أكثر من طريقة تحنيط موتاهم، لكن هناك علامات أخرى كثيرة لها نفس التأثير في التمييز بين الطبقات. وسوف أصف الحالة التي وجدت عليها مومياوات الطبقة الرئيسية التي لم تمسسها يد، وبالتالي قد أتمكن من الحكم على الطريقة التي أعدت بها هذه المومياوات وأودعت في أماكنها الخاصة. وأعلن أسفي أنني مضطر لمعارضة دليلي القديم هيرودوت لأنه لم يكن خبيرًا في علم المصريات في هذه النقطة وفي نقاط أخرى كثيرة. ذكر هيرودوت أولاً أثناء الحديث عن المومياوات في توابيتها أنها توضع واقفة على أرجلها، لكن أليس من المُستغرب أنني لم أرَ مومياء واحدة واقفة في هذا العدد الهائل من الحُفر التي نقبت فيها. بل والعكس من ذلك، وجدتها راقدة في نظام في صفوف أفقية، كما غُرِسَت بعض

التوابيت فى الأسمنت الذى لابد أنه كان طريًا عندما وضعت عليه. ولم يكن موتى الطبقات الدنيا يدفنون فى توابيت، بل كانت تجفف جثثهم - كما يبدو - بعد فترة السبعين يومًا المخصصة للتحنيط. وتبلغ نسبة المومياوات التى تنتمى إلى هذا النوع إلى مومياوات الطبقة العليا حوالى عشرة إلى واحد حسبما استطعت أن أقدر حسابياً من الأعداد التي وجدتها من كلتا الطبقتين، ويبدو لى أنه بعد أن يغطى القائمون على التحنيط الجثة بملح النطرون، فإنهم يتركون الجثث كى تجف فى الشمس. من جهتى أنا مقتنع أن الأمر كان هكذا، فلم يكن هناك أى أثر للصمغ العربى أو أى شىء آخر فى هذه المومياوات. ويتكون الكتان الذى تُلَفُّ به المومياء من نوع أكثر خشونةً وأقل جودة من الكتان العادى، وليس بهذه اللفافات أية زخارف تذكر، وتخزن فوق بعضها البعض لدرجة أنها تملأ بصورة عشوائية العديد من الكهوف التى اكتشفت والمخصصة لغرض التخزين. توجد هذه المقابر بوجه عام فى الأراضى المنخفضة عند سفح جبال القرنة، وبعضها يمتد بعيداً إلى الحدود المغمورة بالمياه. يدخل المرء هذه المقابر من خلال فتحة صغيرة على هيئة قوس أو من خلال ممر ضيق مساحته أربع أو خمس أقدام مربعة، وفى أسفل هذا المدخل مداخل نحو مختلف الغرف المليئة كلها عن آخرها بالمومياوات. ورغم أنك نادراً ما تجد أى شىء فى تلك الغرف، فإن كثيراً من هذه المقابر تَعَرَّض للنكش والتفتيش وتركت فى فوضى تامة.

لابد أن أذكر أيضًا أننا وجدنا بين هذه المقابر بعض مومياوات حيوانية جنبًا إلى جنب مع المومياوات الآدمية. فقد وجدنا فى بعض المقابر مومياوات لثيران وأبقار وقرود وثعالب وخفافيش وتماسيح وأسماك وطيور. وغالبًا ما توجد مومياوات للحيوانات التى كانوا يعبدونها، ففى إحدى المقابر لم نجد إلا القطط الملفوفة بعناية بالكتان الأبيض والأحمر، والرأس مغطى بقناع يمثل القط مصنوع من نفس الكتان. فتحت مقابر بها كل هذه الأنواع من الحيوانات. بالنسبة للثيران والعجول والغنم، لا يغطى أى جزء من الجسم بالكتان إلا الرأس، ويُترك مكان يخرج منه القرنان، أما باقى الجسم فتمثله قطعتان من الخشب عرض الواحدة منهما ١٨ بوصة وطولها ثلاث أقدام، توضع باتجاه أفقى، وفى نهايتهما توجد قطعة خشبية أخرى توضع عمودية على القطعتين السابقتين ارتفاعها قدمان لتمثل ضرع الحيوان. وتصمم مومياوات العجول والأغنام بنفس الطريقة التى تصمم بها مومياوات الثيران والأبقار، إلا أن عددها أكبر بالنسبة إلى الثيران.

وتصمم مومياء القرد للجسم كاملاً فى وضع الجلوس. ويلف الثعلب لفًا محكمًا فى موميائه، لكن فى بعض القياسات وجدنا أن شكل الرأس احتفظ بحجمه الطبيعى. ويترك التمساح المحنط بشكله الطبيعى بعد لفه بعناية بالكتان، وتُرسم العينان والفم على هذا الغطاء. تلف مومياوات الطيور لفًا محكمًا تفقد فيه شكلها فيما عدا طائر أبو منْجَل أو أبو قردان الذى وجدناه كطائر جاهز للطهى وملفوفًا بالكتان ككل الحيوانات الأخرى.

ومن الغريب نوعًا ما أن مثل هذه الحيوانات لا نجدها فى مقابر الطبقة العليا، فى حين أننا لا نكاد نجد أى أوراق بردى بين مقابر الطبقة الدنيا، فإن وُجِدَت فما هى إلا قصاصات صغيرة تلصق على الصدر بقطعة صغيرة من الصمغ أو القار، وهى كل ما يستطيع الشخص الفقير أن يشتريه لنفسه. وتوجد أشياء أخرى فى مقابر الطبقات العليا. وأظن أنه لابد من تقسيمهم إلى طبقات متعددة بدلاً من الاقتصار على ثلاث فقط، ولا أقصد أن أنسب الخطأ إلى هيرودوت عندما تحدث عن نماذج التحنيط الثلاثة، لكننى سأتجرأ لأؤكد أن الطبقات العليا، والوسطى والفقيرة جميعها تسمح بمزيد من التقسيمات. ففى نفس الحفرة التى وجدت فيها مومياوات داخل التوابيت، وجدت مومياوات بلا توابيت، وفى تلك المومياوات ما أكثر أن تعثر على أوراق البردى. لاحظت أن المومياوات ذات التوابيت لم يكن بها أى أوراق بردى، على الأقل لم أرها مطلقًا، وعلى العكس، عثرت غالبًا على البرديات فى المومياوات التى ليس لها توابيت. يبدو لى أن أولئك الذين استطاعوا توفير تابوت يدفنون فيه ينقش عليه تاريخ حياتهم، أما الذين لم يستطيعوا شراء تابوت، فقد قنعوا بأن تكتب قصة حياتهم على أوراق البردى التى تُلَفُّ وتوضع فوق ركبتيهم. ويظهر أيضًا تباين كبير حتى بين التوابيت؛ فبعضها يخلو من أى أثر للزينة، وبعضها مزين ببعض الزخارف، والبعض الآخر ملئ بالزينة والرسومات البديعة. عادة ما تصنع التوابيت من شجر الجميز المصرى، ومن الواضح أنه – أى الجميز – كان أكثر أنواع الخشب وفرة فى البلاد حيث يستخدمونه فى صنع مختلف الآنية. لكل التوابيت وجه آدمى لرجل أو امرأة، وتحتوى بعض التوابيت الكبيرة الحجم على توابيت أخرى مصنوعة سواء من الخشب أو من الجص المزينة بالرسومات، وأحيانًا ما تفصل التوابيت الداخلية على مقاس جسم المومياء، فى حين تعتبر توابيت أخرى مجرد غطاء للجسم على هيئة رجل أو امرأة يسهل التمييز

بينهما من خلال اللحية والصدر كما هو الحال بالنسبة للتمييز بين الرجل المرأة فى الطبيعة. وتُزين بعض المومياوات بأكاليل من الزهور وأوراق شجر الطلح أو السنط التى توضع على رؤوسها وصدورها. غالبًا ما يُرى هذا النوع من الأشجار على ضفاف النيل وفى طيبة لاسيما فى النوبة. وتتلون الزهرة عندما تتفتح باللون الأصفر، وتتكون من مادة صلبة للغاية تجعلها تبدو كما لو كانت صناعية. وتتسم الأوراق أيضًا بقوتها الشديدة، فهى ستحافظ على متانتها حتى لو جفت وتحولت إلى اللون البنى. كما وجدنا داخل تلك المومياوات كتلاً من القار يصل وزنها أحيانًا إلى رطلين. وغالبًا ما توجد أحشاء تلك المومياوات ملفوفة فى الكتان والقار. فما يمتزج بلحم الجثة يظل محتفظًا باللون الطبيعى للحفرة، أما ما لم يمتزج بها، فيتحول إلى اللون البنى، ويمتزج - كما يبدو - بشحوم الجسم مكونًا كتلة تتفتت إلى تراب بالضغط عليها. ويُغَطَّى التابوت الخشبى أولاً بطبقة أو اثنتين من الأسمنت، وهو فى ذلك لا يختلف عن المادة اللاصقة المستخدمة فى توابيت باريس، وأحيانًا ما تنقش أجسام آدمية بارزة على التابوت يبنون لها كُوَّات مقطوعة فى الحجر. ويرسم على التابوت كله، فيلونون الخلفية عامة باللون الأصفر، والأشكال الآدمية والنقوش الهيروغليفية فتتلون باللون الأزرق والأخضر والأحمر والأسود - وإن كانوا لا يستخدمون الأخير إلا فيما ندر. يُغطى الدهان كله بطبقة من الطلاء تحفظه بدرجة كبيرة. وبعض هذه الألوان - فى رأيى المتواضع - مستخلصة من مصدر نباتى لأنها شفافة بصورة واضحة، هذا إلى جانب أنه من الأسهل على قدماء المصريين أن يصنعوا الألوان النباتية أكثر من المعدنية للصعوبة البالغة التى تتسم بها عملية طحن المعادن للدرجة التى يمكن أن تصل إليها الألوان النباتية.

أما النوع التالى من المومياوات الذى جذب انتباهى، فأعتقد أنه يلائم الكهنة. ذلك أنها ملفوفة بطريقة مختلفة تمام الاختلاف عن باقى المومياوات، ومصممة بعناية لإظهار الاحترام الكبير الذى كانوا يكنونه لتلك الشخصيات الهامة. فاللفافات عبارة عن شرائط من اللون الأبيض والأحمر معًا تغطى الجسم كله مما يكوِّن أثرًا رائعًا من التقاء اللونين. ولا يُوضع الذراعان والساقان فى نفس الغطاء الذى يُغطى به الجسم - كما فى المومياوات العادية - بل تُلف منفصلة حتى أصابع اليدين والقدمين تُلف وحدها، ويلبسون صنادل من الجلد الملون فى أقدامهم، كما تزين الأساور الذراعين والمعصمين.

دائمًا ما توجد هذه الأساور مع الذراعين الموضوعتين على الصدر، لكنهما لا تلتصقان به. ورغم أن الجثة ملفوفة بكمية كبيرة من الكتان، فإن هيئة الجسم تظل كما هي بالنسب الطبيعية لكل عضو من أعضاء الجسم. وتصمم التوابيت التى توجد بها مثل تلك المومياوات بشكل أفضل من غيرها، ورأيت تابوتًا منها له عينان وحاجبان من طلاء المينا مصممان بصورة بديعة تقليدًا للطبيعة. ومن بين المقابر المختلفة اكتشفت تابوتًا بهذا الوصف فى الوادى المجاور لبيبان الملوك عند الناحية الغربية منه، وسأتحدث عن هذا التابوت فيما بعد.

عثرت على ثمانى مومياوات كلها لم تمسسها يد منذ أن أودعت فى مثواها الأخير. وتستلقى التوابيت على الأرض فى صفين متساويين فى مواجهة الشرق، وهى مغروسة بعمق أربع بوصات فى الملاط الذى لابد أنه كان طريًا عندما وضعت عليه التوابيت، ذلك أننى عندما نقلت التوابيت ظل مكان الغرس كما هو. وسأصف ما وجدت عندما فتحت التوابيت عند ذكر المقبرة.

وتتميز المقابر التى تضم مومياوات الطبقة العليا من الناس بالطبع عن غيرها، فهى أكثر اتساعًا من غيرها، وتوجد بها غرف متعددة ومزينة بأشكال تمثل مختلف الأعمال الحياتية، وإن غلبت المواكب الجنائزية على غيرها. لكنك أيضًا تجد العمليات الزراعية والاحتفالات الدينية وغيرها من الأعمال اليومية مثل تناول الطعام فى كل المقابر. لن أدخل فى وصف تفصيلى لتلك النقوش التى طالما وصفها الرحالة خاصة مستر هاميلتون Mr. Hamilton الذى أعطتنا ملاحظاته واضحة المعانى أفضل فكرة عن أشكالها المختلفة. فمن المستحيل أن أصف ما بها من أشياء صغيرة متعددة تعكس العادات المحلية للقدماء المصريين. تجد فى هذه المقابر الآلهة الصغيرة بين الحين والآخر إما راقدة على الأرض أو على توابيت المومياوات. وأحيانًا نجد مزهريات تحتوى على الأحشاء المحنطة للمومياوات، وتصنع هذه المزهريات بوجه عام من الصلصال المحروق وتلون من الخارج، وتتراوح أحجامها من ثمانى بوصات إلى ١٨ بوصة، وتمثل أغطيتها رأس أحد الآلهة سواء رأس آدمى أو قرد أو ثعلب أو قط أو غير ذلك من الحيوانات. عثرت على بضع تلك المزهريات المصنوعة من المرمر الأبيض فى مقابر الملوك، لكنها كانت مكسورة لسوء الحظ. كما عثرنا على كمية هائلة من الآنية الفخارية إلى جانب الأوعية الخشبية فى بعض المقابر، كما لو كان المتوفى يريد أن يأخذ معه كل

ما كان يملكه من آنية فى قبره. الأكثر غرابةً من كل هذا هو الحُلِىّ ولاسيما المشغولات الصغيرة المصنوعة من الصلصال وغيره من المواد. حالفنى الحظ للعثور على الكثير من عينات مصنوعاتهم ومن بينها رقائق الذهب المدقوق بنفس السُمك فى أيامنا هذه. ويبدو لى أن الذهب خالٍ من الشوائب تمامًا، كما يتميز بلون أروع من الذهب الذى نراه عامةً فى أيامنا هذه. ومن المُستغرب إلى حد ما ألا تجد أيًا من الأدوات الحربية فى تلك الأماكن خاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا ما كان عليه قدماء المصريين من ولع بالحروب. ولا أستطيع أن أخمن الحالة التى أصبحت عليها أسلحتهم، فلم أجد فى كل أعمالى فى البحث والتنقيب إلا سهمًا واحدًا يبلغ طوله قدمين، ومثبت به بإحكام سن نحاسية عند أحد طرفيه، أما الطرف الآخر فمثبت به حَزٌّ كأى سهم ليمسك وتر القوس، ومن الواضح أن الوتر فلق السهم فأُعيدَ نصفاه معًا بمادة لاصقة.

ومن بين الأشياء الأخرى التى وجدناها بكثرة فى المقابر لدرجة تغنى عن ذكرها الخنفساء أو الجُعل أو ما يسمى بأبى الجُعْران، وهى من أكثر الحيوانات قداسة، وتتكون من أنواع شتى منها المصنوع من البازلت أو اليَشْم البلغمى أو غيرها من الأحجار وبعضها مصنوع من الصلصال المحروق. وهى نادرة الوجود خاصة تلك التى تحتوى على كتابات هيروغليفية تضم ولا شك صلوات معينة أو احتفال بذكرى الحوادث المهمة فى حياة المتوفى. يفترض البعض أن قدماء المصريين كانوا يعلقون الجعارين فى رقابهم إن أرادوا الحرب، لكن ليس هناك دليل واضح على ذلك. وسأفترض فرضًا بخصوص هذا الموضوع علَّه يصل بنا من الشك إلى اليقين. فالجعارين تتميز بشكلها الغريب، فإن كانت من ضمن الحلى التى يلبسها المحارب، لسَهُل تمييزها، ولم أرَ أى جعران بين حُلِىّ المحاربين سوى مرة واحدة. هناك شكل آدمى جالس فى مقبرة بسمتك التى اكتشفتها فى الوادى التالى لبيبان الملوك، ويبدو من الملابس والحلى الفاخرة التى يرتديها أنه يمثل أحد الملوك. ظهر هذا الشكل مُعلقًا صفيحة مربعة من البازلت فى رقبته فى منتصفها مسلة وأحد الأشكال على كل جانب من جوانبها. وكنت سعيد الحظ للغاية عندما عثرت على صفيحة كتلك، وأعتقد أنها الوحيدة من نوعها من بين الآثار التى عُثِر عليها. وتأخذ هذه الصفيحة شكل أحد المعابد المصرية، ويظهر فى منتصفها

جعران يركب قاربًا ويحرسه شخصان من كل جانب، ومن الظهر - أى ظهر الجعران - توجد نقوش كتابية على قارب يوجد عليه شكلان آدميان يشبهان الشكلين السابقين بالضبط. ووجدت أيضًا جعارين أخرى ذات رؤوس بشرية لم أرها من قبل.

من المؤكد أن قدماء المصريين أتقنوا صناعة المنتجات الكتانية لدرجة تضارع ما وصلنا إليه اليوم. ذلك أننا نلاحظ فى كثير من الأشكال الآدمية المرسومة أن أرديتهم شفافة للغاية، ومن بين لفافات المومياوات وجدت أن بعض خاماتها من القماش تتسم بالقوة والمتانة وانسيابية النسيج كقماش الموسْلين[11] العادى. عرف قدماء المصريين أيضًا حرفة دبغ الجلود، فصنعوا الأحذية كما نفعل فى العصر الحاضر، وعثرت على أشكال متعددة منها، كما عرفوا حرفة صبغ الجلود بألوان مختلفة كما نفعل نحن فى جلد الماعز الناعم المدبوغ، وعرفوا أيضًا طريقة الحفر البارز عليه حيث عثرت على جلود عليها أشكال منقوشة بارزة. ولابد أنهم كانوا يقومون بذلك باستخدام حديد محمى بينما لا يزال الجلد طريًا، وصنعوا أيضًا نوعًا من الزجاج الخشن الذى كانوا يصنعون منه الخرز وغيره من أنواع الحلى.

أتقن المصريون القدماء إلى جانب الطلاء بالمينا حرفة الطلاء بالذهب بدرجة كبيرة حيث وجدت الكثير من الحلى من هذا النوع، كما عرفوا كيفية عمل سبائك النحاس وتشكيلها على هيئة رقاقات تتسم بتكوين معدنى لا يختلف عن الرصاص لدينا، إلا أنه أقل صلابة منه وإن كان أكثر ثباتًا. ففيها شبه كبير بينها وبين الرصاص الذى نراه على الورق فى أباريق الشاى الصينية، لكنها أكثر منها سُمكًا. وجدت بعضًا منها مطليًا على الجانبين بطبقة رقيقة من الطلاء من معدن آخر قد يبدو أنه فضة، لكننى لا أعتقد أنه كذلك. فمن المؤكد أن هذا المعدن كان نادر الوجود، فهو - فى رأيى - أقل شيوعًا من الذهب لأنها - أى الفضة - قلما وُجِدَت بين الآثار، فى حين أن الذهب من المعادن الشائعة فى الحلى.

(١١) الموسلين muslin : شاش قطنى شفاف، ويسمى أيضًا الشاش الموصلى. [المترجم]

بالنسبة للمنحوتات، فهى شائعة للغاية، وفى قمة الإتقان خاصة فى تناسق الجسم البشرى. ومن الجدير بالملاحظة أن المصريين القدماء، رغم عدم درايتهم بعلم التشريح، حافظوا فى تلك التماثيل وغيرها من التماثيل الرخامية على البساطة البديعة الغريبة عليهم والتى تعطى دائمًا أثرًا مريحًا للعين.

وجدت فى إحدى مقابر الملوك تمثالين من الخشب غاية فى الإتقان، طول كل منهما حوالى سبع أقدام. كان هذان التمثالان فى وضع الوقوف مع مد إحدى الذراعين كأنها تمسك شعلة. كما عثرت فى هذه المقابر على الكثير من المنحوتات الأخرى والنقوش الهيروغليفية والحلى وما إليها.

أتقن المصريون أيضًا فن الطلاء، وكذلك تجفيف الطلاء على الصلصال لدرجة أننى أشك فى قدرتنا على تقليدهم فى وقتنا الحاضر. إلا أن أفضل أنواع مصنوعاتهم نادرة بشدة، إذ لم يبق منها إلا القليل بين ما عُثِرَ عليه من آثار، وعلى العكس من ذلك، فهناك كميات مهولة من المصنوعات الأقل جودة. والقليل من أفضل مصنوعاتهم موجود فى مقبرة بسمتك العظيمة، واتسمت تلك الأشياء بألوانها الأروع جمالاً.

لم يصل فن الرسم والتلوين إلى درجة عالية من التطور عند قدماء المصريين، فلم يكن لديهم دراية بالتظليل لإبراز الأشكال التى يرسمونها. لكن لابد أن نوفيهم حقهم بالنسبة لتوقهم فى تنسيق الألوان. فهناك انسجام كبير حتى بين اللونين الأحمر والأخضر اللذين لا ينسجمان دائمًا معًا بالنسبة لنا، لكنهم عرفوا كيف يجعلوهما منسجمين ليعطيا فى النهاية أثرًا بالغ الروعة خاصة فى ضوء الشموع. وأنا أرى – كما أوضحت سلفًا – أن تلك الألوان مستقاة من المملكة النباتية، وأظن أننى قادر على تقديم دليل قوى على هذه الحقيقة. ويصنع أهل مصر الحاليين صبغة النيلة[١٢] حيث يضعونها فى كتل متراصة فى حجم بسكوت أو خبز البحارة بطريقة بدائية جداً، فهم لا يعرفون كيف يستخلصون الصبغة من النبات دون خلطه بالرمال؛ وعندئذٍ تجد

(١٢) النيلة : صبغة تستخرج من نبات بنفس الاسم، وهى صبغة زرقاء شديدة الزرقة. [المترجم]

كتل الصبغة تلمع من كل جانب، كأن الضوء يشع من كل ذرة فيها. ولم يستطع قدماء المصريين أن يتقدموا بهذه الصناعة عن مصريي الوقت الحاضر، فكلما وجدت اللون الأزرق فى أيٍ من رسوماتهم - من الواضح أنه من صبغة النيلة - رأيت نفس الرمال اللامعة كما هو الحال فى كتل النيلة الحديثة. ويتصف فن الرسم والنحت المصرى القديم بالبساطة والنظام، ومع ذلك عرف المصريون كيف يضفون مسحة من الحياة على تماثيلهم مما يجعلها تبدو كأنها ستتحرك من أماكنها. لم يكن المصريون على علمٍ يذكر - إن وجد - بمسألة الأبعاد، فكل ما أبدعوه من رسم كان بالبروفيل. ويُعَدُّ الحائط أو أى مكان يراد تزيينه من قبلها بطحنه طحنًا ناعمًا. يرسم أحد الرسامين أو واحد ممن ليسوا أكثر خبرة من المعلم الخطوط الأولى باللون الأحمر بعد أن تولاها المعلم من قبل بالفحص والتصحيح باللون الأسود. ويمكن أن ترى نماذج من هذه الرسومات فى مقبرة بسمتك كما سأشرح فيما بعد.

بعد استكمال الخطوط العامة، يبدأ النحات عمله ويشرع فى تجسيم التمثال بتكسير الحجارة من حوله، ثم تُضبط زوايا الجسم بانسيابية مع متابعة العمل فى الحلى أو الملابس بالإزميل بما يترك أثرًا خفيفًا مع روعة شكل التمثال ككل. وآخر من يشترك فى العمل هو الرسام الذى يُنْهى العمل. لم يعرف المصريون القدماء من الألوان غير الأحمر والأزرق والأصفر والأخضر والأسود، كما ينقسم الأزرق إلى فاتح وغامق. بهذه الألوان، زَيَّن المصريون معابدهم ومقابرهم وما شاءوا من غير ذلك أن يدهنوه بالألوان. ولأنه لا يوجد بين هذه الألوان ما يشبه لون الجلد البشرى الحى، استعاضوا عنه باللون الأحمر لهذا الغرض. وتزين الحلى ببـاقى الألوان، لكننى واثق أنهم لم يستخدموا مطلقًا كل الألوان فى نفس العمل الفنى بالرغم من قلة تلك الألوان.

أما بالنسبة لفن العمارة، فلا أستطيع أن أقول إلا أنه متوافق مع أفكارهم. فالجدير بالذكر أيضًا أنهم يؤمنون بفكرة عودة الحياة مرة أخرى أو بالبعث بالروح والجسد بعد مرور فترة من الزمن تقدر بثلاثة آلاف عام، ومن ذلك يمكننا الافتراض بأنهم أرادوا لمبانيهم أن تظل لمدة طويلة جدًا حتى يروها مرة أخرى بعد بعثهم بحالة جيدة. وبالنسبة للأقواس، ألا نستطيع أن نثبت، استنادًا إلى بنائهم لأقواس مختلفة عن تلك

التى بنيناها، أنهم كانوا أيضًا على استطاعة بأن يقيموا أقواسًا أضخم حجمًا وأكبر من تلك التى نراها اليوم فى طيبة؟ أقول نعم، هناك أقواس مصرية فى طيبة. وإذا اطلع القارئ على اللوحة رقم (٤٤)، فسوف يرى قوسًا مصريًا يقع فى القرنة تحت الصخور التى تفصل هذا المكان عن وادى بيبان الملوك. ويختلف القوس فى شكله كليةً عن الأقواس عندنا، لكن لو أراد المصريون القدماء إقامة أحد الأقواس، فإنهم سيقيمونه بهذه الطريقة وبأحجام كبيرة تتناسب مع أحجام الحجارة الهائلة التى نراها فى أبنيتهم. لا، لم يرد المصريون القدماء بناء أقواس - بل فضلوا عنها ملء معابدهم بالأعمدة التى تمثل أرقى ما فى أبنيتهم من زينة. وأؤكد أن عدد تلك الأعمدة لا يؤذى جمال أو فخامة تلك الأماكن المقدسة، بل على العكس، لن يظهر التصميم المعمارى بالقدر الكافى من الثبات - وهو أهم عناصر التصميم المعمارى - بالنسبة للمصريين القدماء بدون تلك الأعمدة. وهذا - فى رأيى - السبب وراء عدم تشييد الأقواس. لكننى سأحاول أن أثبت أنهم عرفوا كيفية بناء الأقواس باستخدام حجر العقد كما نفعل نحن. وقد يتجول الرحالة بين بقايا طيبة، وذهنه مشدود إلى العظمة والفخامة التى تتصف بها تلك المبانى الضخمة مما يجعله يغفل المبانى الأصغر والأقل شأنًا خاصة تلك المبنية من قوالب الطوب العادية المجففة بحرارة الشمس. إلى جانب هذا، لدى هذا الرحالة فكرة مسبقة أن المصريين القدماء جهلوا فن بناء الأقواس، فلو أراد رؤية أحد الأقواس أو العبور تحت ممر على هيئة قوس، فإنه يُسَلِّم بأن هذا القوس أو ذاك من صنع أناس جاءوا فى عصور متأخرة. وسأصف الآن وضع الكثير من الأقواس التى يمكن أن نراها فى طيبة، وأوضح الغرض التى بنيت من أجله، وأترك للقارئ تخمين عما إذا كانت هذه الأقواس من صنع المصريين القدماء أو غيرهم من الناس.

إن أسلوب بناء جدران هائلة القوة بقوالب من الطوب غير المحروق أسلوب غريب على قدماء المصريين. وأنا لا أشك فى هذا للحظة واحدة استنادًا إلى الكثير والكثير من الأشياء التى نراها أمام أعيننا، لكن إن طرح التساؤل، فسوف أسأل أيًا من الرحالة الذين زاروا طيبة إذا كان أى منهم يرى أن السور المحيط بطريق الكباش أو التماثيل ذات رءوس الأسود التى اكتشفتها فى الكرنك من بناء أى أناس غير قدماء المصريين.

بل هناك بعض الأسوار تحيط بالأماكن المقدسة، فإذا اعترض أحد قائلاً إن أحد الشعوب اللاحقة التى عبدت نفس الآلهة المصرية القديمة أقامت تلك الأسوار والحوائط لحماية أبنيتها المقدسة، فإننى سأقول: "لا" وبأعلى صوتى، هذه ليست الحقيقة، لأن تلك الأسوار والحوائط مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالآثار المصرية مما يجعلنا نرى أنها شُيِّدَت فى نفس الوقت معها. والأكثر ارتباطًا بالموضوع مما سبق وجود مقابر متعددة وممتدة فى القرنة لم نعثر عليها فى الصخور نفسها، لكن فى السهول عند سفح هذه الصخور، وتحت السطح بحوالى ١٢ إلى ١٤ قدمًا، وتمتد إلى عمق كبير تحت الأرض. عادة ما نصل إلى تلك المقابر عن طريق أحد السلالم الذى يؤدى إلى بهو مُربع كبير مقطوع فى الصخر يصل طوله فى بعض الأحيان إلى تسعين أو مائة قدم، ويقابل السلم بوجه عام مدخل المقبرة. ومن الجدير بالملاحظة أن تلك القاعات دخلت فى الخطة الأصلية الخاصة بالمنشأة، فلا يوجد ما يحمى هذه القاعات أو يحيط بها من أى جانب سوى سور يغطيها تمامًا. ولولا هذا السور، لتعرضت القاعات لدخول كل القمامة الآتية إليها من المقابر الأخرى. وتتضح من ذلك ضرورة بناء تلك الأسوار، ولاشك عندى أن كثيراً من الرحالة سيرون أن تلك الأسوار الهائلة الحجم لم يَبْنِها أى شعب تالٍ لقدماء المصريين لحماية مقابرهم. توجد فوق السلم المؤدى إلى القاعة أقواس شديدة الارتفاع مهيبة المنظر ليست مبنية من نفس الأحجار، بل ومتصلة بالأسوار والحوائط نفسها؛ وبالتالى من صنع المصريين، فهى مبنية من نفس أحجار العقد كما نبنى الأقواس فى أيامنا هذه. وفى القرنة عدد كبير من المبانى المشيدة باستخدام الطوب المحروق فى الشمس ينتمى إلى تاريخ لاحق أتمنى ألا يتفق مع ما يقوله الآخرون. استخدم فى إنشاء بعض هذه المبانى نوع أصغر من الطوب، بينما استخدم مع البعض الآخر طوب من الأسوار المصرية القديمة، لكن أسلوب بنائها يوضح بما لا يترك مجالاً للشك الفرق بين من شيد كلاً من هذه المبانى.

لو استطردنا فى الحديث عن العمارة المصرية القديمة، سيظهر لنا أن المصريين القدماء ولاشك تميزوا بميزة الاختراع الذى أعتبره مصدر التطور ومنبعه. وقد يدعى الإغريق أنهم وصلوا بفن العمارة إلى آفاق بعيدة من الإتقان والتطور، لكن من المعروف لنا جميعًا أنهم أخذوا أفكارهم الرئيسية من قدماء المصريين.

قدماء المصريين أمة موغلة فى القدم؛ كان عليهم أن يشكلوا أى شىء دون الاستعانة بنموذج أمامهم يقلدونه. وتتسم ملكة الإبداع والابتكار عندهم بالخصب الشديد لدرجة أن كثيراً من الطرز المعمارية الجديدة يمكن استقاؤها من بقايا مبانيهم. فإذا ألقينا النظر على قواعد الأعمدة المصرية القديمة، ألسنا نرى مجموعة متشابكة من الطرز المعمارية فى كتلة واحدة والتى - إن فُصِلَت كل منها على حدة - أفرزت إشارات متعددة إلى أفكار جديدة؟ إذا أراد مُحبو الحقيقة إنعام النظر إلى شتى أشكال اللوتس على قواعد الأعمدة، فسيرون بما لا يدع مجالاً للشك أن الطرز الدورية(١٣) Doric والكورنثية(١٤) مستوحاة منها، بل ويمكن أن يُستَوحى منها الكثير. وهناك ما يدعو أيضًا لأن نصدق بأن الطراز الأيونى Ionic نشأ فى مصر. يتضح ذلك من قواعد الأعمدة فى دندرة، وتلك الموجودة فى معبد إدفو الصغير، وأخيراً من القواعد الموجودة فى معبد إيزيس

(١٣) الطراز الدورى أو Doric : هو أعرق الطرز المعمارية الإغريقية الثلاثة. تطور أولاً فى اليونان ومستعمراتها الغربية، وهذا الطراز من الأعمدة ليس له قاعدة. ويستدق محيط العمود تدريجيًا حتى يصل إلى ارتفاع يتراوح بين خمسة وسبعة أمثال قطره السفلى. ويوجد على طول الساق ما يتراوح بين ١٦ و ٢٠ خطًا عموديًا تسمى الخُدد، تلتقى فى حواف حادة. كما يوجد أخدود أفقى واحد أو أكثر عند التقاء الساق بالتاج يسمى العناقة. وللتاج جزءان متساويا السمك تقريبًا، يسمى الجزء الأعلى منهما طبلية تاج العمود، وهى كتلة مسطحة مربعة الشكل موضوعة فوق الجزء الأسفل الثانى الذى يُمثِّل لوحًا دائريًا يشبه السنادة يسمى الحلْية المدورة. ومن أشهر الصروح المعمارية التى استخدم فيها الطراز الدورى مبنى البارثينون الموجود فى الأكروبوليس بأثينا. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

(١٤) الطراز الكورينثى Corinthian : هو أعرق الطرز المعمارية الإغريقية الثلاثة زخرفة، وهو أسلوب أخذ عن الطراز الأيونى؛ وله ساق مخددة مماثلة لتلك التى فى العمود الأيونى، إلا أن تاجه أكثر تطوراً من تاج العمود الدورى. ويتكون هذا التاج من جزء مركزى يشبه الجرس المقلوب، تحيط به نقوش من أوراق نبات الأقنتوس المنتظمة فى صفوف تخرج منها أربع حليات حلزونية لتلتقى بزوايا طبلية التاج. وتوجد من هذا الطراز أعمدة فى المبنى التذكارى المسمى ليسكريتس بأثينا.

أما الطراز الأيونى فهو أدق من الدورى وأكثر منه زخرفة. وقد اخترعه الإغريق الذين كانوا يقطنون جزء بحر إيجه وآسيا الوسطى. وترتفع ساق العمود الأيونى على قاعدة مستديرة تحتوى على كتلة مربعة فى الأسفل تسمى الوطيدة ارتفاعها يتراوح بين ٩ و١٠ أمثال قطرها الأسفل. ويوجد على طول العمود عادة ١٢٤ أخدوداً تفصل بينها حلْيات مسطحة ضيقة مستوية. أما تاجه فيتألف من حلْيات حلزونية، أى حليات درجية، وتُفصل الحليةَ المدورة عن طبلية تاج العمود. وتوجد مثل هذه الأعمدة فى الإركثيوم بأثينا. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

الصغير بجزيرة فيلة. ويبدو أن اسم الآلهة التى اقترنت بالمعبد الأول والثالث من هذه المعابد دعم هذا الفرض. فكما نعرف جميعًا أن إيزيس هى الربة أو الإلهة المصرية القديمة التى تقابل أيو Io عند الإغريق، وهو الاسم الذى اشتقت منه الصفة Ionic ولاشك. ومن المحتمل جداً أن الشخص الذى أدخل هذا الطراز إلى اليونان أعطاه هذا الاسم الذى استوحاه من معبد الإلهة.

تثير المنحوتات المصرية القديمة الرائعة إعجاب من تقع عينيه عليها نظراً لقوة التشكيل ووضوحه. إلا أن ضخامة حجم هذه المنحوتات أدى إلى صعوبة الحفاظ على النسب الصحيحة بين الأجزاء المختلفة بالنسبة للنحات حسب ارتفاع التمثال. فعلى سبيل المثال، إذا نُحِتَ تمثال على حجم الجسم البشرى الطبيعى، فسوف يُنْحَت الرأس أيضًا بالحجم الطبيعى، أما إذا نُحِتَ أحد التماثيل بارتفاع ٣٠ قدمًا، كان الرأس أكبر بالنسبة لحجم الجسم، فإذا وصل الارتفاع إلى ٥٠ قدماً، زاد حجم الرأس أكثر. يؤدى بعد المسافة من عين الرائى بالنسبة للتماثيل ذات الحجم الهائل إلى تضاؤل الحجم بشدة لدرجة أن الرأس سيظهر صغيراً جداً بالنسبة للساقين. لابد أن هذا العمل المضنى - من نقوش هيروغليفية لا حصر لها تُرى على كل جزء من كل مبنى، ومن التماثيل التى لا حصر لها على المعابد والمقابر والمسلات والحوائط - يتطلب جهداً رائعًا. استخدم المصريون بوجه عام أربعة أنواع فقط من الصخور فى النحت، وهى الصخر الرملى والكلسى أو الجيرى والحَصْبانى[١٥] والجرانيت. كل ما سبق من صخور عدا النوع الأول يتميز بالصلابة الشديدة، والأغرب أننا لا نعرف بأى من الأدوات كانوا يقطعون هذه الصخور. إن لدينا دليلاً ظاهراً للعيان على أن الأدوات التى نستخدمها اليوم لن تقطع الجرانيت دون قدر كبير من الصعوبة، وأشك إن استطعنا بعد ذلك أن نعطى الصخر ذلك السطح الناعم المصقول الذى نراه فى مصر. ومع ذلك من غير المعقول أن نفترض أن الجرانيت وغيره من الصخور كانت أقل صلابةً أيام المصريين القدماء مما هى عليه الآن. تتصف زوايا التماثيل المصنوعة من الصخر الجيرى بأنها

(١٥) الصخر الحصبانى breccia : صخر مؤلف من كسارات صخور أخرى متلاحمة. [المترجم]

حـادة جـداً لدرجـة أن أفـضل إزمـيل فى أيامنـا هذه لن يسـتطيع تشكيل تماثيل بهـذا الإتقان، وهو من الصخور شديد الصلابة لدرجة أنه يجرح أكثر كالزجاج منه كنوع من الصخور، أما الجرانيت فهو مُصْمَتٌ يستحيل كسره تقريباً.

استمر العمل فى التنقيب عند نهاية السهل سالف الذكر فى القرنة عند سفح الصخور التى تفصل ذلك الوادى عن بيبان الملوك، فى نهاية ممر لابد أن تماثيل أبى الهول كانت موجودة فيه. هناك عثرت على ممر مرتفع مُعَبَّد يرتفع تدريجيًا إلى بعض الأنقاض الظاهرة للعيان ثبت أنها لأحد المعابد، ولهذا المعبد أعمدة مزدوجة ثُمانية الزوايا، وهو الوحيد من نوعه الذى رأيته فى مصر. من الواضح أن المعبد قديم جداً، لكننى لن أقول إنه مصرى، رغم ما حُفر على جدرانه من نقوش هيروغليفية، وذلك نظراً للنسب الخاصة بالتصميم – كما رأيتها – والطراز المعمارى للأعمدة المختلف تماماً عن الطرز المعمارية المصرية القديمة. كل هذا دعانى لأن أفترض أن هذا المعبد ينتمى إلى مرحلة تاريخية لاحقة. اكتشفنا بعد ذلك باباً من الجرانيت تحت الصخور مباشرة بلغ ارتفاعه تسع أقدام، وعرضه خمس أقدام، وسُمكه قدم ونصف. الباب مغطى بالنقوش الهيروغليفية والتماثيل المنحوتة بدقة، وعلى رأس الباب توجد كرة أرضية مجنحة وإفريز ملون مدفونٌ بالكامل تحت الأرض.

اعتدت أثناء قيام رجالى بعملهم أن أبحث بين المقابر، ودخلت كل الأماكن والفتحات التى استطعت أن أحشر نفسى فيها. بالنسبة للمقابر الكبيرة، كنا نضرب الجدار الجانبى أو الصخرة بمطرقة قوية كبيرة كى نكتشف من الصوت مدى قرب أى تجويف فيها. وذات مرة لم يصدر عن المطرقة صوت أجوف، بل أحدثت شقًا عرضه قدم ونصف فى مقبرة أخرى. دخلنا بعد توسيع الفتحة بما يكفى لنجد الكثير من المومياوات وكمية كبيرة من التوابيت المكسورة. كانت الأحجار الساقطة من السقف حادة كالموسى؛ فجرحت قدمى فى مواضع متعددة لأن حذائى لم يكن بالقوة الكافية. وتنفصل هذه الأحجار عن السقف على شكل رقاقات مما يثبت أنها أكثر صلابةً منها عند سقوطها أول مرة من السقف. ونزلنا من فتحة مربعة الشكل فى إحدى الغرف الداخلية لهذه المقبرة، ووجدنا فى أسفلها حجرة صغيرة عند كل جانب منها.

عثرنا فى إحدى المقابر على تابوت من الجرانيت ذى غطاء بحالة ممتازة، لكنه كان محكمًا بشدة لدرجة يصعب معها سحبه. وعثرت من بين هذه المومياوات على بعض أوراق البردى الصغيرة، وبردية كبيرة للغاية.

عندما اخترت ألا أعبر النهر ليلاً إلى محل إقامتنا فى معبد الأقصر، حملت متاعى من الآثار الموجودة إلى مدخل بعض المقابر جنبًا إلى جنب مع أولئك الناس من سكان الكهوف. لم أشعر بمتعة أفضل من ذلك، وغالبًا ما يسكن هؤلاء فى الممرات بين المدخل الأول والثانى لأى مقبرة، وتكتسى الجدران والسقف بالسواد كالمدخنة. أما الباب الداخلى فهو مسدود بالوحل فيما عدا فتحة صغيرة تكفى لأن يتسلل منها رجل زحفًا. تُوضَع الأغنام فى هذا المكان عندما يحل الليل، وأحيانًا ما تصاحب هذه الأغنام أصحابها فى تجمعهم الصاخب. ودائمًا هناك أحد التماثيل المصرية القديمة النصفية فوق المدخل، وكذلك الثعلبان الحارسان الشائعان لأماكن الدفن. وجدت فى المكان الذى كنت فيه مصباحًا صغيرًا مُضاءً بقطعة من شحم الضأن أو بقليل من الزيت القديم، وموضوعًا فى كوة فى الحائط، وكذا حصيرة مفروشة على الأرض، وهى مكونات الديوان الكبير أو قاعة الاجتماعات. هناك التف الناس من حولى، ودار حديثهم بالكامل عن الآثار، فهذا شخص عثر على قطعة أثرية، وذاك آخر اكتشف إحدى المقابر. عُرض علىَّ فى أثناء ذلك شراء مختلف القطع الأثرية، وأحيانًا كان لدىَّ من الأسباب ما جعلنى أُسَرُّ لبقائى هناك، فقد ضمنت عشاءً مكونًا من اللبن والخبز الذى قدموه لى فى طبق خشبى. وعندما عرفوا أننى سأقضى الليل كله معهم، ذبحوا لى زوجًا من الطيور يطبخونه بعد ذلك فى فرن صغير يُسَخَّنُ بقطع من توابيت المومياوات، وأحيانًا بعظامها واللفافات الخاصة بها. ولم يكن غريبًا أن نجلس بالقرب من شظايا العظام والأيادى والأقدام أو الجماجم التى غالبًا ما كانت ملقاة أمامنا لأن هؤلاء الناس اعتادوا وألفوا الجلوس والإقامة بين المومياوات لدرجة أنهم لا يعبئون بالجلوس عليها، بدلاً من الجلوس على جلود ما ذبحوه من العجول حتى أصبحوا فى النهاية غير مكترثين بها لدرجة أنهم على استعداد للنوم فى تابوت المومياء كاستعدادهم للنوم خارجه.

كل إنسان يمكن أن يكون سعيداً إذا أراد، فالسعادة ولاشك تعتمد علينا. فإذا رضى الإنسان بما لديه، فإنه يصبح سعيداً، وتزداد هذه السعادة عندما يعرف أنه غير قادر على الحصول على أكثر مما لديه. من الغريب حقًا أن نتكلم عن السعادة بين أناس يعيشون فى الكهوف كالحيوانات أو بين من يعيشون فى المقابر بين جثث ولفافات مومياوات أمة موغلة فى القدم لا يعرفون عنها شيئًا. وهذا أمر تافه إذا ما قيس بدولتهم القائمة على نظام الرق، والخاضعة لنزوات سلطة طاغية لا تترك لهم أية فرصة للاستفادة المالية مما يقومون به من عمل، ولا أية بارقة أمل فى التغيير مستقبلاً اللهم إلا نحو الأسوأ. إلا أن العادة تجعلهم يتأقلمون على كل هذا. فالعامل يعود إلى بيته فى المساء ليجلس بالقرب من كهفه، ويدخن الشيشة مع أصحابه للتسامر حول فيضان النيل الأخير وما نتج عنه، وما سيكون عليه حال الموسم التالى. وتقدم له زوجته العجوز طبق العدس المعتاد والخبز المبلل بالماء والملح، فإن قدمت له القليل من الزبد فكأنه يوم العيد. ولأنه لا يعرف ما هو أحسن من ذلك، تجد أنه يشعر بالسعادة. أما الشغل الشاغل للشباب فهو أن يوفروا مبلغًا ضخمًا من المال يقدر بمائة قرش أى جنيهين وعشرة شلنات كى يستطيع أن يتزوج بأى امرأة ويقيم حفلاً فى يوم الزفاف. فإذا رُزق بالأطفال، فهم ليسوا فى حاجة إلى الملابس حيث يتركهم أبواهم دون عناية حتى تختار العناية الإلهية أن يتعلموا كيف يعملون حتى يحصلوا على المال لشراء قميص أو نحوه من الثياب البالية ليستروا عوراتهم، لأنهم فى سن الطفولة عراة بوجه عام أو تغطى أجسامهم بعض الثياب البالية. ولأن الأبوين يتسمان بطبع المكر الذى يتصف به المتشردون، فمن الطبيعى أن يحتذى الأبناء حذو الآباء فى غش الأجانب وخداعهم. فهل يصدق أحد أن الترف والطموح لهما مكان فى حياةٍ كهذه؟ فإذا كانت المرأة الفقيرة المحرومة من المجوهرات تنظر بعين الغيرة والحسد إلى أخرى أكثر ثراءً منها التى ربما ترتدى قلادة تساوى نصف كراون حول رقبتها، فإن تلك التى تمتلك بضع خرزات زجاجية أو أى حلية متواضعة من المرجان أو زوجًا من البروشات الفضية أو أيًا من الأطواق فى ذراعيها أو ساقيها تعتبر فاحشة الغنى والثراء. ومنهن نساء ذوات دلال فى سلوكهن كاللاتى نراهن فى عواصم أوروبا. ولاحظت فى الغالب أن

الحياء سلوك يظهر أكثر ما يظهر بين القبيحات منهن، فهن لا يكترثن بأن يرى الأجنبى وجوههن لأنهن لا يكسبن شيئًا من وراء ذلك؛ لذا من الأفضل أن يغطوه. وعلى العكس من ذلك، فإن تلك التى تأمل أن تثير إعجاب الأجنبى تحرص أن تسبب إحدى عوامل الصدفة أن ينزاح أو يسقط الحجاب أو قطعة القماش أو الخِرْقَة عن وجهها. وتتظاهر هذه المرأة بعد نجاح الحيلة المفتعلة أنها حريصة على تغطية نفسها ثانية، وكلها رضىً أن الأجنبى اختلس إليها نظرة؛ فتمضى فرحة فخورة لأنه عرف أنها جميلة مليحة الوجه.

عندما يرغب أى شاب فى الزواج، فإنه يتقدم إلى والد العروس المقصودة ويتفق معه على ما سيدفعه مهرًا لها. وبعد الاتفاق، يخصص مبلغًا كبيرًا من المال كى ينفق على حفل الزفاف. لا يشترط لتأثيث منزل الزوجية سوى شراء قِدْرَيْن أو ثلاث قدور فخارية وحجر لطحن الحبوب أى "رحاية" وحصيرة هى بمثابة السرير. ويتكون مهر العروس من ثوب وقطعة من المجوهرات، فلو أعطاها العريس زوجًا من الأساور الفضية أو العاجية أو الزجاجية، فإنها حقًا لمن المحظوظات اللاتى أسعدهن الزمان. الآن البيت جاهز دون أن يدفعوا إيجارًا أو ضرائب. السقف فى هذا البيت لا يتسرب منه ماء المطر ولا يوجد به باب، فلا حاجة بهم إليه، فليس لديهم ما يخافون عليه. ويصنعون صندوقًا من الصلصال والقش يصبح صلبًا للغاية بعد تعريضه للشمس لمدة يومين أو ثلاثة، ثم يثبت هذا الصندوق على قائم مع ترك فتحة لأخذ كل حاجياتهم النفيسة، مع استخدام قطعة من تابوت إحدى المومياوات كباب. فإذا لم يعجبهم البيت، فإنهم يمضون ويدخلون بيتًا آخر حيث هناك المئات من البيوت بل الآلاف تحت إمرتهم، لكن ليس كل هذه البيوت تصلح لسكنى البشر.

وصلتنا أخبار بينما أنا مشغول فى أعمال البحث والتنقيب فى طيبة أن الدفتردار سيركب النيل ليأتى إلينا ثانية. فى أثناء هذا الوقت، رتبت أمورى التى كانت تسير على خير ما يرام. فى الكرنك، وذات صباح قبل عبورى نهر النيل إلى القرنة، أصدرت أوامر إلى رجالى للعمل فى بقعة من الأرض أسفل كومة من التراب ظهر منها جزء من تمثال كبير الحجم. وأسدى مستر بيتشى إلىَّ معروفًا – وهو الذى زار بقايا الآثار أحيانًا –

بأن أشرف على العمل فى ذلك اليوم. سررت عند عودتى من القرنة حينما علمت أن الكشف تمخض عن رأس تمثال أكبر من ذاك الذى أرسلته إلى إنجلترا. هذا الرأس مصنوع من الجرانيت الأحمر، يظهر فيه جمال الصنعة، ولا يزال بحالته بشكل مثير للدهشة فيما عدا أذنًا واحدة وجزءًا من الذقن التى ضاعت مع اللحية. التمثال مفصول عن الكتف من ناحية الجزء السفلى من الرقبة، ويتميز بتاج ميزان الذرة corn mitre على رأسه. ورغم أنه أكبر حجمًا من تمثال ممنون الصغير، فإنه ليس ضخم الحجم ولا ثقيل الوزن لفقدان ذلك الجزء من الكتف الذى كان متصلاً به. أمرت بنقل هذا التمثال إلى الأقصر، واستغرق هذا ثمانية أيام رغم أن المسافة تزيد قليلاً عن ميل واحد.

جمعت حتى هذا الوقت كمية من الآثار فى الأقصر تكفى لأن تعبئ قاربًا آخر فى حجم ذلك القارب الذى جئت به فى العام الماضى. تمكنت أيضًا إلى جانب هذا الرأس الذى يبلغ طوله عشر أقدام من الرقبة حتى قمة التاج من العثور على ذراع تنتمى لنفس التمثال ويبلغ طولها عشر أقدام أيضًا. وسوف يعطينا الرأس والذراع فكرة صائبة عن حجم هذا التمثال.

أحضرت معى أيضًا المذبح الشهير ذا الآلهة الستة المنحوتة بالنحت البارز، وهو من أكثر القطع الفنية اكتمالاً بين كل ما رأيت فى مصر. كان هذا المذبح ملقىً من فوق قاعدته فى أحد المعابد الصغيرة فى الزاوية الشمالية الشرقية للحائط المحيط بالمعبد الكبير بالكرنك. ولا تزال القاعدة هناك، وهى مصنوعة من نوع من الرخام الأبيض. وكان معى أيضًا أربعة تماثيل كبيرة ذات رءوس الأسود، وغطاء التابوت الذى قيل عنه الكثير فى زيارتى الأولى. إن من الصعوبة بمكان أن ننقل تمثالاً ثقيلاً من الجرانيت من تلك الحفر العميقة الضيقة إلى مكان منخفض يكفى بالكاد أن يجلس فيه إنسان على الأرض فوق مرتفع صخرى وعر بمساعدة أناس لا يعرفون شيئًا اسمه النظام ليتحمل الغبار الذى يثيره وقع الأقدام والحرارة العالية الناتجة عن عدد العمال. أمرت العمال بنقل التمثال عن طريق النهر إلى الأقصر، وهو الآن جاهز لنقله، وحسنًا فعلت.

يبدو أن الحظ حالفنى هذه المرة حتى الآن، فما إن انتهيت من أعمالى، وخلصت من جمع ما وجدت من الآثار كما أشرت سابقًا، حتى صدر مرسوم من الدفتردار بك

الذى وصل إلى قَمولا Gamola التى تقع على بعد ثلاثة أميال من شمال طيبة إلى كل الكُشَّاف والقائممقات العاملين على كلا جانبى طيبة بعدم السماح للإنجليز بأن يجمعوا أية قطع أثرية، وكذلك عدم السماح للعرب بالعمل أو البيع لهم مهما كانت الأسباب.

لابد أن أخبر القارئ أن العميلين المنتميَيْن إلى الحزب المُعادى ذهبا إلى قَمولا لحظة وصول البك، وطلبا منه إصدار هذا المرسوم بحجة أنهما لم يجدا أو يشتريا قطعة أثرية واحدة بسبب الإنجليز الذين وضعوا أيديهم على كل شىء. ولم يكن البك بحاجة إلى الكثير من الإقناع منهما بهذا الصدد؛ ونتيجة لهذا أرسل إلى الرؤساء العاملين فى القرنة والأقصر والكرنك بأوامر صارمة كما سبق أن أوضحت.

جاء إلينا شيخ القرنة ليخبرنا بالمرسوم الذى أصدره البك. كان هذا الرجل المسكين الذى كان قريبًا إلينا إلى حد ما آسفًا من جانبه، لكنه قال إنه لابد من تنفيذ الأوامر. كان الوقت متأخرًا جدًا للخروج هذا المساء لمقابلة البك، لذا انتظرت حتى صباح اليوم التالى. وجدت عند وصولى الخاقان الأعظم جالسًا فى ديوانه محاطًا بالكُشَّاف وعدد من تابعيه. استقبلنى البك ببرود أكثر مما استقبلنى به فى زيارتى السابقة، واستفسر منى عما إذا كنت لم أجمع قطعى الأثرية بعد. وأجبته بأننى طالما حصلت على إذن منه، فسأظل أحاول العثور على المزيد من الآثار.

قدمت له خطابًا من الباشا، لكننى لو أحضرت له هدية، لكان لها أثر أفضل. إلا أنه حوَّل مجرى الحديث ببراعة إلى موضوع آخر بمجرد أن رأى العنوان قبل أن يتسلم منى الخطاب بيده، ومضت نصف ساعة قبل أن أستطيع العودة إلى الموضوع الأصلى ثانية الذى نجح فى الانحراف عنه. احترت فى تفسير سلوكه، وبدأت أتساءل عن الأسباب التى أدت إلى توقف أعمالنا فى الكرنك، وإصدار الأوامر فى القرنة بعدم بيع أى شىء للإنجليز، وعلى أى أساس تمت التفرقة بيننا وبين الفريق الآخر. نظر البك إلى الخطاب مرة أخرى، ثم أخبر الكُشَّاف مبتسمًا بما كتبه الباشا، إلا أن لغة الخطاب جاءت بشكل يدل كما لو أن الباشا العجوز يعانى من الخرف وضعف العقل وأنه ارتد ثانية إلى طور الطفولة، وبذلك يفعل البك ما يحلو له فى هذا الأمر.

ثم وضع الخطاب جانبًا، وشرع فى الحديث عن أمور أخرى. رأيت أنه يريد أن يجد مبررًا لسلوكه نحونا؛ فقال إن أخبارًا وصلت إليه من شكوى الفلاحين من سوء معاملتنا لهم لدرجة أننا نستل سيوفنا كل لحظة لنقطع رقابهم، وأننا نتعرض لهم دائمًا بالضرب. عند هذه اللحظة نهضت من مجلسى، وقلت إننى مندهش أن رجلاً فى مثل عقله الراجح الرزين يمكن أن يصدق مثل هذه الأخبار، وأن يتهمنا دون دليل، وأنه لو تحقق من الأمر كله، لوجد أنه خطأ من أوله إلى آخره، ومن واجبه أن يقيم العدالة بيننا. فرد علىّ قائلاً إننا اشترينا كل الآثار تقريبًا التى يمكن الحصول عليها فى القرنة فى حين لم يتمكن الفريق الآخر من شراء أى شىء، لذا حان الوقت لإيقاف نشاطنا. فأجبت أن ما اشتريناه باعه لنا العرب باختيارهم، ورجوته ألا يصدق ما سمعه من خصومنا الذين لعبوا مثل هذه الحيل حتى لا نعرف بأمرهم. واستمر فى الحديث عن أمور أخرى حتى سألته فى النهاية عما يعتزم عمله بالنسبة للأمر الصادر فى الكرنك، فلم يرد علىّ، لكنه تساءل إذا كانت القرنة بعيدة عن هنا. وما إن أريناه المكان من النافذة – والذى يبعد ستة أميال – حتى أمر بتجهيز الخيل، ولم تمر دقائق معدودة حتى انطلقنا إلى ذلك المكان. وصلنا فى ساعتين، ثم ذهب البك رأسًا إلى مجمع ممنون، وهناك استفسر عن تلك "الجوامع" الكبيرة كما سماها، وطرح أسئلة متعددة حول المبانى والتماثيل الموجودة بها. ثم انتقل بعد ذلك إلى التمثالين، ومنهما إلى مدينة آبو حيث لحقت به، وصممت على أن أذكر موضوع الأمر الذى أصدره إلى الشيوخ. بحثت عن فرصة كى أتحدث إليه على انفراد، وحصلت عليها مرات كثيرة، لكن دون جدوى، فكلما بدأت أذكر له موضوعنا وجه إلىّ سؤالاً آخر؛ وبذلك لم ينفع معه الكلام. لكنى أردت ألا أفقد أعصابى، فهذا ما يريده، وعزمت على ألا أتركه للحظة لأن طبيعة الأتراك أنه لابد أن تلح عليهم للخضوع لأى شىء لا يوافق هواهم. وبعد إلقاء نظرة عامة على الآثار، استوقفته المعركة الشهيرة المرسومة على الحائط، وأبدى فيها رأيه باستحالة وجود الألوان فى نفس الوقت الذى رسمت فيه الأشكال البشرية، وذلك لحداثة الألوان ونضارتها، وللتلف البالغ اللاحق بالأحجار. أخبرته أن هذه الأشياء تظل على حالتها نظرًا للمناخ التى تتمتع به هذه البلاد، لكنه أصر على رأيه باستحالة وجود الألوان.

بعـدها ترك هـذا الموقـع، ووقف تحت الممـر ذى القنطرة الخـاص بالمدخل الأول، وطلب شيـخ القـرنة الذى عـرف أنه صـديق لنا والذى تسلم الأمـر الليلة السـابقـة. بسـأل هذا الشيـخ الذى ارتعدت فرائصـه عندما نادى عليه عن عدد الرجال الذين كانوا فى القرنة فى أعمال الحفر للبحث عن المومياوات؛ وأجاب الشيخ بأنهم كانوا بستة أو سبعة. ورأيت أن البك لم يعرف كيف يُنَفِّس عن غيظه، كما لم يقدر أن يتجنب سحب الأمر الذى أصدره؛ فكان علـى الشيخ المسكين أن يتحمل المعـاناة، وأن نتحـمل نحن الذل وانكسـار القلب. وجالت بخـاطره فكرة شيطانية إذ سـأل الشيخ إمكانية أن يجد فى القرنة أى موميـاء لم تفتح من قبل. رد الشـيخ أن بالإمكان العثور على واحدة إن منحـه الوقت الكافى للبحث، لكن من عادة الناس أن يفتحـوا المقابر فور أن يعثروا عليـها. عندئذ ثارت ثائرة البك، وأصر أن يعثر الشيخ على واحـدة فى الحال، فإن لم يجدها فسوف يضـربه بالفَلَقة[١٦]. أمرَ الشيخ المسكين بحـفر الأرض تحت قدميه مباشرةً واستخـراج أية مومياء؛ فـأجاب أن المومـياوات توجد فى القرنة، وأنه لن يعثر على أية موميـاء فى المكان الذى يقف فيه، ومما حَسَّن موقفه أن أحد الكُشَّـاف والأتباع أكد ما قـاله الشيـخ. عند ذلك أرسل البك الشيخ إلى القرنة، وأخبره بأن عليـه أن يعثر على موميـاء فى تابوتها لـم يفتحـها أحد، وأعطاه سـاعـة لذلك. حـاول الشـيخ الذى يثيـر حـاله الشـفقـة أن يتكلم، إلا أن ثلاثة أو أربعة من العسكر أخرسـوه عن الكلام. بدأ البك بـعد هـذا بقليل فى طرح أسئلة أخرى بخصوص المعبد لاسيمـا أننا رسمنا بعض الاسكتشـات، مضيفًا أنـه قادر أيضًا على الرسـم بنفسـه لو أعطينـاه الورق والقلم الرصـاص. فـأخبـرته أننى لا أشك فى أنه قـادر على رسم اسكتشـات لا بأس بها مما يراه أمـامه؛ وعلى هذا الأسـاس طلب منى أن أعطيه قلمى الرصـاص وبعض الورق الذى أعطيتـه إياه من النوتة الخـاصـة بى. رسـم البك اسكتشًا لقاعدة أحد الأعمدة الموجودة أمام البوابة. فلما انتهى منه، عُرِضَ هذا الاسكتش على الجميـع بقدر كبير من التباهى والتفاخـر. وأثنى البك على نفسه ثناء وإطراءً كثيرًا، ووافق الكل أن هذا الاسكتش من القطع الفنية البـديعـة بحـق. ثم أعطانى إيـاها قـائلاً

(١٦) الفلقة : طريقة فى معاقبة المذنب بضرب أسفل القدمين بالعصا. [المترجم]

بنبرة يملؤها الغرور والخيلاء: "ها! شايف أقدر أعمل إيه!"، فأخذتها ووضعتها فى جيبى، وحافظت عليها لعلها تفيد فى أن تعطينا فكرة عن الشخص الذى رسمها. غادرنا مدينة أبو Abou قاصدين القرنة، وهناك وتحت شجرة دوم رأينا الشيخ وبعض الإنكشارية معهم إحدى المومياوات جاهزة للذهاب بها إلى معاليه. وقبل أن يقترب البك من الموقع للتأكد، بدأ يصيح قائلاً إنه متأكد أن المقبرة فتحها من قبل أحد هؤلاء الرجال الذين يبحثون عن المومياوات، ولم يفلح أحد فى إقناعه بغير ذلك وأن الشيخ هو الذى عثر عليها. لم أتصور أن الأمور ستتطور أبدًا إلى هذا الحد. فرغم استحالة أن يشك أحد أن هذا التابوت فتح من قبل، فإن البك أراد حجة ليضرب الشيخ المسكين لأنه صديق لنا. وعلى هذا الأساس، أمر البك بأن يمد الشيخ على الفور على الأرض استعدادًا لتعذيبه لدرجة أننى سمعت من الأتراك أنفسهم ما عبروا به عن سخطهم وتقززهم. وعرفت أن كل ذلك كان نتيجة لما حاكه خصومنا من حيل ودسائس لما أخبروا البك أن الشيخ صديق لنا، وما من شك فى أنه سيستمع إلى ما قالوا لأنهم أحضروا له بعض الهدايا البسيطة لتأييد ادعائهم. لم أتوانَ عن التوسط لصالح الرجل المسكين التعس الحظ الذى كان يعذب بالضرب بالفلقة، لكن دون جدوى، واقتنعت أننى كلما استعطفته، زاد من الضرب الذى يلحق به. وغامر الترجمان – غير منتبهٍ لما فعله البك – بالتوسط للشيخ باسم مستر سولت Mr. Salt القنصل الإنجليزى، فانفجر البك ضاحكًا. ثم توسل إليه باسم حماه الباشا، فأجاب البك أنه الحاكم الأوحد فى الأمر كله، ثم أضاف قائلاً للرجل الذى كان يعذب الشيخ "كمان، كمان .. وبشدة".

فى أثناء ذلك كان الرجل المسكين أشبه بالمومياء التى وضعت إلى جواره، فاقداً للحس والشعور، وإذا استمر الضرب قليلاً فلا شك عندى أنه سيظل هناك للأبد، وسيدفن حيث يرقد. وأترك العنان لخيال أى إنسان يحب الرحمة والإنسانية أن يعرف إلى أى مدى غلى الدم فى عروقى، وما كانت عليه مشاعرى فى تلك اللحظة. أؤكد للقارئ أننى لم أظن أننى وقفت طويلاً دون أن أعلنها أمامهم صراحة، لكننى قلت لنفسى إن فقدان أعصابى لن يؤدى لأى نتيجة على الإطلاق، ولن أنال سوى الإهانة من البك لأن كل ما يريده هو أن يحصل على الفرصة التى تعطيه المبرر فى تصرفاته نحونا.

إلا أن العقل لم يكبح غضبي وثورتي، لكنه حَدَّ من حركة جسمي، فوقفت لفترة طويلة بلا حراك. وكان البك مبتسماً، وخفت أن يكتشف مشاعري مما يزيد من متعته. وأخيراً أمر الرجل أن يتوقف، وحُمِلَ الشيخ البائس إلى الكهف كما تحمل الجثة إلى قبرها، وكان في حالته تلك أجدر أن يحمل إلى القبر بدلاً من البيت. وبعدها أمر البك بفتح المومياء، فلما لم يجد فيها شيئًا، صاح قائلاً إنهم لو لم يأتوا له بمومياء كاملة، فسوف يلقي بالشيخ في النيل. ولاحظ أنني تحاشيت الحديث معه لفرط تقززي من البقاء بالقرب من مخلوق كهذا؛ فنادى على شيخ آخر، وأمره بأنه لابد أن تباع أية قطعة آثار يُعثر عليها في القرنة إلى خصومنا من الآن فصاعداً. وعندما أخبرته أنني أشعر بضرورة أن أكتب إلى القاهرة قبل أن يطلع النهار، امتطى جواده، ونادى ترجماني وطلب منه أن يرسل أحد الرجال إلى قَمولا حتى يرسل معه مرسوماً يقضي باستئناف العمل في اليوم التالي. فأخبرته أنني سأرسل إلى القاهرة رغم هذا التغير الواضح في رأيه، فلزامٌ عليَّ أن أخبر الباشا كيف تطاع أوامره. ثم ذهبت بعدها إلى الشيخ الذي وجدته غير قادر على الكلام، لقد عملت كل ما بوسعي من أجله، وسرى الخوف بين العرب في أن يكون لهم أية علاقة بنا.

في الصباح استعددت لإرسال الترجمان إلى قَمولا حينما رأينا سفينة البك تمر أمام الأقصر لينزل منها كاشف قنا لتوه رجلاً من قَمولا، وهو الرجل الذي يحمل المرسوم الذي يقضي بأن يسمح لنا بعشرين من العمال لمدة ثماني ساعات. وعندما عرفت أن البك لم يتوقف، تحدثت إلى الكاشف كي استفيد من نفوذه حتى يضع المرسوم موضع التنفيذ لأنه كان على علم أنها حجة من جانب البك. أخبرني الكاشف بصراحة أن خصومنا شوهوا سمعتنا أمام البك، وقال لو كان الأمر بيده لأصبح صديقًا لنا. عندها أفهمته أن من مصلحته أن يكون ودوداً مع فريقنا كما هو الحال مع الفريق الآخر لأن عداوة البك لن تدوم طويلاً، لأنها ببساطة ناتجة عن بعض المشاغل التي منعت القنصل من المجيء، وهو الذي كان يعتزم أن يحضر معه الهدايا للبك ولنفسه حينما تعود كل الحقوق لأصحابها ثانية. ظللت أقنعه لمدة طويلة؛ فأصدر أوامر للرجال ببدء العمل، وجمعت في بضعة أيام كل القطع الأثرية معًا في رصيف الميناء في الأقصر، وأمرت بأن يبنى حولها سور من الطين.

في أثناء ذلك كان كل فلاحي القرنة في ذعر ورعب شديدين نتيجة مرسوم آخر أصدره البك يقضي بألاَّ يبيعوا أي شيء لنا أو للفرنسيين، وكذلك بوجوب العثور على ثلاثة مومياوات لم يفتحها أحد من قبل وتجهيزها له عند عودته في غضون أيام قلائل. كانت هذه حجة ولاشك بوجه عام للضرب بالفلقة، ذلك أنهم طلبوا إحضار المومياوات من الرجال الذين عملوا مع الإنجليز. وخاف الشيخ المسكين الذي لا يزال غير قادر على الحركة من أن يتعرض لمزيد من الضرب. انتهينا توًا من بعض الأعمال في الكرنك والأقصر عندما ظهر صاحبنا في الأقصر إثر عودته من دَراو Derou في صباح يوم الثالث من مايو. وعند نزوله من السفينة، جاء إلينا ليرى مجموعة الآثار التي نمتلكها، وهي دون شك مجموعة لا يُعْتَدُّ بها. أبدى الرجل ملحوظة أو اثنتين من قبيل أن هذا الرأس قطعة أثرية رائعة الجمال وما إلى ذلك، ثم جرى هنا وهناك بين الآثار كالحيران الذي يبحث عن الآثار ولا يعرف الطريق. اشتكينا له الموقف حينما أبدى ميلاً إلى أن يصغي لما نقوله له، وأخبرناه أن الفلاحين لن يعملوا معنا نتيجة ما فعله بالشيخ على الجانب الآخر من النهر، وأنه رغم إحضارنا لخطابات توصية قوية من الباشا نفسه، فإننا ما زلنا دون حماية، ومعرضين لوقاحة خصومنا وغطرستهم، إلى جانب وقاحة وغطرسة الآخرين الذين ظنوا أن بإمكانهم أن يتصرفوا حيالنا كما يشاءون مع إفلاتهم من العقاب. تساءل صاحبنا إن تعرض أي واحد منهم لنا بأذى، فقلنا له إن الفلاحين تعرضوا لترجماننا بالضرب، وأن القائمقام قال بعد إثبات الواقعة إنه ليس في يده عمل شيء للجناة لخوفه من إثارة غضب البك. ثم سألني بعدها إن كان سبب غضبي ضرب شيخ القرنة، فقلت له إن من المحزن أن ترى إنسانًا يُضْرَب دون سبب؛ فالشيخ لم يكن له أي تعاملات معنا، ولم يبع لنا قطعة آثار واحدة، لكن من حقه أن يعامل من يعملون معه كيفما يشاء، فليس من شأننا أن نتدخل في أوامره أو في من ينفذون هذه الأوامر طالما أنها لا تضرنا. بعدها سألني عن طلباتي، فقلت إننا نريد أن يعاملنا الناس باحترام، وأن يسمح لنا باستئناف نشاطنا. إننا لا نطمح بأن نعامل معاملة مميزة عن خصومنا، لكننا نرغب في مرسوم لأهل القرنة يقضي بأن نشتري منهم الآثار كغيرنا من الناس، وإصدار مرسوم آخر لكاشفيّ أسوان وأبريم Ibrim لعزمنا على الاتجاه جنوبًا في النيل، وهو الأمر الذي وافقنا عليه الجنتلمان، ثم رحل.

عند عودتى إلى الأقصر وجدت أبوَيْن من آباء التبشير الذين قابلتهم فى رحلتى الأولى من ردامنت Redamont والذين جاءوا ليروا الآثار. شعرت أن من واجبى أن أرد لهم هذا الواجب لما عاملونى به من أدب ولطف فى تلك الرحلة. ووفقًا لذلك ذهبت معهم إلى كل الأماكن التى أعرفها لاسيما مقابر الملوك ومجمع المنونيوم ومدينة أبو والكرنك والأقصر. من مصادر سعادتى بوجه عام أن أرِىَ هذه الأشياء للأجانب، وأسمع تعليقاتهم، وألاحظ علامات الدهشة والرضا على وجوههم بعد رؤية ما لم يستطع أحد أن يراه فى أى بقعة من بقاع العالم، وفى نفس الوقت لا شىء يثير غيظ عشاق الآثار أكثر من اللامبالاة - وهذا هو الحال غالبًا - حتى أمام أجمل الآثار وأكثرها جاذبية. استقر هذان الكاهنان المقدسان فى البلاد ما يقرب من عشر سنوات، وسكنا فى مكان يبعد مسافة ثلاثة أيام عن طيبة، ومع ذلك لم يفكرا مطلقًا فى تجشم عناء السفر طوال هذه المدة، ولم يكونا ليفعلا ذلك إلا بعد أن أقنعتهما بعد مقابلتى الأولى بهما. هذا الإهمال للآثار سيثير استفزاز الرحالة القادمين من لندن وباريس وفيينا وبطرسبرج كى يشاهدوا تلك الآثار الدالة على العظمة والفخامة. فعند وصولنا إلى المقابر الأولى من المدخل - وهى من المقابر ذات الجلال بحق - شكا الكاهنان القديسان اللذان يتمتعان بذوق بالنسبة للآثار كذوق الدواب التى كانوا يركبونها، من شعورهما بالإرهاق الشديد رغم أنهما جاءا على ظهر حمارين من أحسن الحمير. كنت منتبه الحواس يقظًا لأى بادرة تعجب أو دهشة، ولشدَّ ما كانت خيبة أملى! نزل الرجلان عن ركوبتهما دون أن ينتبها لأى شىء من تلك الأماكن رائعة الجمال سوى انتباههما لمبنىً عادى أو دير لجماعة من الرهبان. وأرسلا على الفور الصبى كى يأتى لهما بزجاجة من المشروبات الروحية وشرب كل منهما كوبًا. ظننت أنهما سيأخذان الأمر ببساطة، وأنهما سيفحصان كل شىء بدقة وعناية، لكن سرعان ما تكشف لى الأمر، فالملاحظة الوحيدة التى أدليا بها كانت عن اسم صديق لهما وجداه مكتوبًا بالفحم على أحد الجدران المقدسة. وأعربا عن دهشتهما كيف جاء إلى هنا، رغم أنه كان هناك وأشياء من هذا القبيل. ولم يكن شغلهما الشاغل رغم أنهما كانا محاطين بالآثار المصرية القديمة والنقوش الهيروغليفية والتماثيل والرسومات رفيعة المستوى سوى البحث فى الكثير من

الشخبطات على الجدران والأحجار ليريا ما إذا كان أصدقاؤهما الآخرون موجودين أيضًا. وعندما وصلنا إلى البهو الكبير، لم يكن بوسعهما إلا أن يلاحظا العدد المهول من التوابيت الموجودة هناك. وعلى الفور تساءلا عما إذا كانت الجثث لا تزال موجودة هناك أم لا. وأثناء تقدمنا فى الرحلة، وعندما اكتشفا أن التوابيت خالية من مومياواتها، توصل الرجلان إلى أنه لا شيء هناك يستحق المشاهدة، فليس بين هذه التوابيت جثمان ملك من الملوك. وبناء على طلبى، ألقى الرجلان نظرة على إحدى الرسومات، ولولا ذلك لخرجوا دون أن يعرفوا إن كان ما دخلوه مقبرة أو قبوًا للخمر. فى تلك الأثناء جلس أحد أصدقائهم - الذى لم يكن مثل هؤلاء الآباء فى شدة الحرص على مشاهدة تلك الآثار - بالقرب من المدخل لأنه لم يهتم بالاستمرار قدمًا، وظل ينادى على الراهبين المقدسين بأن يسرعا متعجبًا من أمر هؤلاء الذين يضيعون من الوقت الكثير فى النظر إلى تلك الأشياء. ومن السهل أن نتخيل مدى الإحباط وخيبة الأمل بسبب ذوق أصحابى، بل ومدى غيظى وغضبى من انعدام اهتمامهم ولامبالاتهم. وعندما رأيت أنه لا علاج لهم، أخرجتهم من المقبرة بأسرع ما يمكن حتى أريهم مقبرة أكثر فخامةً وعظمة على أمل فى حظ أوفر. وعلى هذا أخذتهم لرؤية أروع ما فى المقابر وأبدعها. وهذه مقبرة ممتازة بحق؛ فهى لا تتميز عن غيرها من المقابر بأنها ظلت كما هى بحالة ممتازة فحسب، بل لأنها تضم ثمانى غرف صغيرة مقطوعة فى الصخر فى كل جانب من جوانبها فى الممر الأول. توجد رسومات بها مجموعة كبيرة من الأشياء التى كان يستخدمها قدماء المصريين، كأدوات الحرب والملابس المنزلية والرسمية والديكورات والأدوات الموسيقية، باختصار كل ما كانوا يستعملونه من أشياء نفعية وزخرفية أو للرفاهية فى زمانهم بما يعطى فكرة صائبة عن أسلوب حياتهم. وتتلون الأرضية باللون الأبيض، كما تتميز الألوان بأنها مفعمة بالحياة أخاذة لدرجة أننا لابد أن نتعجب من أمرها. وبعد ذلك تمر من خلال بهو معمد طويل عليه نقوش من أجمل النقوش الهيروغليفية، وبحالة جيدة كسابقتها، ويوجد فى الردهة الكبيرة تابوت هائل الحجم منحوت من قطعة جرانيت واحدة يبلغ طوله عشر أقدام، وعرضه ست أقدام، وسمكه ست بوصات تغطيه النقوش الهيروغليفية من الداخل والخارج. وهذا التابوت من أكبر

التوابيت التى بقيت على حالتها فى أيامنا هذه. وهناك حجرات أخرى تتصل بالردهة الكبيرة كلها جديرة باهتمام الرحالة وانتباهه؛ ففيها يرى مختلف الأشكال والنقوش الهيروغليفية تدل على نمط المعيشة، والزراعة وغيرها من الأنشطة التى كان يقوم بها السكان القدامى لهذه البلاد.

أخبرت الأبوين عند دخولنا المقبرة أنها من أجمل المقابر وأروعها، فهى تضم رسومات مثيرة للاهتمام للأدوات والأشياء التى كان يستعملها القدماء. ومر الرجلان من الرواق الأول بنفس اللامبالاة والفتور كما حدث فى المقبرة الأولى حاملين الشموع أثناء مرورهم عند كل غرفة فيختلسون النظر بإدخال رؤوسهم لكن دون أن يدخلوا هم. الشىء الوحيد الذى لفت انتباههم وجود مشابك أو دلايات[١٧] على صندوق صغير أشبه بالصناديق التى توضع فيها زجاجات الشراب الكبيرة. وعند خروجنا أخذت طريقًا فوق الجبل يصل بك إلى القمة فى دقائق معدودة رغم صعوبته ووعورته، ثم ينحدر إلى مدينة آبو. أخذت الرجلين وعدنا إلى الأقصر لعدم وجود بوادر نجاح هنا.

هبت علينا ريح عاتية فى ذلك اليوم مما يدعونى لأن أذكر بعض خصائص هذه الظاهرة التى غالبًا ما تقع فى مصر. أولاً سأذكر "الزوابع" التى تهب فى كل أوقات السنة، لاسيما فى وقت رياح الخمسين[١٨] التى تبدأ فى إبريل وتظل لمدة خمسين يومًا ومن هنا جاءت التسمية. وتهب هذه الرياح عامةً من الجنوب الغربى وتستمر لمدة أربعة أو خمسة أو ستة أيام دون تغيير، وتهب قوية جدًا لدرجة أنها تثير الرمال لارتفاع كبير فى الجو مكونةً سحابة كبيرة كثيفة من الغبار يستحيل معها أن تفتح عينيك دون أن تغطيها بشىء. وتشكل هذه الرياح مصدر إزعاج حتى للعرب، فهى تؤدى إلى دخول الغبار إلى البيوت من كل شق حتى يمتلأ كل شىء به. وعندما تهب الخماسين تتوقف القوافل عن المسير، والقوارب عن التقدم فى النهر، ويبلع الرحالة الغبار رغمًا عنهم.

(١٧) الدلاية أو المشبك hasp : شىءيطبق على الرَّزَّة (أو) القفل للإغلاق. [المترجم]

(١٨) هكذا ذكرها بلزونى أو لعله سمعها بهذا النطق، وهى بالطبع رياح الخماسين التى يعرفها أهل مصر. [المترجم]

ويشبه الأثر العام اشتعال فوضى عارمة. تتصاعد كميات هائلة من الرمال والأحجار الصغيرة بوجه عام تدريجيًا إلى ارتفاع كبير فى الجو لتكون شيئًا أشبه بعمود سميك يتراوح طول قطره من ستين إلى سبعين قدمًا لدرجة أن هذا العمود لو ثبت فى بقعة واحدة سيبدو أنه كتلة صلبة. ولا تدور هذه الرياح فى محيط بعينه، بل تهب فى اتجاه دائرى فوق مساحة كبيرة من الأرض، وأحيانًا تظل فى حركة مستمرة لمدة نصف ساعة، وحيثما تحل هذه الريح تكوم تلاً صغيرًا من الرمال. كان الله فى عون الرحالة الذى تهب عليه مثل هذه الريح!

الظاهرة الثانية هى "السراب"، وهى التى كثيرًا ما وصفها الرحالة الذين انخدعوا بها حيث يبدو لهم السراب من بعيد كأنه ماء. وهى حقيقة ولاشك، ولابد أن أعترف أننى انخدعت بها حتى بعد أن عرفتها. فشبهه الشديد بالماء ورغبتى القوية فى هذا الشيء جعلنى أستنتج أن ما رأته عيناى كان ماء رغم حرصى على ألا انخدع. يظهر السراب عامةً كبحيرة ساكنة تزداد سكونًا عندما تهب الرياح لدرجة أن كل شيء فى السماء ينعكس عليها بوضوح شديد، وهذا هو السبب الرئيسى للخداع البصرى. فإذا حركت الرياح أيًا من النباتات التى تنمو على امتداد الأفق عند السراب، فإن الحركة تُرى بصورة واضحة ومن على بُعد. وعندما يقف الرحالة فى مكان يرتفع كثيرًا عن السراب، فما يظهر على أنه ماء يبدو أقل تجمعًا وأقل عمقًا، ولأن العين تنظر إلى أسفل، فليس هناك بخار على سطح الأرض يكفى لإخفائها عن الأنظار. لكن إذا وقف الرحالة على مستوى امتداد الأفق عند السراب، فلن يستطيع الرؤية وبذلك يبدو له ماء صافيًا. عندما وضعت رأسى أولاً على مستوى الأرض ثم ركبت الجمل – الذى قد يصل ارتفاعه عن الأرض إلى حوالى عشر أقدام على الأكثر – وجدت فارقًا كبيرًا فى رؤية السراب؛ فهو يصبح أقل سمكًا كأن الرياح تحركه كحقل القمح الناضج عند الاقتراب منه. ويختفى السراب تدريجيًا كلما دنا منه الرحالة، ويتلاشى كليةً فى النهاية عندما يصل المسافر إلى البقعة التى وجده عندها.

أما الظاهرة الثالثة فهى "الجراد" حيث رأيت تلك الحشرات تطير مكونة سحبًا كبيرة، يكفى ضعف عددها فى نفس المكان لتشكيل كتلة مصمتة كفيلة بحجب أشعة

الشمس عن الوصول إلى الأرض كليةً مسببة الظلام التام. يحط الجراد على حقول الذرة أو غيرها من النباتات، وما هي إلا دقائق معدودة حتى يأتي على المحصول كله. يصدر أهل البلد ضجيجًا عاليًا لتخويفه وإبعاده، لكن دون جدوى، لذا فإن الناس يصيدونه - على سبيل الثأر والمعاملة بالمثل - ويأكلونه بعد شويه باعتباره وجبة لذيذة. يشبه الجراد الجُندب إلى حد ما في شكله، ويبلغ طوله حوالى بوصتين. تتميز هذه الحشرة عادة بلونها الأصفر أو الذهبي، لكن منها ما هو أحمر أو أخضر اللون.

نعود مرة أخرى إلى أعمال البحث و التنقيب في الأقصر. في تلك الأثناء استعد خصومنا للسفر إلى القاهرة وهو ما فرحنا له كثيرًا لأننا ظننا حينئذٍ أننا سنعمل وحدنا. وكتبت إلى القاهرة لأخبر القنصل مستر سولت بكل ما حدث مع البك، فما لم تكن حاضرًا لهذه الوقائع، فلن تجد فيها أية إثارة أو تشويق، ولن تدرك مدى التقزز الذي تثيره. كتبت لمستر بيركهارت أيضًا عن الموضوع، وأدركت من رده أن سلوك البك لم يُثِرْ في نفسه ما يدعو للدهشة.

شعرنا في النهاية أننا سنظل وحدنا لنتابع أعمال البحث في القرنة، وأقنعنا الشيوخ والناس في ذلك المكان إلى حد ما بأنهم لن يتعرضوا لغضب البك وسخطه لحصولي على مرسوم منه يسمح لهم بالعمل معنا وببيع الآثار لنا؛ واتفقنا أن كل الشيوخ سيجتمعون في الصباح لسماع الأمر. وبناء على ذلك، تجمعنا في الكهف الذي يمثل عادةً مكانًا عامًا للأجانب وسوقًا أو بورصة لبيع وشراء الآثار. جاء عدد كبير من الفلاحين لسماع الفرمان الذي كتبه الرجل الكبير بخط يده، وكانوا في قمة الانتباه واليقظة نتيجة لما حدث مؤخرًا للشيخ. أودع ترجماننا هذا الفرمان في جيبه باعتباره أقوى الأوامر التي صدرت، وكان يتفاخر في أغلب الأحيان بأن في حوزته ذلك المرسوم. أخيرًا هاهو الفرمان قد صدر، وهو الآن بين يدي الشخص الوحيد الذي يستطيع القراءة من بين الشيوخ. تلا الرجل الفرمان على نفسه أولاً حتى يتسنى له تلاوته بطلاقة على الملأ، لكنه لم يخطئ الخطأ الفادح حينما توجه إليَّ بنظرة استغراب، وأكمل القراءة حتى النهاية، ثم سألني إذا كان عليه أن يقرأه بصوت عالٍ على الملأ، فأجبته بالإثبات، وتلاه عليهم تقريبًا كما يلي :

"إنه نزولاً على رغبة وإرادة السيد حامد والدفتردار بك والحاكم الحالى لصعيد مصر، تقرر أنه لا يحق لأى من المشايخ أو الفلاحين أو أى شخص أن يبيع قطعة أثرية واحدة للفريق الإنجليزى أو العمل معهم، بل على العكس، فإننا نأمركم أن يباع كل شىء تعثرون عليه إلى فريق مستر دروتى، ومن يخالف هذا الأمر فسوف يتعرض لغضب البك وسخطه".

لست بحاجة لأن أخبر القارئ عن شعورى عندما سمعت هذا الأمر القانونى، فهو العكس تماماً لما توقعته حسبما رأيت من البك. ولو كنت على يقين من عدم عودتى إلى مصر مرة أخرى، لأفضت أكثر عن كيفية حدوث هذا الأمر وعن الوسائل التى استخدمت للتأثير على البك. أنا لا أعرف ما يخبئه لى القدر فى حياتى المستقبلية؛ لذلك لن أفصح شيئًا عن هذا الموضوع حتى يحين الأوان حينما يتضح هذا الأمر وغيره من الأمور التى لا يعرف العالم عنها شيئًا، وحين تظهر للنور الدسائس والمؤامرات المختلفة التى حاكها ضدى فى الظلام أكثر من صنف من البشر.

فى ظل هذه الظروف، قلت إن أى محاولة لعمل تجديدات فى نظام عملنا لا فائدة منها، وإننا سنرد بالكتابة إلى القاهرة، وبدء رحلتنا التى خططنا لها إلى جزيرة فيلة. اقترحت على مستر سولت أننا سنعمل على فتح معبد أبى سمبل لو استطاع أن يوفر لنا مورد المال، فذلك من المشروعات التى يعتبرها الناس أقرب إلى الخيال كبناء القصور فى الهواء، ولم يكن يخطر على بال أحد أن هناك معبداً فى هذه المنطقة. وبعد تأمين كل مقتنياتنا من الآثار فى بقعة واحدة، بنينا سوراً من الطين حولها غطيناه بالتراب وتركنا شيخًا عربيًا حارساً عليها، وانطلقنا فى يوم ٢٣ من مايو إلى أسوان.

انطلقنا قدماً لأننا عقدنا العزم على أن نشاهد كل شىء بتأنٍ عند عودتنا، فلم نرَ شيئًا بخلاف مدينة إدفو وكوم أمبو. ألقينا نظرة عامة فى أسوان على جزيرة إلفانتين وغيرها من الجزر، ثم استأنفنا المسير إلى جزيرة فيلة التى اتخذناها محطة لانتظار الرد على الرسائل التى أرسلناها من الأقصر إلى مستر سولت. وفى الطريق ألقينا نظرة سريعة على الشلال. يبلغ طول أحد أهم الشلالات فى هذا الوقت من السنة حوالى ثلاثين قدماً مكونًا زاوية يبلغ مقدارها ٥٠ درجة. ويمكن أن تتوقف القوارب والسفن الصغيرة أو تتحرك فى كل أوقات العام.

يتميز منظر جزيرة فيلة والآثار بها بالفخامة والروعة حقًا لاسيما من على بُعد رغم أنها جزيرة قاحلة جرداء، وهى محاطة بصخور الجرانيت من كل جانب مكونةً جزءًا من الأرض الأساسية، وجزءًا من الجزر الأخرى. ويدل أسلوب النقوش الهيروغليفية الموجودة أن المبانى المعمارية بها ترجع إلى آخر عصر من الدولة المصرية القديمة، وتعود هذه المبانى – فى رأيى – إلى عصر البطالمة. ولدى ما يكفى من الأسباب لدحض أية شكوك تدور حول ذلك؛ فمن المؤكد أن المعبد الخارجى – الذى يحيط به صف واحد من الأعمدة من كل الجوانب، ويفترض أنه موجود فى المرسى شرقى الجزيرة – ينتمى إلى المدرسة المعمارية الأخيرة، لكن بناءه لم يكتمل. يتسم بناء الأعمدة بأنه ذو أسلوب أخف بكثير من الأسلوب المصرى القديم مما يثبت أن هذه الأمة لو استمرت فى الوجود، لتطورت تدريجيًا بمرور الزمن بامتزاج الروح الإغريقية ذات الرونق والجاذبية بالعظمة والفخامة المتناهية التى تتسم بها أعمالهم الفنية لتكوِّن أسلوبًا معماريًا غير معروف لنا، لكنه ولاشك سيكون أكثر روعة وجلالاً من أى طراز معمارى آخر. هناك أدلة أخرى تثبت أن هذا المبنى ينتمى إلى طراز أكثر حداثة ومكوَّنٌ من مواد تنتمى إلى مبنىً أقدم. فهناك حجر فى منتصف أحد الأعمدة التى تقابل البوابة فى البهو ذى الأعمدة المؤدى إلى المحراب نحتت عليه نقوش هيروغليفية مقلوبة، ويمكن أن ترى حجرًا من نفس النوع على نفس العمود من ناحية الغرب بالقرب من الأرض. تضم المنطقة الأثرية كلها هذين المعبدين المتصلين ببعضهما تقريبًا. ويقع المعبد الصغير المخصص لعبادة إيزيس داخل الساحة المحاطة بالأعمدة الخاصة بالمعبد الكبير الذى كان مخصصًا – حسب اعتقادى– لعبادة نفس الإلهة وسيرابيس(١٩) **Serapis** وباقى الآلهة.

(١٩) سيرابيس Serapis : إله فى الأساطير المصرية القديمة. ذاع صيته فجأة فى القرن الرابع قبل الميلاد بين حكام مصر البطالمة، ابتداء من بطليموس الأول عام ٣٢٣ ق.م. جمع سيرابيس بين صفات كل من أبيس وأوزوريس. كما صُوِّر فى الإسكندرية جالسًا على عرش متخذًا هيئة ملكية مثل زيوس ملك الآلهة الإغريقية المعروف. وكانوا يعتقدون أنه إله الجحيم وأنه يجلب الخصوبة، إذ إنه سيد نهر النيل، وهو يحمى المسافرين بالبحر، ويلهم الكهنة ويشفى المرضى ويحكم الكون، كما فعل زيوس حسبما تقول الأساطير. [المترجم نقلاً بتصرف عن الموسوعة العربية العالمية]

يقابل هذا المبنى جهة الجنوب بمدخل كبير يحيط به صفان من الأعمدة، وتختلف قواعد الأعمدة عن بعضها البعض.

توجد عند مدخل البوابة الأولى مسلة من الجرانيت ملقاة على الأرض - كما ذكرت آنفًا - على قاعدتها نقوش باللغة الإغريقية، وهي عبارة عن شكوى مقدمة من الكهنة إلى بطليموس وكليوباترا ضد رجال الجيش والحكومة فى هذا البلد، مما يثبت أن الكهنة المصريين لم يكن لهم أى نفوذ فى الحكومة فى ذلك الوقت. أما الذى اكتشف هذا النقش المكتوب فهو رحالة إنجليزى اسمه مستر بانكس Mr. Banks ، لكنه لم يستخرجه لعدم كفاية الوقت لديه، وأخذ مستر بيتشى نسخة منه. ويمكن رؤية جزء من مسلة وقاعدة أخرى فى السور الطينى المقابل. هناك أيضًا أسدان من الجرانيت على جانبى السلالم المكونة من أربع درجات التى لابد أنها كانت بهذا الوضع فقد لاحظت أن قواعد صفوف الأعمدة أقل مستوىً من قواعد مدخل الأعمدة.

تجد بعد اجتياز البوابة الأولى المدخل المؤدى إلى الرواق، التى يقع إلى الغرب منها معبد إيزيس الصغير المحاط بالأعمدة المربعة مع تصميم قاعدة العمود على شكل رأس الإلهة. ويضم الجزء الداخلى ثلاث حجرات، هى البهو ذو الأعمدة وحرم المعبد والحجرة المقدسة المخصصة للكهنة. النقوش الهيروغليفية بحالة ممتازة تقريبًا، لكنها مغطاة تقريبًا بالطين، وكانت هذه الحجرة المقدسة بمثابة كنيسة يونانية صغيرة. ويوجد إلى شرقى الرواق بهو معمد به غرف متعددة لاشك أنها خاصة بالكهنة، وتوجد عند الناحية الشمالية بوابة مغطاة بأشكال ضخمة كسابقتها. ثم نأتى عند اجتيازنا لهذه البوابة إلى البهو ذى الأعمدة الذى يُعد أجمل وأروع جزء فى المبنى. لا تزال النقوش الهيروغليفية محتفظة بحالتها الأولى وألوانها تنبض بالحياة وكذلك قواعد الأعمدة البالغ عددها عشر قواعد. تنقسم الأشكال المرسومة على سور هذا البهو إلى مجموعات مختلفة تأخذ شكل مقصورات يبلغ ارتفاعها خمس أقدام، أما تلك الأجزاء الموجودة على الأعمدة التى تمثل زخارف هذا البهو فهى عالية الجمال. وهناك مجموعة أخرى من الآثار غربى الجزيرة تمثل المدخل إلى المعبد من ناحية الماء، ومن ناحية الشمال الشرقى توجد بقايا الأقواس الثلاثة التى بناها الرومان. لابد أن مرسى الجزيرة كان

موجوداً فى هذا المكان، بينما تهدم القوس الأوسط. وتجد على أحجار العقد الكلمات التالية محفورة "مقدس، مقدس، مقدس" (باللغة اللاتينية) مما يبرهن بالدليل الساطع على أن الجزيرة كانت بمثابة مقر مقدس ليس للمصريين القدماء والإغريق فحسب، بل وللرومان أيضًا. وهناك علامات واضحة على المعبد ككل تدل على آثار الديانة المسيحية، فالجدران مغطاة بالطين لإخفاء النقوش الهيروغليفية به، كما رسمت بعض الأشكال الغريبة عن الدين المسيحى على هذا الغطاء، إلا أن الزمن كشف النقوش الهيروغليفية ثانية لأن الطين فقد تماسكه فى العديد من الأماكن. وفى ظهر المعبد أو فى الجزء الشمالى منه يقع أساس أحد المبانى الذى كان كنيسة يونانية مبنية من أحجار تنتمى إلى بقايا مبانٍ أخرى كما يتضح من النقوش الهيروغليفية. ولا أملك إلا أن أقول إن بهذه الجزيرة أرقى مجموعة من الآثار من بين ما وقعت عليه عيناى فى تلك المساحة الصغيرة من الأرض. فالجزيرة كلها لا يزيد طولها عن ألف قدم، ويقل عرضها عن خمسمائة قدم، وهى تمتاز بكثرة ما بها من آثار، كما أنها منفصلة عن غيرها من الجزر الجرداء التى تحيط بها وتبعد عنها مسافة كبيرة إلى حد ما، وكذا المنظر البديع البالغ الرقى. تقف إلى غربى جزيرة فيلة بقايا أحد المعابد الصغيرة التى استخدمت أيضًا لأغراض مسيحية. ولا يمكن أن ترى إلا بضعة نقوش هيروغليفية، وبقايا تمثالين متآكلين من الجرانيت فى وضع الجلوس. توجد إلى الجنوب من المعبد أرض المدافن التى تشبه إلى حد كبير مدافن القرنة مما جعلنى أفترض أنها قد تكون مدافن سكان جزيرة فيلة، رغم وجود عدد من المقابر الأخرى فى الجبال شرقى الجزيرة.

صنعت أثناء إقامتنا فى جزيرة فيلة نموذجًا من الشمع لبهو الأعمدة الخاص بالمعبد الكبير، وحملنى على ذلك قواعد الأعمدة الجميلة المنظر وغيرها من زخارف الأعمدة. كنا فى شهر مايو، وكانت الحرارة شديدة للغاية لدرجة أن الشمع المخلوط بالراتينج احتفظ بالكاد بدرجة من الصلابة تكفى بأن تجعل لهذه الكتلة من الشمع شكلاً مميزاً. وصلت درجة الحرارة فى الترمومتر إلى ١٢٤° فهرنهايت، لكن الزئبق ظل يرتفع إلى قمة الأنبوب الزجاجى لدرجة أننا لم نتمكن من معرفة درجة الحرارة إلا لو كان الأنبوب أطول.

وصل أحد العرب لتوه من القاهرة حاملاً رسالة من مستر سولت. استغرقت رحلته حتى يصل إلينا ثمانية عشر يومًا كلها عن طريق البر. أرسل مستر سولت لنا في هذا الخطاب بعض المال، ولشد ما كانت سعادتي عندما استجاب مستر سولت لطلبي بفتح معبد أبي سمبل الذي ذكرته له كثيراً، وكان لابد لي أن أسوق له أسباباً مقنعة تبرر المخاطرة في الإنفاق على هذه العملية، والشك الذي يثني الكثير من الناس عن البحث عن هذا المعبد خاصة أن مستر سولت نفسه ساورته شكوك قوية عن وجود أي معبد هناك لأنه قال في هذا الخطاب إنه يظن أننا لن نجد أي مدخل، وهو يخشى أن تصبح هذه العملية مثل بعض أضرحة أو المقابر حول الأهرامات.

وصل القبطانان إيربي ومانجلز Irby and Mangles إلى الجزيرة قبل هذا ببضعة أيام. كان الرجلان يبحران أعلى النيل عند الشلال الثاني، وانضما إلينا نظراً لصعوبة الحصول على قاربين، وبذلك لم يبقَ لنا سوى عدو واحد فقط. أرسلنا ترجماننا إلى إسنا ليمدنا بالطعام حيث لم يبق شيء يمكن الحصول عليه في أسوان. وجاء يوم الرابع من يونيو، واقترح صاحبانا المرحان القبطانان إيربي ومانجلز أن نحتفل بذكرى عيد ميلاد صاحب الجلالة الملك جورج الثالث. وبناء على ذلك أخذنا علمًا قديمًا من القارب، وثبتناه على أعلى معبد في الجزيرة. وعندما حلت ساعة الظهيرة أحضرنا كل أسلحتنا النارية، وشرعنا في التحية المعروفة بإطلاق واحد وعشرين طلقة نارية. لم يكن معنا إلا خمس طلقات، واضطررنا لحشو بنادقنا على الفور بعد إطلاق الأعيرة النارية الخمسة، وسرعان ما أصبحت البنادق ساخنة جداً نظراً لحرارة النار والشمس لدرجة أننا لم نستطع أن نلمسها بأيدينا. وعندما حل الليل كررنا مظاهر احتفالنا، لكننا أثرنا خوف كل الأهالي حولنا الذين لم يتخيلوا السبب وراء إهدار هذا القدر الكبير من البارود دون قتل أي شخص. إلا أن هذا أقنعهم - كما أظن - أننا مستعدون تمامًا إذا دعت الضرورة للدفاع عن أنفسنا. وصلت زوجتي السيدة بلزوني في اليوم التالي من القاهرة، وهي الرحلة التي قامت بها وحدها دون أن يصاحبها أحد سوى الغلام الأيرلندي جيمس. لم أستطع أن أوجد وسيلة لآخذها معنا في أعالي النيل، فلم نكن نملك إلا قارباً واحداً، لذا تركتها في الجزيرة لحين عودتنا. وستسرد زوجتي أخبار إقامتها هناك بنفسها.

في يوم ١٦ من يونيو غادرنا جزيرة فيلة. تكونت الصحبة من القبطانين إيربى ومانجلز ومستر بيتشى وأنا وخادمين ومحمد وهو جندى أرسله لنا مستر سولت. لقينا الكثير من الصعاب أثناء رحلتنا النيلية من طاقمنا المكون من خمسة رجال وثلاثة غلمان كلهم من أسرة واحدة.

عند وصولنا إلى أبى سمبل، وجدنا أن الكَشَفَة لم يكونوا هناك، بل فى قرية توماس Tomas المواجهة للدير. وأرسلنا لهم رسالة عاجلة لنخبرهم أننا سنفتح المعبد، واستأنفنا الرحلة فى تلك الأثناء إلى الشلال الثانى. سرنا قبل أن نذهب إلى وادى حلفا بمحاذاة الضفة الغربية للنيل قدر استطاعتنا بالقارب، ثم نزلنا البر ومشينا لمسافة ثلاثة أو أربعة أميال إلى صخرة أبى صارة لأننى رأيت هناك مناظر بديعة الجمال فى رحلتى الأولى عندما يعلو الماء، وتمنيت أن أرى هذه المناظر فى ذلك الوقت من السنة وأن أريها لأصحابى. ولم تُثِر تلك المنطقة اهتمامى حينما رأيتها لأول مرة، فلم تكن الجزر بهذا العدد، ولم أجد حينذاك تلك الموجات ذات الرغاوى البيضاء كأن المنظر لوحة فنية رائعة مرصعة بحلى من اللونين الأبيض والأخضر. ومع ذلك، كان المنظر العام بالغ الرقى والروعة، ولكم كانت سعادتى لرؤيته ثانيةً.

قطعنا الليل بعد عودتنا إلى قاربنا من نفس الجانب من النهر. وفى الصباح التالى عبرنا المياه لندخل خليجًا صغيرًا فى النيل حيث أرسينا قاربنا بالقرب من قرية وادى حلفا. أثناء ذلك وطد الطاقم عزمهم على أن يبتزوا منا المال بالقوة؛ لهذا أرسوا القارب وقالوا إن لنا حرية العودة وحدنا إذا شئنا؛ فهم يعرفون أننا لن نتمكن من ذلك دون تكبد المصاعب لأن القارب كان محاطًا بالشطآن الرملية. ووفقًا لذلك عقدنا العزم على أن نواصل المسير برًا لنرى الشلال على الضفة الشرقية – كما فعلت فى العام الماضى – لكن فى ظل هذه الظروف الراهنة، لم يكن من الحكمة أبدًا أن نترك القارب لئلا يتعرض كل ما عليه للنهب، وجمع ذلك الطاقم الكثير من الأهالى الذين كانوا كما يبدو على استعداد لمعاونتهم فى مثل تلك الأعمال. لم نكن لنستسلم لهم، واحتج هؤلاء أنهم لن يركبوا سطح القارب ما لم ندفع لهم أولاً بعض المال. ثم أخذنا قرارًا بمحاولة العمل وحدنا قدر الطاقة، وإن كان ذلك فى الظاهر أكثر منه فى الواقع لأننا لم نكن

أبداً قادرين على إخراج القارب من هذا المكان. إلا أن محاولتنا لإنزال القلْع ولفه – وهو الشيء الذى لابد من فعله حتى نسير في النهر مع التيار– أتت أثرها المقصود، فلم يمض وقت حتى أرسل هؤلاء الرجال واحداً من الطاقم ليفاوضنا. فأخبرناه أنهم لو أخرجوا القارب إلى منتصف النهر فإننا سنعطيهم بقشيشاً، لكن ليس قبل ذلك. واتفقنا على هذا، وفى النهاية، وبعد أن ضاع اليوم كله فى هذا المشكل، عدنا إلى أبى سمبل. جاء الأهالى أثناء ذلك اليوم ليتفحصوا كل شيء معنا على سطح القارب، لكنهم أدركوا أننا متفوقون عنهم كثيراً فى السلاح، وأننا على أتم الاستعداد للدفاع عن أنفسنا فى حالة الضرورة.

عند وصولنا إلى أبى سمبل لم نجد أى رد من مُصمُص على ما أرسلنا. انتظرنا ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع وصل رسول راكبًا جملاً. قال الرجل إنه جاء من طرف القنصل الإنجليزى ليرى إن كنت أنا نفس الرجل الذى أتى العام الماضى وأراد أن يفتح المعبد. فلما تعرف عليَّ، عاد على الفور.

ظهر الكاشفان بعد ثلاثة أيام واتخذا مقاماً لهما أكواخاً صغيرة من البوص على أحد الشطآن الرملية للنيل. قمنا على شأن معاليهما وأحسنا استقبالهما، وحظينا نحن بجليل الاحترام والتقدير لما سنحضره معنا. قدمنا إلى داود الكاشف بندقية بحالة ممتازة وباروداً وطلقات رصاص وبعض الصابون وقليلاً من التبغ. أدى هذا التمييز للأسف إلى إشعال نار الغيرة بين الأخوين. فخليل يعتبر نفسه على قدم المساواة مع أخيه منذ غياب أبيهما. ولم أكن على علم بهذا، ففى العام الأول لم يكن سوى تابع فى موكب أخيه داود. هاج خليل وثار وقال إنه لا يقل عظمةً عن أخيه. فأخبرناه أننا سنعطيه بندقية من بنادقنا، لكن محاولاتنا لتهدئة ثائرته باءت كلها بالفشل. ومر اليوم كله دون أن نعرف ما الذى سيحدث لنا. وأصر داود بلطف على أن ننزل بمنزله لتناول طعام العشاء، لكنى اعتذرت على أساس أن أخاه ليس موجوداً معنا، بعد أن انسحب عائداً إلى كوخه. وذهب داود إلى هناك ليصحبه معه لتناول العشاء لكن بلا فائدة. بعدها ذهبت أنا بنفسى لأحادثه، ونجحت بعد كثير من الكلام واللغط فى الوصول إلى سلام مع ذلك الخاقان العظيم. أخذ خليل إحدى البنادق وبعض البارود والرصاص وانتهينا إلى أن العمل سيبدأ صباحاً بمساعدة ثلاثين رجلاً.

جاء الرجال متأخرين فى الصباح، لكننا استأنفنا العمل فى المعبد بكثير من الحماس والتفاؤل. وأدركت ضرورة سحب الرمال من جانبى الباب حتى تفرغ من المنتصف، لكننا لو أخذنا الرمل من المنتصف، فإنه سيظل ينساب نحو الجوانب. وهاهو الرجل الشجاع المقدام الكونت دى فوربان - الذى لم يقترب قَطْ من على بعد خمسمائة ميل على الأقل من ذلك المكان - يُفْتينا بأنه كان من الأسهل أن نلقى بالرمال فى النهر. ولكم تمنيت أن يأتى إلى ذلك المكان مرة واحدة فى حياته ليرى إن كان الأمر تافهاً كما صوره، فتلك كمية من الرمال كومتها الرياح لقرون عدة. إن إزالة هذا التل الرملى وإلقاءه فى النهر عمل لو شارك فيه جميع الرجال من المناطق المجاورة لما استطاعوا أن ينجزوه فى اثنى عشر شهراً. ووطنت نفسى على أن هدفى الأساسى هو الوصول إلى الباب باعتباره أسرع وسيلة لدخول المعبد.

فى ذلك اليوم قسمت الرجال إلى فريقين، وأوقفت كلا الفريقين على كل جانب من التمثال الضخم الذى يقف أمام المدخل. أتقن هؤلاء الرجال عملهم، لكن عددهم كان قليلاً للغاية لدرجة أن كمية الرمال الضئيلة التى أزالوها لم تكد تظهر للعيان. رأيت أن هذا الأمر سيكون شاقًا ومتعباً للغاية بهذه الطريقة؛ فتقدمت فى المساء باقتراح إلى الكاشف بتخصيص مبلغ ثلثمائة قرش لفتح المعبد، وهذا ما تم الاتفاق عليه بين الكاشف والعمال. استكمل العمال عملهم لمدة ثلاثة أيام تملؤهم الحماسة لأنهم تصوروا أن باستطاعتهم أن ينتهوا منه فى ذلك الوقت خاصةً بعد زيادة عددهم إلى ثمانين بأمر من الكاشف، لكن فى مساء اليوم الثالث لم يزد بريق الأمل فى الوصول إلى الباب عما كان عليه فى اليوم الأول، ونال منهم التعب والإرهاق فى النهاية، وتركونا وحدنا مع المعبد والرمال والكنز بحجة أن شهر رمضان سيبدأ غداً قانعين بالحصول على مبلغ الثلاثمائة قرش الذى دفع لهم جزء منه قبل بدء العمل، ودفع الجزء الثانى فى اليوم الثالث. تناول الكَشَفَة أثناء ذلك طعام العشاء معنا، وتناولنا طعامنا معهم ومع كل أتباعهم. تكونت الوليمة من قطعة صغيرة من لحم الضأن والمرق أو الشوربة الخاصة به وبعض أرغفة من الخبز وقليل من الزبد أو السمن. وما إن وضع الطعام على الأرض حتى تدافع الجميع حيث التف الكل حول الإناء الفخارى، وكان الكاشف أول من مد يده،

وتبعه الباقون على الفور. نجحنا نحن الأربعة أى القبطانان أيربى ومانجلز ومستر بيتشى وأنا فى البقاء بالقرب من بعضنا البعض قدر المستطاع حتى يتسنى لنا جميعًا الأكل من نفس الجانب من الطبق، وبذلك نتمكن من تناول الطعام دون أن نتعرض للاتساخ أكثر. ورأى الكاشف أننا لا نشكل أية عقبة أمام أتباعه الذين غمسوا أيديهم فى النهاية فى الطبق من كل الجوانب؛ وبأدب انتقى لنا أكبر قطع اللحم من الطبق وميزها عن العظام بضغطها بين أصابعه، ووضعها على كم ثوبه، ثم استأنف طعامه حتى فرغ الطبق تقريبًا. عندما أكل الجميع، قدم لكل واحد منا قطعة من اللحم مما حفظه لنا كنوع من المجاملة، والتهمنا اللحم راضين مسرورين، فليس أمامنا أية فرصة لتناول لقمة طعام واحدة حتى الصباح التالى.

هذا اليوم هو أول أيام رمضان، ولم يقدر الفلاحون على العمل، لكنهم قادرون على الاحتفال وفقًا لشريعتهم المقدسة، فهم على الرغم من معرفتهم الضحلة بالدين حريصون على إقامة احتفالاتهم بصورة صحيحة وبانتظام كالأوربيين. وفى اليوم التالى لم يقترب منا أحد أيضًا، وذهب الكاشفان داود وخليل.

قررنا منذ ذلك الوقت أن نعمل على إزالة الرمال بأنفسنا. كنا ستة أشخاص فقط، لكن الطاقم عرضوا تقديم مساعدتهم أيضًا، وبذلك وصل عددنا فى النهاية إلى أربعة عشر شخصًا. وجدنا أن الواحد منا ينجز من العمل ما يقوم به خمسة من البرابرة؛ ففرحنا بذلك وعقدنا العزم على الاستمرار. كنا ننهض كل يوم صباحًا مع الفجر، وننطلق إلى العمل بعد ساعتين ونصف من الشروق. جذبت المثابرة والاستقلالية التى تحلينا بها بعض المزارعين لعرض خدماتهم التى قبلناها، لكن نظرًا لمجىء عدد كبير منهم من الضفة الأخرى من النيل، لم يتفقوا مع سكان منطقة أبى سمبل، ودارت النزاعات والحروب الدائمة بينهم، هذا إلى جانب زيادة أعدادهم بدرجة كبيرة بدافع الغيرة لدرجة أننا لم نستطع أن نوظفهم كلهم مما أدى إلى اشتعال نار نزاعات جديدة، لذا اضطررنا إلى فصلهم جميعًا، واستكملنا العمل بأنفسنا. وظل هؤلاء الناس على إصرارهم بعرض خدماتهم حسب العدد الذى نشاء، لكننا رأينا أن هذا لن يمنع قيام المشاحنات والشجار كل يوم، وبناء على هذا جاء رفضنا.

ذات يوم رأينا من بعيد أحد القوارب يقترب ناحيتنا من جهة الضفة المقابلة من النيل، واقترب القارب فعلمنا أنه ملئ بالرجال المدججين بالسلاح. وكان قد مكث معنا رجل من تلك القرية بعد أن تركنا كاشفا أبى سمبل - رغمًا عن الأوامر- وقدم لنا المساعدة بين الحين والآخر فى العمل. كان هذا الرجل يدعى مُسْمار. وهو - أى السيد مسمار أو مستر نيل Mr. Nail - رجل عظيم، قص علينا حكايات رائعة عن شجاعته الخارقة وأذاع على مسامعنا أنه حينما هجم بدو الصحراء على قرية أبى سمبل كان من أوائل المدافعين الذين قاوموا المعتدين، ثم قال متبجحًا إنه لا يخشى أى رجل فى العالم. كنَّا مفتونين بالطبع لأن هذا الفارس الصنديد بيننا. وعندما دنا القارب بدا الرجل خائفًا مضطربًا، وحرص بشدة على التعرف على هوية هؤلاء الأشخاص. فعندما كانوا على مبعدةٍ منا، قال إن أيًا منهم لا يجرؤ أن يأتى حيث يكون هو. فلما اقتربوا أكثر بحيث يمكن أن يميز هويتهم، لم يستطع أن يعرف ما الذى يريدونه من هذا الجانب من الماء. ولما اقتربوا حتى أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الشاطئ، ظل صاحبنا على زعمه أنه غير قادر على تحديد هوية هؤلاء الناس، وقرر أن يصعد إلى الجبل حتى يراهم بشكل أفضل. وبذلك أطلق ساقيه للريح، وانطلق يجرى فارًا بأسرع ما يكون الفرار. ونزل الرجال من مركبهم، وصعدوا تل الرمال الذى كنا عنده. عندئذٍ أشهرنا أسلحتنا، فتلك هى الطريقة الوحيدة لنيل احترام هؤلاء الأشراف(٢٠). واقتربوا منا - وكان أولهم شيخًا كبيرًا تظهر على ملامحه علامات الحزم. ومد الرجل يده التى صافحتها على الفور وفقًا لعادات هذا البلد. واتضح أن هؤلاء الناس هم كاشفا أبريم الأب والابن. وجلس الرجلان على الرمال، فى حين بقى الآخرون وقوفًا.

بدت إمارات العظمة عليهما أكثر من حكام أبى سمبل، وكان معهما كمية أكبر من السيوف والأسلحة النارية. سعدنا بهما لأننا وجدناهما ودودَيْن خاصة حينما علمنا

(٢٠) الكلمة التى وردت فى الأصل هى gentry وتعنى الناس الذين ينتمون إلى الطبقة العليا أو الأرستقراطية اجتماعيًا، وللكلمة ظلال معانٍ فى الثقافة الإنجليزية لا تظهر فى الترجمة العربية، حيث تطور معناها لتدل على أصحاب الأراضى الزراعية من الإقطاعيين، ولعل بلزونى قصد التهكم فى اختيار هذه اللفظة. [المترجم]

أنهما فى حرب مع حسن الكاشف وولديه داود وخليل. أدركت أنهما غير راضيَيْن لأن مظهرنا وملابسنا لا تدل على ثراء، بالإضافة إلى أنهما رأونا نعمل كالعمال مما جعلهما يستنتجان أننا أناس لا نملك شَرْو نقير. وأخبرانا أنهما خائفان من محمد على والى مصر، ثم أهديانا خروفين صغيرين هزيلين. لم أرضَ عن هذا السلوك لأننى أعرف إلامَ ينتهى إليه دائمًا أمر مثل هذه الهدايا، ورددنا هذه المجاملة بأن دفعنا للخدم الذين جاءوا بالخروفين ضعف ما تساويه الهدية من مال، وأخبرت الكاشفين أننا لا نملك شيئًا لنعطيه للخدم بعد أن استهلكنا كل شىء، لكننا سنذكرهم عند عودتنا إلى البلد. فقالا إنهما لم يأتيا إلى هنا لأخذ أى شىء منا، وهما يأملان أن نتكلم لصالحهما أمام الباشا حين عودتنا إلى القاهرة. فرددت قائلاً إننا لن نقول أية كلمة ضدهما لأنهما لم يتعرضا لنا بأى أذى، بل ولم يريانا من قبل. وعندما نهضا قدمنا لهما التحية المعهودة، وأعربا عن رغبتهما فى رؤية المعبد الصغير فيما بعد. وتبعهما ترجماننا، فالقارب ليس بعيدًا عن ذلك المكان، وعندما وصلا إلى المعبد أخذا المترجم جانبًا، وقالا له إنهما أسياد البلاد، وإذا كان الكُشَّاف الآخرون قادرين على قتل رجل، فهما قادران على قتل اثنين بالإضافة إلى استطاعتهما إيقاف أعمالنا أو جعلها تمضى دون عراقيل، وينطبق هذا أيضًا على باقى الكَشَفَة، فهم الأقوى، وأضافا أنهما علما أننا أعطينا بنادق وبارودًا وطلقات نارية وصابونًا وتبغًا لغيرهم - لذا فهما يتوقعان منا أن نعطيهما ما هو أكثر من ذلك لأنهما الأفضل والأعلى، ولنا أن نتوقع عواقب رفضنا للرضوخ لطلباتهما. لم نتعرض لموقف أكثر سوءًا فى كل عملياتنا فى البحث والتنقيب فى المعبد من هذا الموقف حيث لم يبقَ شىء يمكن أن نعطيه لهؤلاء الناس. وبناءًا على ذلك أرسلنا لهما ردنا، وهو أننا لا نملك شيئًا يمكن أن نعطيه لهما فى الوقت الراهن، لكن لهما أن يأخذا كلامنا محل ثقة بأننا سنعطيهم شيئًا عند زيارتنا المستقبلية إلى النوبة. فردا قائلين إنه ليس من حقنا دخول هذه البلاد دون فرمانات خطية موجهة لهما شخصيًا باعتبارهما الحاكمَيْن الحقيقيَيْن لها. أخبرناهما أن لدينا فرمانًا من الباشا، وأرسلت ترجمانى به كى يريه لهما. فتحا المرسوم، وبعد أن أجالا النظر فيه قالا إنهما لم يفهما كلمة واحدة منه إلى جانب أنه ليس موجهًا لهما؛ وبالتالى ليس له أدنى قيمة،

وحتى إن حصلنا منهما على فرمان، فلا فائدة منه دون أن تصحبه هدايا أكثر قيمة من تلك التى أعطيناها للكُشَّاف الآخرين. وفى أثناء هذه الأحداث مشى الحاكمان العظيمان وأتباعهما المحترمون نحو قاربهم، وأشاروا لنا بضرورة التفكير فى هذا الأمر حالما يذهبون إلى قرية أبى سمبل.

وتركنا العمل فى الوقت المعتاد، ثم استأنفنا العمل مرة أخرى بعد الظهر، متوقعين أن يقطع علينا العمل بين الحين والآخر، واندهشنا فى اليوم التالى عندما تناهى إلى علمنا أن الرجال العظماء رحلوا الليلة. وأكملنا عمليات البحث بانتظام ولمدة بضعة أيام، فوجدنا بروزًا غير منتظم الشكل من الحائط مما يدل على أن العمل لم ينته، واستحالة العثور على باب فى هذه الناحية. عندئذٍ بدأ بعض من أفراد فريقنا يفقد الأمل، ورغم هذا فقد كثفنا جهدنا، وبعد ثلاثة أيام عثرنا على إفريز مكسور، وفى اليوم التالى وجدنا نتوءًا حجريًا مستديرًا torus ، وبالطبع كان الإفريز تحته؛ مما جعلنا نكاد نوقن بعثورنا على الباب فى اليوم التالى. ووفقًا لذلك، أقمت سياجًا حتى لا تنساب الرمال إلى أسفل، ولكم كانت شدة فرحتى عندما رأيت الجزء العلوى من الباب قبيل حلول الليل. أزحنا من الرمال بما يسمح لنا بدخول المعبد تلك الليلة، لكننا أجَّلنا ذلك حتى الصباح التالى خشية أن يكون هناك بعض من الهواء الفاسد داخل تجويف المعبد.

وفى الصباح الباكر من غرة أغسطس ذهبنا إلى المعبد بروح معنوية مرتفعة لأننا سندخل مكانًا لم يُكْتَشَف إلا حديثًا. حاولنا أن نوسع المدخل قدر المستطاع، لكن طاقمنا لم يأت معنا كما تعودنا منه ذلك. بل على العكس، فالظاهر أنهم أرادوا إعاقتنا ما وسعهم ذلك لأنهم رأوا أننا وجدنا الباب فعلاً، لذا تمنوا أن يحولوا بيننا وبين الاستفادة من هذا الكشف، لكن مساعيهم باءت بالفشل. ثم تظاهروا أنهم لم يستطيعوا التوقف بالقارب فى ذلك المكان، ولو لم نصعد على ظهر القارب على الفور، لأقلعوا به وتركونا. وعندما رفضنا قولهم، خَرّوا على الأرض راكعين وألقوا بالرمل على وجوههم قائلين إنهم لم يكونوا ليتوقفوا ثانية واحدة. والحقيقة أنهم وعدوا الكُشَّاف بأن يقوموا ببعض الحيل لعرقلة عملياتنا فى حال عثورنا على الباب، ورغم كل ذلك لم تُجْدِ هذه الألاعيب. وسرعان ما وسعنا الممر، ودخلنا أرقى الأماكن الأثرية وأكبرها وأعظمها فى النوبة،

ذلك الكشف الأثرى الذى لا يضاهيه أى أثر آخر فى مصر كلها عدا المقبرة التى اكتشفت حديثًا فى بيبان الملوك.

من الواضح أن هذا المكان واسع عظيم الاتساع عندما يقع عليه نظرك للوهلة الأولى، لكننا زدنا عجبًا ودهشة حينما وجدناه من أفخم المعابد وأبدعها جمالاً حيث تزينه من الداخل النقوش الغائرة واللوحات والتماثيل الكبيرة الجميلة وغيرها. دخلنا أولاً رواقًا كبيرًا طوله ٥٧ قدمًا وعرضه ٥٢ قدمًا يدعمه صفان من الأعمدة مربعة الشكل فى خط من الباب الأمامى إلى باب الحَرَم (انظر اللوحة رقم ٤٣)، ولكل عمود من تلك الأعمدة شكل لا يختلف عن الأعمدة فى مدينة أبو، فهى متقنة الصنع، ولم تتأثر بعوامل الزمن إلا قليلاً. تصل قمة تيجانهم turbans إلى السقف الذى يصل ارتفاعه إلى حوالى ٣٠ قدمًا، بينما يبلغ طول الأعمدة خمس أقدام ونصف. وتغطى النقوش الهيروغليفية كلاً من الأعمدة والجدران، وهى ذات أسلوب أرقى نوعًا أو على الأقل أكثر سُمْكًا من مثيلاتها فى سائر أنحاء مصر، ليس فى الأسلوب فحسب، بل وفى المضمون. وتصور هذه النقوش المعارك الحربية ومهاجمة القلاع وإحراز الانتصارات على الأحباش وتقديم القرابين وغير ذلك. وفى نفس الأماكن نرى البطل نفسه كما فى مدينة أبو، لكن فى وضع مختلف. تأثرت بعض الأعمدة التى رأيناها كثيرًا بسبب درجة الحرارة المرتفعة، وفساد الهواء حيث ترتفع درجة الحرارة لدرجة أن مؤشر الترمومتر لابد أنه سجل أكثر من مائة وثلاثين درجة فهرنهايت. يبلغ ارتفاع القاعة الثانية قرابة ٢٢ قدمًا وعرضها ٣٧ قدمًا وطولها ٢٥,٥ قدم، وتضم أربعة أعمدة كل منها على مسافة حوالى أربع أقدام، وتغطى النقوش الهيروغليفية الرائعة أيضًا هذه الجدران التى لا تزال بحالة ممتازة. وبعدها وجدنا غرفة أقصر من ذلك يبلغ عرضها ٣٧ قدمًا بها مدخل محراب المعبد. وهناك باب عند كل طرف من أطراف هذه الغرفة يؤدى إلى غرف أصغر فى نفس اتجاه المحراب، تبلغ مساحة كل منها ثمانى أقدام فى سبع. يبلغ طول المحراب ٢٣,٥ قدم وعرضه ١٢ قدمًا، ويضم قاعدة فى المنتصف، وفى النهاية أربعة تماثيل ضخمة فى وضع الجلوس، لا تزال رؤوسها بحالة جيدة حيث لم تتعرض لأعمال العنف. وعند دخول المعبد، وعلى الجانب الأيمن من هذه القاعة الكبيرة يوجد بابان تفصل بينهما

مسافة قصيرة يؤديان إلى حجرتين طويلتين منفصلتين، يبلغ طول الأولى ٣٨ قدمًا وعشر بوصات، وعرضها ١١ قدمًا وخمس بوصات، بينما يصل طول الثانية ٤٨ قدمًا وسبع بوصات، وعرضها ١٣ قدمًا وثلاث بوصات. توجد عند نهاية الحجرة الأولى الكثير من النقوش الهيروغليفية غير المكتملة، وإن كان بعضها - وهو عبارة عن مجرد خطوط عامة - يعطينا أفكارًا رائعة عن أسلوبهم في الرسم. هناك باب عند الزوايا الجانبية للمدخل إلى الحجرة الثانية من القاعة الكبيرة، يؤدي إلى حجرة صغيرة طولها ٢٢ قدمًا وست بوصات وعرضها عشر أقدام. كل حجرة من هذه الحجرات لها بابان يؤديان إلى حجرتين أخريين طول كل منهما ٤٣ قدمًا، وعرض كل منهما عشر أقدام و ١١ بوصة. أما أكثر الأشياء تميزًا في هذا المعبد فهي : (١) تصوير مجموعة من الأسرى الأحباش عند الزاوية الغربية من القاعة الكبيرة، (٢) لوحة للبطل يقتل رجلاً برمحه، وآخر صريعًا تحت قدميه على الجدار الغربي نفسه، (٣) لوحة تصور مشهد مهاجمة إحدى القلاع في الزاوية الغربية من الباب الأمامي. يتصف منظر المعبد من الخارج بالفخامة والعظمة، ويبلغ عرض المعبد ١١٧ قدمًا، وطوله ٨٤ قدمًا، أما الارتفاع من قمة الإفريز وحتى قمة الباب ٦٦ قدمًا وست بوصات، ويصل ارتفاع الباب إلى ٢٠ قدمًا. يتميز المعبد بأربعة تماثيل عملاقة في وضع الجلوس هي الأكبر في مصر أو النوبة، فيما عدا تمثال أبو الهول الكبير بالقرب من الأهرامات، حيث يمثل كل من تلك التماثيل نحو ثلثي حجم أبي الهول تقريبًا. يبلغ طول المسافة من الكتف حتى المرفق ١٥ قدمًا وست بوصات، ويصل طول الآذان ثلاث أقدام وست بوصات، والوجه سبع أقدام، واللحية خمس أقدام وست بوصات، ويصل عرض الكتفين ٢٥ قدمًا وأربع بوصات، ويبلغ ارتفاع التماثيل حوالي ٥١ قدمًا بدون احتساب طول التيجان التي يبلغ طولها ١٤ قدمًا. ولا يظهر للعيان سوى تمثالين من تلك التماثيل، ولا يزال أحدها مدفونًا تحت الرمال، أما الآخر القريب من الباب فهو مقطوع من المنتصف ومدفون تحت الرمال أيضًا. ويوجد عند قمة الباب تمثال كبير لأوزوريس ارتفاعه ٢٠ قدمًا يصحبه تمثالان كبيران على جانبيه عليهما نقوش هيروغليفية ينظران إليه. وعند قمة المعبد تجد إفريزًا تزينه النقوش الهيروغليفية، وتحته لفافة كبيرة من الحجر والإفريز. يصل عرض الإفريز إلى ست أقدام، بينما يبلغ عرض الإفريز أربع أقدام، ويوجد فوق الإفريز صف من التماثيل لقرود

فى وضع الجلوس يبلغ ارتفاع الواحد منها ثمانى أقدام، وعرضه عند الأكتاف ست أقدام. يبلغ عدد هذه القرود واحدًا وعشرين تمثالاً. يقع حوالى ثلثى هذا المعبد تحت الرمال أزلنا منها ٣١ قدمًا قبل أن نصل إلى الجزء العلوى من الباب. ولابد أن هذا المعبد كان له مرسى فى منتهى الروعة، وهو الآن مدفون تمامًا تحت الرمال. هذا المعبد آخر وأكبر معبد يجرى الكشف عنه فى المنطقة الصخرية الصلبة فى النوبة أو مصر فيما عدا المقبرة الجديدة. استغرق فتح هذه المقبرة ٢١ يومًا بالإضافة إلى ستة أيام أخرى فى العام الماضى. وكنا نستعين أحيانًا بثمانين رجلاً للعمل معنا، وكنا نعتمد أحيانًا أخرى على جهودنا الذاتية حيث تتشكل الصحبة فى العمل من مستر بيتشى والقبطانين إيربى ومانجلز وأنا وخادمين والطاقم، ليصل عددنا إجمالاً إلى أحد عشر رجلاً وثلاثة غلمان. تقع المقبرة تحت صخرة تشرف على ارتفاع مائة قدم فوق النيل، وتواجه الجنوب الشرقى من ناحية الشرق، وتبعد مسافة يوم ونصف من الشلال الثانى فى النوبة أو وادى حلفا.

كانت الحرارة مرتفعة للغاية داخل المعبد لدرجة منعتنا من أخذ أية لوحات للمكان من الداخل، فالعرق الذى تصبب من أيدينا سرعان ما بلل الورق الذى أعددناه للرسم. لذا، تركنا هذه المهمة لمن يأتى بعدنا من الرحالة الذين ربما توافرت لهم ظروف أفضل مما توافرت لنا بعد أن يصبح المكان أكثر برودةً. قل مخزوننا من الطعام بدرجة كبيرة لدرجة أنه لم يَبْقَ من الطعام شىء فى الأيام الستة الأخيرة سوى الذُّرَة المسلوقة فى الماء بدون ملح حيث نفد عن آخره. وأصدر الكُشَّاف أوامر إلى الناس بألاَّ يبيعونا أى نوع من الطعام مهما كان أملاً فى أن نبتعد عن المكان بسبب الجوع. إلا أن أحد أفراد عرب العبابدة الذى عاش فى القرية لم يكن خائفًا بدرجة كبيرة من عصيان أوامر الكُشَّاف؛ فهو ينتمى إلى قبيلة أخرى، وكان هذا الرجل يزورنا ليلاً فى بعض الأحيان ويأتى لنا باللبن، لكن اكتُشِفَ أمره فى النهاية، ومُنِعَ من الإتيان لنا بعدها.

لابد لى أن أتقدم بعظيم شكرى وامتنانى لمستر بيتشى والقبطانين لما قاموا به من جهود عظيمة لمساعدتى فى العملية سالفة الذكر. ولا أنسى أن أذكر أننى وجدت فى المعبد تمثالين لأسدين بالحجم الطبيعى لهما رأسا صقر، وأحد التماثيل الصغيرة فى وضع الجلوس، وبعض المشغولات النحاسية المتعلقة بالأبواب.

تركنا أبى سمبل فى الرابع من أغسطس، ولم نتوقف فى أبريم لأننا رأيناها من قبل. وعلمنا عند مرورنا بقرية توماس، وهى إحدى القرى الواقعة على الضفة الغربية للنيل، أن داود الكاشف كان هناك. ورأينا أنه على استعداد لاستقبالنا، بل وصعد بنفسه على ظهر قاربنا ليدعونا إلى النزول إلى الشاطئ؛ ففعلنا، لكن بعد تردد خاصة أنه لم يكن حسن السلوك معنا من قبل. أعرب الكاشف عن أمله فى قضاء الليل كله هنا، وحاول أن يبدو لنا فى منتهى الأدب والرقى. أخبرناه أننا لم نلقَ معاملة حسنة من أهالى أبى سمبل، فرد علينا بسرعة أنه لا يعلم شيئًا عن هذا الأمر. لكن كيف يجهل هذا الأمر وقد جاء إلى محل عملنا أحد رجاله – الذى كان واقفًا فى تلك اللحظة إلى جواره – مستفسرًا عما إذا كنا سنشهد على أحد رجاله الآخرين الذى عرفنا أنه واحد من جماعة الكاشف جاء كى يثير شغبًا؟ ولما رأى أننا علمنا بما فعل بنا، حاول إصلاح ما فسد من أمر مقدمًا لنا خروفًا وسلة من الخبز، فلما غادرنا المكان، أعطانى هدية من زوجته إلى زوجتى عبارة عن ماعز حلوب وسلتين صغيرتين وسجادة مصنوعة من سعف النخيل. فأعطيت زوجته فى مقابل ذلك زوجًا من الأحذية النسائية التركية ونظارة صغيرة.

عندما وصلنا إلى الدير، قابلنا خليل الكاشف الذى عبر النيل فى قارب كى يلقى علينا السلام قائلاً إنه سيعود إلينا فى أقرب وقت ممكن. أثناء ذلك الوقت، حل الليل وذهبنا لرؤية المعبد على الفور ومعنا الشموع حيث قررنا أن ننطلق فى الصباح الباكر حتى نتفادى لقاء هذا الصديق المخلص. وحاولنا لدى عودتنا أن نحصل على بعض الطعام، لكن الوقت كان متأخرًا جدًا. عاد خليل حوالى الساعة العاشرة فوجدنا نائمين. علمنا فى الصباح الباكر أنه أرسل لنا بعض المشروبات الروحية وحَمَلاً. وأسفنا لذلك لما انطوى عليه من تعطيل لنا؛ فقد أمضى بعض الوقت على ظهر القارب ومعه أتباعه. قدمنا له الشكر على ما أرسله لنا، وأخبرناه أننا لن نستطيع أن نعطيه أى شىء مقابل ذلك، فنحن لا نملك أى شىء، لدرجة أننا اضطررنا أن نعيش فى أبى سمبل على الذُّرَة المسلوقة لأيام عدة لأن الفلاحين رفضوا أن يبيعونا أى شىء لنأكله. كنا نعلم تمام العلم أن كل ذلك تم حسب أوامره، لكنه ادعى – كأخيه – أنه لا يعرف

أى شيء عن هذا الموضوع. ولم نفكر بصورة سليمة حتى نتكلم كثيراً لأننا أردنا الرحيل وأن نترك هؤلاء الأصدقاء الحميمين ونحن وهم على وفاق. وفى النهاية، وبعد أن فحصنا القارب، تَركنا – وللأسف الشديد – ذلك الرجل الغريب الذى وجدناه فى المعبد، وما لبثنا أن انطلقنا فى رحلتنا على الفور. من الملاحظ أن كل هذا القدر من الأدب ودماثة الأخلاق الذى أظهره لنا لم يأتِ إلا من دافع معارضة أخيه داود أملاً فى أن نعطيه شيئًا عندما نعود إلى المكان مرة أخرى، فالواضح أن كل هذا الأدب مصطنع.

كان المعبد فى الدير متهدمًا للغاية. ولم أرَ من بين التماثيل سوى تمثال أو تمثالين مكتملين، وتشير بقايا المعبد إلى أنه كان مخصصًا لعبادة أوزوريس. هناك بهو به ستة عشر عمودًا منها اثنا عشر عمودًا متهدمًا، وبه حجرة ومحراب له غرفتان صغيرتان على جانبيه.

وصلنا إلى الميدة Almeida عند بقايا أحد المعابد الصغيرة باتجاه شمال النيل. ويأخذ النيل مساره هناك من الشمال الغربى حتى الجنوب الشرقى. وهو معبد صغير كان بمثابة كنيسة يونانية صغيرة. تتميز النقوش الهيروغليفية بأنها مكتملة غطاها الإغريق كلها تقريبًا بالملاط أو الجِصّ، وهناك حجرات أو مقصورات أخرى مبنية من الطوب غير المحروق لتكون بمثابة دير لهذه الآثار. وصلنا إلى السبوع عندما حل المساء. وقد تعرضت بالوصف لبقايا المعبد هنا.

وبعد أربعة أيام وصلنا إلى كلابشة. نزلنا من القارب لنرى المعبد إلا أن الفلاحين الذى رأونا من على بعد تجمعوا حول مدخل المعبد، وقرروا ألا يسمحوا لنا بالدخول ما لم ندفع لهم نظير أن يتركونا. وعلى هذا الأساس مُنعنا من الدخول، وطلبوا منا المال. رفضنا الرضوخ لمطالبهم لكننا وعدناهم بأنهم لو سمحوا لنا بالدخول، فسنعطيهم البقشيش فيما بعد. قررنا العودة إلى القارب لأن عرضنا لم يرضهم ونظرًا لما تصرفوا به نحونا من وقاحة وصفاقة شديدة، وقال الجندى الموالى لنا إنه سيحفظ هويتهم. وما هى إلا لحظة حتى استلت خناجرهم من أغمادها، واستولوا على مسدسه. ونشب الشجار والعراك مما أعطانا الفرصة للحصول على المسدس من الرجل الذى أخذه من

الجندى، وحاول أن ينسل بين الناس به. وعندما اقتربنا من القارب، جاء بعضهم يعرض علينا الدخول حينما رأوا عدم اهتمامنا برؤية المعبد، بينما كان للبعض الآخر رأى مختلف، لكننا وجدنا على أية حال أن الأمر لا يستحق كل هذه المكابدة والمخاطرة لأننا رأينا هذا المعبد من قبل. وبينما كل هذا يحدث عند المعبد، حاول أناس آخرون مهاجمة القارب، لكنهم تراجعوا لما رأوا أن فريقنا مسلح بالبنادق والمسدسات. ودخل علينا رجل شاهراً سيفه، لكن الأمر لم يسفر عن أية خسائر فى الأرواح.

وبعد أن غادرنا كلابشة، مررنا بطافا Taffa ، لكننا لم نستطع أن ننزل بها نظراً لضيق ممر النيل الذى لم يسمح لنا بأن نقترب من الشاطئ. هناك معبدان صغيران فى طافا رأيتهما من قبل. يتكون أحد هذين المعبدين من حجرة واحدة وعمودين أحدهما غير مكتمل. أما المعبد الآخر فيتميز ببعض النقوش الهيروغليفية ذات أسلوب لا بأس به، وهو الآن بمثابة إسطبل للأغنام والبقر. وصلنا فى نفس الليلة إلى الهنداو[٢١] Hindau حيث رأينا سوراً كبيراً يبدو أنه بُنِىَ كى يحيط بمبنًى كبير أو ربما للإحاطة بأكثر من مبنى. وجدنا أيضاً بقايا أحد المداخل عند الجانب الشمالى، وكمية كبيرة من الأنقاض بداخله. ورأينا ونحن نمضى شمالاً الكثير من المحاجر والأنقاض وجدنا من بينها باباً مقطوعاً فى الصخر على الطراز المصرى القديم، وعدداً من الكتابات الإغريقية التى كتبها – وفق ظنى – بعض العمال الإغريق، ويمكن الاستفادة من ذلك للاستدلال على أن الإغريق حصلوا على الأحجار من هذا المكان. لاحظنا بقايا المعبد، منها ستة أعمدة لا تزال منتصبة تزينها أزهار اللوتس وغيرها من وسائل الزخرفة الرمزية الجميلة الخاصة بالمصريين القدماء. ومضينا أكثر نحو الشمال وعثرنا على عمود آخر منتصباً وحده.

لم تمض إلا ساعات قليلة حتى وصلنا إلى دابود. ولهذا المعبد بهو للأعمدة وحَرَم يؤديان إلى محراب الإله الذى يوجد على كل جانب من جوانبه غرفة صغيرة. للبهو حجرتان أيضاً وسلم مؤدٍ إلى أعلى المعبد. ولا يوجد بهذا المعبد سوى بعض النقوش الهيروغليفية،

(٢١) الهنداو : من القرى القديمة فى الواحات الداخلة، وهى مدينة مسّورة، ينزل بها المتولى على الواحة، ويزرع بها الأرز. [المترجم]

أما الحرم ففيه معبدان مبنيان من قطعة واحدة من الجرانيت. هناك ثلاثة أبواب لمدخل المبنى المسقوف، يقع كل منها قبل الآخر، ويحيط سور بالمبنى كله. كما يوجد مرسى للسفن والقوارب عند ضفة النيل يتجه مدخله نحو المعبد.

وصلنا فى اليوم نفسه إلى جزيرة فيلة. ذهبت زوجتى إلى أسوان براً، لكننا قررنا أن نتخطى الشلال بالقارب الذى جئنا به، وهذا ما اعترض عليه البرابرة واستغلوه لصالحهم، فهم على استعداد لعمل أى شىء من أجل الحصول على المال. ووفقًا لذلك قررنا أن نغادر الجزيرة، وبدأنا فى اتخاذ مسارنا تدريجيًا بين جنادل الشلال وصخوره. وتوقعنا فى كل لحظة أثناء تقدمنا بالقارب أن نصل إلى النقطة التى يوجد عندها الشلال العظيم، لكننا اجتزنا الكثير من الشلالات منها شلال أقوى من الباقين لكنه لا يزيد قوة عن الشلالات التى نراها فى الأنهار الأخرى، ولكم كانت دهشتنا عندما عرفنا أننا تخطينا حاجز الخطر كله فى أقل من ساعة. هناك رأيت الشلال العظيم عند انخفاض مستوى المياه، كان طول الشلال – عندئذٍ – حوالى ٦٠٠ ياردة مكونًا زاوية مقدارها من ٣٠ أو ٣٥ درجة، ومنقسمًا إلى فروع متعددة بفعل الصخور المتناثرة. وصلنا إلى أسوان وأعددنا العدة على الفور للرحيل، لكننا فى تلك الأثناء زرنا جزيرة إلفانتين مرة أخرى، وذهبنا فى المساء لرؤية العمود الذى يتميز بالكتابة اللاتينية، وهو العمود الذى اكتشفته فى جبل أسوان. واجهتنا بعض الصعاب فى العثور عليه ثانية لأن الدليل قادنا من طريق آخر مختلف عن ذلك الطريق الذى اتخذته فى المرة الأولى. وغادرنا المكان فى اليوم التالى لنصل إلى طيبة فى ثلاثة أيام لأن تيار النيل – الذى اقترب فى هذه الفترة من قمة ارتفاعه – كان قويًا جدًا.

وفى طريقنا زرنا مدينة إدفو مرة أخرى، ثم بعد ذلك نزلنا بالليثية وألقينا نظرة سريعة على بقايا المعابد والكهوف بها. وجدنا هناك سورًا سميكًا عاليًا من الطوب غير المحروق يحيط بالبلدة كلها. يأخذ هذا السور شكلاً مربعًا يبلغ طوله ٦٧٠ ياردة. ورأينا أنقاض ثلاثة أو أربعة معابد يبدو من أحدها أنه كان عظيم الاتساع، لكن لم يبقَ منها جميعًا سوى ستة أعمدة خاصة بالبهو (انظر اللوحة رقم ٤١)، وجزء من حَرَم خاص بمعبد آخر.

وكانت هذه البلدة أكثر اتساعًا مما هى عليه فى الوقت الحاضر كما يبدو من بقايا آثارها. وقع بصرى على أجزاء من جدران المبانى القديمة على مبعدة من السور الكبير الذى يحيط بالبلدة، ومن بين الأنقاض لاحظت جزءًا من تمثال كبير لأبى الهول من الرخام الأبيض له رأس امرأة وجسم أسد. وجدنا أيضًا بقايا الكثير من التماثيل، وبعض الزخارف الأخرى الخاصة بالمعبد، وتغطى جزء منها بقايا التماثيل نفسها. وتقع إلى الشرق من هذا المعبد بحيرة صغيرة أو بركة أو حوض إن شئنا الدقة، وربما كان حمامًا عامًا، كما هو الحال مع تلك الحمامات أو الأحواض التى نجدها بالقرب من المعبد بالكرنك، لكن لا يوجد أى ماء فى هذه الأحواض فى الوقت الحاضر. يقع إلى غرب هذا المعبد مبنى آخر ينتمى إلى تاريخ أحدث، ويمتد من السور الكبير إلى النهر. ثمَّة الكثير من أنقاض البيوت ذات الأقواس، لكن الجدران أصغر منها من ناحية الحجم. وتظهر بقايا دعامة أحد الجسور أو مرسى السفن والقوارب حينما ينخفض مستوى المياه، ويبدو لى أنه كان هناك ممر من السلم من ناحية النيل إلى المعبد.

تتصف الأرض حول البلدة بالانبساط الشديد، فهى تمتد حوالى ميل من النيل وحتى الجبال. ولابد أن هذه الأراضى كلها كانت مزروعة وتتسم بالخصوبة لأن الأراضى المتناثرة المزروعة الآن تتميز بالإنتاج الغزير. وتزرع فى هذا المكان ثمار العنب الممتاز، ومن الملاحظ من مشاهدة الرسومات فى الكهوف أو الأضرحة فى الجبال أن صناعة الملابس من الكروم كانت من الحرف الرئيسية لدى هؤلاء الناس. تنتشر بين هذه الصخور الكثير من الأضرحة، يسير معظمها على نفس النمط المميز لمقابر مدينة القرنة. وتضم بعض هذه المقابر رسومات زراعية متنوعة يمكن من خلالها تكوين فكرة عن أسلوب معيشتهم أكثر من أى مكان آخر. ولا تزال الأشكال والألوان بحالة جيدة. لكننى لا أستطيع أن أقول إن لهم الحق فى أن يفخروا ببراعتهم فى النحت، فمن الواضح أيضًا أن الموتى فى تلك المقابر كانوا من عمال الزراعة. وأنا أرى أن هذه البلدة كانت على اتصال مع منطقة البحر الأحمر، وسأسوق الدليل على ذلك فيما بعد.

على بعد ميل من شمال البلدة يقع أحد المعابد الصغيرة الخارجية الذى يتوسط منطقة سهلية شاسعة المساحة يبدو أنها كانت يومًا ما منطقة زراعية، وهذا المعبد مغطًى بالرمال الآن. تشكل الصخرة التى قطعت فيها المقابر تلاً منفرداً يطل على البلاد المحيطة. فمن قمة هذا التل يمكن أن نرى أرضًا سهلية منبسطة تمتد شمال البلدة وجنوبها لتسعة أو عشرة أميال على طول ضفاف النيل، ويبلغ عرض المنطقة ميلاً ونصف الميل من النهر حتى بسفح الجبل. وعندما كانت كل هذه الأرض مزروعة، لابد أنها كانت توفر المواد الغذائية التى تكفى احتياجات مدينة كبيرة. وتصل الصخور بالقرب من النيل بعد ثلاثة أميال شمال الليثية Elethias . وتضم قرية تدعى "الخاب" كل الأرض سالفة الذكر إلى جانب آثار الليثية.

ذهبنا بمجرد وصولنا إلى الأقصر إلى محل إقامتنا القديم داخل حَرَم المعبد، وشعرنا بالألفة نحو المكان مرة أخرى، فقد اعتدت على طيبة وألفتها. تسلمت بعض الرسائل من مستر سولت علمت منها أنه كان ينوى الارتحال شمالاً فى النيل. وشَدَّ القبطانان إيربى ومانجلز الرحال إلى القاهرة، أما مستر بيتشى فشرع فى بعض الرسومات لمختلف الأماكن، واستأنفت أنا عمليات البحث والتنقيب.

وجدت فى القرنة عميلين آخرين لمستر دروتى مستغرقين فى حفر الأرض فى كل الاتجاهات، ونجحا إلى حد ما فى عمليات البحث عن المومياوات. يختلف هذان العميلان فى الطباع والشخصية عن القبطيين اللذين كانا هنا من قبل، فهذان العميلان من مدينة بيدمونت Piedmont أحدهما خائن ترك الخدمة فى الجيش الفرنسى عندما كان فى مصر، ودخل فى خدمة الباشا، أما الآخر فقد غادر بيدمونت بعد سقوط الحكومة الأخيرة. لم أشأ أن أبدأ عملى فى أى مكان بالقرب من هاتين الشخصيتين، لذا تخليت عن فكرة استئناف أعمال البحث فى القرنة. وكان ذلك من حسن حظى لأننى ومنذ ذلك الوقت جعلت وادى بيبان الملوك مسرح عملياتى. ينفصل هذا الوادى تماماً عن القرنة عن طريق سلسلة الجبال التى تفصل طيبة عن الوادى. وذهبت إلى هذا السهل وحدى دون أن يصحبنى أحد وأمضيت اليوم كله فى تدوين الملاحظات التى كان من نتائجها تأكيد الرأى بأن هناك أملاً كبيراً يشجع المرء على البدء فى العمل.

تذكرت ما حدث لى عندما غادرنا طيبة قاصدين جزيرة فيلة، ولم نتمكن من الحصول على أى عمال نتيجة لما أصدره البك من أوامر، وافترضت أن يحدث لى نفس الشيء هذه المرة؛ لذا سألت عن كاشف إرمنت للحصول على فرمان أو أمر للسماح للرجال بالعمل. وعلمت أن الدفتردار بك ناقمٌ على الكاشف القديم؛ وعلى إثر ذلك نُحِّيَ عن منصبه ورحل عن البلد، تقدمت بالتالى بطلبى لكاشف قوص الذى تولى منصب حاكم المدينة العظيمة ذات المائة بوابة. كان هذا الكاشف على علم بأن التصريح لعمالنا بالعمل لن يسر الدفتردار بك، لكنه عندما اطلع على الفرمان الذى حصلنا عليه من الباشا نفسه، ورأى ذلك التحيز الفاضح لصالح الفريق الآخر الذى تمكن من تشغيل عدد كبير من الرجال، لم يستطع أن يرفض السماح لى بتشغيل عدد صغير من العرب. وعلى هذا الأساس حصلت منه على فرمان موجه إلى مشايخ القرنة كى يزودونى بعشرين رجلاً أبدأ بهم عمليات البحث فى الوادى المذكور. ودخلت فى عملية تدل على جرأة صاحبها إذ تبادر إلى ذاكرتى أن كثيراً من الرحالة جاءوا إلى هذا المكان، وبحثوا إمكانية العثور على مزيد من المقابر أكثر مما هو معروف الآن حتى منذ عهد هيرودوت وسترابو[٢٢] Strabo تحدث هيرودوت عن وجود أكثر من أربعين مقبرة فى ذلك المكان، أما فى عهد سترابو فلم يكن من المعتقد وجود نصف هذا العدد. وعرفت من خلال الخبرة أن الأخبار التى يسردها المؤلفون القدامى لا يجوز الركون إليها دائماً خصوصاً عندما يصدر كلامهم عن مصادر سماعية أو عن الإشاعات؛ لذا أسقطها من اعتبارى، وبدأت فى الاعتماد التام على حكمى الخاص للبحث عن مقابر ملوك طيبة.

بدأت العمل فى الوادى غربى بيبان الملوك بالقرب من نفس المكان الذى اكتشفت فيه المقبرة العام الماضى. ولابد أن أطلع القارئ فى هذا المقام أن دليلى الوحيد

(٢٢) سترابو Strabo : جغرافى وعالم تاريخ (٦٣ ق.م - ٢٤ ق.م) اشتهر بكتابه "الجغرافيا" الذى صدر فى ١٧ جزءاً والذى وصف فيه كل أجزاء العالم المعروف آنذاك، وتمثل هذه الأجزاء أفضل مصدر للمعلومات الجغرافية عن دول البحر الأبيض المتوسط عند بداية العصر المسيحى. كما كتب سترابو كتاباً مطولاً فى التاريخ لم يعثر له على أثر. وقام برحلات إلى شبه الجزيرة العربية وأوروبا الجنوبية وشمال أفريقيا. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

فى هذه العمليات هو المعرفة التى اكتسبتها من عمليات البحث المستمرة عن المقابر فى مدينة القرنة. اكتشفت من تلك المقابر أسلوب المصريين القدماء المميز فى بناء مداخل مقابرهم، وزودنى ذلك بالكثير من الأفكار القيمة عن كيفية اكتشاف المقابر. إلى جانب هذا، إذا افترضنا أن كثيراً من هذه المقابر لابد وأنها دفنت تحت الأحجار والقمامة التى تسقط باستمرار من أعالى الجبال، وأن كمية هائلة من أجزاء المقابر تكومت على شكل أكوام كبيرة فى أجزاء مختلفة من الوادى، فإن ذلك يمنحنا الكثير من الأفكار عن البقاع التى يُتَوقع أن نعثر فيها على مداخل المقابر، وهذا ما لاحظه مستر هاميلتون ومعه الحق فيه. لكن كل هذه الأسباب والحجج الساطعة لم تكفِ لأن يتحرك أى رحالة للجد والاجتهاد فى المحاولة أو لأن يحاول أصلاً، والحق أقول إن ذلك كان سيكون حالى لولا أننى عرفت طريقًا أكثر أمنًا.

لم ألاحظ بعد بحث ميدانى طويل للوادى الغربى سوى بقعة أرض واحدة يحتمل أن نجد فيها إحدى المقابر. وعلى هذا الأساس، أصدرت الأوامر للرجال للعمل على بعد مائة ياردة من المقبرة التى اكتشفتها فى العام الماضى. وعندما توغلوا قليلاً تحت الأرض، وصلوا إلى بعض الأحجار الكبيرة التى وضعها هناك - كما هو واضح - من أغلقوا المقبرة. أدركت بعد إزالة تلك الأحجار أن الصخرة كانت مقطوعة من كلا الجانبين، كما وجدت ممراً يؤدى إلى أسفل. لم أستطع أن أتقدم أكثر فى ذلك اليوم نظراً للإرهاق الشديد الذى تعرض له الرجال، كما أن أمامنا أكثر من أربعة أميال أخرى للعودة إلى طيبة. واستأنفنا العمل فى اليوم التالى، وما هى إلا ساعات قليلة حتى وصلنا إلى جدار متقن البناء من الأحجار مختلفة الأحجام. فى اليوم التالى أمرت بإحضار سارية أو عصا كبيرة وصنعت آلة لا تختلف كثيراً عن المقلاع باستخدام جذع نخلة صغيرة ووضعناه أمام المدخل. قاومت الأسوار ضربات العرب لفترة من الوقت لأنها لم تكن أسواراً رومانية، ولأن المقلاع لم يكن بنهايته رأس من البرونز. لكنهم فى النهاية وجدوا وسيلة لعمل خَرْق، وهذه هى الطريقة نفسها التى وَسَّعْنا بها فتحة المقبرة. دخلنا على الفور فألفينا أنفسنا على درجات سلم عرضه ثمانى أقدام وارتفاعه عشرة أقدام، ووجدنا فى نهايته أربع مومياوات فى توابيتها موضوعة فى وضع الرقود

على الأرض ورؤوسها تتجه نحو الخارج. تقدمنا أكثر، فوجدنا أربعًا أخرى موضوعة بنفس الاتجاه. والتوابيت كلها ملونة، وأحدها مغطىً بغطاء كبير تماماً كالغطاء المخملي الذى تُغطى به التوابيت فى أيامنا هذه.

أعملت جهدى على تَفَحُّص تلك المومياوات كلها واحدةً واحدة. كل المومياوات متشابهة تقريبًا فى اللفافات فيما عدا تلك التى تغطيها اللفافات الكتانية الملونة. ومن بين تلك المومياوات عثرت على مومياء مغطاة بلفافة من الكتان الجديد - كما هو واضح - موضوعة على اللفافات القديمة البالية مما يثبت أن المصريين القدماء كانوا فى منتهى الحرص على موتاهم حتى بعد مرور سنوات طوال على وفاتهم. كانت تلك المومياء مميزة عن الباقين، فهى ملفوفة بكتان من نوع فاخر وبصورة أكثر إحكاماً من غيرها. تميزت المومياء بأكاليل من الزهور والأوراق، ووجدت على الجانب المحاذى للقلب لوحة من المعدن الذى وصفته مسبقًا تغطيها لوحة معدنية أخرى لا تختلف كثيراً عن ورق الفضة. أما عينا البقرة التى غالبًا ما تمثل إيزيس فهى محفورة على هذه اللوحة، وتوجد لوحة أخرى فى منتصف الصدر عليها الكرة الأرضية المجنحة. يبلغ طول كلٍ من اللوحتين قرابة ست بوصات. ووجدنا عند فك اللفافات أنها لا تزال من النوع الفاخر جداً، وهذا ما لم نجده مع باقى المومياوات التى تجد بها لفافات أكثر خشونة بعد فك اللفة الثالثة أو الرابعة. وأخيراً وصلنا إلى الجثة التى لم يبق منها شىء سوى العظام التى اكتسبت اللون الأصفر. كان جزء من التابوت مدهونًا، إلا أن قطعة القماش الكتانية التى تغطيه ما لبثت أن تفتت بمجرد أن لمستها أيدينا، وأرى أن هذا يرجع إلى الدهان الذى يتكون من شتى المواد والأزهار. غرست هذه التوابيت بمقدار أربع بوصات فى الأسمنت كما سبق أن ذكرت. بدت بعض الألوان داخل التوابيت رطبة للغاية كما لو كانت مدهونة من فترة قريبة، ويستعمل قدماء المصريين بوجه عام طبقة من الطلاء لا أعرف إن كانوا يضعونها فوق الألوان أو يخلطونها بها. أنا لا أدعى معرفة للغرض من إقامة هذه المقبرة، لكن لعلها كانت مخصصة أصلاً لأحد أفراد الأسرة الملكية، فيبدو من تصميم المدخل أنه بدأ بطراز شبيه بذلك الطراز الخاص بالملوك، لكن الظاهر أنه انتهى بتصميم أو طراز خاص بأسرة متواضعة.

جاءت نتائج عملياتى مرضية لى بشكل لا مزيد عليه أى العثور على المومياوات فى التوابيت في وضعها الأصلى، لكن ذلك لم يكن هدفى فى الأساس الذى نصبته أمامى. ولأننى كنت قريبًا من المكان الذى دفن فيه ملوك مصر، رأيت أن الفرصة ستواتينى لاكتشاف بعض من آثارهم المقدسة.

يبدأ الوادى المقدس المسمى بيبان الملوك عند مدينة القرنة، ويمتد جهة الجنوب الغربى، ثم يتجه تدريجيًا نحو الجنوب. ويضم هذا الوادى المقابر الشهيرة لملوك مصر، وينقسم إلى فرعين رئيسين يمتد أحدهما لمسافة ميلين جهة الغرب، وبذلك تبلغ المسافة من النيل إلى أقصى الوادى خمسة أميال. ويفصل الفرع الآخر الذى يشتمل على معظم المقابر عن مدينة سلسلة مرتفعة من الصخور التى يمكن اجتيازها من طيبة فى أقل من ساعة واحدة. وتحيط نفس الصخور بالأرض المقدسة التى لا يمكن زيارتها إلا من خلال مدخل طبيعي واحد يشبه البوابة، أو من خلال الطرق الوعرة عبر الجبال. المقابر كلها مقطوعة فى الصخور، وهى من الحجر الكلسى الصلد ناصع البياض بأقصى درجة يمكن أن يكون عليها حجر. وتتكون المقابر عامةً من ممر مربع طويل يؤدى إلى درجات سلم، وأحيانًا ما يوجد بالمقبرة بهو أعمدة على كل جانب من جوانبه وغير ذلك من الغرف. عندما تقدمنا إلى الأمام وجدنا غرفًا ومقصورات أكثر اتساعًا، وممرات وسلالم أخرى حتى وصلنا فى النهاية إلى قاعة كبيرة توجد بها التوابيت الكبيرة التى تحتوى على رفات الملوك. بعض هذه المقابر مفتوح تمامًا، والبعض الآخر منها مُثْقَل بالقمامة على المدخل. وجدنا تسع أو عشر مقابر يمكن أن تحتسب من ضمن الطبقة العليا، بينما هناك خمس أو ست مقابر خاصة بالطبقة الدنيا. ويصل عدد المقابر إلى ثمانية عشر حسب رواية سترابو وهو الاعتقاد الذى ظل سائدًا حتى يومنا هذا من ضمنها بعض مقابر الطبقة العليا، ولا يمكننا أن نحتفى بهذه المقابر على أية حال باعتبارها مقابر ملوك مصر أكثر من تصادف وجودها فى هذا الوادى. لم أستطع من جانبى أن أميز سوى عشر أو إحدى عشر مقبرة مما يمكن الاحتفاء به باعتباره من مقابر الملوك، وكذلك فإننى لا افترض وجود سبع وأربعين مقبرة لملوك مصر حسب رواية الكهنة المصريين القدماء لسترابو، فما قصدوه من هذا القول إن تلك المقابر كلها

موجودة فى هذا المكان الذى يسمى الآن باسم بيبان الملوك. وتأكيداً لقولى هذا لاحظت أن مقابر مشابهة - بل وأكثر منها أبهة وعظمة - عُثر عليها خارج هذا الوادى، ولا تزال هذه المقابر مفتوحة حتى يومنا هذا. أنا لا أقصد هنا المقابر فى الوادى الغربى الذى يشكل الفرع الآخر من وادى بيبان الملوك، بل تلك الموجودة فى القرنة التى قلما تخطئها عين الرحالة. هناك الكثير من المقابر فى ذلك المكان تستحق أن تقارن بالمقابر الكائنة فى بيبان الملوك، وسأجازف بالقول إن هناك مقبرة فى القرنة أرقى من أى مقبرة أخرى فى ذلك الوادى، فهى أكثر اتساعاً وفخامة كما يبدو من الأنقاض الباقية منها. إلا أن إضرار مختلف السياح بهذه المقابر بشتى الطرق وبصفة مستمرة نظراً لقربها من النيل أدى إلى تحول المقابر فى القرنة إلى حالة من التهدم والبلى البالغ. ومن اليسير أن نستنتج من الجدران المشوهة التى يعلوها الدخان أن هذه المقابر كثيراً ما زارتها بل وربما سكنتها جماعات herds من العرب كى يختبئوا بين فتحاتها للهرب كل مرة من بطش من يتعقبون أثرهم للقبض عليهم. وإذا أضفنا المقابر فى الوادى المذكور إلى تلك المقابر التى تنتمى إلى الطبقة العليا فى القرنة، سأوافق أن الكهنة المصريين القدماء كانوا محقين فيما رووه، لكننى مُصِرٌ على رأيى فيما عدا ذلك على أنه ليس فى وادى بيبان الملوك أية مقابر أكثر مما هو معروف الآن وذلك نتاج أبحاثى واكتشافاتى الأخيرة، ذلك أننى وقبل أن أغادر هذا المكان حشدت كل طاقاتى المتواضعة محاولاً العثور على أية مقبرة أخرى، لكن باءت محاولاتى بالفشل، والدليل الأكبر من هذا - بعيداً عن أبحاثى الخاصة - هو أن القنصل الإنجليزى مستر سولت استقر فى ذلك المكان بعد مغادرتى إياه لمدة أربعة أشهر وعمل فى عمليات البحث كما عملت لكن دون جدوى. لذا، أظن أن بإمكانى التأكيد أن المقابر السبع والأربعين كلها الخاصة بملوك مصر لا يمكن أن تكون فى هذا الوادى، لكن بعضاً منها موجود فى أماكن متفرقة.

سأذكر هنا رأياً آخر عن هذا الموضوع. إذا قلنا إن مقابر القرنة سالفة الذكر تتميز عن مقابر بيبان الملوك بأنها أكبر منها حجماً وأكثر تنوعاً فى المقصورات، وبالتالى فى عددها، وكذا مما يبدو من الأنقاض وأفضل من حيث براعة النحت،

إذا قلنا إن هذه المقابر لم تكن لملوك مصر، فمن فى تلك البلاد كان باستطاعته أن يطمح إلى مثل هذا الشرف الرفيع بأن تشيد له مقبرة أفضل من مقابر الملوك وأكثر بهاءً؟ إذا تسنت لى الفرصة لذكر رأيى المتواضع، سأذكر أن المقابر فى وادى بيبان الملوك شيدت ومن ثَمَّ المقابر فى القرنة لأننى لم أجد بقعة من الأرض فى القرنة تلائم عمليات الكشف عن إحدى المقابر الكبرى، ويمكن الافتراض أن المصريين القدماء تفحصوا المنطقة الصخرية للبحث عن مكان آخر يودعون فيه جثمان موتاهم من الملوك عندما شُغِلَت كل الأماكن الممتازة الصالحة لتشييد المقابر الكبرى بها فى مدينة القرنة. ولا شك أن المقابر فى وادى بيبان الملوك أفضل حالاً من مقابر القرنة.

فى ظل هذه الظروف، ولما فكرت فى إمكانية اكتشاف بعض من مقابر الملوك، أصدرت الأوامر للعدد القليل من الرجال لدى بالعمل.

بدأت أعمال التنقيب فى يوم ٦ من أكتوبر، واكتشفت المقبرة الأولى فى يوم التاسع من نفس الشهر، وبدا من شكل المدخل أنها مقبرة كبيرة جداً، لكن عرفنا بعد ذلك أنها لم تكن سوى ممر لمقبرة لم تكتمل. لكن الجهد الذى بذله قدماء المصريين لم يضع هباءً لأنهم استخدموها كمقبرة رغم ذلك. ورغم أن هذه المقبرة ليست كبيرة الحجم، فإنهم أحسنوا طلاءها بالجص الأبيض، ثم لونوا بعض الأشكال رائعة الجمال على أحسن طراز. يبلغ عرض هذا الممر عشر أقدام وخمس بوصات، بينما يبلغ طوله من المدخل حتى الجزء غير المكتمل ٥٧ قدماً. من الواضح من شكل المقبرة أن النية كانت معقودة لاستكمال العمل، لكن ظرفًا أو حدثًا ما تسبب فى توقف العمل. أما الرسومات الملونة على الجدران فهى غاية فى الإتقان وهى من أنسب ما رأيت لإعطاء فكرة صحيحة وواضحة عن الذوق المصرى القديم. وتقع هذه المقبرة فى الناحية الجنوبية الشرقية من منتصف الوادى، وعند سفح الصخور الكبيرة التى تطل على القرنة. تمنيت أن نستمر فى عملية الاكتشاف نظراً للمجموعات المتنوعة من الفلاحين التى تعمل معى فى شتى الاتجاهات، وشجعنى هذا النجاح الأول بدرجة كبيرة وأكد لى أننى كنت محقًا فى فكرتى عن اكتشاف المقابر. اكتشفنا فى نفس اليوم بعض علامات دالة على وجود مقبرة أخرى فى إحدى عمليات التنقيب التى بدأت منذ ثلاثة أيام تمامًا فى نفس

الاتجاه كما هو الحال مع المقبرة الأولى، وليس بعيداً عنها بمائة ياردة. والواقع أننى سعدت باكتشاف هذه المقبرة الثانية فى نفس اليوم، أى يوم التاسع من أكتوبر. هذه المقبرة أكثر اتساعًا لكنها جديدة كليةً وليس بها أى رسم. نقَّب القدماء هذه المقبرة لأننا وجدنا فى نهاية الممر الأول حائطًا من الطوب يسد المدخل بطريقة فجة. نزلنا أحد السلالم بعد اجتيازنا الحائط المبنى من الطوب، ومررنا من رواق آخر فى نهايته مدخل إحدى الغرف الكبيرة ذات عمود واحد فى المنتصف، والغرفة غير مدهونة بالجص فى أى جزء من أجزائها. وجدنا فى أحد أركان هذه الغرفة مومياواتين راقدتين على الأرض عاريتين تمامًا بلا كفن أو تابوت. كانت المومياواتان لامرأتين نواتا شعر طويل لا يزال بحالة جيدة رغم سهولة انفصاله عن الرأس بمجرد شدِّه برفق. هناك باب صغير فى إحدى جوانب هذه الغرفة يؤدى إلى حجرة صغيرة وجدنا فيها بقايا الكثير من الأوانى الخزفية ومزهريات من المرمر الأبيض لكنها متكسرة للغاية بدرجة تحول دون تجميعها مع بعضها ثانية. ووجدنا عند قمة السلم جرة من الخزف ليس بها أى كسر، عليها بضعة نقوش هيروغليفية ويمكن ملؤها بدلوين من الماء. يبلغ طول هذه المقبرة مائة قدم من المدخل حتى نهاية الغرفة وارتفاعها ٢٠ قدمًا وعرضها ٢٣ قدمًا. وتبلغ مساحة الغرفة الأصغر عشر أقدام مربعة، وهى تواجه الشرق من جهة الجنوب، وتمتد جهة الغرب من ناحية الشمال.

مضت أيام قبل أن تصلنا أخبار بوصول بعض الإنجليز من القاهرة، وكنا فى انتظارهم بلهفة لأننا علمنا من خطاب أرسلوه لنا من القاهرة أنهم ثلاثة رجال إنجليز. فى صباح يوم العاشر من أكتوبر وصلوا إلى بيبان الملوك يصحبهم مستر بيتشى الذى كان فى الأقصر حيث وصلوا فى الليلة السابقة. كان هؤلاء الرجال أول من دخل المقبرتين اللتين اكتشفتهما حديثًا، وعلقوا بقولهم إن الرسومات الملونة فى المقبرة الأولى من أفضل ما رأوه فى مصر من حيث حالتها الممتازة. ولم نغادر الوادى لنجوب جبل مدينة أبو حتى وافتنى الأخبار باكتشاف مقبرة أخرى فى أماكن التنقيب بالقرب من مركز الوادى. ذهبنا إلى هناك على وجه السرعة، وعلمت أن هناك مقبرة أخرى، لكن الرحالة اقترحوا أن يعودوا إلى الموقع فى الصباح التالى لتعذر فتحها فى ذلك اليوم. ذهبت فى تلك الليلة أيضًا إلى الأقصر، ووصلنا فى وقت متأخر جدًا من الليل.

وفى الصباح الباكر من يوم الحادى عشر بدأنا رحلة طيبة. ذهبنا لنرى المقابر فى القرنة والمعبد الصغير فى الوادى خلف مجمع ممْنون. وفى حوالى الساعة الثانية عشرة وصلتنى رسالة تفيد بأن المقبرة التى اكتشفت أمس فُتِحَت ويمكن لنا دخولها. وما أن سمعنا ذلك حتى أخذنا الطريق فوق الصخور على الفور، ووصلنا فى أقل من ساعة إلا ربع. وجدت المقبرة مفتوحة لتوها؛ فدخلتها لأرى مدى قابلية إلقاء النظر عليها وتفحصها. مررنا من ممر طوله ٣٢ قدمًا، وعرضه ثمانى أقدام، ونزلت سلمًا طوله ٢٨ قدمًا حتى وصلت غرفة كبيرة إلى حد ما وحسنة الطلاء. بعدها أصدرت إشارة من تحت للرحالة بالنزول، ودخلوا المقبرة التى يبلغ طولها ١٧ قدمًا، وعرضها ٢١ قدمًا. كان السقف بحالة جيدة، لكن الطراز لم يكن هو الأفضل، وعثرنا على تابوت من الجرانيت به مومياواتان، ووجدنا فى أحد الأركان تمثالاً واقفًا طوله ست أقدام وست بوصات منحوت ببراعة من خشب الجميز، وهو بحالة ممتازة فيما عدا الأنف. وجدنا أيضًا عددًا من التماثيل الخشبية الصغيرة متقنة الصنع تمثل أشكالاً رمزية، فبعضها له رأس أسد وبعضها له رأس ثعلب وأخرى لها رأس قرد، ولأحد هذه التماثيل سلحفاة برية بدلاً من الرأس، كما وجدنا تمثالاً لعجل له رأس فرس النهر. على جانبى هذه الحجرة توجد غرفة صغيرة عرضها ثمانى أقدام، وطولها سبع أقدام، وفى نهاية الحجرة غرفة أخرى طولها عشر أقدام، وعرضها سبع أقدام. عثرنا فى الحجرة التى تقع على الناحية اليمنى تمثالاً آخر يشبه التمثال الأول لكنه ليس مكتملاً. ولا شك أن هذين التمثالين وُضِعا على جانبى التابوت وهما يحملان مصباحًا أو شيئًا من القربان فى أيديهما بحيث تمد اليد الأولى فى الوضع المناسب لذلك، فى حين تظل اليد الأخرى مدلاة إلى جانب التمثال، وتغطى التابوت النقوش الهيروغليفية الملونة أو المخططة، وهو يواجه الجنوب الشرقى من جهة الشرق.

لم يستطع فريقنا فى اليوم التالى أى يوم الثانى عشر من أكتوبر أن يواصل رحلته النيلية بسبب هبوب ريح عاصفة. وفى يوم ١٣ من الشهر أصدرت أوامر بالحفر فى بعض مناطق فى القرنة، ونجحنا فى فتح حفرة بها مومياوات، وشعر فريقنا بالسرور لرؤية حفرة مفتوحة لتوها، وأصبحت لديهم فكرة واضحة عن كيفية العثور على

المومياوات رغم أن كل المومياوات ليس متشابهة. كانت هذه الحفرة صغيرة، فهى تتكون من غرفتين مدهونتين عن آخرهما، لكن ليس بأحسن ما يكون الدهان. والظاهر بالنسبة لى أن هذه المقبرة تنتمى لأحد المحاربين نظراً لوجود عدد كبير من الرجال الذين سجلوا أسماءهم كجنود إلى جانب كتابة أسمائهم فى سجل، وهناك أيضاً الكثير من الأشكال الأخرى وغيرها. رأينا فى المقصورة السفلية المومياوات مكومة فوق بعضها هنا وهناك دون نظام. يبدو لى لذلك أن هذه الحفرة سبق أن فتحها الإغريق أو غيرهم من الناس لنهبها.

وفى نفس اليوم زرنا حفرة أخرى للمومياوات فتحتها من قبل بستة أشهر. ويشبه الهيكل المعمارى إلى حد ما سبق أن تناولته بالوصف، فهى عبارة عن رواق ذى أعمدة وتجويف تحت الأرض ترقد فيه المومياوات. وتتميز الرسومات هنا بالجمال، ليس لحالتها الممتازة فحسب، بل ولحداثة الأشكال المرسومة. فهناك اثنان من آلة الهارب **harp** إحداهما لها تسعة أوتار، والأخرى لها ١٤ وتراً، هذا بالإضافة إلى الكثير من الرسومات الغريبة منها على وجه الخصوص لوحة لست بنات راقصات ومعهن آلات الناى والطار والمزامير المصنوعة من البوص والقيثارات وما إليها.

فى يوم السادس عشر من أكتوبر استأنفت أعمال التنقيب فى وادى بيبان الملوك، وأشرت إلى بقعة ثرية من الأرض عوضتنى عن كل المتاعب التى تعرضت لها أثناء عمليات البحث والتنقيب. ربما يحق لى أن أُسَمِّىَ هذا اليوم يوم الحظ، بل هو من أسعد أيام حياتى. أنا لا أقصد من ذلك أن الحظ جعلنى ثرياً لأننى لا أظن أن كل الأثرياء محظوظون، لكن هذه الأرض منحتنى سروراً وبهجة لا مزيد عليها لا تستطيع الثروة شراءها، وهى بهجة اكتشاف ما طال انتظاره دون جدوى، والخروج للعالم بأثر جديد ومكتمل من الآثار المصرية القديمة. هذا الأثر الذى لا يعادله أثر مصرى آخر من ناحية البهاء أو التصميم المعمارى أو البقاء كأنهم انتهوا لتوهم من تشييده قبل دخولنا بيوم واحد، وما اكتشفته فى هذا الأثر سيكشف تفوقه الكبير على سائر الآثار المصرية. لا يبعد هذا الأثر ١٥ ياردة عن المقبرة الأخيرة التى تناولتها بالوصف حيث أمرت العمال بفتح الأرض عند سفح تلٍ شديد الانحدار وتحت مجرى سيل يصب كمية كبيرة

من المياه – إذا أمطرت السماء – على نفس بقعة الأرض التى أمرت العمال بحفرها. لم يجل بخاطر أحد أن قدماء المصريين سيصممون مدخل هذا الأثر الكبير والفخم تحت مجرى بسيل من السيول، لكننى أملك من الأدلة الشافية ما يكفى لافتراض وجود مقبرة فى هذا المكان مما لاحظته فى عمليات البحث. رأى كل الفلاحين الذين اعتادوا على الحفر استحالة وجود شىء فى هذه البقعة نظرًا لاختلاف موقف هذه المقبرة عن ظروف أية مقبرة أخرى. إلا أننى استكملت العمل، وفى اليوم التالى أى السابع عشر من أكتوبر وجدنا فى المساء جزءًا من الصخرة التى قطعت لتشكل المدخل. استأنفنا المهمة فى الصباح الباكر من يوم الثامن عشر، وقبيل الظهيرة وصل العمال إلى المدخل الذى كان تحت سطح الأرض بثمانية عشر قدمًا. بدا من الظاهر أن المقبرة من الدرجة الأولى، لكننى لم أتوقع أن أجد مقبرة بهذا الشكل كما ثبت لى فيما بعد. تقدم الفلاحون حتى رأوا أنها مقبرة كبيرة، عندئذٍ احتجوا بعدم قدرتهم على التقدم أكثر لوجود أحجار كبيرة تملأ المقبرة عن آخرها تمنعهم من الخروج من الممر. نزلت إلى المقبرة وفحصت المكان ووضحت لهم مشيرًا إلى المكان الذى يحفرون فيه، وفى ساعة كان هناك حيز يكفى لأن أدخل الممر تحت سقف الرواق الأول الذى يبلغ طوله ٣٦ قدمًا وبوصتين، وعرضه ثمانى أقدام وثمانى بوصات، ويبلغ ارتفاعه بعد إزالة الأنقاض ست أقدام وتسع بوصات. أدركت على الفور من الرسومات على السقف والنقوش الهيروغليفية المنحوتة بالنقش البارز التى ترى حيث لا يصل إليهآ التراب أن هذه المقبرة مقبرة كبيرة الحجم عظيمة الأهمية. وصلت عند نهاية هذا الرواق إلى سلم طوله ٢٣ قدمًا، وعرضه نفس عرض الرواق، أما الباب أسفل المقبرة فارتفاعه ١٢ قدمًا. ومن آخر السلم دخلت رواقًا آخر طوله ٣٧ قدمًا وثلاث بوصات، بنفس العرض والارتفاع كسابقه، كما توجد النقوش الهيروغليفية الملونة والمنحوتة على كل جانب بالنقش البارز. والسقف أيضًا مدهون ببراعة ولا يزال محتفظًا بحالته الأولى (انظر اللوحة رقم ٢). وكلما رأيت زادت رغبتى فى الرؤية أكثر، تلك هى طبيعة الإنسان، لكن هذه الرغبة توقفت فى تلك اللحظة حينما وجدت فى نهاية هذا الممر حفرة كبيرة اعترضت سبيل تقدمى. يبلغ عمق هذه الحفرة ٣٠ قدمًا وطولها ١٤ قدمًا فى عرض ١٢ قدمًا وثلاث بوصات.

الجزء العلوى من الحفرة مزين بأشكال من حائط الممر وحتى السقف. تميل كل الممرات الآتية من المدخل حتى هذه الحفرة إلى أسفل بزاوية قدرها ١٨ درجة. وفى الجهة المقابلة للحفرة والمواجهة للمدخل وجدت فتحة صغيرة عرضها قدمان وارتفاعها قدمان وست بوصات، كما وجدت أسفل الجدار كمية من القمامة. ويبدو أن القدماء استخدموا الحبل المثبت بقطعة من الخشب أمام الممر فى مواجهة الأطر التى تبدو على هيئة أبواب بغرض النزول إلى الحفرة، أما الحبل المعلق من الفتحة الصغيرة على الجانب المقابل الذى يصل إلى أسفل فلا شك أنه مخصص للصعود. واتضح لنا أن الماء الذى دخل الممرات من مجارى السيول تسلل إلى الحفرة مما أدى إلى تفتت الحبل وقطعة الخشب المثبت بها إلى تراب بمجرد أن لمسناهما بأيدينا. هناك الكثير من قطع الخشب فى أسفل الحفرة، وهى موضوعة قبالة جانبها حتى يتمكن المرء من الصعود باستخدام الحبل إلى الفتحة الصغيرة؛ ورأيت استحالة التقدم فى تلك اللحظة. دخل مستر بيتشى المقبرة بعد مجيئه من الأقصر ذلك اليوم لكنه أصيب بخيبة الأمل أيضاً.

فى اليوم التالى، أى التاسع عشر من أكتوبر، نجحنا باستعمال عارضة طويلة من الخشب فى صعود أحد الرجال إلى الفتحة الصغيرة، وتمكننا من عبور الحفرة بعد أن صنعنا جسراً بين عارضتين من الخشب. اكتشفنا أن الفتحة الصغيرة تمثل فتحة غير طبيعية فى الحائط مما أغلق المدخل تماماً، وهو المدخل الذى يصل عرضه كعرض الرواق. أغلق المصريون القدماء المدخل تقريباً ودهنوا الحائط كله بالجص ولوّنوه كباقى جوانب الحفرة، وبذلك ولولا الفتحة الصغيرة، لكان من المستحيل افتراض وجود أى نقطة للتقدم أكثر، وسيستنتج الجميع أن المقبرة تنتهى عند الحفرة. لكن الحبل الموجود داخل الجدار لم يتفتت إلى تراب، بل ظل قوياً إلى درجة كبيرة، فالماء لم يصل إليه مطلقاً، وظل الخشب الذى كان مثبتاً به على حالته. ولهذا يعزى احتفاظ المقبرة بحالتها الأولى إلى اتباع منهج إبعاد الرطوبة عن الأجزاء الداخلية منها. لاحظت بعض التجاويف فى قاع البئر، لكننى لم أجد شيئاً فيها، وكذلك لم أجد أى اتصال بين هذا القاع وأى مكان آخر، لذا لم يكن هناك من شك أنها صممت لاستقبال مياه الأمطار التى تسقط من حين إلى آخر فى هذا الجبل. يرتفع الوادى كثيراً بسبب القمامة

التى تحملها المياه من الأجزاء المرتفعة إلى أسفل حتى أصبحت مداخل المقابر أكثر انخفاضًا بكثير من تلك السيول؛ ونتيجة لهذا تجد المياه طريقها إلى المقابر، كما يمتلئ البعض الآخر منها عن آخره بالتراب.

عندما اجتزنا الفتحة الصغيرة وجدنا أنفسنا فى قاعة كبيرة أبعادها ٢٧ قدمًا وست بوصات فى ٢٥ قدمًا وعشر بوصات، بها أربعة أعمدة كل منها ثلاث أقدام مربعة. ولن أصف أيًا من الرسومات حتى أصف كل الغرف بالكامل. وعند نهاية هذه الغرفة التى أسميها قاعة المدخل المقابلة للفتحة الصغيرة باب كبير يؤدى بعد النزول ثلاث درجات إلى حجرة ذات عمودين. يبلغ طول هذه الحجرة ٢٨ قدمًا وبوصتين وعرضها ٢٥ قدمًا وست بوصات، أما الأعمدة فهى ثلاث أقدام وعشر بوصات مربعة. وسميتها غرفة الرسم، فهى مغطاة - رغم أنها مرسومة كخطوط عريضة فقط - بالرسومات رائعة الجمال والدقة لدرجة أنك قد تظن أنها مرسومة قبل أن تراها بيوم واحد. ونعود إلى قاعة المدخل لنرى على الجانب الأيسر من الفتحة الصغيرة سلمًا كبيرًا ينزل إلى رواق يبلغ طوله ١٣ قدمًا وأربع بوصات وعرضه ٧,٥ قدم وله ١٨ درجة. وفى أسفله دخلنا رواقًا جميلاً طوله ٣٦ قدمًا وست بوصات وعرضه ست أقدام و ١١ بوصة. أدركنا أن الرسومات تصبح أكثر اكتمالاً وروعة كلما توغلنا فى الدخول، فهى تحتفظ بلمعانها أو بنوع من الطلاء على ألوانها مما يعطيها أثرًا جميلاً رائعًا، كما أن الأشكال مرسومة على خلفية بيضاء. وعند نهاية هذا الرواق نزلنا عشر درجات، أطلقت عليها السلالم الصغيرة، إلى سلالم أخرى طولها ١٧ قدمًا وبوصتين وعرضها عشر أقدام وخمس بوصات، ومنها دخلنا حجرة صغيرة طولها ٢٠ قدمًا وأربع بوصات وعرضها ١٣ قدمًا وثمانى بوصات، وأطلقت على هذه الحجرة اسم "حجرة الجَمَال" لأنها مزينة بأجمل الأشكال الملونة والمنحوتة بالنقش البارز كباقى الرسومات. ويجد الرحالة نفسه محاطًا بجمع من الآلهة والربات المصرية القديمة إذا وقف فى منتصف هذه الحجرة. تقدمنا أكثر ودخلنا إلى قاعة كبيرة طولها ٢٧ قدمًا وتسع بوصات وعرضها ٢٦ قدمًا وعشر بوصات. فى هذه القاعة صفان من الأعمدة المربعة، وهى ثلاثة على كل جانب من جوانب المدخل مكونةً صفًا مع الرواق. يوجد على كل جانب من جوانب هذه القاعة حجرة صغيرة،

طول الحجرة اليمنى عشر أقدام وخمس بوصات وعرضها ثمانى أقدام وثمانية بوصات، أما الحجرة اليسرى، فهى عشر أقدام وخمس بوصات فى ثمانى أقدام و ٩,٥ بوصة. وأسْمَيْتُ هذه القاعة "قاعة الأعمدة" أما الغرفة الصغيرة على الجانب الأيمن، فسميتها "حجرة إيزيس" لوجود بقرة كبيرة مرسومة داخلها سأتناولها بالوصف فيما بعد، والغرفة الموجودة على الجانب الأيسر أطلقت عليها اسم "حجرة الغموض" نظرًا لما تتصف به الأشكال داخلها من غموض. وفى نهاية هذه القاعة دخلنا صالونًا كبيرًا ذا سقف على هيئة قوس لا يفصله عن قاعة الأعمدة سوى درجة سلم؛ لذا يمكن اعتبار المكانين مكانًا واحدًا. ويبلغ طول الصالون ٣٢ قدمًا وعشر بوصات وعرضه ٢٧ قدمًا. يوجد على يمين الصالون غرفة صغيرة لا يوجد بها أى شىء، فهى مقطوعة دون صقل كأنها لم تكتمل، كما أنها غير مدهونة، وإلى اليسار دخلنا غرفة بها عمودان مربعان، طول الغرفة ٢٥ قدمًا وثمانى بوصات وعرضها ٢٢ قدمًا وعشر بوصات. وأطلقت اسم "حجرة التَخْتُ خِوان[٢٣]"؛ "لأنها تحتوى على مكان على هيئة التخت خوان طوله ثلاث أقدام حول الغرفة بالكامل، ولعله مخصص لوضع الأدوات اللازمة لطقوس الجنازة. تبلغ مساحة الأعمدة ثلاث أقدام وأربع بوصات مربعة، أما الباقى فهو ملون بصورة رائعة. دخلنا عند نفس النهاية فى الغرفة، وفى مواجهة قاعة الأعمدة من باب كبير إلى حجرة أخرى ذات أربعة أعمدة أحدها ملقىً على الأرض. طول هذه الغرفة ٤٣ قدمًا وأربع بوصات وعرضها ١٧ قدمًا وست بوصات، أما الأعمدة فمساحتها ثلاث أقدام وسبع بوصات مربعة. هذه الغرفة مغطاة بالجص الأبيض مكان الصخر غير المصقول، كما لا يوجد بها أى رسومات. وأسْمَيْتُ هذه الغرفة "حجرة الثور أو حجرة أبيس" لأننا وجدنا جثة ثور بداخلها محنطة باستخدام القار، كما وجدنا أيضًا كمية هائلة من التماثيل الخشبية الصغيرة المبعثرة فى أماكن متفرقة لمومياوات يبلغ طول الواحدة منها من ست إلى ثمانى بوصات، وكلها مغطىً بالقار للحفاظ عليها. وعثرنا أيضًا على بعض تماثيل أخرى من الطين الممتاز المحروق ملونةً باللون الأزرق ومطلية بطلاء كثيف. وتقف

(٢٣) التَخْتُ خِوان : خزانة خاصة بأدوات المائدة فى غرفة الطعام. [المترجم]

بعض التماثيل الخشبية على كلٍ من جانبى الغرفتين الصغيرتين، ويبلغ طول التمثال منها أربعة أقدام وهى مجوفة تجويفًا دائريًا من الداخل، كما لو كانت مصممة لحفظ لفافات أوراق البردى، وهذا لا شك عندى فيه. كما وجدنا أيضًا بقايا تماثيل أخرى من الخشب أو من خليط من المواد.

أجلت وصف ما وجدناه فى منتصف الصالون حتى هذا المقام، فهو مما يستوجب الاهتمام والانتباه الشديد؛ فهو ليس له مثيل فى هذا العالم كأننا لا نتصور أن شيئًا كهذا يمكن أن يوجد فى العالم. إنه تابوت من أروع أنواع المرمر الأبيض الشرقى، طوله تسع أقدام وخمس بوصات وعرضه ثلاث أقدام وسبع بوصات، ويبلغ سمكه بوصتين فقط، ويصبح شفافًا عندما يسلط ضوء عليه من الداخل، وهو مغطىً من الداخل والخارج بعدة مئات من الأشكال المنحوتة التى لا يتعدى طول الواحد منها بوصتان، وهى تمثل - كما أظن - موكب الجنازة كاملاً وكذلك الطقوس المتعلقة بالمتوفى، ومعها الكثير من الرموز وما إليها. ولا تسعنى القدرة على أن أصف تلك القطعة الأثرية رائعة الجمال التى لا تقدر بثمن. لم يكن غطاء التابوت موجوداً، لكنه أزيح عنه وتكسر/ قطعًا صغيرة عثرنا عليها أثناء الحفر أمام المدخل الأول. كان التابوت موجوداً فوق أحد السلالم فى منتصف الصالون المتصل بممر تحت الأرض مؤديًا إلى منطقة أكثر انخفاضًا طولها ٣٠٠ قدم. وعند نهاية هذا الممر وجدنا كمية هائلة من روث الخفافيش سدت الممر، ولم يكن أمامنا من سبيل سوى الحفر. كان الممر مسدوداً تقريبًا أيضًا بسبب هبوط مستوى السطح العلوى. وعلى بعد مائة ١٠٠ قدم من المدخل هناك سلم لا يزال بحالة جيدة، لكن الصخور التى توجد أسفله غيرت من مادته من الحجر الكلسى الصلب الجميل ليصبح نوعًا من الإردواز الأسود العفن الذى سرعان ما يتحول إلى تراب بمجرد أن تمسه يد. ويمتد هذا الممر تحت الأرض باتجاه الجنوب الغربى عبر الجبل. قست المسافة من المدخل ومن الصخور فوقها أيضًا، ووجدت أن الممر يصل تقريبًا إلى نصف الطريق عبر الجبل إلى الجزء العلوى من الوادى. لدى من الأسباب ما يؤيد أن هذا الممر كان يستخدم للوصول إلى المقبرة عن طريق مدخل آخر، لكن هذا لم يحدث قبل وفاة الشخص المدفون فى هذا المكان نظرًا لوجود حائط مبنى أسفل السلم

تحت التابوت مباشرة، فهذا الحائط قطع الاتصال كليةً بين المقبرة والمر تحت الأرض، كما وضعت بعض قوالب الحجارة الكبيرة أفقيًا تحت التابوت مستويةً مع حجارة رصف الصالون لئلا يدرك أى أحد وجود أية سلالم أو ممر تحت الأرض. أما باب حجرة التَخْتُ خِوان فتمَّ سدُّه، ثم فتح مرة ثانية لأننا وجدنا الأحجار التى سُدَّت به وكذلك الملاط على قوائم الباب. كما سُدَّ أيضًا أسفل سلم مدخل القاعة، وامتلأ الفراغ بالقمامة وتتناثر على الأرض قوالب الحجارة الكبيرة بحيث ينخدع أى شخص يرغب فى اقتحام الجدار بالقرب من الحفرة ظانًا أن المقبرة تنتهى عند مدخل القاعة وحجرة الرسم. وأنا أميل للاعتقاد بأن كل من اقتحم هذه الممرات جميعًا صحب معه بعض الجواسيس الذين كانوا على معرفة تامةٍ بالمقبرة من الألف إلى الياء. وتواجه المقبرة جهة الشمال الشرقى، بينما يمتد الاتجاه كليةً نحو الجنوب الشرقى.

إن وصف شتى الأشكال الموجودة داخل المقبرة وصفًا دقيقًا أمرٌ لا طاقة لى به. لذلك، سأتناول بالوصف أكثر الأشياء تميزًا داخل المقبرة مما تقع عليه العين. ويمكن للقارئ من خلال هذه الملاحظات أن يُكَوِّنَ فكرةً عن هذا الكشف الأثرى الفخم.

يقع مدخل المقبرة عند سفح تل مرتفع شديد الانحدار، وأول ما يقابل الرحالة فى هذه المقبرة سلم مقطوع من الصخر ينزل إلى المقبرة. المدخل موجود بجوار باب بنفس ارتفاع الممر الأول. وأود من القارئ العزيز أن يلاحظ أن كل التماثيل والنقوش الهيروغليفية بشتى أنواعها كانت ملونةً ومنحوتةً بالنحت البارز فيما عدا الحجرة المذكورة، حيث كانت مخصصة للنحات. وتعطينا هذه الحجرة أفضل الأفكار المكتشفة حديثًا عن عملية النحت المصرى القديم الأصلية. الجدار مصقول بأفضل ما يكون الصقل حيث توجد عيوب فى الصخور، ثم ملئت الفراغات بالأسمنت الذى يقطع بعد تصلبه مع باقى الصخرة. وبعد استكمال الجدار، يُطلب من النحات صنع تمثال أو ما شابه، فإنه يرسم الرسومات الأولية أو اسكتشات لما ينوى أن ينحته. بعد أن يستكمل الفنان الأول الرسومات الأولية برسم خطوط حمراء، يعمل آخر أكثر مهارةً وحرفية على تصحيح الأخطاء – إن وجدت – باللون الأسود حتى تتميز عن الخطوط غير الصحيحة، وعندئذٍ تستكمل الرسومات؛ فيشرع النحات فى قطع الحجر حول التمثال،

ويظل بالنقش البارز الذى يتراوح بين نصف بوصة وما هو أقل من ذلك حسب حجم التمثال. على سبيل المثال، إذا كان التمثال بالحجم الطبيعى للإنسان، فإن البروز عامةً ما يكون نصف بوصة، أما إذا كان لا يزيد طول التمثال عن ست بوصات، فإن بروزه لن يزيد عن سمك الدولار، بل وربما أقل. وتصقل كل زوايا التمثال صقلاً ناعماً بحيث تبدو أقل بروزاً مما هى عليه فى الحقيقة. ولم نجد أجزاء الحجارة التى حفرها النحات حول التمثال متناثرة فى محيط كبير نظراً لأن الجدار مغطىً بكثافة بالرسومات والنقوش الهيروغليفية، وأظن أنه لا يوجد مساحة أكبر من قدم مربع على هذه الجدران دون أن تغطيها بعض الرسومات أو النقوش الهيروغليفية. وتتميز الملابس ومختلف أجزاء أطراف الجسم برسم خط رفيع لا يزيد عمقه عن سمك نصف كراون، لكنه دقيق للغاية بحيث يوصل الأثر المطلوب.

بعد أن يستكمل النحات نحت التماثيل وصقلها، فإنه يعالجها من جميع الجهات بطبقة من طلاء الكِلْس[٢٤]. يتسم بياض هذا الطلاء بالجمال والوضوح حتى أن أفضل أنواع الورق الأبيض لدينا يبدو مصفر اللون إذا ما قورن به، ثم يأتى الرسام لينتهى من التمثال. يبدو أن المصريين القدماء لم تكن لديهم أية فكرة عن اللون الذى يشبه لون الجلد، لهذا استعانوا باللون الأحمر كلون ثابت لكل ما هو لحم. بالطبع هناك استثناءات، فأحياناً ما يرغبون فى رسم امرأة بيضاء اللون كنوع من تمييز لون بشرتها عن لون بشرة الرجال، فيستعملون اللون الأصفر كى يمثل لون بشرتها، لكننا لا نستطيع أن نقول إن قدماء المصريين لم يعرفوا كيفية تخفيف اللون الأحمر حتى يصل إلى درجة لون الجلد، ففى بعض الحالات التى يفترض أن يظهر لون الجلد الأحمر فيها من خلال غلالة شفافة، فإن الصبغة تبدو تقريباً باللون الطبيعى على افتراض أن قدماء المصريين يتمتعون بنفس لون البشرة كأحفادهم – أى الأقباط الحاليين – بعض هؤلاء الأقباط أبيض البشرة تقريباً كالأوروبيين. الملابس الخاصة بقدماء المصريين بيضاء اللون بوجه عام، أما أصعب شىء فهو رسم الحلى حينما كان الفنان يضطر لتوظيف اللون الأحمر

(٢٤) طلاء الكلس whitewash : طلاء من الماء والكلس لتبييض الجدران. [المترجم]

فى توزيع الألوان الأربعة، وهو ما برعوا فيه للغاية. بعد الانتهاء من نحت التمثال، فإنهم يعالجونه على ما يبدو بطبقة من الطلاء رغم السؤال المطروح وهو: هل كانوا يضعون الطلاء وحده أم يخلطونه بالصبغة. الواقع أننا لا نرى الطلاء بهذا الشكل سوى فى هذه المقبرة، فلا يوجد مكان فى مصر يمكن أن يفخر بمثل هذه الدرجة من البقاء، ولا يوجد مكان آخر فى مصر يمكنك أن ترى فيه عادات وتقاليد قدماء المصريين بهذه الدرجة من الدقة العالية.

أخذت رسومات لكل التماثيل والنقوش الهيروغليفية والرموز والحلى وما إليها مما رأيناه فى المقبرة بمساعدة من مستر ريتشى Ricci ، كما أخذنا بكل حرص نماذج من كل شىء وجدناه فى قوالب من الشمع. بذلنا جهداً شاقًا لإنهاء هذا العمل الذى استغرق منا أكثر من اثنا عشر شهراً.

تعرض الرسومات أماكن التماثيل كل على حدَة، فإذا شيد أى مبنى بنفس الخطة والحجم تمامًا، فإن التماثيل ستوضع فى أماكنها كما هو الحال فى الأصل، وبذلك يمكن أن نُشيِّد فى أوروبا مقبرة لا تختلف فى أى شىء عن تلك الموجودة فى طيبة، وهذا ما آمل تنفيذه إن أمكن.

وجدنا على الناحية اليسرى فور دخولنا مدخل الممر الأول ومن الداخل تمثالين بالحجم الطبيعى، يبدو أن أحدهما البطل وهو يدخل المقبرة. يجد البطل فى استقباله أحد الآلهة له رأس صقر وفوق هذه الرأس الكرة الأرضية وأفعى. التمثالان محاطان بالنقوش الهيروغليفية، كما يوجد بالقرب من الأرض إلى الأمام قليلاً تمثال لتمساح منحوت ببراعة ودقة. تغطى النقوش الهيروغليفية هذا الممر على كلا الجانبين، وتفصل هذه النقوش عن بعضها البعض خطوط من أعلى إلى أسفل، وتصل المسافة فيما بينها من خمس إلى ست بوصات. وتتكون الجمل بالهيروغليفية داخل هذه الخطوط. من الواضح أن قدماء المصريين كانوا يقرءون من أعلى إلى أسفل، ثم يبدءون ثانية من أعلى. سقف الممر الأول مرسوم عليه صورة النسور كما هو موضح فى اللوحة رقم (٢). هناك كوة أو مشكاة على جانبى السلم بعد الممر الأول، وتزينه رسومات غريبة لها أجسام آدمية ورؤوس مختلف الحيوانات. وهناك على جانبى

الباب أسفل السلم رسم لامرأة راكعة وواضعة يديها على كرة أرضية. ويوجد فوق كل من هاتين الصورتين الثعلب الذى يوضع دائمًا لمراقبة المقابر وفقًا للعادات المصرية القديمة. كما توجد على المساحة الأمامية فوق الباب أسماء البطل وابنه أو أبيه وهناك على جانبى الأسماء رسم لكائن ناشرًا جناحيه فوق الأسماء لحمايتها كما ترى فى اللوحة رقم (٣). تتميز الأسماء بأنها محاطةٌ بكوتين بيضاويتين، وفى مقبرة نخاو Nichao يوجد تمثال جالس لرجل تعرفه من اللحية. على رأس التمثال يستقر تاج ميزان الذرة corn measure المعروف والريشتان كما يضع على ركبتيه المنجل ومِدْراس القمح اليدوى. على رأس التمثال هلالٌ يتجه طرفاه إلى أعلى، وتوجد فوقهما ما يشبه حزمة من عيدان الخشب المربوطة مع بعضها البعض، وفى أحد جوانبها تلوى مجموعة من العيدان على هيئة الأفعى. وراء التمثال هناك ما يظنه البعض سكينين، فى حين يظنه البعض الآخر ريشتين، لكننى أظن أنهما سكينا القرابين التى تعد بمثابة شعار الكِهانَة، هذا لأننا نعلم أن أبطال مصر أو ملوكها كانوا ينشأون فى مواطن الآلهة المقدسة. أما تحت التمثال فهناك إطار مكون من خطين متوازيين ومتصلين بخط ثالث مشابه يوجد تحته شعار المياه الجارية.

فى المشكاة الثانية على الناحية اليمنى تمثال لامرأة جالسة تلف عصابة حول رأسها كى تمسك ريشة وتضع على ركبتيها مفاتيح النيل. فوق الرأس توجد الكرة الأرضية وتحت التمثال شىء على هيئة البرج يفترض أنه يمثل القوة. يتلون وجه كل من التمثالين باللون الأزرق وهو اللون المميز لوجه إله الخلق العظيم. يوجد فوق كل إطار بيضاوى الكرة الأرضية والريش، أما تحته رمزان هيروغليفيان لا يختلفان عن حوضين يفيضان بالمياه نظرًا لوجودهما تحت تمثالين حارسين على جانبى الإطار البيضاوى.

يأتى بعد ذلك الممر الثانى الذى توجد على جانبه الأيمن رسومات لبعض مراسم الجنازة والدفن خصوصًا عملية إدخال التابوت داخل المقبرة والقارب المشهور الذى يحمل صور الرجال والنساء فوقه، وفى منتصف القارب رأس الكبش تجره مجموعة من الرجال.

وبالمثل، تغطى الجدار على الجهة اليسرى رسومات لمراسم مشابهة، ومن بين هذه الرسومات صورة الجعران أو الخنفساء مرفوعة فى الهواء بمساعدة صقرين يمسكان بدورهما الحبال التى تجرها مختلف الصور وغير ذلك الكثير من الرموز والشعارات. أما الرسم الموجود على جدار البئر فهو تقريبًا بالحجم الطبيعى. ويبدو أنها تمثل مختلف الآلهة التى يتلقى بعضها القرابين من الناس على اختلاف طبقاتهم.

يلى ذلك القاعة الأولى التى تتميز بأربعة أعمدة فى منتصفها، ويوجد على كل جانب منها تمثالان عادةً ما يمثلان إلهًا وإلهة. وعلى الحائط الذى يقع على الجانب الأيمن ثلاثة صفوف من الصور بعضها فوق بعض، هذا وفقًا للنظام العام القائم فى كل المقبرة من أولها إلى آخرها. فى الصف العلوى عدد من الرجال يشدون سلسلة مثبتة بمومياء واقفة من الواضح أنها لا تتحرك رغم ما يبذلونه من جهد فى تحريكها. أما الصفان السفليان فيتكونان من مراسم الجنازة وصَفٍّ من المومياوات ترقد فى وضع أفقى على الأرض. على الجانب الأيسر هناك تصوير لمراسم عسكرية غامضة تضم عددًا كبيرًا من الأشكال الآدمية تتطلع بنظرها إلى رجل يكبرها كثيرًا فى الحجم، وهو بدوره متوجه بنظره إليهم. وفى نهاية هذا الحشد يقف ثلاثة أصناف من الناس من أمم أخرى من الظاهر أنهم من اليهود والأحباش والفرس. ويقف خلف هؤلاء بعض المصريين القدماء دون حليهم كمن فُكَّ أسرهم وفى طريق العودة إلى ديارهم يتبعهم جسم ذو رأس صقر أظنه إلههم الحارس. ولكى ترى هذه المراسم انظر اللوحات رقم (٦) و (٧) و (٨).

يسرنى أن أعلن للقارئ أنه وفقًا للكشف الأخير الذى قام به د. يَنْج Dr. Young لعدد كبير من النقوش الهيروغليفية، وجدت أسماء نخاو وابنه بسمتك[٢٥] Psammethis بين الرسومات التى أخذتها لهذه المقبرة. هذه المرة الأولى التى تفسر بها النقوش الهيروغليفية

(٢٥) بسمتك : الأرجح أن الملك "بسمتك" المشار إليه هو الملك بسمتك الثانى المنسوب إلى الأسرة السادسة والعشرين من ملوك مصر. الملك بسمتك الثانى ابن نخاو أو نكاو الثانى (٥٩٥ – ٥٨٩ ق.م) عرف فى التاريخ بأنه أرسل جيشًا لمحاربة إثيوبيا، فاخترقها حتى وصل إلى قلبها. وفى الطريق إلى هناك، ترك جنوده الإغريق والكاريون والفينيقيون نقوشًا على حوائط معبد أبى سمبل ببلاد النوبة. [المترجم نقلاً عن معجم الحضارة المصرية القديمة – ط ٢ – الهيئة العامة المصرية للكتاب – ١٩٩٦، ص ٨١-٨٢]

بهذه الدرجة من الدقة، مما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن منهج الدكتور هو المفتاح الصحيح لقراءة هذه اللغة المجهولة. ونأمل أن يتمكن فى استكمال هذه المهمة الشاقة العسيرة لأن استكمال هذا الجهد سيعطى للعالم تاريخ واحدة من أعرق الأمم، هذا التاريخ الذى نجهله تمامًا. فنخاو مثلاً فتح أورشليم وبابل، كما شن ابنه بسمتك حربًا ضد الأحباش. فهل هناك ما هو أوضح من المراسم الظاهرة فى اللوحة المذكورة آنفًا؟ ويظهر الناس الذين ينتمون إلى الأمم الثلاث بصورة لا تخطئها العين؛ حيث يأتى الفرس واليهود والأحباش يليهم بعض الأسرى المصريين كما لو كانوا عائدين من الأسر يحرسهم إله الحماية. والسبب الذى يدعونا إلى أن افتراض أن المصريين كانوا أسرى تجردهم من كل حليهم التى كانت بمثابة وسيلة للزينة والتمييز الطبقى بينهم. ويظهر اليهود بوضوح من ملامح الوجه والخصائص الجسمية ولون بشرتهم، فى حين يتميز الأحباش بلون بشرتهم والحلى التى يرتدونها، أما الفرس فيميزهم لباسهم المعروف نظرًا لأنهم يظهرون فى كثير من الأحيان فى صور المعارك مع المصريين.

وفى مواجهة هذه القاعة، وأمام المدخل توجد واحدة من أرقى اللوحات التى أبدعتها يد المصريين القدماء حتى إنك لا تجد مثيلاً لها فى أى بقعة أخرى من مصر. وتتكون اللوحة من أربعة صور بالحجم الطبيعى. يظهر فى اللوحة الإله أوزوريس جالسًا على العرش، وهو يتلقى آيات الاحترام الخاصة بالأبطال يقدمها له أحد الآلهة ذو رأس صقر. وخلف العرش تظهر امرأة كما لو كانت فى حضرة كبير الآلهة. وتحاط هذه المجموعة كاملةً بالنقوش الهيروغليفية، ويحدها إطار تزينه الكثير من الأشكال الرمزية. وتظهر الكرة الأرضية المجنحة إلى أعلى حيث ينشر الجناحان ظلهما على المظهر كله، ويحيط صف من الأفاعى باللوحة كلها. ولا تزال التماثيل والصور بحالة ممتازة بحيث تعطى أدق فكرة عن حلى المصريين القدماء وطرق الزينة عندهم. (انظر اللوحة ١٩).

إذا مضيت قُدُمًا فسوف تجد مدخلاً إلى حجرة أخرى بها عمودان. كما تجد الخطوط العريضة مرسومة على حائط هذا المكان جاهزة أمام النحات كى يقطع منها تمثاله. وهنا يمكن أن نرى بوضوح الطريقة التى كان الفنان يعد بها التمثال المرسوم على الحائط كى يقطعه. من المستحيل تقريبًا أن أصف شتى الرسومات التى تزدان بها

جدران هذه الحجرة وأعمدتها. هناك العديد والعديد من الصور الرمزية لرجال ونساء وحيوانات الغرض منها - كما هو واضح - أن تمثل أمجاد وبطولات البطل صاحب المقبرة.

وعند الخروج من هذه الحجرة إلى القاعة الأولى قابلنا سلمًا يؤدى إلى ممر أكثر انخفاضًا تزين مدخله صورتان على كلا الجانبين لرجل وامرأة بالحجم الطبيعي. وتمثل صورة المرأة إيزيس كما هو واضح، وهى تضع كالمعتاد القرون والكرة الأرضية على رأسها، وتبدو على استعداد لاستقبال البطل الذى يوشك أن يدخل مواطن الخلود. تحتفظ الملابس فى هذه الصورة بحالتها؛ فلا شيء أكثر منها يمكننا أن نستشف منه الفكرة الصحيحة عن عادات وتقاليد المصريين القدماء. تغطى صورة البطل بغلالة أو قطعة من الكتان الشفاف الملفوفة حول كتفه، وتغطى جسمه كاملاً مما يعطى منظرًا يشعر بالعظمة والفخامة. تظهر إيزيس مغطاة بشبكة يحتوى كل مربع فيها على نقش هيروغليفى معين بهدف تزيين رداء الإلهة. وتظهر القلادة والأساور والحزام وغيرها من الحلى فى نظام وتناسق جميل يؤدى الأثر الطيب المطلوب خاصة عند مشاهدته أثناء الإضاءة بالأضواء الصناعية؛ وذلك للوصول إلى هذا الغرض (انظر اللوحة رقم ١٨).

على الحائط إلى اليسار عند دخول هذا الممر صورة لإنسان جالس بالحجم الطبيعي. أنها صورة للبطل نفسه جالسًا على العرش ممسكًا بالصولجان بيده اليمنى، بينما يمد يده اليسرى نحو المذبح الذى ينقسم عشرين قسمًا كما رأينا فى اللوحة رقم (١)، وتتدلى من عنق البطل رقاقة يمسكها خيط تأخذ شكل معبد مصرى قديم. وتضم الرقاقة مسلة وإلهين كل منهما على جانبيها. كثيرًا ما كان الناس يبحثون عن رقاقات من هذا النوع لأنها كانت على ما يبدو من الحلى أو الزينة الصدرية لملوك مصر. ولم يُعْثر إلا على القليل منها، كما أننى لم أرَ منها سوى اثنتين - واحدة فى المتحف البريطانى والأخرى أسعدنى الحظ بشرائها من أحد العرب الذى اكتشفها فى إحدى المقابر الملكية فى بيبان الملوك. هذه الرقاقة مصنوعة من البازلت الأسود وتتميز بأنها أكبر حجمًا وأفضل صنعة من الأخرى مما يثبت أن هذه الرقاقات مختلفة فى أحجامها وفى اكتمالها. يظهر الجعران أو الخنفساء على هذه الرقاقة بالنحت الناتئ **alto relievo**

على قارب صغير وبجواره إله من الجانبين، كما توجد على ظهر الرقاقة الكتابة كالعادة. ويوجد فوق رأس هذا الشكل النسر ناشراً جناحيه كأنه يحمى الملك. ويوجد على الجزء العلوى من كلٍ من جانبى جدران الممر تاريخ البطل مقسماً إلى أقسام أو مقصورات صغيرة متعددة يبلغ مساحة الواحد منها قرابة قدمين مربعين، وتحتوى على مجموعات من التماثيل ارتفاع الواحد منها ١٨ بوصة. ويُرى البطل فى كل مكان واقفاً فوق كومة من القمح وهو يتلقى العطايا والهدايا من جنوده أو من رفاقه فى الحرب. إلى الأمام بسلم صغير يؤدى إلى ممر قصير لا يزال يحمل صور المراسم، كما يتضح تقديم أحد الثيران كقربان كما فى لوحة رقم (١٣). تغطى النقوش الهيروغليفية جدران كلا الممرين فى أقسامها المنفصلة. ويتصل من هذا الممر القصير مدخل لممر آخر أكثر اتساعاً من الباقين. إن المنظر الخلاب لهذا المكان جعلنا نطلق عليه اسم "حجرة الجمال". ولا تزال كل التماثيل بحالة جيدة لدرجة أن أدق تفاصيل الحلى يمكن تمييزها بسهولة. تتزين جوانب الأبواب بأبدع ما تكون الزينة بتماثيل الربَّات المحاطة بالنقوش الهيروغليفية، ويمكنك أن ترى زهرة اللوتس كبرعم وكزهرة فى قمة تفتحها مع الأفعى ونصف الكرة فوقها (انظر اللوحة ١٧). إذا مضينا قدماً سوف نرى القاعة الكبيرة ذات الأعمدة الستة التى تضم تمثالين بالحجم الطبيعى على كل جانب من جوانبها، وتزين الحائط صور المراسم وغيرها من الرسومات الرمزية. يوجد فوق الباب من الداخل تصوير لامرأة ذات أجنحة ممتدة كما يتضح من اللوحة رقم (٣). وهناك صومعتان صغيرتان على جانبى هذه القاعة، تحتوى الصومعة التى تقع على الجانب الأيمن على الكثير من المومياوات وغيرها من التماثيل، أما الصومعة الموجودة على الجانب الأيسر بها تمثال بحجم بقرة ونصف بالحجم الطبيعى وتحتها عدد من التماثيل مما يمثل مجموعة غريبة حقاً، وتغطى النقوش الهيروغليفية هذه الجدران أيضاً. فى القاعة الكبيرة بالقرب من الباب صورة لعدد من الرجال يحملون عصاً أسطوانية طويلة عند نهايتيها رأس بقرة وفوق العصا ثوران كما ترى فى اللوحة رقم (١٥). إذا تقدمت أكثر، تنفتح القاعة إلى الحجرة الكبيرة ذات القناطر. لعل من المحال أن أتناول بالوصف مختلف الصور التى تزين جدار ذلك المكان. وهنا يُسجَّى جسد الملك عندما

وجدت فى منتصف الحجرة هذا التابوت، ويتميز هذا التابوت بوجود تماثيل منحوتة من الداخل والخارج بالنقش الغائر وملونة باللون الأزرق الغامق، لكن لو تعرض للضوء، فإنه يصبح شفافًا تمامًا. أما سقف القنطرة نفسها فملون باللون الأزرق مع مجموعة من الصور وغيرها المتعلقة بدائرة الأبراج.

يلى ذلك حجرة ذات بروز شبيه بالتَخْتُ خِوان، ويوجد بهذه الحجرة عمودان مربعان وتمثالان على كل جانب كما يتضح من اللوحة رقم(٤) و (٥). تتحلى الجدران فى كل أنحاء الحجرة بأبدع الصور الرمزية تظهر عينة منها فى اللوحة رقم (٢) التى تمثل مقصورة فوق الباب داخل الحجرة. لا طائل من الاستطراد فى وصف هذا المكان الملائكى، كما أنبه القارئ أنه لن يتمكن إلا من تكوين فكرة بسيطة جداً عن هذا المكان مما استطاع قلمى أن يثبته من خبر متضائل وسرد متواضع. ولعلى أكون من المحظوظين إن نجحت فى تشييد نموذج مطابق لهذه المقبرة فى أوروبا، لكنك إذا رأيت المقبرة عيانًا فستعترف باستحالة أن أوفيها حقها فى الوصف.

نقل العرب أنباء هذا الكشف حتى وصلت إلى أسماع حامد أغا قنا، ومما وصله أننا عثرنا على كنز عظيم فى هذه المقبرة. وما أن سمع هذه الأنباء حتى انطلق مع مجموعة من جنوده إلى طيبة. تستغرق الرحلة إلى هناك مسافة يومين فى الغالب، لكن سرعته فى هذه الرحلة جعلته يصل إلى وادى بيبان الملوك فى ست وثلاثين ساعة بالطريق البرى. ووصلتنا أخبار من بعض العرب قبل وصولهم أنهم رأوا من فوق قمم الجبال عدداً كبيراً من الأتراك على ظهور الخيل يدخلون الوادى قادمين نحونا. ولم أتمكن من معرفة هوية هؤلاء نظراً لعدم مجىء أى أتراك إلى هذا المكان. وبعد نصف ساعة أعطوا لنا إشارة باقترابهم من المكان بإطلاق عدة أعيرة نارية من بنادقهم. تصورت أنهم قوة مسلحة أرسلت لمهاجمة المقابر والمناطق الصخرية، فلا سبب آخر يمكن أن يدفع بالأتراك بالمجىء إلى هنا. وفى النهاية، اكتشفت عند وصول تلك القوة الجبارة إلينا أنها لم تكن سوى حامد أغا قنا الرجل المعروف الذى حكم شرقى طيبة لمدة من الوقت وأتباعه. ووفقًا لذلك أصابتنى الحيرة، فماذا يريد هذا الرجل من هذا المكان حيث كنا فى الغرب تحت سيطرة حاكم آخر، لكننى أظن أنه فى حالة وجود

أو اكتشاف كنز، فإن أول من يسمع به يستولى عليه بوضع اليد. وعندما قابلنى تبسم فى وجهى وحيَّانى بكل حرارة - بصورة أكثر كثيراً من المعتاد - وأظن أن ذلك بسبب الكنز الذى اكتشفته، والذى يعلق عليه آمالاً كبيرة. أمرت بتوفير أكبر كمية من الشموع والمصابيح لإضاءة المقبرة ثم نزلنا فيها. لم يُبْدِ حامد أغا قنا أدنى اهتمام بما هو موجود على جدران ذلك المكان الراقى وكل الأشكال الخلابة والصور زاهية الألوان، فكل تفكيره منصبٌ حول الكنز فقط، انتشر وأتباعه الكثيرون فى المقبرة ككلاب الصيد يبحثون وينقبون فى كل فتحة وفى كل ركن. ولَّما لَمْ يجدوا شيئًا يرضى سيدهم أو يرضيهم بعد هذا المسح الدقيق والطويل، أمر الأغا أخيراً جنوده بالتراجع، وقال لى: "لو سمحت خبيت الكنز فين؟" "أى كنز؟" "الكنز اللى لقيته فى المكان ده". ولم أستطع أن أكتم ابتسامتى لهذا السؤال، وهو ما أكد افتراضاته. وأخبرته أننا لم نعثر على أى كنز هنا. فضحك من هذا القول وظل يستعطفنى حتى أريه الكنز، وأضاف قائلاً: "وصلنى خبر من شخص أثق فيه ثقة كبيرة إنك لقيت فى المكان ده ديك دهبى كبير مليان ألماظ ولؤلؤ. لازم أشوف الكنز ده. هوا فين؟" ولم أستطع أن أتمالك نفسى من الضحك مؤكداً له أننى لم أجد أى كنز فى هذه المكان. ولما رأيت منه من خيبة الأمل، جلس الأغا أمام التابوت. خِفْتُ أن تدور برأسه فكرة أن التابوت هو هذا الكنز؛ فيحطمه ليرى إن كان به أى ذهب، فمفهومهم عن الكنز منحصر فى الذهب والمجوهرات. وأخيراً تخلى عن فكرة الأمل فى الثروة، فنهض واقفاً ليخرج من المقبرة. وسألته عن رأيه فى الصور والرسومات الجميلة الموجودة على الجدران فى كل مكان. فلم يكن منه إلا أن ألقى عليها نظرة سريعة دونما اهتمام وقال: "المكان ده ينفع حرملك عشان الحريم تلاقى حاجة تتفرج عليها". وأخيراً، ورغم ما بدا من اقتناعه بعدم وجود كنز، رحل وعلى وجهه علامات كثير من الغيظ.

لابد لى أن أسرد كل شىء فى الوقت المناسب، وسأذكر الآن ما حدث قبل هذه الفترة. مما يُذكر أننى وضعت يدى فى رحلتى الأولى إلى النوبة وجزيرة فيلة على ست عشرة قطعة كبيرة من الحجر تشكل مجموعة ممتازة من مختلف التماثيل المنحوتة بالنقش البارز. وأصدرت أنا الأوامر بقطع هذه الحجارة لتقليل سمكها حتى يسهل

حملها بالقارب فى نهر النيل، وعاد القارب بدون الأحجار التى كان يفترض أنه سيحملها لأن ريس القارب لم يرغب فى أخذ الرأس الكبيرة على ظهر قاربه. وعندما عدنا إلى الجزيرة فى رحلتى الثانية، وجدنا هذه الأحجار مشوهة المعالم ومكتوبًا عليها باللغة الفرنسية العبارة التالية : "operation manquée" أو "العملية الخاسرة". لم نتمكن من معرفة صاحب هذا الخط لأنه مكتوب بالفحم الحجرى، لكننا علمنا بوجود ثلاثة من العملاء الفرنسيين هناك وهم مستر كلود Mr. Caliud ومستر جاك Mr. Jaques والخائن روزينانا Rosignana وكلهم يعملون فى خدمة مستر دروتى. نظرًا لجهلنا بمنفذ هذه الحيلة المغرضة العابثة من بين هؤلاء الثلاثة، لجأنا إلى الكتابة إلى القنصل فى القاهرة، ولم نزد من القول شيئًا بعد ذلك. وفى أثناء هذا الوقت، جاء إلينا مستر جاك الذى انفصل عن الآخرين وقال على سبيل تبرئة نفسه إن كلود هو الفاعل، وهو الرجل الذى شوه التماثيل بمطرقة صغيرة يحملها دائمًا معه لتكسير الحجارة. كان مستر كلود فى تلك الأثناء فى القاهرة، فى الوقت الذى كتب مستر بيتشى إلى القنصل تقريرًا بما حدث. أكد مستر كلود للقنصل خوفًا من فصله من العمل أن بإمكانه إثبات براءته فى مواجهة مع مستر جاك عندما يصل إلى طيبة. مضت فترة من الوقت على وصول مستر كلود إلى طيبة حاملاً رسالة معه من القنصل تنص على الوعد الذى قطعه على نفسه بتبرئة ذمته مما نَسَبَه إليه مستر جاك من تحطيم التماثيل، لكنه بدلاً من مواجهة مستر جاك الذى كان موجودًا بطيبة، عمل جاهدًا على الإساءة إلى القنصل الإنجليزى لأنه تحدث معه عن العمل أثناء وجودهما فى القاهرة، ولم يعمل على مقابلتنا نحن ومستر جاك، كما أنه لم يقرر إن كانت التهمة فى محلها أم لا. عزم مستر كلود بعد الإساءة إلى القنصل الذى كان على بعد خمسمائة ميل منه على تدبير حيلة أكثر خبثًا قبل رحيله. فأصبح مستر كلود ومستر جاك أصدقاء مرة أخرى، وأكد الأخير للقنصل أن كل ما كتبه إليه مستر بيتشى بخصوص مستر كلود عارٍ تمامًا من الصحة، وأنه لم يخبرنا قط بأى شىء من هذا القبيل. وعندما وصل القنصل إلى طيبة، استدعى مستر جاك للسؤال أمامنا عما إذا كان أخبرنا أن مستر كلود هو الشخص الذى شوه الأحجار فى جزيرة فيلة. وجاء رده مرة ثانية على القنصل أمامنا أن كلود لم يحطم الأحجار،

وعندما سأله القنصل عن السبب الذى دعاه إلى الكتابة بعد ذلك بما يفيد أن هذا ليس هو الموضوع، رد قائلاً بكل برود وهدوء أعصاب إنه لم يفعل سوى مناقضة أقواله بناء على طلب كلود. فهذا رجل يحطم التماثيل وآخر يخونه أولاً، ثم يتراجع عن خيانته وأخيراً يؤكدها ثانية. تلك عينة من الرجال المحترمين الذين اضطررت لأخذ حذرى منهم.

وبعد افتتاح المقبرة بعشرين يوماً، سمعنا من الناس على القوارب التى تجوب نهر النيل أن ثلاث سفن أو قوارب كبيرة آتية إلينا تحمل على ظهرها مجموعة من الإنجليز، وما هى إلا أيام معدودات حتى وصل إلى طيبة كل من إيرل بلمور Earl Belmore وأسرته والقنصل مستر سولت والقبطان كورى Cory ود. ريتشاردسون Dr. Richardson والموقَّر مستر هولت Rev. Mr. Holt .

ذهبوا عند مرورهم من قنا لرؤية حامد أغا الذى أخبرهم بالكشف الجديد الخاص بالمقبرة. سُرَّ الجمع لما رأوها، وكان جنابه متشوقاً للعثور على إحدى المقابر؛ فأشرت على العمال بحفر بقعتين من الأرض يحتمل أن نجد فيهما أى مقبرة فى وادى بيبان الملوك، لكن العمال لم يجدوا سوى حفرتين صغيرتين للمومياوات. هذا يثبت أنه من المسموح بالحفر للبحث عن المقابر الصغيرة فى ذلك الوادى حيث يفترض وجودها، ويتفق ذلك مع رأيى السابق أن مقابر ملوك مصر ليست وحدها التى جرى البحث عنها فى ذلك الوادى. قام جناب اللورد أثناء إقامته بالكثير من أعمال البحث، كما سرَّه نقل تمثالين اكتشفتهما فى الكرنك وهما على هيئة رأس الأسد عن طريق النيل. وبذلك، جمع جنابه مما عثر عليه وجلبه له العرب كمية مهولة من الآثار المتنوعة التى تشكل مخزوناً هائلاً من الآثار إذا جلبت إلى أوروبا.

لكم كانت سعادة القنصل عند رؤيته للمقبرة، وأظن أنه شرع فى أعمال البحث والتنقيب بسبب رؤيته للتابوت أيضاً فى وادى بيبان الملوك رغبةً فى العثور على المزيد من مستودعات الملوك. استمرت عمليات البحث لمدة أربعة أشهر، وسيتناول القنصل بنفسه ما عثر عليه من الآثار بالوصف بقدر من الدقة أكثر منى. انطلق اللورد بلمور

وعائلته إلى النوبة بعد ذلك ببضعة أيام، واستعددت للنزول فى النيل لقضاء بعض الأشغال فى القاهرة. ذلك هو الانطباع الذى تكوَّن لدىَّ عن هذه المقبرة بارعة الجمال حتى أننى قررت أن أعود إلى طيبة لأنشىءنموذجًا كاملاً لها سأتحدث عنه فيما بعد. وعاد الرحالة الثلاثة من النوبة، لكنهم مروا بنا دون أن يتوقفوا.

غادرت طيبة بعد مباشرة كل العمل الخاص بما عثرنا عليه فى هذا الموسم، وما زال بها مجموعة أخرى من الآثار التى سيأتى ذكرها فى نهاية هذا الكتاب. لن أصف هذه الرحلة النيلية، فلا طائل من تكرار نفس الأشياء تقريبًا مرة أخرى، ووصلنا بولاق فى يوم ٢٣ من ديسمبر بعد غياب عشرة أشهر. عاقتنى أشغالى فى القاهرة مدةً أطول مما تمنيت وذلك لرغبتى وحرصى الشديد على العودة إلى طيبة لهدف واحد لا ثانى له، وهو أخذ نماذج وقوالب من الشمع لكل التماثيل والنقوش الهيروغليفية فى تلك المقبرة التى اكتشفتها مؤخرًا والتى سميت بدايةً مقبرة أبيس Apis ، ثم الآن باسم مقبرة بسمتك. أدركت أننى لن أتمكن من الانتهاء من أشغالى الصغيرة هناك على الفور؛ فأرسلت القارب إلى الجنوب عاقدًا العزم على الارتحال بنفسى بالبر. وهناك اتصلت بالسنيور ريتشى، وهو شاب من إيطاليا لديه مهارة عالية فى الرسم، وأصبح بقليل من الممارسة يتقن محاكاة النقوش الهيروغليفية إتقانًا. كان لابد لهذا الرجل من البدء فى محاكاة الرسومات الخاصة بالمقبرة عند وصوله إلى طيبة. قررت زوجتى زيارة الأراضى المقدسة وانتظار مجيئى إلى أورشليم أو مدينة القدس، وهو المكان الذى أنوى الذهاب إليه بعد الانتهاء من عمل النموذج الخاص بالمقبرة. أنا الآن منهك الجيب تمامًا نظرًا لأننى أنفقت مدخراتى السابقة من المال ولم يبقَ معى فى الوقت الحالى إلا القليل من المال مما تسلمته من مستر بوركهارت والقنصل بعد رحلتى الأولى حاملاً رأس التمثال. انطلقت زوجتى إلى أورشليم يصحبها فى رحلتها جيمس الغلام الأيرلندى وأحد الإنكشارية الذى ذهب لمقابلة أحد الرحالة فى الشام كى يصحبه إلى مصر.

فى أثناء ذلك وصل إلى القاهرة الصادق الأمين الكونت دى فوربان الشهير. عندئذٍ نزلت بمقر القنصلية، وزارنى الكونت فى البيت ليرى مجموعة الآثار التى جلبتها معى بالإضافة إلى ما جلبته من آثار فى العام الماضى. ولم يَخْلُ بال دى فوربان

اللعين من القلق عند رؤية منظر الكثير والكثير من الأشياء النفيسة، ولأن هذا الرجل عمل مديرًا للمتحف الفرنسي؛ فلم يَفْتُر اهتمامه بها لحظة واحدة. لكن ما لفت انتباهه بدرجة خاصة هو رأس التمثال والمذبح ذى الآلهة الست وذراع التمثال والكثير من التماثيل الأخرى.

كنت حينذاك أمتلك بعض التماثيل التى جلبتها معى من طيبة على حسابى الخاص بموجب اتفاق أو تفاهم بينى وبين القنصل، ونويت أن أرسلها إلى مسقط رأسى؛ وأعددت لإرسالها إلى الإسكندرية لهذا الغرض. ساعتئذٍ تقدَّم الكونت إلىَّ بعرض لشرائها، فلما عرف أنها فى الطريق إلى أوروبا على وجه السرعة، طلب منى بإلحاح أن أتركها له قائلاً إنه سيكون ممتنًا لى عظيم الامتنان لو أننى استجبت لطلبه. جال فى خاطرى ساعتها احتمال عثورى على المزيد من الآثار، وعلى هذا الأساس وافقت على إرضائه. لم يزد ما دفعه لى دى فوربان على ربع قيمتها، لكننى كنت راضيًا تمامًا، فلم أكن فى حياتى تاجر تماثيل.

فى أثناء ذلك تلقيت عددًا من الصحف من أوروبا واكتشفت - ويا للدهشة العظيمة - أن كل اكتشافاتى وجهودى السابقة سبق نشرها بأسماء أناس آخرين، فى حين لم يَرِدْ اسمى بذكر. ولابد أن أعترف أننى كنت ضعيفًا بدرجة جعلتنى أشعر بقليل من الغيظ من جراء هذا الفعل؛ إذ ليس مما يَسُرُّ بعد كل هذه الجهود الشاقة التى بذلتها فى صعيد مصر أن أرى ثمرة جهودى وقيمتها الأدبية منسوبة إلى الآخرين الذين لم يكن لهم أى شأن بالموضوع أكثر من حاكم سيبيريا اللهم إلا فيما يتعلق بإمدادى بالمال. رأيت أن كل الأمور ليست فى نصابها الصحيح إلى جانب وصول أخبار كاذبة مضللة إلى الناس؛ فعمدت إلى تحرير بيان بالوقائع التى حدثت بالفعل. وأعطيت هذا البيان الخاص بعملياتى ورحلاتى فى مصر إلى الكونت دى فوربان على هيئة خطاب وَعَد بنشره فى فرنسا، لكن ليتنى لم أضع ثقتى فيه؛ فما فعله دى فوربان بالخطاب جاء بعكس الهدف المرجو منه تمامًا، وتاهت الحقيقة مرة أخرى على يد الصحف الفرنسية التى خلطت الأوراق؛ وبذلك لم يعرف الجمهور إلا النزر اليسير مما حدث فعلاً من تلك الفصلية التى نشرت الخبر، كما ضلت أيضًا بعض الصحف الأوروبية الأخرى

التى نسخت الأخبار أو عالجتها من الصحف الفرنسية. يئست من تصحيح ما ورد من أخبار مكنوبة خاطئة، لكن كثيراً من الرحالة الذين زاروا تلك البلاد فيما بعد وكانوا على الحياد فى شهادتهم كتبوا إلى أوروبا بياناً بما شاهدوه وسمعوه، وبهذا ظهرت الحقيقة إلى النور فى نهاية الأمر.

فى تلك الأثناء وصل إلى القاهرة الميجور مور Moore فى مهمة سريعة قادماً من الهند، وذهب معى لزيارة الأهرام من الداخل ومن الخارج لعدم قدرته على الرحيل فى نفس اليوم إلى الإسكندرية بحثاً عن إحدى السفن الصغيرة. لما اعتلينا قمة الهرم الأول، أسهبت أنا فى الحديث عن مختلف الآراء المتعلقة بالهرم الثانى وعن مدى أسفى لعدم افتتاح ذلك الهرم فى عصر يتصف بالسرعة والتنوير مثل عصرنا الحالى، وبذلك ظل داخل الهرم شيئاً مجهولاً. أخذ الميجور مور عند رحيله إلى إنجلترا بياناً بالعمليات التى قمت بها فى مصر وبعضاً من خطط الأماكن المكتشفة حديثاً نقلها بأمانة إلى اللورد أبردين Lord Aberdeen رئيس جمعية الآثار بناء على طلبى، وكان ذلك من المصادر التى استعانت بها الحقيقة على الظهور للشمس.

استفسر الكونت دى فوربان كثيراً عن صعيد مصر، وأعرب عن رغبته فى رؤية تلك البلاد. لم أعرف إن كان السبب وراء هذا القرار حجتى فى الإقناع أم نواياه الخاصة، لكنه قرر على أية حال الذهاب إلى الصعيد، رغم أن رحلته كلها من لحظة المغادرة حتى العودة لم تستغرق إلا شهراً واحداً. ونظراً لزيارته لتلك البلاد، فقد تناولها بالوصف إلى جانب مدينة طيبة وآثارها ومقابرها ومعابدها وتماثيلها الضخمة والجعارين والأوروبيين وما إلى ذلك. لكنه قال إن روح المغامرة لديه لاكتشاف مجاهل أفريقيا خانته عندما رأى النساء الأوروبيات يمشين فى الأقصر. ويا له من عذر رائع من رحالة! ففى عهد الرحالة نوردن Norden ، لم تكن النساء الأوروبيات قادرات على التجول فى الإسكندرية كما يفعلن الآن فى الأقصر، إلا أنه – أى نوردن – استمر فى مسيرته فى الارتحال حتى وصل إلى الدير. فإذا أراد الكونت أن يشار إليه باعتباره من الرحالة، فما كان عليه أن يحتقر دخول منطقة بحر الرمال العظيم فى أفريقيا لمجرد أنه رأى أسرة أوروبية تتجول

بحرية فى مدينة الأقصر فى مصر. وإذا ألقى الكونت نظرة على خريطة لتلك البلاد المجهولة، فسيكتشف أن الحضارة المصرية القديمة تتدهور تدريجيًا دون أن يكون لهذا علاقة بالمجد الذى يبدو أنه يأمل فى الوصول إليه باكتشاف مجاهل أفريقيا.

يذكر الكونت أنه عثر على ذراع أحد التماثيل فى طيبة، لكننى أخذتها عن طريق أعوانى بناء على نصيحة القنصل الإنجليزى رغم أنها تخصه هو. هذه الذراع لا أصل لها فى الوجود. لكن إذا منع الكونت خجله من القول إنه ظل فى مصر دون أن يعثر على قطعة آثار واحدة وإنه عاد إلى فرنسا دون أن يجلب معه أى شىء سوى التماثيل التى حصل عليها منى، فأنا أظن أنه كان سيبدو أكثر صدقًا لو أنه اعترف بأن إغراء الحياة السهلة الرغدة منعه من التوغل أكثر فى أفريقيا. ومن طبع الكونت أنه يتعرض بالإهانة لأى أحد تقريبًا يعترض طريقه لا لشىء إلا فشله فى الوصول إلى أى شىء فى مصر بنفسه، وما كنت لأذكر اسمه لولا تلك الأكاذيب التى لفقها عنى فى جريدته. هناك شىءآخر أود أن أشير إليه بخصوص الكونت. فعند رجوعه من طيبة قابلته فى القاهرة فى منزل القنصل النمساوى، وكنت آنذاك بدأت مهمة فتح الأهرام وتوصلت بالفعل إلى الممر المزيف. طلب منى الكونت عندئذٍ بلهجة يُشتَمُّ منها رائحة التهكم أن أرسل إليه خطة فتح الأهرام – التى يفترض أنه لا وجود لها لا شك – لو نجحت فى فتحها لأنه على وشك أن ينطلق إلى الإسكندرية فى اليوم التالى ومن ثَمَّ إلى فرنسا. ظننت أن أفضل شىء من باب معاملته بالمثل أن أرسل إليه الخطة المطلوبة، وهذا ما فعلته بمجرد أن فتحت الهرم بعد رحيله ببضعة أيام. فهل يصدق أحد أن الكونت النبيل ادعى بمجرد وصوله إلى فرنسا أنه نجح فى دخول هرم الجيزة الثانى وأنه أتى ومعه الخطة إلى باريس؟ ويتضح ما إذا كان ما قلته من الحقيقة أم لا من الفقرة التالية المأخوذة من صحيفة فرنسية بين يدى الآن :

> "وصل السيد لو كومت دى فوربان Mr. Le Comte de Forbin مدير عام المتحف الملكى الفرنسى يوم ٢٤من إبريل إلى مستشفى الحجر الصحى بمرسيليا. كانت الإسكندرية آخر مكان زاره قبل عودته من رحلته المليئة بالصعاب. زار الكونت فى رحلته كل من

اليونان وبلاد الشام وصعيد مصر. وتمكن الكونت قبل مغادرته القاهرة بأيام قلائل وبطريق الصدفة السعيدة من دخول الهرم الثانى بالجيزة. جلب السيد فوربان معه خطة هذا الكشف الأثرى الهام بالإضافة إلى الكثير من المعلومات عن أعمال التنقيب التى يجريها مسيو دروتى فى الكرنك، وكذلك عن أعمال التنقيب التى يباشرها بنجاح منقطع النظير مستر سولت القنصل الإنجليزى فى وادى بيبان الملوك وفى سهول مدينة أبو. ويشرف متحف باريس بأن تثريه بعض المغانم من آثار طيبة التى جمعها السيد دى فوربان أثناء رحلاته".

فهل كتب هذا شخص ما فى فرنسا للسخرية من الكونت دى فوربان؟ أم أنها محاولة لوضع الغشاوة على أعين الجمهور فلا يرى سوى الأكاذيب؟

رأيت الكثير والكثير من الأخبار المغلوطة فى صحف أوروبا، فوجدت أن من واجبى أن أُطلِعَ الجمهور على الوقائع الحقيقية، وقبل مغادرتى طيبة زرت الأهرام بصحبة رجلين من أوروبا. فلما وصلنا إلى تلك المبانى الأثرية، ذهب الرجلان نحو الهرم الأول، وسلكت أنا طريقًا آخر حول الهرم الثانى. جلست فى ظل إحدى تلك الأحجار الموجودة على الجانب الشرقى التى تشكل جزءًا من المعبد الذى يرتفع أمام الهرم فى تلك الناحية. ثبتت عينَّى على تلك الكتلة المهولة الحجم من الحجر التى حيرت عقول الكتاب القدماء والمحدثين عبر العصور حتى أن هيرودوت نفسه انخدع بكلام الكهنة المصريين القدماء عندما أخبروه بعدم وجود أية حجرات أو مقصورات به. ووقفت تتملكنى الدهشة والعجب من منظر هذا الأثر الرائع، ولم تقل عنها دهشتى وعجبى من الغموض التام الذى يكتنفنا عن أصل الهرم وما يوجد بداخله وهيكله المعمارى. فى عصر يتصف بالسرعة والتنوير كعصرنا الحاضر نجد أحد عجائب الدنيا تقف أمامنا دون أن نعرف إن كان هذا الهرم يحتوى على أىٍّ تجويف من الداخل أم أنه ليس إلا كتلة مصمتة من الحجارة. جاءت المحاولات الكثيرة التى قام بها عدد لا يستهان به من الرحالة للعثور على مدخل لهذا الهرم وخاصة ما قامت به كوكبة من علماء فرنسا

العظماء كمحاولات لها وزنها وقيمتها لدرجة أن التفكير فى إعادة هذه المشروعات يبدو ضربًا من الجنون. كانت عمليات البحث الأخيرة التى قام بها مستر سولت نفسه والقبطان كابيليا Cabilia فى فترة أربعة شهور حول تلك الأهرامات كافية لإثناء عزم أى إنسان. وقبيل هذه الفترة فكر عدد قليل من الفرنسيين الذين أقاموا فى مصر فى الحصول على تصريح من محمد على بالإضافة إلى الحصول على تبرع قدره ٢٠ ألف جنيه إسترلينى على الأقل يُدفع فى مختلف محاكم أوروبا للدخول عنوة إلى قلب هذا الهرم باستخدام المتفجرات أو غير ذلك من الوسائل التى يمكن اقتراحها. كان من المعتزم أن يشرف مستر دروتى إشرافًا كاملاً على هذا العمل، وأحدث هذا الأمر فرقًا بالفعل لدى مَن اعتزموا إدارة هذا الشأن كله. أفلا يكفى هذا لبيان الصعوبات التى اضطررت لمواجهتها وللضحك على نفسى كلما جال بخاطرى محاولة كهذه؟ إلى جانب هذا، كانت أمامى عقبات أخرى تنتظرنى. كان علىَّ أن أضع فى حسبانى أنه نتيجة لما قمت به من أعمال فى صعيد مصر مما أسعدنى به الحظ، وفى ظل الظروف التى ذكرتها آنفًا، لم يكن من الوارد أن أحصل على تصريح للاضطلاع بمثل هذه المحاولة. فلو افترضنا وجود أى احتمال لدخول الهرم، فمن المؤكد أن العملية ستمنح لأناس أكثر نفوذًا وسلطة منى.

نَهَضْتُ وفى رأسى تتزاحم كل هذه الأفكار وبدافع طبيعى ساقتنى قدماى نحو الجهة الجنوبية من الهرم، وبدأت أفحص كل جانب منه بل وكل حجر تقريبًا. ثم عَرَّجْتُ على الجهة الغربية، وفى النهاية التففت حوله لأصل إلى الناحية الشمالية. هنا ظهرت لى الأشياء مختلفة بعض الشىء عن غيرها مما كان حولى. ولعل الملاحظات المستمرة التى أجريتها عند اقترابى من المقابر فى طيبة هى التى مكنتنى من رؤية ما لم يستطع غيرى من الرحالة أن يراه. وأظن أن فى ذلك دليلاً لا ريبة فيه على أن التطبيق يسبق النظرية فى كثير من الحالات. زار الكثير من الرحالة أيضًا مختلف الأماكن التى زرتها ووصل أغلبهم إلى نفس البقعة التى وصلت إليها، لكن الراجح أنهم لم يجروا الملاحظات التى أجريتها. ولابد لى أن استأذن القارئ فى القول إننى غالبًا ما رأيت رحالةً يضيعون فرص التأكد من صحة ما لديهم من انطباعات نظرًا لثقتهم بما يملكون من معرفة،

فإذا أدلى إليهم أحد بأى ملاحظة ممن لم يسعدهم الحظ بتلقى قدر من التعليم الكلاسيكى، فإنهم يأنفون الاستماع إليه أو يردون عليه بابتسامة إن لم يضحكوا عليه دلالة على عدم الاستحسان دون أن يتيقنوا إن كانت هذه الملاحظة فى محلها أم لا. وكم سرنى رؤية مثل هؤلاء الرحالة وهم فى خزى بسبب ما ثبت من خطأ فى تخميناتهم. أنا لا أقصد القول إن من تلقى تعليماً كلاسيكياً عليه أن يظن بنفسه عيباً لأنه على علم بتلك الأمور بالمقارنة بمن لم يتلق أى قدر من التعليم الكلاسيكى، لكن القصد أن من يظن بنفسه أنه عليم فى هذا الموضوع أو ذاك، فإنه غالباً لا يمحصه بنفس القدر من الدقة مثل آخر يقل عن الأول ثقة بالنفس.

لاحظت وجود ثلاث علامات على الجانب الشمالى من الهرم مما شجعنى على محاولة البحث هناك عن مدخل إلى داخل الهرم. من الملاحظ أيضاً أن العلامات الرئيسية التى اكتشفتها لم تكن مستقاة من المعلومات التى جمعتها من مقابر قدماء المصريين فى طيبة وحسب؛ فأى رحالة يقر بأن الأهرام لا تتشابه مع المقابر سواء فى شكلها الخارجى أو فى أى شكل كان، أى إنهما شيئان متباينان فالأول مكون من ركام مهول من قوالب الحجارة الضخمة، أما الثانى فمنحوتٌ بالكامل فى الصخور الصلبة. لابد لى أن أعترف أن المرشد الأساسى لى هو ما أجريته من حسابات عن الهرم الأول ومنها تأكدت أننى نجحت تقريباً فى محاولاتى. زرت الأهرام مرات كثيرة من قبل، لكن دون أى نية فى التأكد من إمكانية العثور على مدخل لها من الناحية العملية؛ فذلك يعتبر ضرباً من ضروب المستحيل. إلا أن الوضع مختلف الآن، حيث رأيت ما لم أستطع رؤيته من قبل ولاحظت أن الركام المتجمع عند منتصف واجهة الهرم بالضبط الذى سقط من طلاء الهرم نفسه أعلى من المدخل حسب توقعاتى مقارنة بارتفاع مدخل الهرم الأول إذا قسناه من الأساس. ولا أستطيع تصور أن اكتشاف مدخل الهرم الثانى يمكن أن يُعتبر أمراً ميئوساً منه طالما أن البقعة التى يُفترض وجود المدخل بها – إن كان لهذا المدخل وجود أصلاً – لم يرها أحد من قبل. كما لاحظت أيضاً أن الركام المتجمع عند منتصف الواجهة الأمامية بالضبط لم يكن متماسكاً كالركام المتجمع عند الجوانب، واستنتجت أن الأحجار التى كانت فى هذه البقعة أزيلت بعد سقوط الطلاء،

أدركت بالتالى احتمالية وجود مدخل للهرم فى تلك البقعة. لحقت برفاقى مرة أخرى عند الهرم الأول بعد أن ملأتنى الشجاعة بعد تلك الملاحظات. زرت أبى الهول الكبير ثم عدنا إلى القاهرة فى نفس الليلة.

قررت أن أفحص المنطقة عن كثب فى اليوم التالى، وهو ما فعلته دون الإفصاح عن نيتى لأحد لأن هذا الفعل كان من شأنه إثارة الكثير من التساؤلات بين الفرنسيين فى القاهرة، وبذلك لن أتمكن وبكل تأكيد من الحصول على تصريح للمضى فى خطتى. شجعتنى عملية البحث فى اليوم التالى على الإقدام على المحاولة. كنت واثقًا أنه لو عَلِمَ أناس بأعينهم من ذوى النفوذ داخل بلاط الباشا بالغرض من عملياتى، فلن أتمكن من الحصول على تصريح ببدء العمل. وعلى هذا الأساس عبرت النيل فى اليوم التالى إلى إمبابة حيث يقيم الكاشف الذى يتولى المديرية التى تقع الأهرام فى زمامها. قدمت نفسى له وأحطته علمًا بنيتى فى التنقيب داخل الأهرام إن نال طلبى رضاه، وجاء رده - كما توقعت - بضرورة التقدم بطلب للباشا أو إلى كاخيا بك Kakia Bey لاستصدار فرمان، وأنه ليس من سلطته أن يمنحنى تصريحًا للتنقيب فى الأهرام بدون هذا الفرمان. فسألته إن كان لديه أى اعتراض فى حالة حصولى على الفرمان من الباشا، فرد قائلاً: "مفيش خالص". بعد ذلك ذهبت إلى القلعة، ولم يكن الباشا موجوداً فى القاهرة؛ فقدمت نفسى إلى كاخيا بك الذى كان يعرفنى منذ أن كنت فى شبرا، ولم يعترض البك على طلبى بخصوص التصريح لى بالتنقيب فى الأهرام إلا فيما يختص بعدم تأكده من وجود أية أراضٍ زراعية حول الأهرام مما يجعله غير قادر على منحى التصريح بالحفر. وأرسل رسالة إلى الكاشف المذكور أدناه فى إمبابة الذى أكد له عدم وجود أية أراضٍ زراعية حول الأهرام، بل وعلى العكس كانت الأراضى من الصخر الصلب.

ووفقًا لذلك حصلت على فرمان موجه إلى الكاشف حتى يجهزنى برجال للعمل فى الأهرام، ولم تكن مهمتى ضئيلة الشأن، فهى محاولة للدخول إلى واحد من أعظم أهرام مصر وإحدى عجائب الدنيا السبع. كنت واثقًا أن فشلى فى مثل هذه المحاولة سيثير ضحك العالم كله علىَّ لاعتقادى بإمكانية الاضطلاع بمهمة كهذه، لكننى - وفى الوقت نفسه - وضعت فى حسبانى أنهم سيلتمسون لى العذر لأننا لن ننجح فى إنجاز

أى شىء على الإطلاق دون أن نجرب ونحاول. لكننى فكرت أن من الأفضل أن أحتفظ بهذه العملية سرًا قدر المستطاع، ولم أطلع أحدًا على الموضوع سوى مستر ووليماس Walmas أحد كبار التجار الشرقيين[٢٦] بالقاهرة وأحد أعضاء بنك بريجز house of Briggs . ولا يفهم من هذا أننى كنت أنوى إخفاء محاولاتى التى رغبت فى إتمامها فى الأهرام؛ فآثار عملى لابد أن تفصح عن نفسها للعيان، لكن ونظرًا لقربى من العاصمة حيث يقيم الكثير من الأوروبيين، فلن أستطيع تفادى أن يقطع أحد علىَّ عمليات التنقيب، وساورنى الشك فى أن خصومى قد يبطلون التصريح الذى حصلت عليه لعلمى التام بمدى نفوذ خصومى وسعة حيلتهم فى الخداع وتدبير الدسائس؛ وبذلك يقضون على كل عملياتى. بناء على ذلك، نصبت خيمة صغيرة للإقامة بها ووفرت لنفسى بعض الطعام حتى لا اضطر للعودة إلى القاهرة وانطلقت متوجهًا إلى الأهرام.

وحسب قولى، جاء رحيلى المفاجئ من القاهرة - كما هو مفترض - كحملة أو رحلة إلى جبل المقطم لبضعة أيام. ووجدت العرب راغبين فى العمل عند الأهرام، وشرعنا فى عمليات التنقيب على الفور.

شحت أموالى حيث لم يبق منها إلا نزر يسير مما منحنى إياه مستر بيركهارت والقنصل كهدية. ورغم تحسن حالتى المالية قليلاً بسبب التمثالين اللذين أعطيتهما مؤخرًا للكونت دى فوربان الذى دفع لى ثلث المبلغ تحت الحساب، لم يكن معى آنذاك أكثر من مائتى جنيه. ولو لم أتمكن من دخول الهرم قبل نفاذ هذا المبلغ، سأكون فى موقف حرج قبل استكمال عملياتى بل وربما مهدت الطريق أمام آخرين أكثر منى غنىً.

(٢٦) أورد بلزونى كلمة Levant ، وهى تعنى المنطقة التى تقع على الساحل الشرقى للبحر المتوسط. واشتق اسم هذه اللفظة من الإيطالية Levante بمعنى "يشرق" أو "شروق" أى شروق الشمس من الشرق. وتشمل الكلمة تاريخيًا كل المنطقة التى تقع على طول السواحل الشرقية للبحر المتوسط التى تمتد من اليونان إلى مصر، وأحيانًا يسمى من ولدوا فى هذه المنطقة من أصول فرنسية أو إيطالية باسم "الشرقيين" أو Levantines . واستخدم الاسم Levant States أيضًا للإشارة إلى الانتداب الفرنسى على كل من سوريا ولبنان عقب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨). أما الآن، فالمصطلح لا يزال مستخدمًا للإشارة إلى هاتين الدولتين من حين لآخر. [المترجم]

جذبت انتباهى بقعتان بصورة أساسية، الأولى كانت عند الناحية الشمالية من الأهرام والثانية تقع عند الناحية الغربية. عند الجانب الغربى جزء من رواق المعبد الذى بُنِىَ أمام الهرم، ولهذا المعبد ممر يهبط مباشرة إلى أبى الهول الكبير. رأيت ضرورة وصولى إلى أساس المعبد إذا وصلت إلى الأرضية الواقعة بين الرواق والهرم، وهذا ما توصلت إليه بالفعل. أصدرت الأوامر بالعمل إلى ثمانين من العرب، أربعين عند البقعة سالفة الذكر، وأربعين عند منتصف الناحية الشمالية حيث لاحظت أن الأرض هناك لم تكن بالصلابة كما هى عليها فى الناحيتين الشرقية والغربية. يحصل العرب على قرش واحد يوميًا، وهو ما يعادل ستة بنسات إنجليزية، كما كان هناك الكثير من الأولاد والبنات لحمل التراب بعيدًا عن الموقع، وحصل هؤلاء منى على عشرين بارة فقط أو ثلاثة بنسات يوميًا. ووجدت سبيلاً إلى اكتساب حسن نواياهم بمنحهم أشياء تافهة يعتبرونها هدايا وكذلك عن طريق شرح المزايا التى سيحصلون عليها لو تمكننا من دخول الهرم؛ فالكثير من الزوار سيأتون لرؤية المكان وسيحصلون على بقشيش منهم. لا شىء يؤثر على عقل العربى أكثر من إقناعه بما فيه مصلحته الخاصة وتعريفه بالطريقة الصحيحة لإفادة نفسه، أما عدا ذلك فلا يبدو مفهومًا بالنسبة له. ولابد أن أعترف أننى وجدت، فى الوقت نفسه، أن هذا النمط من السلوك له تأثيره وفاعليته فى أوروبا.

استمر العمل فى كلا الجهتين لعدة أيام دون أن يظهر أى شىء يذكر، وكان الركام المفترض إزالته عند الناحية الشمالية من الهرم متماسكًا للغاية لدرجة أن الرجال لقوا صعوبة بالغة فى استئناف العمل. جاء هذا الركام مما سقط من الطبقة التى كانت تغطى الهرم رغم أن ما يبدو أنها أزيلت فى فترة لاحقة على الهرم الأول. كانت الأداة الوحيدة التى عملوا بها شيئًا أشبه بالبلطة أو الفأس قصيرة اليد أو المعول، ولم تتحمل فؤوسهم تلك - نظرًا لعدم سمكها بما يكفى لقطع الأراضى الصلبة - الكثير من العمل بين الأحجار والملاط الذى نالت منه الرطوبة بعد سقوطه من الهرم على ما أظن بسبب الندى[٢٧]، ثم تشكل بالتدريج ككتلة واحدة مع الأحجار.

(٢٧) تسقط كميات غزيرة من الندى ليلاً فى فصلى الربيع والصيف. [المؤلف]

أما عند الناحية الشرقية من الهرم، عثرنا على الجزء الأسفل من المعبد الكبير متصلاً بالرواق ليصل إلى قاعدة الهرم بمسافة ٥٠ قدمًا، وتتكون جدران الهرم الخارجية من قوالب ضخمة من الحجارة كالتى نراها الآن، كما يبلغ ارتفاع بعض الأحجار فى الأروقة ٢٤ قدمًا. شُيِّد الجزء الداخلى من هذا المعبد من الأحجار الكلسية المتباينة فى أحجامها، إلا أن كثيراً منها مصقول الزوايا، ويبدو أن ذلك الجزء أقدم بكثير من الجدار الخارجى، ويتميز بمنظر أثرى مهيب كالهرم. اضطررت لتكسير كل الأحجار المتراكمة المتكونة من الأحجار الضخمة والملاط من طبقة الطلاء التى ارتفعت إلى أعلى من ٤٠ قدمًا من القاعدة حتى أعثر على قاعدة الهرم عند تلك الناحية، وكى أتأكد من وجود أى اتصال بينها وبين المعبد كما هو الحال بالنسبة للناحية الشمالية. وأخيراً وصلنا إلى القاعدة فوجدتها سطحًا مرصوفًا مقطوعًا من الصخور الصلبة. وأصدرت الأوامر بقطع كل ما كان أمامى فى خط مستقيم من قاعدة الهرم حتى المعبد، واقتفيت أثر السطح المرصوف حتى نهايته حتى ثبت لى وجود سطح مرصوف واسع من المعبد إلى الهرم، ولم أتردد فى إبداء الرأى بأن هذا السطح المرصوف نفسه يدور حول الهرم من كل الجهات. يبدو أن أبا الهول والمعبد والهرم أقيموا فى الوقت نفسه؛ فهذه المبانى الأثرية تقع فى خط واحد ولا اختلاف بينها من حيث القدم. تقدم العمل نحو القاعدة فى الناحية الشمالية، وأزيلت كمية كبيرة من الأحجار الضخمة، كما أزيل القسم الأعظم من واجهة الهرم، ورغم ذلك لم يظهر لنا أى بادرة على وجود أى مدخل أو أى علامة تدل أبسط دلالة على وجود مدخل من أى نوع.

كان العرب على ثقة كبيرة بما أثرته فى نفوسهم من آمال فى حصولهم على بقشيش كبير منى فى حال عثورنا على أى مدخل إلى الهرم بالإضافة إلى المزايا التى سيحصلون عليها من غيرى من الأجانب. وبعد الكثير من الآمال العريضة التى لا طائل من تحتها وبذل الكثير من الجهد الشاق فى إزالة كتل هائلة الحجم من الحجر وقطع الملاط المتصلب بدرجة تكسرت عندها فئوسهم، بدأت آمالهم المعقودة على العثور على أى شىء فى التلاشى، وكدت أتحول إلى مادة للسخرية لمحاولتى اقتحام مثل ذلك المكان الذى بدا لهم - كما بدا لمن هم أكثر منهم تمدنًا وتحضراً - كتلة مصمتة من الحجر الصلب.

إلا أنهم استمروا فى العمل لكن بشىء قليل من الحماسة طالما أننى أدفع لهم. لم يتخلَّ عنى الأمل قط رغم كل الصعوبات التى شهدتها وما بدا لى من عدم احتمال اكتشاف أى مدخل للهرم. لاحظت أثناء استمرارنا فى العمل أن الأحجار فى تلك البقعة لم تكن بنفس القدر من التماسك كالأحجار الموجودة على كلا الجانبين، وبناء على هذه الفرضية قررت الاستمرار حتى يثبت لى أننى كنت مخطئًا فى افتراضاتى. وأخيراً، وفى يوم ١٨ من فبراير أى بعد ستة عشر يومًا من العمل غير المثمر، وجد أحد العمال العرب شقًا صغيراً بين حجرين من أحجار الهرم. ابتهج العربى ابتهاجًا عظيمًا لذلك ظنًا منه أننا عثرنا على المدخل الذى طال انتظارنا واشتياقنا للعثور عليه، ورأيت أن الفتحة كانت صغيرة للغاية، إلا أننى أدخلت فرع نخلة طويل فيها إلى أعلى بنحو ياردتين. استعاد العرب نشاطهم وطاقتهم للعمل بدافع هذا الحدث وتجددت فيهم الآمال العريضة من جديد، وجاء ذلك لمصلحتى؛ فالعمل الآن يجرى على قدم وساق. كنت على علم بأن المدخل إلى الهرم لن يكون بين حجرين بهذه الطريقة، لكننى كنت على أمل بأن هذه الفتحة ستقودنى إلى دليل ما يمكننى من اكتشاف المدخل الحقيقى. أدركت بالمزيد من التنقيب حقيقة أن أحد الأحجار غير محكم الربط رغم أنه يبدو مثبتًا من الظاهر، وأمرت بإزالة ذلك الحجر فى اليوم نفسه، وعثرت على فتحة مؤدية إلى الداخل. لم يزد عرض هذا المدخل الصخرى على ثلاث أقدام، وكان ذلك المدخل مليئًا بالأحجار الصغيرة نسبيًا والرمال، لكن ثبت أنه أكثر اتساعًا بكثير بعد إزالتها. عملنا فى اليومين الثانى والثالث على إزالة كل الركام فى هذا المكان، لكننا كلما تقدمنا أكثر، عثرنا على كمية أكبر من الركام. وفى اليوم الرابع لاحظت أن الرمال والأحجار تتساقط من الجزء العلوى من هذا التجويف مما أثار دهشتى كثيراً. وأخيراً اكتشفت وجود ممر من خارج الهرم متصل بفتحة علوية لم يظن أحد قط أن لها أى اتصال بأى تجويف. وبعد إخراج كل الركام وتنظيف المكان، استأنفنا العمل فى الجزء السفلى الواقع تحت أقدامنا. بعد مرور يومين عثرنا على فتحة داخلية، عملنا على توسيعها بما يكفى وأخذت شمعة فى يدى ونظرت فى الداخل لأرى تجويفًا واسعًا لم أستطع أن أكون عنه أى انطباع. أصدرت الأوامر للعمال بتنظيف المكان وإزالة الرمال والأحجار منه؛ فوجدته مكانًا متوسط الاتساع ينحدر بمساره نحو المركز. ومن الواضح أنه ممر

إجبارى حفرته يدٌ لها نفوذ وسلطان بقصد العثور على طريق يؤدى إلى مركز الهرم. بعض الأحجار ذات الأحجام المهولة محفورة من منتصفها، وأزيل البعض الآخر من الأحجار من مكانها، وهناك أحجار أخرى على حافة السقوط من أماكنها القديمة نظرًا لعدم وجود ما يدعم ثباتها فى مكانها. ولابد أن الجهد الذى بُذل فى عمل مثل هذا التجويف جهد خارق، والواضح أن العمل استمر قدمًا نحو المركز، لكن الجزء العلوى سقط وملأ التجويف لدرجة يستحيل معها المضى قدمًا لأكثر من مائة قدم. نصف المسافة من المدخل عبارة عن تجويف آخر ينحدر ٤٠ قدمًا (انظر اللوحة رقم ١١) بصورة عشوائية، لكنه لا يزال متجهًا نحو المركز الذى كان ولاشك النقطة التى قصدها من قاموا بالتنقيب. كان من الخطورة بمكان إدخال عدد كبير من الرجال للعمل فى ذلك المكان نظرًا لوجود الكثير من الأحجار فوق رؤوسنا على وشك السقوط، ومنها ما لم يكن مثبتًا إلا من الزوايا المحشورة بين الأحجار الأخرى، وستسقط هذه الأحجار من أقل لمسة لتسحق أى شخص يتصادف وجوده تحتها. عينت عددًا قليلاً من الرجال للعمل، لكننى ما لبثت أن اقتنعت باستحالة المضى قدمًا فى عملية البحث هذه. ففى إحدى هذه الممرات السفلية نجا أحد الرجال بجلده من الموت حينما سقط أحد الأحجار الكبيرة الذى لا يقل طوله عن ست أقدام وعرضه عن أربع أقدام من أعلى أثناء قيام الرجل بالحفر فى الممر تحته، لكن من حسن الحظ أن الحجر اتكأ على حجرين آخرين يقعان على جانبى الرجل وأعلى منه أثناء قيامه بعمله. وحُبِسَ الرجل لدرجة أننا لقينا بعض الصعوبة فى إخراجه، لكنه - ولحسن الحظ - لم يصب بأى أذى سوى بعض الرضوض الخفيفة فى ظهره. أدى سقوط ذلك الحجر إلى خروج الكثير من الرجال الآخرين من ذلك الممر. وكان الرجال ثابتين فى مواقعهم، لذا رأيت أن من الحكمة الانسحاب إلى خارج الهرم، وإلا فإننا سنندم حيث لا ينفع الندم. لا يكمن الخطر فيما قد يسقط فوق رؤوسنا فحسب، بل مما قد يسقط فى طريقنا للخروج فيغلق الممر فندفن أحياء. ولم أعلق أملاً كبيرًا على ذلك الممر، فكنت أعرف منذ البداية أنه لا يمكن أن يكون المدخل الحقيقى للهرم رغم وجود أمل قوى لدى بأنه سيقودنى إلى دليل ما نحو اكتشاف المدخل الحقيقى، لكن وا أسفاه! لم يقدنى إلى أى شىء، وظللت لا أعرف المدخل الحقيقى كما كنت قبل بدء عملية البحث.

وبعد أن أمضيت أياماً طوالاً عند الأهرام دون أن يكتشف أمرى أحد فى القاهرة، لم يكن من المتوقع أن يظل أمر انسحابى من الهرم طى الكتمان لقيام الفرنسيين برحلات منتظمة فى أيام الآحاد أو بسبب وجود الرحالة الذين يقصدون هذا المكان - طبعًا - لرؤية أحد عجائب الدنيا بمجرد وصولهم إلى العاصمة. رأيت فى نفس اليوم الذى كنت سأغادر فيه المكان فى فترة ما بعد الظهيرة بعض الأشخاص على قمة الهرم الأول. ولم يكن عندى شك فى أنهم أوروبيون لأن العرب أو الترك لا يصعدون الهرم أبداً سوى لمصاحبة شخص ما للحصول على المال. ورأى هؤلاء عدداً من رجالى يعملون عند الهرم الثانى؛ فاستنتجوا أنه لا يقوم بهذه العمليات سوى أوروبى، وأطلقوا عياراً نارياً من بنادقهم كإشارة، فرددت عليهم بإطلاق عيار نارى آخر. ثم هبطوا الزاوية التى تؤدى إلينا وثبت أن هؤلاء الأوروبيين لم يكونوا سوى الأب مسيو دى فوربان **Monsieur L'Abbé de Forbin** الذى صحب ابن عمه الكونت الشهير إلى مصر لكنه لم يتوغل جنوبياً. وجاء معه - أى مع الأب مسيو دى فوربان - الأب الأعلى لدير "الأرض المقدسة" **Terrasanta** المهندس مستر كوستا **Mr. Costa** ومستر جاسبار **Mr. Gaspard** نائب القنصل الفرنسى وهو الذى قدمنى إلى الأب. دخل أولئك جميعًا إلى الممر المكتشف حديثًا، لكنه لم يمتع الأب أكثر من فنجان القهوة الذى شرفنى بتناوله معى فى خيمتى المتواضعة. وعرف كل الفرنسيين فى القاهرة بطبيعة الحال ما كنت أقوم به من عمل بعد هذه الزيارة، ولم يمر يوم واحد دون أن يأتينى بعض الزوار.

صممت على التقدم أكثر فى عمليات البحث، وجعلتنى خيبة الأمل والإحباط الذى أصبت به مؤخراً أكثر صلابةً وعناداً من ذى قبل. أعطيت العمال العرب يومًا للراحة خصصته لفحص الهرم ودراسته عن كثب. وغالبًا ما يحدث أن يستغرق المرء تمامًا فى البحث عما يراه من أمور لدرجة وقوعه فى مغبة تضييع نفسه ما لم يسرع بالعثور على وسيلة الانسحاب المُشرِّف أو التمكن من تحقيق هدفه المنشود. وكانت هذه حالى، حيث اعتبر نجاحى فى اكتشاف الممر غير الحقيقى فشلاً. لم أعبأ كثيراً بما قيل، لكن ما غاظنى تلك العلامات الخادعة التى قادتنى إلى الممر الإجبارى بالإضافة إلى ضياع الكثير من الوقت والجهد، لكننى لم أيأس. لاحظت عن قرب وضع مدخل الهرم الأول

ورأيت ببساطة أنه لم يكن فى مركز الهرم، كما لاحظت أن الممر يمتد فى خط مستقيم من خارج الهرم إلى الناحية الشرقية من حجرة الملك، ونظراً لوجود هذه الحجرة فى مركز الهرم تقريباً، فلابد أن يكون المدخل تبعاً لذلك أبعد ما يكون عن منتصف الواجهة تماماً كالمسافة من مركز الحجرة إلى الناحية الشرقية منها.

وبعد القيام بهذه الملاحظة الواضحة البسيطة، اكتشفت أنه إذا كانت هناك أية حجرة أساساً داخل الهرم الثانى، فإن المدخل أو الممر لن يكون عند البقعة التى نقبنا فيها - أى عند المنتصف - لكن المدخل إلى الهرم الثانى وبعد حساب الممر إلى الهرم الأول سيقع على بعد ٣٠ قدماً تقريباً إلى الشرق.

عدت إلى الهرم الثانى لأتفحص كومة الركام بعد أن أسعدنى هذا الفرض الحسابى. ولكم كانت دهشتى عندما رأيت العلامات نفسها التى سبق أن رأيتها عند البقعة الأخرى فى المركز على بعد قرابة ٣٠ قدماً من النقطة التى أقف عندها. سعدت لذلك أيما سعادة وعاد الأمل ليداعب عقلى المشغول بالهرم. لاحظت أيضاً فى هذه البقعة أن الأحجار والملاط لم يكن متصلباً للغاية كما هو الحال عند الناحية الشرقية، وأعطتنى تلك العلامات دفعةً قويةً للاستمرار فى محاولتى الأولى، لكن مما دعَّم آمالى تلك الملاحظة التى قمت بها على الواجهة الخارجية للممر الإجبارى. لاحظت انزياح الأحجار لعدة أقدام عن سطح الهرم وهذا ما تأكدت منه برسم خط من أعلى الطبقة المغطية للهرم حتى أسفل القاعدة، فاكتشفت أن التجويف الغائر مال للعمق نحو البقعة التى نويت بدء محاولتى الجديدة عندها. ولعل أى رحالة سيأتى لزيارة الأهرام فيما بعد سيشاهد بوضوح هذا التجويف الغائر فوق المدخل الحقيقى. جاء هذا الأثر نتيجة ملحوظتين مختلفتين؛ الأولى تلك الملحوظة الإرشادية القديمة التى عرفتها فى طيبة وأعنى بها المناطق التى لا تكون فيها الصخور بنفس الدرجة من الصلابة كالكتل المحيطة، والثانية التجويف الغائر فى الهرم فوق المكان الذى يُتَوَقَّع أن يوجد به المدخل حسب المسافة من مدخل الهرم الأول إلى مركزه.

وعلى الفور جمعت العرب للعمل فى اليوم التالى، وابتهجوا لاستئناف عملية التنقيب لا أملاً فى العثور على مدخل الهرم، بل لاستمرار ما سيحصلون عليه بالطبع

من أجور. لم يكن لديهم أى أمل فى العثور على أى مدخل، ذلك أننى كنت أسمعهم غالبًا يتفوهون بصوت مهموس بكلمة "مجنون" أو madman بالإنجليزية الدارجة. أوضحت للعرب البقعة التى عليهم أن يحفروا فيها وكان قياسى الذى قمت به صحيحًا فى حدود قدمين فى خط مستقيم بخصوص مدخل الممر الأول كما سنرى فى اللوحتين رقم (٩) و (١٠). ولعل لى الشرف بأن أرى هذا اليوم يوم الحظ، ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه مدخل مقبرة الملك بسمتك فى طيبة. شرع العرب فى العمل وظهر الركام فى صلابة ذلك الركام عند الكشف الأثرى الأول إلى جانب عثورنا على قوالب كبيرة من الأحجار فى طريقنا تنتمى إلى الهرم بجانب ما تساقط من غطاء الهرم، وتزيد أحجام الأحجار كلما مضينا قدمًا.

بعد بضعة أيام من زيارة الأب دى فوربان تملكتنى الدهشة لظهور رحالة أوروبى آخر وهو الفارس[٢٨] فريديانى Chevalier Frediani الذى أتى لزيارة الأهرام الكبرى بعد عودته من الشلال الثانى فى النيل. تعرفت إلى الرجل فى طيبة أثناء رحلته جنوبًا فى النيل وسعدت لرؤيته كثيرًا لأنه يمكن أن يكون شاهد عيان موضوعى لما قمت به من عمليات بحث وتنقيب، وثبت بالفعل حياد الرجل وموضوعيته. استحسن الرجل هذه العملية استحسانًا عظيمًا، ثم استعد بعدها للرحيل بعد قضاء يومين معى. وأظن أنه يتوقع أننى سأفتح الهرم تمامًا كالعرب الذين أطلقوا علىَّ اسم "المجنون". واتفق أن رأيت فى موقع التنقيب فى نفس اليوم الذى كان من المقرر فيه أن يشدَّ الرجل الرحال إلى القاهرة كتلة كبيرة من الجرانيت تميل إلى أسفل عند نفس الزاوية كالمدخل إلى الهرم الأول وتشير إلى المركز. عندئذٍ طلبت من الفارس البقاء حتى الصباح لعله ينال شرف أن يكون من أوائل من شاهدوا مدخل الهرم. ووافق الرجل، ولَكَمْ سعدت بأن رجلاً من وطنى سيشهد ما وقع فى هذا الحدث الهام. كان اكتشاف أول حجر جرانيتى فى يوم ٢٨ من فبراير، وفى يوم الأول من مارس أمطنا اللثام عن ثلاث كتل ضخمة من الجرانيت،

(٢٨) أورد بلزونى فى الأصل كلمة Chevalier ، وهى تختلف عن كلمة Knight التى تعنى فارس كلقب مثل لورد وإيرل ودوق وغيرها. أصل الكلمة من اللاتينية بمعنى "أحد أفراد الخيالة". [المترجم]

اثنتين على كل جانب والثالثة فى القمة كلها مائلة باتجاه المركز. نَمّت آمالى وتطلعاتى؛ فكل الظواهر تؤكد أن هذا ما أبحث عنه. ولم أكن مخطئًا لأننا وصلنا فى ظهر اليوم التالى – أى يوم الثانى من مارس – فى النهاية للمدخل الحقيقى للهرم. وسعد العرب الذين نمت تطلعاتهم أيضًا لظهور الأحجار الثلاثة بسبب عثورهم على شىء جديد يرونه للسياح مقابل ما يحصلون عليه من بقشيش. بعد إزالة واجهة الأحجار الثلاثة، ظهر أن المدخل عبارة عن ممر يصل ارتفاعه إلى أربع أقدام وعرضه ثلاث أقدام وست بوصات، وهو مكون من كتل هائلة الحجم من الجرانيت المائلة إلى أسفل نحو المركز بمسافة ١٠٤ أقدام وخمس بوصات عند زاوية قدرها ٢٦ درجة. كان كل هذا الممر تقريبًا مليئًا بالأحجار الضخمة التى سقطت من الجزء العلوى، وتدحرجت الأحجار نظرًا لميل المدخل نحو الأسفل حتى سدت بعض الأحجار الكبيرة الطريق.

كان لدىَّ ما يكفى من متاعب لسحب كل الأحجار خارج الممر الذى امتلأ حتى مدخل الحجرة. استغرق هذا العمل باقى اليوم وبعضًا من اليوم التالى لإزالة كل الأحجار منه، وأخيرًا وصلنا إلى باب من القضبان. ظهر هذا الباب لأول وهلة ككتلة ثابتة من الأحجار تسد علينا الطريق وكأن لسان حالها يقول **ne plus ultra** أى "ممنوع الدخول بعد ذلك" لتنتهى بذلك – كما ظننت – كل مشروعاتى، وذلك لأنها التحمت بالشقوق من كل جانب وبدت عند القمة فى ثبات الأحجار التى يتكون منها الممر نفسه. لكننى وبعد فحص المكان عن كَثَب اكتشفت أن الكتلة الحجرية من الناحية السفلية كانت أعلى بحوالى ثمان بوصات من الجزء السفلى من الشق أو الأخدود الذى قُطِعَ من أسفل لتلقيها. واكتشفت من هذا أن الكتلة الحجرية الكبيرة أمامى لم تكن سوى باب من الجرانيت يبلغ سمكه قدم واحدة وثلاث بوصات.

لاحظت وجود شق أو فتحة صغيرة فى الجزء العلوى من الباب؛ فأدخلت عودًا طويلاً من قش الشعير فيه. دخل هذا العود إلى أعلى لمسافة ثلاث أقدام مما أقنعنى بوجود فراغ معد خصيصًا لهذا الباب. كان رفع هذا الباب عملاً ذا أهمية لا يُستهان بها. لا يزيد ارتفاع الممر عن أربع أقدام وعرضه عن ثلاث أقدام وست بوصات. وكان الأمر من الصعوبة لدرجة أنه إذا وقف رجلان وجهًا لوجه لن يستطيعا تحريكه،

بل إن الأمر تطلب عدد كبيراً من الرجال لرفع حجر من الجرانيت لا يزيد ارتفاعه عن ست أقدام وعرضه عن خمس أقدام وسمكه عن قدم واحدة وثلاث بوصات. ولم يكن بالإمكان الاستعانة برافعات طويلة، فذلك لن يسمح بوجود مساحة كافية فى حدود أربع أقدام للتعامل معها، ولو كانت تلك الروافع قصيرة، لما تمكنت من تشغيل العدد الكافى من الرجال لرفع الباب المكون من القضبان. كانت الوسيلة الوحيدة التى عملنا بها هى رفع الحجر قليلاً فى نفس الوقت الذى نضع فيه بعض الأحجار فى الفتحات من كل ناحية لتثبيت الباب حالما نغير نقطة ارتكاز الروافع، ورفْعَ الحجر بما يكفى لمرور رجل من تحته. بعد ذلك دخل أحد العرب حاملاً شمعة فى يده وعاد قائلاً إن المكان بالداخل ضيق جداً. استمررنا فى رفع الباب حتى تمكننا فى النهاية من توسيع المدخل بما يكفى لحشر نفسى فيه. وبعد ثلاثين يومًا من العمل نلت شرف أن أجد نفسى فى الطريق إلى الحجرة الوسطى لأحد أكبر هرمين بمصر، تلك الأهرام التى لا طالما حظيت بإعجاب الناظرين. تبعنى الفارس فريديانى ودخلنا بعد المرور تحت الباب ممراً لا يزيد ارتفاعه أو عرضه عن الأول ويبلغ طوله ٢٢ قدمًا وسبع بوصات وتحتل الإشغالات بما فيها الباب ست أقدام و١١ بوصة. ويوجد عند انتهاء المنطقة الجرانيتية بنهاية هذا الممر ما يشبه البئر العمودى بطول ١٥ قدمًا، كما يوجد أحد الآثار داخل الصخر الصلب على جانبى الممر يمتد أحدهما من جهة اليمين عند الدخول بطول ٣٠ قدمًا إلى أعلى ليقترب من نهاية الجزء السفلى من الممر الإجبارى كما سنرى فى اللوحة رقم (٩) و (١٠). وجدنا أمامنا ممراً طويلاً يمتد أفقيًا نحو المركز ثم هبطنا فى البئر مستعينين بحبل. اكتشفت فى قاع هذا البئر ممراً آخر يمتد إلى أسفل بنفس الزاوية التى تبلغ ٢٦ درجة كسابقه، لكنه يمتد نحو الشمال. واصلت التقدم فى ذلك الطريق لأن هدفى الأول كان الوصول إلى مركز الهرم، وصعدت ممراً مائلاً أوصلنى إلى ممر آخر أفقى يؤدى إلى المركز. استرعى انتباهى بعد دخولنا من خلال الباب أن الممرات كلها مقطوعة فى الصخور الصلبة، ويبلغ ارتفاع الممر المؤدى إلى المركز خمس أقدام و ١١ بوصة فى حين يبلغ عرضه ثلاث أقدام وست بوصات.

أثناء تقدمنا داخل الهرم وجدنا أن جوانب هذا المر مغطاة بتشكيلات شجرية من ملح النطرون، بعضها يشبه الحبال البارزة وبعضها لا يختلف كثيرًا عن جلد الحمل الأبيض، أما البعض الآخر فهو طويل للغاية بما يشبه ورقة نبات الهِنْدباء[٢٩]، ووصلت إلى الباب عند منتصف إحدى الحجرات الكبيرة. (انظر لوحة رقم ١٢). خَطَوْتُ بقدمي ببطء خطوتين أو ثلاث ثم وقفت أتأمل المكان الذى كنت فيه فى سكون. مهما كان من أمر، فلا جرم أننى اعتبرت نفسى داخل مركز الهرم الذى كان منذ قديم الأزل مادة للغريب من افتراضات مئات من الرحالة القدماء والمحدثين على السواء. لم ينتج عن شعلتى المكونة من بضع شموع إلا ضوء خافت، لكننى ومع ذلك استطعت أن أميز الأشياء الرئيسية بوضوح. حولت ناظرىَّ بتلقائية صوب الطرف الغربى للحجرة بحثًا عن التابوت الذى توقعت أن أجده بشدة فى نفس الموقع كما هو الحال فى الهرم الآخر، لكن خاب أملى حينما لم أرَ شيئًا هناك. تتميز الحجرة بسقفها الملون إلى جانب الكثير من الأحجار التى أزالها من أماكنها كما هو واضح شخص ما بحثًا عن كنز. وأثناء تقدمى نحو الطرف الغربى، كانت المفاجأة السعيدة بعثورى على تابوت مدفون فى مستوى الأرض.

عندئذٍ دخل الفارس فريديانى أيضًا وأجرينا مسحًا شاملاً للحجرة التى وجدنا أن طولها ٤٦ قدمًا وثلاث بوصات، بينما يبلغ عرضها ١٦ قدمًا وثلاث بوصات، أما ارتفاعها فهو ٢٣ قدمًا وست بوصات. والحجرة مقطوعة من الصخر الصلب من الأرضية إلى السقف الذى يتكون من قوالب ضخمة من الحجر الكلسى التى تتلاقى فى المنتصف مُشَكِّلَةً سقفًا له نفس انحدار الهرم نفسه. ويبلغ طول التابوت ثمانى أقدام وعرضه ثلاث أقدام وست بوصات ويصل سمكه من الداخل إلى قدمين وثلاث بوصات، وهو محاطٌ بأحجار ضخمة من الجرانيت من الواضح أنها لحمايته من إزالته من مكانه وهو ما يستحيل

(٢٩) الهندباء أو endive اسم شائع لأحد النباتات يتميز برأس مجعدة تشبه نبات الخس، وتستخدم أوراقه الداخلية فى صنع السلطة. وهذا النبات من البقول الزراعية الحولية من الفصيلة المركبة compositae يطبخ ورقه أو يعمل سلطة. [المترجم]

عمله دون الكثير من الجهد والمشقة. كان الغطاء مكسوراً من أحد الجوانب، لذا كان التابوت مفتوحًا إلى حد ما، وهو مصنوع من أفضل أنواع الجرانيت، لكنه كغيره من التوابيت التى وجدناها فى الهرم الأول كان خاليًا من أى نقش هيروغليفى.

صوبت نظرى نحو الداخل؛ فوجدت كمًا هائلاً من التراب والأحجار، لكننى لم ألاحظ العظام بين الركام حتى اليوم التالى لأن انتباهى كان مُنْصَبًّا على البحث عن أى نقوش أو نصوص قد تلقى الضوء على موضوع هذا الهرم. فحصنا كل شبر من الجدران ولاحظنا وجود الكثير من الرسوم والشخبطات المنقوشة بالفحم الحجرى، لكن حروفها غير معروفة بل وغير مفهومة بالمرة. تحولت هذه النقوش إلى تراب من أقل لمسة، ووجدت نصًا مكتوبًا بالعربية على الحائط عند الناحية الغربية من الحجرة كما يلى :

ونقحهم المعلم أحمد النجار وذلك المعلم

عثمان حضر والملك علي محمد اولا ولعلاكب

حملتنى التفسيرات المتعددة لهذا النص على إيضاح بعض النقاط لعلها تؤدى بنا إلى تفسير مُرضٍ. وتكمن الصعوبة – كما يبدو الأمر لى – فى الحروف الأخيرة من النقش المكتوب التى نفترض غموضها. هذه هى الحقيقة، لكن علىَّ أن أقول إن تلك الحروف كانت تغشاها اللُّطَخ على الجدار لدرجةٍ حالت تقريبًا دون رؤيتها. وكان الناسخ قبطيًا جلبته معى من القاهرة خصيصًا لهذا الغرض، لكن ونظرًا لعدم ثقتى بأى أحد أنقل عنه وعدم رضاى عما أبداه لى من الدقة رغم قيامه بالنسخ أمام عينى؛ دعوت عددًا آخر من الناس ممن يعتبرون أفضل من يتقن اللغة العربية فى أنحاء القاهرة وطلبت منهم مقارنة ما نُسِخَ بالأصل الموجود على الحائط فوجدوه مطابقًا للأصل تمام التطابق عدا الكلمة الأخيرة التى بدت غامضة فعلاً، لكن لو وضعنا فى اعتبارنا مدى الشبه بين تلك الكلمة والكلمة الصحيحة، فإننا سنصل إلى المعنى الصحيح، وبالتالى يمكن نسخ النص كاملاً.

ترجمة النص المكتوب قام بها مستر سلامى Mr. Salame

"The Master Mohammed Ahmed, lapicide, has opened them; and the Master Othman attended this (opening); and the King Alij Mohammed at first (from the beginning) to the closing up"(٣٠)

ولابد لى أن أضيف أن وضع الهرم بعد إغلاقه مرة أخرى يتفق مع ما قلته عند عثورى عليه على هذه الحال.

كوّن ملح النطرون الكثير من الأشكال الشجرية الجميلة على أجزاء مختلفة من الجدار كتلك الموجودة فى الممر، لكنها أكبر منها حجمًا وأكثر صلابة حيث وصل طول بعضها ست بوصات، وهى تشبه فى شكلها ورقة هندباء كبيرة كما أشرت من قبل. وعثرت تحت أحد الأحجار الضخمة التى أزيلت من ذى قبل على شىء أشبه بالجزء السميك من أحد الفئوس قصيرة اليد، لكنها كانت شديدة الصدأ لدرجة أنها فقدت شكلها. أما عند الناحيتين الشمالية والجنوبية فهناك فتحتان تمتدان فى اتجاه أفقى كهاتيك الفتحتين اللتين نراهما فى الهرم الأول، وإن كانا أعلى.

خرجنا من هذه الحجرة لنصل إلى الممر الموجود بالأسفل، وامتلأ قاع البئر العمودى بعدد كبير للغاية من الأحجار لدرجة أنها سدت المدخل إليه أو كادت، وألفينا بعد إزالة تلك الأحجار الممر ممتدًا ناحية الشمال بنفس الميل كما هو الحال بالأعلى – أى بزاوية مقدارها ٢٦ درجة – كما ترى فى اللوحة رقم (١٠). يصل طول هذا الممر إلى ٤٨ قدمًا وست بوصات حيث يتصل بممر أفقى طوله ٥٥ قدمًا يمتد شمالاً، ويوجد فى المنتصف فوق هذا الممر على الجهة اليمنى فتحة طولها ١١ قدمًا وعمقها ست أقدام. وفى الجهة المقابلة – أى فى الجهة اليسرى – هناك ممر آخر يمتد لمسافة ٢٢ قدمًا

(٣٠) الأصل العربى الذى ترجمت منه الكلمات الأخيرة "to closing up" لم يكن هجاء صحيحًا فى الورقة التى رأيتها، وهذا خطأ أرجعه إلى الناسخ من الحجر. فالكلمة لابد أن تكون وللغلاق بدلاً من ولغلاكك باعتبار أن الثانية ليس لها أى وجود فى اللغة العربية. الكلمات بين العارضتين فى الترجمة غير موجودة فى الأصل. [المؤلف]

بانحدار قدره ٢٦ درجة جهة الغرب. وهبطنا هذا الممر قبل أن نستمر فى السير شمالاً، ودخلنا حجرة طولها ٣٢ قدماً وعرضها تسع أقدام وتسع بوصات، أما ارتفاعها فثمانى أقدام وست بوصات، وتضم هذه الحجرة الكثير من الحجارة الصغيرة التى لا يزيد طول بعضها عن قدمين، وللحجرة سقف مدبب كذلك السقف المذكور آنفًا، رغم أنه مقطوع من الصخر الصلب. من المفهوم - كما سبقت الإشارة - وبعد دخولنا من خلال الباب أن جميع الممرات والحجرة الكبيرة كلها حتى السقف مقطوعة فى الصخر الصلب من الحجر الكلسى. وهناك الكثير من النقوش المجهولة على جدران هذه الحجرة وسقفها كما هو الحال بالنسبة للحجرة العلوية، ربما كانت هذه النقوش مكتوبة باللغة القبطية. وبعد أن صعدنا ثانيةً إلى الممر الأفقى وجدنا عند نهايته كوات بمثابة الباب كما الحجرة السابقة، إلا أن الحجر الجرانيتى الذى وضع خصيصًا لهذا الغرض أزيل من مكانه، وهو موجود تحت الركام والحجارة على مقربة من المكان. سلكنا بعد دخولنا من الباب ممرًا يتجه صعودًا فى توازٍ مع الممر الموجود بالأعلى كما نرى فى لوحة رقم (١٠)، ويمتد هذا الممر إلى أعلى ٤٧ قدمًا وست بوصات، وهناك وجدنا حجرًا كبيرًا ملقًى عند الجهة العلوية، واكتشفت بعد إجراء حساباتى أن هذا الممر يمتد من الهرم كقاعدة له، وتمكنت من القسم العلوى لهذا الحجر المربع من رؤية أحجار أخرى بسدت الممر حتى المدخل، لذا فهذا الهرم له مدخلان. ثمة بعض أشكال البناء الحر عند منتصف الممر الأفقى المؤدى إلى الحجرة الكبيرة، لكنى أعتقد أنها ليست سوى تكوينات طبيعية لتجويف داخل الصخور.

بعد القيام بكل ملاحظاتى، خرجنا من الهرم يملؤنا إحساس كبير بالرضا والسرور وشعرت بقدر كبير من السعادة بنتيجة أعمال البحث، كما لم تزد التكلفة كلها عن ١٥٠ جنيهًا إسترلينيًا فى أكثر من شهر بقليل، رغم أننى قمت بعملية كان من الممكن أن تتكلف عدة آلاف.

انطلق الفارس فريديانى إلى القاهرة فى اليوم نفسه، وسرعان ما جاء الفرنسيون لزيارة الهرم من الداخل بعد سماعهم أخبار فتح الهرم. ونظرًا لاطمئنانى لعدم اقتحام النساء العربيات للهرم، تركت المدخل مفتوحًا "للجمهور العام" pro bono publico ،

وأقمت فى ذلك المكان حيث يوجد المهبط العمودى داخل الباب عتبةً من الحجر لإقامة الزوار تاركًا نصف الممر للدخول إلى الحجرة السفلية.

وفى اليوم التالى جاء شاب يدعى بيرى Pieri يعمل فى غرفة الحسابات بمصرف بريجز ووالماس Briggs & Walmas بالقاهرة لزيارة الهرم، وأخذ يبحث هنا وهناك بين القمامة داخل التابوت؛ فعثر على إحدى العظام التى نفترض أنها تنتمى إلى هيكل عظمى لإنسان. وعثرنا على كثير من العظام بعد مزيد من البحث وأرسلت هذه العظام إلى لندن ليثبت أنها تنتمى لأحد الثيران. إلا أن بعض الأشخاص ذوى الحيثية ممن لا يتورعون عن التضحية بأحد المباحث فى التاريخ بدلاً من التضحية "بالكلام الحلو" bon mot ، ظن هؤلاء بأنفسهم الذكاء الشديد لدرجة تفنيد ما قيل عن العظام المذكورة بقولهم إنها عظام بقرة لا لشىء سوى إطلاق النكات مما يبرهن على ذوقهم تجاه الآثار. ومما قيل أيضًا إن تلك التوابيت الضخمة صممت لتضم عظام الثيران مثل ذلك التابوت مهول الحجم الذى عثرنا عليه فى مقابر ملوك طيبة فهو أكثر ملائمةً لجثة ثور منه لجثة إنسان. إلا إننى لا أستطيع الموافقة على هذا الرأى، فالشخص صاحب الملاحظة لو تسنت له فرصة رؤية وتفحص التوابيت التى كان يُدفن فيها قدماء المصريين لاكتشف أن الطبقات الأعلى من الناس كانوا يضعون المتوفى فى تابوت داخل تابوت، وبعض هذه التوابيت تصل فى حجمها إلى قرابة ضعف الحجم المناسب لشخص واحد؛ لذا من الطبيعى أن نفترض أن ملوك مصر كانوا يدفنون فى أكثر من تابوت أو تابوتين، وتبعًا لذلك لابد أن يكون التابوت الخارجى أكبر بكثير من باقى التوابيت كى يستوعبها جميعًا.

لاحظت أن الصخور المحيطة بالهرم من الخارج عند الناحيتين الشمالية والغربية تقع على نفس مستوى القسم العلوى من الحجرة، وبدا لى أن الأحجار المأخوذة من الصخور استخدمت فى إقامة الهرم لأنها – كما هو واضح – مقطوعة من كل الجوانب. لذا فأنا مع الرأى الذى يقول إن الأحجار التى تتكون منها هذه المبانى الأثرية الهائلة لم تؤخذ من الضفة الشرقية من النيل كما افترض قدماء الكتّاب وأشاروا فى كتاباتهم. فأنا لا أستطيع أن أتصور سبب الظن بأن قدماء المصريين كانوا من السذاجة

بما يجعلهم يجلبون الأحجار من على بعد سبعة أو ثمانية أميال ليعبروا بعدها نهر النيل فى الوقت الذى يمكنهم فيه الحصول عليها من أماكن أقرب بكثير، بل ومن البقعة نفسها التى بنيت عليها الأهرامات. من الواضح أن أحجاراً هائلة الحجم قُطِعَت من نفس الصخور المحيطة بالأهرام، فما الغرض من قطعها؟ يمكننا القول إنها قطعت لبناء مدينة بابل(٣١) Babylon المصرية القديمة أو لسد الفجوات فى محاجر المقطم. ولو تجول أى رحالة حول الهرم فى إطار أقل من نصف ميل لا سيما عند الناحيتين الشرقية والجنوبية، فسوف يرى الكثير من الأماكن التى شهدت صخورها من قبل أعمال تحجير على نطاق واسع، وسيجد أيضًا أن هناك ما يكفى من الأحجار لبناء الكثير من الأهرام الأخرى إذا لزم الأمر. صحيحٌ أن الأحجار التى استخدمت لبناء الأهرام جلبت - كما قال هيرودوت - من محاجر تقع عند الضفة الأخرى من النيل، إلا أن لدىَّ اعتقاداً راسخًا بأنه جانَبَ الصواب فى هذا الموضوع، ما لم يكن ما أكده يصدق على الجرانيت وحده. أما بالنسبة للطرق المعبَّدة الواقعة أمام الأهرام والتى يقال إنها صممت لنقل الأحجار لبناء تلك المبانى المهولة الحجم، فاعتقادى أنها صممت خصيصاً لإقامة الزوار لاسيما فى وقت فيضان النيل؛ لأنها لو كانت مخصصة لنقل الأحجار وحسب، لكان الجهد المبذول لإقامتها مساويًا تقريبًا للجهد المبذول فى بناء الأهرامات.

ما قيل عن الأهرام شيء كثير، ولم يَبْقَ ما يمكن إضافته عما قيل إلا القليل. لاشك أن شكلها الأثرى العظيم يدفعنا إلى افتراض أنها شيدت فى فترة سابقة على أية آثارٍ معمارية أخرى فى مصر. ولعلنا نستثنى من هذا هوميروس الذى لم يخص الأهرام بذكر، لكن هذا ليس دليلاً أنها لم تكن موجودة فى عصره، بل على العكس إذ يمكننا الافتراض أن الأهرام كانت معروفة بوجه عام بما جعله يظن بعدم جدوى الحديث عنها.

(٣١) أشار بلزونى إلى مدينة بابل القديمة فى بلاد الرافدين، وعاصمة للمملكة البابلية وللإمبراطوريتين بابليتين. كانت تقع على ضفتى نهر الفرات بالقرب من مدينة الحلَّة الحالية فى العراق. وقد ساعدها هذا الموقع لأن تصبح مركزًا تجاريًا مهمًا، كما كانت المدينة مركزًا دينيًا لبلاد بابل، وكلمة "بابل" فى اللغة الأكادية تعنى "باب الإله". [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

وكما يبدو أن القليل مما كان معروفًا عن الهرم الثانى منذ عصر هيرودوت ظل كما هو حتى فتح الهرم الأخير مع استثناء واحد وهو أن الهرم الثانى فى عصره كان تقريبًا فى الحالة التى تركها عليه عمّال البناء بعد إغلاقه، هؤلاء العمال الذين لابد أنهم غطوا المدخل بطبقة الغطاء حتى لا يعرف مكانه أحد. لكن فى الوقت الذى أسعدنى فيه الحظ بالتوصل إلى المدخل الذى اختفى وراء أكوام ركام طبقة الطلاء التى أخفته تمامًا فى عصر هيرودوت، رغم هذا ظللنا فى الظلام فى عصرنا الحالى كما كان هو فى عصره. إلا أننا عرفنا الآن أن الهرم فتحه من قبل بعض حكام مصر وولاتها؛ وهذه حقيقة تثير فى نفس الباحث فى موضوع تلك الآثار الكثير من السرور. أظهر بعض الأشخاص الذين يفضلون أن يتركوا هذه المسألة على غموضها أسفهم لعدم عثورى على كتابات على الحائط مما يثبت فتح الهرم فى عصر متأخر للغاية، أى منذ أكثر من ألف عام بقليل. إننى أطلب إليهم أن يضعوا فى اعتبارهم أن هذا الافتتاح لم يكشف النقاب عن هذه الحادثة الشائقة فحسب، بل سلط الكثير من الضوء على كيفية بناء هذه المبانى المهولة الحجم بالإضافة إلى بيان سبب بنائها.

إن وجود الحجرات والتابوت (الذى يضم ولاشك رفات إحدى الشخصيات الهامة) التى تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة فى الهرم الآخر لا يترك مجالاً للشك أن الأهرام بنيت أساسًا كأضرحة، وأنا أتعجب حقيقةً من أى شك يتسرب إلى النفوس بخصوص ما يمكن أن نعلمه من الهرم الأول الذى فُتِحَ منذ فترة طويلة من الزمن. ويضم هذا الهرم حجرة واسعة المساحة بها أحد التوابيت، أما الممرات فهى ذات أبعاد لا تتسع لشىء أكبر من التابوت، وهى مغلقة بكتل ضخمة من الجرانيت بما لا يترك مجالاً لمنفذ من الداخل، وذلك لصيانة هذا الرفات المقدس من الضياع. ويتفق القدماء فى قولهم إن تلك المبانى الأثرية إنما شيدت لتضم رفات الشقيقين ملكى مصر خوفو وخفرع. ويُحيط بالهرمين أهرام أخرى أصغر حجمًا تجاورها وتختلط بها أضرحة فى الأراضى المخصصة للمقابر. وقد عُثِرَ على الكثير من مواقع المومياوات هناك بصفة مستمرة، لكن وعلى الرغم من كل هذه الأدلة والبراهين، نجد أن البعض يؤكد أنها - أى الأهرام - شيدت لأسباب كثيرة غير السبب الحقيقى، وهى أسباب تتسم بالسخف ومجافاة المنطق كالقول بأن الأهرام بنيت لتكون بمثابة مخازن للغلال.

يظن البعض أن الأهرام بنيت لأغراض فلكية، لكن لا يوجد أى شىء فى شكلها المعمارى يؤيد هذه الفرضية. بينما يدعى آخرون أنها كانت مخصصة للكهنة المصريين القدماء لأداء احتفالاتهم المقدسة بها. ومن المعروف أن أى شىء يقال رغبة فى التناقض مع الآخرين أو الإتيان بالجديد يجد مؤيدين ومشايعين. فإذا افترض القدماء أن الأهرام بنيت كمخازن للأموال، ستجد أن المحدثين سيتفقون – ولعل فى هذا موافقة أكثر للحقيقة – على أنها صممت لتكون أضرحة، ولن يخفقوا فى رؤية تلك الأدلة التى تثبت وبكل وضوح الحقائق التى لم يلاحظها أحد كما ينبغى. واتفق مع الآخرين إلى الآن أن قدماء المصريين لم يخفقوا أثناء بنائهم لهذه الأبنية الهائلة الحجم فى وضع جوانب الهرم جهة الشمال والجنوب؛ وبالتالى ونظراً لأنها مربعة الشكل توجهيها جهة الشرق والغرب. كما أن ميل الجوانب أيضاً كان لوصول الضوء إلى الجانب الشمالى وقت انقلاب الشمس. إلا أن كل هذا لا يثبت بأى حال من الأحوال أنها بنيت لأغراض فلكية، رغم أن من الملاحظ أن قدماء المصريين ربطوا الفلك باحتفالاتهم الدينية، ذلك أننا عثرنا على العديد من دوائر الأبراج ليس بين المعابد فحسب، وبل وفى مقابرهم أيضاً.

وبعد القياسات التى أخذتها للهرم الثانى وجدت أنها كما يلى :

قدم

٦٨٤ القاعدة ....

٥٦٨ الخط المركزى المتجه نحو الواجهة من القمة إلى القاعدة

....

٤٥٦ قائم الانحدار ....

طبقة الغطاء من القمة إلى المكان حيث تنتهى ....

إن عدم العثور على أية نقوش هيروغليفية داخل أو خارج الأهرام يجعلنا نستنتج أنها بُنيت قبل اختراع هذا النمط من الكتابة؛ ومن الغريب بمكان أننا لم نعثر على نقش هيروغليفى واحد فى تلك المبانى الأثرية الضخمة بأكملها. إلا أننى لابد أن أشير فى هذا المقام إلى أمرٍ قد يؤدى بنا إلى الافتراض بأن وضع النقوش الهيروغليفية

على المبانى المعمارية الأثرية لم يكن من بين عادات المصريين القدماء فى هذه الناحية من البلاد، أولئك الذين ربما كانوا يدينون بدين آخر غير دين بنى جلدتهم؛ وذلك لوجود الكثير من الأضرحة حول الأهرام - ومن بينها أضرحة واسعة للغاية - دون أن يكون بها نقش هيروغليفى واحد داخلها أو خارجها، ولاحظت أن تلك الأضرحة التى تضم حجرات بها نقوش هيروغليفية تنتمى ولاشك لفترة زمنية لاحقة على الأضرحة الأخرى. وكل هذا يبرهن على أن النقوش الهيروغليفية لم تكن معروفة حتى فترة زمنية معينة تلت بناء الأهرام. لكن ماذا يمكن أن نقول عندما أؤكد للقارئ أننى رأيت فى أحد تلك الأضرحة المتهدمة التى سقطت أعمدتها ولم يبق منه سوى أنقاض، والتى تقع عند الناحية الغربية من الهرم الأول، وجعلت غيرى يلاحظ بعض النقوش الهيروغليفية والرسوم بالوضع العكسى على أحد القوالب الحجرية التى شُيِّد بها ذلك الضريح، وكانت تلك النقوش محفوظة داخلها كما لو كانوا يريدون أن يبعدوها عن أعين الناس؟ ولابد أن نستنتج من هذا أن هذا الحجر كان مستخدمًا فى أحد الأبنية التى كانت مزينة بالنقوش الهيروغليفية؛ وبالتالى هذا يثبت أنها كانت معروفة قبل بناء تلك الأضرحة رغم أن الأضرحة نفسها تخلو من أيٍ من تلك الزخارف أو النقوش. وعلى هذا يمكننا أن نفترض أن بناة الأهرام كانوا على نفس المستوى من التفكير كأولئك الذين بنوا الأضرحة؛ وبناء على ذلك لا يمكننا أن نستنتج أى شىء بخصوص تاريخ بناء الأهرام من حقيقة عدم وجود نقوش هيروغليفية بها.

وهناك فرضية تقول بأن الهرم الأول، أو هرم خوفو، لم يكن مغطىً بطبقة من الطلاء. وليس أمامى سوى الموافقة على هذا الرأى، فليس هناك أقل علامة تدل على ما تبقى من أى طبقة طلاء. أما بالنسبة لطبقة الطلاء الخاصة بالهرم الثانى، فكانت لدىَّ فرصة تقصى هذا الموضوع أثناء عملية الحفر والتنقيب التى قمت بها على الجانب الشرقى منه حيث وجدت أن القسم السفلى من الهرم لا يقل خشونة عن أى جزء من القسم العلوى أسفل ما تبقى من طبقة الطلاء مما يؤكد ما أورده هيرودوت فى هذا الصدد عندما قال إن طبقة الطلاء بدأت من أعلى، واعتقادى الشخصى أن العمل لم يكتمل حتى القاعدة، لأنه لو كان الأمر كذلك، لكنت عثرت على بعض من الطلاء

بالأسفل لتراكم البقايا فوق القاعدة مما يجعل الأحجار تظل فى أماكنها، أو على الأقل بعض منها بما يكفى لأن يوضح وجود طبقة طلاء كما هو الحال مع الهرم الثالث الذى سوف أتناوله بالحديث الآن.

ومن الافتراضات أن فيضان النيل كان يحيط بالأهرام، وبذلك بقيت كالجزر. ولا أستطيع أن أقول غير هذا، فوضع الهرم هنا أشبه بجزيرة من الحجارة لا يفصلها عن الجزر التى تقع عند الجهة الغربية سوى وادٍ من الرمال الذى ربما تكوَّن من تراكم الرمال التى حملتها الرياح بصورة طبيعية على مدى عدد كبير من القرون. وأظن أننا لا نملك دليلاً أقوى من أبى الهول نفسه، فقاعدته أكثر انخفاضًا بكثير من مستوى سطح الأرض الحالى، لدرجة أن كل الرمال المحيطة بالأهرام لو كانت تقع على نفس مستواه؛ فلن أشك فى أن النيل لابد وأنه كان يجرى حولها، والأرجح أن هذا كان الحال فى العصور المتقدمة.

بعد أن انتهيت بهذا من عملياتى فى الهرم الثانى، شعرت بميل قوى لأن أتناول الهرم الثالث فى عجالة. لاحظت أن شخصًا ما حاول أن يدخل هذا الهرم من خلال عمليات التنقيب عند الناحية الشرقية. وبدأت أعمالى عند الناحية الشمالية، ووجدت بعد إزالة كميات كبيرة من الركام أكوامًا هائلة من أحجار الجرانيت الضخمة التى شكلت كما هو واضح طبقة الطلاء. ولما تقدمنا أكثر نحو الأسفل حيث طهَّرت المنطقة من الركام الذى وجدته، ظل ذلك الجزء من الطلاء فى مكانه حتى أسفل القاعدة. ومن الجلى أن إزالة تلك الحجارة كان سيؤدى بى إلى مدخل الهرم، لكنَّ هذا يتطلب من المال والوقت أكثر مما أستطيع أن أوفره.

فى أثناء ذلك كتب لى القنصل الذى كان آنذاك فى طيبة بعد أن سمع بافتتاح الهرم قائلاً بأنه متجهٌ شمالاً فى النيل، وفى الوقت نفسه وصل اللورد بلمور **Lord Belmore** والعائلة إلى القاهرة. ومن المثير للدهشة ومن دواعى سرورى أيضًا أن أذكر أن سعادة اللورد وصل إلى طيبة بعد شهر واحد من اكتشافى للمقبرة الشهيرة الخاصة بالملك بسمتك، وكان أول سائح بريطانى يدخلها. ووصل إلى القاهرة فى رحلة عودته من النوبة،

بعد أكثر من شهر من افتتاحى للهرم الثانى، وكان أول سائح بريطانى يدخله أيضًا. مكث سعادة اللورد والعائلة بعض الوقت فى طيبة، وجمع مجموعة كبيرة من الآثار أرى أنها أكبر مجموعة أثرية جمعها سائح على الإطلاق. أما د. ريتشاربسون Dr. Richardson فقد انتهز الفرصة ليدون ملاحظاته عن طيبة القديمة فى أوقات الفراغ، وأعتقد من خلال ملاحظاته الدقيقة أنه لابد درس الكثيــر من النقــاط والموضــوعات الشائقة التى لم يوضحها أحد حتى الآن، ولاشك لدىَّ أن هذا الكتاب سيكون غاية فى الإثارة والتشويق.

انطلق الإيرل والعائلة إلى أورشليم عن طريق الصحـراء، واستعددت أنا للرحيل إلى طيبة، مقامى القديم، تلك البلدة التى أعرفها أفضل من أى مكان آخر فى مصر. وبعد أيام معدودات، وصل القنصل والكولونيل فيتسكلارينس بعده بنصف ساعة ومعه رسائل من الهند إلى إنجلترا. وكان القنصل مستر سولت من اللطف والدماثة لأن يدفع كل النفقات التى تكبدتها فى فتح الهرم، لكننى رفضت هذا رفضًا قاطعًا لأننى رأيت أنه ليس من العدل والصواب أن يدفع هو مقابل أمر ليس له فيه ناقة ولا جمل.

وكان لى شرف مصاحبة الكولونيل فى زيارة إلى الهرم، كما وصفها بنفسه فى روايته لرحلته من الهند إلى إنجلترا عبر مصر. وكابد الرجل الكثير الصعاب فى رحلته، لكن لم يبد عليه أقل أثر من إجهاد. ولم تسمح لى إقامته القصيرة فى القاهرة بأن أكتب بيانًا مفصلاً عن أعمالى، لكننى أعددت ليلاً تقريراً مجملاً قدر استطاعتى ووجهته إلى جمعية الآثار بلندن، وكان طيبًا منه أن أخذه إلى إنجلترا من أجلى. وانتهز القنصل مستر سولت الفرصة نفسها لإرسال تقرير رسمى عن أعمــالى فى مصـــر والنوبة إلى وزراء إنجلترا، وظنى أنه فعل ذلك لأنه لم يجد الفرصة لإرسال أى تقرير صحيح قبل هذا.

كان هدفى الثانى والأساسى أن أصمم مجموعة صغيرة عن رحلاتى، وأن احتفظ برسومات من مقـبرة بسمتـك مع قوالب من الشمـــع لكل التمـــاثيل والرمـــوز والنقوش الهيروغليفية، كلها بالنقش البارز وتوضح الألوان تمامًا كما هى فى الأصل،

وذلك حتى أتمكن من إقامة صورة طبق الأصل منها فى أى مكان فى أوروبا. ويستحق هذا المشروع منى التفكير الجدى، ليس فى حساب الوقت الذى سيستغرقه استكمال العمل فحسب، بل والنفقات التى سوف أدفعها. لكن ورغم وجودى فى القاهرة وحدى، فإننى لم أكن فى حاجة للبحث عن وسيلة لإيجاد موارد لما كنت أعتزم تنفيذه، وما هى إلا بضعة أيام وكان كل شىء جاهزًا لانطلاقى فى رحلتى النهرية الثالثة جنوبًا على النيل، وعندما رتبت شئونى مع القنصل، انطلقت فى رحلتى إلى مقامى القديم بين مقابر طيبة.

نهاية الرحلة الأولى

الرحلة الثانية

انتهيت من سرد أحداث رحلتى الأولى نحو الجنوب صاعداً فى النيل، لذا سأمضى فى سرد أحداث رحلتى الثانية. شددنا الرحال من بولاق يوم ٢٠ من فبراير عام ١٨١٧ . وقام مستر بيتشى بتغطية الجزء الخلفى من المركب بالحُصْرِ تغطية محكمة، وبطَّنه جيداً من كل الجوانب، مع وضع ستارة على الباب الذى يأتينا بالضوء، وهو الباب الذى عادة ما يكون مغلقاً لمنع الأتربة أو الرياح من الدخول من أى اتجاه، هذا إلى جانب غطاء آخر للتأمين الكامل، ليس من الرياح والأتربة فحسب، بل من الأمطار فى حالة سقوطها. كان معنا على ظهر المركب أحد الخدم اليونانيين وأحد الإنكشارية من طرف الباشا وطباخ. لم يرَ أى أحد ممن رافقنا ضرورة الاقتصاد فى بند الطعام، بل لم يروا غضاضة فى الإسراف فى الطعام فى الدير بالنوبة كما لو كانوا فى القاهرة. وكانت النتيجة أن الطعام الذى كان سيكفينا ستة أشهر بدأ يتناقص بشدة فى نهاية الشهر الأول، واضطررنا لذلك - رغم كل الاحتياطات التى اتخذناها - أن نعيش مما توفره الدولة. والحقيقة أنه لم يكن هناك ما نشكو منه عندما كنَّا فى طيبة، فهناك مصادر لا بأس بها من الطعام من لحوم ودواجن وحمام بالإضافة إلى بعض الخضراوات التى تتوافر بعد الفيضان كالبامية والملوخية والبقول. ولاحظت أن الطاعون يظل لمدة أطول إذا لم تكن درجة الحرارة فى الصيف مرتفعة كالمعتاد، لكن ومن ناحية أخرى إذا استمر فصل الشتاء لمدة أطول، فإن الطاعون سيأتى متأخراً .

إن ضرورة أن نضع أنفسنا فى سجن اختيارى، والاحتياطات والمحاذير التى اضطررنا لاتخاذها مثل عدم لمس أى شخص أو التعرض للمس من أى إنسان، والأوامر الصارمة الواجب مراعاتها عند تلقى أى شىء من الخارج، والتعطر الدائم بالعطور لمنع الطاعون كما يقولون، كل هذا كان من الأمور الغريبة حقًا لرحالة مبتدئ

بالنسبة لعادات وتقاليد تلك البلاد. اضطررنا للبقاء فى مقصورتنا لمدة ثلاثة أو أربعة أيام دون أن يقترب منا أحد. وأصبنا بالمرض فعلاً، لكننى اتخذت الاحتياطات اللازمة حتى لا ينتشر الخبر، فالطاعون من الكوارث المخيفة التى تؤثر بشدة على مشاعر الناس واتجاهات تفكيرهم، فإذا انتشر الطاعون، وحدث أن أصيب أى إنسان بمرض، فلابد حينئذٍ أن يُقال إنه مصاب بالطاعون، فلو مات، فلابد أن الطاعون هو سبب الوفاة، بمعنى أنه لا تُجْرى أى فحوصات، ولا استقصاء للأسباب. وعلى هذا الأساس، لو علم أهل الأوكسال بإصابتنا بالمرض ولاسيما بعد أن تقيأنا، لاستنتجوا – رغم أن ذلك لم يكن سوى أثر من آثار الطقس الجديد – أن الوباء انتقل إلينا أثناء مرورنا خلال البلدة؛ وبالتالى سيدب الرعب فى قلب أهالى الأوكسال ظنًا منهم أن العدو (الطاعون) على الأبواب.

والأوكسال زمامٌ من الأرض يضم مجموعة من البيوت المنظمة على شكل مربع، ولا يوجد أى مدخل لمنطقة المربع هذه سوى البوابة الكبيرة التى تؤدى إلى سلم عمومى فوقه بهو معمد يأخذك إلى كل بيت. ويتحتم على أهالى تلك المناطق فى أثناء الطاعون أن يتواصلوا مع بعضهم البعض دون أن يلمس بعضهم الآخر، ولا يُسْمح لأى طعام بالدخول دون أن يمرر عليه الماء، كما يحذر من لمس الخبز وهو ساخن. ينتقل هذا المرض بسهولة بالغة لدرجة أن خيطًا تذروه الرياح كفيلٌ بأن ينقل المرض إلى البلد بأكملها. ولو عُرِفَ أننا أصبنا بالمرض لما اقترب منا أحد فيما عدا العرب الذين يذهبون فى حال إصابتهم بالمرض إلى أى أحد كيفما اتفق؛ وبالتالى يصبح احتمال نشرهم للوباء قائمًا إذ ينتقل المرض إلى مَن لم يصابوا به. ويموت الكثير ضحايا الإهمال، فالأمر ببساطة أن كل مرض يُفَسَّر على أنه الطاعون، وهناك آخرون ضحايا من نوع آخر، إنهم ضحايا أغراض ومصالح أقاربهم الآثمة الذين لا يتورعون عن الاستعانة بما يشاءون من وسائل ولو بالسم فهم مستفيدون من موتهم فلا أحد يتقصى الحقيقة فى أى حالة من حالات الوفاة. "مات بالطاعون" إذن هى الصيحة العامة مهما كان المرض، ونظرًا لوفاة عدة مئات يوميًا، فإنهم ينقلون بعيداً دون تمييز.

وبعد يوم الرابع والعشرين من يونيو، وهو يوم القديس يوحنا[1] St. John العظيم، توقف الطاعون تقريبًا. كان هدفي الأساسي الوصول إلى القاهرة؛ فأجرنا مركبًا بصحبة مستر تيرنر Mr. Turner ، وهو رجل إنجليزي كان ذاهبًا إلى جنوب النيل. أبحرنا يوم الأول من يوليو، لكن ونظرًا للرياح العكسية عدنا ثانية في نفس الليلة. واستأنفنا الإبحار في اليوم التالي، واضطررنا عندئذٍ للرسو في أبي قير بسبب شدة الرياح. قمنا بزيارة للمكان الذي سقط فيه عدد كبير من الرجال البواسل ضحية للحرب وللدفاع عن مجد بلادهم، وكانت العظام الآدمية متناثرة هنا وهناك.

استكملنا رحلتنا البحرية في نفس اليوم، ودخلنا مصب النيل ورسونا عند رشيد، واستغرقت منا الرحلة أربعة أيام حتى وصلنا إلى بولاق التي تقع على بعد ميل واحد من القاهرة. ورغم أن أعيننا بدأت تعتاد منظر العرب في الإسكندرية، فإن المنظر الذي يعج بالحركة هنا ما زال أكثر إثارةً للدهشة. فالجنود الأتراك بهيئتهم المهيبة وملابسهم المتنوعة التي لا تعرف التناسق أو النظام، ومنظر العرب من شتى القبائل بمراكبهم وعرباتهم وإبلهم وخيلهم وحميرهم في حركة دائبة، كل هذا ساعد على رسم صورة رائعة مثيرة للنفس. أرسينا المركب، وذهبت على الفور إلى القاهرة، وأقمنا في منزل قديم في بولاق يملكه السيد باغوص Mr. Baghos الذي ذهبت إليه بناء على توصية، لأن آباء دير الأرض المقدسة Terrasanta المقدسين لم يكونوا ليستقبلوا النساء داخل أسوار الدير. كان هذا الرجل كبير مترجمي محمد علي، ومدير الشئون الخارجية بأكملها، وهو رجل على درجة عالية من دقة الفهم، ويتمتع بميل كبير تجاه الأجانب

(١) يوم القديس يوحنا St. John's Day : كان الاحتفال قديمًا بهذا اليوم خاصًا بالماء والنار والنباتات. كما كان الاحتفال تعبيرًا عن الوقت الذي يطهر فيه الإنسان روحه وكذلك الاحتفال بالانقلاب الصيفي. ويحتفل الناس بهذا اليوم بالتجمع في الأماكن الجميلة كقمم التلال أو بجوار الأنهار للاحتفال بذكرى يوحنا. ويتم أثناء الاحتفال إشعال النار في العراء، ويعتقد أنه كلما اتسعت المنطقة التي أشعلت فيها النار، جاء المحصول أفضل. ويجمع الشباب الحشائش للتنبؤ بالمستقبل، وترتدي الفتيات الأكاليل ثم يضعنها على صفحة مياه الأنهار أو البحيرات حتى يعلمن منها إذا كن سيتزوجن في العام المقبل أم لا. ويظل الرجال والنساء يغنون ويرقصون ويقفزون فوق آثار النار حتى طلوع الفجر [المترجم نقلاً عن موسوعة "إنكارتا" الإلكترونية].

ولاسيما الأوروبيين منهم، ولم نلبث حتى دبر لى فى أحد الأيام تقديمى إلى سمو الباشا لأقدم إليه عرضى. كان المنزل الذى أقمنا به قديمًا جدًا لا ينفع معه إصلاح لدرجة توقعت فيها سقوطه فوق رؤوسنا فى كل لحظة، وتغلق كل النوافذ فيه بأطر خشبية مكسورة، وكان السلم فى حالة يرثى لها؛ فما من درجة به إلا بها كسر، ويحكم إغلاق الباب ببساطة بوضع عصا بالعرض، ولا يوجد أى قفل أو أى شىء آخر لتأمين المدخل. ويحتوى المنزل على الكثير من الغرف، إلا أن السقف فى كل الغرف كان فى حالة لا تبشر بخير. ويتكون الأثاث كله من حصيرة واحدة فى إحدى الغرف الأفضل حالاً التى اعتبرناها غرفة معيشة لنا. وأحضرنا فراشنا وملابس النوم معنا، وإلا اضطررنا لاتباع طريقة العرب فى النوم، ونظرًا لعدم توافر أية كراسى فى هذه البلاد، كنا نجلس على الأرض، وصنعنا من أحد الصناديق وجذع شجرة طاولة لنا، ومن حسن الحظ أننا جلبنا بضعة أطباق إلى جانب السكاكين والأشواك التى أتينا بها لنستعملها أثناء وجودنا على ظهر القارب، كما أتانا جيمس الغلام الأيرلندى بمجموعة من أوانى الطهى الفخارية، كانت تلك وسائل المعيشة بالنسبة لنا.

ورغم أن هدفى الأساسى كان بعيدًا عن الآثار فى ذلك الوقت، فإننى لم أستطع منع نفسى من الذهاب لرؤية إحدى عجائب الدنيا وهى الأهرامات. وانتهزت الفرصة للذهاب مع مستر تيرنر الذى حصل على حامية من العسكر من الباشا لمصاحبتنا. وذهبنا هناك لننام حتى نتمكن من صعود الهرم الأول فى الصباح الباكر لرؤية شروق الشمس، وبذلك كنا فوق قمة الهرم قبل الفجر بوقت طويل. والمنظر من هنا يتسم بالجلال والعظمة بقدر يعجز عنه الوصف؛ فهى طبقة من الضباب فوق سهول مصر شكلت غلالة شفافة تصاعدت حتى اختفت تدريجيًا بمجرد شروق الشمس وخلعت النقاب لتكشف عن وجه تلك الأرض الرائعة، ومن ثَمَّ عن منطقة ممفيس. ومن الأمور المميزة على امتداد تلك العاصمة واسعة الأرجاء منظر الأهرامات الأصغر حجمًا من بعيد إذا اتجهنا جنوبيًا، فى الوقت نفسه الذى أشاع فيه منظر الصحراء المترامية الأطراف بلا نهاية، والمثير للهيبة والإجلال مشاعر الوقار والقداسة للخالق القادر على كل شىء. وجاءت الأراضى الخصبة جهة الشمال، بالإضافة إلى المجرى الثعبانى لنهر

النيل الذى ينحدر من علٍ نحو البحر، ومنظر القاهرة المتناسق الغنى بالتفاصيل، ومآذنها المتعددة، وكذلك سفح جبل المقطم جهة الشرق، والسهل الرائع الممتد من الأهرام إلى تلك المدينة، ونهر النيل الذى يتدفق بجلاله وعظمته خلال قلب الوادى المقدس، وبساتين أشجار النخيل الكثيفة التى تقع أعيننا عليها، كل هذا شَكَّل فى مجموعه منظراً لا يمكن لأدق الوصف وأكثره تفصيلاً إلا أن يعطينا أفكاراً مشوهة بعيدة عن الحقيقة كل البعد. ونزلنا لننظر نظرة إعجاب من على بعد إلى هذا البناء المدهش الذى يقف أمامنا، ذلك البناء المتكون من كومة هائلة من قوالب الحجارة الضخمة لدرجة احترت معها فى تفسير كيفية المجيء بكل تلك الأحجار إلى هناك، وبعدها دخلنا الهرم، لكننى سأتطرق بشيء أكثر من التفصيل عن هذا العمل الرائع فيما بعد. وذهبنا حول الهرم الثانى، وتفحصنا العديد من تلك المقابر، وعدنا إلى القاهرة يملؤنا الرضا والسرور لرؤية إحدى عجائب الدنيا، وهو أمر طالما تمنيته، لكنى لم أتصور أننى سأسعد بتحقق الأمنية.

بعد هذا بأيام قلائل شكَّلنا مجموعة من الأوروبيين للذهاب حتى سقارة عبر النيل، ثم رجعوا إلى القاهرة بعد زيارة الأهرامات فى هذا المكان عدا أنا ومستر تيرنر الذى ذهبت معه لرؤية أهرامات دهشور. هذه الأهرامات أصغر بكثير من الأهرام الكبيرة، وأغلب الظن أنها بنسبة تقدر بحوالي واحد إلى ستة. ويختلف أحد هذه الأهرام عن الباقين، فهو يتميز بوجود انحناء فى زواياه مما يقربه من قائم الانحدار بالقرب من الأرض. ويختلف هذا الهرم بالإضافة إلى أهرام سقارة الأخرى - التى تبدو كأنها متاحف فنية معلقة - عن الأهرام عموماً من حيث الشكل، وإن كان هرمى دهشور فى حالة أفضل من باقى الأهرام. لاحظت أيضاً بالقرب من سقارة والبدرشين - التى أعتقد أنها مركز منطقة ممفيس - بقايا الأهرامات الأخرى التى حفزتنى حالتها المتهالكة والمتهدمة على الافتراض بأنها تنتمى لتاريخ متقدم عن سائر الأهرامات. ولم تتح لى الفرصة فى تلك الأثناء لزيارة أماكن المومياوات المحنطة، إلا أن أحد الفلاحين أحضر لنا آنية من الخزف بها أحد الطيور أظن أنه صقر من شكل عظامه. كانت الآنية بحالة ممتازة حتى أننا ضحكنا من العربى لمحاولاته فرضها علينا. وعندما رأى العربى

أنه لم يستطع بيع قطعة الآثار لنا، بالإضافة إلى استهزائنا به وضحكنا عليه؛ كسر الآنية أمام أعيننا ليرينا إن كنا من خبراء الآثار وجهابذته أم لا. وجانبنا الصواب هذه المرة بسبب التحذيرات التى تلقيناها بعدم أخذ كلام العرب موضع ثقة مما جعلنا لا نصدق الحقيقة. وعند عودتنا باتجاه النيل، مررنا بالقرب من الهرم المتهدم المبنى من قوالب الطوب المحروق فى الشمس، واكتشفت بعد أن تفحصته فيما بعد أنه لم يتآكل بالتدريج كسائر الأهرامات، وإنما بانفصال كتل ضخمة من قوالب الأحجار مرة واحدة عن باقى جسم الهرم.

ما أن وصلنا إلى النيل حتى جَنّ الليل، واضطررنا للمرور بعدد من القرى حتى نصل إلى مكان يمكن أن ننطلق منه إلى القاهرة القديمة. مررنا فى طريقنا خلال أيكة من أشجار النخيل التى تساقط عليها ضوء القمر بصورة تركت أعظم الأثر فى نفوسنا. وكان بعض العرب يرقصون على أنغام الدفوف المألوفة فى سعادة دامت لفترة من الوقت ناسين بذلك حالة الرق والعبودية التى يخضعون من خلالها للأتراك. أخذنا قاربًا صغيرًا، ووصلنا إلى القاهرة القديمة قبل طلوع النهار. وبعد ذلك بيومين كان لزامًا علىَّ أن أمثل بين يدى الباشا لأعرض عليه موضوع مشروعى الخاص بالماكينة الهيدروليكية، وذهبت بناء على ذلك إلى منزل السيد باغوص حيث تعرفت لأول مرة إلى المرحوم مستر بيركهارت. وكان هذا التعارف من حسن حظى؛ إذ ثبت لى أن المعلومات الهامة والمتنوعة التى حصلت عليها منه ذات فائدة عظيمة لى فى تلك البلاد، وسأظل أذكر ذلك بأعمق آيات الامتنان. وأثناء ذهابى مع السيد باغوص إلى القلعة اضطررنا للمرور خلال عدد من الشوارع الرئيسية المزدحمة بالناس على الدوام، ولهذا السبب يظن الأجنبى أن العاصمة مكتظة بالسكان، لكن الأمر غير ذلك، فباقى المدينة خالٍ من السكان فيما عدا تلك الشوارع والمحال التجارية، ويمكنك أن ترى عددًا كبيرًا من البيوت الآيلة للسقوط وأكوام القمامة فى كل مكان. امتطينا ظهور الحمير فهى أكثر وسائل الانتقال راحة ووسيلة السفر الوحيدة بالنسبة للفرنسيين فى تلك المدينة. قابلنا جنديًا راكبًا حصانه فما أن اقترب منا حتى ضرب ساقى اليمنى ضربة بعصاه حتى خُيِّلَ إلىَّ أنه شطرها نصفين، فهراوات الأتراك أو عصيهم تشبه المعاول فى أنها حادة كالسكين،

وأمسكت العصا من إحدى زواياها بساقى من عند السمانة، وقطعت جزءًا من اللحم على شكل جرح مستطيل غائر عرضه بوصتان. كما تناولنى بعدها بالسب واللعن بكلمتين أو ثلاث، ثم مضى كأن شيئًا لم يكن. وتدفق الدم بغزارة، وبدلاً من مقابلة الباشا أُخِذْتُ إلى دير الأرض المقدسة باعتباره أقرب مكان مسيحى يمكن أن يأخذونى إليه. ومن نافلة القول إنه فى تلك الأثناء شاع سخط عظيم بين العساكر ضد الباشا الذى أصدر أوامره بضرورة تعلم هؤلاء الجنود الأساليب الحربية الأوروبية الحديثة، ونظرًا لارتدائى الزى الفرنسى، فأغلب الظن أن الرجل ردَّ لى الكيل لما تعلمه من أساليب القتال الأوروبى. وأُخِذْتُ من الدير إلى منزلى فى بولاق حيث مكثت تحت الرعاية لمدة ثلاثين يومًا قبل أن أستطيع الوقوف على ساقىَّ مرة أخرى.

سنحت لى الفرصة أثناء فترة احتجازى فى هذا المنزل لملاحظة عادات العرب الذين كانوا يمرون تحت نافذتى من بعيد. يقع منزلنا فى موقع ممتاز يمكننا من ملاحظة رسو كل المراكب الآتية من الإسكندرية ورشيد، وكانت كل البضائع الصادرة أو الواردة تمر أمام محل إقامتنا، كما تريح قوافل المغاربة الآتية من مكة لعدة أيام فى هذا المكان. ومن المناظر الغريبة بالنسبة لنا رؤية هؤلاء الناس فى خيامهم حيث يعيشون فى عائلات منفصلة، فى حين أن عملهم الأساسى الجلوس على الأرض والتدخين والغناء وتلاوة الأدعية والأذكار التى لاحظت أنها تستغرق أحيانًا ثلاث أو أربع ساعات، هذا إلى جانب الصلوات الرسمية والقيام والركوع والسجود المتكرر. لم أجرِ أية ملاحظات تفصيلية لأن شغلى الشاغل - كما قلت من قبل - شيء مختلف عن هذه الوجهة، ولأننى لم أتوقع فى تلك الفترة أن يكون لى أية صلة تذكر بهؤلاء الناس كرحالة.

وتم تقديمى حينما تماثلت للشفاء إلى محمد على باشا الذى استقبلنى بكل لطف. وعندما رآنى أعرج أثناء مشيى وعرف السبب قال إنه لا يمكن تفادى مثل تلك الحوادث طوال فترة تواجد الجنود. وعملت ترتيباتى معه بأن أشرع فى العمل على تركيب ماكينة لها القدرة على رفع الماء بثور واحد بمقدار ما ترفعه ماكينات البلاد بأربعة ثيران. وسُرَّ الباشا لعرضى هذا سرورًا عظيمًا لما سيوفره من جهد وتكلفة عدة آلاف من الثيران فى البلاد، وهو أمر له أهميته فتلك الحيوانات قلما تستخدم لغرض آخر غير

العمل، لأنها – رغم أنها تتمتع بحالة لا بأس بها – لا تُذبَح من أجل لحومها إلا نادراً، فالأتراك يأكلون لحم الضأن، بينما يأكل العرب لحم الجاموس إذا استطاعوا الحصول عليه. كان الباشا عائداً لتوه من شبه الجزيرة العربية حيث هزم بعضاً من القبائل الوهابية[٢]، وحرر مدينتى مكة والمدينة المنورة من أيدى الكفار[٣]. وشارك الباشا بنفسه فى الحرب حتى وقت قريب عندما تمكن ابنه إبراهيم باشا من هزيمة بعض كبار زعماء تلك القبائل الذين أخذوا كأسرى وأرسلوا إلى اسطنبول لإعدامهم. ومع هذا، فأنا مع الرأى القائل بأن مكة للأتراك[٤] مثلما أن القدس للمسيحيين، وذلك لأنه ما لم يترك هناك جيشاً قوياً، فإن غزوات محمد علي وحروبه لن تأتى بأى ثمرة كتلك الحروب والغزوات التى قام بها جودفرى البويلونى[٥] Godfrey of Bouillon .

(٢) القبائل الوهابية أو الوهابيون: هم أفراد حركة إصلاح طُهْرى دينى فى الإسلام بدأها المصلح النجدى محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢)، وتعرف حركته بالحركة الوهابية. ويصل عدد الوهابيين الآن إلى قرابة ثمانية ملايين نسمة، لكنهم منحصرون تقريباً فى شبه الجزيرة العربية بالمملكة العربية السعودية. [المترجم]

(٣) المقصود بالكفار هنا المخالفون له فى المذهب (أى الوهابيين). [المراجع]

(٤) فى هذه الفترة كان الأوروبيين يطلقون على المسلمين بشكل عام اسم الترك، فالمقصود إذن أن مكة بالنسبة للمسلمين مثل القدس بالنسبة للمسيحيين. [المراجع]

(٥) جودفرى البويلونى : Godfrey of Bouillon (١٠٦١ – ١١٠٠) هو أحد النبلاء والمحاربين الفرنسيين وقائد الحملة الصليبية الأولى. أنعم عليه الإمبراطور الرومانى المقدس "هنرى الرابع" عام ١٠٨٢ بلقب دوق لورين السفلى، وجعلت مدينة بويلون Bouillon فى إقليم الأردينيس بفرنسا عاصمة له. قاد جودفردى وأخوه "بولدوين الأول" – الذى أصبح ملك أورشليم (القدس) فيما بعد – جيشاً من البلاد المنخفضة (دول بلجيكا ولوكسمبورج وهولندا) فى الحملة الصليبية الأولى. ولما وصل إلى القسطنطينية (اسطنبول حالياً) فى ديسمبر عام ١٠٩٦، نجح فى إقامة علاقات مع الإمبراطور الرومانى الشرقى "أليكسيوس الأول كومنينوس Alexius I Comnenus"، وشارك أيضاً فى حصار القدس والاستيلاء عليها عام ١٠٩٩ . عُرِضَ عليه لقب ملك أورشليم أو القدس لكنه رفض لأسباب دينية ولقب بحامى الضريح المقدس بدلاً منه. وعندما تحركت القوات المصرية لمهاجمة القدس فى أغسطس عام ١٠٩٩، قابلها جودفرى وهزمها عند عسقلان بفلسطين، وأضحى جودفرى فيما بعد – باعتباره أول حاكم مسيحى على القدس – بطل الكثير من الأغانى والأساطير والأعمال الأدبية من بينها عدد من الملاحم الفرنسية فى العصور الوسطى المعروفة باسم Chansons de Geste "أغانى العلامة" وكذا القصيدة الملحمية المسماة Jerusalem Delivered "عودة القدس" (١٥٧٥) وترجمها إلى الإيطالية الشاعر الإيطالى توركواتو تاسو Torquato Tasso عام ١٨٨٤ . [المترجم نقلاً عن موسوعة "إنكارتا" الإلكترونية]

في تلك الأثناء كنت مشغولاً في تحضير الماكينة الهيدروليكية، وذات صباح مشيت في الطريق المؤدي إلى القاهرة، لكن المثير للدهشة أنني وجدت حالة من الصمت المطبق بدلاً من ذلك اللغط المستمر نتيجة للضوضاء وألوان النشاط المختلفة. وكان المراكبية يعدون مراكبهم كأنهم سيشدون الرحال على الفور، واختفت الإبل التي تحمل المياه إلى القاهرة، واختفى معها سائقو الحمير، وأُغلقت الدكاكين، وخلت الشوارع من أقدام المارة. ولم أتبين ساعتئذٍ سبب هذه الظاهرة الغريبة، ولم أستطع أن أستطلع الأمر من أي أحد إذ لم أجد وقتها أحداً أسأله، لكنني استنتجت أن ذلك اليوم وافق إحدى المناسبات الخاصة بالمسلمين(٦) لموافقته يوم الجمعة. ومضيت في السير، لكنني لم أقابل آدميًا بعد. وتبلغ المسافة من بولاق حتى القاهرة حوالي ميلاً خلال بلاد واسعة، ويقع أحد الجسور في منتصف الطريق ووجدت بالقرب منه مجموعة من العساكر. مضيت في سيري دون أن ألاحظ وجودهم، إلا أن واحداً منهم صوَّب بندقيته نحوي، وضحك الباقون من فكرة تخويف أحد الفرنسيين.

ومضيت في السير حتى دخلت القاهرة. ولما وصلت إلى حي الفرنسيين، ألفيت كلتا البوابتين مغلقتين، لكني رأيت من خلال الباب الصغير أحد الفرنسيين منهمكًا مثلي في عملية اختلاس النظر من بعيد، واكتشفت فيما بعد أن هذا الرجل هو القنصل العام السويدي مستر بوكتي Mr. Bocty الذي دهش لرؤيتي. ولم أستطع أن أتصور أي سبب لما يحدث من حولي. في البداية تصورت أن وباءًا فتاكًا تفشى في المنطقة؛ ونتيجة لذلك لزم كل الناس منازلهم، لكن المسلمين لا ينعزلون عن الآخرين في مثل تلك الحوادث، وظللت في حيرة كبيرة لعدم قدرتي على استنباط أي شيء مما يحدث. حرص مستر بوكتي على الاستفسار مني على كيفية مجيئي إلى هنا، والمكان الذي أتيت منه، وما رأيت في الطريق أثناء قدومي، ولكم كانت دهشته عندما أخبرته أنني

(٦) لم يستخدم بلزوني كلمة Muslims لوصف المسلمين أو أتباع دين الإسلام، لكنه استخدم كلمة "المحمديين" Mohammedans أي أتباع محمد (ص)، وهي تسمية يطلقها الغرب خطأ على المسلمين، كما كان الأوروبيون في هذه الفترة يطلقون أيضًا على المسلمين اسم "الترك" من باب إطلاق اسم الجزء على الكل. [المترجم]

جئت من بولاق، وأننى لم أر شيئًا معينًا فى الطريق. ولم نلبث عند الباب طويلاً حتى سمعنا صخبًا وصياحًا عاليًا فى بعض الشوارع، وإطلاق وابل من نيران البنادق. عندها هرعت إلى حى الفرنسيين، وأغلقت البوابات بعدها. وسرعان ما علمت أن ثورة اشتعلت بين العساكر ضد الباشا، وأن بعض القوات تتبعته إلى القلعة التى لجأ إليها طلبًا للأمان. ورغم غرابة هذا الأمر، فإننا ونظرًا لعدم اتصالنا بأى أحد فى بولاق، لم نعرف أى شىء مما وقع فى الصباح فى القاهرة، وما حدث أن نفس المكان الذى اشتعلت منه الثورة وهو الحرملك بالأزبكية أصبح خاليًا من أى إنسان عند مرورى به، لأنه وبعد أن أوى الباشا إلى القلعة، جرى كل العساكر وراءه، أما سائر الناس فلم يبرح أحد منهم بيته. وأصيب كل الفرنسيين فى الحى الفرنسى بحالة من الرعب والفزع، واستعدوا للدفاع فى حال الهجوم على البوابات. وذهبت إلى السيد باغوص لارتباطى معه ببعض الأعمال، فاندهش الرجل كثيرًا لرؤيتى فهو يعرف محل إقامتى.

كنت فى غاية الانشغال على زوجتى التى تركتها وحدها بالمنزل ليس معها سوى جيمس وأحد العرب، صممت على العودة وعلى الفور رغم أن السيد باغوص حاول إقناعى بالبقاء معهم طوال فترة الليل. انطلقت لا يرانى أحد من سكان المنزل، ووجدت صعوبة كبيرة فى فتح الباب لى عند بوابة الحى، وما كدت أخرج حتى أغلقوه ورائى فى الحال. وسرت فى نفس الطريق التى أتيت منه، ولم أقطع مسافة بعيدة حينما قابلت كوكبة من الجنود المسلحين يجرون نحو وسط المدينة. وعندما تقدمت أكثر سمعت صوت إطلاق عدة أعيرة نارية فى شارع مجاور، وفى شوارع أخرى على مبعدة منه، وظل إطلاق النار مستمرًا. وبمجرد أن اقتربت من الأزبكية حتى رأيت عددًا من الجنود يركضون صوب الحرملك، فى حين أسرع آخرون الخطى نحوى. وعندما أتوا إلىّ، أخذ أحدهم بزمامى، وأمسك آخر بياقة قميصى، أما الباقى فكانوا مشغولين بتقليب جيوبى. ولم يكن فى حوزتى آنذاك سوى بضعة دولارات، ولم تضم محفظتى إلا الرسائل وجوازات السفر، ولم أعرف كيف تمكنوا من الوصول إليها. إلا أن ما لفت انتباههم بصفة أساسية بروش من الياقوت الأبيض كنت قد وضعته فى كشكشة القميص، وهو ما اعتبروه شيئًا فخمًا رائعًا. ظللت أسايرهم، فلمًا أدركت تحول

انتباههم إلى الياقوتة الصفراء، بدأت أتحرك كى أغادر المكان. ولا أعرف إذا كنت محقًا فى التخوف من تعقبهم لى، على اعتبار ضرورة تعليمهم بعلامة حتى أتمكن من التعرف عليهم مرة أخرى، لكننى مضيت فى طريقى ولم يحدث لى أى شىء آخر أثناء سيرى فى الطريق.

أغلقنا علينا أبواب منازلنا لعدة أيام حيث إن جارنا التركى الودود أشار علينا بأن نختفى عن الأنظار. ونهب العساكر فى تلك الأثناء الدكاكين والمحال التجارية فى القاهرة، وأرسل إليهم الباشا مجموعة من الخيالة السوريين المعروفين آنذاك باسم طرطور. وكانت هذه القوات هى القوات الوحيدة المخلصة له، لكنهم لم يستطيعوا بسبب ركوبهم الخيل أن يتعقبوا الألبانيين أو الأرناؤوط الذين اتخذوا مواقع لهم وسط المزارع بين القاهرة وبولاق. وذات يوم تقدم الفرسان، وتراجع الأرناؤوط نحو بولاق. وكان منزلنا كائنًا فى مكان متميز، لأننا لو صعدنا إلى سطحه استطعنا من جهة رؤية تبادل إطلاق النار بين الجنود، ومن جهة أخرى مشاهدة مظهر الهرج والمرج بين الناس الذين أسرعوا إلى المراكب التى ضل كثير منها طريقه بسبب السرعة والعجلة. وكان من المتوقع أن تتولى الجنود المكان بالنهب والسرقة بمجرد أن يدخلوه. وبناء على هذا، اعتمدت على مظهر بيتنا الآيل للسقوط الذى سيجعل الجنود - ومعى الحق فى ذلك - يحجمون عن دخوله خشية أن يسقط فوق رؤوسهم بدلاً من أن يقدموا على سرقته ونهبه، كما لم يكن معنا أى كنز ما لم يأخذوا أدوات المطبخ لدينا من قدور وأوانٍ خزفية وما إليها. وشاع الصخب بين جموع الناس، وتقدمت الجنود ووصلوا حتى مدخل المدينة، لكن ولحسن الحظ منعتهم الخيالة من الدخول الذين شكلوا دائرة تمكنوا من خلالها اتخاذ موقع لأنفسهم على الطريق. واستمر الهرج والمرج بهذا الشكل لعدة أيام، وأخيرًا ارتد الجنود إلى معسكراتهم بعد أن سلبوا ونهبوا القاهرة كيفما شاءوا، وما هى إلا بضعة أيام حتى عادت الأمور إلى طبيعتها مرة أخرى. وأغلب الظن أن الباشا عرف من هم مدبرو ومثيرو هذا العصيان المسلح، لأننا اكتشفنا وبعد الحادث بفترة وجيزة وفاة العديد من الأشخاص وفاةً مفاجئة، هذا بالإضافة إلى اختفاء الكثير من الأعيان والبكوات. أرسلت جموع العساكر الغاضبة كلها إلى معسكرات فى مواقع

شتى بعيدة عن القاهرة، كما أرسلَ جزء منها إلى مكة، لكن التدريبات الأوروبية التى يقال إنها السبب وراء تمرد الجنود تُرِكَت بالكلية وطواها النسيان. وينفر الأتراك من النظام أيًا كان نوعه ولاسيما من أى شىء غير مستقىً من العادات والتقاليد الإسلامية. ولشَدَّ ما ضحكت عندما رأيت أساليبنا الحربية المتقدمة يمارسها رجال لا تتناسب سراويلهم الواسعة على وجه الخصوص مع خفة حركاتنا.

ولما عاد الهدوء مرة أخرى، استأنفت استعداداتى بالنسبة للماكينة الهيدروليكية. أما المكان الذى يفترض أن أشغل فيه الماكينة فهو شبرا فى حديقة الباشا على نهر النيل وعلى مبعدة ثلاثة أميال من القاهرة. وذهبنا للإقامة هناك فى منزل صغير تحيط به أسوار قصر الحاكم التى تغلق بواباتها الضخمة ليلاً كما هو الحال تقريبًا فى أوكسالات الإسكندرية. وقابلتنى الكثير من الصعوبات المثيرة للغضب قبل أن أتعرف على الناس فى المنطقة، وذلك لأنهم ظنوا أن إدخال مثل هذه الماكينات إلى البلاد سيلقى بالكثير منهم إلى غائلة البطالة؛ ونتيجة لذلك لم ألقَ ترحيبًا بينهم، وكان مَنْ عليهم أن يمدونى بما هو ضرورى من أخشاب وحديد وأعمال نجارة هم أنفسهم أول المُضارين منها إذا نجحنا فى تشغيل الماكينة. ولعل من السهل الآن تصور العقبات والعراقيل التى اضطررت لمواجهتها إلى جانب التحامل ضد كل الأجانب أو أى تجديد فى العادات والتقاليد المحلية. والدليل على ذلك الماكينة الهيدروليكية الموجودة فى شبرا التى أرسلت كهدية من إنجلترا إلى الباشا والى مصر، ويقال إن تكلفتها عشرة آلاف جنيه. وضُبِطَ وضع الماكينة ضبطًا محكمًا رغم الصعوبات الكثيرة التى جابهها المهندس المسئول قبل أن ينشئها. وأخيراً أصبحت الماكينة قابلة للتشغيل، لكن – وكما تصورت – مع قدرة الماكينة الإنجليزية على أن تغمر البلاد كلها بالمياه فى ساعة واحدة، فإن كمية المياه التى رفعتها الماكينة لم تأتِ حسب توقعاتهم، ومنذ ذلك الحين أُهْمِلَت الماكينة دون أدنى استفادة منها. ومن جانبى لم أشك للحظة أن الماكينة كانت ستسحب كمية أكبر من المياه لو تمكن الشخص الذى صنعها من رؤية المكان والموقع الذى سيتم تشغيلها فيه. وأعطانى الفشل فى هذه الحالة فكرة مسبقة عما قد يكون عليه قَدَرى فيما بعد، ولم أكن مخطئًا.

تعرفت أثناء إقامتى فى شبرا إلى عدد كبير من الأتراك على رأسهم مدير القصر الذى كان منزلنا يقع داخل أسواره. وكان الباشا يتولى حديقته برعايته، ويترك أحد الحراس على بواباتها. ويتمتع الحرملك بموقع متميز للغاية، فواجهته تطل على التل بينما تقع الحديقة وراءه وهى التى يتولاها اليونانيون بالرعاية، وهم مَنْ تمكنوا فى بضع سنين من الوصول بها إلى حالة ممتازة. وكانت هناك طاقات بديعة الجمال على شكل القباب تغطيها النباتات تمامًا، فى حين تحافظ الماكينات المائية التى تعمل باستمرار على الخضرة الدائمة. كما يوجد بالحديقة نافورة على الطراز الأوروبى، وكمية هائلة من الفواكه لاسيما العنب والخوخ، لكن هذه الفواكه لا تنمو بنفس الأحجام المتوفرة لدينا، فالكثير منها يتعرض للعفن والسقوط قبل أن ينضج؛ ونتيجة لذلك يأكل الأتراك الفواكه قبل نضوجها.

أما الباشا فهو فى حركة دائبة، فأحيانًا تجده فى قلعته، وأحيانًا أخرى تجده فى الحرملك الخاص به فى الأزبكية، لكن شبرا هى مقره الرئيسى. ويجد الباشا تسليته الأساسية فى المساء قبيل الغروب حينما يغادر الحرملك، ويجلس على ضفاف النيل يصحبه حراسه لممارسة الرماية على آنية من الخزف، فإن أصابها أحدهم؛ أمر له بهدية تبلغ عادةً ما تتراوح قيمته من أربعين إلى خمسين روبية. والباشا نفسه بارع فى الرماية ماهر بها، فقد رأيته يرمى ويصيب آنية ترتفع خمس عشرة بوصة فقط عن سطح الأرض على الضفة المقابلة من النيل رغم اتساعه عند شبرا بدرجة أكبر بكثير من اتساع نهر التايمز Thames عند جسر وستمنستر Westminster Bridge . وحينما يحل الظلام، فإنه ينسحب إلى الحديقة ويستريح إما فى إحدى الطاقات أو إلى جوار إحدى النافورات جالسًا على كرسى أوروبى يحيط به كل أتباعه، وهنا يعمل كثير من مُضْحِكيه على إضحاكه والمحافظة على طيب مزاجه باستمرار. إن المنظر بديع الجمال فى ضوء القمر. وسُمِحَ لى بدخول الحديقة وقتما أشاء وبذلك واتتنى الفرصة كى أشاهد الحياة الداخلية لرجل أصبح من لا شىء والى مصر، وقاهر أعتى قبائل شبه الجزيرة العربية وأقواها.

استنتجت من عدد الأنوار التى رأيتها مراراً من خلال شبابيك الحرملك أن النساء كنّ يسلين أنفسهن بطريقة أو بأخرى فى تلك الأثناء، ويُؤتى بالراقصات غالبًا لتسليتهن وأحيانًا تقدمُ إليهن عروض للرقص الغجرى المصرى الشهير. وذات يوم خطر على بال أحد المهرجين أو المضحكين فكرة أن يحلق لحيته على سبيل اللهو والمزاح، وهو ليس بالأمر الهين بالنسبة للأتراك، فالبعض منهم - حسب اعتقادى - يهون عليه قطع رقبته بدلاً من حلق لحيته. أخذ المهرج بعض الملابس الفرنسية على سبيل الاستعارة من صيدلية الباشا التى أتى بها من أوروبا، وبعد أن ارتدى الزى الخاص بنا عرض نفسه على الباشا كشخص أوروبى لا يستطيع أن يتكلم كلمةً واحدة بالتركية أو بالعربية، وهذه هى الحقيقة فى الغالب. ولجهل الباشا بالأمر، حسبه أوروبيًا كما صوّر نفسه، وأرسل على الفور إلى الترجمان الذى طرح عليه بعض الأسئلة بالإيطالية، فلم يُجِبْ، ثم سأله بعدها بالفرنسية، فلم يلقَ إجابة، ثم تلا ذلك أسئلةٌ باللغات الألمانية والأسبانية، إلا أن الثانى ظل صامتًا، وأخيراً وبعد أن رأى المهرج أن الحيلة انطلّتْ على الجميع، وأن الباشا غير معترض على ما حدث، انطلق الرجل فى الحديث بلغة تركية واضحة، وهى اللغة الوحيدة التى يعرفها، وعرفوه من صوته المميز بالنسبة لهم، وذلك للتغير الذى طرأ عليه ولاسيما بعد أن حلق لحيته؛ ولم يكونوا ليتعرفوا عليه لولا هذا. وسُرُّ الباشا من الرجل، ومجاراة للمزاح، أمر له بصرف مبلغ هائل من المال من الخزانة، وبعث به إلى كاخيا بك لاستقباله على اعتبار أنه فرنسى. وصُعِقَ كاخيا بك من ضخامة المبلغ، فقد كان هذا كل ما يمكن للخزانة أن توفره تقريبًا، لكنه وبسؤال هذا الأوروبى الجديد، عرف ماهيته على الفور. وعاد الرجل إلى بيته ونسائه بهذا الزى مما أدى إلى دفعه من على الباب، ونجم عن حلاقة لحيته وما لحق به من الخزى والعار أن زملاءه من المهرجين رفضوا أن يأكلوا معه حتى طالت لحيته مرة أخرى.

ويبدو أن الباشا كان على دراية تامة بالفوائد التى يمكن الحصول عليها من تشجيعه للصناعات الأوروبية فى بلاده، وبعض الثمار التى جناها بالفعل من ذلك. وأدخلت صناعة البارود وتكرير السكر وصناعة النيلة الممتازة وكذا صناعة الحرير إلى مصر بناء على طلبه ورغبته على الأغلب، فهو دائم البحث عن الجديد، ويُسَرُّ لأى شىء غريبٍ عن مخيلته.

فعندما سمع بالكهرباء، أرسل إلى إنجلترا طلبًا لآلتين كهربائيتين أحدهما لها لوحة كهربية، والأخرى لها أسطوانة. انكسرت الأولى فى طريقها إلى مصر، ووصلت الثانية سالمة. ولم يعرف طبيب الباشا - وهو أرمنى - أن يشغلها رغم سهولة ذلك. وتصادف ذات مساء وجودى فى الحديقة عندما حاولوا تشغيلها ولم ينجحوا، عندها طُلِبَ منى تركيب مختلف الأجزاء معًا، وبعد أن انتهيت منها، طلبت من أحد الجنود تركيب الكرسى العازل insulating stool ، ودارت الماكينة وهو ما ارتاع الرجل التركى له ارتياعًا شديدًا؛ إذ لم يتوقع شيئًا كهذا، وصاح صيحة عالية وقفز من فوق الماكينة يملؤه الرعب كمن رأى الشيطان أمامه. وضحك الباشا عندما قفز الرجل وهرب مفترضًا أن هذا الخوف ما هو إلا دعابة وليس بسبب الماكينة، لكن عندما عَلِمَ أن مبعثه هذه الماكينة، أكد بشدة على استحالة أن يكون لهذه السلسلة الصغيرة التى أمسكها الجندى بيده من كل هذه المسافة مثل هذه القوة. وبعدها طلبت إلى الترجمان أن يخبر سعادته بأنه إن قام بتركيب الكرسى بنفسه، فإنه سيقتنع بالحقيقة الواقعة. وتردد للحظة أيصدقنى أم لا، رغم أنه ركب الكرسى. وأدرت الماكينة، ووضعت السلسلة فى يده مما أصابه بصدمة قوية. وقفز كما حدث مع الجندى بمجرد إحساسه بتأثير الكهرباء، لكنه ما لبث أن ألقى بنفسه على الأريكة فى نوبة من الضحك غير قادر أن يتصور كيف يمكن للماكينة أن يكون لها مثل هذا الأثر على الجسم البشرى.

وكان ذو الفقار كاچا حاكم شبرا من المماليك ويبلغ من العمر خمسة وستين عامًا، وهو مثال لعلو شأن واحد من تلك الفئة من الرجال الذين حكموا مصر لعدة قرون. أدى بسلوكه السياسى نحو الباشا إلى وصوله إلى منصب حاكم قرية تضم مقر الباشا نفسه، هذا بالإضافة إلى قطعة كبيرة من الأرض تُركت زراعتها تحت إدارته الكاملة. كان الرجل متعلمًا بين الأتراك، متمتعًا بعلم غزير فى الزراعة، ولعل هذا هو السبب وراء استمراره محظيًا لدى الباشا. سافر هذا الرجل كثيراً وتنقل بين أقاليم الدولة العثمانية واكتسب قدراً كبيراً من المعارف - وهو شىء يندر وجوده بين الأتراك - لكن ورغم كل هذا، فإن تعصب قومه وخرافات دينه لم تتركه لحظة واحدة. اعتدت أن أذهب ليلاً إلى ديوانه أو "مجلس السمر" لتجانب أطراف الحديث وشرب القهوة وتدخين الشيشة.

واتفقنا فى نقاط كثيرة، لكننى فشلت فى التأثير عليه فى موضوع الماكينة الهيدروليكية لأنه لم يكن مهتمًا بمسألة الاقتناع بها. وفى يوم من الأيام مَرِضَ هذا الرجل مرضًا شديدًا، ولم يكن هناك أى طبيب أقرب من القاهرة، فأرسل إلينا ليعرف إن كان باستطاعتنا عمل أى شىء لمساعدته. ولما كان ما أصابه ليس إلا نزلة برد حادة، أعطت له زوجتى شرابًا من النبيذ المُحَلَّى مع عصير الليمون والماء وجوزة الطيب، وهو ما راق له كثيرًا، واستمر على هذا الدواء لعدة أيام.

أصاب زوجتى ألمٌ فى جنبها بعد هذه الحادثة بفترة من الزمن، وذات مساء ذهبت إلى ديوان الرجل، ونظرًا لسؤاله الدائم عن صحة طبيبته، أخبرته بما حدث، فأكد لى أنه ما من شىء إلا وسيجد له الدواء على الفور، ونهض من مكانه ودَلَف إلى حجرة داخلية، ثم أتى منها بكتاب يحمله بكل فخر واعتزاز يمكن لإنسان أن يتخيلهما. كان شيخ المسجد حاضرًا، وبعد تقليب صفحات هذا الكتاب مرات ومرات، استقروا على ما ينبغى فعله. قُصَّت ثلاث ورقات على هيئة مستطيل فى حجم ورق الكوتشينة، وكتب الشيخ عليها بضعة كلمات باللغة العربية. وأخبرنى أن على زوجتى أن تُثَبت إحدى الورقات الثلاث على جبهتها برباط، وتضع الورقتين الأخريين فى كل أذن. بعد ذلك ذهب الرجل وأحضر قطعة من جلد أحد الحملان التى ذبحت أثناء الاحتفال بعيد الأضحى. كتب الشيخ على هذه القطعة أيضًا، بعدها يتم تعريضها للعضو المصاب. شكرته كثيرًا على لطفه، وأخذت معى التمائم التى لا زلنا نحتفظ بها حتى يومنا هذا كتذكار للطريقة العثمانية فى علاج الآلام. وتصادف أن زوجتى تحسنت نوعًا ما بعد ذلك بيوم أو يومين، وابتهج التركى العجوز فرحًا لرده للجميل عندما عالجته زوجتى من نزلة البرد التى أصابته.

يبدى عرب شبرا الكثير من مظاهر الاحتفال والابتهاج عند إقامة أى حفل زواج ذى أهمية مثلهم فى ذلك مثل تلك الاحتفالات التى تقام فى أى قرية من قرى مصر. ومن حسن الحظ أن أقيم إحدى تلك الاحتفالات ونحن هناك، وكانت نافذة منزلنا تطل على نفس الموقع الذى أقيم فيه الحفل؛ فجاءتنا الفرصة كى نرى الاحتفال كاملاً. غرست عصًا طويلة فى قلب المكان فى الصباح الباكر من يوم العطلة الكبيرة،

وعلَّقَ عليها راية تنتمى إلى القرية. واجتمع تحتها عدد غفير من الناس، وأقيمت الاستعدادات للإضاءة باستخدام اللمبات الزجاجية وما إليها. وجاء العرب من القرى الأخرى إلى الحفل فى موكب يضربون بالدفوف ويلوحون بالأعلام. وتوقفوا على مبعدةٍ من العصا، ولم يتقدموا حتى أرسل إليهم وفدٌ يدعوهم إلى الحفل. وجلس أكابر القرية حول العصا وتحتها، بينما جلس الغرباء على بعد منها قليلاً، وشرع أحد أولئك الذين كانوا يجلسون بالقرب من العصا ومن معه نارجيلة أو "شيشة" مميزة الشكل فى الغناء. وانقسم الباقى إلى مجموعتين مكونتين من حلقتين إحداهما داخل الأخرى، ويلتف الناس فى هاتين الحلقتين حول العصا ويجلسون فى مواجهة بعضهم البعض. وتشكل كل حلقة سلسلة متصلة عندما يضع كل رجل ذراعيه على كتفى من يجاوره. ويقف الناس فى الحلقة الخارجية فى سكون، فى حين يظل الناس فى الحلقة الداخلية يرقصون ويحنون أنفسهم بانتظام للناس الموجودين فى الحلقة الخارجية. واستمروا على ذلك لمدة ثلاث ساعات، وصنع من لم يكن فى هاتين الحلقتين حلقات منفصلة وحدهم. مضى بعض الرجال العجائز (يلقب الواحد منهم بلقب الحاج) الذين أرادوا استعراض مدى قوة اهتمامهم بطقوس الاحتفال ولمدة ساعتين كاملتين وبضع دقائق فى الانحناء بأجسامهم حتى قاربت الأرض والارتفاع بها ثانية بقدر من السرعة يستحيل معه على أى أحد غير معتاد على هذه الطقوس أن يقوم بمثل هذا المجهود لمدة تزيد على ربع ساعة. وجلست كل النساء وحدهن على بُعدٍ من موقع الحفل بينهن العروس. وعندما انتهى الرقص والغناء، جلس الجميع فى حلقات كبيرة، وقدمت إليهم كميات هائلة من الأرز المسلوق فى أوانٍ خشبية كبيرة إلى جانب عدد من أطباق الملوخية والبامية[٧]، بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة خراف كبيرة مشوية قطعها الناس إربًا والتهموها على الفور. ويخصص لوظيفة السقاية عدد من الفتيان الذين لا عمل لهم سوى الذهاب وإحضار الماء فى بَرادِق[٨] كبيرة من النيل، إلا أننى عرفت أن البعض منهم لديه ركن خبيث يلجئون إليه رغبة فى تناول رشفات من خمر العَرَقى؛

(٧) البامية : نبات يأكله العرب بوجه عام كنوع من الخضراوات [المؤلف].
(٨) بَرادِق : كلمة تركية يقصد بها الآنية المخصصة للمياه مثل "القلل" مثلاً [المترجم].

فهم يشربونها بهذه الطريقة السرية. وتُضاء العصا وكل المكان المحيط بها ليلاً. ويجلس القوم فى صفوف تشبه مقاعد مدرج المسرح، فى حين تجلس النساء اللاتى يشكلن جزءاً من الحلقة فى مكان منفصل عن الرجال. وتواصل فرقة الدفوف والناى العزف، ويبدأ الحفل بالرقص الذى يؤديه راقصان معروفان ومتميزان.

أعتقد أن أحداً لم يتناول هذا النوع من الرقص بالوصف من قبل، ولابد أن نستميح كل من شاهده حق مشاهدته العذر فى إعطائنا صورة صادقة عنه. وبعد أن انتهى الرقص، قُدِّمَ ما يشبه المسرحية، ويعرض مضمونها الحياة والأخلاق كما نفعل نحن فى المسرح عندنا. ويدور موضوع المسرحية عن أحد كبار السن كان يرغب فى الذهاب إلى مكة، وتقدم إلى حادى أو سائق الإبل حتى يأتيه بجمل. فرض السائق على الرجل عدم رؤية بائع الإبل، وطلب سعراً أعلى من السعر الذى طلبه البائع وأعطى البائع مبلغاً من المال يقل كثيراً عما دفعه المشترى. وأخيراً أوتِىَ بالجمل وجهزه رجلان يرتديان ملابس الإحرام كمن يستعدان للرحيل إلى مكة. امتطى الرجل ظهر الجمل، فألفاه غاية فى السوء؛ عندئذٍ رفض أن يأخذه وطالب باسترداد ما دفع من مال، ونشب الشجار عندما ظهر بائع الإبل بطريق الصدفة ووجد أن الجمل محل الخلاف ليس هو ما باعه للسائق من أجل الحاج أو الرجل العجوز. واتضح بعد ذلك أن السائق لم يكتفِ بالنصب على كل من البائع والمشترى فى السعر، بل احتفظ بالجمل السليم لنفسه وأعطى الجمل السيئ للحاج. وكانت عاقبة هذا أن عوقب السائق بالجلد بالسياط، ثم فر هارباً. ورغم البساطة التى تبدو عليها هذه القصة، فإنها لاقت استحسان الجمهور أيما استحسان بما لا يترك مجالاً لمزيد من السرور والسعادة، ذلك أنها علمتهم أن يأخذوا حذرهم من تجار الإبل ومن على شاكلتهم. تلك كانت المسرحية، بعدها قُدِّمَ عرض يصور أحد الرحالة الأوروبيين الذى لعب دوراً أشبه بالمهرج أو المضحك. يرتدى هذا الرجل ملابس الفرنسيين، ويمر فى رحلاته ببيت أحد العرب الذى يريد أن يظهر بمظهر الغنى رغم فقره. وبناء على ذلك، يصدر الأوامر لزوجته بأن تذبح خروفاً على الفور. وتظاهرت الزوجة بالطاعة، لكنها تعود بعد بضعة دقائق لتقول إن قطيع الغنم ضل طريقه بعيداً عن الدار، وإنه لمن مضيعة الكثير من الوقت الذهاب للبحث عن أى منها.

عندئذٍ أمر صاحب الدار بذبح زوجين من الطيور، ورجعت الزوجة بحجة عدم قدرتها على الإمساك بها. وفى المرة الثالثة أرسل الرجل زوجته لتنبح الحمام، إلا أن الحمام كله طار من أبراجه، وفى النهاية لم يقدم إلى الرحالة سوى اللبن الخاثر والخبز المصنوع من الذرة[٩] وهو الطعام الوحيد الموجود بالبيت، وبهذا انتهت المسرحية.

حدثت لى واقعة أثناء إقامتى فى شبرا سأظل أتذكرها ما حييت، وكشفت لى هذه الحادثة بوضوح البلد الذى أقمت فيه والناس الذين تعاملت معهم. دعانى شأن ما إلى الذهاب إلى القاهرة، وذهبت ممتطيًا حمارى فى أحد الشوارع الضيقة حيث قابلت مَحْمَلاً. وكانت المسافة بين المحمل أو الجمل وبين الحائط صغيرة بدرجة جعلتنى لا أكاد أمضى من هذا الشارع، وفى تلك الأثناء قابلنى "بنباشى" وهو ضابط صغير على رأس مجموعة من رجاله. فى تلك اللحظة كنت أنا العقبة الوحيدة التى عاقت مروره من الطريق، ولم أتمكن ساعتئذٍ من الرجوع أو التقهقر إلى الوراء حتى أفسح له الطريق. ولما رأى أن من أوقف طريقه رجل فرنسى، عالجنى بضربة قوية فى بطنى. ولأننى لم أتعود على هذا النوع من التحية، رددت له التحية بضربة من سوطى على كتفه العارية؛ فأستلَّ الرجل من فوره مسدسًا من حزامه، فقفزت أنا من فوق حمارى، رجع الضابط مقدار ياردتين وضغط على الزناد وأطلق النار على رأسى ليَسْفَعَ الشعر بالقرب من أذنى اليمنى، كما قتل واحداً من جنوده الذى تصادف مروره من ورائى فى ذلك الوقت. ولما رأى أنه أخطأ الهدف، استلَّ مسدسًا آخر، لكن جنوده هجموا عليه وجردوه من السلاح.

وعلَتْ الجلبة والصياح فى الشارع، وكانت الواقعة بالقرب من الحرملك فى الأزبكية؛ فخرج بعض الحراس إلينا، لكنهم عندما رأوا ما حدث تدخلوا وأوقفوا البنباشى. وركبت مَطِيَّتى وانطلقت فى طريقى إذ رأيت أن وجودى لم يعد مرغوبًا فيه. ذهبت إلى السيد باغوص وأخبرته بما حدث، وما لبثنا أن انطلقنا إلى القلعة، وعندما رأيت الباشا قصصت عليه أمر تلك الواقعة. كان الباشا مهتمًا للغاية بالأمر،

(٩) الدُرة (هكذا كتبها بلزونى!) من الحبوب الشائعة فى مصر [المؤلف].

وطلب أن يعرف مكان الجندى، لكنه أضاف قائلاً إن الوقت متأخر جداً فى ذلك المساء للإرسال فى طلبه. لكنهم ألقوا القبض عليه فى اليوم التالى، ومنذ ذلك الحين لم أسمع أو أعرف أى شىء عنه. ولم يفتنى أن أعى هذا الدرس وأتعلم منه، وأن آخذ الحيطة والحذر فى المستقبل بألا أعطى أقل فرصة لهذا النوع من البشر الذين لا يتورعون عن قتل أى أوروبى بكل بساطة كما يقتل الواحد منهم أى حشرة.

بعد هذه الحادثة بوقت قصير، وقعت حادثة أخرى لا أستطيع أن أحذفها من سياق كلامى. إنها الفتاة فاتنة الجمال ذات الستة عشرة عامًا، ابنة النبيل بوكتى Chevalier Bocty الذى أصبح الآن قنصل عام دولة السويد. خرجت هذه الفتاة من بيتها بصحبة أمها وأختها وبعض سيدات أخريات للذهاب إلى الحمام. شكَّل هذا الجمع من السيدات موكب خيالة كما هى عادة هذه البلاد، ولم يبتعدوا كثيراً عن باب المنزل حتى قابلهم أحد العساكر، بل أحد الوحوش المفترسة إن جاز القول، الذى استلَّ مسدساً من حزامه وأطلق النار بكل برود على الفتاة فأرداها قتيلة. كانت هذه الفتاة من أكثر الناس لطفًا وودًا وأنسًا فى أخلاقها وشخصيتها، ومن أكثر من نُعِىَ بصدق وعن استحقاق من كل من عرفها. وما من شك أن هذا يكفى لأن يشجع فتيات أوروبا للذهاب إلى تلك البلاد! لابد من القول إنه ألقى القبض على هذا الوحش وإعدامه بفضل توجيهات محمد على باشا، لكن ما الفائدة التى ستعود من ذلك على والديها المكلومين؟

وصل مستر بانكس Mr. Banks أثناء ذلك إلى هذه البلاد، فما لبث أن شدَّ الرحال إلى جبل سيناء، ومنه إلى صعيد مصر، لكنه عاد بعد ثلاثة أشهر وانطلق فى رحلة إلى سوريا. عَمَد مستر بيركهارت منذ مدة طويلة إلى نقل رأس التمثال أو التمثال النصفى إن صح القول المعروف باسم تمثال ممنون الصغير إلى إنجلترا، وحاول مراراً إقناع الباشا بإرسال هذا التمثال كهدية إلى ولى العهد ريجنت Prince Regent، لكن ونظراً لما بدا لهذا التركى أنها هدية أتفه من أن يرسلها إلى مثل هذه الشخصية العظيمة، فلم تتخذ أية إجراءات لهذا الغرض، ثم اقترح مستر بيركهارت هذا الأمر على مستر بانكس، لكننى لا أعرف السبب وراء عدم أخذ هذا الرجل للتمثال.

فى تلك الأثناء انتهى العمل فى الماكينة الهيدروليكية، وانتظرنا وصول الباشا من الإسكندرية حتى يدلى برأيه عن المزايا التى يمكن أن تعود على البلاد من تشغيل هذه الماكينة. أنشئت هذه الماكينة وفقًا لمبدأ وجود رافعة وعجلة متحركة مثبت بها ثور واحد، هذا الثور يستطيع بقوة وزنه وحدها أن يحرك ما تفعله أربعة ثيران عند تشغيلها للماكينات المحلية. وأتممت هذه المهمة رغم ألوان من المؤامرات والحيل والمشقة التى اضطررت لمواجهتها دائمًا. وصل الباشا إلى القاهرة، لكنه لم يزر شبرا إلا بعد مرور فترة من الزمن.

وفى أثناء ذلك وصل إلى العاصمة مستر سولت Mr. Salt القنصل العام من إنجلترا للقيام ببعض الأعمال فى القاهرة. حظيت بلقاء مستر بيركهارت مرارًا، وعندما علمت رغبته فى نقل تمثال ممنون النصفى، أخبرته أكثر من مرة بأن يتولى نقله من طيبة إلى الإسكندرية بحيث يتسنى نقله بعد ذلك إلى إنجلترا. وبمجرد وصول مستر سولت عرض عليه مستر بيركهارت الفكرة، وبعد أن سنحت لى الفرصة لرؤية الرجل بفترة قصيرة، قلت له مرة أخرى أمام مستر بيركهارت إنه من دواعى سرورى أن أتولى مهمة نقل التمثال النصفى دون أن يكون لى فى هذا الأمر أدنى مصلحة سوى أن يذهب التمثال إلى المتحف البريطانى. وبدا القنصل ميالاً للموافقة على ما قيل، لكنه ظل مترددًا لبعض الوقت وقال إنه سوف يفكر فى هذا الموضوع. وبعد بضعة أيام، تحاشى القنصل أى اتصال أو لقاء بى، وظل فى عزلة كاملة كأن بوادر الطاعون أخذت فى الظهور فى شوارع القاهرة.

وصل الباشا الآن إلى شبرا يصحبه كبار خبراء الهيدروليكا. وجهزت الماكينة لتشغيلها، ورغم إنشائها بخشب وحديد من نوعية رديئة وعلى يد مجموعة من النجارين والعمال العرب، كان السؤال المطروح هو قدرة الماكينة على سحب ستة أو سبعة أضعاف ما تسحبه الماكينات العادية من الماء. وأصدر الباشا قراره بعد تفكير طويل فأعلن أن الماكينة تسحب فقط أربعة أضعاف الماكينة العادية. من الأمور التى يجب ملاحظتها أن الماء الذى تصدره هذه الماكينة قِيسَ بالمقارنة بالماء الذى نحصل عليه من عمل ستة ثيران على الماكينات الخاصة بهم، وكان العرب أثناء وقت القياس يجهدون

حيواناتهم إجهاداً عظيماً حتى لا تستطيع أن تستمر فى بذل مجهود العمل على الماكينة لأكثر من ساعة، وأنتجت هذه الحيوانات فى الوقت الحالى حوالى ضعف كمية المياه التى نحصل عليها عادةً. ورغم كل هذا، جاءت حسابات الباشا لصالحى لأنه قرر على أساسها أن أمضى فى مهمتى. وما زال محمد على مدركًا بوضوح مدى التعصب الذى اتسم به العرب وبعض الأتراك المهتمين بزراعة الأرض، فبدلاً من تشغيل أربعمائة رجل وأربعمائة ثور لن يحتاجوا إلا إلى تشغيل مائة رجل ومائة ثور مما يؤثر بشكل كبير على أرباحهم، لكن اتفق أن وقعت حادثة أنهت جميع مخاوفهم.

سنحت للباشا فكرة فصل الثيران عن العجلة حتى يرى على سبيل الهزل ما سيحدث للماكينة إذا ربط بها خمسة عشر رجلاً. ودخل الغلام جيمس، ذلك الفتى الأيرلندى الذى يعمل فى خدمتى، بين هؤلاء الرجال، لكن ما أن أديرت العجلة مرة واحدة حتى قفز الرجال كلهم منها تاركين الفتى وحده فيها. ودارت العجلة التى فقدت توازنها طبعًا بسبب وزن الماء إلى الوراء بسرعة رهيبة حالت دون أن يوقفها الماسك. ولُفِظَ الفتى خارجها، وأدت هذه السقطة إلى كسر أحد فخذيه. تمكنت من إيقاف الماكينة قبل أن تصيب أحداً آخر إصابة قد تُفْضى به إلى الموت. ويعتقد الأتراك أن حدوث مثل تلك الحوادث عند بدء استهلال أى اختراع جديد إنما هو نذير شؤم؛ وكان من نتيجة ذلك ناهيك عن التعصب ضد الماكينة نفسها العمل على إقناع الباشا بنبذ الموضوع، ومما ذُكِرَ أيضًا أن تركيبها وصنعها يكلف أربعة أضعاف تكلفة الماكينة العادية فى حين لم يُذْكَر أى شىء عن مزاياها كالثيران التى سنوفر جهدها فى العمل على الماكينات العادية. وانتهى الموضوع على هذا، وآل كل ما كنت سأحصل عليه من الباشا إلى النسيان هذا بالإضافة إلى التعاقد الذى كان بيننا.

شعرت بأن الألم يعتصرنى وأنا أتأمل فكرة رحيلى عن بلد كان دومًا واحداً من منارات العلم والبحث الرئيسة بين العالم المتحضر. وأشعلت شهرة آثار هذا البلد داخلى الرغبة فى البحث، لكن وفى ظل الظروف التى ذكرتها، لم يكن معى من المال ما يغطى تكاليف أى رحلة لبلد تفصله عنًا مسافة كبيرة، ونظرًا لوجود زوجتى معى فإن الأمر بحاجة إلى التروى قبل أن أستطيع أن أقرر إن كنت سأشد الرحال إلى الشمال أم الجنوب.

كان لزامًا علىَّ أن أزور القنصل العام، لكن لم يذكر أحد أى شىء جديد بخصوص رأس التمثال، لذا بدا لى أن مشروع نقله آل إلى النسيان. بعد أن فكرت فى كل الأمور وأجريت حسابًا مضبوطًا لمصاريفي، وجدت أنه من باب الاقتصاد قيامى برحلة نيلية حتى أسوان ثم العودة مرة أخرى.

من خلال الظروف والحوادث التى تلت هذا، يمكن للقارئ أن يُكَوِّن فكرة صحيحة عن دوافعى التى شجعتنى على تَوَلِّى مشروع نقل تمثال ممنون النصفى الذى يوجد الآن فى المتحف البريطانى، ومن أجل هذه الدوافع أجريت أبحاثى وجمعت هذه المجموعة المتنوعة من الآثار التى سأُفْرِدُ لها مكانًا فى هذا الكتاب. ولا يستدعى المقام هنا أن أتطرق إلى التفاصيل إلا ما يتطلب بسط الأدلة عما ذكرت من حقائق للآخرين، ذلك إننى على ثقة أن مجرد إشارة بسيطة عما نحن بصدده سيجعل القارئ على دراية تامة بما نقول.

من الأخبار المغلوطة ما قيل عن عملى المنتظم مع مستر سولت القنصل العام لصاحب الجلالة البريطانية فى مصر بهدف نقل التمثال النصفى من طيبة إلى الإسكندرية. فأنا أنفى وبشدة أى اتصال بهذا الموضوع عن طريقه بأى شكل سواء كان هذا شفاهًا أو خطيًا، وهذا لأن فى حوزتى أدلة تثبت عكس ما قيل. عندما ارتحلت جنوبًا فى النيل للمرة الأولى والثانية لم تَجُلْ فى خاطرى أية فكرة سوى قيامى بأعمال البحث عن الآثار التى لابد من وضعها فى المتحف البريطانى، ولابد لى أن افترض أننى ما كنت لأقوم بكل هذه المجهودات لولا علمى المسبق بأن كل ما سأعثر عليه سيعود بالنفع على رجل لم يسعدنى الحظ بلقائه من قبل فى حياتى. لكنَّ ما ساءنى فوق كل هذا أنه وأثناء انشغالى فى أعمال البحث الخاصة بى، حدث أمر وشاع مفهوم ما على العكس تمامًا من حقيقة الأمر، وأستميحكم العذر فى عدم السكوت عن هذا الموضوع، فأنا أشعر أن من واجبى حيال نفسى والجمهور أن أدعَ الحقيقة تخرج للنور. لكن من دواعى سعادتى أن أقول إننى نجحت فى نقل كل القطع الأثرية التى عثرت عليها إلى المتحف البريطانى، رغم أن ذلك لم يكن بنفس الطريقة التى ظننت فى البداية أنها دخلت بها ذلك المكان كما هو الحال مع رأس ممنون الصغير.

توصلت فى النهاية إلى قرار بشأن ارتحالى شمالاً أو جنوبياً فى النيل. ولا أعرف ماذا أسمى هذا الشعور، أهو الفضول أم شىء من الحماس تجاه الآثار يمكن أن أرجعه لأيام شبابى التى قضيتها فى روما هو الذى دفعنى لأن أقرر الارتحال إلى جنوب النيل.

وبناء على القرار الذى اتخذته، أجرت قارباً بسعر زهيد للغاية عليه أربعة بحارة وغلام وريس أو ربان المركب. وأعددت الطعام للرحلة النيلية، وها هو كل شىء جاهزٌ لرحلتنا. يمكن لأى أحد أن يتجه جنوبياً فى النيل دون أن يعترض طريقه أحد، لكن من الأفضل أن تحصل على فرمان من الباشا فى حالة الحاجة للحماية من أى من البكوات أو الكُشَّاف أو القائمقمات فى صعيد مصر، وكان محمد على دائمًا على استعداد لإصدار أى فرمان لكل من يطلبه منه. وأفضيت بنيتى فى الرحيل إلى مستر بيركهارت الذى بدا فى غاية الإحباط حينما علم بعدم التعرض لشىء بخصوص نقل رأس التمثال. كان من الممكن أن أتقدم بطلب إلى القنصل النمساوى للحصول على فرمان من الباشا لأننى مواطن من هذا الجزء من إيطاليا الذى وقع مؤخراً تحت السيطرة النمساوية، لكن ونظراً لتمتعى بالحماية البريطانية فقد تقدمت بالطلب إلى القنصل البريطانى. وذهبت إلى منزل القنصل لهذا الغرض، فوجدت مستر بيركهارت هناك، ويبدو أنه أقنع القنصل بأن يغتنم فرصة ارتحالى إلى جنوب النيل حينما عرض أن يتحمل نصف تكاليف الرحلة. وبناء على ذلك، عندما أخبرت القنصل بنيتى فى القيام بالرحلة، وأننى جئت لأطلب منه أنْ يُسْدِىَ إلىَّ صنيعًا بأن يساعدنى فى الحصول على فرمان من الباشا، ما كان منه إلا أن صاح معبراً عن فرحته قائلاً: "هذه نعمة من نعم الله!" وأخبرانى بعدها أنهما عقدا النية على إصدار الأوامر بنقل التمثال شمالاً عبر النيل وتقديمه كهدية إلى المتحف البريطانى إذا تكرمت أنا بتولى مهمة نقله. فأجبت بأن إمكاناتى ضعيفة، لكننى سأبذل كل المساعى للنجاح فى هذا المشروع، كما إنه من دواعى سرورى الدائم أن أزيد مقتنيات المتحف البريطانى من نتاج مجهوداتى فى البحث والتنقيب. فردَّ القنصل الإنجليزى قائلاً : "إن من دواعى سرورى أنا أيضًا أن أقوم بأى شىء فى إمكانى لتحقيق ما تتمنى". وكان هذا كل ما دار بيننا يومئذٍ.

نظرًا لعدم معرفتى بجنوب البلاد، فقد تلقيت تعليمات بخصوص الوسيلة التى يتعين علىَّ أن أسلكها للحصول على المعلومات وكذا الأدوات الخاصة بالهدف المنشود. وكانت التعليمات كما يلى :

بولاق، ٢٨ من يونيو عام ١٨١٦ .

"يتعين على مستر بلزونى تجهيز الأدوات اللازمة فى بولاق بغرض رفع رأس تمثال ممنون الصغير والانتقال به شمالاً عبر النيل. وسوف يمضى قدمًا بأسرع ما تسمح به الظروف إلى أسيوط لتسليم خطاباته المعدة لهذا الغرض إلى إبراهيم باشا أو أى مسئول من الحكومة، وسيرجع فى ذلك المكان إلى الدكتور سكوتو Doctor Scotto بشأن تحركاته المقبلة، كما سيتولى مسئولية الحصول على "قارب مناسب" لنقل رأس التمثال شمالاً، وسيطلب من مستر سكوتو أن يمده بأحد العساكر حتى يصحبه بغرض إحضار الفلاحين للعمل متى تتطلب وجودهم للمساعدة، إذ أن الاحتمال الأكبر أنهم لن يلتزموا بما يصدره مستر بلزونى من أوامر دون وجود هذا الجندى، وليس لمستر بلزونى أن يغادر أسيوط لأى سبب دون ترجمان.

بعد الحصول على التصريح اللازم لتأجير العمال والأفراد وما إليهم، فإن مستر بلزونى عليه أن يمضى قدمًا نحو طيبة، هناك سوف يجد الرأس المذكورة على الضفة الغربية من النهر على الجانب المقابل للكرنك بجوار قرية تدعى القُرْنَة، وتقع الرأس عند الجانب الجنوبى من معبد متهدم يسميه أهل البلد قصر الدكاكى. لا يزال جزء من الكتفين متصلاً بالرأس، وتتميز القطعة الأثرية من ثمَّ بضخامة أبعادها إذ يمكن التعرف عليها من خلال: أولاً، وجود التمثال ملقىً على ظهره مع تطلع الوجه إلى أعلى مباشرةً. ثانيًا، الوجه بحالة ممتازة بالإضافة إلى روعة منظره

وجماله. ثالثًا، وجود حفرة فى أحد كتفيه بفعل فاعل يفترض أن الفرنسيين كانوا وراء ذلك لفصل هذا الجزء من الجسم. رابعًا، لأنه منحوت من الجرانيت الأسود والأحمر المخلوط، وتغطى النقوش الهيروغليفية كتفيه. ولا مجال للخلط بين هذا الرأس وقطعة أثرية أخرى ترقد إلى جوارها إلا أنها "أكثر منها تاكلاً".

لن يدخر مستر بلزونى وسعًا وسيبذل المال والجهد لإخراج هذه الرأس بأسرع ما يمكن ونقلها إلى ضفاف النهر، وسيعمل - إذا دعت الضرورة - على أن تظل هناك حتى يرتفع مستوى النهر بما يكفى قبل أن يحاول أن يرفعها إلى القارب. لكن وفى الوقت نفسه عليه ألا يحاول تحريك الرأس من مكانها مهما كانت الأسباب إذا رأى وجود خطورة حقيقية على الرأس كأن تصاب بأية إصابة أو أن تبتلع الوجه الرمال أو أن تغرق فى النيل.

فى حالة اكتشافه عند وصوله إلى الأرض أيضًا أن أدواته غير صالحة أو الصعوبات الناجمة عن طبيعة الأرض أو غيرها من العوامل أشد من أن يتغلب عليها، فإن عليه أن يترك المشروع على الفور، ولا ينفق أية مصاريف إضافية فى هذا الصدد.

يلتزم مستر بلزونى مشكورًا بعمل كشف حساب مستقل بالتكاليف التى تكبدها فى هذه العملية والتى يسعدنا بأن تصرف له إلى جانب مصاريفه الأخرى، ومما نعرفه عن شخصية مستر بلزونى فإننا واثقون بأن هذه التكاليف ستكون معقولة بحسب ما تسمح الظروف.

لابد من تأجير القارب الذى سيحمل الرأس لمدة من الوقت تكفى لنقله مباشرةً إلى الإسكندرية فى الشمال، لكن وفى أثناء الطريق لن يرفض مستر بلزونى النزول فى بولاق لتلقى المزيد من التعليمات.

إذا أكد مستر بلزونى لنا يقينًا مقدرته على تنفيذ هـدفه، فعليه أن يرسل خطابًا بالبريد السريع بهذا الخبر السار إلى القاهرة على الفور".

"هنرى سولت"

واستأذن القارئ فى أن ألفت النظر أنه لم تُذْكر كلمة واحدة فى كل هذه التعليمات - رغم أنها كتبت بأسلوبٍ متغطرس - تفيد حصولى على أى مقابل مادى، وهو ما كان سيحدث بلا شك لو أوكل إلىَّ هذا العمل بالشكل الذى صوَّره البعض.

كل شىء كان جاهزًا فى القارب للانطلاق فى رحلتنا من بولاق. ولم يكن معنا من أدوات لنستخدمها فى التشغيل سوى بضعة عيدان وحبال مصنوعة من سعف النخيل، فهذه هى الأدوات الوحيدة التى يمكن الحصول عليها فى هذا المكان فى ذلك الوقت. ولما رأى القنصل مدى السعادة والبهجة التى شعرت بها أثناء اضطلاعى بهذه المهمة أو المشروع، شرفنى القنصل بأن طلب منى المزيد وهو أن أشترى ما أستطيع شراءه من قطع أثرية أثناء الطريق. واستجبت لمطالبه، ومن أجل ذلك أمدنى بالمال بالإضافة إلى المال الذى أمدنى به لنقل رأس التمثال. غادرنا بولاق فى يوم الثلاثين من يونيو، ولما أصرت زوجتى أن تصاحبنى، أخذنا معنا الغلام الأيرلندى، وترجمانًا قبطيًا كان يعمل فى الجيش الفرنسى.

كانت أول مبانٍ أثرية نصل عندها تلك الآثار الخاصة بالشيخ عبادة أو معابد أنطونيو القديمة، ذلك أننى سأهمل الحديث عن الأهرام فى الوقت الحالى. وحتى لا أقلل من قيمة أعمال أدريان Adrian ، فإن تلك الآثار لم تُثِرْ فى نفسى أى شعور بالانبهار على الإطلاق، فليس هناك سوى بضعة أعمدة قائمة فى الوقت الذى يُرى الكثير منها ساقطًا على الأرض، حتى الأعمدة الجرانيتية مأخوذة كما هو واضح من مبانٍ أثرية أكثر قدمًا. رسمت اسكتشًا لأحد هذه الأعمدة القائمة لا لشىء سوى أن أعطى فكرة عن النظام وما إليه من أمور (انظر اللوحة رقم ٣٢)، وعبرنا فى اليوم نفسه إلى أشمونين. وهذا أول نموذج من نماذج العمارة المصرية القديمة يقابله السياح على ضفاف النيل

بعد الأهرامات، ولابد أن أعترف أن هذا المبنى الأثرى كان له عظيم الأثر فى نفسى رغم أنه مجرد رواق مكونٌ من صفين من الأعمدة. فالمكان الفسيح الخالى الذى يقع فيه الرواق وسط آثار هيرمبوليس(١٠) Hermopolis ، والمنظر الذى يثير فى النفس العظمة والفخامة بما لم تعتد عليه أعين أى أوروبى، كل هذا لا يمكن أن يثير فينا سوى مشاعر الإجلال والقداسة نحو أولئك الذين أقاموا مثل تلك الصروح الأثرية. ويبدو لى أن تلك الآثار ترجع إلى فترة زمنية أبعد من الآثار الموجودة فى طيبة، وهذا لا يتفق مع الرأى القائل بأن المعابد فى طيبة الشمالية تنتمى لفترة تاريخية أحدث من تلك المعابد الموجودة فى صعيد مصر. وأنا أرى من خلال ما شاهدته من مقابر فى تلك الجبال أن أناسًا عظامًا أقاموا بهيرمبوليس، فلا شىء أدل على حالة المصريين القدماء أكثر من نوعية المقابر التى كانوا يدفنون فيها.

وفى مساء يوم الخامس من الشهر وصلنا إلى منفلوط حيث قابلنا إبراهيم باشا والى الصعيد وابن محمد على وهو فى طريقه إلى القاهرة. وعرضت عليه الخطابات، فطلب منى بكل لطف أن أسلمها للدفتردار الذى تقلد ولاية أسيوط. وكان معه - أى مع إبراهيم باشا - مستر دروتى Drouetti القنصل العام السابق لحكومة فرنسا السابقة. كان مستر دروتى فى طريق عودته من طيبة، وهو رجل اعتاد جمع القطع الأثرية أثناء السنوات الطويلة التى قضاها فى مصر، وبلغه خبر أننى أعتزم نقل التمثال النصفى الضخم، وأخبرنى أن العرب لن يعملوا فى طيبة لأنه جرب التعامل معهم، وبعدها أعطانى هدية عبارة عن غطاء جرانيتى لأحد التوابيت التى اكتشفها العرب فى إحدى المقابر.

(١٠) هيرموبوليس Hermopolis كانت هرموبوليس القديمة مدينة فى مصر الوسطى، تقع على بعد حوالى ٣٠٠ كم جنوبى القاهرة، وعلى مسافة قصيرة من الضفة الغربية للنيل. وتسمى هذه المدينة باسم شمون أو الأشمونين، واسمها يعنى "الثمانية" ففيها التل القديم الذى ظهرت فوقه المعالم الأولى للحياة والكائنات التى ظهرت فى البداية: الليل والظلام والاختفاء والذبذبة وغير ذلك وعددها ثمانية. ولم يبق من هذه المدينة سوى خرائب متناثرة بين النخيل والبرك بحيث لا يمكن تمييز معابد تحوت والآلهة الثمانية الأصلية المكونة للثامون إلا بصعوبة. وعلى بعد ثمانية أميال شرقًا وراء بحر يوسف، تبدأ الصحراء وجبانة تونة الجبل. [المترجم نقلاً عن معجم الحضارة المصرية القديمة - ط ٢ - الهيئة العامة المصرية للكتاب - ١٩٩٦، ص ٣٤٧].

وقال إنه شغل الكثير منهم لأيام عدة ليستخرجوا له التابوت، لكنهم لم ينجحوا في ذلك، فلو استطعت أنا إخراجه، فسوف يرحب هو بهذا. وشكرته على هديته ومضيت قدمًا في رحلتي النيلية.

وصلنا إلى أسيوط في اليوم السادس من الشهر بعد الظهيرة، ولم يكن الدفتردار هناك، وإن كان متوقعًا أن يصل خلال يومين أو ثلاثة أيام. وانتظرت مستر سكوتو Mr. Scotto طبيب إبراهيم باشا الذي طُلِبَ مني الرجوع إليه للحصول على معلومات بخصوص المراكب والنجارين وما إلى ذلك. ولم يرَ هذا الشخص في حياته مستر سولت الذي طلب مني الرجوع إليه. إلا أنه سلك نحوي سلوكًا طيبًا بالمقارنة بمستر بانكس عندما ذهبت إليه، لكن عندما تطرقنا لموضوع نقل التمثال النصفي، بدأ وبالتدريج التمهيد للموضوع ثم وضع أمامنا الكثير من الصعوبات، أولاً بخصوص الحصول على تصريح لإمدادنا باللازم من العمال، ثم بعد ذلك عدم وجود أية مراكب يمكن الحصول عليها، هذا بالإضافة إلى اعتبار التمثال كتلة من الحجر لا تساوي عناء نقلها من مكان لآخر، وأخيرًا نصحني وبكل صراحة بألا أتدخل في هذا الشأن لما قد يترتب عليه من مواجهة أمور غير مرغوب فيها ومكابدة الكثير من العقبات. ورأيت أنني لن أنال من هذا المكان إلا قليلاً من العون، لذا قررت أن أحصل على ما أريده من خلال ترجماني وبضع كلمات من عندي. وتمكنت من الحصول على نجار يوناني وافق على اللحاق بنا إلى طيبة، وفي اليوم السادس وصل البك الذي استقبلني بكل لطف ودماثة أخلاق، وسلمته الخطاب الذي حصل عليه مستر سولت من محمد على نفسه، وأمدني البك بفرمانات لكشفة مديرية أو إقليم إرمنت الذي يخضع له فلاحو طيبة.

وفي أثناء فترة انتظاري للبك زرت مقابر العيساوية Issus ، ولم يكن بها سوى مقبرتين تستحقان الإشارة إليهما، وتتسم هاتان المقبرتان بأنهما متهدمتان للغاية من الداخل لدرجة أنه لم يبقَ منهما تقريبًا أية تماثيل أو رسومات، أما سائر المقابر فهي حفر صغيرة للطبقة الدنيا من الشعب. أسيوط هي عاصمة الصعيد أو مصر العليا، وتتميز المدينة بالتجارة التي تغذيها دائمًا القوافل القادمة من دارفور. أما السلع الرئيسية التي تباع في السوق فهي العبيد من السود والريش وأسنان الفيل أو العاج والصمغ (العربي).

ودائمًا ما يكون والى الصعيد أول من ينتقى ما يشاء من القوافل، وهو الذى يحدد السعر لما يريده، ويدفع ما شاء أن يدفع. أما باقى السلع فهى للتجار الذين لا يجرءون على شراء أى شىء حتى يختار الوالى ما يريد أولاً.

ويشتهر هذا المكان بتحويل الصبية إلى خصيان (طواشيةً)، وما أن تتم العملية حتى يدفن الصبية فى الأرض عدا الرأس والكتفين، ويموت الكثير من الفتيان نوى البنية الضعيفة من جراء الألم الرهيب. وثبت بالإحصاء أن إجراء تلك العملية أو ما بعدها من آثار تؤدى إلى وفاة اثنين من ثلاثة تجرى لهم هذه العملية.

إلى جانب المنتجات الشائعة التى تنتجها البلدة وهى القمح والفول والكتان والحبوب، فإنها تشتهر بإنتاج أعداد كبيرة من الشموع، ومنها يجرى إمداد القاهرة بهذه السلعة. أصبح إبراهيم باشا فيما بعد مصدر الرعب والإرهاب للشعب. فإذا مَثَلَ أمامه أحد المتهمين البؤساء، فإنه يرسله بعد أن يسأله بضع أسئلة إلى القاضى[11] لإصدار الحكم. وكانت هذه علامة أو إشارة لأخذه إلى مدفعٍ معين حيث يقيد إلى فوهته، ثم يأمر فيُضْرَب المدفع المحشو بقنبلة حتى تتناثر أشلاء الجثة على مسافة هائلة. وفى قضية الرجلين العربيين اللذين قتلا جنديًا - ليس دون استفزاز منه - أمر هذا الباشا بربطهما إلى عصا كأرنبين على سيخ من أسياخ الشواء وشواهما أحياءً على نار هادئة. وهذا الرجل الآن ولىُّ عهد الحكومة أو الدولة المصرية بعد وفاة محمد على.

وأثناء تقدمنا نحو أخميم رأينا فى قاو[12] Gow أعمدة المعابد التى سقطت كلها فى النهر عدا عمودًا واحدًا. وشاهدت هناك أكبر عمود رأيته من قبل فى حياتى، ويصل

(١١) شيخ عربى يحكم غالبًا فى القضايا الصغيرة. [المؤلف]

(١٢) قاو : ذكرها أميلينو فى جغرافيته ص ١٥٠ وقال إنها تقع بين هو ودندرة ويقال لها قاو الخراب وهى غير قاو الكبرى الواقعة شرقى النيل. ووردت فى تحفة الإرشاد من أعمال القوصية. وبالبحث عن قاو التى كانت واقعة على الشاطئ الغربى للنيل بين هو ودندرة تبين أنها كانت واقعة جنوبى إسنا وقد اندثرت من قديم ويدل على مكانها حوض قاو رقم ١٥ بأراضى ناحية العضايمة بمركز إسنا بمديرية قنا؛ أما قاو الكبرى فقد ورد فى معجم البلدان أنها قرية بالصعيد شرقى النيل وفى التحفة باسم قاو الخراب من أعمال الأسيوطية واسمها القديم "توكو" وبالرومية "أنطونيوبوليس"، وقاو كلمة قبطية معناها الجبل، =

ارتفاع هذا العمود قرابة ١٢ قدمًا، لكنه غير مكتمل أو غير متقنٍ من حيث الصنعة. فالمعبد يتميز بالاتساع والرحابة، لكنه لم يكن الأفضل من حيث البراعة في العمل.

وفي اليوم التالي، أي يوم الخامس عشر، ذهبنا إلى أكمين Acmin لزيارة رهبان هذا الدير. وليس في هذا المكان ما يثير النفس سوى بعض السلالم هي ما تبقى من معبد قديم. وأخبرني أحد الآباء بأن هناك بحيرة صغيرة تقع على مسافة بعيدة إلى حد ما في الجبل زارها بنفسه وهي محاطة بالكلية بأشجار الطَّلْح. وجدنا بين أكوام التراب في المدينة القليل من القطع الأثرية الصغيرة التي لا أهمية تذكر لها. وأخذني الآباء لأرى الكاشف أو حاكم البلدة الذي ما إن سمع أنني أبحث عن الآثار حتى قال إنه يعرف جيدًا الكثير من الأماكن في البلدة لطالما أخبره الفلاحون أنهم عثروا فيها على آثار. واستفسرت منه عن مكان هذه الآثار، فقال ردًا على استفساري: "لا! لا تقدر أن تأخذها، فكل هذه الآثار بها مس من الشيطان، ولا أحد يقدر أن يأخذها من مكانها!" فأخبرته بأنه لو دلَّني على مكانها فحسب، فإنني سأتولى ترتيب الأمر من الناحية الأخرى، فقال: "هذا حسنٌ جدًا، لكن لا أحد هنا يجرؤ على أن يخبرك بهذا خوفًا من أن يؤذيهم الشيطان". ثُمَّ أخبرني بعدها أن هناك في الجبال وعلى بعد ستة أميال تقريبًا حلقة كبيرة من الذهب محفورة في الصخور لا يستطيع أحد أن يستخرجها لدرجة أن عددًا من جنوده ذهبوا إلى هذه المكان ومعهم مدفع وبعد أن أطلقوا عدة قنابل عليها، عادوا ولم يحالفهم التوفيق، واتفق أن مرَّ رجل يأكل ثمرة خيار وألقى بعضًا منها على الحلقة الذهبية، فإذا بها تسقط من فورها على الأرض، وهذا يعني أنها كانت مثبتة بشيء من السحر هناك، ولا شيء جعلها تسقط سوى قشرة الخيار. كان هذا ما سمعته من حاكم إقليم! فأي نوع من البلاد هذا الذي يسمح لرجل له مثل هذا العقل الراجح أن يتولى فيها مقاليد الحكم!

= وتعرف آثارها بكوم قاو الخراب. وسميت عام ١٢٨٢ هـ بالعتمانية وهي إحدى نواحي مركز البداري بمديرية أسيوط. [المترجم نقلاً عن القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ – محمد رمزي – القسم الأول – مطبعة دار الكتب المصرية – ١٩٤٥، ص ٢٤]

وفى يوم السادس عشر مررنا أمام المنشية، ووصلنا إلى جرجا[١٣] Georgia ، وهناك اشترينا بعض الطعام، واستأنفنا رحلتنا فى النيل. ومن هذا المكان زرت العرابة أو مدينة أبيدوس[١٤] القديمة بعد هذا بعامين، وهذا ما سأتناوله فى الكتاب عندما تتاح الفرصة المناسبة.

يضيق مجرى النيل بالقرب من قصر السجات Cossar el Sajats ، وينخفض مستوى الماء. وتشتد الرياح هنا لدرجة أننا بذلنا مجهودًا مهولاً للإبحار ضد التيار، بل وبدون قلوع أو أشرعة، أو كما يقول النوتية أو البحارة "الإبحار بدون قلوع أو أشرعة".

وصلنا إلى دندرة فى ليل يوم الثامن عشر من الشهر حيث شاهدت ظاهرة لم أسمع بها من قبل، إذ ظهر فوق رؤوسنا شهاب اتخذ مساره نحو الجنوب ببطء شديد ظل معه ظاهرًا للعيان - وفقًا لما أرجحه من حساب - لقرابة عشرين ثانية منذ لحظة انطلاقه وحتى لحظة تلاشيه. وبدا الشهاب أولاً بلون مائلٍ إلى الزرقة، ثم تحول إلى اللون الأبيض، وأخيرًا صار أحمر مخلفًا وراءه كما يظهر للرائى وميضًا كثيرًا فى المسار الذى اتخذه.

وفى الصباح الباكر من يوم التاسع عشر، بلغ الفضول منى مبلغه؛ فالشىء الوحيد الذى أفكر فيه الآن هو معبد دندرة الشهير. وبناء على ذلك انطلقنا على الحمير كالمعتاد ومضينا قدمًا وسط الأنقاض. ولما اقتربنا من المعبد، لم نتمكن إلا من رؤية

(١٣) من الطريف فعلاً أن بلزونى أورد فى الأصل اسم مدينة جرجا المصرية على أنه جورجيا! الأرجح أنه "تَرْجَمَ" اسم المدينة باعتبار أن أصل الاسم يرجع إلى القديس جرجس أو القديس جورج St. George بالإنجليزية. لكن الغريب فى هذا الصدد هو الدافع الذى دفع شخصًا كبلزونى لترجمة الاسم بهذه الطريقة الطريفة.. أهو نوع من إظهار المهارة المعرفية وتفوقه على أقرانه من الرحالة الأوروبيين وغير الأوروبيين، أم هو نوع من "التنوير" لجمهور القراء من الأوروبيين (الموجه إليهم الكتاب بصفة أساسية) عن تاريخ هذا البلد وأصول أسماء المدن فيه، أم تراه لونًا من ألوان المزاح والسخرية؟ [المترجم]

(١٤) أبيدوس Abydos : مدينة قديمة غرب النيل قريبة من البلينة الحالية فى صعيد مصر. كانت المركز الرئيسى لعبادة أوزوريس رب الموتى وسيد العالم الآخر [المترجم].

بعضٍ منه نظراً لأنه محاطٌ بأكوام هائلة من أنقاض دندرة القديمة. وعند وصولنا أمام المعبد، شعرت بالحيرة لبعض الوقت إزاء المكان الذى سأبدأ منه عملية البحث والتنقيب. فهذه الأشياء المتعددة أمامى المتساوية فى درجة روعتها وجاذبيتها جعلتنى أقف هنيهةً فى حالة من الحيرة والعَجَب. وتتميز الكتل الضخمة من الأحجار المستخدمة فى بناء المعبد بالتناسق حتى أن العين لترى أقصى درجات الملاءمة والتجانس فى كل مكان. وكان الجلال والعظمة التى يتسم بها هيكل المعبد، وتنوع زخارفه، وفوق كل شىء تفرده وتميزه من حيث الحالة التى وجدناه عليها، كل هذا كان له أعظم الأثر علىَّ حتى أننى جلست على الأرض وظللت لمدة طويلة من الزمن تائهًا فى ملكوت من الإعجاب.

وهذا المعبد أول معبد مصرى قديم يراه الرحالة عند ركوبه النيل جنوبًا، وهو ولاشك أكثر هذه المعابد عظمة وأهمية. ولهذا المعبد مزايا تفضله عن كثير غيره بدءًا بحالته الجيدة التى هو عليها، ولن أتردد فى القول بأن هذا المعبد يرجع لفترة تاريخية متأخرة للغاية بالنسبة لغيره من المعابد. وتعطينا عظمة العمارة وجلالها وتميزها سببًا كافيًا لأن نعتقد بأن هذا المعبد يعود إلى عهد بطليموس الأول، وليس من المستبعد أن هذا الملك الذى أرسى قواعد مكتبة الإسكندرية، وأسس جمعية المتحف الفلسفية، وتفوق فى دروب الفنون والعلوم حتى يحظى بحب الشعب وتقديره، يمكن أن يشيد هذا المعبد الأثرى حتى يقنع قدماء المصريين برجاحة عقله وتفوقه فى الذكاء على ملوك مصر القدماء حتى فى التقوى والورع الدينى.

إننا أمام مستودع الفنون المصرية القديمة، ونتاج البحث والدراسة لعدة قرون من السنين، وهنا ظن دينون Denon نفسه واقفًا فى محراب الفنون والعلوم. وتزدان واجهة المعبد بكورنيش رائع الجمال، وإفريز تغطيه الرسوم والنقوش الهيروغليفية، وتبرز فى المنتصف الكرة المجنحة، ويتزين الجانبان بمقصورات من الأضاحى والقرابين. يبلغ عدد الأعمدة التى تشكل البهو المُعَمَّد أربعة وعشرين عمودًا مقسمة إلى أربعة صفوف تشمل تلك الأعمدة الموجودة فى الواجهة. وبمجرد دخولك من البوابة يتغير المنظر الذى يتطلب قدرًا أكبر من الدقة لتناوله بالوصف. فأول ما يقع عليه ناظرك الشكل رباعى الزوايا لقواعد الأعمدة، ويوجد على كل جانب من جوانب المربع رأس لتمثال الإلهة

إيزيس له أذنا بقرة. ولا توجد من بين تلك الرؤوس ما لم تمسه عوامل التآكل ولاسيما الرؤوس الموجودة على الأعمدة عند واجهة المعبد المواجهة للخارج. لكن ورغم هذا العيب، وسطحية شكلها، فإن بساطة فى ملامحها تكاد تقترب من ابتسامة. وتغطى الرسوم والنقوش الهيروغليفية البارزة جسم الأعمدة كما هو الحال مع كل الرسومات التى تغطى الجدران الأمامية والخلفية. وتزدان واجهة المدخل التى تتصل بخط مستقيم بين المدخل والمحراب بكثير من الرسومات أصغر حجمًا من سائر بهو الأعمدة. ويضم السقف دائرة الأبراج التى تحيط بها صورتان لامرأتين طويلتى القامة تنتشران من جانب إلى الجانب الآخر. وتنقسم الجدران أقسامًا أو أجزاء متعددة مربعة الشكل، يضم كل منها رسوماتٍ تمثل آلهة وكهنة يقومون بذبح الأضاحى أو تقديم القرابين. وليس هناك من فراغ يزيد عن قدمين على كل الجدران أو الأعمدة أو الأسقف أو المساند المعمارية[١٥] architraves إلا يغطيه شيء من الأشكال الآدمية أو صور الحيوانات أو النباتات أو أشكال ترمز إلى الزراعة أو الطقوس الدينية. وأينما اتجهت بناظريك، واستقر انتباهك، ألفيت كل شيء يشيع الوقار والقداسة فى النفس، ويزيد منها الموقع المتفرد والمتميز لهذا المعبد الذى يضفى مسحة من جمال وجاذبية على تلك الآثار الفخمة الرائعة. تشبه الحجرات الداخلية بهو الأعمدة فى أنها مغطاة بالكامل بالصور والرسومات المنقوشة بالنقش البارز ويدخلها الضوء من خلال فتحات صغيرة فى الجدران، أما المحراب نفسه فهو مظلم تمامًا. وجدت عند أحد أركان المحراب بابًا يؤدى إلى السطح عن طريق دَرَج تغطى جانبيه أيضًا رسوم منقوشة بالنقش البارز. وشيد العرب قرية فوق قمة المعبد حتى تكون فى اعتقادى أعلى مكانًا وأكثر عرضة للهواء النقى، لكنها أصبحت كومة من الأنقاض لا يسكن فيها أحد الآن. ومن قمة المعبد هبطت إلى بعض الحجرات التى تقع على كلا جانبى المعبد، وهناك رأيت دائرة الأبراج الشهيرة على السقف. وقادنى الشكل الدائرى لدائرة الأبراج هذه للاعتقاد بأن هذا المعبد بُنِيَ – بشكل من الأشكال – فى فترة متأخرة عن غيره من المعابد،

(١٥) تسمى أيضًا السَّاكفات ويستند عليها الإفريز والطُّنُف. [المراجع نقلاً عن معجم مصطلحات الفنون لعفيف البهنسى – دمشق – مجمع اللغة العربية].

لأننا لم نرَ شيئًا شبيهًا به فى أى مكان آخر. ويقابلنا مدخل كبير عند واجهة المعبد لا يقل روعة عن باقى أجزاء المعبد، ولا يزال المدخل محتفظًا بمسحة من جلاله وفخامته القديمة رغم انهيار جزء منه. ويقع أحد المعابد الصغيرة المحاطة بالأعمدة جهة اليسار إذا ذهبنا من ناحية بهو الأعمدة. ويظهر داخل هذا المعبد الصغير تمثال لإيزيس جالسة وعلى حِجْرِها حورس، وكذا تماثيل أخرى لنساء كل منهن تمسك طفلاً بين ذراعيها. وتزدان قواعد الأعمدة بتماثيل لتيفون(١٦) Typhon . وتملأ القمامة أو أكوام الأنقاض الرواق أو بهو الأعمدة الذى يحيط بالمعبد حتى وصلت إلى ارتفاع عظيم، وبُنِيَت جدران من الطوب غير المحروق من هذا العمود أو ذاك. وتجد إذا مضيت قدمًا فى خط مستقيم مع المدخل الكبير أنقاض معبد غير مسقوف اتخذت شكل مربعٍ مكونٍ من اثنا عشر عمودًا تتصل ببعضها البعض عن طريق حائط باستثناء المدخل الذى يواجه المدخل الكبير. وتزين الجدار الشرقى من المعبد الكبير الكثير من الرسومات المنقوشة ببراعة بالنقش الغائر. يصل طول الصور والرسومات التى تمثل النساء حوالى أربعة أقدام تجدها فى مختلف المقصورات والحجرات. ويقع وراء المعبد أحد المبانى المصرية القديمة الصغيرة، وهو منفصل تمامًا عن مبنى المعبد الكبير، ومن خلال بنائه وهيكله يمكننى القول بأن هذا المبنى كان سكنًا للكهنة. وتقع على بعدٍ من المعبد الكبير أساس معبد آخر ليس بحجم المعبد الأول. لا يزال المدخل الكبير بحالة جيدة. إلا أن مهمتى الأساسية لم تسمح لى بالبقاء هنا لمدة أطول، وإن كنت لا أعرف إننى سأترك مكانًا بمثل هذا القدر من الأسف والرغبة فى البقاء.

وعندما عدنا مرة أخرى إلى النيل، وجدنا أعدادًا غفيرةً من أهل دندرة مجتمعةً فى انتظار عودتنا من منطقة الآثار. وما أن اقتربنا منهم حتى أحاطوا بترجمانى، وأمسكوا بتلابيبه وشدوه من ذراعه، مُصِرِّين أن يظل بينهم نظرًا لانتمائه إلى تلك القرية.

(١٦) تيفون Typhon : آخر أبناء "جايا" - التى تمثل الأرض الأم فى الأساطير الإغريقية - وأكثر ذريتها إثارة للرعب، وهو وحش ذو مائة رأس، يُعتقد أنه المسئول عن نفث الحمم البركانية الملتهبة التى تخرج من فوهة جبل إيتنا Etna رغم هزيمته على يد "زيوس" كبير الآلهة عند الإغريق. [المترجم]

والواقع أن الفرنسيين حينما كانوا هنا، ذهب فتىً من ذلك المكان معهم، فلما أخبرهم ترجماننا أنه كان يخدم فى الجيش الفرنسى؛ استنتجوا أن الترجمان لابد أن يكون هذا الشخص، ولم نتمكن من إقناعهم بعكس ذلك. لم أرغب فى أن أتركه لأننى كنت غير ملمٍ إلا بالقليل من اللغة العربية، ولم يُجْدِ معهم إقناع أو منطق، كما كانوا من الكثرة بحيث يستحيل معها أن يفلت منهم. وأخيرًا، أخبرتهم بأن يستدعوا أم الفتى المطلوب، فردوا قائلين إنها تعيش على بعد ستة أميال من هنا وأنهم لن يتجشموا عناء الذهاب وإحضارها من هناك. إلا أنهم وافقوا الآن، لكنهم ما كانوا ليطلقوا صديقهم القديم المزعوم من أيديهم، وقالوا له إنه ظل مقيمًا بما يكفى بين الكلاب الأجنبية. وأحضر له البعض اللبن والخبز، بينما أحضر له البعض الآخر البلح، وأتى له آخرون بقصب السكر وما شابه. وبعد مرور فترة طويلة من الوقت وصلت المرأة المنشودة يصحبها ابن آخر لها، ووقفت أمام ترجمانى، فخاطبها بأسلوب سرعان ما تبينت منه أن الرجل لا ينتمى إليها بصلة.

انطلقنا فى سفرنا فى الصباح نفسه، ووصلنا إلى قنا فى ساعة واحدة. ويشتهر هذا المكان بالتجارة مع الهند عبر القُصير، ويتميز بوفرة الطعام دائمًا لأنه موقف أو نقطة استراحة للحجاج. ويعمل تحت إمرة الأغا خمسمائة جندى لحماية قوافل الحجيج عبر الصحراء حتى القصير. ويرسل الباشا المؤن من الغلة إلى قواته فى الجزيرة العربية، هذا إلى جانب التجارة المعتادة فى السكر والحرير، كما يأتون بالبن من مُخا مقابل الأقطان والأردية الكشمير المصنوعة فى الهند. يأخذ الحجاج هنا مخزونًا من الطعام يكفيهم مسافة سفر حتى مكة، وتمتلئ البلدة فى موسم الحج بالحجاج من كل حَدْبٍ وصوب. وتوفر قبائل العبابدة الجمال لقوافل الحجيج التى يعتبر التعامل معها تجارة مربحة بالنسبة للعبابدة. إن أفضل أوانى تبريد الماء تجدها فى هذه البلدة. ويدفع العبيد الذين يأتون من صعيد مصر رسمًا قدره أربعة دولارات للصبى، ودولارين للمرأة، ودولار واحد للرجل.

استأنفنا رحلتنا النيلية، ووصلنا إلى قَمولا Gamola فى ليل يوم الواحد العشرين. وفى يوم الثانى والعشرين، رأينا ولأول مرة الصروح الأثرية لمدينة طيبة العظيمة،

ونزلنا بمدينة الأقصر. وهنا ألفت انتباه القارئ إلى أن ما ورد من وصف أمهر الرحالة وأكثرهم دقة لا يمكن أن ينقل لنا إلا أفكاراً مشوهة عن آثار طيبة العظيمة إذ يستحيل أن تتخيل المنظر يتعرض له المرء بالوصف دون أن تراه رأى العين. إن أكثر الأفكار رقياً وجلالاً والتى تتشكل من أعظم نماذج عمارتنا الحالية ستعطى صورة شائهة إذا ما قورنت بهذه الآثار، فالاختلاف لا يتمثل فى الحجم فحسب، بل والشكل والتناسب أو الملاءمة والهيكل المعمارى حتى أن القلم ليعجز إلا أن ينقل صورة باهتة لهذا كله. وبدا الأمر لى كأننى دخلت مدينة للعمالقة الذين هلكوا جميعًا بعد صراع طويل تاركين وراءهم آثار معابدهم المتعددة كأنها الدليل الوحيد على وجودهم منذ عهود مضت. ويمثل معبد الأقصر للرحالة على الفور واحداً من أفضل وأفخم حالات الجلال والعظمة المصرية القديمة. فهذا المدخل مهول الحجم والمسلتان والتماثيل الضخمة فى الواجهة، والمجموعات الكثيفة من الأعمدة هائلة الحجم، والحجرات المتعددة المحراب الذى يوجد بها، والزخارف الجميلة التى تزين كل شبر من الجدران والأعمدة التى تناولها مستر هاميلتون Mr. Hamilton جميعاً بالوصف، كلها جعلت الرحالة المصاب بالدهشة والعجب ينسى كل ما رآه من قبل. فإذا انجذب انتباهه إلى الآثار العالية كالأبراج فى الجهة الشمالية من طيبة والتى تعلو فوق غابة أشجار النخيل، فإنه سيدخل تدريجياً إلى غابة من أنقاض المعابد والأعمدة والمسلات والتماثيل وتماثيل أبى الهول والأبواب وعدد لا يحصى من الأشياء العجيبة الأخرى مما سيقنعه على الفور باستحالة الوصف. أما إذا توجه الرحالة بناظريه جهة الضفة الغربية من النيل، فإنه سيجد نفسه بين مجموعة من العجائب والمعجزات. وتحُدُّ معابد القرنة والمنونيوم ومدينة آبو(١٧) Medinet Aboo حدود هذه المدينة العظيمة من هذه الناحية. إن التماثيل الضخمة التى لا مثيل لها

(١٧) مدينة آبو : هى جزيرة أسوان الواقعة فى النيل تجاه مدينة أسوان وتسمى جزيرة العاج. ويسميها الروم مدينة ألفنتين. وكانت قاعدة القسم الأول من أقسام الوجه القبلى، كما كانت عاصمة مصر فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة الفرعونيتين [المترجم نقلاً عن القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ - محمد رمزى - القسم الأول - مطبعة دار الكتب المصرية - ١٩٤٥، ص ١].

فى سهول طيبة، والمقابر التى كُشِفَ عنها فى الصخور، وتلك المقابر التى عُثِرَ عليها فى وادى الملوك الكبير بالإضافة ما بداخلها من رسومات ومنحوتات ومومياوات وتوابيت وتماثيل وما إليها، كلها أشياء تستحق إعجاب الرحالة واهتمامه، ولن يفوت هذا الرحالة أن يتعجب من أمر هذه الأمة التى كانت يومًا ما من العظمة لأن تشيد هذه الصروح المثيرة للعجب والذهول، وكيف سقطت فى بئر النسيان حتى إن لغتها المنطوقة والمكتوبة أضحت مجهولة تمامًا بالنسبة لنا.

وبعد أن ألقينا نظرة سريعة على الأقصر والكرنك التى قادنى إليهما حب الاستطلاع والفضول عند نزولى بالمدينة، عبرت نهر النيل إلى الغرب، ولما مضيت رأسًا إلى معبد المنونيوم، كان علىَّ أن أمُرَّ أمام التمثالين الضخمين فى السهل. وغنىٌ عن القول أن الذهول أصابنى، فهذان التمثالان متآكلان تمامًا، لكن حجمهما الهائل يجعلك تتيه بهما إعجابًا. كان الشىء الثانى الذى وقع عليه بصرى هو المنونيوم أو معبد ممنون. ويقف هذا المعبد شامخًا فوق السهل الذى يغمره فيضان النيل مرة واحدة فى العام. وتصل المياه حتى المدخل الكبير، إننى أرجو أن ألفت النظر إلى أنه بالرغم من انخفاض المدخل انخفاضًا كبيرًا عن المعبد، فإن هذا يمكن أن يكون واحدًا من الأدلة على أن قاع النيل ارتفع بدرجة كبيرة منذ زمن إنشاء معبد ممنون؛ إذ لا يمكننا الافتراض بأن قدماء المصريين بنوا المدخل الكبير وهو مدخل المعبد عند هذا المنسوب المنخفض بما لا يمكنهم من دخول المعبد عندما تصل المياه إلى أعلى منسوب لها. ولدىَّ أدلة أخرى على هذا الرأى سأوردها فى مقامها فى هذا الكتاب. وتمثل أعمدة ذلك المعبد، ومنظر المقابر المتعددة التى نُقِّبَ عنها فى الصخور المرتفعة وراءها منظرًا تستغربه العين. وعندما دنوت من هذه الآثار، هالنى منظر تمثال ممنون الضخم أو سيزوستريس[18] Sesostris

(١٨) سيزوستريس (؟ – ١٩٢٨ق.م) : هو الملك سيزوستريس الأول ملك مصر وابن أمنمحات الأول. حكم سيزوستريس الدولة المصرية فى الفترة من ١٩٦٢ ق.م وحتى ١٩٢٨ ق.م. من المعروف أن الملك سيزوستريس هو الذى أرسى قواعد التجارة بين مصر وبين الدول الأجنبية. [المترجم]

أو أوزيمـانديـاس[١٩] Osymandias أو فـامـينوف Phamenoph ، أو لعله ملك آخـر من ملوك مصر، وذلك لكثرة الآراء عن أصل هذا التمثال وتلك الكثرة الكثيرة من الأسماء التي سُمِّيَ بها حتى أصبح بلا اسم في النهاية. وليس لي إلا أن أقول إنه واحد من أكثر تماثيل قدماء المصريين جـلالاً وعظمة، وذلك لأن نقل تمثال من الجرانيت بمثل هذا الحجم من أسوان إلى طيبة كان سيتطلب جهداً أكبر من المجهود الذي كان سيبذل لنقل المسلة المعروفة بين العـامة باسم عامود الصواري[٢٠] Pompey's Pillar إلى الإسكندرية.

وعندما دخلت هذه الأنقاض، كان أول ما جال بخاطري فحص التمثال النصفي الذي تعهدت بنقله من مكانه. ووجدته بالقرب من أنقاض جسمه وعرشه ووجهه ناظرٌ إلى أعلى وتعلوه ابتسامة موجهة إليَّ حينما عرف أني سآخذه إلى إنجلترا. ولابد أن أقول إن جماله وليس حجمه فـاق كل توقعاتي. لاحظـت أن هذا التمثـال لابـد أن يكون قَطْعًا نفس التمثـال الذي ورد لدى نوردن Norden ملقىً في عهده على وجهه،

(١٩) أوزيمـانديـاس Ozymandias : يرتبط "بقبر أوزيمـانديـاس" الشـهير الذي وصفه المؤرخ الإغريقي ديودوراس سيكولاس في القرن الأول قبل الميلاد. وأوزيمانديـاس صيغة مشوهة من الاسم السابق للملك رمسيس الثاني (١٢٧٩-١٢١٣ ق.م). ويرتبط هذا القبر بمعبد رمسيس الجنائزي المعروف باسم "الرمسيوم" الذي شيد على الضفة الغربية لنهر النيل عند طيبة في صعيد مصر. وكان هذا المعبد الشهير مخصصاً لعبادة الإله آمون الملك المتوفي. وتزين جدران الرمسيوم النقوش البارزة التي تشمل تصويراً لمشاهد من معركة قادش والحروب السورية واحتفال مِن Min . [المترجم نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية]

(٢٠) عامود الصواري Pompey's Pillar : عامود من الصخر الجرانيتي الأسواني الأحمر يبلغ طوله ٢٥ م ومحيطه ٩ أمتار بني تخليداً للإمبراطور الروماني "ديوقلطين". ولا يزال هذا العامود الذي أخذ أساساً من معبد سيرابيس دليلاً معمارياً يضاهي في عظمته وشموخه معبد السوما أو معبد قيصر. وتقع بالقرب من العامود معارض تحت الأرض مدفونة بها ثيران "أبيس" بالإضافة إلى ثـلاثة من الكباش (أو أبي الهول). بعد هزيمته على يد يوليوس قيصر أثناء الحرب الأهلية، هرب بومبي إلى مصر حيث لقي حتفه قتلاً عام ٤٨ ق.م.. ويؤمن الرحالة في العصور الوسطى أنه مدفون هناك، وأن القاعدة التي تقع عند القمة ما هي إلا حاوية لرأسه. والواقع أن العامود بني تخليداً للإمبراطور "ديوقلطين" في نهاية القرن الرابع، وهو الإمبراطور الذي أسر الإسكندرية بعد وقوعها تحت الحصار. ويسمي العرب هذا العامود باسم "عامود الصواري" أي عامود الفرسان أو الخيالة. ويعتبر هذا العامود أطول صرح أثري قديم بالإسكندرية. [المترجم]

ولعل هذا السبب وراء بقائه في حالة جيدة. ولن أحاول أن أجزم بمعرفة مَنْ فصل التمثال النصفي عن سائر الجسم بالتفجير أو الشخص الذي قلَبَ التمثال النصفي ظهراً لبطن. كان المكان الذي وجدنا فيه التمثال على امتداد واحد مع جانب البوابة الرئيسية للمعبد، ولأننا وجدنا رأس تمثال آخر بالقرب منها، فمن المحتمل أن نجد رأساً على كلٍ من جانبي البوابة كما نرى في الأقصر والكرنك.

تتكون كل الأدوات التي أحضرناها من القاهرة إلى معبد الممنونيوم من أربع عشرة عصا، استعملت ثمانٍ منها لصنع شيء أشبه بعربة حتى نضع عليها التمثال النصفي، وأربعة حبال من سعف النخيل، وأربعة دحاريج دون استخدام أي نوع من البكرات أو الحبال. واخترت لي مكاناً في رواق الأعمدة، وكان قاربنا بعيداً للغاية بما يعوق ذهابنا إليه كل ليلة لننام فيه؛ فأمرت بإحضار كل حاجياتنا من القارب، وجعلت من معبد ممنون مقاماً لي. وصنعنا كوخاً صغيراً من الحجارة، وبذلك أوجدنا لأنفسنا سكناً جميلاً. وبحلول هذا الوقت، اعتادت زوجتي السفر، وأصبحت لا تعبأ مثلي بمسألة مكان المعيشة، وفَحَصْتُ الطريق التي يفترض أن أنقل التمثال النصفي من خلالها إلى النيل. وبدا لي أن موسم الفيضان آتٍ بسرعة، وهذا يعني أن كل الأراضي التي تمتد من معبد ممنون حتى الشاطئ ستغمرها المياه خلال شهر واحد، وكانت الطريق عند سفح الجبل شديدة الوعورة، وتمتد هذه الطريق في بعض المناطق فوق الأرض التي وصلت إليها المياه، وبناء على ذلك، لو لم يُسحب التمثال النصفي فوق تلك المناطق قبل بدء الفيضان، سيغدو من المستحيل أن نستكمل المهمة بعد الفيضان حتى حلول الصيف القادم، وهذا تأخير قد يترتب عليه صعوبات أكثر اضطررت لمواجهتها أثناء ذلك الحين، ولديَّ من الأسباب ما يعضد رأيي بأن مؤامرة حيكت لمنع نقل رأس التمثال.

في يوم الرابع والعشرين من يوليو ذهبت إلى كاشف مدينة إرمنت للحصول على فرمان أقدمه إلى قائمقام القرنة وأقالتة حتى يدبر لي الحصول على ثمانين من العرب للمساعدة في نقل تمثال ممنون الصغير. واستقبلني الرجل بأدب لا مزيد عليه وهو الشيء المستغرب من الأتراك حتى إن كانوا لا يقصدون أدنى استجابة لرغباتك، وهذا ما ينطلي في الأغلب على أي رحالة من "عابري السبيل" الذين يجلسون لتناول

القهوة وتدخين الشيشة أو النارجيلة، ثم يذهبون إلى حال سبيلهم، وليس بهذا يمكنك أن تعرف هؤلاء الناس؛ فهذا يتطلب وجود فرصة للتعامل معهم فى أمور تتعلق بمصلحتهم. هناك حالات استثنائية بينهم، كما هو الحال بين مسيحى أوروبا، وفى أغلب الأحيان اكتشف ما انطلى علىَّ من أمر عندما يكون الخداع أبعد شىء عن توقعاتى. وتشيع بينهم عبارات الصداقة والموالاة المعسولة يوجهونها لأى شخص لم يروه من قبل حتى أصبحت هذه عادة سائدة عندهم، ولا يعتمد على هذا الكلام سوى مَنْ لم يألفوا عادات هذا البلد وتقاليده.

عرضت الفرمان على الدفتردار فى أسيوط الذى تلقاه بكل وقار واحترام، ووعد بأن يفعل كل ما فى وسعه لحث العرب على العمل، لكنه لفت نظرى إلى إنهم مشغولون جميعًا فى هذا الموسم وإنه يحسن بنا أن ننتظر حتى فترة ما بعد فيضان النيل. فرددت قائلاً إننى رأيت عدداً كبيراً من العرب فى القرى بدوا لى فى حالة من البطالة التامة وسيشعرون بالسعادة عندما يتكسبون شيئًا بعد أن تتوفر لهم فرصة العمل. فردَّ بقوله: "أنت غلطان، فهم يفضلون أن يموتوا من الجوع عن أن يقوموا بعمل شاق كهذا العمل الذى تريد أن توكله إليهم، وهذا لأنهم لكى يحركوا ذلك الحجر من مكانه، لابد أن يستعينوا بمحمد، وإلا فلن يحركوه من مكانه قيد أنملة. والآن ومع ارتفاع نهر النيل، فإن العرب عند ضفافه لا يعملون شيئًا على الإطلاق، وهذا هو الوقت المناسب لتنفيذ هدفك". وكان الاعتراض الثانى بسبب حلول شهر رمضان الذى بدأ منذ أيام، أما الاعتراض الثالث فهو عدم قدرته على توفير أى عمال من العرب إذ لابد أن يعملوا فى الحقول من أجل الباشا الذى لا ينبغى أن يعوق أعماله عائق. رأيت جليًا أننى سأقابل الكثير من المصاعب، لكننى صممت على المقاومة، وأخبرته أننى سأجمع الرجال بنفسى بصحبة العسكرى الإنكشارى، وقلت له إننى سأوظف لدىَّ كل العرب الذين أجدهم عاطلين عن العمل ولديهم رغبة فى المجىء معنا وهذا وفقًا للفرمان الذى حصلت عليه. فقال رداً على هذا الكلام: "سأرسل أخى ليرى إن كان بالإمكان الإتيان بأىٍ من العمال". فأخبرته قائلاً إننى أثق بكلمته، وأفهمته أنه لو تصرف بما يتوافق مع فرمانات الباشا فإنه سيحصل على هدية منى، وغادرت المكان تاركًا العسكرى الإنكشارى هناك كى يقود العمال الذين يمكننا الحصول عليهم إلى المنونيوم فى الصباح التالى.

وجاء الصباح لكن لم يظهر أى من العمال، وانتظرت بكل صبر حتى وصلت الساعة إلى التاسعة صباحًا، بعدها امتطيت جملاً وذهبت مرة أخرى إلى إرمنت. وأعطيت ترجمانى بعض قطع من الفحم وحوالى رطلين من البن الخام حتى يأتى لى بها عندما أطلبها. ووجدت الكاشف مشغولاً فى إصدار التعليمات ببناء ضريح لأحد القديسين المحمديين، إلا أنه لا داعى للشكوى. وبناء على ذلك أخبرته أننى آتٍ لتناول القهوة معه وتدخين الشيشة، فَسُرَّ لذلك وجلسنا معًا فى الديوان. وتظاهرت بأننى غير مكترثٍ تمامًا بشأن نقل التمثال، وأخرجت من مَعِيَّتى قطع الفحم للشيشة والبن فى الوقت المناسب، وهو الأمر الذى سُرَّ له سرورًا عظيمًا. بعد ذلك قلت له مرة أخرى إنه لو دبر لى الحصول على العمال، فإن هذا سيكون فى مصلحته من الدرجة الأولى، فإن لم يفعل، فسوف يضيع على نفسه فرصة المكافأة، وسنتصرف معه على هذا الأساس. وعدنى مرة أخرى بالحصول على العون الذى أريد فى الصباح التالى، ومنحنى مرسومًا لهذا الغرض. وعدت إلى القرنة فى نفس المساء، وأرسلت المرسوم tiscarry إلى قائمقام البلدة الذى يلزمه عمله بأن يعمل بموجب هذا المرسوم. كان هذا الرجل من المعارف القدامى لرجل معين من جامعى الآثار بالإسكندرية، وتسبب الرجل فى الكثير من المتاعب لى نظرًا لسلطته المباشرة على الفلاحين. ظل هذا الرجل يجمع الآثار لهذا الشخص سنوات طوالاً فى القرنة، ثم تزوج واستقر هناك، ولهذا لم أكن موضع ترحابٍ من هذا الرجل بأى شكل من الأشكال. ووعدنى الرجل – كما فعل سيده – بأن يمدنى بالرجال وفقًا للفرمان، لكن لم يظهر منهم أحد – وللمرة الثانية – فى يوم السادس والعشرين من الشهر.

بعد ذلك أرسلت فى طلبه، فجاء وأخبرنى بلهجة من لا يلقى بالاً لشىء أنه تعذَّر الإتيان بالرجال فى ذلك اليوم، لكنه سيفعل أقصى ما فى وسعه غداً أو فى اليوم التالى، وفى الوقت نفسه كان الفلاحون العاطلون عن العمل سيفرحون إذا وفرنا لهم فرصة العمل لأنهم جاءوا إلينا جماعات لا تقل الواحدة منها عن عشرين نفرًا للسؤال عن استصدار التصريح لهم بالعمل. وأرسل الكاشف لى أيضًا جنديًا واحدًا بدلاً من إرسال المساعدة التى سبق أن وعد بها بالنيابة عن بلاده لا لشىء سوى الاستفسار

عما إذا كنت لا أزال فى حاجة إلى المساعدة أم لا، ورددت عليه بقولى إنه لو لم يمدنى ببعض العمال فى الصباح التالى، فسوف أبعث برسالة إلى القاهرة. كنت أعلم أن مخاطبة القاهرة لن تؤدى إلى أى نتيجة لأن الأمر سيستغرق شهرًا قبل أن أتلقى أى رد، وعندئذٍ سيكون الأوان قد فات نتيجة لارتفاع منسوب النيل. حاولت دون جدوى أن أقنع هؤلاء العرب الذين رأيت أنهم عاطلون بالعمل، ولكنهم ورغم رغبتهم الجامحة فى الحصول على المال، لم يجرؤا على العمل معنا دون تصريح من الكاشف أو القائمقام.

تقدمت بطلب للكاشف مرة أخرى، وأخيرًا وفى يوم السابع والعشرين أرسل لى نفرًا من العمال لا يكفون بأى حال من الأحوال لأداء مهمتى، لكن عندما رآهم الآخرون يعملون من خلال التصريح، كان سهلاً علينا أن نقنعهم بالانضمام لجماعتنا. ونظمت رجالى فى صف واحد، واتفقنا أن يأخذ كل منهم ثلاثين بارة فى اليوم وهو ما يعادل أربعة بنسات ونصف البنس بالعملة الإنجليزية، وفرحوا بهذا أشد الفرح لأن هذا الأجر يساوى أكثر من مرة ونصف الأجر الذى اعتادوا أن يتقاضوه عن عملهم اليومى فى الحقول. صنع النجار العربة، وكانت أول خطوة فى العملية أن نحاول وضع التمثال النصفى عليها. كان فلاحو القرنة الذين يعرفون كافانى Caphany خير المعرفة – وهو الاسم الذى يطلقونه على التمثال – على قناعة باستحالة تحريك التمثال من البقعة التى وجدناه عندها، فلما شاهدوه يتحرك؛ أطلقوا جميعًا صيحة واحدة. ورغم أن هذا من أثر الجهد الذى بذلوه، فإنهم يرونَّ أن هذا من عمل الشيطان، وعندما شاهدونى أدون بعض الملاحظات، استنتجوا أن تحريك التمثال إنما جاء كضرب من ضروب السحر. وجاء الوضع الذى اتخذته كى أضع التمثال عليه فوق العربة غاية فى البساطة، فهؤلاء الناس لا يمكنهم أن يقوموا بأى عمل غير هذا، فأقصى درجات ذكائهم لا تمكنهم سوى من شد أحد الحبال أو الجلوس عند طرف إحدى الروافع كنوع من الثقل. تمكنت من رفع التمثال النصفى عن طريق أربع روافع أو عتلات حتى أترك فراغًا تحته لإدخال العربة، وبعد أن عمل الرجال ببطء على استقرار التمثال فوقها، أصدرت إليهم الأوامر بأن يرفعوا العربة إلى الأمام وفوقها التمثال النصفى حتى نتمكن من وضع إحدى الدحاريج تحتها. بعدها أصدرت التعليمات بأن تنفذ العملية نفسها فى المؤخرة،

وعندئذٍ أصبح التمثال جاهزًا للرفع. كانت تعليماتى بأن يُأَمِّن العمال وضع التمثال فوق العربة، مع العناية بربط الحبال حتى تتوزع القوة. أمرت الرجال كلٌ منهم ممسك بعتلة بأن يقفوا على كل جانب من جوانب العربة للمساعدة بين الحين والآخر إذا مال التمثال ناحية أى جهة من الجهات، وبهذه الوسيلة حافظت على التمثال من السقوط. وأخيرًا، أمرت الرجال بالوقوف عند المقدمة موزعين أنفسهم بالتساوى على أربعة حبال، بينما كان آخرون على استعداد لتغيير الدحاريج بالتبادل. وبذلك نجحت فى تحريكه مسافة بضعة ياردات من مكانه الأصلى.

أرسلت أحد العرب وفقًا لتعليماتى إلى القاهرة بالأخبار وهى أن التمثال النصفى فى مستهل رحلته إلى إنجلترا. وشعرت بأننى لست على ما يرام ليلاً بسبب حرارة النهار الشديدة، ولم أشعر بحرارة الشمس بهذا الشكل من قبل فى حياتى. ولما كنَّا فى أكثر الفصول حرارة، كان الهواء يلفحنا بحرارته حتى فى الليل تأتينا الرياح نفسها بهواء فى منتهى السخونة. وكان المكان الذى اخترته فى الممنونيوم أسوأ من أى مكان آخر، فكتلة الحجارة كلها شديدة السخونة لدرجة أنك لا تستطيع أن تضع يديك عليها. وبمرور الوقت أصبحت هذه الأماكن إلى جانب المناخ مألوفة بالنسبة لى، لأننى لاحظت بعد مرور ثلاث سنوات أننى غالبًا أتواجد فى البقعة نفسها، وفى نفس التوقيت من السنة دون أن أشعر بأدنى قدر من التعب أو عدم الراحة، أو دون أن أتأثر بهذا الشكل بالحرارة الشديدة التى شعرت بوطأتها حينما قدمت إلى هذا البلد أول مرة. وعندما رأى العرب أنهم يتقاضون المال مقابل نقل إحدى الحجارة، تناولوا الموضوع بقولهم إن الحجر ملىء بالذهب من الداخل، وأن شيئًا بهذه القيمة لا يجب أن يُسْمَح لنا بأن نأخذه من مكانه.

استأنفنا العمل فى يوم الثامن والعشرين، وجاء العرب مبكرًا فهم يفضلون العمل فى الصباح، ثم أخذ قسط من الراحة فى منتصف النهار ابتداءً من الساعة الثانية عشرة ظهرًا وحتى الساعة الثانية بعد الظهر. فى هذا اليوم نقلنا التمثال النصفى من منطقة أنقاض الممنونيوم، واضطررنا لتحطيم قاعدتين من قواعد الأعمدة حتى نفسح مكانًا يخرج منه التمثال. وخرج التمثال من المعبد مسافة خمسين ياردة تقريبًا.

وفى المساء شعرت بأننى متوعك فذهبت لآخذ قسطًا من الراحة، لكنَّ معدتى رفضت تقبل أى طعام. بدأت اقتنع بأن هنــاك بونًا شاسعًا بين السفر بقارب يشتمل على كل ما تحتاجه مع توفير وسائل الراحة، والاضطلاع بعملية تتطلب بذل الكثير من الجهد فى إصدار التوجيهات والتعليمات لمجموعة من العمال ليسوا من حيث المهارة بأفضل من الحيوانات، هذا إلى جانب التعرض لأشعة الشمس المحرقة فى تلك البلاد من الصباح وحتى المساء.

وفى اليوم التالى، أى يوم التاسع والعشرين، شعرت بأنه من المستحيل أن أقف على قدميَّ؛ فأجَّلْتُ العمل إلى اليوم الذى يليه. وطلبت من العمال نقل كل متاعنا وأسِرَّتنا وأوانى المطبخ والأطعمة على جمل والعودة بها إلى القارب أملاً فى أن يأتى الليل بهواء بارد، لكننى ظللت متوعكًا للغاية طوال اليوم، ومعدتى ترفض تقبل أى شىء تقريبًا.

استأنفنا العمل مرة أخرى فى يوم الثلاثين، وتقدمنا بالتمثال مسافة مائة وخمسين ياردة نحو النيل. تحسنت حالتى قليلاً فى الصباح، لكنها ساءت مرة ثانية فى المساء.

وفى يوم الحادى والثلاثين استرددت قليلاً من عافيتى، لكننا لم نتمكن من المضى قدمًا وذلك لأن الطريق صار رمليًا ناعمًا لدرجة أن التمثال غاص فى الرمال. ولهذا اضطررت أن اتخذ مسارًا طويلاً يزيد عن ثلثمائة ياردة التف منه إلى طريق جديد. وتحسنت حالتى الصحية كثيرًا فى مساء هذا اليوم. وفى غرة شهر أغسطس كنا لا نزال نسير قدمًا فى خطتنا، فقد قطعنا حتى هذا اليوم ما يزيد على ثلثمائة ياردة. وكان لزامًا علىَّ أن أطلب من عدد كبير من الرجال أن يمهدوا الطريق قبلنا أثناء تقدمنا برأس التمثال. وأرسلت الغلام الأيرلندى الذى كان بصحبتى إلى القاهرة لأنه لم يستطع أن يتحمل المناخ، لكن الغريب فى هذا الأمر أن زوجتى تمتعت بصحة لا بأس بها طوال الوقت، وكانت تمضى الوقت كله بين النساء فى المقابر، وهذا لأن كل فلاحى القرنة جعلوا من مدافن قدماء المصريين مساكن وبيوتًا لهم، وسوف أتناول هذا الموضوع فيما بعد.

وتقدمنا بالرأس أكثر فى يوم الثانى من الشهر، وعقدت الآمال على عبور القسم الأعظم من الأرض التى يحتمل أن يصل إليها الفيضان قبل أن تصل المياه إلى هذه تلك البقعة.

وفى اليوم الثالث مضينا فى سيرنا لا نألو على شىء، وقطعنا مسافة مقدارها أربعمائة ياردة على وجه التقريب. وقابلنا طريقًا وعرة فى اليوم الرابع، لكننا مضينا قدمًا بمعدل لا بأس به. وفى يوم الخامس من أغسطس دخلنا الأرض التى شدَّ ما حرصت على عبورها خوفًا من أن تصلها المياه فتعوق سيرنا، وشعرت بالسعادة عندما جال بخاطرى أننا سنخرج من دائرة الخطر بعد مضى اليوم التالى. ووفقًا لذلك ذهبت إلى المكان فى الصباح الباكر، ولَكَمْ كانت دهشتى عندما لم أرَ أحدًا هناك عدا الحراس والنجار الذى أخبرنى أن القائمقام أصدر أوامره إلى الفلاحين بعدم العمل لدى الكلاب الأجنبية بعد الآن. وأرسلت إليه لأعرف سبب هذا الاتجاه الجديد، لكننى علمت أنه رحل إلى الأقصر. لابد أن ألفت النظر إلى أنه من المتوقع أن تغمر المياه البقعة التى يوجد بها الرأس فى هذا الوقت خلال بضعة أيام، ويعنى التأخير أننا سنتحمل مخاطرة أن يغوص الرأس فى الطين؛ وبذلك لن نستطيع أن ننتشله من الطين إلا فى العام التالى، هذا بالإضافة إلى المزيد والمزيد من المتاعب ناهيك عن الحيل والمؤامرات التى قد يحيكها البعض وراء الكواليس. ويمكنك أن تتخيل مدى الاضطراب الذى أصابنى بسبب هذا الموضوع، ورغبتى الشديدة فى أن أرسل إليه. وبعد ذلك تناهى إلى علمى أن هذا المحتال المسمى بالقائمقام أوعز إلى الكاشف بأن يستغل الموقف عندما تمر رأس التمثال من تلك البقعة، وذلك حتى يضع نهاية لهذه العملية. وأخذت العسكرى الإنكشارى معى، وعبرت نهر النيل إلى الأقصر. وهناك وجدت القائمقام الذى لم يستطع أن يعطينى سببًا واحدًا وراء هذا التصرف سوى إجابات وقحة، وكلما حاولت بالكلام اللين والوعود الناعمة أن أصل به إلى حالة مزاجية جيدة، زاد صلفًا وكبرياء. طال صبرى عليه، وصممت فى ذلك اليوم أن أطيل صبرى عليه ما استطعت، لكن هناك نقطة معينة إذا ما تخطيناها، فإن هؤلاء الناس لا يفهمون. وفى بلاد لا يُحترم فيها إلا الأقوى، فإن الضعيف دائمًا ما يتعرض للاستغلال؛ ونتيجة ذلك

فهم ينظرون إلى أى إنسان يجافى سلوكه هذه النظرة باعتباره جبانًا، ومن ثَمَّ فإنهم يحتقرونه ويزدرونه، وتلقى المزيد من الصعاب فى طريقه.

وكانت هذه حالى مع ذلك الرجل، فها هو يسىء فهم صبرى عليه، بل إن هذا الرجل وبعد أن تلفظ بما شاء من ألفاظ ضد أمتى ومن أنعموا علىَّ بحمايتهم، شجعه تسامحى على أن يحاول وضع يده علىَّ وهو الأمر الذى قاومته. وما لبث أن صار أكثر عنفًا، واستلَّ سيفه رغم وجود زوج من المسدسات فى حزامه. ولم يكن أمامى وقت أضيعه، فقد تلقيت درسًا لا بأس به فى القاهرة على يد رجل ألبانى مثله، فلم أدع الفرصة تواتيه حتى ينفذ ما يريد. وما هى إلا لحظة حتى أمسكت به وجردته من سلاحه، ووضعت يدىَّ على بطنه حتى أشعره بتفوقى عليه - من حيث القوة الجسدية على الأقل - وذلك بتثبيته فى أحد أركان الغرفة. أما المسدسات والسيف التى ألقيتها على الأرض أخذها عسكرى الإنكشارية الذى أمسك بالرجل وجعل يهزه هزًا، بعدها استوليت على السلاح وقلت له إننى سأرسل بها إلى القاهرة حتى يرى الباشا كيف تُحتَرمُ أوامره. وتبعنى نحو القارب وما كاد يبتعد عن الجمع الغفير من الناس الذين تجمعوا حولنا حتى تحول إلى شخص متواضع للغاية، وأخذ يتكلم وكأن شيئًا لم يكن. وبعدها أخبرنى أن الأمر الذى أصدره إلى الفلاحين بألا يتوقفوا عن العمل إنما تلقاه من الكاشف نفسه، ومن غير المقبول أو غير المتوقع أن يخالف مجرد قائمقام أوامر رئيسه. ولم أتوقف لحظة واحدة، بل أمرت بأن يأخذنى القارب إلى إرمنت على الفور.

ولعل القارئ يظن أن سردى للأحداث مغرق فى التفاصيل، لكنى أرجو منه أن ينتبه إلى أن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن من خلالها معرفة الشخصية الحقيقية لهؤلاء الناس. ولاحظت أنه لم يَفُتْه شىء فى الهجوم على دينى فى كل ما قاله لى تقريبًا، وهو أول شىء تجده من المحمديين بوجه عام، لكننى اكتشفت فيما بعد أن صديقه القادم من الوجه البحرى الذى تاجر معه فى الآثار وتلقى منه المال والهدايا وأثَّر عليه فى هذه الحادثة إنما هو مسيحى، فإذا استطاع هذا الرجل إيجاد الوسيلة التى بها يوقف عملياتى الخاصة بالتمثال النصفى، فإن هذا سيأتى لصالح ذلك الصديق بدرجة كبيرة.

وأسرعت إلى إرمنت ووصلت هناك قبل مغيب الشمس. ولمّا كنا فى رمضان، دعا الكاشف الكثير من كبار العاملين لديه وعدداً كبيراً من الحجاج والشيوخ إلى مائدة الإفطار معه، ذلك أن من عادة هؤلاء الرحالة الأتراك أن يعيشوا - لاسيما فى هذا الموسم - على موائد كبار الشخصيات فى البلد. وتجمع حوالى ثلاثين شخصاً عند الكاشف، وأُعِدَّ طعام الإفطار فى مكان فسيح أمام البيت فليس هناك أية حجرة فى البيت تستوعب هذا العدد من الناس، وبُسِطَت سجادة قديمة طولها تقريباً عشرون قدماً وعرضها ثلاث أقدام على الأرض، وبدلاً من أن يضعوا الأطباق كما نفعل نحن، فإنهم يضعون الكعك المصنوع من الدقيق الأبيض الفاخر يصنعونه خصيصاً بهذه المناسبة. وكانوا على وشك الشروع فى تناول الطعام عندما وصلت، أما ساعة الإفطار فهى دائماً بعد غروب الشمس بقليل فى أثناء الاحتفال بشهر رمضان، وغير مسموحٍ لهم أثناء هذا الشهر بتناول الطعام حتى تغيب الشمس تماماً؛ ولهذا لم أستطع أن أناقش أى موضوعٍ فى ذلك الوقت. لاشك أن هناك شيئاً مستفزاً بصورة غريبة فى الأغلب فى العادات الرسمية عند الأتراك. ففى نفس اللحظة التى يصدرون فيها الأوامر بقطع رقبتك، لن يعضلهم أن يحيوك - ظاهرياً - بأقصى درجات المحبة والمودة. استقبلنى الكاشف بكل أدب ودماثة أخلاق، ودعانى إلى تناول الطعام معه. ولم أجرؤ على الرفض لأن هذا يعنى أعظم إهانة يمكن أن أوجهها إليه. وبناء على هذا جلسنا جميعاً حول السجادة على الأرض. ولا تتواءم المأكولات التركية دائماً مع المعدة الأوروبية، إلا أن بضعة أطباق لها من القبول ما لأطباقنا وخاصة لحم الضأن المشوى على عصا خشبية على نار وقودها من الخشب. وللأتراك أسلوب خاص فى طبخ هذا الطبق، فهم يضعون الضأن على النار فور ذبحه وقبل أن يفقد اللحم دفئه الطبيعى، وبهذا يكتسب اللحم مذاقه المتميز المقبول من الجميع. رفع العسكر والحجاج أيديهم مُشَمِّرين عن أكمامهم الكبيرة، وبأذرعهم العارية غمسوا أصابع أيديهم اليمنى فى مختلف الأطباق. وهم لا يستعملون اليد اليسرى مطلقاً فى تناول الطعام، كما لا يأكلون كثيراً من طبق واحد، بل يتذوقون جميع الأصناف التى يمكن أن تصل إليها أيديهم. ودائماً ما ينتهون من تناول طعامهم بتناول طبق مكونٍ من الأرز واللحم والتوابل، وقلما يشربون أثناء تناول الطعام.

ويغتسل هؤلاء الناس فور انتهائهم من الطعام، لتدور بعدها الشيشة والقهوة على الجميع، ويبدأون الحـديث في موضوعـاتهم المعتادة وهي الخيول والأسلحـة وسـروج الخيـل أو الملابس.

وفي الوقت المناسب أفْضَيتُ إلى الكاشف بضرورة حصولي على مرسوم موجه إلى الفلاحين حتى استأنف عملياتي صباح غدٍ. فأجابني بكل لا مبالاة أنهم لابد أن يعملوا في الحقول لصالح الباشا، وأنه لا يستطيع الاستغناء عن أيٍ منهم، لكنني لو انتظرت حتى العام القادم، فسوف أحصل على ما أشاء من عمال. فرددت عليه بقولي إنني سأجلب بعض الرجال من الأقصر نظرًا لعدم قدرتي على الإتيان بالعمال عن طريقه؛ ونتيجة هذا فإنه سيفقد أي ميزة من جراء ما فعل، وكان لزامًا عليَّ أن أعود إلى الأقصر تلك الليلة، فاضطررت لأن أستأذن بالانصراف. فعلق قائلاً إنه ليس لديَّ ما يدعو للخوف لأنني مسلحٌ بمسدسين إنجليزيين من النوع الممتاز. فأجبت إنهما من الضروريات التي لا غنى عنها في هذه البلاد، لكني أضعهما تحت خدمته إذا أراد أن يقبلهما مني، رغم أنني أرسلت إلى القاهرة طلبًا لمسدسين أفضل منهما من أجله، ومن المتوقع أن يصلا عن قريب. وعندما سمع مني هذه الكلام، وضع يديه على ركبتي وقال: "سنصبح أصدقاء". وأمر بكتابة الفرمان على الفور، وختمه بخاتمه. تركته ورجعت إلى القارب ووصلت إلى القرنة قبل بزوغ الفجر. وعند مرورنا أمام الأقصر تعرضنا لخطر الغرق، فدعامة الجسر التي تحمي هذه الآثار من قمة التيار وقت ارتفاع النيل تغمرها المياه على الدوام، ونظرًا لعدم خبرة المراكبي بمكانها، فقد سار بالمركب نحوها. كان التيار قويًا جدًا، فلا قوة يمكنها أن تقاومه، ومال القارب ميلاً عظيمًا لدرجة أن المياه ظلت تتدفق من فوق حافة جانب القارب. وكان التيار غاية في السرعة في هذه البقعة لدرجة أن أكثر السباحين خبرة وتمرسًا لن تتاح له الفرصة في الوصول إلى الشاطئ لو أنه سقط فيه؛ فرأينا أننا هالكون لا محالة، لكن العناية الإلهية أبت إلا أن تقدر أمرًا آخر. ففي تلك اللحظة هب نسيم عليل، واستغل ريس المركب تحسن الحال بأن رفع القلوع، وأحكم سيطرته على القارب، فعبرنا التيار ونجونا بأنفسنا من الخطر.

وفى الصباح الباكر من يوم السابع، أرسلت إلى شيخ الفلاحين وأعطيته المرسوم الذى أصدره الكاشف. وكان الرجال على أهبة الاستعداد فى بحر ساعة بعدها استأنفنا العملية. وتقدمنا بالتمثال النصفى فى هذا اليوم كثيراً عن المعتاد نظراً لأخذ الرجال قسطاً من الراحة فى اليوم السابق، وفى اليوم الثامن سَعِدْتُ بأن أرى التمثال بعيداً عن خطرِ أن تجرفه المياه.

وفى اليوم التاسع أصابنى نُوار لا يُطاق فى رأسى، وأخذ الدم يتدفق بغـزارة من أنفى ومن فمى لدرجة أننى لم استطع أن استأنف العملية، ولهذا أجلتها إلى اليوم التالى.

اقتربنا من النهر فى اليوم العاشر والحادى عشر، وفى اليوم الثانى عشر - والشكر للرب - وصل تمثال ممنون الصغير إلى ضفاف النيل. وأعطيت العرب بالإضافة إلى أجرهم الذى وعدتهم به بقشيشاً أو هدية تقدر قيمتها بقرش واحد لكل منهم أى ما يساوى ست بنسات إنجليزية، وهو الأمر الذى فرحوا له فرحاً شديداً، والحق أنهم يستحقون هذه المكافأة بعد هذا الجهد الذى يتضاءل أمامه أى جهد. فهذا المجهود الشاق من سحبٍ لمثل هذا الوزن، والعصى الغليظة التى اضطروا لحملها لاستخدامها كعتلات، والاستبدال المستمر للدحاريج فى ظل الحرارة الشديدة والغبار، كلها أمور أكثر من أن يتحملها أى أوروبى، لكن الأمر الأروع بحق أنهم طوال أيام العمل التى تزامنت مع رمضان لم يتناولوا شيئاً من طعام أو شراب حتى غروب الشمس. وإنى لفى حيرة فكيف استطاعوا أن يتواجدوا على رأس العمل فى منتصف النهار ليقوموا بعمل لم يألفوه قطُّ من قبل.

وفى صباح اليوم التالى جاء بعض العرب حسبما أردت منهم كى يصطحبونى إلى الكهف حيث يوجد التابوت الذى حاول مستر دروتى أن يأخذه، والذى أعطاه لى كهدية لو استطعت أن أخرجه من الكهف. وقادونى إلى واحدة من تلك الفتحات المنتشرة بين جبال القرنة التى تشتهر بعدد المومياوات التى توجد فيها. وظل العسكرى الإنكشارى بالخارج، ودخلت أنا ومعى اثنان من العرب والترجمان.

وقبل أن ندخل الكهف خلعنا القسم الأعظم من ملابسنا، وتقدم كلٌ منا حاملاً شمعة داخل أحد الكهوف في الصخر. يمتد هذا الكهف لمسافة طويلة داخل الجبل، ويرتفع سقفه أحيانًا ويضيق مجراه أحيانًا أخرى دون انتظام، واضطررنا في بعض الممرات أن نزحف على بطوننا على الأرض كالتماسيح. أدركت أننا بَعُدنا كثيرًا عن المدخل، وكان الطريق من الصعوبة والتعقيد لدرجة أنني اعتمدت تمامًا على اثنين من العرب كي يخرجا بنا مرة ثانية. وأخيرًا وصلنا إلى ساحة فضاء واسعة تنفتح منها فتحات أو تجاويف أخرى كثيرة، وبعد فترة من التفكير والتدبر من جانب العربيَّيْن، دخلنا إحدى هذه الفتحات التي كانت ضيقة جدًا، واستأنفنا المسير إلى أسفل في طريق طويل عبر ممر تملؤه الصخور حتى وصلنا إلى فتحتين ضيقتين أخريين تؤديان إلى الداخل في اتجاه أفقي، ساعتئذٍ قال أحد العرب "هذا هو المكان". ولم استطع وقتها أن أتخيل كيف يمكن أن يُنقَلَ تابوت بهذه الضخامة - كما وُصِفَ لي - من خلال الفتحة الضيقة التي يشير إليها العربي الآن. لا شك عندي أن هذه الفجوات كانت مدافن لأننا مشينا طوال الوقت فوق الجماجم وغيرها من العظام، لكن من المستحيل أن يدخل التابوت هذه الفجوة لأنها ضيقة للغاية حتى أنني لم استطع المرور منها عندما حاولت الدخول فيها. إلا أن أحد العرب نجح في الدخول كما فعل الترجمان، واتفقنا أن ننتظر أنا والعربي الآخر حتى يعودا. ومن الواضح أنهما تقدما لمسافة بعيدة لاختفاء الضوء الذي كانا يحملانه، ولم نتمكن أن نميز من أصواتهما إلا همسًا متواصلاً كلما سارا إلى الأمام. وما هي إلا لحظات معدودات حتى سمعت صوتًا عاليًا ميزت منه صوت الترجمان يصيح قائلاً بالفرنسية: "يا إلهي! يا إلهي! ضللت الطريق"؛ وساد المكان بعدها صمتٌ مطبق. وسألت العربي الذي معي إذا زار هذا المكان من قبل، فردَّ بقوله: "أبدًا". لم أستطع أن أتصور ما الذي حدث، ورأيت أن من الصواب التراجع لطلب العون والمساعدة من العرب الآخرين. وبناء على ذلك، أخبرت الرجل بأن يدلني على الطريق المؤدي للخارج مرة أخرى، فحملق فيَّ كالأبله وقال إنه لا يعرف الطريق. ناديت على الترجمان مرارًا وتكرارًا، لكنني لم أتلقَ أية إجابة، وانتظرت لمدة طويلة من الوقت، لكن لم يَعُدْ أحد منهما، وأصبحت في موقف لا أحسد عليه.

ورجعت بالطبع من خلال الممرات التى أتينا منها، ونجحت بعد مرور بعض الوقت فى الوصول إلى المكان الذى تنفتح منه تجاويف أخرى كثيرة كما سبق أن أشرت. كان ذلك أشبه بالمتاهة أو الدهليز، فكل هذه الأماكن تتشابه تشابهًا كبيرًا مع المكان الذى دخلناه أول مرة. وفى النهاية رأينا طريقًا بدا لنا أنه الطريق الصحيح، فمضينا فيه لمدة طويلة، لكنَّ شموعنا بدأت تتضاءل بدرجة كبيرة، وخشيت من اضطرارنا للبقاء فى الظلام إذا لم نستطع الخروج بأسرع ما يمكن، وفى الوقت ذات من الخطورة إطفاء إحدى الشموع حتى تظل الأخرى مضاءةً لئلا تنطفئ الشمعة التى تركناها مشتعلة لسبب أو لآخر. فى تلك الأثناء تقدمنا كثيرًا نحو الخارج - كما ظننا - لكننا وللأسف لم نجد أى مخرج عند نهاية ذلك التجويف. وعندما اقتنعنا بأننا كنا مخطئين فى حساباتنا؛ أسرعنا الخطى عائدين إلى المكان ذى المداخل المتعددة التى جاهدنا حتى ندخل فيها مرةً أخرى. لكننا كنَّا أكثر اضطرابًا من أى وقت مضى، كما أرهقتنا عمليات الصعود والهبوط التى اضطررنا للقيام بها. وجلس العربى على الأرض، إلا أن كل لحظة تأخير خطيرة. كانت الوسيلة الوحيدة هى وضع علامة على المكان الذى خرجنا منه توًا، ثم نتولى الدخول فى باقى الفتحات بالتوالى مع وضع علامة على مدخلها أيضًا حتى نتعرف على المكان الذى كنا فيه. وللأسف لم تكن شموعنا لتبقى حتى ندخل كل الفتحات، لكننا بدأنا عملية البحث بالرغم من ذلك.

أثناء المحاولة الثانية حينما مررنا أمام إحدى الفتحات الضيقة، ظننت أننى سمعت صوتًا أشبه بهدير البحر من على بُعد؛ وعلى هذا الأساس دخلت هذه الفتحة، وعلا الصوت كلما تقدمنا فى سيرنا إلى الأمام حتى استطعت أن أميز عددًا من الأصوات فى الوقت نفسه. وأخيرًا أشكر للرب أننا خرجنا من الكهف، ولشدَّ ما كانت دهشتى عندما اكتشفت أن أول شخص أراه بعد خروجى من الكهف هو ترجمانى. لم استطع أن أخمن كيفية وصوله إلى هناك، وأخبرنى الترجمان أنهما وصلا أثناء سيره مع الرجل العربى خلال الممر المتجه إلى أسفل الكهف عند حفرة عميقة لم يرياها؛ فسقط العربى فى هذه الحفرة، فأطفأ بذلك كلا الشمعتين. وكان منه عندئذٍ أن صاح "يا إلهى! ضللت الطريق" ظناً منه أنه سقط فى الحفرة أيضًا، لكنه عندما رفع رأسه

رأى بصيصًا من نور النهار من بعيدٍ؛ فسار نحوه حتى وصل إلى فتحة صغيرة، ثم كشط بعض الرمال والأحجار المتفتتة حتى يوسع المكان الذى خرج منه، وفَزَّعَ الرجل إلى العرب الذين تواجدوا عند المدخل الآخر. وحرصًا منهم جميعًا على الرجل الذى سقط فى قاع الحفرة، فإن أصواتهم هى ما سمعته من أصوات مختلجة فى الكهف. وُسِّعَ المكان الذى خرج منه الترجمان على الفور، وفى اضطراب الأحداث لم يلْقِ العرب بالاً إذ جعلونى أعرف أنهم كانوا على علم بذلك المدخـل إلى جانب إغـلاقه مؤخـراً. ولم يستغرق منى الأمر وقتًا طويلاً حتى اكتشف خطتهم، فأراد العرب أن يرونى التابوت دون أن يرونى الطريق الذى يمكن استخراجه منه؛ ثم يشترطون بعد ذلك سعراً لمعرفة السر. ولهذا الغرض جعلونى أدور حول نفسى فى ذلك الطريق.

اكتشفت أن التابوت لم يكن فى الحقيقة يبعد مائة ياردة عن المدخل الكبير. وسرعان ما أُخْرِجَ الرجل من البئر، لكنه أُصيبَ إصابة بالغة فى أحد رِدْفيه ظل على إثْرِها يعرج على ساقه منذ ذلك الحين. وعندما رأيت أن باستطاعتى استخراج غطاء التابوت، أصدرت الأوامر إلى نفرٍ من الرجال بالعمل على تنظيف الممر، لكننى وجدت فى اليوم الثالث بعد عودتى من مقابر الملك أن الكاشف استأنف حيله القديمة، فقد جاء إلى القرنة من إرمنت، فلما رأى العرب على رأس العمل؛ أخذهم جميعًا إلى إرمنت، وقيَّدهم كما يُقَيَّد اللصوص، وزجَّ بهم فى السجن. لم استطع أن أتصور السبب وراء كل هذا بعد الوعود التى وعدته بها، والعهود التى قطعها على نفسه لى، لكننى وبعد بحث واستقصاء، عرفت أن بعضًا من عملاء مستر د. وصلوا لتوهم من الإسكندرية وأحضروا له بعض الهدايا. لا أعرف ما الذى دار بينهم، فأنا لا أذكر إلا الواقعة كما بدت للعيان. وتقدمت إليه مرة أخرى بطلبى، فقال إن التابوت بِيعَ إلى القنصل الفرنسى، وليس لأحد غيره الحق فى أن يأخذه. تظاهرت بأننى غير مكترث تمامًا بهذا الشأن، وكذلك بالنسبة للعرب الذين أودعهم السجن لأننى لو أظهرت اهتمامى واكتراثى بالموضوع لأبقاهم فى السجن لمدة أطول لأنه يتصرف بدافع الجشع وحب المال. وأخبرته أننى سأكتب إلى القاهرة بشأن هذا التابوت، وإن كان حَرِيًا بى فى الحقيقة أن أكتب إلى مستر سولت حتى يرسل إلىَّ بقارب لنقل التمثال شمالاً خلال النيل،

وذلك لعدم القدرة على الحصول على أى قارب فى ذلك الموسم فى الصعيد، فكلها مشغولة لصالح الباشا فى الأغلب.

وبعد أن بعثت برسالة إلى القنصل بخصوص القارب، رأيت أن الوسيلة المثلى لاستغلال وقتى هى الإبحار جنوبًا فى النيل، فهو أمر لا يتطلب منى تكاليف إضافية، كما أن القارب الذى معى يمكن أن يأخذنى إلى حيث أريد. وبمرور الوقت وصل الرد من القاهرة بما يفيد بضرورة رجوعى إلى القاهرة. طلبت دائمًا وضع حارسَيْن على التمثال النصفى ليل نهار، لكنى رأيت أننى لن أستطيع الحصول على قارب لننطلق به دون الكتابة إلى القاهرة، فأمرت ببناء سورٍ من الطين حول التمثال، وفى اليوم الثامن عشر شددنا الرحال إلى إسنا. تضاءل عددنا فى هذه الرحلة النيلية لأننى أرسلت الفتى الأيرلندى إلى القاهرة، وطردت النجار من العمل، ولم يَبْقَ معنا سوى العسكرى الإنكشارى والترجمان. وصلنا إلى إسنا فى اليوم التالى، ونزلنا بالمكان فى الوقت المناسب لنرى خليل بك فى مساء اليوم نفسه، وقد أتيحت لى من قبل التعرف إلى الرجل فى شبرا. عُيِّنَ خليل بك حاكمًا على الأقاليم أو المديريات الجنوبية من إسنا وحتى أسوان، ونظرًا لزواج هذا الرجل بإحدى أخوات الباشا، فإن هذا أعطاه استقلالاً تامًا عن أوامر وفرمانات الدفتردار بك فى أسيوط. وذهبت إليه بعد غروب الشمس وحلول الليل، وكان هو عائدًا لتوه من نزهة قصيرة فى البلدة، وجدته جالسًا على أريكة من الطين مغطاة بسجادة من النوع الفاخر ووسائد من الساتان، ويحيط به عدد كبير من كبار العاملين لديه ومن الكُشَّاف والشيوخ، وكانوا قد انتهوا لتوهم من تناول طعام العشاء، لذا فهذا أفضل وقت لتجاذب أطراف الحديث. سرته رؤيتى كثيرًا، وعرض علىَّ أن يعطينى رسائل موجهة إلى كل الناس الذين يعملون تحت إمرته. وعندما عرف أننى قد أمضى فى السير حتى أبريم، طلب أن يُكْتَبَ كتابٌ إلى حُسَينٍ الكاشف الذى كان واحدًا من الأمراء المقيمين فى النوبة، ولأن النوبيين يدفعون ضريبة أو جزية سنوية إلى خليل بك، فقد أرسل جنوده إلى هناك، وبذلك أصبح هو وأهل النوبة على وفاق. وفى اللحظة التى دخلت فيها العساكر المصرية النوبة لجباية الجزية، انطلق الأمراء سريعًا إلى الجنوب فى النيل، ولم يرهم أحد بعد ذلك.

طُرِحَ الحديث المعتاد عن الخيول وما إليها جانبًا. كنت ذاهبًا إلى النوبة، لذا دار الحديث حول مختلف الشخصيات الهامة التى يجب علىَّ الالتقاء بها فى ذلك البلد، والمخاطرة التى سأواجهها من التعرض للسرقة من قبل أهل هذا البلد وما إلى ذلك من موضوعات. وبعد تدخين الكثير من الشيشة، وشرب عدد كبير من فناجين القهوة، تركت البك وعدت إلى القارب.

وفى اليوم التالى تفحصت المعبد الموجود بتلك البلدة على عجالة. كان المعبد مملوءًا بالقمامة، ولا يظهر منه الآن إلا رواقه أو بهو الأعمدة، لكن التشكيلة الرائعة من قواعد الأعمدة متقنة الصنع بالإضافة إلى صور دائرة الأبراج على السقف تعلن كلها أن هذا المعبد من أهم المعابد المصرية القديمة. وتتميز الرسومات والنقوش الهيروغليفية بأنها أكبر بعض الشىء من تلك الرسومات والنقوش الموجودة على معبد دندرة، ومن عظيم الأسف أن مثل هذه المبانى الجميلة يسكنها الآن العرب القذرين وماشيتهم.

وفى يوم العشرين من الشهر مررنا أمام الليثية Elethias تدفعنا رياح قوية؛ ولذلك لم نتوقف حتى وصلنا إلى إدفو. ويمكننا أن نقارن هذا المعبد بمعبد دندرة من حيث الحالة، وهو أكثر منه أهمية وحجمًا. أما المدخل الرئيسى فهو من أكبر مداخل المعابد وأكثرها احتفاظًا بحالته الأولى فى مصر كلها، فهو مغطىً من كل جوانبه برسومات ضخمة بالنقش الغائر، ويضم المعبد الكثير من المقصورات والحجرات بداخله يصل إليها الضوء من خلال فتحات ضيقة مربعة من الجانب. أمامنا الآن واحد من مجالات البحث المثيرة للفضول التى لم يتناولها أحد بالشرح والتفصيل من قبل فى رأيى. فإذا نظرنا إلى هذه الفتحات المربعة أو النوافذ من داخل الحجرات، سيبدو لنا أنها صممت بغرض إضاءة هذه المقصورات أو الحجرات، أو للحفاظ على حُلِىّ أو رموزٍ معينة تُوضَع فيها من حين لآخر فى أيام الاحتفالات؛ ومن ذلك يمكننا استنتاج أنها أُسست فى نفس الوقت مع المبنى. لكن هذه النوافذ نفسها - إذا نظرنا إليها من الخارج - نجد أنها تتصل بالرسومات الضخمة المنحوتة على الجدران، ويظهر بعض منها كأنه مقطوع حيث صممت هذه النوافذ؛ لذا ومن الظاهر لنا من الخارج يمكننا استنتاج أن هذه الفتحات الضيقة صُممت بعد الانتهاء من تشييد المبنى. وأنا أرى من

جانبى أن هذه الفتحات إنما صُممت بعد تشييد المعبد بمدة طويلة لإضاءة الحجرات أو المقصورات التى أقام بها أناس يدينون بدين مختلف عن دين مَنْ شيدوا المعبد. ويتسم رواق الأعمدة pronaos بالسعة والرحابة، وهى الوحيدة التى ظلت محتفظة بحالتها الأولى فى مصر من بين مثيلاتها، وذلك رغم تكدسها تمامًا بأكواخ العرب. يتصف بهو الأعمدة أيضًا بالفخامة، لكن أكثر من ثلاثة أرباعه - للأسف - تغطيه القمامة. ودخلت الحجرات الداخلية من خلال بعض الفتحات فى القسم العلوى من المحراب أو الحَرَم sekos ، لكن تلك الفتحات كانت مسدودة للغاية بما حال بينى وبين المضى قدمًا. بنى الفلاحون جزءًا من قريتهم على قمة هذا المعبد إلى جانب بناء زرائب أو إسطبلات لبهائمهم ومواشيهم. ويحيط بالمعبد سور عالٍ وسميك يمتد من كلا جانبى المدخل الرئيسى، وبهذا يطوق المبنى كله. ولا تغطى الرسومات والنقوش الهيروغليفية المعبد فحسب، بل تغطى كل جزء من أجزاء السور. شاهدت على السور الجانبى للرواق تصويرًا لهاربوقراطيس(٢١) Harpocrates الذى وصفه مستر هاميلتون جالسًا على زهرة لوتس متفتحة عن آخرها وهو يضع إصبعه على شفتيه كما يظهر فى معبد دندرة الصغير، وتبدو على الجانب الغربى من السور صورة لحيوان أحادى القرن(٢٢)، وكانت هذه الصورة من الصور القليلة التى شاهدتها للحيوانات فى مصر. فالفيل لا يمكن أن تراه إلا فى مدخل معبد إيزيس فى جزيرة فيلة، ويظهر الحصان كنقش هيروغليفى على السور الخارجى الشمالى فى مدينة آبو، كما نرى الزرافة على جدار

(٢١) هاربوقراطيس Harpocrates : تصوره الأساطير اليونانية والرومانية كطفل رضيع يضع إصبعه على شفتيه، ويقابله فى الأساطير المصرية القديمة شخصية "حورس" إله السماء والنور والخير، وحورس من الآلهة المصرية القديمة الرئيسية، فهو ابن "إيزيس" ربة الطبيعة و"أوزوريس" إله العالم السفلى. وبعد أن اغتال ست إله الظلام والشر أخاه أوزوريس، انتقم حورس لمقتل أبيه بقتل عمه. ويظهر حورس فى شكله المصرى على هيئة طائر الباز أو على هيئة إنسان له رأس الباز. [المترجم]

(٢٢) أحادى القرن unicorn : حيوان خرافى ذو لون أبيض لا يخالطه لون آخر، له رأس الحصان وأرجله، ويتميز بقرن طويل ومنحنٍ فى منتصف جبهته. ونظرًا لأنه يرمز إلى القداسة والعفة، فقد شاع هذا الحيوان فى الرسومات التى زينت اللوحات القماشية فى العصور الوسطى، واستخدم أحادى القرن على نطاق واسع فى علامات فن اقتفاء الأثر والأنساب. [المترجم]

الحرم الخاص بمعبد الممنونيوم، وفى ظهر المعبد فى إرمنت. وإذا طالعت مبنىً بمثل هذه العظمة والفخامة والإتقان فى الصنعة والقيمة الأثرية والتاريخية، يسكنه أناسٌ من أنصاف الهمج والبرابرة الذين تلتصق أكواخهم به التصاقًا بما لا يختلف عن أعشاش الدبابير، وتُقابِلَ بين ملابسهم القذرة وهذه الصور المقدسة التى كانت يومًا محل درجة عالية من التبجيل والتقديس، فسوف ينتابك هذا الشعور القوى بالتباين بين حالتى مصر القديمة والحديثة. أما المعبد الصغير فذو أبعاد صغيرة، ويوجد به بهو للأعمدة فى الواجهة، ولا يُرى منه الآن سوى بقايا الأعمدة المدفونة تحت الركام والقمامة. يقول البعض إن هذا المعبد خُصِّصَ لعبادة أبوللو[٢٣] Appollo ، لكننى لا أعرف السبب الذى يجعلنا لا نفترض أن المعبد كان مخصصًا لعبادة تايفون مثلما افترضنا أن معبد دندرة كان مخصصًا لعبادة إيزيس. تزين رؤوس إيزيس القواعد مربعة الشكل على الأعمدة فى دندرة، وهذا من القرائن الأساسية التى تشير إلى الإله أو الإلهة التى خُصِّصَ لها المعبد. وفى معبد إدفو، تبدو صورة تايفون موضوعة على قواعد الأعمدة بصورة مشابهة لمعبد دندرة، ورغم وجود صورٍ لعوامل الطبيعة المفيدة على الجدران،

(٢٣) أبوللو Apollo : وفقًا للأساطير الإغريقية، أبوللو ابن الإله "زيوس" و"ليتو" ابنة أحد العمالقة. ولد أبوللو فى جزيرة ديلوس واشتهر بأنه قتل "البايثون" تلك الأفعى الخرافية التى كانت تحرس أحد الأماكن المقدسة عند سفوح جبل بارناسوس. كان أبوللو فى أعمال هوميروس الأسطورية إله النبوءة فى الأصل، وكانت أهم أماكن الوحى لديه فى دلفى وهو المكان الذى انتصر فيه على الأفعى بايثون. وأحيانًا ما كان أبوللو يعطى النبوءة منحة منه لمن يحبهم من الفانين من البشر مثل الأميرة الطروادية "كاساندرا".

كان أبوللو موسيقيًا موهوبًا شنَّفت ألحان قيثارته آذان الآلهة، كما كان قواسًا لا يعلى عليه وعداءًا سريع العدو نال مكانة رفيعة بفوزه بالمركز الأول فى الألعاب الأوليمبية. كانت أخته التوأم "أرتميس" حارسة على الشابات، بينما كان أبوللو الحامى والمدافع الخاص عن الشباب. وهو أيضًا عند الإغريق إله الزراعة والماشية والضياء والحقيقة، كما علَّم البشر فن العلاج والتطبب.

وتصور بعض الحكايات أبوللو قاسيًا أو جهمًا لا تعرف الابتسامة طريقًا إلى وجهه، فقد أورد هوميروس فى "الإلياذة" أن أبوللو ردَّ على صلوات الكاهن كرايسيس رغبة فى إطلاق سراح ابنته من يد الجنرال الإغريقى "أجاممنون" بإطلاق سهامٍ نارية مسممة على الجيش الإغريقى. واختطف أبوللو الأميرة الأثينية الصغيرة "كروسا" واغتصبها ثم تركها بعدها لتضع الطفل لهم. ولعل الجمال الذى يتمتع به أبوللو هو ما جعله من بين أكثر الآلهة الإغريقية ظهورًا فى الفن القديم. [المترجم]

فإنها وضعت هناك كنوعٍ من التقابل لتوضيح القوة المدمرة للإله القاسى. وإذا مضينا جهة الجنوب فإننا سنجد جزءًا من أحد المبانى الذى كان بلا شك مدخلاً رئيسيًا ثانيًا لأنه يواجه المدخل القائم الآن. فإذا مضينا أكثر سنجد معبدًا صغيرًا لم تلحظه أعين معظم الرحالة وبهذا المعبد طريق كباش يؤدى فى خطٍ مستقيم إلى المعبد الكبير. ولهذه الكباش أو لتماثيل أبى الهول التى نظفت الكثير منها من التراب والغبار المحيط بها جسم أسد ورأس امرأة بالحجم الطبيعى. هناك تلال عالية من الأنقاض تحيط بهذه المعابد، ويحتمل أن تدفن بها الكثير من القطع الأثرية.

لم نتوقف عند مرورنا بجبل السلسلة نظرًا لتوفر الرياح المعتدلة، وأجلت زيارة ذلك المكان لحين رجوعنا. وفى يوم الثانى والعشرين وصلنا إلى كوم أمبو[٢٤] Ombos . تعطينا الأنقاض القائمة حاليًا فكرة واضحة عما كانت عليه البلدة فى الماضى. وتشكل أعمدة الرواق واحدة من أفضل وأرقى نماذج العمارة التى رأيتها، أما النقوش الهيروغليفية فهى مصممة بعناية لدرجة أن البعض منها لا يزال محتفظًا بألوانه. وتوجد على الساحل بقايا معبد أصغر حجمًا سقط بعضه فى النيل. وأحجار هذا المعبد الصغير ليست كبيرة كمعظم الأحجار فى سائر المعابد مما يثبت أن المصريين القدماء اعتنوا عناية كبيرة بتناسب الأحجام باعتباره من النقاط المهمة فى التأثير المقصود. وتشى هيئة هذا المعبد الصغير بشىء من العظمة والشموخ، ولا تزال بعض الرسومات

(٢٤) أمبوس Ombos : هى مدينة "كوم أمبو" الحالية التى تقع على بعد حوالى ٤٨ كم شمالى السد العالى بمحافظة أسوان. وتقع المدينة التى تعتبر مركزًا زراعيًا وكذلك مركزًا لتكرير السكر وحلج القطن على الضفة الشرقية لنهر النيل بين الطريق السريع فى الوادى وخط السكة الحديدية القاهرة – أسوان. وتقع مدينة أمبوس القديمة إلى الجنوب والجنوب الغربى من مدينة "كوم أمبو" الحالية. تعرف أمبوس بمعبدها المزدوج الفريد من نوعه الذى يرجع تاريخه إلى العصرين البطلمى والرومانى، وكان ذلك المعبد مخصصًا لعبادة سيبيك Sebek (سوخوس) Suchos الإله التمساح وحورس الإله ذى رأس الباز. كما تسبب نهر النيل فى تآكل أجزاء من بوابة المعبد وساحته. وربما يعزى تأسيس مدينة أمبوس إلى موقعها الاستراتيجى حيث تتحكم فى كل من نهر النيل والطرق المؤدية إلى منطقة شمال النوبة ووادى النيل. ازدهرت هذه المدينة القديمة بوجه خاص فى عهد الأسرة البطلمية الهلينية (٣٠-٣٠٤ ق.م) حيث أصبحت عاصمة إقليم أمبوس المستقل [المترجم نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية].

فيه محتفظةً بألوانها رغم تعرضها للهواء الطلق. وتتضح فى هذا المعبد كما فى غيره من المعابد نفس درجة التآكل والتهدم، فالمذبح متهدمٌ تماماً، ويمكن رؤيته عندما يقل منسوب المياه، وهو عبارة عن قطعة من الرخام الرمادى اللون بلا نقوش هيروغليفية. وبالقرب من الساحل بعض المهابط ذات سلالم مغطاة تؤدى إلى المعبد، لكن الرمال تملؤها عن آخرها. لدينا ما يجعلنا نعتقد أن هذا المعبد الصغير كان مخصصاً لعبادة إيزيس لوجود لرؤوس تلك الإلهة على قواعد العمودين مثل تلك الرؤوس الموجودة على الأعمدة فى معبد دندرة.

رَسَوْنا على الضفة الغربية للنيل قبل وصولنا إلى أسوان. وتتخذ البلد هنا هيئة تبعث على السرور أكثر من أى مكان مررنا به منذ مرورنا بجبال السلسلة. فهناك أعداد كبيرة من أشجار النخيل على كل جانب من جانبى النهر، بالإضافة إلى بعض المناطق المزروعة من الأرض التى تمتد من النيل إلى الجبال. إن منظر أسوان من بعيد من المناظر التى تُسَرُّ لها أعين الناظرين، ولعل ما يزيد من هذا الأثر حالة الجدب فى الأراضى السابقة لأسوان. وتقع مدينة أسوان القديمة على تل يطل على النيل، وتقع إلى يسار المدينة غابة من أشجار النخيل تخفى وراءها المدينة الحديثة، أما من جهة اليمين يمكن أن ترى من على بعدٍ منظر الجبل الجرانيتى الذى يشكل الشلال. وتبدو جزيرة إلفانتين (فِيلة) كأنها صورة مقابلة للقُحول والجدب فى الضفة الغربية، فهى تملأ الخلفية بمجموعات متعددة الألوان من مختلف الأشجار، كما تشكل الصخرة العالية التى تقع جهة الشِمال مع أنقاض أحد الأديرة القبطية الذى يقع على قمتها تقريباً منظراً لم يعتد عليه الرحالة الذين قدموا إلى مصر، ولعل هذا هو السبب الذى دفعهم إلى وصفه بهذا القدر من الشغف والإعجاب. رسا القارب بنا عند سفح التل جهة اليسار من نهر النيل، وذهبنا لرؤية أنقاض الدير حيث شاهدت الكثير من الكهوف التى كانت بمثابة كنائس صغيرة لأداء فروض العبادة المسيحية. ويتكون الدير من عدد كبير من الصوامع الصغيرة ذات الأقواس والمنفصلة عن بعضها البعض، وتشرف هذه الصوامع على منظر للجندل وأسوان والقسم الجنوبى من النيل يَسُرُّ الناظرين. وأظن أن أحد التقاليد العربية المتصلة بهذا المكان تستحق منا وقفة.

يقول العرب إن في هذه البقعة من الأرض كنزًا كبيرًا تركه أحد ملوك البلاد القدامى قبل مغادرته إلى أعالي النيل ليدخل حربًا ضد الأحباش. كان هذا الملك بخيلاً جدًا لدرجة أنه لم يترك لأسرته أي شيء يعيشون منه، وكانت بينه وبين أحد السحرة صداقة حميمة، فعَهِدَ لذلك الساحر بحراسة كنزه لحين عودته. لكن ما إن ذهب الملك حتى جاء أقاربه في محاولة للاستحواذ على الكنز، وقاومهم الساحر الذي قُتِلَ دفاعًا عن عهدته، وتحول الساحر إلى أفعى ضخمة ابتلعت كل من هاجمها. ولم يعد الملك حتى ذلك الحين، لكن الأفعى ظلت عينًا حارسةً على الكنز، وتخرج هذه الأفعى من منطقة الكهوف مرة واحدة كل ليلة عندما تتخذ النجوم وضعًا معينًا مستعينة بضوء قوي على رأسها يصيب كل من يحاول أن ينظر إليها بالعمى. وتتميز هذه الأفعى بضخامة حجمها، وتنزل النيل حيث تشرب، ثم تعود أدراجها إلى كهفها لتراقب الكنز لحين عودة الملك.

في يوم الرابع والعشرين وحين وصلنا إلى أسوان، تقدمت بطلب إلى الأغا حتى يوفر لنا قاربًا نمضي به إلى النوبة، لكن ونظرًا لأننا كنا في آخر يومين من رمضان، لم يُتَح لنا الحصول على أي منها لأن الجميع كانوا يحتفلون بالعيد. وفي المساء نفسه ذهبت إلى أطراف مدينة أسوان، ووجدتها أكثر اتساعًا مما بدت عليه عندما رأيتها من الخارج. تقع المدينة على صخرة جرانيتية، ويتسم موقعها هذا بقدر من الروعة والجمال لا حد لهما. ويشرف القسم الأعلى من المدينة على منظر الشلال وجزيرة إلفانتين والمدينة الجديدة. ويمكن رؤية محاجر قدماء المصريين الجرانيتية في كل مكان، ويمكن من هذه البقعة أن ترى الشلال رؤية كاملة، فهذا الشلال لا يكاد يصبح شلالاً حينما يرتفع منسوب المياه، لأنه يتكون من مجرد بضعة منحدرات حيث تقسم مجرى النهر عدد من الجزر الجرانيتية المتناثرة هنا وهناك، ويصعد النهر تدريجيًا حتى جزيرة فيلة التي تبعد عن أسوان ثلاثة ساعات تقريبًا بالسفر في النيل وساعتين فقط برًا. وعندما ينخفض منسوب النيل، فإن الشلال يظهر بشكل مختلف كما سأتناوله بالوصف فيما بعد. وتظهر فيما وراء المدينة الجديدة بقايا معبد مصري قديم مدفونٍ تحت الانقاض والحجارة لدرجة أن كثيرًا من الرحالة لم يلاحظوا وجوده.

وعند عودتى إلى القارب وجدت الأغا وكل بطانته جالسين على حصيرة تحت مجموعة من أشجار النخيل بالقرب من الماء. وكانت الشمس وقتئذٍ فى طريقها للغروب، ونمت ظلال الجبال الغربية حتى وصلت إلى النيل لتغطى البلدة. وفى هذا الوقت يتجمع الناس فى جماعات شتى هنا وهناك ليشربوا القهوة وتدخين الشيشة والحديث عن الجِمال أو الخيول أو الحمير أو الدُّرَة أو القوافل أو المراكب. وصعد الأغا على ظهر المركب وتبعه من أتباعه ما استطاع المركب أن يستوعب من بشر، فقدمنا إليهم القهوة دون تمييز، وأعطينا كل واحد منهم حصة صغيرة من التبغ. أرسلت إلى منزل الأغا هدايا عبارة عن قرابة رطل من التبغ وبعض الصابون والبن الخام؛ فقبلها بكل سرور. نمَّت أخلاقه وسلوكه عن قدر كبير من التحرر، وعرض علينا انطلاقًا من دافع المصلحة الشخصية أن يمدنا بقارب من قواربه الخاصة. رأيت أن ذلك هو الأفضل لأننا سنحظى – كما افترضت – باحترام أكبر من أهل النوبة أينما ذهبنا. وعدنى الأغا بضرورة مقابلة ريس المركب النوبية فى نفس المساء، لكنه لم يأت. ورغم ما يتصف به ملبس الأغا من بهرجة، فإن بيته من الداخل لم يكن متوافقًا مع ما يرتدى من ملابس، وهذا غير متصل بأى حال من الأحوال بما عليه حال الكثير من الموظفين لدى الحكومة العثمانية فى القاهرة الذين لا يجرءون على إظهار أقل مظاهر الثراء والغنى حتى لا يثيروا الشك فى احتيالهم على سيدهم مما يثبت زوال أثر الخوف من الأتراك العثمانيين بدرجة كبيرة هنا. وبينما كان الأغا معنا فى القارب، وجدت زوجتى الفرصة لزيارة حريم الأغا أو الحرملك الذى يتكون من بيتين لأن الأغا الكبير فصل الزوجات الكبيرات عن الصغيرات رغم أنه لا يزال يزورهن.

ذهبت مبكرًا فى الصباح التالى لرؤية جزيرة إلفانتين التى يسميها العرب جزيرة الشال. لم أستطع الحصول على أى مركب من الشاطئ حيث كنا؛ فذهبنا إلى البلدة القديمة، وعبرنا بالمعدية المصنوعة من سعف النخيل المربوط بعضه إلى بعض بحبال صغيرة وتغطيه من الخارج حصيرة مدهونة بالقار من كل الجوانب. كنا تسعة أشخاص فى القارب الذى بلغ طوله عشر أقدام، وعرضه خمس أقدام، ويزن على الأرجح قرابة خمسين رطلاً. وتبلغ تكلفة القارب الجديد اثنا عشر قرشًا أو ستة شلنات.

وعندما وصلنا إلى الجزيرة، ذهبت لرؤية المعبد الذى يُفْترض أنه مخصص للأفعى كنوفيس[٢٥] Knuphis ، والحق أقول إن هذا المعبد هو المبنى الأثرى الوحيد الذى يستحق الذكر. يتكون المعبد من حجرة واحدة بها بابان فى مواجهة بعضهما البعض، ورواق من الأعمدة مربعة الشكل يحيط بالمكان كله. تزين الجدران نقوش هيروغليفية، وللمعبد سلَّمٌ يقع فى الواجهة. ولم أتمكن من رؤية القاعدة المحفور عليها بالنقوش الإغريقية التى أوردها مستر نوردن فيما ذكر. وهناك سلَّمٌ يمتد تحت الأرض من المعبد إلى النهر، ويوجد فوقه بقليل قسمان من جانبَى أحد المداخل المبْنِىِّ من قوالب الجرانيت مربعة الشكل والمحفور عليها بالنقوش الهيروغليفية. كما توجد الكثير من أحجار الجرانيت الضخمة الملقاة هنا وهناك، والظاهر أنها كانت لمبنىً مهول الحجم. فإذا مضيت إلى قلب الجزيرة وجدت شيئًا أشبه بالرواق المبْنِىِّ من العديد من الأعمدة المربعة المصنوعة من الحجر الرملى التى تملؤها النقوش الهيروغليفية. وتظهر الصخور الجرانيتية الزرقاء بارزة من الأرض وتعمل بمثابة قواعد أو أساسات. ورأيت تمثالاً من الجرانيت لا يبعد كثيراً عن المعبد أعتقد أنه لأوزوريس يصل حجمه إلى ضعف الحجم الطبيعى. يجلس التمثال على كرسى محفورٌ عليه نقوش هيروغليفية، ضامًا ذراعيه إلى صدره، لكنَّه متآكل للغاية حتى بدا لى أنه ليس أهلاً لأن ننقله من مكانه.

عبرت الجزيرة، ووجدت أن بها كثيراً من أشجار الطلح والجميز. أما الأرض فهى مزروعة بأحسن ما تكون الزراعة، ويوحى المنظر العام بالجمال والحُسْن، لكنه ليس بهذا الجمال والروعة التى خلعها عليه بعض الرحالة. وعبرت النهر؛ فرأيت صخور الجرانيت محفورةً عليها النقوش الهيروغليفية ويقطعها مقياس النيل. ورجعت إلى مركبنا، واستعددنا للرحيل.

(٢٥) الأفعى كنوفيس Knuphis : هو الاسم المصرى القديم المقابل للاسم اليونانى القديم Kneph . كنوفيس هى الربة الخاصة بجزيرة إلفانتين. كما كانت تعبد أيضًا فى المناطق الجنوبية من مصر مثل النوبة وإثيوبيا. ويدل اسمها فى كل من المصرية القديمة واليونانية على معنى "الروح" أو "النَفَس". كما يدل اسمها أيضًا على معنى الخالق أو بمعنى أخص خالق البشر. وهو عند المصريين القدماء أيضًا "رب الفيضان". [المترجم]

في صباح يوم الخامس والعشرين من أغسطس انتظرت حتى أقابل الريس الذى وعدنى الأغا بأنه سيرسله إليَّ ليلة البارحة، لكن لم يأت أحد. وذهبت إلى الأغا فى فترة ما بعد الظهر، فكرر على مسامعى أنى سأقابل الريس بعد دقائق معدودة. وانتظرت يحدونى الصبر لفترة من الوقت، وفى النهاية جاء الأغا نفسه وصعد إلى القارب. وبعد طقوس المضايفة والأحاديث الرسمية المعتادة، أراد الأغا أن يفهمنى ضرورة الوصول إلى اتفاق بخصوص المال الذى ينبغى دفعه بالنسبة للقارب، فأخبرته بأننى سأكون فى غاية السعادة لو قابلت الريس نفسه بخصوص هذا الموضوع. فرد قائلاً إننى لو اتفقت معه، فهذا نفس الشيء، وأضاف أن المركب جاهزة، لكنه طلب مبلغًا طائلاً من المال؛ فأخبرته بأننى لن أدفع مثل هذا المبلغ، وأننى سأتوصل إلى وسيلة أجد بها ريسًا للمركب يعرف الشلال ويمضى بمركبنا فى النيل. وبدا واجمًا شديد السخط من ردى هذا، وقال إن ريس الشلال لن يوافق على العمل مع أى بحارة سوى بحارتهم.

ذهبت مع العسكرى الإنكشارى والترجمان إلى جنوبيِّ الشلال عند مُرادا التى تبعد مسافة ساعتين. وعرض اثنان من عساكر الأغا أن يصحبانا، لكنى أخبرتهما أننا لسنا خائفين لأننا مسلحون بأفضل السلاح. أصروا أو كادوا على الذهاب معنا، لكننى لم أسمح لهم، لأننى أعلم أنهم لم يريدوا سوى أن يروا ما الذى سنفعله، وأن يقطعوا عليَّ خططى قدر المستطاع. وعندما وصلنا وجدنا القارب غير مجهزة وبلا سارية، ولم يكن الريس هناك. وعندما جَدَدْنا فى الطلب قابلنا رجلاً قاد بنا المركب إلى الشلال الأول وحتى الشلال الثانى، ثمَّ العودة بنا مقابل عشرين بتاك pataks وهو ما يعادل خمسًا وأربعين قرشًا أو أربعة دولارات ونصف. وعندما رجعنا أدراجنا، جاء ريس المركب الأول محتجًا وقال إن مركبه سيكون جاهزًا فى الصباح الباكر من اليوم التالى؛ فسألته عن السعر، إلا أنه قال إن هذا الأمر برُمَّتِه متروك للأغا. عندئذ تأكدت من حيل الأغا وألاعيبه، وفرحت لأن لدىَّ ريسًا يقود مركبنا، لكننى اكتشفت أننى أخطأت فى حكمى خطأً كبيرًا لأن الأغا هدد ريسنا العربى بألا يتقدم بمركبه قِيدَ أنملة لعدم وجودى فى هذه الرحلة، وسُرَّ الريس بإلقاء عصا الطاعة لأنه ظن أننى سأتركه هو ومركبه لينتظرنى فى أسوان حتى عودتى، وأننى سأدفع له راتبه الشهرى

أثناء الرحلة كلها. فلم أكد أصل إلى ظهر المركب حتى جاء الأغا بأقصى سرعة يصحبه رجال بلاطه وحاشيته وبطانته جميعًا بملابسهم الرثة وحُلِيِّهم المبهرجة. وارتدى الجمع عن بكرة أبيهم الملابس الجديدة احتفالاً بعيد رمضان المعظم[٢٦].

لا يمكنني أن أصف حالة فوضى الألوان وتنافرها التي تميز بها هذا الديوان العظيم، فترى الواحد من هؤلاء مرتديًا عباءةً جديدةً عليها عمامة رَثَّة، وآخر مرتديًا لعمامة فخمة معها عباءة رثة قديمة، وثالثٌ لا يرتدي عمامة ولا عباءة، بل شال أحمر من الصوف الفاخر يلفه حول جسمه، وكان الأغا نفسه رثَّ الملبس مُبَهْرَجَه بما لا مزيد عليه، إذ ارتدى من الملابس الأخضر والأحمر ودون أن يلبس قميصًا على ظهره. صعد الأغا إلى ظهر القارب يتبعه كل بطانته، وشاهدت الريس الذي أتيت به من مرادا يتقدم لتقبيل يد الأغا الذي رفض ذلك، وحَدَجَه بنظرة غاضبة: "هل تجرؤ على أن تمنعني من أن أطلق مركبًا"، عندئذٍ أخبرت الأغا إنْ كان حصولي على مركب من أي أحد سواه سيسبب أي مشكل، فإنه يَحْسُن بي الرجوع من حيث أتيت لأنني لست حريصًا على رؤية بلدٍ ليس فيها شيء يثير اهتمامي، ولن ينالني منها سوى النفقات الباهظة. فلما سمع هذا الكلام أصبح على الفور لطيفًا رقيق المعاملة، وزاد في لطف معاملته ودماثة خلقه عندما ألقيت على مسامعه أنني مُصرٌّ على العودة وأنني لن أتقدم شبرًا واحدًا؛ فقد عِيلَ صبري من كثرة ما أُلقي في طريقي من عقبات وعراقيل. وكانت النتيجة أنه عرض عليَّ قاربه بسعر يمكن لأي نوبي أن يدفعه إلى جانب وضع القارب تحت تصرفي كليةً، أتوقف حيث أشاء وانطلق حيث أشاء، والذهاب بنا حتى الشلال الثاني والرجوع بنا مرة أخرى، ولا يهم المدة التي سنقضيها في أي مكان ولو يومًا بليلة إذا راق لي الأمر، ويلتزم الريس بأن يأتي بأربعة بحارة غيره إلى ظهر المركب، ويوفر لهم الطعام، ويقدم لنا يد العون والمساعدة والمعلومات ما وسعه ذلك، وفي مقابل كل هذا يلزم عليَّ دفع مبلغ مائتي قرش أو عشرين دولارًا، وهذا أقل مما كان مفروضًا عليَّ أن أدفعه لو احتفظت بالمركب القديم من القاهرة، وهذا يعني أنني لم أتكبد أية تكاليف إضافية.

(٢٦) يقصد بلزوني هنا عيد الفطر المبارك وليس الاحتفال بحلول شهر رمضان بطبيعة الحال. [المترجم]

كان ما طلبه الأغا فى أول الأمر خمسين ألف بارة وهو ما يعادل حوالى مائة وعشرين دولاراً. من المفترض أن يُرسلَ متاعنا على ظهر المركب فى صباح اليوم التالى على ظهر الجمال، وأن ننطلق فى رحلتنا مع حلول المساء.

جاء الأغا ثانيةً إلى مركبنا فى الصباح الباكر يستجدى زجاجة خل أعطيتها له ومعها مبلغ بسيط من المال تقديراً لتعبه وحثًا له على الاهتمام بالمتاع والحاجيات التى تركناها وراءنا لحين عودتنا. وسُرَّ الأغا لهذا سروراً عظيماً، ووعد بأن يعمل ما وسعه الجهد على تسهيل وصولنا. وقُدِّرَ للمركب الذى حصلت عليه من القاهرة أن يعود من حيث أتيت به، فانتهزت الفرصة للكتابة للقنصل وأخبرته بخطتى فى الإبحار جنوبياً فى النيل حتى الشلال الثانى فى أثناء الفترة الزمنية التى يتطلبها وصول القارب من طيبة لنقل التمثال النصفى.

وصلنا مرادا فى المساء، وأقمنا فى القارب ما استطعنا ليلاً.

وفى صباح يوم السابع والعشرين، وقبل شروق الشمس بوقت طويل، وقفت عند مُؤخِّر المركب فى انتظار أن يكشف شعاع النور النقاب عن ذلك المنظر الجميل أعنى جزيرة فيلة بديعة الجمال. وكانت شدة حرصى على رؤية هذه الآثار بقدر عظَمِ ما تخيلته من منظرها، لكننى لما رأيتها رأى العين، ألفيتها تفوق أى شىء يمكن أن يجول بخيال البشر. عبرنا النهر، ومضت ثلاث ساعات بدت لنا كأنها بضع دقائق، وعقدت العزم على تفحص هذه الآثار تفحصاً دقيقًا بعد عودتى، لذا لم أقم إلا بإلقاء نظرة سريعة على الجزيرة. شاهدت هناك العديد من قوالب الحجارة عليها نقوش هيروغليفية بحالة ممتازة رأيت أننا يمكن أن نأخذها، هذا إلى جانب مسلة جرانيتية يبلغ طولها حوالى ٢٢ قدماً، وعرضها قدمان. ورأيت أنَّ باستطاعتنا أيضاً أن ننقل تلك المسلة بسهولة فهى تقع فى موقع لا بأس به لا يبعد كثيراً عن الشاطئ. وعند عودتنا إلى القارب أبحرنا، ووصلنا إلى دابود فى بحر ثلاث ساعات، لكننى لم أذهب لرؤية المعبد هناك لأن الرياح أتت كما اشتهينا ولم أُرِدْ أن أعدم فائدتها. لذلك، أجلت هذا أيضاً لحين عودتى، وتوقفنا بالقرب من الشاطئ فوق بسرديب الفرس.

يوم الثامن العشرين – مررنا على العديد من الآثار الواقعة على الضفة الغربية من النيل فى هذا اليوم، وهو الأمر الذى سأتناوله فيما بعد، وتوقفنا بحلول الظهيرة عند قرية تقع على الضفة الشرقية من النيل للحصول على الطعام على ما أظن لطاقم المركب. نزل ريس المركب والعسكرى الإنكشارى والبحارة إلى الشاطئ؛ بينما ظللت أنا وزوجتى والترجمان على ظهر المركب. وبعد مرور بعض الوقت، أتى نفرٌ من أهل البلاد إلى مركبنا، وبدا منهم الحرص على رؤية ما به، لكنهم لم يستطيعوا أن يشاهدوا ما فيه كما تمنوا بسبب ما يغطيه من حصر. واقترب أحدهم من المركب وتفحص كل شىء باهتمام، ثم تراجعوا جميعًا، ولم تمضِ بضع دقائق حتى رأينا أعدادًا منهم عائدين وهم مسلحون بالرماح ودروع مصنوعة من جلود التماسيح، واتجهوا نحونا مباشرةً وانضم إليهم قوم آخرون؛ فاستشعرنا عِظَم الخطر، ورأيت أن الوقت حان للوقوف على أهبة الاستعداد. رغم أننا كنا فى كامل سلاحنا، لم يكن فى المركب سوى ثلاثتنا، وعلى هذا الأساس أمسكت مسدسين فى يدىَّ الاثنتين، وأمسكت زوجتى بمسدس أيضًا، وأخذ الترجمان مسدسًا. واقتربوا منا بمراكبهم كأنهم يريدون أن يصعدوا إلى ظهر مركبنا. سألناهم عما يريدون؛ لكنهم لم يفقهوا كلامنا لانعدام معرفتهم باللغة العربية. كلمتهم بالإشارة بأن يبتعدوا عنا، لكنهم بدوا غير عابئين بكل ما قلناه أو فعلناه. ثم خَطَوْتُ خطوة إلى الأمام، ومنعت أول واحد منهم من الدخول إلى المركب ممسكًا فى الوقت نفسه بالمسدس فى يدى اليسرى. بدأ يُظهر خشونة طباعه وإن ظل معلقًا عينيه على المسدسات، بينما عمد الآخرون من ورائه على حثه على الصعود إلينا. وفى النهاية صوبت المسدس نحوه، وأخبرته بالإشارة أنه لو لم يمْضِ من هنا سأطلق النار عليه؛ فما كان منه إلا أن تراجع إلى الخلف، ومكث مع الآخرين لفترة من الزمن للتشاور فيما بينهم على ما يبدو. أخبرت الريس بما حدث لنا، فتكلم مع الرجال بلسانهم، لكنه – وفى الوقت نفسه – أطلق المركب لننطلق من الشاطئ إلى وسط النيل. عنفته على خطئه بتركه المركب دون أى أحد ممن يتحدثون لغة البلاد، فقال إن هؤلاء الناس بينهم وبين جيرانهم منازعات هى السبب وراء حملهم السلاح، وإنهم ما أرادوا المركب إلا للذهاب إلى جزيرة أخرى للاشتباك مع خصومهم من سكانها. ومهما كانت نواياهم سواء مهاجمتنا أو قتال أناس آخرين، فلم تكن هذه أو تلك مغامرة شيقة بالنسبة لنا.

مررنا أثناء سيرنا نحو قريتنا بتافه أو طافا[٢٧]، ودخلنا منطقة صخور جرانيتية. ويبدو النيل فى هذه المنطقة كأنما حُفِرَ له ممرٌ بين سلسلة من الجبال المرتفعة التى تقف عمودية تقريبًا على كلٍ من ضفتى النهر، وتنفتح تدريجيًا كلما اتجهنا جنوبًا على بلاد أخرى. وكلما تقدمنا إلى الأمام، امتد المنظر أمامنا أكثر وأكثر. فإلى اليمين من نهر النيل يمكن أن ترى عدة مجموعات من أشجار النخيل، ومن جهة اليسار يمكنك أن ترى منظر آثار كلابشة من بعيد، أما فى المنتصف سترى الجزيرة المسماة بنفس الاسم، تلك الجزيرة ذات المنظر المهيب من بعيد الذى يرجع إلى آثار بعض المنازل العربية[٢٨] التى تشبه القلعة. ووصلنا إلى هذه الجزيرة فى نفس المساء.

يوم التاسع والعشرين – وصلنا فى هذا اليوم إلى قرية اسمها الكلابشة. تقع عند بسفح إحدى الصخور المواجهة للنهر آثار أحد المعابد الذى يرجع ولاشك لفترة تاريخية متأخرة عن غيره من معابد النوبة، ويبدو لى أن المعبد تعرض للهدم بالقوة حيث لم أرَ أى علامة من علامات التآكل فى بنائه كما شاهدت فى المبانى الأثرية الأخرى، وما بقى صامدًا منه يثبت بوضوح أن الزمن لا علاقة له بخراب ذلك المعبد. هناك موضع للنزول أمام المعبد عند الشاطئ يؤدى مباشرةً إلى المدخل الكبير، كما تؤدى بوابة هذا المدخل إلى رواق الأعمدة. ولا يزال المدخل بحالة جيدة، إلا أن الرُواق متهدم تمامًا. وهناك عمودان وقاعدة على كل جانب من جوانب الباب المؤدى إلى الرواق يصل بينهما حائط

(٢٧) تافه أو طافا : من القرى المصرية القديمة اسمها المصرى Teifa والدينى "ميرنسيكا" ومعناها الجميز المقدس والرومى Taphis ووردت فى الطالع السعيد باسم تافه جنوبى أسوان، ولا تزال موجودة وتعرف بنجع تافه وبه معبدها الأثرى بالشاطئ الغربى للنيل بأراضى ناحية الأمبركاب بمركز الدر ويوجد تجاهها على الشاطئ الشرقى للنيل نجع تافه البحرى ونجع تافه القبلى والثلاثة من توابع الأمبركاب. [المترجم نقلاً عن القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ – محمد رمزى – القسم الأول – مطبعة دار الكتب المصرية – ١٩٤٥، ص ١٨٩]

(٢٨) Saracens : كلمة استخدمها الأوروبيون ليطلقوها على المسلمين عامة، وهى كلمة تنطوى على الإهانة، وقد عُرّبت فى العامية الخليجية على هذا النحو (السرسرية) أى غير المتحضرين. انظر فى هذا كتاب جورج بوش: محمد مؤسس الدين الإسلامى والإمبراطورية السرسرية – ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ – نشر دار المريخ. [المراجع]

يرتفع إلى حوالى نصف ارتفاعهما بما يشير إلى الفترة التاريخية المتأخرة التى شُيِّد فيها المعبد لأن مثل هذا الحائط يمكن رؤيته بوضوح فى كل المعابد الأخرى التى ترجع لفترة تاريخية متأخرة. ولن أتردد فى القول إن البطالمة شيدوا معبد دندرة وفيلة وإدفو وهذا المعبد، فرغم التشابه الكبير بين كل المبانى المعمارية المصرية القديمة، فإن هناك نوعًا من الأناقة والرشاقة فى عمارة المبانى المتأخرة بما يميزها عن الأعمال المعمارية الأقدم الهائلة ضخمة الحجم، ويبدو الأمر لى أن تلك المبانى إنما شيدها المصريون القدماء تحت إشراف الإغريق. الرواق ومحراب الآلهة منفصلة عن الحائط الرئيسى من كل الجهات، وتشكل المسافة بينهما رواقًا يفصلها عن باقى الحائط. أما السقف فقد تهدم فيما عدا جزءًا صغيرًا من الحجرة وراء الحَرَم[٢٩]، ويوجد داخل جدارها العديد من حجرات صغيرة يمكن أن تستوعب الواحدة منها إنسانًا واحدًا. ولابد أن هذه الحجرات كانت زنزانات للرجال أو أماكن يضعون فيها الحيوانات المقدسة. هناك مجموعات من الرسومات على جدران المحراب لا تزال تحتفظ بألوانها بصورة مميزة وأفضل حالاً من أى معبد آخر فى مصر، وهذا فى ظنى دليل آخر على أن المعبد يعود لفترة تاريخية متأخرة عن كثير من المعابد الأخرى. وعندما دخلنا هذا المعبد بمجرد نزولنا إلى الشاطئ، لم نجد أحدًا عند بابه، لكن عندما خرجنا منه، وجدنا أعدادًا كبيرة من أهل البلاد متجمعين حول مدخل المدخل الكبير، وعندما حاولنا المرور من المدخل، أغلقوه تمامًا، وطلبوا منا المال. وكانوا جميعًا مسلحين بالرماح والدروع والحراب وما إليها، فأخبرتهم بأنهم لن يجبرونى على إعطائهم أى أموال بهذه الوسيلة، لكنهم لو تركونا نَمُرُّ، فسوف أفعل ما أراه مناسبًا. ولم أترك لهم الوقت للتفكير، بل سرت إلى الأمام على الفور محدقًا فى وجوههم، فلم يمسنا أحد منهم. وعندما خرجنا أعطيتهم بقشيشًا وأخبرتهم بأننى على استعداد بأن أمنحهم هدايا أخرى لو جاءوا لى ببعض الآثار، وهذا ما فعلوه، واشتريت العديد من شواهد الأضرحة عليها نقوش إغريقية.

(٢٩) adytum حرم أو حجرة مقدسة فى معبد قديم لا يدخلها إلا الكهنة. [المترجم]

أخذونا لنرى معبداً أصغر حجماً يبعد مسافة ربع ميل، ومررنا فى طريقنا بالكثير من الركام والحجارة التى تدل على أنقاض مدينة قديمة تمتد على مسافة ميل تقريباً. ويقول مستر بيركهارت إن هذه الأنقاض تبدو أنها ترجع لمدينة تلميس. وجدنا كميات من الفخاريات بين الأنقاض كلها صناعة إغريقية، ولم نجد أى شىء مصرى قديم بين الأنقاض إلا فيما نَدَر، فلو لم يكن ذلك دليلاً كافيًا على أن الإغريق هم من بنى هذه المدينة، فإن بإمكانى تقديم دليل لا يختلف عليه اثنان وهو أن هذا المعبد كان داراً للعبادة بالنسبة للإغريق. رفع أحد الأهالى حجراً من بين أحجار أنقاض المعبد قبل أن نصل إلى هنا ببضعة شهور ورأى قطعة من المعدن. لم يعرف الرجل ما هذا المعدن، لكن لأن كل ما يعثر عليه الأهالى بين الأنقاض يظنونه ذهبًا، لذا اعتبرها من الذهب. إلا أنه لم يكن متأكداً من ذلك، فأخبر الآخرين بما اكتشف فما كان منهم إلا أن طالبوا بنصيب منها، وبالطبع نشبت مشاجرة. وبعد فترة من الوقت وصل الأمر إلى مسامع إبراهيم باشا أو جنوده فى أسوان الذين لم يجدوا صعوبة فى حيازة هذه القطعة من المعدن أثناء جولتهم الأولى لجمع الميرى فى تلك البلاد. وثبت أن هذه القطعة المعدنية ما هى إلا مصباح ذهبى ذو طراز إغريقى متصل به جزء من سلسلة. وأرسل هذا المصباح إلى القاهرة وأعتقد أن أموالاً حُصِّلت من وراءه. هذا يثبت أمرين، أولهما أن الإغريق كانوا ينتفعون بالمعبد، والآخر أن المعبد تهدم بفعل فاعل لأنه لو تهدم تدريجيًا بفعل عوامل التآكل لما تُرِكَ المصباح هناك ليدفن تحت الأنقاض. وأظن أن المعبد الصغير الذى رأيناه مقطوعًا فى الصخور أقدم من المعبد هذا بكثير، ويتماشى بناؤه وهيكله المعمارى مع سائر المعابد فى تلك البلاد.

تقع القرية جنوبى المعبد الكبير، وتتكون هذه القرية من بضعة أكواخ مبنية من الطين ومن الأحجار المأخوذة من الأنقاض. شاهدت بالقرب من المعبد حائطًا قديمًا يقع فى خط متوازٍ مع واجهته، وينقسم هذا الحائط الكبير أقساماً كثيرة مخصصة لإقامة الكهنة كما هو واضح. وتتمتع البلاد هنا بمناظر تسر الناظرين، ويعزى هذا إلى مجموعات أشجار النخيل التى تقابل الصخور الجدباء الموجودة فى كل مكان، إلا أن الأراضى المزروعة تحتل مساحات ضئيلة للغاية. وتقع وراء الجبال أودية تنمو بها بعض

أشجار الطلح التي يصنع منها أهل البلاد الفحم النباتي، فإذا ارتفع منسوب النيل، فإنهم يصنعون زوارق صغيرة من نفس الخشب، ويضعون الفحم النباتي في أجْوِلَةٍ من سعف النخيل أو من نوع من أنواع البوط لنقله في تلك الزوارق إلى القاهرة لبيعه، ويحصلون في المقابل على الذُّرة والملح والتبغ.

وصلنا في اليوم نفسه إلى نَنْدور حيث أنقاض أحد المعابد الصغيرة التي لم يبقَ منها سوى الرواق وحجرتان في الواجهة. وتوجد بوابة صغيرة وشيء من مهبط يمتد من المدخل الكبير حتى النهر بطول مائة قدم وعرض خمسين قدمًا. ولا أرجح أن هذا المهبط بُنِيَ ليكون مهبطًا لعدم وجود أية علامات تدل على السلالم في أي مكان. أما المقصورات الداخلية فبها عدد قليل من النقوش الهيروغليفية وعمودان. تقترب الصخور هنا من الماء، وتمتد الأرض لمسافة أميال دون أن نرى بقعة من الأرض المزروعة.

سرنا حتى وصلنا إلى قرية ماريا، وفي الصباح الباكر من اليوم التالي نزلنا ببلدة قرْشة. بعض هذا المعبد منحوت في صخرة ترتفع عموديًا لتواجه جهة الشرق على بعد ربع ميل من النهر. مررنا بأنقاض بلدة صغيرة قديمة في طريقنا إليه، وشاهدت هناك أجزاءً مفككة من أربعة أسود أو على الأرجح كباش تقف أمام المعبد، هذا إلى جانب تمثال متآكل لامرأة على ما يبدو. ويتكون بهو الأعمدة من خمسة أعمدة على جانبي الباب منحوتة في الصخر، يقف أمام كلٍ منها تمثال رائع الجمال اعتقد أنه لهرميس(٣٠).

(٣٠) هرميس Hermes : وفقًا للأساطير الإغريقية، هو رسول الآلهة، وابن الإله "زيوس" والربة "مايا" ابنة العملاق أطلس. يتميز هرميس باعتباره الخادم المميز ورسول زيوس بحذاءين مجنحين وغطاء رأس ذي جناحين وكذا عصاه السحرية التي تلتف حولها الأفاعي وتعلوها الأجنحة. كان يسوق أرواح الموتى إلى العالم السفلي ويُعتقد أن لديه قوىً سحرية يمارسها أثناء النوم والأحلام. وكان هرميس أيضًا إله التجارة، وحامي حمى التجار والقوافل. وباعتباره إلهًا للرياضيين، فإنه يحمي صالات الرياضة والإستادات كما ساد اعتقاد بأنه مسئول عن كلٍ من حسن الحظ والثراء. ورغم كل هذه الفضائل، كان هرميس عدوًا خطيرًا ولصًا محتالاً. ففي يوم ميلاده سرق ماشية أخيه "أبوللو" إله الشمس، وأخفى آثارها بجعلها تمشي إلى الوراء. وعندما واجهه أبوللو بفعلته، أنكر هرميس السرقة. وتصالح الأخوان في النهاية بعدما أعطى هرميس أبوللو قيثارته التي صنعها لتوه. ويظهر هرميس في الفن الإغريقي القديم كرجل ناضج ملتحٍ، لكنه أصبح في الفن الكلاسيكي شابًا رياضيًا عاريًا بلا لحية. [المترجم نقلاً عن موسوعة إنكارتا الإلكترونية]

وتوجد أربعة أعمدة أمام بهو الأعمدة، تتكون هذه الأعمدة من العديد من قوالب الحجارة، أما الرواق فهو منحوت في الصخر، وتقع على كل جانب من جوانبها ثلاثة أعمدة مربعة الشكل تمتد في خط مستقيم من الباب حتى المدخل إلى المحراب. ويقف أمام كلٍ من هذه الأعمدة تمثال ضخم يصل طوله إلى حوالي ١٨ قدمًا ويرتفع عن الأرض مقدار أربع أقدام. ويمكننا في هذا المقام أن نرى الفرق بين النحت في العصور البدائية والنحت الذي يرجع للمدرسة الأكثر حداثة. يتضح من تلك التماثيل أن غرض الفنان هو تصوير رجال ليس إلا، فأرجلهم مجرد أعمدة لا شكل لها، وتجافي أجسامهم كل تناسق وتناغم، أما وجوههم فهي أسوأ ما يمكن لفنان أن يبدع من أنموذج لحبشي، فلهذه التماثيل المقاس الشائع لرؤوس الأحباش، ويزين الجزء السفلي من أجسامهم زيادات غريبة لا تختلف عن أكياس التبغ التي يستخدمها أهل مرتفعات اسكتلندا(٣١)، لكني لا أريد أن يظن أحد أنني أقصد عقد مقارنة بين الأمتين. يغشى المكان سواد بسبب الدخان الذي خلفته النيران التي أشعلها الأهالي على ما أظن. وتوجد خلف الأعمدة العديد من المحاريب المقطوعة في الصخر، لكنها جميعًا متآكلة. وبداخل المحراب حجرتان صغيرتان على كل جانب، وهي مقطوعة أيضًا في الصخر، وفي النهاية هناك بابان جانبيان مؤديان إلى المقصورات الأصغر حجمًا والمستقلة عن الحَرَم. وفي النهاية في الحائط توجد أربعة تماثيل في وضع الجلوس بالحجم الطبيعي أمامها المذبح كما رأيت في مواضع أخرى، ولا تظهر به أية نقوش هيروغليفية أو كتابات من أي نوع. وجدنا الأرضية نُقِّبت بفعل فاعل - أظن أنهم البرابرة أو غيرهم من الأمم - بحثًا عن الكنوز. يتسم الأهالي في هذه المنطقة بخشونة طباعهم، وإن سَهُلَ إرضاؤهم بقطعة صابون وشيشة دخان وبضع بارات. وهنا اشترينا بعض القريدان **gryadan** ، وذرة بحجم رصاصة صغيرة، يستخدمه النوبيون كنوع من القهوة، فهو بديل لا بأس به حينما

(٣١) مرتفعات اسكتلندا Highlands : منطقة جبلية تقع شمالي إسكتلندا تشمل منطقة "هبرايدس" الداخلية والخارجية التي تمتد شمالاً وغربًا من جبال "الجرامب"، ويفصل منطقة المرتفعات ومنطقة المنخفضات Lowlands خط وهمي. وظل الناس يميزون لعدة قرون بين أهل المرتفعات والمنخفضات على أساس الثقافة واللغة خاصة مع استمرارية اللغة الجالِّية بين أهل المرتفعات. [المترجم]

يتعذر الحصول على القهوة، وأرخص منها بكثير. وإذا اتجهنا جنوبيًا من هذا المكان قليلاً لوجدنا مجرى خطيرًا للنيل حيث تتناثر سلسلة من الصخور عبر النهر مما يجعله خطرًا حينما يقل منسوب الماء، لكن ومع ارتفاع منسوب المياه؛ يمكننا المرور دون التعرض للخطر. ولا تزال البلاد هنا متسمة بالجدب.

وصلنا بعد ظهر اليوم التالي إلى الدكة (انظر اللوحة رقم ٢١). تمتد الجبال في هذا المكان بعيدًا عن النيل تاركة أرضًا سهلية رحبة لا شك أنها زُرعت في الماضي، لكنها اليوم مغطاةٌ بالرمال حيث يمكن رؤية طبقة من العفن أو السَخْساخ الأخضر تحت الرمال على ضفاف النيل بثلاث أقدام. ويبعد المعبد حوالي مائة ياردة عن النيل، كما يتمتع بمنظر غاية في الروعة والجمال. لا توجد نقوش هيروغليفية على الحائط الخارجي، لكن المعبد من الداخل مزدانٌ بالرسوم الجميلة المنقوشة بالنقش البارز، ويوجد به أيضًا رواق وحَرَم ومحراب. يقع عند الجهة الغربية من الحَرَم سلَّم صغير يؤدي إلى أعلى المعبد، ومن الجهة الشرقية توجد حجرة صغيرة بها رسومات رائعة التصميم، وتزين جدران المحراب رسومٌ لمراسم دينية. رأيت في الجزء السفلي من الحجرة العديد من الرسومات التي لا تختلف عن أشكال الحيوانات الخُنثي[٣٢]. ومن المحراب يؤدي باب يقع في خط مستقيم مع المدخل الأول إلى منطقة يحيط بها سور يلتف حول المبنى فيما عدا الواجهة. ويقع عند الجهة الشرقية من السور الخارجي باب يؤدي إلى ممر يمتد داخل المعبد يفصل الرواق عن الحَرَم. ويواجه المعبد جهة الشمال، ويقع المدخل الكبير على بعد ٤٨ قدمًا، وتواجه البوابة المدخل المؤدي إلى الرواق. وتضفي عزلة هذا الصرح الأثري عليه المزيد من الجلال والشموخ في أعين الرحالة لأنه يبعد تمامًا عن أي بناء آخر بالقرب منه. وتوجد على المدخل الكبير العديد من الكتابات المصرية القديمة القبطية والإغريقية، فيما يلي واحد منها :

(٣٢) هيرمافروديت Hermaphroditus : وفقًا للأساطير الإغريقية، هو شاب حولته الآلهة إلى كائنٍ نصفه ذكر ونصفه الآخر أنثى بعد أن دعت إحدى حوريات البحر الآلهة أن تتوحد معه في جسد واحد إلى الأبد بعد أن رفض هذا الشاب حبها. [المترجم]

ΔΟΜΙΣΙΟCΑΡΡΑΝΟC
CΤΡΑΤΙCΠεΙΡΗ ςΙΤΟ ΡΑΝ,
ΦΗΑΙΚΟΚΑΙΔΟΜΙΤΙ
Ο ΙΟΧΜΟ C ΝΤωΠΑΝΓΑ
ΟΙΚωΠΠΟΧεΚ ΝΗΟΑ
ΦεΟΝΜεΓΙCΤΟΝεΡΜΗ
ΚΑΔΡΙΑΝΟ ΚΑΙCΑΡΟC
ΤΟ Κ ΡΙΟ Τ ΒΙΙΗ

استأنفنا رحلتنا ووصلنا بعد الظهيرة إلى المحرقة أو أوفيلينا Offelina حيث توجد أنقاض معبد مصرى قديم صغير شيده الإغريق على ما يبدو. ويتكون هذا المعبد من مجرد بهو أعمدة واحد يبلغ طوله ٤٢ قدمًا وعرضه ٢٥ قدمًا، إلى جانب صف من الأعمدة من الجانبين والمؤخرة. ويظهر إلى اليمين سلالم حلزونية هى الوحيدة من نوعها التى أتذكر أننى رأيتها فى أى معبد فى مصر أو النوبة. ويصل عدد الأعمدة كلها أربعة عشر عمودًا. كان هذا المعبد بمثابة كنيسة مسيحية صغيرة كما يتضح من الصور الكثيرة للرسل التى ظلت على حالتها الأولى على الجدران، لكنى لما أنعمت النظر شاهدت وبوضوح رسومات مصرية قديمة تحت صور القديسين. ويغلق المدخل الرئيسى مذبح بناه الأقباط أو الإغريق ولاشك بعد الحقبة المسيحية. السور المواجه للناحية الجنوبية متهدم، لكن الأحجار لا تزال متماسكة مع بعضها البعض. ورأيت على أحد هذه الحجارة الكتابة التالية :

ΝΗ[LL]
VICHRO N[L]cTTc
ΤΙωΤΟ ΚΑΙΤωΝ εΒεC
ΤΑΤωΝΦΟΝεωΝΚΑΙΦ-ΑΙΟ
WΙΚΓΟ ΑΑεΑΦΧ ΚΝ
ΑΟΙΤΦωΝΑΑεΑΦΠ

يقع جزء من معبد آخر على بعد عدة خطوات إلى الشرق، ويوجد على هذا المعبد رسم لإيزيس وهى ترتدى الزى الإغريقى وجالسة تحت شجرة، ويقف أمامها حورس الذى يظهر فى الرسم وهو يقدم قربانًا لأمه. وتظهر صورة إيزيس المصرية فى المحراب جهة الشرق أيضًا، كما تظهر فى محراب صغير فوق المحراب الأول رسومات لكاهن وكاهنة من الإغريق، وكذا الإله برايباس(٣٢) Priapus المصرى القديم؛ فلم أرَ دليلاً أكبر من هذا على توحد ديانة المصريين القدماء والإغريق (انظر اللوحة رقم ٢٩). هناك قاعدة كبيرة من الجرانيت تقع جنوبىَ هذا المعبد، وتأخذ هذه القاعدة شكل ثلاث سلّمات، ويظهر أنها شيدت بغرض تثبيت أحد التماثيل الكبيرة أو المسلات.

انطلقنا فى ظل رياح معتدلة إلى الواوات Wowobat ، وفى اليوم التالى – أى يوم ٣١ من أغسطس – وصل بنا المركب إلى السبوع. أول شىء جذب انتباهى عند نزولنا من القارب هو المدخل الكبير الذى يقع على مسافة صغيرة من النيل ويوجد بين جنبيه تمثالان واقفان يبلغ طول الواحد منهما ١١ قدمًا، ويمثل هذان التمثالان مدخلاً إلى طريق كباش ذات أجسام الأسود ورؤوس البشر مما يؤدى إلى المدخل الكبير الذى تمكنت منه عوامل التآكل. وهناك المدخل المعتاد أو البوابة المؤدية إلى الرواق الذى يوجد على كل جانب من جوانبه خمسة أعمدة إلى جانب الرسومات على واجهة كل منها لا تختلف عن ذلك الرواق فى مدينة أبو. تسببت الرياح فى تكوم كميات كبيرة من الرمال لم تغطِّ ساحة المعبد فحسب، بل سدت المدخل المؤدى إلى الحَرَم والمحراب. إنَّ حقًا علينا أن نفتح هذا المعبد بعدما استطعت اكتشافه، وبعد نظرة فاحصة من أعلاه، لكننا استأنفنا رحلتنا نحو الدير لانصراف جل اهتمامى بأشياء أخرى ذات أهمية أكبر بالنسبة لى. وتتصف البلاد هنا بالجدب الشديد، فلا تُرى إلا القليل من المساكن فيها.

وصلنا فى اليوم التالى إلى كورسكو. يتجه مجرى النيل بعد هذا الموضع ببضعة أميال جنوبًا جهة الشمال الغربى، ونظرًا لهبوب الرياح عامةً من هذه الجهة،

(٣٢) برايابس Priapus : فى الأساطير الإغريقية، هو إله الخصب والفحولة والمدافع عن الحدائق وقطعان الحيوانات. أنه ابن "أفروديت" إلهة الحب و"ديونوسيس" إله الخمر، أو "هرميس" رسول الآلهة وفقًا لبعض الروايات، وعادة ما يظهر كشخص غريب المنظر له ذَكَر ضخم. [المترجم]

فإنها جاءت فى مواجهتنا مباشرةً إلى جانب شدة قوة التيار نظراً لارتفاع النيل. ورغم ارتفاع درجة الحرارة الشديد أثناء النهار، فإنها تنخفض كثيراً أثناء الليل على اعتبار المناخ الذى كنا فيه. وجدنا صعوبة شديدة فى التقدم عند هذا الموضع لأن الرياح ما زالت قوية فى مواجهتنا، ولم يستطع البحارة تحديد مكان القارب من الحبال الموجودة على الشاطئ؛ لأن ضفاف النيل كانت مغطاة بالأشواك وأشجار الطلح؛ لذا استغرقنا يومين فى البحث عن أرض الدير حيث يستعيد النهر مجراه ثانيةً إلى الجنوب. جمعنا من الأشجار التى ذكرتها آنفًا القليل من الصمغ العربى، كما صاد ريس المركب بعض حيوانات الحرباء التى أردنا إبقاءها حية. وتقتات الحرباء على الذباب والأرز المسلوق وتشرب الماء، لكنها لا تتواءم مع بعضها البعض فى الأسر، فهى تعض ذيول وأرجل بعضها البعض، وإذا وُضعت فى الماء، فإنها تنتفخ كالكيس، وتسبح أسرع مما تزحف. تعيش الحرباء بوجه عام على أشجار النخيل، وتهبط منها فى المساء لتشرب. اصطدنا حوالى ثلاثين منها، لكنها ماتت كلها الواحدة وراء الأخرى. وشاهدت أنثى الحرباء وهى ممتلئة بالبيض الذى يبلغ حجمه حبة البازلاء الكبيرة، كانت ثمانى عشرة بيضة كلها ملتصقة بالحواء.

فى يوم ٥ من سبتمبر وصلنا إلى الدير العاصمة الكبرى للنوبة السفلى. وتتكون المدينة من عددٍ من البيوت المبنية من الطين المخلوط بالحجارة، ولا يزيد ارتفاع البيوت بوجه عام عن ثمانية أو عشرة أقدام عدا قلة منها هى مقار إقامة كَشَفَة البلاد، وتقع المدينة بالقرب من ضفاف النيل. يقع أحد المعابد الصغيرة عند سفح تلٍ منحدر وصخرى، لكننى لم أجرؤ على الذهاب لرؤيته لأننى لاحظت أننا كنا تحت المراقبة الدقيقة. وذهبت من فورى إلى حسن الكاشف الذى استقبلنى استقبال المرتاب، وطلب أن يطلع على أمرنا. أخبرته أننا أبحرنا فى النيل جنوبيًا لا لشىء سوى البحث عن الآثار، وأننا نأمل أن نتقدم حتى نصل إلى الشلال أو الشلال الثانى. فقال لى إن هذا مستحيل؛ لأن الناس فى الجنوب فى حرب مع بعضهم البعض. ثم أصدر الأوامر بأن يؤتى له بحصيرته، وجلس بالقرب من واجهة باب بيته، ودعانى إلى الجلوس معه. وأول سؤال طرحه علىَّ هو عما إذا كان معى قهوة أم لا، فأجبت بقولى إن لدينا القليل منها

فى المركب لاستعمالنا الشخصى، لكننى أدعوه أن يشاركنا نصفها على الرحب والسعة. بعدها سألنى عن الصابون، فرددت بمثل الرد الأول، فسألنى بعدها عما إذا كان لدينا أى تبغ، فأخبرته بأنه ليس لدينا سوى القليل لاستخدامه فى الشيشة التى سندخنها معًا، وسرَّ الرجل لهذا سرورًا كبيرًا. وجاءنى السؤال التالى عما إذا كنت أملك أى بارود، فأجبت قائلاً إن لدينا منه أقل القليل، وإننى لن أستطيع توفير أى منه. عندئذٍ ضحك ووضع يده على كتفى وقال: "أنت إنجليزى، وبإمكانك صنع البارود أينما ذهبت". وسعدت لظنه بى هذا الظن، وأعتقد أن من الحكمة أن أتركه على هذا الانطباع، لكنى أخبرته أننى لم آت إلى هنا لصنع البارود أو لتضييع ما معى منه. وفى تلك الأثناء أحضر لنا العسكرى الإنكشارى بعض التبغ من المركب، وشرعنا فى التدخين، وقدمت قهوة القريدان gryadan ، لكن ورغم هذا كله، قال إن البحارة لن يتقدموا شبرًا واحدًا خوفًا من الذهاب إلى جنوب البلاد. فأخبرته بأنه لو أعطانى كتابًا إلى أخيه حسين، فسوف نخرج من دائرة الخطر، وبعدها عرضت عليه كتاب خليل بك فى إسنا إلى أخيه، ولاحظ الرجل أن هذا الكتاب لم يذكر جهة ذهابى. رأيت احتمال أن يسير الموضوع ببطء شديد؛ فأخبرته بصراحة أنه لو ساعدنى على السماح لى باستكمال رحلتى، فسوف أهديه هدية بالغة الجمال هى نظارة من النوع الممتاز وبعض الصابون وبعض القهوة، وعلى النقيض من ذلك، إذا عدت من حيث أتيت فسوف يخسر كل شىء بالإضافة إلى تكبد سخط بك إسنا. وجاء رده كما يلى: "سوف نتحدث فى هذا فى الغد". وبذلك عدت إلى مركبنا دون إجابة مؤكدة.

ذهبت إليه مرة أخرى فى الصباح الباكر. وعندما سألنى عن النظارة، رددت بقولى إنها جاهزة لو أعطانى الرسالة الموجهة إلى أخيه فى فَرَس أو فَرَص وهو ما فعله فى النهاية. انتهزت الفرصة قبل رحيلى إلى القاهرة للحصول على كل المعلومات الممكنة حول بلاد النوبة من الأهالى الذين كانوا يأتون إلى تلك المدينة بالبلح والفحم، وعرفت منهم أن نظارة وبعضًا من خرز فينيسيا أو البندقية يساوى هناك طبقًا من الفضة ومجموعة من اللآلئ. وعلى هذا الأساس أخذنا معنا مخزونًا كافيًا رغم عدم تأكدى من دخول النوبة. بلغ طول النظارة التى أعطيتها للكاشف ١٢ بوصة وعرضها عشر بوصات،

وكانت هذه النظارة أكبر نظارة رآها الناس هناك من قبل. وانبهر الناس بالنظارة انبهارًا، ولم يكن الكثير منهم ممن لم يذهبوا شمالاً أبعد من أسوان قد رأى نظارة من قبل، ودهشوا لها دهشة عظيمة. لم يكلّ الكاشف أو يملّ من التعاجب بوجهه الذى يشبه وجه الدب، وتصارع أتباعه من ورائه لاختلاس نظرة إلى جمال النظارة البنية بلون الشيكولاته، فيضحكون سرورًا وفرحًا بها. وأعطاها الكاشف - دون خوف - إلى أحد أتباعه مع التشديد على أخذ حذرهم لئلا تتعرض للكسر. وفى طريقى إلى قاربنا قابلت شيخًا طاعنًا فى السن يعرف برام الكاشف طاغية الدير فى أيام نوردن. وقال لى إن برام مات على فراشه، لكن المماليك قتلوا كل ذريته، وأنه كان صبيًا عندما مات برام.

تركنا الدير فى منتصف النهار تقريبًا، وبعد بضعة ساعات وصلنا إلى الهيفا حيث يجرى النهر من جهة الجنوب الغربى. تتميز البلاد كلها ابتداءًا من الدير وحتى هذا المكان بغزارة الإنتاج فى الذرة والبلح، كما تتوفر كميات كبيرة أيضًا من القطن الذى يُجمع ويُرسل إلى القاهرة. ولا يُزرع قصب السكر هنا، ولا أعرف أ أعزو هذا إلى كسل أهالى البلاد، أم لارتفاع درجة حرارة البلاد بالنسبة لذلك النبات، لكننى أميل إلى الاعتقاد بصحة الرأى الأول.

مضينا قدمًا حتى وصلنا إلى أبريم، ويقع هذا المكان على صخرة مرتفعة عمودية الانحدار تقريبًا تتكون منها ضفاف النيل. ويحيط بالمدينة سورٌ من الطوب المحروق فى الشمس. البيوت كلها متهدمة نظرًا لخلوها من السكان منذ جعلها المماليك مقرًا لهم بعد انسحابهم من دُنْقُلَة. وتوجد حجرات صغيرة مقطوعة فى الصخر لا تختلف عن الأضرحة بالقرب من ضفاف النهر، طلى الإغريق بعضًا منها - كما هو واضح - بالألوان التى لا تزال تحتفظ بحالتها الأولى. لا يزيد عرض الأراضى المزروعة على الضفة الجنوبية من النهر فى بعض المناطق عن مائتى ياردة، لكنها مجهزة تجهيزًا كثيفًا بأشجار النخيل المنتجة للبلح الذى يعتبر الأفضل فى مصر، ويتاجر أهل النوبة فى هذا البلح تجارة واسعة. أما الضفة الشمالية فهى قاحلة جدباء عدا من بعض أشجار البلح والطلح.

لابد أن أستميح القارئ العذر فى أننى دونت أسماء كل القرى التى مررنا بها كما أعطيت سردى لرحلتى من أبريم حتى الشلال الثانى، ووفقًا لهذا عرضتها على الجمهور، ذلك أننى لا أدرى إن تناولها أحد من الرحالة من قبل بالوصف. فالسيدان لى وسملت Legh & Smelt اللذان كانا أول من توغل جنوبيًا فى هذه البلاد عبر النيل، لم يصلا إلى أبعد من أبريم، كما تناول نوردن بالوصف الصحيح كل القرى والمناطق التى مرَّ عليها فقط حتى الدير. وصلنا إلى قرية وادى شُويك جهة الشرق وقرية مُصمُص جهة الغرب بعد حوالى فرسخ من جنوبى أبريم. ولا تزال أشجار البلح تغطى البلاد عند الناحية الشرقية حتى نصل إلى قرية بستان، إلا أننا نجد الصحراء الجرداء عند الناحية الغربية. ومن توشكى رأينا العديد من الصخور فى السهل جهة الشرق التى تشبه الكثير من الأهرامات متباينة الأحجام، ولاشك أن تلك الصخور هرمية الشكل أوحت إلى المصريين القدماء بأول فكرة عن هذا الشكل. ويصل ارتفاع بعض هذه الصخور على ما يبدو حوالى مائتى قدم.

نزلنا بالشاطئ عند قرية أرمنا على الضفة الغربية من النهر. تغطى الشاطئ هنا أشجار الطلح الشائكة والأثل[٣٤] والنخيل وبعض الأراضى المزروعة. وفى اليوم التالى رأينا جزيرة هوجوس Hogos . وتوجد بهذه الجزيرة أنقاض برج قديم لابد أنه كان يشرف على النيل كله لأن مجرى النهر ليس ضيقًا هنا، ونظرًا لوقوع الجزيرة فى منتصف النيل تمامًا. ليست قوالب الحجارة ضخمة الحجم كما هو الحال بالنسبة للأحجار فى المعابد فى مصر، إلا أنها متماسكة مع بعضها البعض. بعد ذلك وصلنا إلى فورمندى Formundy وهى منطقة تمتد على كلا ضفتى النيل حتى منطقة سارج Saregg .

(٣٤) شجر الأثل tamarisk : يسمى أيضًا شجر الأرز المالح، وهو الاسم الشائع لجنس له حوالى ٥٥ نوعًا أو فصيلة من الأشجار والشجيرات عميقة الجذور غير دائمة الخضرة طول العام، موطنها منطقة البحر الأبيض المتوسط التى تمتد شرقًا حتى شمالى الصين، وغالبًا ما يتواجد فى المناطق الصحراوية. تتميز هذه الأشجار بأزهار رائعة تتراوح بين اللونين الأبيض والوردى الفاتح، تحملها عناقيد طرفية، وعادةً ما يكون لها ما بين أربعة إلى خمس كاسات وبتلات وسداة ومتاع واحد. تزرع العديد من فصائل هذا النبات كمصدات للرياح عند شواطئ البحار، بينما تزرع أنواع أخرى منه كنباتات زينة. للكثير منها خواص طبية مهمة، كما لا يزال البعض منها يزرع لاستخدامه فى عملية الصباغة. ويفرز أحد الأنواع الشرقية من هذه الشجرة مادة حلوة المذاق إذا ما خرقت اللحاء إحدى الحشرات القاشرة. [المترجم]

يتحول مجرى النهر عند فورمندى Formundy إلى الشمال الشرقى لمسافة فرسخين فقط، ولاقينا الكثير من المتاعب للمرور من هذا المكان كما حدث لنا عند كورسكو لأن كلاً من التيار والرياح لم يكونا لصالحنا.

لا أستطيع أن أغفل ذكر المجهود الشاق الذى بذله البحارة البرابرة فى هذه الحادثة، إذ كانوا دائمًا فى الماء، ورغم مهارتهم فى السباحة، فإنهم لاقوا صعوبة كبيرة فى الخوض ضد التيار لسحب الحبل من تحت الأشجار التى تغطى ضفاف النيل مما يجعل من تعقبها على طول الشاطئ أمرًا مستحيلاً. إنهم أناس يعيشون عيش الكفاف، ويأكلون أى شىء فى هذا العالم. فهم يمضغون ملح الصخور أو النطرون مخلوطًا بالتبغ، ويضعون الخليط بين الأسنان الأمامية والشفة السفلى. ويوجد النطرون فى أجزاء مختلفة فى مصر، وهو أحد السلع التجارية بها. ويقال إن أهل لابلاند(٣٥) Lapland

(٣٥) لابلاند Lapland : إقليم يمتد فى الأجزاء الشمالية من كل من النرويج والسويد وفنلندة وشبه جزيرة كولة الروسية. يقع معظم إقليم لابلاند شمال الدائرة القطبية. يتميز القسم الغربى من هذه المنطقة بأنها منطقة منحدرات صخرية شديدة الانحدار وأودية عميقة وأنهار جليدية وجبال، وتبلغ أعلى نقطة بها جبل "كبنكايزه" (٢١١١ م) فى الجزء الذى يقع داخل الحدود السويدية. فإذا اتجهنا شرقًا، نجد أن طبيعة الأرض تميل إلى أن تكون هضبة منخفضة تضم الكثير من المستنقعات والبحيرات أشهرها بحيرة "إنارى" فى الجزء الفنلندى. أما القسم الذى يقع فى أقصى الشرق فإنه يدخل ضمن إقليم "التوندرا". المناخ فى هذا الإقليم قطبى وتندر الحياة النباتية فيما عدا منطقة الغابات الكثيفة فى القسم الجنوبى. يضم إقليم اللابلاند مخزونًا قيمًا من المعادن لاسيما الحديد الخام فى السويد والنحاس فى النرويج والنيكل والأباتيت فى روسيا. وتشكل حيوانات الرنة والذئاب والدببة والطيور البرية والبحرية الأشكال الرئيسة للحياة الحيوانية. كما تكثر مزارع الأسماك البحرية والنهرية فى الإقليم. تسير السفن البخارية فى بعض البحيرات، وتخلو عدة مرافئ من الجليد طوال العام.

معظم سكان هذا الإقليم من الشعب السامى Saami الذين يتحدثون اللغة الفنلندية الأوجرية التى تعرف أيضًا باللغة السامية. حوالى ثلث الساميين من البدو الذين يعيشون فى الداخل فى الشتاء وعلى الساحل فى الصيف. بينما يعيش آخرون بصفة دائمة فى مراكز عمرانية متناثرة على الساحل والمنحدرات الصخرية، ويستقر الكثير منهم فى القرى عند رؤوس الأودية أو عند البحيرات. يعيش الساميون بصفة أساسية فى النرويج حيث يطلق عليهم اسم الفنلنديين. ويعمل هؤلاء برعى الرنَّة الذين ينتفعون به كغذاء وكساء لهم، كما يعملون أيضًا فى الصيد البرى وصيد الأسماك. تعرض الشعب السامى لغزو الإسكندنافيين فى العصر الوسيط وتحديدًا فى القرن التاسع الميلادى ثم على يد الروس فى القرن الحادى عشر. وسيطرت السويد على هذه المنطقة منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن السابع عشر. [المترجم]

يتصفون بالقذارة والوسخ فى طعامهم، وأنا متأكد أن هؤلاء الناس لا يختلفون عنهم فى ذلك الشأن. فعندما ذبحنا خروفًا، سرنى أن أراهم بين الحين والآخر يفتحون أحشاءه، ويغمسون أجزاء منها فى الماء مرةً واحدة، ثم يأكلونها نيئة. كما وضعوا الرأس والأرجل والجلد والصوف والحوافر وكل شىء فى قِدْر لم يُغسل قطُّ كى يسلق على النار نصف سلق، بعدها يشربون الحساء، ويلتهمون الباقى.

ربطنا مركبنا بالشاطئ عند منطقة فورمندى، وتسلقت صخرة عالية لألقى نظرة على البلد من حولنا. رأيت على الجانب الغربى من النيل سهلاً واسعًا به تلال منخفضة منفصلة عن بعضها البعض على شكل أقماع السُكَّر sugar-loaves تغطيها أحجار سوداء ملساء تقترب من البازلت. ويزيد ارتفاع بعض الأحجار عن خمس أقدام. يحيط الجدب بالبلاد كلها من كل مكان، ولا توجد بها سوى بضعة أشجار نخيل بالقرب من الماء.

وصلنا فى الصباح التالى إلى الفَرَس التى تركناها ناحية الشرق، وذهبنا لمشاهدة معابد أبى سمبل ناحية الغرب. عبرنا النيل من قبالة تلك المعابد تمامًا، فسنحت لنا الفرصة لتفحصها وإلقاء نظرة كاملة عليها من على بُعْد (انظر اللوحة رقم ٤٢). توجد ستة تماثيل كبيرة أمام المعبد الصغير، وهى من على بعد أحسن مظهرًا من رؤيتها عن قرب. يصل طول تلك التماثيل إلى ثلاثين قدمًا مقطوعة فى الصخر، وكذا المعبد الكبير الذى يتميز بتمثال واحد ضخم الحجم يبرز رأسه وكتفاه فحسب من الرمال، واستطعت أن ألاحظ براعة التصميم وجماله رغم المسافة البعيدة التى تفصل بينى وبينه. ازدان الجزء العلوى أو إفريز المعبد بصفٍ من النقوش الهيروغليفية التى غطت الواجهة كلها بالإضافة إلى مجموعة من التماثيل فى وضع الجلوس بالحجم الطبيعى أيضًا. تراكمت الرمال من الجهة الشمالية بفعل الرياح على الصخور فوق المعبد، والتى نزلت تدريجيًا نحو واجهته لتسد المدخل وتدفن ثلثيه تحتها. وحينما اقتربت من هذا المعبد تبدد كل أمل عقدته حول فتح مدخله نظرًا لتراكم الرمال بدرجة جعلت الوصول إلى الباب ضربًا من ضروب المستحيل. صعدنا تلاً من الرمال عند الجزء العلوى من المعبد ووجدنا هناك رأس باز بارزةً من بين الرمال حتى الرقبة فقط. استنتجت من موقع هذا التمثال أنه فوق الباب، ومن حجم الرأس لابد أن ارتفاع هذا

التمثال كان أكثر من عشرين قدماً، وتوجد مساحة خالية بوجه عام تحت التمثال؛ لذا لا يمكن أن يقل ارتفاع البوابة مضافًا إليها الكورنيش فوقها والإفريز - وفقًا لحساباتى - عن خمس وثلاثين قدمًا تحت سطح الرمال، وهذه المسافة لابد أنها كانت متناسبة مع واجهة المعبد التى يبلغ عرضها ١٧٠ قدمًا. تجرى الرمال فى ميل من جانب إلى آخر، وتبدو محاولة عمل فتحة صغيرة تنفتح مباشرة على الباب أشبه بمحاولة عمل فتحة فى الماء. لذا، كان من الضرورى إزالة الرمال فى اتجاه يسمح لها بالانسياب من فوق واجهة الباب، لكن هذا سيجعل الرمال الآتية من أعلى تظل تنساب على المكان الذى أزيلت منها من قبل؛ وبهذا يتحول الأمر إلى عمل لا نهاية له، هذا بالإضافة إلى أن أهالى هذه المنطقة الذين يتصفون بالهمجية ليست لديهم أدنى فكرة عن مثل هذا العمل، ولا يعرفون شيئًا عن العمل بأجر مادى، بل إنهم كانوا لا يعرفون المال تمامًا. بدت كل هذه الصعاب عقبات ليس إلى تخطيها سبيل لدرجة أنها كادت تثنينى عن فكرة المضى قدمًا، إلا أن الصبر والمثابرة التى يحدوها الأمل أملَيا علىَّ السبيل الذى استطعت منه - فى النهاية - وبعد بذل الكثير من الجهد والقيام برحلتين إلى هذه المنطقة أن أدخل معبد أبى سمبل الكبير.

وجدت بعد أن أجريت القياسات الصحيحة لواجهة المعبد، ووفقًا لحساباتى، أننى لو استطعت أن أقنع الناس بالعمل دون أن ينالهم كلل أو ملل، فإنه ربما حالفنى النجاح فى هذه العملية. لم أتفحص المعبد الصغير تلك الليلة لأننى كنت أرغب فى الوصول إلى قرية أبى سمبل فى وقت مبكر ورؤية حسين الكاشف. تمتد الصخور التى نُحِتَ فيها المعبد إلى حوالى مائتى ياردة جهة الجنوب حيث توجد بعض المساحات الصغيرة من الأرض المزروعة على ضفاف النيل تحفل بأشجار النخيل. انطلقنا بالمركب وما لبثنا أن رسونا عند القرية، فرأيت جمعًا من الناس متجمعين فى بستان من الأشجار، وعندما دنوت منهم بدت عليهم الدهشة لوصول أحد الأغراب إليهم بهذا الشكل المفاجئ. أبديت رغبتى فى رؤية حسين الكاشف، لكننى لم أتلقَ أية إجابة لمدة من الوقت، وعلمت فى النهاية أن مَنْ يجلس هناك هو ابنه داود الكاشف. رأيت رجلاً يبلغ من العمر حوالى خمسين عامًا مرتديًا جلبابًا أزرق فاتح اللون، ويضع على رأسه خرقة بيضاء كعمامة،

جالساً على حصيرة مهترئة على الأرض، وإلى جانبه سيف طويل ومسدس ويحيط به حوالى عشرين رجلاً كلهم مسلحون بالسيوف والرماح والدروع، وكان بينهم أخٌ أصغر أقل منه مقاماً ووجاهة ومنصباً تصرف نحوى بكل فظاظة وغلظة. كان بعضهم يرتدى أثواباً، فى حين لم يرتدى البعض الآخر شيئاً من ثوب أو رداء، وبدا لى هذا الجمع بأكمله جمعاً رث المنظر ليست به ميزة واحدة مشجعة على الإطلاق. وليس لهؤلاء الناس وظيفة سوى جبى ما يفرضه سيدهم من ضرائب وإتاوات على الفقراء من الأهالى. ولا يفعل الكاشف نفسه شيئاً سوى الانتقال من مكان لآخر لاستلام العوائد، وله فى كل مكان يذهب إليه بيت وزوجة، كما أنه يتمتع بسلطة مطلقة تمكنه من أن يفعل ما يشاء؛ فليس هناك قانون يقيده، وليس لحياة الإنسان هنا قيمة تذكر كحياة هرةٍ عندنا. فإذا لم يحصل الكاشف على ما يريده، فإنه يحصل عليه من أى مكان يمكن أن يجده فيه، فإذا قوبلت إرادته بالرفض، فإنه يستخدم القوة، فإذا قاومه أحد، فإن غريمه يتعرض للقتل؛ هكذا هى حياة الكاشف.

لا يَسْهُلُ قياد هؤلاء الناس بالوعود لما يتصفون به من قلة الإيمان، فما لا يحصلون عليه يعتبر ضرباً من ضروب الخيال. كان علىَّ التعامل مع هذه السلالة من البشر، والحصول منهم على تصريح لدخول مكان ما والقيام بعمليات البحث والتنقيب التى بدت لهم أشبه بأفكار رجل به مسٌ من جنون، وليس بأفضل من ذلك إقناعهم بالقيام بالعمل مقابل المال لأن نظام البيع والشراء الوحيد المعروف لديهم هو مقايضة الذرة بالتمر أو التمر بالملح. الجدير بالذكر أن السيد لى وسملت لم يفكرا جدياً فى التوغل جنوبياً بعد أبريم لأنه لا فائدة من التوغل فى بلد ما ليس للمال فيه قيمة تذكر، وهو الأمر الذى حدث أنذاك فى الدير، والكثير من غير ذلك جنوبى هذا الموضع. طلب داود الكاشف منى أن أعلمه بالأمر الذى دعانى إلى القدوم إلى هنا، فأخبرته أننى أحمل خطاباً من عمه الكاشف موجهاً إلى أبيه حسين الكاشف، وأننى جئت إلى هذه البلاد بحثاً عن الأحجار القديمة. فضحك قائلاً إنه رأى منذ بضعة أشهر رجلاً آخر جاء من القاهرة بحثاً عن كنز، وأخذ معه كمية كبيرة من الذهب فى قاربه، وإننى جئت لنفس الهدف وليس لأخذ الأحجار، وسألنى بقوله: ما الذى يمكن أن أفعله بالأحجار لو لم أكن قادراً

على تحصيل الذهب منها؟ فأجبت أن الأحجار التى أردت أن آخذها معى أحجار متكسرة ترجع إلى الفراعنة القدماء، ونحن نأمل أن نتعرف من خلال هذه الأحجار عما إذا انحدر أجدادنا من تلك البلاد؛ وهذا هو السبب وراء مجيئى بحثًا عن الأحجار القديمة. أظن أن هذا تفسير لا بأس به للدوافع التى دعتنى إلى فتح المعبد. فسألنى بعدها إلى أين أقصد الذهاب بحثًا عن هذه الأحجار، فأخبرته بأن المكان المنحوت فى الصخر له مدخل، وأنه يمكننا الدخول منه إذا أزلنا الرمال، وربما عثرنا على الكثير من الأحجار هناك. وبناء على ذلك طلبت أن تُصدر الأوامر بفتح المكان، ووافق الرجل بناءً على وعدٍ منى بأنه سيحصل على بقشيش إذا حالفنى النجاح، ولم يبقَ إلا أن يقتنع أبوه وأن نحصل على الرجال الذين سيعملون فى مثل هذا المكان دون الخوف من أن يمسهم الشيطان بأذى. أخبرته أن الذين سيعملون معى سيحصلون على المال. فقال لى: "أى فلوس قصدك؟ فلوس من محمد على والى مصر؟ هنعمل بيها إيه؟ إحنا ما نقدرش نشترى أى حاجة هنا أو فى دنجلة". قلت يمكنكم إرسال المال إلى أسوان، وهناك تستطيعون شراء الذرة به. فردَّ داود بقوله: "لكن لو عملنا كده، هايخدوا مننا الفلوس ومش هيبعتوا أى درة". ولم أكد أصدق أن هؤلاء الناس ليس لديهم من الثقة بالآخرين إلا أقل القليل، أو أى مفهوم عن التجارة، إلا أن الحقيقة أنهم يبادلون المنتجات التى يحملونها إلى القاهرة أو أسيوط أو إسنا بمنتجات أخرى يرسلونها إلى جنوب بلاد النوبة، ولا يحصلون مطلقًا على أية أموال مقابل هذه البضائع.

أحضرت قرشًا صاغًا وعرضته على مجموعة من الناس الذين زاد عددهم بمرور الوقت، وجلسوا على شكل هلال أمامنا، وكانوا يحدقون فى وجهى ولاحظوا كل ما أتيت به من حركات. شرعت فى إقناعهم بالمزايا التى سيحصلون عليها من مثل هذه النقود إذا أدخلوها إلى بلادهم. إلا أن الكاشف بدا غير مقتنع بأن إدخال النقود سيعود بالنفع بأى شكل من الأشكال، ثم لفت نظرى إلى أن الناس الذين لا يروق لهم المقام فى النوبة يبيعون ماشيتهم وماعزهم ليذهبوا بعد ذلك للعيش فى القاهرة. وأعتقد أنه كان محقًا فى هذه الزاوية، لكن من الحماقة وانعدام الحكمة أن يصدر عنه مثل هذه الملحوظة أمام رعاياه. أخذ أحد الحضور القرش من يدى، وسألنى بعد أن نظر فيه

لفترة من الوقت عمن سيعطى أى شىء مقابل هذه القطعة المعدنية الصغيرة. فرددت قائلاً: "أى شخص سوف يعطيك مكيالاً من الذرة مقابل هذا القرش يكفى لقوت إنسان لمدة ثلاثة أيام". فرد الرجل: "يمكن يكون هذا فى بلادكم، لكن هنا أنا متأكد مفيش حد يمكن يديك ستة حبات درة عشان حتة حديد صغيرة". فقلت له إذا صعد على ظهر مركبنا، وأظهر هذه القطعة المعدنية لأى شخص عليه، فسوف يحصل على ما يكفيه من الذرة فى المدة التى ذكرتها. عندئذٍ انطلق الرجل يعدو كظباء الصحراء، وما هى إلا دقائق معدودة حتى عاد بالذرة يلفها فى قطعة قماش مهترئة يضمها إلى وسطه.

أخبرت ريس المركب من قبل عما عليه القيام به إذا جاءه أحد من الأهالى بالنقود ليأخذوا الذرة بالمقابل، وبالتالى يحصل أى شخص على الكيل المعلوم مقابل القرش صاغ. آتت هذه التجربة أثرها المنشود ليس على عقول الناس فحسب، بل على عقل الكاشف أيضًا، الذى لم يقتنع بعد تمامًا بالأمر رغم اقترابه من الهمجية، فقد أشار إلى أن الرجل الذى يعمل يومًا كاملاً لابد أن يحصل على أربعة أضعاف حصته، وبناء على ذلك لو أعطيت كل رجل أربعة قروش، فإن الناس سيقتنعون بالعمل. وتوصلنا أخيرًا بعد الكثير من الشد والجذب إلى صفقة باعتبار حصول كل رجل على قرشين. أخبرنى داود أن الرجل الذى جاء إلى هنا منذ بضعة أشهر ترك بين يديه ثلثمائة قرش صاغ كى يفتح ذلك المكان من أجله، لكن الناس لم يقوموا بالعمل لعدم وجود شخص يهتم بمثل هذه القطع المعدنية الصغيرة. وعندما عاد الرحالة من وادى حلفا، تَوَقَّعَ أن يجد المكان مفتوحًا، لكن داود أعاد إليه القطع المعدنية لأنه لم يعرف ما يفعل بها. واكتشفت فيما بعد أن الشخص الذى كان هناك هو مستر "د" القنصل السابق لفرنسا فى مصر، وأنه استرد نقوده بالفعل لأن الناس لم ترضَ أن تعمل مقابل ذلك.

كانت الخطوة التالية والأكثر صعوبة إقناع حسين الكاشف بأن يدعنا نستمر فى العمل، لعدم قدرتنا على إنجاز أى شىء بدون موافقته. كان الكاشف يعيش فى أشكيت التى تبعد مسافة يوم ونصف جنوبى النيل. قضينا تلك الليلة فى أبى سمبل لأننى أردت تعزيز ميول الكاشف لصالحى؛ وبناء على ذلك أرسلت إليه كيلاً من الأرز بلغ وزنه قرابة أربعة أرطال، وثلاث أوقيات من القهوة، ونصف رطل من السكر، وبضعة أوراق من نوع

معين من التبغ يسمونه تونة الجبل من الشام يمضغه البرابرة ويلوكونه بألسنتهم ويعتبرونه مظهراً من مظاهر الترف والتنعم.

في المساء تناولنا على ظهر المركب بعض اللبن الخاثر وفطيرة ساخنة رفيعة من دقيق الذرة. تطهى هذه الفطيرة على حجر مسطح تبلغ مساحته ١٨ بوصة مربعة، ويرتفع عن الأرض بوضع حجر صغير عند كل ركن من أركانه بما يسمح بإشعال النار تحته، وعندما يصل الحجر إلى درجة حرارة معينة يُفرَد العجين عليه بحيث يمتد على الحجر كله بسبب ليونته أو اقترابه من الحالة السائلة، وما هي إلا دقيقة واحدة حتى يتيبس بما يكفي لأن يُقلب وهو الأمر الذي يعملونه ببراعة فائقة دون أن ينكسر منهم. بمجرد الانتهاء من طهي أي فطيرة، توضع أخرى على الحجر، وتتميز هذه الفطائر بجودة الطعم إذا أُكلَت ساخنة، لكن البارد منها رديء الطعم لا يستسيغه الذوق. عادةً ما تُؤكَل هذه الفطائر مع اللبن الخاثر، لكنها إذا تُركت حتى تبرد فإنها تُكسَّر كِسَرًا وتوضع في إناء، ثم يوضع عليها العدس المسلوق؛ ويمثل هذا الطعام الشائع في البلاد.

مررنا في صباح يوم الحادي عشر بالقرب من أنقاض بلدة عَدَه Adda التي تتمتع بموقع جميل يشرف على النيل وجزء كبير من البلاد. تضم البلدة عدداً كبيراً من البيوت المبنية على طراز البيوت الموجودة في أبريم، وإن كانت الرمال تغطي الأرض في الناحية الشرقية. تتسم الضفة الغربية من النيل بالخصب إذ تتوفر بها أشجار من شتى الأنواع من أشجار الطلح والأثل وغيرها الكثير من الفصيلة الشوكية. ومضينا إلى الأمام لنصل إلى منطقة كورسكو على كلا ضفتي النيل، ثم إلى إنهانا Enhana أو أدندان وجربة Garba وصَرَص، وبعد ذلك بقليل وصلنا إلى جزيرة بنفس الاسم، بعدها جنوبياً بلدة أنتيرو Antero وجنوبها على نفس الناحية دبيرة والجزيرة التي يطلق عليها نفس الاسم. لاحظنا أن كل المناطق تقريبًا التي تقع على الضفة اليسرى من النيل تتسم بالجدب والقفار عدا صَرَص. أما جهة اليمين فهي تعج بأشجار النخيل وبعض نباتات الذرة، إلا أن تربة الجزر تبدو أكثر الأراضي خصوبة.

بعدئذٍ وصلنا إلى أشكيت مقر الكاشف وهي ولاشك أفضل بقعة من الأرض جنوبي أبريم وأسوان. الأشجار هنا كثيفة جداً، وهناك شريط كبير من الأرض المزروعة

على طول نهر النيل، وتنتج هذه الأرض كمية كبيرة من الذرة والقطن الذى يُنَظف ويرسل إلى القاهرة مقابل الخيوط الجاهزة والملح والتبغ. وعلمنا عند وصولنا أن حسين الكاشف لم يكن فى أشكيت حينذاك، لكنه سيعود بعد بضعة أيام لأنه لم يذهب بعيداً. ومضينا قدمًا إلى الشلال الثانى الذى يقع على مستوى أعلى قليلاً لعدم رغبتى فى العودة إلى أبى سمبل حتى أحظى بلقائه. ويتحول مجرى النيل هنا إلى الجنوب الغربى، أما الأرض فهى حسنة الزراعة على طول خط تقدمنا فى الرحلة، فى حين نجد أن الأكواخ التى تظهر للعيان هنا وهناك بين الأشجار أقوى وأفضل بناء من أكواخ عرب مصر، وربطنا قاربنا إلى الشاطئ فى نفس المنطقة.

انطلقنا فى الصباح الباكر، وما لبثنا أن شاهدنا تعيننا الرياح الشمالية المعتدلة الأوانتورتيس Aloanortis على الناحية اليمنى، وبلدة دبروسة[٣٦] جنوبًا على الناحية اليسرى. وبعد هذا بقليل جزيرة بنفس الاسم، وتوجد إلى جهة الجنوب من ناحية اليسار منطقة عَنْقُش أو سوكوى Sukoy توقعت من خلال ما رأيناه من الطبيعة الجبلية للبلاد حول الشلال الأول أن أرى جبل الشلال الثانى من على بعد، إلا أن الدهشة تملكتنى لما وصلنا إلى آخر المنطقة نفسها دون أن نرى شيئًا سوى أرضًا منبسطة أمامنا. أرض وادى حلفا هى آخر منطقة تطل على النيل من هذه الناحية من الشلال. وتقع فى وسط النيل جزيرة اسمها جيفارتى Givarty وبعدها جزيرة أخرى اسمها مايانارتى،

(٣٦) دبروسة : وردت فى كشف أسماء البلاد المصرية المنشور فى أعداد الوقائع المصرية الصادرة فى سنة ١٨٧٧ ضمن نواحى قسم حلفا بمديرية إسنا ووردت فى إحصاء سنة ١٨٩٧ المطبوع سنة ١٨٩٩ بأنها نجع من توابع ناحية التوفيقية مركز حلفا بمديرية الحدود (أسوان). وبالبحث تبين أن دبروسة هى من النواحى ذات الوحدة المالية، وفى أيام الخديوى محمد توفيق باشا أنشأ بجوار سكن دبروسة جامعًا وعمر التجار حوله مساكن ودكاكين، وأقاموا فى تلك المنطقة سوقًا عظيمًا ثم اجتمع بجوارها كثير من الأهالى وبنوا الدور فأصبحت بندراً سمى التوفيقية تيمنًا باسم الخديوى توفيق وإحياء لذكره. وبناء على الاتفاق الذى أبرم بين الحكومتين المصرية والإنجليزية فى سنة ١٨٩٩ بخصوص السودان عن مصر فُصلت ناحية دبروسة وهى التوفيقية عن البلاد المصرية وألحقت بالسودان وعلى ذلك حذف اسمها من جداول البلاد المصرية. [المترجم نقلاً عن القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ – محمد رمزى – القسم الأول – مطبعة دار الكتب المصرية – ١٩٤٥، ص ٢٤١]

وبعد هاتين الجزيرتين جزيرتان أخريان هما جينيساب Genesap ولينارتى. هذه الجزر الأربع مزروعة كلها، لكن هناك عدد لا يحصى من الجـزر الأخرى التى تشـكـل الجندل أو الشلال، وجميعها جدباء. بعض هذه الجزر لا يظهر منه شىء سوى الأحجار العارية والرمال، بينما تُرى فى البعض الآخر عدد قليل من أشجار الجميز والسنْط، ولا توجد أشجار النخيل إلا فى الجزر الأربع سالفة الذكر.

انطلقنا قاصدين الشاطئ فى حوالى الساعة التاسعة مقتربين قدر المستطاع من آخر أرض مزروعة إلى جهة الشِمال وهى وادى حلفا. أتى إلينا بعض الأهالى لرؤيتنا، وطلبت إليـهم أن يجلبوا لنا بعض الحـمـيـر حـتى يتـسنى لنا الوصـول إلى الشـلال، وخضعوا لطلبنا هذا دون أى صعوبة. انطلقت أنا وزوجتى يتقدمنا العسكرى الإنكشارى والترجمان بقدر ما سمحت به ساعات النهار حتى نتمكن من العودة فى الوقت المناسب إلى المركب فى الليل. شاهدت الشلال من عدة مناظير ومن شتى الاتجاهات، وصعدت أحد الصخور كى ألقى نظرة على الصحارى من على بُعد، وبدت لى هذه الأرض مبسوطة على مدى البصر عـدا بضعة صخور تبـرز هنا وهناك ولاسيما عند جـانب النهر، وإن كانت صخوراً صغيرة الحجم. رأينا جهة الصحراء الكثير من البقر الوحشى الذى بقى على مسافة بعيدة منا. عندما ارتفع منسوب المياه فى النيل، لم يكن شلال النهر كبيراً كما هو الحال عندما ينخفض منسوب المياه، لكنى أعتقد أن الشلال غير صالح للملاحة فى أى وقت من أوقات السنة. يختلف الصخر المكون لهذا الشلال عن الصخور المكونة للشلال الأول، فـهنا لا يوجد جـرانيت، بل نوع من الرخـام الأسـود لا يقل عن الجرانيت فى صلابته. ويقول البعض إنه جرانيت أسود، لكننى لا أستطيع أن أعتبره كذلك نظراً لأن حبيباته خشنة للغاية وليست متماسكة كحبيبات الجرانيت.

عدنا إلى المركب بعد الغروب، وما لبثنا حتى عبرنا إلى جزيرة مايانارتى التى وصلنا إليـها عند ساعة الغسق. رأينا نيرانًا وأناسًا على بُعد، لكننا عندما وصلنا لم نجد أى أحد. وجدنا أكواخهم خالية من ساكنيها وبها كل ما يملكون وهو البلح الجاف، ونوع من المعجون من البلح (العجوة) أيضًا يحفظونه فى آنية كبيرة من الصلصال المحروق فى الشمس، ويغطونه بسلال مصنوعة من سعف النخيل. يتكون أثاثهم كله من

موقد للخبز وحصيرة للنوم، كما يحتفظون بقدور وأكياس من الجلد أو قِرَب للإتيان بالماء من النيل من أجل أراضيهم. يسكن فى هذه المنطقة أربعة رجال وسبع نساء وطفلان أو ثلاثة. وليس لهؤلاء الناس أى اتصال بالبر الرئيسى إلا فى حالة انخفاض منسوب المياه، ذلك أن التيار فى أى وقت غير هذا الوقت يجرى بسرعة كبيرة لوجوده أسفل الشلال مباشرة مما يجعل المرور من خلاله أمراً مستحيلاً؛ ونتيجة لذلك لا تذهب المراكب أبداً إلى هذه الجزر وقلما تبحر إلى أبعد من منطقة وادى حلفا. إنهم فقراء لكن سعداء، فهم لا يعرفون شيئاً عن متع الدنيا وملذاتها، وهم قانعون بما تمدهم به العناية الإلهية جزاء بما كسبته أيديهم. هناك بضعة أغنام وماعز تمدهم باللبن طوال العام بالإضافة إلى بضع مساحات من الأرض المزروعة تنتج القليل من الذرة التى تمثل المصدر السنوى للغذاء لديهم، أضف إلى ذلك أنهم يغزلون الصوف خيوطاً يلفونها حول أحجار صغيرة، وبذلك يعلقونها بعصا طويلة مثبتة فى وضع أفقى بين شجرتين بما يشكل سداة[٣٧]، وبتمرير خيط آخر بالتناوب بين هذه الخيوط يصنعون نوعاً من القماش الخشن يسترون به الجزء السفلى من أجسامهم.

زرت الصخرة كلها بصحبة الريس، تلك الصخرة التى يبلغ طولها حوالى ثُمْن ميل وعرضها نصف ميل. وكان الوقت متأخراً بالفعل حينما وجدنا هؤلاء الناس الفقراء والسعداء فى الوقت نفسه. أشعل هؤلاء الناس ناراً لصنع الخبز، وهدتنا هذه النار إلى ذلك المكان. اختفى كل هؤلاء فى فتحة تحت بعض أنقاض قلعة قديمة تقع إلى الجهة الجنوبية من الجزيرة، فلما اقتربنا منهم؛ أطلقت النساء صرخة عالية من الخوف. استطاع ريس مركبنا الذى كان أحد أهالى المنطقة الجنوبية من النوبة أن يتحدث بلسانهم، وطمأنهم، ورغم هذا لم نستطع أن نُغرى أكثر من رجل واحد بالخروج من ذلك المكان. يرجع منشأ هذا الخوف إلى بعض أعمال النهب والسلب التى قام بها قطاع الطرق فى وادى حلفا منذ بضعة سنوات، والذين عبروا النهر بعد انخفاض منسوب المياه إلى الجزيرة وتعرضوا لأهلها بكل ألوان الأذى. أكدنا لهم أننا لسنا

(٣٧) السداة : هو ما يُنْسَج طولاً فى النسيج، وهو عكس اللحمة. [المترجم]

كقطاع الطرق فى وادى حلفا، وأننا ما جئنا إلا ليدلنا أحد الأهالى على الطريق إلى الشلال. عندئذٍ استبد الخوف بهم أكثر من ذى قبل، وقالوا إنهم لم يَرَوْا قطُّ مراكب تبحر أبعد من وادى حلفا وهى بداية الشلال، وإنه من المحال التقدم أكثر بسبب وجود عدد من الجزر الصخرية. حتى أن الريس نفسه عارض رغبتى فى التوجه جنوبًا خوفًا على مركبه أكثر من خوفه على حياتنا. وأخيرًا توصلنا إلى اتفاق يقضى بأن يترك الريس ابنه فى الجزيرة كرهينة مقابل الرجلين اللَّذين سوف يأتيان معنا على ظهر المركب كى يريانا الطريق نحو الجنوب. كان الرجلان يعرفان الطريق إلى هذه الجزر لأنهما يترددان عليها عندما ينخفض منسوب المياه لجمع بعض الطين الذى يستخلصون منه بعض ملح البارود(٣٨) الذى يستخدمونه فى طعامهم. وهناك أسباب جعلتنى لا أقيم ليلاً فى المركب المثبت إلى الأرض؛ ونتيجة لذلك فضلت أن أمكث فى الجزيرة.

وفى الصباح الباكر من يوم الرابع عشر أخذنا الرجلين إلى ظهر المركب حتى يقودانا إلى الشلال ما شاء الله للمركب أن تسير، ثم ليريانا الطريق التى علينا أن نسلكها. انطلقنا ومعنا نفس الرياح الشمالية القوية، وفى ظل المياه الوفيرة انطلقنا قدمًا بمركبنا حتى تقاذفتنا التيارات والدوامات التى عاقت مسيرة تقدمنا، وفى نفس الوقت وقف المركب فى مكانه لدرجة أننا لم نستطع العودة خوفًا من انجراف المركب جهة بعض الصخور التى تنتشر على كلا الجانبين؛ وبذلك ظللنا فى مكان واحد لمدة ساعة تقريبًا. بدأنا أحيانًا بداية سريعة لمسافة مائة ياردة، ثم نتوقف تمامًا وندور حول أنفسنا رغم كل الجهود التى نبذلها بسبب الرياح الشمالية التى تهب بكل قوة. وفى النهاية دخلنا ودون مقدمات فى إحدى الدوامات المائية وانجرفنا نحو صخرة تختفى تحت سطح الماء بعمق قدمين تقريبًا. كانت الصدمة عظيمة، ولابد أن أقول إننى استشعرت الخطر الكبير فى ظل وجود زوجتى معى على ظهر المركب ظنًا بأنه سينشق نصفين. بالنسبة لى ربما استطعت السباحة إلى الشاطئ؛ لكن زوجتى ستكون حملاً ثقيلاً فى هذه الحالة. لكن من المثير للدهشة ووفقًا لمشيئة الرب أننا لم نُصَب بأى أذى.

(٣٨) ملح البارود يرادفه أيضًا الملح الصخرى وهو معروف فى الكيمياء بنترات البوتاسيوم. [المترجم]

نجحنا في الوصول إلى الضفة الأخرى من النهر بأسرع ما يمكن، وعندما وصلنا نسينا كل الخطر الذى مررنا به من لحظات. نزلنا إلى البر وأخذنا الطريق مشيًا على الأقدام، ومضيت أنا وزوجتى والترجمان والعسكرى الإنكشارى والرجلين من الجزيرة والغلمان الأربعة التابعين للمركب، وحملنا معنا بعض الطعام والماء. مضينا فى السير فوق الصخور وعلى أرض سهلية من الرمال والحجارة حتى وصلنا إلى صخرة تسمى أباصير Apsir وهى أعلى صخرة من بين الصخور المجاورة للشلال وتشرف على منظر كامل للشلالات. ويتميز الموقع من هذه البقعة بالروعة والجلال. وتتشكل آلاف الجزر التى تراها بشتى الأحجام والأشكال بالإضافة إلى الكثير من الشلالات المائية المختلفة التى تتدفق بسرعة جنوبيًا، بينما ترجع التيارات المعاكسة بسرعة مساوية للتيارات الأولى – منظراً يتسم بالتنوع والجلال بحق. إنها لوحة بديعة الجمال امتزج فيها لون الأحجار الأسود ولون الأشجار الأخضر فى الجزيرة مضافًا إليه لون زَبَد الماء الأبيض. إنها لوحة تستعصى على الوصف.

ومن هنا ترى الجزر الأربع المزروعة التى تقع جهة الجنوب أو فى أقصى جزء من الشلال. ويطلق على الجزر الأسماء التالية: نوبة وجمنارتى Gamnarty وأدم دوللى Ducully وسكر Suckeyr ، وتقع جزيرتان أخريان جهة الشمال هما دورج Dorge وطاباى Tabai . يسكن هذه الجزر سلالة من البشر يمكن أن ينظر إليها كمجموعة من الناس يعيشون فى أقصى حالة من حالات البدائية، فلم يذهب إليهم أى إنسان من قبل، كما لم يغادروا هم جزيرتهم قطُّ. وهم قليلو العدد – ففى بعض الجزر لا يزيد عدد السكان عن خمسة أو ستة أشخاص يعيشون على إنتاج المساحات الصغيرة من الأرض المتوفرة فى الجزر التى يروونها بأداة شائعة تسمى الهاد(٣٩) وتتكون من قطعة من جلد الغنم وعصتان يسحبون بها الماء. ويملك هؤلاء الناس عدداً قليلاً من الأغنام، كما يصنعون القماش من القطن الذى يُزرع فى الجزر بالإضافة إلى صنعهم القماش بنفس الطريقة من الصوف.

(٣٩) الظن أن بلزونى يقصد ما هو متعارف عليه باسم "الشادوف". أما الهاد hade فلعله الاسم الشائع للشادوف فى النوبة. [المترجم]

تختلف التربة الموجودة على الجهة اليسرى من الشلال عن التربة الموجودة على الجهة اليمنى منه، فهى تتكون من رمال وحجارة هشة مائلة للبياض. ويمكن من هذا الموضع رؤية مجرى النهر يمتد لمسافة كبيرة بين الصخور، كما يمكن رؤية قمتى جبلين مرتفعين من على مسافة كبيرة. هذا المكان لا يرتاده الرحالة لعدم وجود أى وسيلة نقل، وخلو هذه الناحية من الشلال من أى سكان. ولا تبحر المراكب إلى هناك مطلقًا، إذ يستحيل الإبحار عندما ينخفض منسوب المياه، بينما يحتاج الإبحار فى ظل ارتفاع منسوب المياه إلى رياح شمالية عاتية لصد التيار السريع المضاد لك.

رجعنا ببطء إلى مركبنا، واتخذنا طريقنا نحو الجزيرة التى غادرناها فى الصباح، لكن ولسوء الحظ كانت الرياح قوية للغاية حتى أنها جرفتنا إلى جزيرة جولجا Gulgé . أراد الريس أن يقضى الليل كله هنا، لكن الرياح تحولت فى المساء قليلاً؛ وعدنا بعد ذلك إلى الجزيرة التى كنا فيها من قبل. لكن ورغم الأدلة التى سقناها على نوايانا الطيبة، فلم يظهر أى من الأهالى، حتى الرجلين اللذين رافقانا فى رحلتنا على المركب سرعان ما اختفيا بمجرد نزولهما من المركب. وكان ابن الريس على هذا يعد بعض الطعام، وكنا سعداء بأننا نجونا بأنفسنا من الخطر المتمثل فى الكثير من الدوامات والصخور.

نسيت أن أذكر أننى شاهدت على جزيرة جولجا بقايا حائط قديم على هيئة كنيسة، وهو مبنىٌ من قوالب الطوب المحروق فى الشمس. كان هذا الحائط فى قلب الجزيرة، ويتكون من ثلاثة أقسام – انظر اللوحة رقم ٣٢ .

يوم الخامس عشر – لم نكن لنغادر الجزيرة فى الصباح دون أن نرى سكانها. وسرعان ما ظهر الرجال لأخذ البقشيش، وأخيراً ظهرت النساء لرؤية زوجتى التى أعطتهن هدايا من قلائد الخرز الزجاجى اللاتى افتتن بها افتتاناً عظيماً، ولأن من عاداتهم أخذ كل شىء وعدم رد أى شىء فى المقابل، فإنهن لم يرددن حتى بكلمة شكر على الهدايا التى تلقينها منا، لكنهن أخذن الهدايا وضحكن وركضن بعيداً على الفور.

هبطنا النيل حينئذٍ تواجهنا رياح شمالية قوية، ورغم أن بعض الكتَّاب يؤكدون أن النيل ليس به أمواج، فهو يجرى بكل هدوء، فإننى أؤكد للقارئ أن الأمواج تقاذفتنا فى هذا اليوم كما لو كنا فى عاصفة فى البحر، وأدى هبوب الرياح بقوة إلى تيار سريع كهذا.

وصلنا بعد الظهيرة إلى قرية إسكوس Iskus ، وذهبنا لرؤية حسين الكاشف الذى عاد من سفره، ومعى خطاب له موجهًا من أخيه محمد فى الدير. نزلت أنا وترجمانى ودخلنا بيتًا مصممًا على هيئة زاوية مدخل معبد. لا تتحمل هذه البيوت ثِقَل طابق علوى فى حالة بنائه عموديًا لأن الجدران المصنوعة من الطين ستسقط إلى الخارج. وتزين منزل الكاشف حصيرة قديمة مفروشة على الأرض كالمعتاد، وإبريق ماء وسلسلة ذات خطافين مصنوعة بطريقة معينة. هذا هو حسين نفسه، وهو أحد أخوين كانا السبب فى عودة مستر بيركهارت من تنرى Tinareh . يبلغ هذا الرجل من العمر ثمانية وستين عامًا، ويصل طول قامته إلى خمس أقدام و ١١ بوصة، ممتلئ وذو بنية قوية، وهو قادر على تحمل المسئولية التى وُلِدَ كى يتولاها. أحاط به ثلاثون رجلاً كلهم مسلحون، بعضهم مسلح ببنادق قديمة[٤٠] وسيوف طويلة، بينما يحمل البعض الآخر الرماح والدروع بدلاً من البنادق. وكان يرتدى رداءً[٤١] طويلاً يصل إلى قدميه مصنوعًا من القماش الصوفى الأبيض بالإضافة إلى حزام يشد به وسطه ويتصل بالحزام سيفه

(٤٠) matchlock guns تعنى نوع من البنادق التى كانت تستعمل الفتيل لإطلاق النار وهى من الأنواع القديمة. [المترجم]

(٤١) استخدام بلزونى لكلمة tunic لوصف ملابس رجل مسلم من علية القوم فى أعماق صعيد مصر أمر يتطلب وقفة... فهذه الكلمة تعنى فى اللغة الإنجليزية رداء فضفاضًا ذا أكمام قصيرة أو بدون أكمام يصل إلى الركبتين كان يرتديه الرجال والنساء على السواء فى أيام الإغريق والرومان، وتعنى أيضًا رداء قصيرًا يرتديه رجال الشرطة والجنود كزى مميز لهم. هل يريد بلزونى أن يخبر القارئ الأوروبى أن هذا الرجل رجل حرب يرتدى الزى العسكرى كما نجد من صور القادة العسكريين فى أيامنا هذه، وذلك من خلال تقديم صورة قريبة إلى ذهن القارئ مضحيًا فى سبيل ذلك بالدقة، أم أن الغرض من هذا الوصف مجرد محاولة لربط تاريخ مصر الحديث بتاريخ الإغريق والرومان، أم أن الأمر لا يعدو عن كونه "ترجمة" غير دقيقة اضطلع بها "المؤلف" بلزونى؟! [المترجم]

وخنجره وحجر القداحة الخاص به. ويضع على كتفه شالاً طويلاً مصنوعًا من نفس قماش الرداء، ويضع جزءًا منه على رأسه لتغطيتها من الشمس. كان الرجل يرتدى عمامة حمراء أيضًا، ويلبس حذاءً مهترئًا. وتحيط بهذا الرجل - رغم ملبسه - مسحة من استعلاء تميزه عن كل الآخرين على الفور. الجدير بالذكر أن الناس يقدمون آيات الاحترام والتقدير لعلية القوم حتى بين البرابرة والهمجيين، فهؤلاء الناس الذين لا يتورعون عن قتل مخلوق منهم خلافًا على بضعة شيش من التبغ هم أنفسهم الذين ترتعد فرائصهم عندما يعبس فى وجوههم رجل عجوز لا يؤذى أحدًا فى الغالب. جاءت أسئلته بخصوص أعمالى دقيقة للغاية، لكننى أسرعت بالرد بتقديم موضوع المعبد الذى أثار دهشته. قال إنه يعرف مدخل هذا المكان جيدًا، وهو أن الكرة المستديرة فوق الرأس الكبيرة هى مدخل أو بوابة الدير الكبير - كما أسماه - فإذا حركتها استطعت الدخول على الفور. ولم تكن هذه الكرة المستديرة شيئًا سوى الكرة الموجودة فوق رأس أوزوريس ذى رأس الباز الذى كان يقف على البوابة كما ذكرت آنفًا. ذكر لى فى بداية الأمر الصعوبة الكبيرة إن لم تكن الاستحالة التى ينطوى عليها افتتاح هذا المكان، وفى النهاية وبعد سعيى لإزالة هذه العقبات، جعلنى أعده بأننى لو وجدت المعبد مليئًا بالذهب، فسأعطيه نصفه. ووافقت على هذا بشرط هو أننى لو لم أعثر إلا على الحجارة، فإنها جميعًا ستصبح ملكًا لى وحدى، ووافق الرجل على الفور قائلاً لى إنه لا يريد الحجارة. وبناء على ذلك أعطانى كتابًا موجهًا لابنه فى أبى سمبل، وغادرت المكان عائدًا إلى المركب، وأرسلت إليه بعض الهدايا الصغيرة التى تلقاها بكل سرور وسعادة؛ فأرسل لنا حملاً.

عندما ذهبت إلى المركب وجدته مزدحمًا بالنساء اللاتى علمن من طاقمنا أثناء رحلتنا جنوبًا أن هناك امرأة على ظهر هذا المركب، وبمجرد وصولنا فى طريق العودة، ركضن جميعًا إلى الشاطئ. ولم تتصور زوجتى أنهن سيأتين بهذه الأعداد الغفيرة، فأعطت لإحدى زوجات الكاشف هدية من بعض الخرزات الزجاجية؛ وكان هذا كافيًا لأن تزدحم النساء إلى مركبنا، فاضطررنا إلى إرضائهن جميعًا.

فى الصباح التالى استأنفنا رحلتنا ووصلنا مبكرًا جدًا إلى أبى سمبل. ذهبت لرؤية معبد صغير جهة الجنوب المقابلة للقرية، وليس لهذا المعبد أهمية تذكر، والجدير بالذكر هنا أنه آخر معبد على النيل فى هذه الجهة من الشلال. كان هذا المعبد بمثابة كنيسة صغيرة لليونانيين المسيحيين، ولا تزال صور الرسل كما هى تقريبًا على الحائط والسقف. عبرنا النهر، وذهبت على الفور إلى داود الكاشف، وما أن أطلعته على الخطاب الموجه إليه من أبيه حتى أرسل فى طلب الرجال الذين سيعملون معنا. وجدت أن هؤلاء الرجال همجيون تمامًا، وليس لديهم أدنى فكرة عن أى نوع من الأعمال. غيَّر هؤلاء رأيهم منذ أن كنت هناك آخر مرة، ورغم أن لدىَّ سلطة من الكاشف، فإنهم لن يعملوا، وذهبت مجهوداتى لإقناعهم أدراج الرياح، أولاً لأنهم غير ميالين لمثل هذا النوع من العمل، وثانيًا لأنهم لم يعرفوا قيمة النقود وما شابه. وأخيرًا تظاهرت بأننى تركت المشروع وبأننى سأرحل، فلما رأى الكاشف أننى راغب فى الرحيل، وأنه سيفقد برحيلى الكثير من الهدايا الحسنة، بدأ يتكلم معهم، وفى النهاية وبعد صعوبة كبيرة قلل الأجر إلى نصف ما طالبوا به من قبل. فلما وافقت على هذا الشرط، أصروا على ضرورة أن استخدم فى العمل العدد الذى يختارونه مهما كان. حاولت أن أخبرهم دون جدوى أن ثلاثين رجلاً يكفى ويزيد لإنجاز ما أريد من عمل، لكنهم لا يريدون إلا أن أعين عددًا لا يقل عن مائة. هذا أمر يستحيل علىَّ أن أخضع له؛ فنهضت واقفًا، واستأذنت الكاشف بالانصراف وأصدرت الأوامر إلى الريس بالذهاب إلى المركب كى ننطلق على الفور. إلا أن هذا لم يَرُقْ لأطراف الحديث، فلا يزال لديهم كلام يقال، وأخيرًا توصلنا إلى اتفاق بأننى سوف آخذ أربعين رجلاً يتعين عليهم التواجد فى المركب قبل شروق الشمس فى الصباح التالى لأن المعبد يبعد عن القرية مسافة ميلين تقريبًا. صعدت إلى ظهر المركب يملؤنى الأمل بأن أنتهى من مهمتى بمعونة هؤلاء الناس.

يوم السابع عشر – توقعت أن أرى فى الصباح الباكر هؤلاء الرجال الهمج – كما ينبغى أن يُطلق عليهم – لكنى أصبت بخيبة الأمل الكبيرة، فارتفعت الشمس فى السماء، ولم يظهر أحد بعد. عندئذٍ رجعت إلى الكاشف لأسأل عما إذا كان الرجال يريدون أن يعملوا أو يسخروا من العمل. كان الكاشف غير معتادٍ على أن يزعجه أحد

فى الوقت المبكر من النهـار، فنهض من نومـه ببطء شـديد، وأرسل فـريقًا من جنوده للبحث عن الرجال الذين ظهر بعضهم فى النهاية، بينما تظاهر البعض بعدم قدرته على المجىء، وكانت حجتهم أنهم رأوا بدويًا فى الصحراء مما استثارهم جميعًا وجعلهم مستنفرين. كانوا بالأمس يريدون أن أعين منهم مائة رجل، واليوم لا يريدون أن يعملوا على الإطلاق. وأخيراً جاء البعض منهم بالبر، والبعض الآخر بالبحر، لكنهم جاءوا متأخرين جداً، وذهبنا فى النهاية إلى المعبد. أخذت الموضوع بالرفق والصبر، وشرعت فى العمل فى اتجاه يسمح للرمال بالسقوط من منتصف واجهة المعبد فى المكان الذى لابد أن تتواجد فيه البوابة. أخذ الرجال معهم عصا طويلة بها قطعة خشبية عرضية فى نهايتها، ويتصل بطرفى العصا حبل. يقوم رجل بسحب العصا الطويلة إلى الخلف، ويسحبها آخر إلى الأمام. وهذه طريقة يستخدمونها فى إزالة الطين من الأرض الزراعية، ووجدتها طريقة مفيدة جداً فى إزالة الرمال أيضًا. أخـذ الرجال فى العمـل بأفضل مما توقعت نظراً لأن هذا أول يوم فى مشروعنا، وتركزت كل أفكارهم وكلامهم حول كمية الذهب واللآلئ والمجوهرات التى سيعثرون عليها فى هذا المكان. ولم أود أن أثبط من عزيمتهم من جهة هذه الفكرة لأننى وجدتها أفضل دافع وحافز لهم للمضى فى العمل. وفى وقت الظهيرة أعطيتهم بعض العدس المسلوق وحساء الخبز، وهى وجبة فرحوا بها للغاية. وقاسمنى الكاشف الذى باشر العمل بنفسه فيما آكل. وبالليل دفعت للرجال أجورهم، وطلبت منهم أن يتواجدوا هنا فى الصباح الباكر ليوم غد. صعد الكاشف ونَفَرٌ من حاشيته إلى ظهر المركب، ورجعنا إلى القرية لقضاء الليل بها.

يوم الثامن عشر – فى الصباح ذهبنا إلى المعبد، وجاء الفلاحون بعدنا بوقت متأخر إلى حد ما، واستأنفنا العمل ببطء شديد. كان لزامًا علىَّ أن ألجأ إلى قدر كبير من الإقناع فى هذا اليوم لأن هؤلاء الهمج ظنوا أنهم بذلوا جهداً شاقًا فى اليوم الأول، ونَجَم عن هذا تزايد عنادهم، واضطررت لبذل الجهود الكثيرة للسعى لإقناعهم بالاستمرار، فعندما شكوا من إصابتهم بالتعب والإرهاق الشديد، وعدتهم بألا يعملوا فى اليوم التالى، وسيسمح لهم بتناول قسط من الراحة. شرعنا فى العمل فى هذا اليوم قبيل غروب الشمس، وعدنا بعد ذلك إلى القرية. وجدنا أننا لا نملك ما يكفى من الطعام والمؤن فى هذا المكان،

حينئذٍ عرضت أن نأتى بأحد الأغنام على غير العادة، لكن دون جدوى، فقد اضطررت لتناول الأرز والمـاء، بل وكمية قليلة منه نظرًا لعدم وجود الكثير من الطعام بالمركب، وقَارَب مخزوننا من الزبد على الانتهاء وشح اللبن.

يوم التاسع عشر - ذهبت فى الصباح لرؤية الكاشف لكى أتحدث معه عن بعض أخشاب النخل. ووجدت أن سلوكه تغير كليةً، فبدأ فى إلقاء آلاف الصعوبات فى طريقنا وبخاصة أن الفلاحين لن يأتوا للعمل بعد اليوم لأن من غير المجدى لهم أن يرهقوا أنفسهم مقابل هذا المبلغ الزهيد من المال هذا بالإضافة إلى استحالة الحصول على خشب النخيل رغم أننا محاطون به من كل ناحية فى الوقت نفسه. فرددت بقولى إن هذا لم يَرِدْ فى اتفاقنا، وإننى التزمت بكلمتى ودفعت للفلاحين وفقًا لاتفاقنا الأول؛ ولذا فإننى أتوقع أن يلتزموا بما عليهم من واجبات وفقًا للصفقة. وبعد الكثير من الجدل والنقاش، توصلنا فى النهاية إلى أننى سوف أقابل الفلاحين ليلاً، وأحاول إقناعهم بنفسى لأنه لن يستطيع تقديم أى خدمة لى. باختصار لم أستطع أن أستفيد منه بأى شىء، إلا أن ترجمانه ما لبث أن أفهمنى أن كل هذه الصعوبات إنما نشأت من عدم إعطائى إياه أى هدية قيمة، كما أخبرنى الجندى الذى صحبنى من أسيوط أنه ما كان ينبغى علىَّ أن أنسى إعطاءه زوجًا من المسدسات، أو أى هدية قيمة من هذا القبيل. وأدركت حقيقة المؤامرة على الفور، وعرفت أيضًا أن هؤلاء الناس لا يشعرون أبداً بالامتنان لأى شىء يتلقونه من الآخرين، بل لا يفكرون إلا فى ابتكار حيل جديدة للحصول على أشياء أخرى - إن أمكن - فلا فرق إذًا بين تقديم الهدايا أو عدمه. إلا أننى اتخذت موقفًا وسطًا، فأخبرت الترجمان أننى سوف أمنح بقشيشًا لا بأس به لكل منه ولسيده إذا اهتما بمصلحتى. وتجمع كل الهمج فى فترة بعد الظهيرة، وأُرسلَ فى طلبى. وكان هناك أخا الكاشف الذى رأيته للمرة الأولى عندما وصلنا إلى أبى سمبل، لكن تصرفاته وسلوكه تبدل كثيرًا إلى الأحسن، وبذلك تحول الرجل الذى كان فى بادئ الأمر فظًا غليظًا إلى اللطف والدماثة فى التعامل، بينما أصبح الرقيق الدمث غليظًا فظًا. سألت عن الخشب، فجاءنى الرد بأن علىَّ الذهاب إلى مكان يقع على مسافة تبعد فرسخين حيث يمكننى العثور على بعض الخشب، لكن هذا ما قيل لى إلا للخوض

فى صعوبات وعراقيل جديدة لأننى أعرف أن القرية بها الكثير من الخشب. أما بالنسبة للهمج، فقد علمت أنهم لن يأتوا للانخراط فى عمل شاق ما لم أضاعف عدد الرجال. أخبرتهم – لكن دون جدوى – أن الرجل الذى يعمل لوحده لا يبذل جهداً أكبر مما يبذله نفس الرجل الذى يعمل وسط مجموعة من الناس. وكانوا متصلبى الرأى، ولم أستطع أن أفعل أى شىء حيال هذا الأمر، لأننى لو وافقت على تشغيل مائة رجل، فلن يمر وقت طويل حتى يطالبونى بتوصيل العدد إلى مائتين. وعدت بإعطاء بقشيش إلى أخى الكاشف الذى بدأ يتحدث إليهم بلغتهم، ولكم كانت دهشتى عندما وافق الجميع من فورهم على الوصول معى لأربعين رجلاً فقط شريطة أن أعطيهم سدس إردب من القمح لكى يصنعوا الخبز منه. بدا الكاشف مغيظاً من تأثير أخيه، فنهض من مقامه ومضى ذاهبًا. وأتى بربرى (المقصود نوبى) من الدير ببعض الخشب لبناء ساقية أو ماكينة الماء، وكان هذا الرجل غريبًا فى هذه الجزيرة وجاء إليها لزراعة بعض الأرض، لكنه قرر الرحيل نظراً لأنه لم يستطع التوافق مع الهمج فى أبى سمبل، وعرض الرجل أن يبيع خشبه لى، وسعدت بأن أستفيد من هذه الفرصة، وبذلك تغلبت على هذه العقبة.

يوم العشرين – فى اليوم التالى جاء الناس صباحًا على مهل للعمل، ومضى الأمر على خير ما يرام بوجه عام، رغم أننى بذلت الكثير من الجهد حتى أجعلهم يقومون بالعمل بالطريقة الصحيحة. جاء الكاشف يصحبه أتباعه وبطانته ليرى سير العمل، وأفهمنى أنه ينوى أن يتناول طعام الغداء معى. أخبرته أننى سررت بدعوته، لكن لو لم يكن هناك شىء سوى الأرز المسلوق، فإننى لن آكل حتى يصدر أوامر إلى رجاله بذبح خروفٍ لنا وسوف أدفع ثمنه بكل سرور. تشاوروا فيما بينهم عمن سيتخلى عن أحد غنمه مقابل قروش يأخذها، واستقر الأمر فى النهاية على رجل عجوز يمتلك خمسة أغنام وهو أكبر عدد من الأغنام يمتلكه أحد هناك. وعندما أتوا بالخروف، كانت الصعوبة فى تحديد سعر له. ونظراً لأن هذه هى المرة الأولى التى يباع فيها خروف مقابل نقود فى ذلك المكان، فإن تحديد سعر عالٍ للخروف سيزيد من قيمة الخراف بوجه عام؛ ونتيجة ذلك أن جاء الأمر ضد مصلحة الكاشف الذى يحدد سعراً بخسًا للخراف وغيرها من الحيوانات التى يتلقى إتاوات وضرائب عنها حتى يتمكن من

الحصول على عدد أكبر منها. والأسوأ تحديد سعر منخفض للخروف لأن هذا لن يكون لصالحهم بأى حال من الأحوال فى مقايضتهم الأغنام بالذرة مع القرى الأخرى. ولما رأوا خطورة هذا الموقف، توصلوا فى النهاية إلى عدم تحديد سعر للخروف على الإطلاق، وأن على الرجل أن يعطينا الخروف كهدية، وأن علىَّ أن أقدم أى شىء حسبما أشاء فى المقابل. ومنعًا لتحديد أى معيار مما سأعطيه للرجل، دفعت له مقابل الخروف صابونًا وتبغًا وملحًا.

قُدِّمَ إلينا الخروف على الغداء مقطعًا فى طبقين من الخشب، وجلس الكاشف وأتباعه على هيئة دائرة على الرمل بالقرب من المعبد. وسرعان ما غُسلت أطراف أيديهم القذرة فى الماء، وما هى إلا ثوانٍ معدودة حتى أتوا عليه كله. ولأننى لم أعتد على هذا النوع من الولائم الذى تعوزها الكياسة واللياقة، فلم أنل غير فرصة ضئيلة، لكننى وبعد محاولات متتالية تمكنت من الحصول على نصيبى دون أن أزاحمهم فى تدافعهم. وبعد تناول طعام الغداء بوقت قليل قدمت القهوة التى أتينا بها من المركب، وصعدت إلى المركب لتناول طعام الغداء مع زوجتى التى سلقت أرزًا فى الماء لتأكله بدلاً من التزاحم على مائدة اللحم التى أقامها شيخ القبيلة. وبعد وقت قصير دنا الكاشف منى، وعبر عن رغبته بأن نتحدث سرًا. وانتحينا جانبًا، ودعى كبار مترجميه إلينا. وكان السر الكبير أنه رآنى أشرب فنجان قهوة من شراب أحمر كنت أصبه من زجاجة أثناء وقوفه على ضفاف النيل بالقرب من مركبنا فى الليلة الماضية؛ فلما سأل عن هذا الشراب، علم أنه نبيذ. وعندما علم الكاشف الآن أن نبيذ الإنجليز أفضل بكثير من النبيذ الذى يصنعونه من البلح فى بلادهم، أبدى رغبته فى الحصول على بعض الشراب لكن فى السر. ولحسن الحظ أن لدينا بضعة زجاجات باقية من مخزوننا فى القاهرة ندخرها للمناسبات الخاصة، وعلى هذا الأساس أرسلت ترجمانى إلى المركب حتى يأتى لى بواحدة. وعندما صُبَّ النبيذ بادئ الأمر فى الفنجان وقُدِّمَ بعدها إلى الكاشف، نظر إلى ترجمانه نظرة صارمة، وطلب منه أن يشرب أولاً. لم يتطلب الأمر من الترجمان الذى كان قبطيًا وأمضى عدة سنوات فى الجيش الفرنسى الكثير من الإقناع حتى يهرق الخمر قربانًا فى المعبد لإله الخمر نفسه، وسرعان ما اقتنع الكاشف بابتسامة من

الترجمان بطهارة محتويات الزجاجة، ولم يتردد فى تعاطى الفنجان التالى. لم يظهر له عند المذاق الأول أن المشروب قوى بالدرجة التى تصورها، لكنه فى النهاية رأى أنه ممتاز حتى أن مخزوننا الضئيل انتهى أو كاد فى مدة ثلاثة أيام. إن لدىَّ الكثير من الأسباب التى تجعلنى أندم أشد الندم على اصطحاب أحد العساكر الإنكشارية معى، فبدلاً من أن يساعدنى هذا العسكرى فى التعامل مع هؤلاء الناس، كان أول من ينبههم إلى ما لم يخطر ببالهم على الإطلاق. فمن غير المنتظر أن أيًا من المسلمين سيتشيع لأحد من الكلاب الأجنبية ضد أى أحد من بنى دينه ما لم يكن مسئولاً عن حياة الأجانب، وهنا يأتى تشيعه هذا لمصلحته الخاصة وليس من منطلق أى ارتباطٍ أو تبعية للأوروبيين. سار العمل ببطء شديد فى هذا اليوم، لكننا قطعنا شوطًا بعيدًا بوجه عام فى الرمال نحو منتصف واجهة المعبد.

يوم الحادى والعشرين – فى الصباح التالى خطر للناس أن يأتوا بأعداد غفيرة فلم استطع أن أشغلهم جميعًا لأن العمل كان موجهًا إلى نقطة واحدة فقط. ودار جدل ساخن حول هذا الموضوع، لكنهم عندما علموا أننى لن أنفق مليمًا واحدًا زيادة عما وعدت به منذ البداية، اتفقوا فى النهاية على تقسيم ما سأدفعه عليهم جميعًا؛ وبذلك سيعمل لدىَّ ثمانون رجلاً بدلاً من أربعين وبنفس السعر وهو أقل من ست بنسات فى اليوم. أدى الحرص على رؤية ما بداخل المعبد، وسلب كل ما قد يوجد به إلى مقدم الأخوين إلى مركبنا فى الصباح الباكر. وسرعان ما أفهمانى بكل وضوح أن كل ما فى المعبد ملكٌ خاص لهما، وأن الكنز لابد أن يكون لهما. حتى الهمج بدءوا يضعون حساباتهم على تقسيم الغنائم. أكدت لهم أننى لا أتوقع أن أجد شيئًا سوى الحجارة، وأننى لا أريد كنزًا، لكنهم ما زالوا مصرين على أننى لو أخذت الحجارة معى، فهذا يعنى أن الكنز مكنون بها، وأننى إن كنت أقوم برسم هذه الحجارة أو ما شابه ذلك، فإن هذا يعنى أننى قادر على استخلاص الكنز منها أيضًا دون أن يشعروا. اقترح البعض أنه فى حالة العثور على أى تمثال داخل المعبد، فلابد من تكسيره قبل أن أحمله معى حتى يروا ما بداخله. وأدركت ساعتئذٍ بوضوح أننى بعد دخول المعبد لن يسمح لى بالتصرف بحرية سواء لتدوين الملاحظات عما هو موجود به أو لأخذ أى

رسومات ناهيك أن أخذ أى تمثال أو أى شىء آخر يمكن أن نعثر عليه. إلا أننا استأنفنا عملنا، وصنعت سياجًا من أعمدة النخل التى جلبتها معى، لذلك لم يعد بى حاجة إلى هذا العدد الكبير من الرجال الذين لم تعدو مهمتهم على تنظيف المكان بين السياج والمعبد.

فى أثناء الصباح ترك رجلان من الرجال العمل وذهبا ناحية النيل إلى قاربنا. ورغم أنهما وجدا زوجتى على ظهر المركب وليس معها سوى فتاة صغيرة من القرية، فإنهما تصرفا بوقاحة شديدة نحوها، وحاولا الصعود إلى ظهر المركب رغم كل ما قالته لهما وذلك رغبة فى السطو على المركب. وفى النهاية صَوَّبَتُ مسدسًا نحوهما، فما كان منهما إلا التراجع على الفور والفرار إلى التلال. وتبعتهم زوجتى لكنهم ذابوا وسط أعداد من بنى جلدتهم من الهمج، وصار من المستحيل أن تعثر عليهم، فهم جميعًا أشبه بقطع الشيكولاته المتحركة على الرمال فلا تستطيع تمييز الواحدة عن الأخرى. وعندما دفعت للرجال أجورهم بالليل، قال أخو الكاشف إنه لابد من عد النقود كلها مرة واحدة قبل تقسيمها على الناس. وبناء على ذلك قام ترجمانى الذى يعمل أيضًا كخازن أموالى بِعَدِّ النقود على شال مهترئ؛ فلم يكد يفرغ من العد حتى ألقى أخو الكاشف بنفسه على الشال واستولى على كل النقود. نظر الرجال إلى بعضهم البعض، لكن لم يجرؤ أحد منهم على أن ينبس ببنت شفة عن هذا الموضوع، وأخذ المال كله معه. لفتت نظره إلى أن سحره أكثر فعالية بكثير من سحرى فى الحصول على المال، لكنى سررت لأنهم أخذوا يدركون قيمة المال جيداً.

من الطبيعى أن أتوقع ألا يأتى أحد إلى العمل فى الصباح التالى، لكنى كنت مخطئًا فى هذا. نظرًا لأننا أزلنا كمية كبيرة من الرمال، فإن السياج الأول لم يعد كافيًا. ولذا أقمت سياجًا آخر قبالة المكان الذى افترضت وجود مدخل المعبد مباشرة، وذلك منعًا لتساقط الرمال نحو المدخل. بدأت أدرك الآن أن هذا العمل سيستغرق وقتًا أطول مما حسبته فى هذه البلاد، وأن الفترة الزمنية التى خصصتها له انتهت بالفعل، لكنَّ هذا لن يحول بينى وبين الاستمرار، فلاشك من أننى كنت سأتم مهمتى لولا سبب مادى اضطرنى إلى التوقف عن العمل لفترة من الوقت. كان هذا السبب هو الحاجة

إلى ذلك الشيء الذى كان منذ أيام قلائل شيئًا حقيرًا وغير معروف، والآن لا أستطيع المضى فى العمل بدونه. هذا السبب هو المال الذى أظهر قوته المعهودة بين بنى البشر حتى فى هذه البلاد وذلك على إثارة شهوة الطمع والجشع، وهو الشيء الذى ما لبث أن صار هؤلاء الناس الهمجيون مفتونين به افتتانًا. أصدرت الأوامر إلى الرجال بجلب بعض الماء من النيل، وصبِّ الماء بالقرب من الجدار فوق المدخل. هنا أوقف الرمال من السقوط، ثم أمرت الرجال بعمل فتحة كبيرة العمق لكنها ستستغرق وقتًا أطول مما خططت له للبقاء هنا، ومالاً أكثر مما أستطيع توفيره. وبمرور الوقت أزلنا كمية هائلة من الرمال ظهر بعدها عشرون قدمًا من واجهة المعبد. ظهرت لنا التماثيل الضخمة فوق البوابة كليةً، كما ظهر أحد هذه التماثيل العظيمة بوجهه وكتفيه الذى كان مدفونًا تحت الرمال هو جالس قبالة المعبد عند الناحية الشمالية، وذلك كالتمثال الآخر عند الناحية الجنوبية. وغادرت المكان بعد أن رسمت المعبد من الخارج وبداخلى عزيمة لا تلين على العودة لإتمام افتتاح المعبد بعد أن حصلت من الكاشف على وعد بألا يدع أى أحد يلمس المكان لحين عودتى وهو الأمر الذى سيستغرق عدة أشهر، ووضعت علامة حيث كانت الرمال قبل أن أبدأ العملية. أتينا بالقارب إلى القرية، وانطلقنا فى رحلتنا فى نفس المساء بعد أن أعطيت الكاشف بعض الهدايا البسيطة.

انطلقنا فى النيل شمالاً بسرعة نظرًا لقوة التيار، وكان هذا من حسن حظنا لعدم وجود طعام معنا تقريبًا على المركب. وبعد أن غادرنا أبى سمبل بساعتين، نادانا جندى عثمانى على جمل عربى من الضفة اليمنى من النيل، لكننا مضينا فى رحلتنا دون أن ننتبه إليه. فعاد مرة أخرى، وتبعنا لمسافة كبيرة، ولما أتى إلى موضع أوصلنا فيه التيار إلى مكان قريب من الشاطئ، أطلق من مسدسه عيارًا ناريًا كإشارة للتوقف. كنا فى حيرة كبيرة من أمرنا عما يمكن أن يريده هذا الرجل لأن من غير المتوقع أن يغامر جندى عثمانى لوحده فى هذه البلاد. وأخيرًا قال لنا عند اقترابه من ضفاف النيل إنه يحمل لى خطابات من بك إسنا. ولم يكن هذا حقيقيًا. أعطانى خطابين محررين باللغة العربية عليهما إمضاء شخصين مختلفين ليس لهما وجود، ويوجه الخطابان لى أمرًا بلهجة متغطرسة وقحة بأن أصفى أى عمل بدأته فى النوبة وأن أرجع إلى القاهرة.

أما السبب وراء إرسال هذين الخطابين لى ومن الذى أرسلهما وما الغرض من ذلك فهذا سرٌ من الأسرار التى لابد أن تظل فى طى الكتمان فى الوقت الراهن.

صعد الجندى إلى ظهر المركب، وأرسل الجمل مع خادمه، ففى هذه البلاد كل جندى له خادم يقوم على رعاية جمله أو حصانه أو حميره إن وجدت. وبناء على ذلك، عندما يسير جيش قوامه خمسة آلاف رجل لملاقاة العدو، فإن هناك دائمًا ستة آلاف آخرين على الأقل يعوقون سيره ويأتون على المؤن، فليس لكل جندى عادى رجل، بل إن كل ضابط بالجيش له اثنان أو ثلاثة، كما يملك أصحاب المناصب الأعلى كالبكوات والكُشّاف عشرة أو أكثر.

كان التيار سريعًا جداً، ووصلنا فى مساء اليوم التالى إلى أبريم، ثم وصلنا فى صباح اليوم الذى يليه إلى الدير. ذهبت لرؤية المعبد على عَجَل ووفرت ملاحظاتى لزيارتى القادمة. وأخذنا معنا بعض الأطعمة وانطلقنا على الفور ووصلنا فى المساء إلى نباتة Nobat ، وتوقفنا فى الليلة التالية عند كلابشة. هنا زرنا المعبد للمرة الثانية، لكن الوقت كان متأخرًا لتفحصه. ذهبت زوجتى لترى النساء فى هذا المكان، وستجد الرواية التى سردتها عن هؤلاء النسوة فى ملحق الكتاب.

فى اليوم التالى ذهبنا لرؤية المعبدين الكائنين فى تدفا Todfa ، وسوف أذكر ملاحظاتى المتواضعة عن هذين المعبدين فى رحلتى القادمة إلى النوبة. وهنا نادى علىّ أحد البرابرة الذى كان مسلحًا برمح ودرع بأن أقف، ففعلت لأنه قال إن لديه شيئًا يريد أن يقوله لى. طلب الرجل ما معى من مال وصمم على ذلك، وحَدَجنى بنظرة همجية، لكننى عندما طلبت إلى الترجمان أن يستفسر منه إن كان يريد المال بالقوة أم كبقشيش نعطيه له باختيارنا، فضحك وفر هاربًا.

استأنفنا الرحلة، وفى كرداسة(٤٢) رأيت آثار بعض المبانى الكبيرة هائلة الحجم، وبعض المحاجر حيث وجدنا كنيسة صغيرة مقطوعة فى الصخر تضم الكثير من

(٤٢) كرداسة: ورد فى الخطط التوفيقية أنها واقعة على الجانب الغربى للنيل جنوبى دابود (مركز أسوان) بمسافة ١٦ كيلومترا. [المترجم نقلاً عن القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ – محمد رمزى – القسم الأول – مطبعة دار الكتب المصرية – ١٩٤٥، ص ٣٥٦]

الكتابات الإغريقية التى أسفت على عدم وجود وقت لدىَّ لنسخها. بعدها ذهبنا إلى جامبى Gamby التى يوجد بها معبد صغير جهة الشرق، لكنه مستوٍ تقريبًا مع الأرض، وبه بضعة رسومات ونقوش هيروغليفية على الأحجار. هذا المعبد ومعبد الدير وذلك المعبد المقابل لأبى سمبل هو كل ما رأيت على الضفة الشرقية من النيل جنوبى الشلال الأول. ووصلنا إلى دابود بعد الظهر، وذهبنا لرؤية الآثار فى ذلك المكان.

وصلنا فى اليوم التالى إلى الجندل أو الشلال الأول. وهرب جندى قرية دَراو الذى جاءنى بالخطابين على الفور، ولم أرَه بعد ذلك مطلقًا. لفتت انتباهى على وجه الخصوص مسلة كبيرة وجدتها ملقاة على الأرض أمام المدخل، فإذا جلبناها إلى إنجلترا، فإنها يمكن أن تكون بمثابة صرح أثرى يوضع فى مكان ما أو باعتبارها أداة زخرفية فى العاصمة. أرسلت إلى أغا أسوان وكذلك إلى ريس يعرف مجارى المياه فى الشلال، وفى تلك الأثناء ألقيت نظرة عامة على هذه الآثار الرائعة. لفت انتباهى فى الجزء الجنوبى من الجزيرة أنقاض معبد صغير متهدمٍ تمامًا، وقوالب الحجارة المتناثرة هنا وهناك، ولاحظت أن جزءًا من الجدار الأثرى يضم أرجل العديد من التماثيل المنحوتة نحتًا بارزًا ممتازًا. تفحصت قوالب الحجارة التى سقطت من الجدار، واكتشفت أنها تضم الأجزاء الباقية من التماثيل التى شكلت مجموعة من سبعة تماثيل. وعندما جاء الأغا والريس، عقدت اتفاقًا معهما لتدبير نقل المسلة فى النيل شمالاً، لكن ونظرًا لافتقارنا إلى القارب، فلم تنفذ هذه الاتفاقية فى ذلك الموسم. يبلغ طول المسلة ٢٢ قدمًا وعرضها قدمان عند القاعدة؛ لذا تتطلب المسلة قاربًا كبيرًا ضخمًا لنقلها. كان الاتفاق واضحًا لا غموض فيه وهو أننى حصلت على حق حيازة هذه المسلة باسم القنصل العام لصاحب الجلالة البريطانية بالقاهرة، ودفعت بأربعة دولارات إلى الأغا كى يعطيها لحارس يتولاها بالحراسة لحين عودتى.

أطلب إلى القارئ هنا أن يتوقف هنيهة حتى يذكر مدى حرصى على تأمين هذه القطعة الأثرية لأنه سيكتشف أثناء القراءة فى هذا الكتاب أن هذه المسلة المذكورة سببت لى الكثير من المتاعب والظلم والاضطهاد أكثر من أى شىء آخر نجحت فى نقله من مصر. كادت هذه المسلة أن تكلفنى حياتى، وتعرضت فى مقابل هذه الجهود

التى لا غرض لى فيها إلى أخس الإهـانات وأكثرها ضعة. للأسـف كانت هذه حالى فى مصر، فرغم أننى كنت أعمل لصالح كل من بعض الأشـخاص الذين اضطررت للتعامل معهم ولصالح بلادهم وعزها، فإن هؤلاء أنفسهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا غائلة الحقد والغيرة التى اشتعلت فى صدورهم، وعملـوا دائمًا على توظيفهـا ضدى. وأنا أنـوى فى المستقبل أن أنشر عملاً يكشف للجمهور هذه الأمور، وبذلك يمكن لأى إنسان لديه من المشـاعر الشىء العادى أن يتعجب من مـدى قدرتـى على المثابرة طوال هذه المدة الطويلة فى عملياتى البحثية فى ظل هذه الظروف.

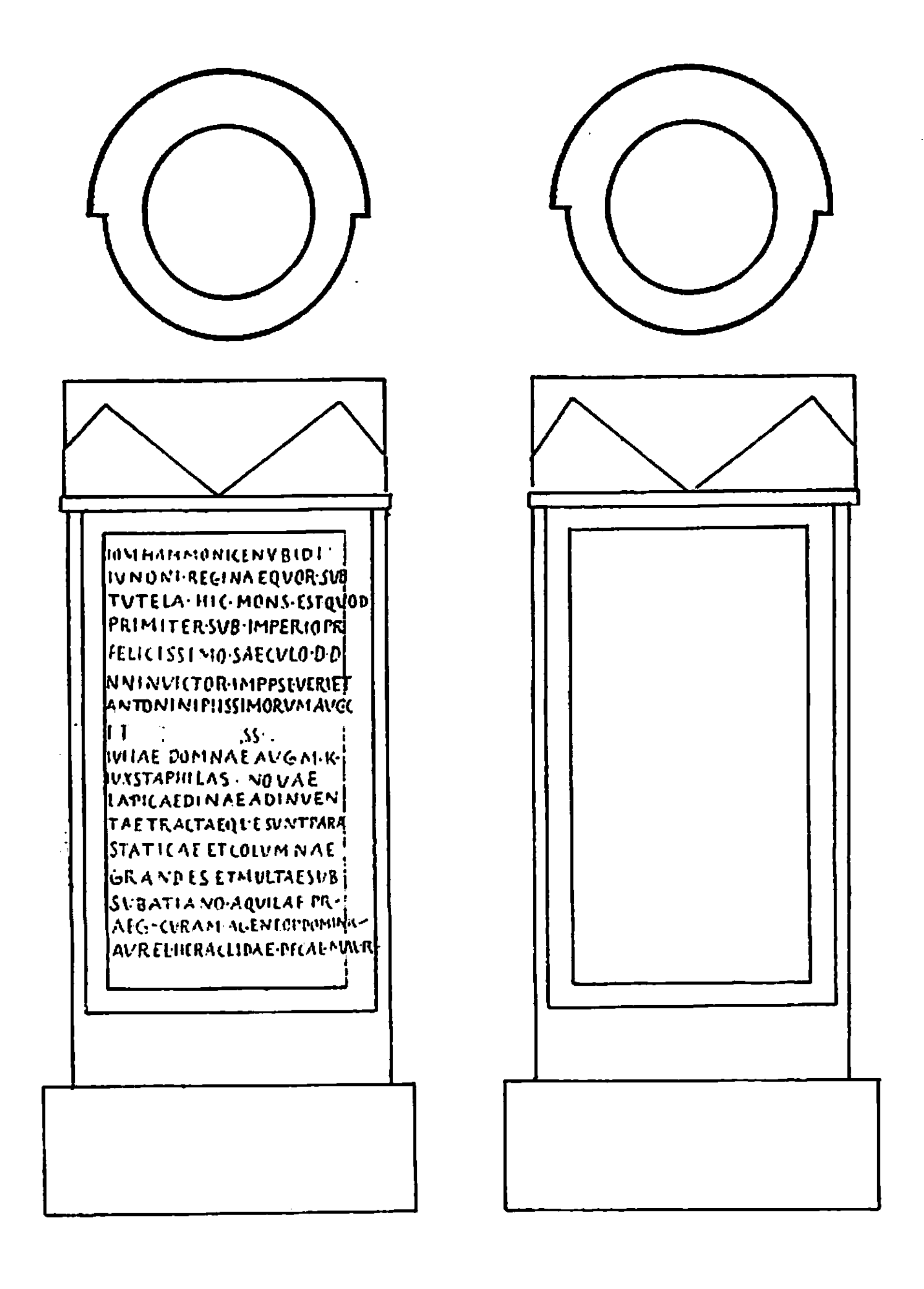
كان عدد قوالب الحجارة التى تكوّنت منها مقصورة طولها ١٤ قدمًا وعرضها ١٢ قدمًا اثنا عشر قالبًا. وتشكل هذه الحجارة عند وضعها على الأرض مع بعضها البعض لوحـة بديعة الجمـال تصور الإله العظيم أوزوريس جـالسًا علـى كرسيـه وأمامه مـذبح ويتلقى القرابين والأضاحى من الكهنة والنسـاء، وتحـيط باللوحة ككل الورود والنقوش الهيروغليفية. يبلغ طول قوالب الحجارة ثلاث أقدام وست بوصات وعرضـه ثلاث أقدام، لكن نظرًا لأن سـمكه قدمـان وثلاث بوصـات، فإنها كانت من الضـخـامـة بما يجعل من المحال نقلها كلها. إلا أن هذه الحجارة يمكن قطعها بسهولة لأنها مصنوعة من الصخر الرملى الكلسى؛ فـاتفـقت على تقطيع هذه الحـجـارة إلى قطع كل منهـا بست بوصـات مقابل مـائة قرش. وتركت المـال فى يد الأغا، وفُهِمَ من هذا أن هذه الحـجارة سوف تنقل عندمـا تسنح أول فـرصـة بتـوفـر مـركب تُرسَلَ إلى الأقـصـر. ألمح الأغـا أن من دواعى سروره أن يعـرف غرضـى بأن أتوجه إليه بتصـريح بـأخذ المسلة من مكانها، ورغم أن معى فرمـانًا وتفويضًا من الباشا بأن آخذ ما أشاء من الحجارة أو التماثيل، فإن هؤلاء الناس يظنون أن لهم الحق فى المطالبة بأى شـىء، فإن لم يسـتطيعـوا البـوح بالرفض صـراحةً، فإن لديهم السلطة التى تمكنهم من إلقاء العقبات والعراقيل فى طريقنا حتى يقضـوا على مهمتنا بالفشل التام. اتفقنا على أن يصدر الأغا أوامر إلى شـيخ الجزيرة لحراسـة الحـجـارة والمسلة لئلا يتـعـرض لهـا أحد بأى شىء، ويتلقى الأغـا مقـابل هذه الحراسـة أربعة دولارات كمـا سبقت الإشارة، كمـا سيـأخذ لقاء نقل المسلة مبلغ ثلثمائة قرش وهو مـا يعـادل ثلاثين دولارًا.

فى اليوم التالى، وهو يوم السابع والعشرين من سبتمبر، ذهبنا إلى أسوان برًا بعد شهر كامل من اليوم الذى دخلنا فيه هذا المكان أول مرة. وعند وصولنا علمنا أنه لا توجد مراكب لتأخذنا إلى إسنا، واضطررنا للانتظار حتى يأتى أحد من الشمال رغم أننا كنا فى عجلة من أمرنا. لهذا قمنا برحلة أخرى إلى جزيرة إلفانتين، وانطلقت فى الصباح التالى ذاهبًا إلى الجبل الجرانيتى الذى يبعد عن جنوب شرق أسوان حوالى ساعتين ونصف الساعة، واصطحبت معى أحد عرب أسوان كدليل، ومشينا فى أرجاء المكان أثناء السواد الأعظم من النهار. رأيت عددًا كبيرًا من المحاجر الجرانيتية مما يظهر بوضوح أن القدماء أخذوا الجرانيت الذى استخدموه فى المعابد والتماثيل ولأغراض الزينة والزخرف من هذه الأماكن، كما شاهدت فى أحد هذه الكشوف الأثرية حوضين كبيرين مقطوعين قطعًا غير مصقول فى الصخر، أحدهما جاهز لأن ينقل من مكانه لأنه مكتمل تقريبًا. وبدا لى مما شاهدت أنهم كانوا يحصلون على قطع الجرانيت بإحداث شق بعمق بوصتين تقريبًا بالإزميل حول الحجر الذى يريدون نقله، ثم يضربون بآلة ما ضربة قوية عليه مما يؤدى إلى انفصال الجزء المطلوب كما يُقْطَعُ الزجاج بالماس. كانت فى هذا الحوض قطع من الجرانيت التى يتضح منها حقيقة هذه العملية. من حسن حظى أننى عثرت عند عودتى جهة الغرب على أحد الأعمدة ملقىً على الأرض ومنقوشًا عليه باللاتينية كما هو موضح باللوحة المرفقة. هذا دليل إثبات على أن الرومان اعتادوا أخذ الجرانيت من هذه المحاجر وذلك لأغراض دينية أساسًا كالمصريين القدماء.

عند عودتى إلى أسوان، لم يصل قارب واحد، وبدأ صبرى ينفد لرغبتى فى الوصول إلى طيبة أو الأقصر. كنا نجلس تحت أيكة من أشجار النخيل نأكل حساءنا من الأرز واللحم مع الأغا عندما دخل عليه رجل عربى وهمس فى أذنه كمن لديه أمر خطير يريد أن يُسِرَّ به إليه. نهض الأغا من مكانه رغم أنه لم ينتهِ بعد من طعام الغداء، وذهب وعليه هيئة منْ علم بحدث جلَل، وعاد بعد نصف ساعة يصحبه رجلان آخران من ذوى المنزلة الرفيعة بالإضافة إلى الرجل العجوز الذى أتى من قبل. جلس الجميع حولى وبعد أن دخلوا فى الموضوع بدرجة من الحرص، سئلت إن كان لدىَّ الرغبة فى شراء

قطعة كبيرة من الماس. بعد أن فكرت مليًا قلت لنفسى إننى لست تاجر ألماس، لكن فى مثل هذه الحالة كنت سأدبر وسيلة حتى أصبح جوهريًا، وأتى بالمال من إسنا، إذا ظهر أن هذا الأمر لصالحى، ففى الزمان الذى نعيش فيه لا يعتبر الماس من الأشياء الحقيرة حتى لو حصلنا عليه بثمن رخيص. وأخبرت الأغا لو كانت الماسة لا بأس بها، فسوف أشتريها حال توصلنا إلى اتفاق، لكن من الضرورى أن أراها أولاً. فقال إن أحد الأهالى فى ذلك المكان عثر على هذه الماسة، وكان الرجل غير محتاجٍ للمال، فاحتفظت أسرته بها سنين طويلة. وبعد وفاة المالك الأصلى الآن، أراد الورثة أن يتصرفوا فى قطعة الماس. طلبت أن أراها؛ لذا انتحينا جانبًا بعيدًا عن الناس. عندئذٍ أخرج الرجل العجوز بكل وقار صندوقًا خشبيًا صغيرًا من جيب فى حزامه الجلدى. كانت فى هذا الصندوق ورقة فتحها الرجل، ثم فتح اثنين أو ثلاثًا غيرها حتى وصل فى النهاية إلى فتح الشىء المقدس. وضعت محتوياتها فى يدى تملؤنى الآمال الكبيرة، لكن وا أسفاه! كيف الأمر عندما اكتشفت أنها ليست إلا جزءًا من سدادة قنينة خمر عادية، لا يزيد حجمها عن ثمرة البندق، وتزينها اثنان أو ثلاثة من الأزهار المذهبة الصغيرة! تبددت كل آمالى، ولم يَفُتْ سائر الناس الذين رقبوا كل حركاتى بحرص شديد أن يلاحظوا الإحباط الذى ارتسمت علاماته واضحة على وجهى، حينئذٍ تحدد مصيرهم وتحطمت آمالهم العريضة فى الثراء من وراء هذه الجوهرة التى لا قيمة لها. وعندما أخبرتهم أن قطعة الماس ما هى إلا قطعة من الزجاج، وقع منهم كلامى هذا كوقع أنباء خبرٍ مشؤوم أو مصيبة كبيرة، فخرجوا يخيم عليهم الصمت المطبق حتى دون أن ينظروا إلىَّ نظرة المتسائل ليعرفوا إن كنت حقًا جادًا فيما قلت أم لا. لكننى أيضًا شاركتهم خيبة الأمل، ولم ترتسم على وجهى ابتسامة واحدة يمكن أن تمنحهم أى أمل.

مر يوم آخر، ولم يظهر أى مركب. وفى آخر الأمر فكرت فى المطالبة بجملين لنمضى سيرنا إلى إسنا برًا بصحبة كل من زوجتى والترجمان، بينما يظل العسكرى الإنكشارى هناك ليلحق بنا مع أول مركب ليأتى بالأدوات والحاجيات التى تركناها وراءنا. لكن الأغا عندما رأى أننى اتخذت هذا القرار، أرسل فى طلب مركب كان مخبأً على بعد فرسخ تقريبًا، وهناك مركبان أو ثلاثة مراكب مُخبَّأة فى أماكن أخرى.


IOM HAMMONI CENVBIDI
IVNONI·REGINA EQVOR·SVB
TVTELA·HIC·MONS·EST QVOD
PRIMITER·SVB·IMPERIO PR
FELICISSIMO·SAECVLO·D·D
NN INVICTOR·IMPP SEVERI ET
ANTONINI PIISSIMORVM AVGG
IVLIAE DOMNAE AVG M·K·
IVXSTAPHILAS · NOVAE
LAPICAEDINAE ADINVEN
TAE TRACTAEQVE SVNT PARA
STATICAE ET COLVMNAE
GRANDES ET MVLTAE SVB
SVBATIANO·AQVILAE PR·
AEG·CVRAM AGENTE
AVRELI HERACLIDAE

اكتشفت أن هذا جاء حتى نمكث فى ذلك المكان بضعة أيام أخرى لصالح البلدة، فالأجانب يضطرون بالطبع لإنفاق المال أثناء إقامتهم هناك. واكتشفت بعد أن أجرنا المركب بسعر كبير أن هذا المركب خاص بالأغا نفسه، وأخبرنا القبطان أو الريس بعد ذلك أن الأغا أمره بأن يخبئه حتى يجبرنى على أن أدفع ما يريد كإيجار له.

يوافينا بعض الرحالة بالتصورات والمفاهيم التى تشكلت لديهم عن العرب والبرابرة، لكن من الجدير بالملاحظة أن الفرق شاسع بين أسلوب كل شخص وآخر فى السفر والترحال، كما أن الطرق والوسائل التى يتبعها شخص ما للتوغل فى بلد ما قد تمنحه فرصاً أكبر من غيره فى رؤية الآخرين والحكم عليهم.

فالرحالة الذى تتوفر أمامه كل سبل المعيشة الممكنة، ولا يتعامل مع هؤلاء الناس إلا كعابر سبيل لا يمكنه أبداً الحكم على أفكارهم ونظام سلوكهم وأخلاقهم وطباعهم الميالة للنهب والسلب والجشع، إذ أن الفترة الزمنية القصيرة التى يقضيها فى البلد والتعاملات التجارية والمالية المحدودة التى يعقدها معهم لا تمكنه من رؤية هؤلاء الناس على حقيقتهم. بل إن بعض الرحالة يُتَلَقون بالترحاب مما يجعلهم يشعرون بالسعادة البالغة، دون أن يتوفر لهم الوقت الكافى لكى يكتشفوا أن نفس الأشخاص الذين افترضوا فيهم المدنية والأدب ودماثة الأخلاق ما ظهروا كذلك إلا لخدمة مصالحهم الخاصة، ثم يرحلون من هذه البلاد إلى بلادهم، ولا يقولون فى دفاتر ملاحظاتهم سوى أن الناس استقبلوهم بالحفاوة والترحاب فى مكان كذا وكذا. لكن دع أى رحالة يتعامل معهم فى أى معاملة تجارية تختص بمصلحتهم، أو عندما يتطلب منهم تنفيذ أى عملية أو مهمة، فسرعان ما سيكتشف أنهم أكثر شعوب الأرض غشاً فى كل شىء. أما قدرتهم على الخداع فلا حد لها. فالرحالة الذى يمر بقرية من القرى يتوقف بمركبه لمدة ساعة أو ساعتين، ما أفضل الناس الذين سيقابلهم! بعضهم يأتى إليه بسلة صغيرة من البلح، ويأتى البعض الآخر ببضعة بيضات، ويأتى آخرون ببعض الخبز واللبن، فيُسَرُّ الرحالة بهذا سروراً كبيراً، وعلى الفور يعطيهم خمسة أو حتى عشرة أضعاف قيمة ما أخذه منهم دون أن يدرك أنهم ما أتوه بهذه الأشياء إلا أملاً فيما يعطيه لهم، وبعدها يشكو

هذا الرحالة أن الناس فى أوروبا لا يعاملون الغرباء والأجانب بمثل هذه الحفاوة والتقدير. لكن دعه يأخذ أقل هذه الهدايا شأنًا دون أن يعطى أى شىء فى المقابل، أو حتى دون أن يعطيهم ما هو أعلى من قيمتها، عندئذٍ لن يتورع هؤلاء عن التهامس والهمهمة عليه. فإذا أعطاهم ضعف السعر فقط، فإنهم محترفون فى إعادة النقود إليه بكل احتقار وازدراء حتى يشعر بالخجل فيعطيهم أكثر، فإذا أخذ المال الذى أعادوه إليه، أو لم يعطهم شيئًا من البداية، فلا ينبغى عليه أن يتوقع أن يتركوه يمضى إلى حال سبيله دون أن يدفع لهم مقابل ما جلبوه له. كل هذه الأمور يجهلها الرحالة الذى يمر بهذه البلاد كعابر سبيل، وليس فى الرحالة من هو بهذا الخلق والطباع بحيث يقبل أى شىء بكل وضاعة ودناءة دون أن يدفع فى المقابل ضعف أو ثلاثة أضعاف قيمته. يمكن من هذه الأمور الصغيرة التافهة أن تستنتج أنهم بهذا الوصف فى كل تعاملاتهم، فتسمع الليلة كلمة بخصوص شىء ما، وتسمع غداً كلمة أخرى، أما الحيل والألاعيب فهى تفوق كل وصف، فلديهم المهارة على جعل الشىء يبدو كشىء آخر ببراعة كبيرة تجعل من العسير جداً أن تتفادى الوقوع فى شرَكهم.

يقع الرحالة بين طرفى نقيضين، أحدهما وصل لتوه إلى البلاد التى لم يزرها من قبل، ولا معرفة لديه بالطبع بالعادات وما شابهها، ولا يستطيع أن يرى ربْع ما يجب عليه رؤيته، أما الآخر فهو متعمق تمام التعمق فى عادات هذه الشعوب وتقاليدها، بل إن الأمور التى تصدم العين عند رؤيتها أول مرة بدأت تفقد تأثيرها عليه، ويكاد هذا الرحالة ينسى عاداته وتقاليده الأولى، ولا يعتبر أى شىء يراه أو يشاهده من الأشياء الخارقة للعادة أو مما يستوجب الانتباه، رغم أنها قد تكون ذات أهمية كبيرة.

أخيراً وبعد تسوية كل شئونى مع الأغا، والوفاء باحتياجاته من الزيت والخل وبعض الزجاجات الفارغة، غادرنا أسوان فى صباح يوم التاسع والعشرين لنصل إلى إسنا بعد يومين نظراً لقوة التيار وشدته. لم يكن خليل بك هناك، ولم يكن الخازندار أو خازن أمواله يعرف أى شىء عن الفرمانات التى أرسلت إلىَّ فى النوبة، إلا أن خليل بك قال لى عندما رأيته بعد فترة إنه لم يرسل لى أى شىء من هذا القبيل.

ووصلنا فى صباح اليوم الرابع إلى الأقصر. انطلقت فى صباح اليوم التالى فى نفس المركب إلى قنا، ووصلنا هناك فى اليوم التالى. ذهبت لرؤية مستر سوكينر Sokiner وهو أحد معارفى الذى قدم لى خدمات كثيرة فى هذا الشأن. وذهبنا إلى الكاشف الذى لم يستطع أن يعطينى قاربًا نتيجة صدور فرمان جديد من القاهرة بحشد كل المراكب التى مرت، وبناء على هذا اضطررت لإرسال رسول إلى القاهرة للحصول على أمر من القنصل بتوفير مركب لنا.

وفى صباح يوم السابع من الشهر التالى أعددنا العدة لعودتنا إلى القرنة عندما جاءنا الرسول وقال إن كلبًا عضه، ولذلك لم يستطع مواصلة الرحلة. لم يسرنى هذا الخبر لأن من شأنه تأخير مباشرة نقل التمثال النصفى، فأرسل على الفور فى طلب رسول آخر، لكننى لم أتمكن من العثور على أى أحد. ضاع منا النهار كله بهذه الطريقة، وكدت أيأس من النجاح، لكنى ذهبت فى الصباح التالى إلى الكاشف، وطلبت إليه أن يصدر أمرًا بإحضار رسول، فاستجاب لمطلبى على الفور، فالفرق شاسع بينه وبين كاشف إرمنت فى الطبع والشخصية. تسلم الرسول الرسالة عند الظهيرة، وكان المطلوب منه أن يذهب ويعود من القاهرة فى فترة ستة عشر يومًا. تجهز كل شىء لمغادرة الرسول، ولم يكد الرجل ينطلق فى رحلته حتى ظهر مركب كبير يحمل السادة مسيو جاك Jacque وكالياد Caliad وهما عميلان من عملاء القنصل الفرنسى اللذين كانا ذاهبين إلى أسوان. عرفت بعد الاستفسار أن المركب غير مشغول بعد وصوله إلى أسوان؛ فطلبت بناء على ذلك من الريس حجزها لى أمام الأغا الذى جعله يعد بألا يسحب اتفاقه. ولحسن الحظ أن الرسول لم ينطلق بعد، فلم تعد هناك ضرورة لإرساله إلى القاهرة لتأكدى من حصولى على هذا المركب.

عند وصولنا إلى طيبة، اتفق أن المركب كان مربوطًا إلى ضفة النهر حيث يرقد رأس التمثال. ولن أضيع وقتى فى سرد التعليقات التى أدلى بها عميلا مستر د. الفرنسيان عند رؤيتهما للرأس، لكن يكفى أن أقول إنهما أكدا أن الجيش الفرنسى لن يأخذ هذا التمثال معه رغم العلامة الواضحة الموجودة على صدره لأنهم رأوا أنه غير

جدير بالأهمية! عندما سمع ترجمانهم[٤٣]، وهو أحد الخونة الفرنسيين، بأنباء نجاحى الباهر فى جمع الكثير من القطع الأثرية القيمة، ألح إلىَّ قائلاً بأنه سيذبحنى إذا ظللت مستمرًا فى عملياتى البحثية وذلك وفقًا لأوامر شخصين من الشخصيات الهامة أحدهما هو كاشف إرمنت، والآخر لن أذكر اسمه فى الوقت الراهن. فأخبرته بأننى ممتنٌ له عظيم الامتنان لهذه المعلومات، لكنى لا أصدق أن أى أحد يمكن أن يُقْدِمَ على هذه المحاولة. وذهبوا لزيارة الجنود الذين كانوا يعيشون فى المقابر وسط أهل القرنة، وحشدوا عددًا كبيرًا من العرب المقيمين فى ذلك المكان فى حضرة العميلين اللذين أخبرا الناس بصراحة وأثناء وجودى بأنهم لو باعوا أى قطعة أثرية إلى الإنجليز، فسوف يتعرضون للضرب المبرح على يد كاشف إرمنت الوالى عليهم جميعًا. أدركت من هذه اللحظة أننى سألقى الكثير من المعارضة وسأجابه العديد من الصعاب، لكن زيارتى هناك كانت قصيرة، لذا فلم أهتم بهم، واستأنفت عملى، وسكنت زوجتى فى بيت عربى من بيوت الأقصر.

ذهبت إلى الكرنك فى نفس اليوم، وأصدرت الأوامر إلى عشرين رجلاً بالعمل فى بقعة من الأرض اخترتها وفقًا لحسابات بسيطة أجريتها سأتحدث عنها فيما بعد. انطلقت مرة أخرى إلى إسنا وذلك لإتمام العقد بينى وبين الريس بخصوص المركب، ولدفع جزء من المبلغ كضمان، وكان الرجلان الفرنسيان معى على ظهر المركب أيضًا. انطلقنا فى الرحلة أثناء الليل كله تدفعنا رياح طيبة قوية، ووصلنا إلى إسنا ظهر اليوم التالى.

أتمنى ألا يظن القارئ أننى أُعْمِلُ قلمى فيما لا يفيد من حكايات وأخبار، أو أننى ما عرضت الصعوبات التى واجهتنى فى عملياتى إلا رغبة فى ميزة أو فضل أحظى به،

(٤٣) أورد بلزونى فى الأصل كلمة dragoman وهى تعنى ترجمان أو مرشد للسياح خاصة فى منطقة الشرق الأدنى والأوسط، ويترجم هذا الترجمان فى الأغلب من اللغة العربية والتركية وإليهما على الأغلب. هذا مثال آخر "لترجمة" بلزونى للواقع المعاش فى مصر فى عهد محمد على، فهذا المترجم لا يترجم من العربية أو التركية، لكن من الفرنسية أو الإنجليزية ونحوهما، لكن بلزونى أتى باللفظة المناسبة للثقافة التى كان يعيش فيها. [المترجم]

بل على العكس، أؤكد لهذا القارئ أننى أعمل جهد الطاقة على الاختصار وألا أورد أى شىء ما لم تَدْعُ الضرورة إلى ذكره. ذهبت إلى البيت الذى يجتمع فيه كل أصحاب المراكب الذين أجمعوا كلهم على رأى واحد وهو استحالة وضع الرأس على ظهر أى مركب زعمًا منهم أن وضع هذه الكتلة من الحجر على ظهره سيؤدى إلى تكسره وتحطمه. بعدئذ جاهدوا فى إقناعى بترك هذا الحجر لأنهم مالوا للاعتقاد بأنه لا يحوى أى ذهب، فإذا أخذته معى ووجدت أنه ليس به أى ذهب بعد أن أنفقت الشىء الكثير؛ فإننى سأخسر كل شىء. ورغم البساطة التى يتَحَلَّوْن بها عندما أقنعتهم بعدم احتمالية وقوع أى حادث، وأننى سأتحمل كل المخاطرة على عاتقى، فلم يفتهم أن يطلبوا منى مبلغًا كبيرًا من المال أجرة للمركب. أصبت بالحيرة خوفًا أن يفوتنى هذا المركب فأفقد ميزة ارتفاع منسوب المياه؛ وبالتالى سأضطر للانتظار حتى العام القادم، وفى بلاد كهذه تتغير فيها الحكومة وأسلوب التفكير من يوم لآخر، لم أعرف ما يمكن أن يحدث. ووفقًا لذلك رأيت أن أفضل شىء أفعله لتأمين نفسى من أى عملية نهب أو سلب فى المستقبل أن أدفع لهم مبلغًا كبيرًا لإيجار المركب، وهو ثلاثة آلاف قرش أى ما يعادل خمسة وسبعين جنيهًا إسترلينيًا من ذلك المكان إلى القاهرة.

بعد تسوية كل هذا ودفع نصف المبلغ مقدمًا، انطلق المركب فى النيل جنوبًا حتى أسوان لتفريغ شحنته فى ذلك المكان والعودة على الفور. أرسلت العسكرى الإنكشارى ومعه بعض الهدايا إلى الأغا، وكذلك بعض الهدايا الصغيرة إلى حسين الكاشف حتى تُرسلَ إليه فى أبى سمبل عندما تسنح أول فرصة للذهاب من أسوان إلى ذلك المكان، وذلك حتى يقتنع من خلال هذه الهدية الصغيرة بأننى أنوى العودة إلى ذلك البلد كى أنهى عمليتى، وحتى أغريه على الوفاء بوعده لى بألا يدع أى أحد يتولى إتمام ما كنت قد بدأته من قبل. وحمل العسكرى الإنكشارى على ظهر المركب بالمثل الإثنا عشر حجرًا التى تركتها هناك حتى تقطع وما إلى ذلك. وعندما انتهينا من تجهيز كل شىء، انطلقنا إلى طيبة ليلاً، ووصلنا إلى هناك فى صباح اليوم التالى. وما أن وصلنا حتى ذهبت من فورى إلى الكرنك لرؤية ما عمله الإثنا عشر رجلاً بالأمس.

هنا – أيها القارئ – بداية تلك الاكتشافات التى سببت لى القدر الكثير من المتاعب، لا من العمل الشاق المضنى الذى تتطلبه هذه النوعية من الأعمال، بل من الظلم والاضطهاد البشع الذى جرته علىّ، ومن الغل والحقد والحسد الذى وصل إلى درجة دعتنى إلى أن أدعو الحظ[٤٤] نفسه الذى لازمنى ملازمة الصديق حتى هذا اليوم جافيًا قاسيًا. وبالرغم من كل هذا، فإننى لم أتخلَ عن مهمتى حتى تمكنت من تحقيق أمانىّ. بالإضافة إلى ذلك فأن لدىَّ مشروعات أخرى قيد النظر آمل أن تقنع خصومى أن ظلمهم واضطهادهم لم يكن له أى أثر علىَّ سوى تقوية عزيمتى على استكمال عملياتى البحثية. ولو لم أصمم على المقاومة كهرم صامد أمام الرياح ضد كل هجماتهم المتكررة التى انهالت علىَّ كوابل من المطر، ما تمكنت من الاستمرار والمواصلة حتى منذ البداية. ولابد أن أعترف من ناحية أخرى بأننى فى اللحظة التى تعرضت فيها للاضطهاد والغبن من جهة، قوبلت بآيات الود واللطف والأمانى الطيبات من جهة أخرى، ولحسن الحظ والشكر للرب أن مَنْ لديهم استعداد للخير والإحسان يفوق عددهم مَنْ هم دون ذلك، رغم أن قليلاً من هؤلاء الأخيار يحبون أن يتدخلوا أو يدسوا أنوفهم فيما ليس لهم به شأن. شهد الكثير من الرحالة من مختلف البلدان أثناء قيامى بعمليات البحث والتنقيب بأن أشد الصعوبات التى لاقيتها لم تكن فى اكتشاف الآثار، وهو الأمر الذى اعتبره أهون شىء وأسهله فى عملى، بل فى السيطرة على الحيل والدسائس التى حاكها أعدائى وأصدقائى المزيفون ضدى. وأنا ميال إلى التماس العذر للكونت فوربان Forbin الذى جاءت الأخبار والروايات المغلوطة والمزيفة التى أتى بها مشوشة ومجافية للحقائق مما جعله مادة للسخرية والازدراء والاحتقار من التماسه لغيره الذين كان ينبغى عليهم الترفع عن مثل صغائر الأمور وتوافهها.

استأنفنا العمل فى الكرنك حينما عدت من إسنا، لكنى لم أجد شيئًا، ولم يكن احتمال عثورى على أى شىء هناك قائمًا. يقع أحد المعابد الذى تحيط به بحيرة من

(٤٤) أشار بلزونى إلى الحظ هنا كإله وهو – بالطبع – متأثر بثقافته الأوربية المستقاة من رافدين أساسيين هما الكتاب المقدس والحضارة اليونانية والرومانية. ففى الأصل الإنجليزى أورد بلزونى كلمة Fortune بمعنى إلهة الحظ وهى من الآلهة الرومانية. [المترجم]

ثلاثة اتجاهات فى المكان الذى أخذ منه الفرنسيون تماثيل الكباش أثناء الحملة. ويواجه المعبد طريق الكباش العظيم من جهة الشمال، ولم يبْقَ منه حائط أو عمود واحد قائمًا فى مكانه. توجد على الجانب الخارجى من الحائط أجزاء كثيرة من التماثيل سالفة الذكر التى كانت موجودة أثناء غزو الجيش الفرنسى لأرض مصر، إلا أنهم قاموا ببعض عمليات التنقيب عند الجانب الشرقى من المعبد وتوصلوا إلى اكتشافات يمكن لنا أن نرى ثمارها الآن فى المتحف البريطانى، وهى الآثار التى استولوا عليها فى البحر. أكد الكونت دى فوربان أن رجلاً فرنسيًا ما أشرف على العمل وأنه أسدل الستار على كل هذه التماثيل التى عُثِرَ عليها. لكن الكونت لم يذكر اسم هؤلاء الأشخاص لأنه يعرف جيدًا أن شيئًا كهذا لم يحدث على الإطلاق. فالأخبار التى نشرها عن التماثيل والتى يؤكد أنه عُثِرَ عليها تحت سطح الأرض بعشرين قدمًا مدعومة بحائط قوى قديم إنما هى مأخوذة من رسائلى الخاصة التى أعطيتها له بنفسى فى القاهرة وهو ما سأتناوله بالذكر فيما بعد، وهى الرسائل التى وعدنى بأن ينشرها على الملأ كما هى. لكنه – وبدلاً من أن يفعل ذلك – لم يستخدمها إلا لخلط كل الحقائق، ومنع الحقيقة من الوصول إلى الجمهور.

سأتناول الآن بعض الحقائق الأكثر وضوحًا. أصدرت الأوامر بالحفر وفقًا لما قمت به من حسابات عند الجهة الغربية من المعبد حيث لم يقم أى أحد بأى عملية تنقيب من قبل، ولم يأخذ أى رحالة من قبلى أى شىء من هناك إلا ما وقع عليه البصر. كان التراب وقوالب الحجارة والأحجار ملتحمًا ببعضه البعض بشدة بسبب عوامل الزمن ولاسيما على السطح مما يثبت بوضوح أن الأرض لم يمسسها أحد منذ العصور الأولى. اكتشفت حوالى ثمانية عشر تمثالاً فى أيام معدودة، ستة منها بحالة ممتازة، من بينها تمثال أبيض بالحجم الطبيعى يفترض أنه لجوبيتر آمون وهو الآن أيضًا فى المتحف البريطانى.

هنا أرجو أن يؤذن لى بالإشارة إلى أمرٍ آمل أن يقنع الناس بما انطوت عليه روايات الكونت دى فوربان من زيف وباطل. فمسيو دروتى القنصل الفرنسى الذى قام بعمليات البحث والتنقيب منذ خمسة عشر عامًا والمرتبط بالطبع بمصالح فرنسا،

زار طيبة مرتين قبل مجيئى إلى مصر. كيف يمكن - إذن - وفى أثناء هذه الفترة الطويلة ألا يعرف من الأهالى أن الفرنسيين عثروا على هذه التماثيل هناك ثم أسدلوا عليها الستار؟ وكيف حدث أن الشخص الذى خبأها لم يذكر له هذا الأمر مطلقًا أو لأى شخص آخر حتى بعد أن ساد السلام بوجه عام؟ بإمكاننا أن نفترض أنه بمجرد خلو البحار من السفن الإنجليزية التى لم تكن عيونها اليقظة لتسمح حتى لجرذ من جرذان الماء بالمرور إلى فرنسا، فإن الخوف من أخذ هذه التماثيل سيزول، وبذلك تكبد الفرنسيون خسارة أخرى، لكن وبغض النظر عن كل هذا، لم يكن هناك شىء يمنع مستر دروتى من نقل التماثيل إلى الإسكندرية فى أمان كما فعل بالنسبة لقطع أثرية أخرى كانت هى الهدف الأول وراء انطلاقه جنوبيًا فى النيل. ما كان ينبغى علىَّ أن أتطرق إلى هذا الموضوع ما لم تُسْتَغَلَّ ضدى الوسائل والطرق الوضيعة لتحقير كل شىء قمت به، وهى مجموعة من التصريحات العارية من الصحة التى أعتقد أنها نشأت فى الأصل من العقلية البركانية لكونت دى فوربان نفسه.

لابد أن المكان الذى وجدت فيه هذه التماثيل هو المدخل إلى الرواق، إلا أن الكثير منها كان موجودًا فى أماكن أخرى متفرقة مما يصعب تحديد مواضعها الأصلية. وجدت الكثير من التماثيل من نفس النوع فى أحد المعابد فى القرنة، وهو ما لا يزال مجهولاً عند الناس، وسوف أتحدث عنه فيما بعد فى هذا الكتاب، ويبدو من قواعد التماثيل التى كانت هناك فى هذا المكان الذى تحيط به الأعمدة، ويمكن أن ينطبق ذلك على هذا المعبد. وليس الموضع الذى وجدتها فيه هو مكانها الأصلى بأى حال من الأحوال، والواضح من وجود مواقعها على غير نظام أنها جلبت هناك فى سرعة وعجلة كبيرة. شيدت بعض الأسوار من قوالب الطوب وذلك لحمايتها (أى التماثيل) من بطش الغزاة، وألفينا التمثال الأبيض راقدًا بين باقى التماثيل بشكل عشوائى.

تفحصت أثناء هذا الكشف الأثرى آثار الكرنك بنظرة فاحصة مدققة، ورأيت عددًا كبيرًا من المناطق التى تتطلب الحفر فيها. شاهدت المذبح الشهير وكذلك الآلهة الست التى ورد ذكرها فى العمل الفرنسى العظيم، بالإضافة إلى ذراع التمثال، وكلاهما ضمن المشروع الذى شرعت فيه لنقلهما فى هذه الفترة. لحسن الحظ كانت الصعوبة

فى الحصول على رجال للمشاركة فى العمل عند هذه الضفة من النهر أقل مما لاقيته عند الضفة الأخرى. وكان الكاشف على استعداد لعمل أى شىء فى استطاعته من أجلى، وسارت كل الأمور بسلاسة ودون عقبات. كانت العقبة الوحيدة هنا إصرار الفلاحين فى الكرنك على المشاركة فى العمل بأعداد أكبر مما حدث فى الأقصر، وقالوا لى إن الآخرين ليس لديهم الحق فى العمل على هذه الأرض، وتتطور هذا النزاع أحيانًا إلى التشابك بالأيدى وتبادل اللكمات. كان هؤلاء الناس على النقيض من الناس فى القرنة الذين أصبحوا أغنياء من تجارة الآثار وخداع الرحالة والاحتيال عليهم؛ فصاروا غير حريصين على اكتساب ثلاثين بارة فى اليوم. واكتشفت أثناء الكشف الأثرى نفسه تمثالاً جميلاً واقفًا بلا رأس، ويظهر جزء منه فوق الأرض لكن لم يره أحد. وأظن - من جانبى - أن هذا التمثال من أكثر المنحوتات المصرية القديمة التى رأيتها اكتمالاً.

من الباعث على الملل بالنسبة للقارئ أن أذكر كل التفاصيل التى وقعت أثناء عمليات البحث والتنقيب. لسوء الحظ لم يكن معى من المال ما يكفى للاستمرار، واضطررت للذهاب إلى إسنا لاقتراض بعض المال من أحد اليونانيين الذى تصادف أن تعرفت عليه فى ذلك المكان، وهو شخص يمكن أن يسعفنى بأى مبلغ، فاقترضت منه ما رأيته ضروريًا لنقل تماثيل الكباش الجاهزة لأخذها من الكرنك إلى الأقصر لأننى توقعت أن يرسل لى القنصل بحوالة مالية. وجدت عند عودتى إلى الكرنك أن كاشف قوص أصدر فرمانًا إلى قائمقام الأقصر يأمره فيه بألا يدعنى آخذ أى شىء معى، وجاء هذا منافيًا للفرمان الذى حصلت عليه من محمد على باشا، وانطلقت على الفور إلى قوص، لكننى عرفت لدى وصولى أن الكاشف توجه إلى قنا؛ فحولت مسارى إلى ذلك المكان. انطلقنا بسرعة كبيرة لشدة التيار وقوته، ورأينا فى منتصف الليل تقريبًا سفينتان مقبلتان نحونا. وعند السؤال إلامَ تنتمى هاتان السفينتان، عرفت أنهما تابعتان لصديقى الحميم خليل بك الذى كان عائدًا من القاهرة. سرنى هذا الموقف لأننى أردت أن أشكو إليه من سلوك الكاشف، لكنى اكتشفت عند اقترابنا من السفينتين أن الكاشف كان على موجودًا أيضًا. سَعِدَ خليل بك بسعادة كبيرة لرؤيتى بعد عودتى من النوبة، وحرص على الاستفسار عن كيفية استقبال الناس لى فى هذه البلاد. فأخبرته بأنهم أطاعوا

الفرمان الذى أصدره، وأننى عملت كل ما تمنيت عمله بخصوص المعبد فى أبى سمبل، لكنى لم استطع إتمام العمل هذا العام، إلا أننى سأعود العام القادم. طلب منى أن يعرف ما إذا صار الأخوان محمد وحسين الكاشف أصدقاء مرة أخرى، وهو سؤال لم أستطع الرد عليه، لكننى أخبرته بأن البلاد عرفت الهدوء والسلام التام فى أثناء ذلك الوقت.

عدت إلى قوص معه، وفى صباح اليوم التالى انتهزت الفرصة لسؤال الكاشف عن السبب الذى دفعه إلى إرسال فرمان إلى الشيخ بعدم السماح للإنجليز بأخذ أى شىء يجدونه. فقال إنه لا يعرف أى شىء عن هذا الأمر رغم أننى رأيت الفرمان بنفسى. لكنه قال إنه على استعداد لأن يمنحنى أى فرمان أريد. ولاشك أن هذا نتيجة وجود البك معنا، وإلا ما وجدته شخصًا مريحًا فى التعامل.

كان خليل بك من الأرناؤوط، تزوج من أخت محمد على والى مصر، وتولى البك إمارة المديريات فى صعيد مصر من إسنا إلى أسوان، وكان على اتصال وثيق بالرحالة الأوروبيين قياسًا إلى أى رجل تركى آخر. كان دائم السؤال والاستفسار عن الأشياء التى يجهلها، ولديه درجة من الحصافة وسلامة الرأى، وهى من الخصال التى يندر وجودها بين الأتراك، لكنه ورغم كل هذا عبد لا إرادة له أمام الخرافة والإيمان بالقوى السحرية. وعندما وصلنا إلى قوص، جلس البك فى بستان الكاشف تحت تكعيبة من أشجار العنب التى تظللها أشجار لسان الحمل[٤٥] من كل ناحية مما شكّل ركنًا هادئًا رائع الجمال. فُرشت حصيرة كبيرة على الأرض وفوقها سجادة فاخرة والوسائد كالمعتاد. جلس الكاشف على يمين البك، وجلس شيخ تركى على شماله، كما جلس رجلان

(٤٥) أشجار لسان الحمل أو آذان الجدى plantain trees : اسم شائع يطلق على نبات من عائلة النباتات التى يعتبر موطنها الأصلى المناطق المعتدلة. تحمل أشجار لسان الحمل أو آذان الجدى أزهارًا عادية على هيئة سنابل طويلة فى الغالب. ويتكون كل من كأس الزهرة والتويج من أربعة أجزاء، وغالبًا ما تظهر البتلات على شكل التبن الجاف أو قشور السنابل. وتحتوى السداة أو المياسم الأربعة على مآبر (جمع مئبر) أشبه بالخيوط الرفيعة، كما يطلق اسم "لسان الحمل" أيضًا على نوع من الموز كبير الثمرة ذى مادة أشبه بالنشاء، وهو ينتمى لفصيلة أخرى، والظن أن هذه الفصيلة هى التى قصدها بلزونى بوصفه. [المترجم]

مسنان بالقرب من الكاشف، وطُلِب منى الجلوس بالقرب من الرجل المقدس، وجلس إلى جوارى أحد التجار الأتراك ويليه أحد الحمقى أو الدراويش الذى كان عاريًا تمامًا. ووقف باقى الحاشية والعساكر والأتباع جميعًا أمامنا على هيئة هلال. جلبت الشيشة للبك والكاشف ولى، كما قُدمت القهوة على الجلوس، ودار الحديث عن الحصاد الذى سيأتى فى الموسم التالى على حسب الفيضان فى هذه السنة. كنا آنذاك فى بداية شهر نوفمبر، وتساءلوا فيما بينهم عن الكمية الكبيرة من القمح التى كان الباشا يرسلها دومًا إلى الإسكندرية لاسيما فى هذا الموسم. افترض البعض أن الأوروبيين كانوا على وشك شن حرب ضد الباب العالى، وأنهم لابد أن يوفروا المؤن من القمح قبل إعلان الحرب لأنهم لن يستطيعوا دون الإمدادات من مصر أن يوفروا الطعام لجنودهم. ولفت آخرون النظر بقولهم إن كان هذا هو الوضع، فإن محمد على لن يرسل إليهم أى قمح حتى يعرف ما الغرض الذى يريدونه من أجله. وقال رجل إنه يظن أن القمح أرسل إلى روسيا لأنه سمع أن الفرنسيين أحرقوا تلك البلاد عن آخرها، بعدها استفسر منى عن صحة هذا الكلام. فأخبرته بأننى لا أعرف ما الذى فعله الفرنسيون فى تلك البلد، لكنى أعرف أن القمح أرسل إلى أوروبا نتيجة ندرة المحصول فى ذلك العام فى كل تلك المنطقة من الأرض. فقال البك إن الأمر لابد أن يكون ما قلت، وسأل عما إذا كان الأمر سيستمر فى الموسم القادم. فأخبرته أننى لا أتمنى ذلك، كما أن الوفرة تأتى - على وجه العموم - بعد الندرة. فقال البك نعم لكن الباشا سيبيع القمح بسعر مرتفع لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام قادمة حتى تمتلئ مخازنكم مرة أخرى. وأضاف البك مبتسمًا، "قل لى بالله عليك هل تعانون فى أوروبا من ندرة فى الحجارة أيضًا حتى تأتوا إلى هنا تأخذوها إلى بلادكم؟" فرددت بقولى إن لدينا وفرة فى الحجارة، لكننا نرى أن حجارة مصر أفضل من حجارتنا. فرد قائلاً "ها! هذا لأنكم ربما تجدون بعض الذهب فيها، الحمد لله!" وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها كلمة "ربما" فى كلامهم لأنهم كانوا متأكدين تمامًا من هذه النقطة، ولم يشكوا فيها على الإطلاق.

أُحْضِرَ طعام الغداء فى صينية كبيرة تكونت - كالعادة - من حساء الأرز وكان غاية فى السوء، ورفعت الصينية بعد أن تناولت ثلاث ملاعق، ووضع أمامنا طبق من لحم الضأن المشوى. وما كدنا نشرع فى أكل ذلك الطبق حتى دخل علينا رجل ويده

مملوءة بحبوب الفلفل الخضراء الكبيرة التى جعلها تسقط من يده على الصينية مما جعل لها صوتًا كقرع الطبول لأنها من المعدن. وجاء بعده رجل آخر معه نصف دستة من البصل المقشر الذى جعله يسقط بنفس الطريقة ليتدحرج أمامنا ككرات البلياردو، وتلاه ثالث يحمل ثومًا مقشرًا وما إلى ذلك. وقُدِّم إلينا طبق من السمك المقلى صغير الحجم جدًا بعد تناولنا للضأن. كان فى هذا الطبق حوالى نصف دستة من السمك، وكنا ثمانية أشخاص، وبذلك لم نستطع أن نأكل كثيرًا من هذا الطبق. وسرعان ما حملوه عنا، وقدموا لنا نوعًا من الكعك الذى لم يستطع البك ولا الكاشف ولا الشيخ ولا أنا أن نأكل قطعة واحدة منها. أما الفاكهة فهى ثمرة بطيخ التهمها الناس بشراهة، ثم أنهوا طعامهم بغسل لحاهم. ومن الصفاقة وعدم الاحتشام أن يجلس أحد أمام البك لأننى رأيت الكاشف يتخذ لنفسه مجلسًا أفضل فى أوقات أخرى، فهناك نظام عام سائد بين هذه الشعوب سواء العرب أو الأتراك بأن يظهروا فى حضرة أكابرهم بمظهر المسكين المتواضع. وبعدما أعطانى الكاشف فرمانًا موجهًا إلى قائمقام الأقصر يسمح لى بأن آخذ ما أشاء من الأحجار، استأذنت بالانصراف من البك وذهبت.

عند وصولى إلى الكرنك لم يعد أمامنا من عمل سوى نقل التماثيل الستة (تماثيل الكباش) والتمثال الأبيض إلى الأقصر، وتصل المسافة إلى قرابة ميل واحد بلا طريق. إلا أن المياه تركت فى الكثير من المواضع أرضًا مبللة بالماء لابد أن تمر منها التماثيل، ونظرًا لعدم وجود أى قوة ميكانيكية مساعدة، فلدى العرب ما يكفيهم من العمل لحمل التماثيل إلى الوجهة المقصودة. وبهذا انتهت كل أعمالى فى الكرنك، لذا فأنا فى انتظار وصول المركب من أسوان والنقود من القاهرة، كما زرت المقابر فى القرنة يوميًا. نقبنا عن هذه الأضرحة فى كل الاتجاهات فى الصخور، لكن مداخلها تواجه الشرق بوجه عام لأن سلاسل هذه الجبال تمتد من الشمال إلى الجنوب. وتختلط المقابر مختلفة الأحجام مع بعضها البعض، بعضها له بهو من الأعمدة المقطوعة فى الصخور أمام المدخل، لكنها تقع بوجه عام داخل الباب الخارجى، وتتزين معظم هذه الأعمدة برسومات حسنة التصميم ونقوش هيروغليفية، ويظهر الثعلب الحارس بوجه عام مرسومًا على جانبى الباب الداخلى المؤدى إلى الكهف. بعض هذه المقابر واسع رحيب، تمتد إلى أسفل

فى اتجاهات متعددة، وينزل فيها المرء فيما يشبه السلالم الحلزونية، و توجد على بعد عدة خطوات منتظمة حجرات صغيرة على الجانبين لإيداع المومياوات بها. البعض الآخر من المقابر به خنادق عميقة أو آبار مع وجود كشوف أثرية على كلا جانبى الخندق لإدخال المومياوات منها، وفى قاع الآبار ممرات تؤدى إلى مقصورات صغيرة بها فجوات حلزونية لا حصر لها. هنا كانت الفرصة الأولى التى أتيح لى فيها فحص واكتشاف الوسائل التى بينت لى مكان مداخل الكثير من المقابر التى ظلت لعدة قرون خافية عن أعين البشرية.

فى رأيى المتواضع أن آثار مدينة آبو الواسعة أفضل ما يستحق انتباه الرحالة من أية آثار أخرى غربى طيبة. جاء وصف السادة مستر هاميلتون ودينون لهذه الآثار كافيًا لإعطاء فكرة صحيحة عن تلك الصروح الأثرية التى تضم مداخل المعابد الضخمة والمعابد والمساكن. ويبدو أن هذا المكان كان مقرًا لأحد حكام مصر لأننى لم أرَ فى الصروح الأثرية الأخرى لمصر القديمة أنقاض المساكن كما رأيتها فى هذا المكان. هناك معبدان منفصلان أولهما يواجه المنطقة المواجهة لمعبد ممنون أو الممنونيوم، ويرجع هذا المعبد إلى فترة تاريخية أحدث من المعبد الآخر. وتوجد على الجانب الغربى من المدخل أحجار عليها نقوش هيروغليفية مكتوبة بالمقلوب، وهى تنتمى - كما هو واضح - إلى معبد سابق. يحيط بالرواق بهو من الأعمدة الجدارية، وهناك حجرتان على جانبى البهو، استخدمت أحدهما الموجودة على يمين المدخل ككنيسة مسيحية صغيرة. يضم الحَرَم مقصورات متعددة كلها مظلمة تمامًا، ويوجد فى إحداها إلى اليمين معبد مبنىٌ من قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر وليس عليه أية نقوش هيروغليفية. هذا المعبد أكثر اتساعًا من الباب، ولابد أنه شيد هناك قبل إقامة الحَرَم. تختلف النقوش الهيروغليفية والرسومات الموجودة على هذا الصرح الأثرى عن تلك الموجودة على المعبد الآخر فى الحجم لأن المعبدين بينهما اختلاف. تقع إلى الجهة الشمالية من هذا المعبد الصغير بحيرة صغيرة أو قل خزان مياه تملؤه الآن الأتربة والقمامة، ولابد أن التماثيل أحاطت به من كل الجوانب لأننى عثرت على جزء من أحد هذه التماثيل وأجزاء من تماثيل أخرى فى أحد الكشوف الأثرية التى قمت بها فى ذلك المكان.

ولعله استُخْدِمَ للأغراض نفسها التى استخدموا من أجلها البحيرات الصغيرة بالقرب من معبد الكرنك، ويمكننا الافتراض بأنها كانت الحمامات العامة المخصصة لزوار المعبد من أهل الدين. ويقع عند الجهة الجنوبية من هذه الأنقاض مبنىً يشبه إلى حد ما برجًا مربع الشكل له بوابة ضخمة فتحتها ودخلت منها. يوجد المبنى على خط مستقيم تقريبًا مع البوابات المؤدية إلى المعبد الكبير. كما توجد فوق البوابة حجرة ذات نافذتين مربعة الشكل تطل على البوابة من الناحيتين. ويوجد أيضًا على الجانبين بابان يقابل كل منهما الآخر. تقع فوق هذه الحجرة حجرة أخرى بها نافذتان كهاتين الموجودتين فى الحجرة السفلية، إلا أن واجهة الحجرة العلوية متساقط. وهناك فجوات على جانبى النوافذ لوضع المصراعين فيها ولاشك. لا توجد نقوش هيروغليفية نهائيًا داخل هذا المبنى، رغم أنها تغطى كل مكان من الخارج. ويشكل الحائطان الجانبيان الواقعان عند واجهة هذا المكان طريقًا إلى البوابة.

إذا مضينا إلى الأمام وبعد حوالى مائة ياردة إلى الغرب يقع أحد المعابد الكبيرة. كما يوجد مدخل كبير به مدخل إلى الفناء الداخلى. تغطى الحائط النقوش الهيروغليفية المحفورة بعمق، وتؤدى البوابة التى تزدان أيضًا بالنقوش الهيروغليفية إلى فناء كبير به حائط يقف فى مواجهة المدخل كبير، وبوابة تؤدى إلى فناء آخر. هناك بهو للأعمدة على كل جانب من جوانب هذا الفناء، إلى اليمين سبعة أعمدة جدارية تقف أمامها الرسومات الضخمة، بينما تقف ثمانية أعمدة إلى الشمال تأخذ قواعدها شكل زهرة اللوتس. وتغطى كلا البَهْوَيْن أيضًا النقوش الهيروغليفية المحفورة بعمق. وفى الفناء التالى رُواق أو منطقة تحيط بها الأعمدة والأعمدة الجدارية من كل الجوانب. وتزين الجدران رسومات رائعة الجمال لمعارك حربية ورجال يركبون العربات ذات الخيول والأسرى والعبيد، وتظهر إلى جانب هذا رسومات أخرى مميزة لمراسم تقديم القرابين والتعاليم الدينية والأضاحى وهو ما أبدع فى وصفه مستر دينون. ويتضح من هذه الكشوف الأثرية أنها ترجع إلى فترة تاريخية موغلة فى القدم. تتميز النقوش الهيروغليفية بأنها غائرة على غير المعتاد أكثر مما رأيت فى المبانى الأخرى فى مصر. ولا تزال الرسومات تحتفظ بألوانها بصورة ممتازة فى بعض أجزائها ولاسيما فى السقف على قواعد الأعمدة.

كان هذا الصرح الأثرى بمثابة كنيسة مسيحية، ويتضح من الأعمدة غير المصقولة التى استخدمت فى تشييد مبنىً أكثر حداثة داخل هذا الفناء أن هناك فرقًا صارخًا بين الفنون فى هذين العَصرَيْن. وأثناء تقدمنا فى المسير وجدنا خلال البوابة الأخيرة المدخل إلى الرواق والحَرَم، لكن هذه الآثار الآن مدفونة تحت التراب، وارتفعت فوقها العديد من المبانى العربية الشرقية. ويمتلئ الجدار الخارجى لهذه الأنقاض برسومات تصف موضوعات تاريخية كالحروب البرية والبحرية وصيد الأسود ومواكب الأسرى والعديد من الرموز الوطنية. إذا سرت جهة الجنوب من البلدة، فستجد معبدًا صغيرًا يترك الآن فيه الرعاة ماشيتهم وأغنامهم بالليل. ويبدو لى - حسبما أرى - أن هذه المدينة أعيد تشييدها مرتين أو ثلاث على التوالى على أنقاض سابقتها.

بدأت فى هذه الفترة فى القيام ببعض عمليات البحث والتنقيب فى الوادى المجاور لوادى بيبان الملوك. رأيت كل مقابر الملوك، إلا أننى لم أذهب إلى هناك بنية القيام بالبحث والتنقيب، بل قادنى فضولى وحبى للاستطلاع الذى لابد أنه كان أكبر من فضول الكثير ممن جاءوا إلى هنا من قبل، ذلك أننى عاينت كل فتحة صغيرة فى هذه الأودية. اكتشف أحد علماء التنقيب الفرنسيين مقبرة كبيرة وجدها مفتوحة فى الوادى الغربى، إلا أنها لم تكن معروفة على الإطلاق قبل عصره. ذهبت لرؤية هذه المقبرة، ورأيت أنها واسعة للغاية، ولا تزال بحالة لا بأس بها. لم يقف حبى للاستطلاع عند هذا الحد، بل مضيت قدمًا فى الوادى ورأيت فى إحدى البقاع النائية كومة من الحجارة بدت لى منفصلة عن باقى الحجارة. امتلأت الفراغات بين هذه الحجارة بالرمال والقمامة. بالصدفة كانت معى عصا أخذت أدخلها فى الفتحات الموجودة بين الحجارة فوجدتها تدخل إلى عمق كبير. عدت على الفور إلى القرنة ودبرت الحصول على عدد من الرجال لفتح هذه الأماكن. ولسوء الحظ أننى وزوجتى أصبنا بالتهاب العين لفترة من الوقت، وكان التهابًا حادًا علىَّ فى هذه الفترة لدرجة أننى كنت لا أرى أى شىء أمامى إلا بصعوبة بالغة.

اصطحبت الرجال إلى نفس الوادى فى صباح اليوم التالى، لكنى أمضيت بعض الوقت قبل أن أتمكن من العثور على بقعة الأرض مرة أخرى نظرًا لإصابتى الشديدة فى عينىَّ. رأينا بعد إزالة بضعة أحجار أن الرمال تسقط إلى الداخل، فقد كنا على

مقربة من المدخل لدرجة أننا أخذنا معنا كل الحجارة فى أقل من ساعتين. أمرت بإحضار الشموع ودخلت يتبعنى العرب. لا يسعنى الفخر بوصولى إلى اكتشاف عظيم فى هذه المقبرة رغم احتوائها على الكثير من الرسومات الملونة الفريدة من نوعها على الجدران، ويمكننى الافتراض من اتساع هذه المقبرة ووجود جزء من تابوت فى منتصف إحدى حجراتها الكبيرة أنها كانت مقبرة أو مكانًا لدفن إحدى الشخصيات الهامة. تتكون المقبرة من ثلاث حجرات، وممرين ومجموعة من السلالم، إلا أن موقعها النائى الذى عثرنا عليها فيه أعطاها ميزة عن غيرها، وأنا أعلنها صراحةً أننى لا أعزو هذا الكشف إلا للحظ وليس لأى بحث متأنٍ، وأنا لم أذهب إلى هذه الجبال إلا لمشاهدة شتى الأماكن التى يهبط إليها الماء من الصحراء إلى الأودية بعد سقوط الأمطار. ومن الغريب أنه رغم قلة سقوط الأمطار التى ربما لا تمطر أكثر من مرة أو مرتين فى العام، فإن تأثير المناخ والشمس على المناطق التى يمر منها الماء واضح شديد الوضوح كما لو كانت تمطر باستمرار على هذه المناطق أكثر وأشد من غيرها من الأماكن.

يمتد القسم الأعلى من الجبال غربى طيبة إلى سهول رحبة واسعة ترتفع تدريجيًا نحو الغرب، لذلك عندما تسقط الأمطار عليها، فإن المياه تهبط فى مسارها فى أودية مصر إلى النيل. وهناك أماكن معدودة فى هذه الجبال تتجمع فيها المياه بكميات كبيرة كما هى الحال فى وادى بيبان الملوك وفرعه المجاور على الجهة الغربية. وأحيانًا تتشكل المياه على هيئة سيل صغير يجرف كل شىء يجده فى طريقه. ومن هذه الحوادث أن مستر سولت أشرف على مد طريق من مقابر الملوك إلى النيل بغرض نقل أحد التوابيت الكبيرة، وجاء أحد هذه السيول من الصحراء ليدمر الطريق كله. سأترك الحديث عن هذا الوادى فى الوقت الحالى، لكننى سأعود للحديث عنه فى جزء آخر من هذا الكتاب أى فى رحلتى الثانية إلى طيبة والنوبة.

فات الوقت الذى توقعت فيه أن تصلنى رسائل من القاهرة، عندها شعرت بالقلق وعدم راحة البال، وقررت العودة إلى قنا. وعندما وصلت إلى هذا المكان، رأيت الرسول يدخلها لتوه، وجاءنى هذا الرسول برسائل من مستر سولت ومعه إذن بصرف مبلغ من المال من صراف قنا. انتهيت أعمالى هناك سريعًا، وانطلقت على وجه السرعة

إلى الأقصر حيث سرني رؤية المركب بعد عودته من أسوان لآخذ على ظهره التمثال النصفي، لكن سرعان ما أخبرني صاحب المركب أنهم شحنوا المركب بشحنة من البلح، وأنه عاد بنفسه من إسنا لإعادة ما دفعته من مال على سبيل الضمان لأنهم لم يتصوروا وضع مثل هذا الحجر الكبير على ظهر المركب مما يؤدى إلى تحطمه. ضاعت كل محاولاتى لإقناعهم سدى، ورغم أن بين يدى اتفاق مكتوب، فإنهم وقعوا عليه بأنه لا قيمة له وأنهم لن يأخذوا هذا الحجر على ظهر المركب. كان لدىَّ الكثير كى أقوله لهم، ففى مثل حالتى هذه يمكن أن نتصور الموقف كالآتى: إذا لم أتمكن من انتهاز الفرصة الراهنة لنقل التمثال النصفى، فإن منسوب الماء فى النيل سينخفض كثيراً؛ وبالتالى لن نتمكن من نقل التمثال حتى الموسم القادم. وفى الوقت نفسه أخبرنى العسكرى الإنكشارى الذى أرسلته إلى أسوان على نفس المركب مع عميلىّ مستر د. أنهما السبب وراء رفض المالك أخذ الحجر على ظهر المركب، وأنهما أخبرا الرجل أنه سيضيِّع مركبه ولن يتلقى أى تعويض عنه، وأن الاتفاق الذى عقدته معهم لا قيمة له إذا وصلنا إلى القاهرة. والواقع أن هذين الرجلين أثرا فى عقول طاقم المركب تأثيراً جعلهم يقررون ألا ينفذوا بنود الاتفاق.

لم نتمكن من شحن الأحجار الإثنا عشر التى تركتها فى جزيرة فيلة التى كان من المقرر نقلها على نفس المركب بنفس الطريقة، لأننا علمنا من الريس أنه لا توجد مراكب صغيرة لنقلها شمالاً باتجاه الشلال، وتناهى إلى علمى بعد ذلك أن هذا بسبب نفس التأثير أيضاً. لن يقرأ أحد التاريخ المؤسف لهذه الأحجار دون أن تعْتَوِر قلبه مشاعر المقت والكراهية الشديدة تجاه الأطراف المعنية؛ إن هذه الأحجار تعرضت للتشويه حتى أضحت بلا قيمة ولا فائدة، لكن كيف وعلى يد مَنْ هذا ما سأذكره فيما بعد. كنت فى موقف لا أحسد عليه بخصوص المركب، ولم يعد أمامى من طريق سوى أن آخذ معى صاحب المركب إلى إسنا لعرض الموقف على خليل بك الذى لابد أنه وصل إلى هذا المكان فى ذلك الوقت، لكننى لم أعرف إلى أى مدى يمكنه التدخل فى إجبار هؤلاء الناس على الالتزام باتفاقهم، ذلك أنه ألمح ذات مرة إلى تحطيم هذا الحجر للمركب إذا وضع فوقه. إلا أن هذه كانت الخطوة الوحيدة التى يمكننى اتخاذها.

يجلب الحظ المتاعب أحيانًا على البشرية لا لشيء إلا ليذوقوا تقلباته ولا يطمئنوا إلى دوام النعم التى يتعطف ويتكرم عليهم بها. لشدَّ ما كان غيظى وغضبى كلما فكرت فى ضياع كل المجهود الذى بذلته لتوصيل التمثال النصفى إلى النيل، واحتمال عدم وصوله إلى إنجلترا على الإطلاق نظرًا لقوة المؤامرات والمكائد الخفية التى دبرت ضده. وفى هذه اللحظة وصل أحد الجنود من إرمنت كى يحيطنى علمًا بأن الكاشف عائد من القاهرة، وأعطانى رسالة منه فى الوقت نفسه، هذا إلى جانب هدية أرسلها معه مكونة من زجاجتين صغيرتين من الأنشوجة وزجاجتين أخريين من الزيتون. ومن الغريب فعلاً أن بضع سمكات صغيرة من السمك المملح أسهمت بنصيب الأسد فى نقل التمثال الذى أحببته من أعماق قلبى، ولولا تلك السمكات لما استقر هذا التمثال على الأرجح فى المتحف البريطانى إلى يومنا هذا. ضمت الرسالة دعوة سارة إلى وليمة يقيمها الكاشف، وجاءت الهدية رمزًا لرغبته فى عقد صداقة معى. تملكتنى الدهشة الشديدة من هذا التغيير، لكن سرعان ما اكتشفت السبب. أعلمنى الجندى أن الكاشف استشاط غضبًا من شخص معين من معارفه وأصدقائه وهو رجل فرنسى وعده منذ فترة من الزمن بأن يرسل إليه بعض الهدايا القيمة، لكنه فى النهاية – وبدلاً من ذلك – لم يرسل إليه إلا بضع زجاجات من السمك الرخيص الذى يمكن لأى أحد صيد كمية كبيرة منه من النيل، وبضع زجاجات أخرى من الزيتون الذى لا يساوى ثمن سيجار من التبغ. أخذت حذرى لئلا يصل إلى علم صاحب المراكب شىء من هذا، وأخذتهم على ظهر المركب الصغير الذى أجَّرْتُه بعد إنهاء ترتيبات ذهابنا إلى إسنا للوصول إلى قرار فى هذا الشأن، وانطلقنا إلى ذلك المكان تاركًا المركب الكبير فى الأقصر. ورأيت أن أضرب على الحديد وهو ساخن وذلك بمعرفة الحالة المزاجية للكاشف فى حالة ضيقه.

طلبت إلى صاحبِىَّ المركب عند وصولنا إلى إرمنت أن ينتظرا قليلاً لترتيب بعض الأمور مع كاشف القرية. مرت ساعة بعد غروب الشمس، وتبعد هذه القرية حوالى ميلاً واحدًا عن النيل. اصطحبت ترجمانى والعسكرى الإنكشارى معى، واستعددنا للانطلاق إلى رجل الأنشوجة والزيتون. رأيته جالسًا على حصيرة وسط أحد الحقول،

وعصا مغروسة فى الأرض عليها مصباح مثبت بها، ويقف أمامه كل أتباعه وبطانته.
وعندما أن رآنى ظل يدبّج فىَّ قصائد المديح والإطراء، والظن أن السبب وراء ذلك هو الإحباط الذى أصابه من الهدايا التى أرسلت إليه من جهة؛ فأراد أن يجرب الجهة الأخرى بتحسين صورته قدر المستطاع. قدمت الشيشة والقهوة كالعادة، وعرض علىَّ بأن أوظف لدىَّ ما أشاء من رجال بما يمكننى من نقل الرأس العظيم فى الصباح الباكر من اليوم التالى بالإضافة إلى غطاء التابوت أو أى شىء آخر أريده. ولو سألته أن يسمح لى بأخذ تمثالى طيبة الكبيرين تومة ودومة Tommy & Dummy كما يسميهما العرب، ما أبدى اعتراضًا على وضعهما على ظهر مركبى الصغير فى تلك الليلة. بعدها تناولت موضوع المركب، وأظهرت الاتفاق المكتوب الذى عقدته فى إسنا مع اثنين من أصحاب المراكب، وذكرت المبلغ المالى الذى دفعته وهو نصف المبلغ المطلوب أصلاً. فرد على الفور قائلاً إننى لست بحاجة للذهاب إلى إسنا للوصول إلى قرار بهذا الشأن، فهذا الأمر يخصه لأن شحن المركب سيتم على ضفة من ضفاف النيل فى مديريته.
أرسل فى طلب الرجلين الإسناوييْن اللذين صعقا عندما سمعا أن المحاكمة ستعقد فى إرمنت. اعتبر الرجلان المركب فى حكم الضائع رغم أننى أخبرتهما مرارًا بأننى مسئول عن أى تلف يلحق بالمركب أثناء الشحن أو التفريغ، لن كلامى ضاع سدى.
عندئذٍ أصر الكاشف على التزام الرجلين باتفاقهما معى، ورغبة فى تسوية الأمور أكثر لوقوعهما فى الحيرة عما سيفعلان فى البلح، عرض عليهما سفينته التى يمكن أن تستوعب كمية كبيرة من البلح مما سيأخذ من المركب لأننى لم أرغب فى تفريغه تمامًا.
وفى الوقت نفسه ونظرًا لأنه لم يودّ الظهور بالانحياز الصريح لصالحى، اقترح ضرورة إحضار صاحبى المركب فى الصباح، وعقد جلسة يُتاح فيها للرجلين الإدلاء بوجهة نظرهما. بعدها خرجا لقضاء الليل على ظهر المركب. وفى أثناء استمراره فى التعبير عن آيات الاحترام والتقدير والصداقة، فَسَّرَ الكاشف لى بسلوكه السابق ولاسيما الخطاب الذى أرسله إلى أخيه بخصوص التابوت. وقال لى إنه كتب هذا الخطاب قبل أن يرى مستر د.، لكنه وبعد أن عرف الأمور على حقيقتها، رأى أن لى الحق فى أخذ التابوت أو أى شىء آخر، وأنه سيتولاه بالحراسة طوال الفترة التى أريدها ولن يحق لأحد أن يأخذه، هذا إلى جانب آلاف الوعود والالتزامات الأخرى.

قادنى هذا التغيير غير العادى إلى الاعتقاد بأن مستر سولت أعطاه هدية كبيرة عند وجوده فى القاهرة، لكننى كنت مخطئًا لأننى سألته بعد فترة قصيرة عن رأيه فى القنصل، ودهشت عندما أخبرنى بأنه لم يَرَه. وأضاف قائلاً إن القنصل دعاه إلى منزله، وأعد لوليمة غداء معه، لكن وفى اليوم المقرر للرحيل وصلته أنباء وفاة طوسون باشا، أكبر أبناء محمد على، ووصلته أوامر بالعودة على الفور مما أنهى اللقاء الحميم الذى جمع بينه وبين القنصل الذى يحبه كما يحب عينه اليمنى. رُوِيَت الحكاية أحسن رواية ولفقت حبكتها أيما تلفيق أيضًا، ورأيت بوضوح أنه خجل أشد الخجل من سلوكه نحوى مؤخرًا لدرجة منعته من مواجهة القنصل. أمر بإعداد طعام الغداء لنا، وتمادى فى تقديم آيات الاحترام والتبجيل حتى بدأت استشعر الخطر من تدبير إحدى الحيل الشيطانية. حينما شكرته على زجاجات الأنشوجة والزيتون قال لى إن هذه هى كل الهدايا التى أرسلها إليه القنصل الفرنسى عند إقامته فى القاهرة. فانتهزت هذه الفرصة بلفت نظره إلى أن الأجدر به الذهاب إلى القنصل الإنجليزى فى حال وجوده هناك فى القاهرة. فردَّ على ذلك بقوله إنه سمع أن القنصل عنده زوج فاخر النوع من المسدسات خصيصًا له، لكنه - وللأسف - لم يستطع الذهاب لرؤيته. فأجبت بأننى لا أشك من حصوله على هدية ما من القنصل حالما يصل الحجر إلى القاهرة، فأكدَّ على كلامى على الفور بقوله إنه سيفعل كل ما فى وسعه من أجلى أو من أجل القنصل، لكننى لا ينبغى أن أظن أنه فعل ما فعله بدافع تحقيق مصلحته الخاصة أيًا كانت. أجبته بأننى مقتنع بنقيض هذا تمامًا، وطلبت منه إصدار فرمان يعلن على الناس فى القرنة حتى يقبلوا على العمل. وأكد لى أنه سيمتثل لكل ما أشاء، لكنه أضاف وعلى وجهه ابتسامة: "ماذا ستفعل إذا صدر الحكم ضدك؟" فأخبرته بأننى سأذهب إلى إسنا حيث عُقِد الاتفاق فى حضرة الشريف، وذلك لإثبات أننى على حق. فضحك ووضع يده على كتفى وقال: "يمكنك أن تنام وأنت مطمئن؛ لأننى سأرى بنفسى تفريغ المركب من كل بلحة فيه، وبإمكانك أن تعيد شحنه كما يتراءى لك". فأجبت بقولى بأنه لا شك لدىَّ فى أنه سيعمل ما فيه إقامة العدل، واستأذنته بالانصراف، ورجعت إلى ظهر المركب الصغير لقضاء الليل.

يوم الثالث عشر – وجدته في الصباح في غرفة استقبال الجمهور يحيط به الكثير من العرب وشيوخ القرية. وجعلني أجلس على يمينه، وأحضرت القهوة والشيشة فلا يمكن النطق بأى حكم دون وسائل الترف هذه. وشرح القضية لرجال هيئة المحلَّفين الذين قالوا – دون أن يسمعوا الطرف الآخر – إن ما ينوى فعله هو العدل بعينه، وكانوا سيقولون نفس الكلام سواء كنت على خطأ أو على صواب؛ فهؤلاء المحلَّفون لا ينقصهم الأدب حتى يخالفوا القاضي. وأتت الأطراف الأخرى، فاستقبلهم بأدب لكنه قَطَّبَ عن جبينه مما جعلهم ولاشك يتكهنون بما سيلقونه. لكنه حتى لا يزيد من حيرتهم واضطرابهم ما لبث أن أخبرهم صراحةً بضرورة تفريغ السفينة من كل ما عليها عدا ثمانين إردبًا فقط وهو الأمر السار الذى وافقت عليه، ولم يرَ الكاشف وسيلة أخرى لتسوية المسألة غير هذا، ثم التفت إلى رجال هيئة المحلَّفين ليرى إن كان لديهم شيء ليقولوه. أصابتني الدهشة عندما ردوا بقولهم إن عدم دفاع الأطراف الأخرى عن أنفسهم يعني أنهم يعترفون بخطئهم بالقطع، ونهضوا جميعًا على الفور وغادروا المكان لعدم وجود أى شيء آخر يفعلونه. ثم اقتسم المدعى عليهما ما كان وجداه أمامهما، وأنا أعتقد أنهما لم يتناولا إفطارًا أسوأ من هذا في حياتهما. وأخذا يتحدثان عن الأماكن التي نحصل منها على المركب رغم أنهما مجبران إجبارًا على تأجير المركب من الكاشف، لكنهما على دراية تامة بنواياه وهي الاستحواذ على القسط الأعظم من المال لنفسه. وسرعان ما صِيغَ العقد، ودفعا له ثلثا ما سيأخذانه مني، وهو الأمر الذى سَعِدا به لئلا يدقق النظر في العقد ليجد أن رسم الشحن ضعف ما ورد في بوليصة الشحن؛ وبالتالي ستزيد الخسارة. بعد ذلك استأذنت من الكاشف حتى ألحق سريعًا بالقرنة لترتيب الأعمال التي سنقوم بها هناك. فمنحني مرسومًا tiscary كي أعطيه للعسكرى ليمدني بكل ما أريد، كما أصدر أوامر للفلاحين بتنفيذ كل ما أرغب فيه، واستخراج التابوت، وعندما صعدت إلى ظهر المركب، وجدت أنه أرسل لي خروفين وجرَّة من الجبن وبعض الخبز. انطلقنا على الفور، ونَفَقَ أحد الخروفين في المساء ولحقه الآخر في اليوم التالي، بينما كان الجبن مليئًا بالدود. وصلنا إلى الأقصر بعد الظهر، وبعد بضع ساعات وصلنا إلى القرنة وقابلنا شيخ بلد هذه القرية. أرسل العسكرى الإنكشارى إلى الجندى، وتوصلنا إلى اتفاق بتجهيز الفلاحين الذين أريدهم في الصباح.

ذهبت مرة أخرى فى الصباح الباكر من يوم الرابع عشر إلى القرنة لبدء العمل، وأصابتنى الدهشة الشديدة عندما لم أرَ تجمعًا لأى فلاحين. أخبرنى رجل قابلته أنهم خائفون لصدور أوامر لهم بعدم العمل لصالح الإنجليز. اتصلت مرة أخرى بالجندى الذى أرسل رجلاً لجمع الفلاحين، لكن بعد فوات الأوان، لأنهم تفرقوا جميعًا. وبناء على ذلك، اكتفيت فى هذا اليوم بترتيب الحصول على الوسيلة اللازمة لنقل الرأس من الأقصر. وصل مركب الكاشف من إرمنت، كما وصل المركب من الأقصر إلى القرنة لتفريغ الشحنة.

يوم الخامس عشر - جمعنا فى اليوم التالى مائة وثلاثين رجلاً وإن لم يخل ذلك من المتاعب، وشرعت فى تعبيد طريق لنقل الرأس حتى الساحل لأن ضفاف النهر ترتفع أكثر من خمسة عشر قدماً عن مستوى المياه التى انحسرت عن الشاطئ بمائة قدم على الأقل.

وفى صباح اليوم التالى أتى إلىَّ جندى من طرف الكاشف ليخبرنى بألا أدفع شيئًا للفلاحين لصدور أوامر لهم بالعمل لصالحى دون مقابل وطوال المدة التى أطلبها، وأن أعتبر هذا العمل بمثابة هدية منه. فشكرته وطلبت من الجندى أن يخبره فى الوقت نفسه أنه ليس من عادتى أن أحصل من الناس على عمل دون مقابل، كما أن قنصل إنجلترا لن يقبل مثل هذه الهدية أيضاً. انتهيت فى هذا اليوم من تعبيد الطريق حتى ضفة النيل، وأصدرت الأوامر بنقل الرأس إلى حافة المنحدر التى أصبحت جاهزة لنقلها.

فى يوم السابع عشر من نوفمبر نجحت فى محاولتى، ونقل رأس ممنون الصغير بالفعل. ولا يسعنى إلا الإشارة إلى عدم سهولة عملية وضع قطعة من الجرانيت بمثل هذا الحجم والوزن على ظهر مركب نظراً لأن وضع الوزن على جانب واحد دون غيره سيؤدى لانقلاب المركب فى الحال، ناهيك عن القيام بهذا العمل دون أدنى مساعدة من أى آلة ميكانيكية ولو بكرة واحدة، ولم نستعمل من أدوات سوى أربع عصوات وحبال لأن منسوب المياه كان أكثر انخفاضًا من الضفة التى سيهبط عليها الرأس بـ ١٨ قدمًا. انحدر الطريق المُعَبَّد الذى أقمته تدريجيًا إلى حافة المياه بالقرب من المركب،

وعملت من العصى الأربع جسراً من ضفة النيل إلى قلب المركب وبذلك يتحمل الجسر الوزن فلا يؤثر إلا على منتصف المركب. اعتمد الجسر على كلٍ من الطريق المُعَبَّد وحافة المركب ومنتصفه. لَزِمَ عليَّ أن أضع عدداً من العرب في المركب، ووزعت البعض الآخر على الجنبين ومعهم عَتلة من خشب النخيل نظراً لأنه لم يكن معي شيء آخر. ووضعت جوالاً مليئًا بالرمال في منتصف الجسر حتى يوقف التمثال إذا انزلق بسرعة على الجسر إلى المركب. وغرست جذعًا من النخل في الأرض وراء التمثال، ولففت حوله حبلاً، وبعدها ثبتت هذا الحبل بالعربة التي ستحمل التمثال حتى يهبط إلى المركب بالتدريج. وضعت عتلة أو رافعة على الجانبين، وفي الوقت الذي يشد فيه الرجال على المركب تلك الروافع، يعمل آخرون على إرخاء الحبال، بينما ينقل فريقٌ ثالث الدحاريج أثناء تقدم التمثال.

وبهذا هبط التمثال تدريجيًا من البر الرئيسي إلى الطريق المُعَبَّد الذي غاص فيه التمثال كثيراً لأن الطريق مغطىً بالرمال الناعمة. لكنني لم آسف على هذا لأنه صار إلى حال أفضل من أن ينزلق بسرعة إلى الماء، ووضعت في اعتباري أنه في حالة سقوط هذه القطعة الأثرية في النيل، فإنني لن أكون موضع ترحاب لدى عودتي إلى أوروبا وخاصة عند تجار الآثار رغم أنني مؤمنٌ بأن عدداً من بين الكوكبة الكبيرة من علماء أوروبا يتمنون سقوط التمثال في النيل بدلاً من وجوده حيث هو الآن. إلا أن التمثال وصل بسلاسة على ظهر المركب. ركز العرب الذين أجمعوا الرأي على أن التمثال سيسقط إلى قاع النهر أو سيحطم المركب انتباههم كما لو كانوا حريصين على معرفة النتيجة وكذلك كيفية القيام بهذه العملية، وعندما شهد صاحب المركب الذي اعتبره كأنما أُرْسِلَ إلى الجحيم مدى نجاحي، ورأى الحجر الكبير – كما أسماه – يستقر في أمان على ظهر المركب، جاء وضغط على يدي بحرارة مصافحًا. قلت "الشكر للرب!" بصوت عالٍ، ومعي حق في ذلك، وأترك الحكم هنا لأي مهندس ليخبرنا إن كان من الأسهل نقل كتلة من الحجر أكبر عشرة أضعاف على ظهر مركب مناسب مع توفر جميع الوسائل الميكانيكية بدلاً من انعدامها تمامًا – كما كان الحال معي – إذ لم يكن معي أي شيء من الضروريات.

قطع المركب بعد ذلك المياه إلى الأقصر حتى نـأخذ منها ما سنـأخذه، واستغرقنا في العمل ثلاثة أيام، وغـادرنا طيبة في يوم الحادي والعشـرين في طريق عـودتنا إلى القاهرة.

انتهيت توًا من العمل في الوقت الذي أصبت فيه مرة أخرى بالتهاب العين لدرجة أنني قضيت إثنا عشر يومًا حبيس قَمْرة المركب؛ وبذلك لم أتمكن من تناول هذه الرحلة بأي وصف أو سرد ما حدث فيها حتى وصلنا إلى أسيوط. بعدها لم أستطع إلا تحسس الأشياء في الضوء، وكنت أشعر بألم كبير كلما حاولت فتح عينيَّ. وفي أسيوط ذهبت لمقابلة الدفتردار بك حتى أقدم له الشكر على الفرمان الذي منحه لي عندما رحلت جنوبًا في النيل. وجدته في خيمته وسط حقل من البرسيم[٤٦] الكبير الذي بلغ مرحلة النضج تقريبًا، وكانت خيوله كلها ترعى في مروج العشب. سرَّه ما سمع من أخبار نجاحي في مهمتي، وطلب إليَّ أن أذكره عند القنصل الإنجليزي الذي أرسل معي رسالة إليه.

وفي صباح اليوم التالي انطلقنا إلى القاهرة، ووصلنا إليها يوم الخامس عشر من ديسمبر في رحلة استغرقت أربعة وعشرين يومًا من طيبة. وبهذا ظللت لمدة خمسة أشهر ونصف في نشاط وعمل وجهد متواصل، لكني لن أدع الملحوظة الظالمة التي أشار إليها الصادق الأمين الكونت دي فوربان هكذا دون تعقيب، وذلك بعد تأكيده على أنني عملت ستة أشهر كاملة في وضع التمثال على ظهر المركب. صحيحٌ أنني غبت عن القاهرة مدة خمسة أشهر ونصف، كما مرت ستة أشهر قبل أن أصل إلى الإسكندرية، لكن هذا الوقت لم يُكَرَّس لنقل التمثال النصفي فحسب، فتلك العملية لم تستغرق مني إلا ثمانية عشر يومًا، ولم يأخذ التمثال سوى يوم واحد في نقله، وعلى هذا قضيت معظم ذلك الوقت في عمليات بحث وتنقيب أشق وأصعب، وتشهد بذلك شتى القطع

(٤٦) نبات البرسيم أو الشبندر clover : اسم شائع لأي من النباتات الكثيرة التي تنتمي لعائلة البقوليات. الموطن الأصلي لهذا النبات هو المناطق الشمالية المعتدلة وشبه الاستوائية. بعض هذه النباتات ينمو زاحفًا على الأرض بينما تصل أنواع أخرى منه إلى ارتفاع ٩١ سم. وتظهر الأزهار التي تتراوح ألوانها من الأبيض إلى الأحمر والأرجواني على هيئة رؤوس مصمتة. عادة ما تتكون أوراق هذا النبات من ثلاثة فصوص، كما توجد أحيانًا أوراق تتميز بأربعة فصوص يُعتقد بأنها تجلب الحظ. [المترجم]

الأثرية التى أحضرتها معى فى رحلتى شمالاً فى النيل شهادة لا يخطئها العقل على هذا العمل.

وفى القاهرة علمت أن القنصل ذهب إلى الإسكندرية، لكنه ترك لى بعض التعليمات والرسائل مع سكرتيره مستر بيتشى Mr. Beechey . وطلب منى القنصل إنزال أى شىء وإيداعه فى القنصلية فيما عدا التمثال النصفى. ولم أدرك السبب وراء هذا التمييز لأننى ظننت أن كل الأشياء التى جمعتها ستذهب إلى المتحف البريطانى. غير أننى لم أبدى أى استفسار عن هذا الأمر، وأودعَ كل شىء فى القنصلية على الشكل المطلوب. شَرُفْتُ فى الساعة الأولى من وصولى إلى القاهرة برؤية صديقى العزيز المأسوف عليه كثيراً بيركهارت الذى كان موته بالنسبة لى بمثابة الفاجعة الكبيرة. كان هذا الرجل أكثر من قابلتهم صراحةً وحياداً ووفاء فى حياتى، خلَت شخصيته تماماً من كل ميل أو نزوع إلى الحسد والأنانية، وهما خصلتان متوفرتان بكثرة فى الرحالة الذين يتمنون أن يكونوا وحدهم فى منطقة من مناطق العالم لكى يقصوا روايتهم بما يتوافق مع ما يمليه عليهم خيالهم على أناس من منطقة أخرى. إلا أن بيركهارت ليس به أى شىء من ذلك النَزَق، فقد كان مكتشفاً حقيقياً شجاعاً جسوراً دون فخر أو خيلاء أو تطلع إلى أن يراه الناس أكبر من حجمه الحقيقى، كما لم يستعرض ما لديه من معلومات ومعارف لأنه أعماله تبرهن عليها بكل بساطة.

بعد أن أعددت العدة لرحيلى إلى الإسكندرية، غادرنا بولاق يوم الثالث من يناير ١٨١٧، ووصلنا إلى رشيد يوم العاشر. كان علىَّ أن أنزل التمثال هناك، ثم أنقله على المركب مرة أخرى، لكننى وجدتها عملية سهلة للغاية نظراً لوجود بعض الأدوات التى لم تتح لى من قبل بالإضافة إلى رجال يصلحون للعمل. حرصت أيضاً على إنزال التمثال فى مكان يمكننى من رفعه ثانيةً على ظهر القارب النيلى. وبعد انتهائى من عملى، انطلقت على ظهر نفس القارب ومعى التمثال النصفى، ولحسن الحظ أننى وصلت إلى الإسكندرية بعد الغروب بساعتين من نفس اليوم، وهو اليوم الرابع منذ وصولنا إلى رشيد. وفى ذلك اليوم جاء نَيِّفٌ ومائتا قارب من النيل، كان بعضها ينتظر الفرصة لتجاوز الحاجز بعد ثمانين يوماً. ذهبت زوجتى بطريق البر يصحبها الغلام الأيرلندى،

ووصلت فى اليوم التالى. ولن أذكر الحفاوة التى استقبلنا بها القنصل العام ونائبه مستر لى Mr. Lee ، وكم أسعدنى حظى بتعرفى إلى أحد الرجال وهو مستر بريجز Mr. Briggs الذى استقبلنى فى منزله على أحسن ما تكون الضيافة والتكريم، واهتم بنجاح أعمالى اهتمامًا كبيرًا ما وسعه ذلك، إذ أحس بلذة الإنجليزى الحقيقى عندما يرى واحدًا من أكثر آثار الفن المصرى القديم اكتمالاً جاهزًا لينقل إلى وطنه.

كانت العملية التالية والأخيرة الخاصة بالتمثال النصفى - من جانبى - هى إنزال التمثال وتأمين نقله إلى ترسانة الباشا انتظارًا لحمله إلى إنجلترا. لاقيت بعض الصعوبة فى إنزاله لأن دعامة الجسر كان أعلى بكثير من القارب، ولم تسمح لى حركة أمواج البحر بإقامة أى جسر. ومن حسن الحظ أننى استعنت بطاقم إحدى سفن النقل الإنجليزية التى كانت هناك فى ذلك الوقت، وتمكننا من إنزاله بأمان بفضل مساعدتهم لنا، وفى ظل وجود المعدات المناسبة إلى جانب مائة رجل.

اقترحت على القنصل بعد الانتهاء من عملياتى وكل ما هو ضرورى بشأن رأس التمثال القيام برحلة أخرى إلى صعيد مصر والنوبة لفتح معبد أبى سمبل. ولشدَّ ما كانت سعادتى عندما علمت أن مقترحى قوبل بالموافقة لأننى رأيت أن هذا سيمنحنى فرصة لتحقيق أمانىٍّ التى حلمت بها، جاءت هذه الأمنيات - إلى حد ما - متوافقة مع أغراض معينة، رغم أن القنصل أثبت عدم سيطرة أية دوافع شخصية على تفكيرى. وكان الشرط الوحيد الذى اشترطته هو أن أحصل منه - فى حالة نجاحى فى مهمتى - على خطاب تقديم رسمى إلى جمعية الآثار لدى عودتى إلى إنجلترا؛ فوعدنى القنصل بالاستجابة لهذا الشرط. غير أننى رأيت أننى ربما بنيت آمالاً قد لا تتحقق، فحذرنى القنصل من أية أفكار تجول برأسى من هذا القبيل. فأخبرته أننى لست ثريًا، لكننى نويت تقديم طلبات إلى أفراد ذلك المجتمع الكريم لأنه لا غرض لى سوى السعى فى خدمة الأمة ككل. ووفقًا لذلك، وعدنى القنصل أيضًا بمنحى الخطاب الذى طلبته، وبعد مضى أيام معدودة، رحلنا جميعًا إلى القاهرة، وهناك أصرٍّ بيركهارت، ذلك الرجل كبير المقام، على أن يعطينى هدية حصل على نصفها من القنصل اعترافًا بنجاحى بشأن التمثال الذى دفع جزءًا من نفقاته العامة.

فى تلك الأثناء غامر كابتن كابيليا Captain Cabillia بدخول بئر هرم الجيزة الأول. كان مشروعه هذا يتسم بالخطورة والجرأة، فلا شيء غير الحماس للبحث من باعث لأى رجل لاتخاذ مثل هذه الخطوة. ذهبت أنا والقنصل مستر بريجز ومستر بيتشى لرؤية عمليات التنقيب الجارية. كانت الظروف التى عايشها كابتن كابيليا أفضل من الظروف التى مررت بها، لكنه لم يكن يملك ثروة طائلة تحت إمرته لاستئناف ما بدأه، وهو الأمر الذى تطلب مبلغًا من المال فوق طاقته. كان مستر بريجز أول من يعرض بسخاء توفير المال لهذا الغرض، واتفقنا بعد استشارة مستر سولت على دعم هذا العمل إلى أقصى درجة. لم يشجع هذا الجنتلمان القيام بعمليات بحث وتنقيب عند الهرم فحسب، بل بذل جهدًا فى إقامة علاقات مع محمد على للصالح العام بالنسبة للتجارة الأوروبية، وسأتناول هذا الأمر فى موضعه فيما بعد. إن مشروع كابتن كابيليا يستحق اهتمام كل إنسان مهتم بالآثار والعاديات، فقد توصل إلى حل سؤال استعصى على العالم المتمدين حله قرونًا طويلة من الزمن. فاتضح لنا أن البئر الشهيرة التى ثار حولها الكثير من الجدل والافتراضات متصلة بممر سفلى يفضى إلى حجرة أكثر انخفاضًا اكتشفها الكابتن وفتحها بنفسه. هبط الكابتن فى البداية فى البئر بعمق ٣٨ قدمًا، حيث أوقفت تقدمه أربعة من الحجارة الكبيرة. وبعد إزالة ثلاثة من تلك الأحجار، كان هناك من الفراغ ما يكفى لمرور رجل منه، لكنه لم يتمكن من تحريك الحجر الرابع قيد أنملة رغم مساعدة مستر كابيتش Mr. Kabitsch له، وهو شاب يعمل لدى السيد باغوص الذى تحمل قسطًا من النفقات مع الكابتن. عثروا تحت هذا المكان بـ ٢١ قدمًا على غار طوله ١٧ قدمًا وارتفاعه أربع أقدام، وتحت الغار بسبع أقدام سلمٌ يمتد البئر بعمق مائتى قدم. هبط الكابتن البئر؛ فوجد فى قاعها طينًا وترابًا إلا أنه استنتج من الصوت العميق المكتوم تحت قدميه أن الممر متصل ولاشك بحجرات أو مقصورات أخرى تحته. بعد ذلك وَزَّعَ بعض العرب على العمل لإزالة الرمال، لكن حرارة الجو كانت شديدة، وكادت الشموع أن تنطفئ لانعدام الأكسجين. ثم توجه الكابتن بأبحاثه إلى منطقة أخرى، وشرع فى توسيع مدخل الممر الأول إلى الهرم. أتت هذه العملية ثمارها بالنسبة له، ذلك أنه وجد أن الممر ممتد إلى أسفل، وبعد تشغيل الكثير من الرجال واستخراج كميات كبيرة من الطين والقمامة، توصل أخيرًا وبعد جهد طويل مضنٍ إلى قاع البئر

حيث عثر على السلال والحبل الذى تُرك فيها. وفى نفس ذلك اليوم اتفقنا على زيارة الأهرامات، وأسعدنى أن أكون شاهد عيانٍ على الجهد العظيم الذى بذله الكابتن كابيليا. اكتشف الكابتن بعد استمراره فى أبحاثه المضنية أن الممر يؤدى إلى حجرة مقطوعة فى الصخر تحت مركز الهرم.

قام الكابتن بالكثير من عمليات البحث والتنقيب حول الأهرام أيضًا، لكن لا شيء منها يفوق جهده فى إماطة اللثام عن واجهة أبى الهول الكبير. كما اكتشف معبداً صغيراً بين ذراعيه إلى جانب قرص كبير من الجرانيت على صدره. ويزين القرص صور ونقوش هيروغليفية متعددة، بالإضافة إلى صورتين منحوتتين لأبى الهول. يقف أمام مدخل المعبد الصغير أسد كما لو كان حارسًا للممر. ويوجد بعد واجهة أبى الهول هذه سلم مكوَّن من اثنين وثلاثين درجة، كما يوجد فى أسفل هذا السلم مذبحٌ عليه كتابات بخط يونانى يرجع لعصر البطالمة. وعلى كل جانب من جانبى المذبح تمثال متآكل للغاية لأبى الهول من الحجر الكلسى. يصل الارتفاع من قاعدة المعبد حتى قمة الرأس ٦٥ قدمًا، كما يبلغ طول أرجل أبى الهول ٥٧ قدمًا من الصدر حتى أطراف الذراعين الذى يبلغ ارتفاع الواحد منها ثمانية أقدام. كما عثر على مذبح آخر بعد ٤٥ قدمًا عليه كتابات ترجع إلى الإمبراطور سبتيموس سيفيروس Septimus Severus ، وبالقرب من الدرجة الأولى أحد الأحجار عليه كتابات أخرى بالخط اليونانى ترجع إلى أنطونيوس Antoninus . ورغم انشغال كابتن كابيليا شخصيًا بشأن أبى الهول، فإنه شغَّل رجالاً آخرين للقيام بعمليات بحث أخرى، ففتح بعض الأضرحة التى كانت تملؤها الرمال، واكتشف العديد من الحجرات الصغيرة المزخرفة بالصور والنقوش الهيروغليفية، بعض منها متقن الصنعة وما زال على حالته الأولى. عثر فى إحدى الحفر على بعض المومياوات مغطاة بغطائها الكتانى وعدداً من القطع الأثرية المصرية القديمة المتناثرة هنا وهناك. فتح الكابتن أيضًا بعض الأهرامات الأصغر حجمًا، كما نجح فى اكتشاف مدخل أحد هذه الأهرام باتباع ما اقترحه عليه مستر بريجز من السير فى اتجاه معين، لكن مما يبدو أن هذا الهرم غاية فى التهالك من الداخل لدرجة حالت بينه وبين التقدم فيه سوى بضعة خطوات. ولاشك أن هذا يفضى إلى بعض الحجرات أو المقصورات التى قد تحتوى على تابوت أو ما شابه.

كنت وقتئذٍ مجرد مشاهد لأعمال الكابتن كابيليا. واقترح عليَّ القنصل مستر بسولت أن أدخل في عمليات البحث والتنقيب بالاشتراك مع الكابتن؛ فآثرت الانسحاب لاعتقادي بعدم صواب أن أحاول مشاركة أي أحد في فضلٍ أتاه أو عمل بذل فيه أقصى ما استطاع من جهد. ويا له من نصر هزيل بالنسبة لي حينما أدخل الميدان بعد انتهاء المعركة وانتصار شخص آخر غيري. لكنني قنعت بأن أتمنى فرصة أخرى أفضل لأجرب فيها مهاراتي مستقلاً عن أي أحد. اقترح القنصل عليَّ بعد تجهيز كل شيء لرحلتي وأن اصطحب مستر بيتشي معي في رحلتي النيلية المتجهة جنوبًا. لا شيء يناسبني أكثر من صحبة أحد الشباب الذي أسعدني ما رأيت منه وما توقعته من خير مجتمعه. وسرني سرورًا لا مزيد عليه أن أراه رحالة صالحًا بعد أن نأى بنفسه عن تلك الملذات التي اعتاد عليها، رغم أنه ليس من السهل أن ينتقل أحد لم يعتد على الحياة الخشنة هكذا فجأة من المقام في بيت تتوفر فيه كل سبل الراحة إلى العيش على مركب لن يجد عليه سوى الحياة الصعبة الخشنة التي لا تستقر يومًا على حال. إلا أن مستر بيتشي سرعان ما وطَّن نفسه على التغيير، وما هي إلا بضعة أشهر حتى صار غير عابئ بالصعوبات الكثيرة التي نمر بها. أما زوجتي، فتركتها في القاهرة عند أسرة سكرتير أول السفارة البريطانية مستر كوتشيني Mr. Cochini، وبعد أن جهزنا كل شيء، ودَّعنا كلاً من القنصل ومستر بيركهارت. يا للخسارة! كانت هذه هي آخر مرة أرى فيها صديقي، لكن هكذا كان القدر.

نهاية الرحلة الثانية

الرحلة الثالثة

لن أعمل أثناء سردى لرحلتى الثالثة إلى طيبة على إعاقة القارئ بأخبار توقفى هنا وسيرى هناك لما فى ذلك من تكرار لما سبق أن قلناه، لكنى سأشير إلى الأشياء المهمة التى تستحق الملاحظة. ذهبت فى رحلة نيلية سريعة وغير عادية من القاهرة إلى ملَّوى التى وصلنا إليها فى مدة يومين ونصف، رغم أننا استغرقنا ثمانية عشر يومًا حتى نصل إلى نفس المكان فى رحلتى الثانية. مكثنا يومين عند مستر براين Mr. Brine الذى يعمل فى تكرير سكر القصب نظراً للهدوء الذى يتميز به المكان، ووصلنا إلى أسيوط بعد يومين آخرين. ذهبت فى اليوم التالى لمقابلة البك ذلك الرجل المهم والصديق الحميم للإنجليز. كان هذا الرجل على بعد ميل من البلد للقيام بتدريب جنوده وشباب المماليك على الرماية وركوب الخيل. كان التدريب على المدفع باستخدام قنابل تضرب على الصخور، ولابد لى أن أعترف بوجود رماة أفضل مما توقعت بين عساكر بلا نظام. فهو يطلق النار بنفسه على العلامة نفسها باستخدام طلقتين من ماسورة واحدة فى بندقية إنجليزية الصنع، وهى البندقية التى أعطاها له شخص ما كهدية فى القاهرة. أعجبته هذه الهدية بدرجة كبيرة، وأردف قائلاً: "ربما توجهت هذه البنادق إلى صدور صانعيها يومًا ما". فقلت له لو جاء هذا الوقت فإن الإنجليز سيظلون متفوقين فى سلاحهم لأنهم سيخترعون بحلول هذا الوقت نوعًا مختلفًا من البنادق تفوق كثيراً أفضل البنادق الموجودة فى الوقت الراهن لأنهم فى درسٍ مستمر لما هو جديد. ورأيت عليه إمارات الامتعاض من ردى، لكن هذا هو ردى، وسأقوله مراراً وتكراراً. بدأوا بعد التدريب على المدفع فى التصويب على إحدى الآنية الفخارية الموضوعة على قاعدة أو مصطبة يبلغ ارتفاعها حوالى ست أقدام، ويبدأ التدريب على بعد مائتى قدم من هذا الإناء الفخارى الذى يركضون نحوه على ظهر الخيل بأقصى سرعة، ثم يرمون اللجام

عند مسافة خمسين قدمًا ويلتقطون البندقية ليصوبوا على الإناء وهم فى أقصى سرعتهم. وهو الشىء الذى اعتاد عليه الحصان لدرجة أنه يستدير إلى اليمين قبل أن يصل إلى المصطبة التى يوجد عليها الإناء ليفسح مكانًا للحصان التالى فى التدريب. ومن الصعوبة بمكان إصابة إناء صغير الحجم على ارتفاع قدم واحد تقريبًا أثناء ركض الحصان بأقصى سرعته. لم أرَ غير ست آنية مكسورة من بين حوالى مائتى رمية، ثلاث منها كسرها المملوك المحظى لدى البك وهو صبى يبلغ من العمر اثنى عشرة عامًا. يملك هذا الصبى أفضل حصان من خيل البك، وأصاب الإناء وهو على بعد مسافة تبلغ طول بندقية ونصف بندقية. ونجح اثنان آخران من المماليك فى إصابة الإناء على بعد مسافة مناسبة، بينما كسر البك نفسه أحد الآنية وهو الأمر الذى نال بسببه – طبعًا – الكثير من المديح والإطراء من كل رعيته. وظهر من امتطوا الخيل وعليهم الذهب والفضة بمظهر متكلف للغاية. جلس البك بعد انتهاء التدريب فى ظل شجرة، وبدا منه الاهتمام الشديد لمعرفة التفاصيل الخاصة بدخولى الهرم لأنه سمع بهذا الخبر، وود لو رأى خطة الدخول. فوعدته برؤية الخطة حينما آتى لزيارته بعد الظهر.

ذهبت إلى قصره فى تمام الساعة الرابعة بعد الظهر، ووجدته جالسًا على كرسى عالٍ ذى مساند على غير الشائع بين الأتراك، رغم أنه لم يجلس كالأوروبيين بل كالأتراك بوضع رجليه فوق الكرسى. وهنا أتيحت لى الفرصة لحضور محاكمة سيتحدد فيها مصير المتهم بالحياة أو الموت. وكانت القضية كالآتى: عُثِرَ على أحد العساكر التابعين للبك مقتولاً فى الطريق بالقرب من قرية أخميم، ووجدوا رأسه مفصولاً عن جسده وعلى جثته العديد من آثار العنف. وكان هذا الجندى فى طريق العودة من مكة التى زارها لأداء فريضة الحج. كما عُثِرَ على جَمَله مقتولاً بالقرب من باب أحد الفلاحين؛ ومن هنا جاء الافتراض بوجود الكثير من المال بحوزته. رؤىَ الرجل فى بيت الفلاح الذى عُثِرَ على الجمل بالقرب منه بصحبة سبعة رجال بينهم رجل من البدو. أكد الجنود بالقرية الذين وضعوا عددًا من الأشخاص فى الحجز إلا أن المحتجَزين ساعدوا الرجل البدوى على الهرب، بينما شهد شيخ القرية نفسها أن أحد المحتجَزين قال إنه يعرف كيف يعثر عليه فى أى وقت. وتعرض الكثير من الشهود للاستجواب، لكن لم يعط أحد منهم أى دليل يمكن الاستفادة به لرد الحقائق إلى نصابها بالنسبة للجناة.

غير أن قرينة واحدة جاءت ضد واحد من هؤلاء المتهمين وهى أن ملامح وجهه لم تَرُقْ للبك، فلم تكد عَيْنا البك تقعان على الرجل المسكين حتى صاح قائلاً: "هووه! القضية واضحة! أنا أرى الآن بوضوح مَنْ هو القاتل، انظروا إلى هذا الرجل، هل هناك من شك فى أنه هو الذى ارتكب الجريمة؟ لذا اعترف على الفور بأنك أنت الذى ارتكبت هذه الجريمة، فلن ينفعك الإنكار، فأنا أراها فى وجهك!" ولابد لى أن أقول إننى لم أرَ فى حياتى شكل القتلة مرسومًا على ملامح وجوههم من قبل، وأستعيذ بالله من أن تتبع محاكم العدل عندنا هذه الطريقة فى المحاكمة لتدين الناس لمجرد أن ملامحهم لا توحى بالبراءة. وتقدم الكثير من الشهود ليثبتوا أن الفلاح الذى كان الجندى عنده ليس له شأن بهذا الحادث لأنه لم يكن موجودًا فى البلدة فى أثناء ذلك الوقت. ولدىَّ من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أن الشهود فى تلك البلاد أكثر دقة عند الإدلاء بشهادتهم فى المحاكم عن الشهود فى أوروبا لأنهم لا ينجون بما فعلوا كما يحدث فى بلادنا. وحتى يضمن أولو الأمر نزاهة شهادة الشهود فإنهم عادةً ما يضربون الشاهد بالفَلَقة ضربًا مبرحًا على بطن قدميه حتى يخرج اللحم من العظام، ويصبح هذا الشخص عاجزًا عن المشى لمدة طويلة من الزمن. وتعتبر الألف ضربة رقمًا عاديًا يمكن أن يتلقاه الشاهد. وانتهى الأمر فى هذا اليوم بالضرب والزج بهم فى السجن مرة أخرى. ومن ناحية أخرى سمعت فيما بعد بمقتل عدد من الأشخاص المفترض أن لهم علاقة بالجريمة، لكننى لا أملك فى هذا الموضوع من مرجع سوى ترجمانى الخاص.

أرسل البك إلىَّ بعد المحاكمة كما لو كان يريد أن نتحادث معًا. اصطحبت الترجمان معى لأن البك لا يتحدث أى لغة عدا التركية، وجلست على مصطبة بالقرب من كرسيه. بدأ الحديث مرة أخرى عن الأهرام، وتساءل عن السبب وراء عدم قدرتنا على معرفة الوقت الذى شيدت فيه. كان لدى البك رغبة فى معرفة الأشياء لكن بطريقة لا يُدْرَك معها جهله بها، فهو يطرح أسئلة كما لو كان ملمًا عليمًا بالأشياء التى هو أحرص الناس على تعلمها. عرضت عليه خطة الهرم الثانى التى استوعبها على الفور كما قال لى بعد أن ألقى عليها نظرة عامة دون أن يستفسر عن جزئية واحدة فيها. ولمَّا عرفت أن الأتراك يحسبونه مهندسًا معماريًا، أخذت فرجارًا وشرحت له مقياس القدم

الإنجليزى الذى صممت الخطة بناءً عليه. اختلطت هذه الكلمة بالكلمة الإيطالية scala (التى تعنى السُلَّم) لأنه سألنى كيف يمكن للمرء أن يصعد على ذلك المقياس، وسألنى الترجمان الذى لم يَقِلَّ عن البك فضولاً نفس السؤال تقريبًا. لم أستطع منع شفتاى من أن تنفرجا تبسمًا، وحولت الحديث إلى الممر القسرى، وهنا لفت البك نظرنا - وهو فى ذلك على حق - إلى أن هؤلاء الذين فعلوا ذلك ما فعلوه إلا بحثًا عن الذهب وإلا ما بذلوا هذا الجهد الكبير، هذا إلى جانب ما شابه ما سبق ذكره من ملاحظات. تركته فى ذلك المساء لتأخر الوقت بعد مرور نصف ساعة بعد غروب الشمس، وذهبت إليه استأذن بالانصراف فى صباح اليوم التالى. كان معى فرمان طلبت منه إجراء تعديل عليه، وتملكتنى الدهشة حينما عدَّله دون تردد. يبدو أنه سُرَّ حينما علم أننى أجمع الآثار لنفسى؛ ولهذا السبب وكما قالها أعطانى الفرمان الذى يعطينى السلطة الكاملة للحفر حيثما شئت شرق النيل وغربه. فأجبته بقولى إننى ممتنٌ له عظيم الامتنان، لكنى أتمنى أن ينظر بعين الاعتبار إلى ما أفعله لنفسى أيضًا لصالح الفريق الإنجليزى. فلم يرد علىَّ، لكنى استطعت بسهولة أن أرى ما سرى بداخله من شعور بالغضب لعودتى للبحث والتنقيب المرتبط بالإنجليز. وتمنيت لو كان مستر سولت بيننا مختفيًا أو متسترًا ليتمكن من رؤية الفرق بين حال هذا الرجل من وراء ظهره، وحاله أمامه. حكى البك القصة الصغيرة الخاصة بالغليون الذى صنعه كاليود Caliud وباعه باعتباره قطعة أثرية إلى مستر سولت، وانفجر فى الضحك متعجبًا من رجل بهذا القدر من العلم والمعرفة يسمح لنفسه بأن يخدعه رجلٍ فرنسى بهذه السهولة. فرددت عليه قائلاً إن أى إنسان معرضٌ للخداع، فنحن شترى الكثير من الأشياء من الفلاحين، الجيد منها والردىء فى أكوام حتى دون رؤية ماهية هذه الأشياء حتى نأتى بها إلى بيوتنا؛ والظاهر أن هذا الغليون جاء إلينا بهذه الطريقة. سألنى العديد من الأسئلة الغريبة من بينها سؤال عما إذا كنت سأحلق لحيتى عند عودتى إلى أوروبا متوقعًا أن إجابتى هى أننى لن أفعل مثل هذه الفعلة أبدًا لأن لحيتى بدت له أفضل ما فىَّ آنذاك، بل أفضل من لحيته هو شخصيًا. فأخبرته بما أثار دهشته وهو أنه بمجرد وصولى إلى شواطئ أوروبا العزيزة سأتخلص من هذه اللحية كما يتخلص المرء من حمل ثقيل. وعندما رأى

أنه أقحم نفسه فى موقف حرج بإهانة قدسية اللحية أمام الجمع الغفير من أبناء بلده من الملتحين بطرح هذا السؤال على رجل مسيحى ظنًا منه أن هذا يصلح من الأمور، لأن بعضًا من الفرنسيين أخبره أن كثيراً من الرجال يطلقون لحاهم فى فرنسا، فردّ بقوله إنه علم أن الكثير من الرجال يطلقون اللحية فى فرنسا، لكنه لم يَدْرِ إن كانَ هذا هو الحال فى إنجلترا أم لا. فأجبته أن الرجال لا يطلقون لحاهم على الإطلاق فى فرنسا ولا فى إنجلترا ولا فى أى بلد من البلاد الأوروبية عدا عدد قليل من الروس. ولم تلقَ هذه الإهانة والاستخفاف باللحية على ما يبدو استحسان الجمع؛ فما كان منه إلا إدارة دفة الحديث إلى الخيول وما شابه من موضوعات.

غادرت أسيوط فى اليوم نفسه بعدما أخذت الفرمان، ووصلنا إلى طهطا فى اليوم التالى. وعلى ما أذكر أن هذه البلدة هى مقر واحد من معارفى القدامى وهو سليمان كاشف إرمنت الذى حظيت منه بالكثير من الحيل والألاعيب، إلا أنه صار لنا صديقًا - فى الظاهر على الأقل - فى الفترة المتأخرة من ولايته على ذلك الإقليم، فرأيت أن من الواجب أن أعوده بالزيارة كأصدقاء لأن الإهانة شىء لا يُنسى بسهولة حسب نمط التفكير السائد لدى الأتراك، بل إن الأمر يصل فى بعض الأحيان إلى الانتقام عندما يشعر الشخص الذى وقعت عليه الإهانة بالخزى والعار أو سوء الحال فى الحياة. ولست أدرى إن كان هذا الرجل سعيداً لرؤيتى فى كوخه، فربما ما زال شاعراً بالخجل - حسب ظنه - من عدم نسيانى لتعصبه ضدى والمتاعب التى سببها لى، لكنه رغم تأكده من كل هذا، استقبلنى بكل آيات الترحيب والمحبة والمودة التى يمكن أن تتوقعها من أحد الأتراك، وأفهمنى أن تسوية العجز الذى وجدوه فى حسابه مع الباشا سوف تقتطع تقريبًا من راتبه الشهرى، وهذا يعنى أن عمله سينتهى عن قريب؛ عندئذٍ سيصبح حراً باستطاعته الذهاب إلى حيث يريد، فإذا ظلت العلاقات متوترة بينه وبين الباشا، فإنه سيذهب إلى أى بلد جنوبى إبريم. عندما علمت أن يقصد الذهاب إلى دنقلة وإلى المماليك، أخبرته أن معالى الباشا رجل كبير المقام، وأن بعض أصدقائه فى القاهرة لو حادثوه فى ذلك الشأن، ستنتهى الأمور على خير ما يرام. وقال إنه توقع أن يفعل القنصل الفرنسى أى شىء حيال هذا الشأن انطلاقًا من واجبات الصداقة، لكنه

خذله، واستطرد فى الحديث عن أشياء أخرى ليست بذات أهمية. من جهة أخرى، وفى الوقت الذى كنا فيه وحدنا حتى دون مصاحبة الترجمان، قال لى باللغة العربية إنه سيشعر بالامتنان والفضل العظيم للقنصل الإنجليزى لو تحدث مع الباشا فى أمره حتى يضمن أنه سيسعد بالتوصل إلى تفاهم معه لأنه قام بالإصلاحات العظيمة فى الأراضى التى تعود على الباشا بالعوائد الكبيرة، وفوق كل شىء لأن سداد الدين جاء من الخزنة أو بيت المال. وعدته بالقيام بكل ما فى وسعى من أجله، وبعد مضى بعض الوقت كتبت إلى مستر سولت كل التفاصيل وأخبرته بأنه لو نجح فى إعادة هذا الرجل إلى منصبه فى إرمنت، فإنه سيكسب صديقًا حميمًا يُعتمد عليه فى ولاية طيبة. استطعت بالكاد أن أخلص منه، وأرسل خيوله وعساكره لمصاحبتى إلى ضفاف النيل، ووجدت على ظهر سفينتنا الأطعمة العادية من الخبز والخراف وما إليها.

استأنفنا الرحلة ووصلنا إلى أخميم فى اليوم التالى بعد أن قطعنا حوالى فرسخ. وفى يوم الخامس من مايو ١٨١٨ وفى تمام الساعة الثامنة صباحًا رأيت أجمل كسوف للشمس وقعت عليه عيناى من قبل. حدث ذلك حينما مَرَّ القمر فى تمامه أمام الشمس، واستمر هذا الكسوف لمدة ثلاث أرباع الساعة. شاهدت القمر كاملاً فى منتصف الشمس متخذًا شكل القرص أو الحلقة، وبدا القمر لى فى نصف حجم الشمس تقريبًا.

وصلت إلى طيبة فى يوم العاشر من مايو، وعملنا من فورنا على أخذ رسومات للمقابر وتدوين انطباعاتى عنها كما سبق أن أشرت.

توصلنا فى الاتفاق الذى عقدته مع مستر سولت قبل انطلاقى هذه المرة جنوبيًا فى النيل ثانيةً إلى أننى سأتولى القيام بأعمال البحث والتنقيب، لكنى اكتشفت لدى وصولى إلى طيبة أن كل الأراضى على كلا ضفتى النيل أخذها عملاء مستر دروتى من جهة، ومستر سولت نفسه من جهة أخرى حينما حدد الأراضى قبل عودته إلى القاهرة فى هذه المرة الأخيرة. وعندما رأيت عدم وجود أية فرصة للقيام بأية أعمال بحث على نفقتى دون التعرض للاختلاف بعض الشىء مع الفريق الفرنسى أو الفريق الإنجليزى؛ آثرت الانسحاب إلى مقبرتى وكرست كل وقتى فى تصميم نماذج لها.

من الغريب أحيانًا، وإن لم يكن من الذكرى السارة بأى حال من الأحوال، أننى كنت فى هذا الوقت وحدى فى طيبة على نفقتى الخاصة إلى جانب فرصة أقل فى العثور على أى شىء كالفرصة المتاحة أمام سائح غريب لم يزر تلك البلاد من قبل. فالرحالة الغريب قد يأتى ويختار بقعة معينة من الأرض، ويجرب حظه إما حسنًا وإما غير ذلك. إلا أن موقفى مختلف، فإذا أشرت على أية بقعة من الأرض مهما كانت، فإن أحد الفريقين وأعنى عملاء مستر دروتى أو عملاء مستر سولت سينظرون إليها باعتبارها أرضًا ذات قيمة، وسيدعون أنهم أخذوها من قبل ذلك بزمن طويل. وأنا أؤمن يقينًا أننى لو أشرت إلى أى من الضفاف الرملية للنيل أو الصخور الصلبة لقالوا إنهم كانوا ينوون الدخول إليها فى اليوم التالى، ولم أستطع البقاء كهذا دون عمل أقوم به نظرًا لوجودى فى قلب طيبة وهو المكان الذى اعتدت عليه وألفته ألفة كبيرة لاضطلاعى بأعمال البحث والتنقيب المستمرة. حاولت من قبل القيام بالبحث فى إحدى الأراضى المستنفذة التى فتحتها بنفسى فى الأصل كما هو معروف حتى لا يقول أى أحد إنه أخذها أو فتحها من قبل، لكن سرعان ما أدركت أنه لا طائل من محاولة البحث فى المناطق التى تعتبر مستنفذة أو سبق أن نقَّبنا فيها.

من المعروف أن هناك الكثير من بقايا التماثيل الضخمة ولاسيما خلف التمثالين الكبيرين بين معبد الممنونيوم ومدينة آبو. حَدَّدْتُ هذه الأرض بعلامات منذ فترة بعيدة، وكان مستر دروتى أول مَنْ قام بأعمال بحث بالقرب من هذه البقايا، لكنه تركها حينما لم يجد فيها سوى شظايا وبقايا من تماثيل الكباش. وبعد مرور فترة من الوقت قام مستر سولت بأعمال التنقيب فى هذه الأرض عندما كنت فى القاهرة، ووجدها موقعًا لمعبد كبير. هناك قواعد كثيرة العدد لأعمدة عظيمة القُطْر، عددت منها حوالى ثلاثين عمودًا، لكن يبدو أن نصف هذه الأعمدة غير ظاهر لنا، كما عثر مستر سولت بين هذه الأعمدة على العديد من بقايا التماثيل المنحوتة من الحجر الحصبائى والكلسى، وإن كانت جميعها متآكلة بدرجة كبيرة لا تستحق معها أن نأخذ أيًا منها. استمر مستر سولت فى عمله هذا لمدة طويلة من الوقت، لكنه ترك بقعة الأرض فى النهاية – فى اعتقادى – لأنها لا تساوى ما سيبذل فيها من جهد. وعندما أعربت لمستر بيتشى عن

رغبتى فى مواصلة البحث والتنقيب فى نفس المكان، أخبرنى أنه محجوز للقنصل الذى قام بأعمال الحفر من قبل فى هذا المكان وحده وتحت إشرافه. كانت هذه رغبتى فى اكتشاف شىء ذى أهمية مما جعلنى أصرُّ على مواصلة البحث سواء كان ذلك لمصلحتى الشخصية أو لمصلحة القنصل.

بناءً على ذلك استأنفت أعمال البحث، وأصدرت الأوامر للرجال بالعمل فى المنطقة التى لابد من وجود المحراب والحَرَم فيها بعدما رأيت أنه لم تمسها يد إنسان. ربما كان هذا من تدابير القدر، إلا أننا عثرنا فى اليوم الثانى من بدئى فى أعمال البحث على تمثال كبير ثبت أنه من أروع التماثيل التى عثرت عليها حتى الآن. والتمثال لرجل جالس يشبه تمثال ممنون العظيم من كل الأوجه. وتوجد على جانب كرسى التمثال النقوش الهيروغليفية نفسها التى توجد على كرسى تمثال ممنون. ويصل ارتفاع التمثال عشرة أقدام تقريبًا، وهو من أبدع من أنتجته يد الفنان المصرى القديم. أما قطعة الحجر التى نُحتَ منها التمثال فهى من «جرانيت الرمادى الذى يتسم بوجود ذرات فيه، لونها لا يختلف عن لون مادة تُعْرَف بوجه عام باسم المعدن الهولندى[1] Dutch metal. كان هذا التمثال وتمثال لأبى الهول التمثالين الوحيدين اللذين رأيتهما من نوعهما. إلا أننى وجدت جزءًا مكشوطًا من ذقنه ولحيته، وإن كان الباقى بحالة ممتازة. عثرت فى نفس الأرض على العديد من تماثيل أبى الهول كتلك التى عثرت عليها فى الكرنك، بعضها واقف والبعض الآخر فى وضع الجلوس.

ولم أدْرِ ماذا أقول عن هذا المعبد لأننى لا أدعى أن قولى هو القول الفصل فى أى موضوع، لكن ومع ذلك كلٌ منا له الحق فى التعبير عن رأيه الخاص؛ لذا سأتلو بضع ملاحظات أو قُلْ سأثير بعض الأسئلة. فلِمَ لا يمكننا أن نرى هذا التمثال باعتباره تمثال ممنون العظيم بقدر ما ننظر إلى ما يسمى اليوم باسم المنونيوم، بل وربما بمزيد من الترجيح لصالح الأول؟ الجدير بالإشارة أن الاسم أطلق على تلك الآثار

(١) المعدن الهولندى Dutch metal: خليط معدنى من النحاس والخارصين. [المترجم]

المتهدمة على افتراض أن التمثال الكبير الذى يوجد الآن على الأرض فى ذلك المكان إنما هو تمثال ممنون، لكن وبعد أن اتفق الجميع على أن تمثال ممنون ليس إلا ذلك التمثال الذى يقع شماليّ التمثالين الواقعين فى السهل بين مدينة آبو والمنونيوم، فإننى أرى أن المعبد الذى يقع فى خط مستقيم مع هذين التمثالين يمكن على الأرجح أن نطلق عليه المنونيوم. كان أبعد التمثالين إلى جهة الشمال فى سهل القرنة هو التمثال الذى نبع منه صوت لا مِراءَ فيه حسب اعتقادى، وذلك راجعٌ إلى عدة أسباب لعل أخصها شهادة الكثير من السائحين الذين أثبتوا الواقعة بالكتابة على ساق التمثال. وإذا كان التمثال سالف الذكر مخصصاً ليمثل ممنون العظيم، فإننى أظن أن المعبد المرتبط به هو معبد المنونيوم. يقع تمثال هائل الحجم بين التمثالين الكبيرين ورواق الأعمدة عند مدخل المعبد، وألفيناه ملقىً ومدفونًا بالكامل تحت الأرض عدا ظهر كرسيه المكسور نصفين من المنتصف تقريبًا. لا أستطيع أن أتصور كيف غفل الرحالة عن ملاحظة هذا التمثال العملاق، وكان الكشف عن التمثال من بين أهدافى الرئيسية، لكن الفرصة لم تتح لى مطلقًا. لاشك عندى فى إمكانية التوصل إلى حل لبعض النقاط المهمة، بل والعثور على القطع الأثرية فيه، وأتمنى أن يعمل رأيى على إغراء بعض الرحالة ومقتنى الآثار فى مصر بالبحث والتنقيب فى المنطقة المهمة المحيطة بالتمثال العملاق. عثرنا بين أعمدة الرواق على عدد كبير من شظايا التماثيل الكبيرة من الحجر الجرانيتى والحصبانى والكلسى. وباستطاعتى أن أقول وبكل تأكيد من خلال هذا العدد الكبير من الشظايا الأصغر حجمًا ومن تماثيل أبى الهول الجالسة والواقفة إن هذه الأنقاض ترجع كما أراها إلى أروع وأكثر المعابد فخامة من بين كل المعابد الواقعة إلى الجهة الغربية من طيبة. يحرس مدخل هذا المعبد – وفقًا لرأيى المتواضع – التمثالان الكبيران اللّذان يُفْترضُ أن أحدهما يمثل ممنون العظيم، ولو مضينا قدمًا إلى الأمام سنجد تماثيل عملاقة أخرى فى ساحات داخلية لا تزال شظاياها موجودة فى خط مستقيم مع المعبد والتمثالين الكبيرين حتى الآن كما ذكرت من قبل. تقف أمام رواق الأعمدة تماثيل ضخمة أخرى ذات أحجام أصغر تبدو للناظر كما لو كانت من زينة مدخل المعبد. دفعنى المنظر بمجمله إلى استنتاج وجود معبد كبير على هذه الأرض.

ويتطلب استكشاف هذا المعبد بذل جهد ليس بالقليل، لكنى أعتقد أنه جدير بالاهتمام بالإضافة إلى اقتناعى بأن هذه المغامرة لن تأتى لصاحبها إلا بكل خير. ترتفع قاعدة الأعمدة سالفة الذكر كثيراً عن قواعد التمثالين العملاقين مما استتبع ضرورة وجود مَرْقَى أو سلم من التمثالين إلى المعبد. فإذا أخذنا مثالاً المعبد المعروف باسم الممنونيوم لوجدنا نفس الوضع وهو وجود درجات سلم هى المَرْقَى إلى المعبد. اكتشفت عندما عملت على نقل التمثال العملاق من الأنقاض سالفة الذكر أن أرضية المكان الذى يقع فيها التمثال تنخفض كثيراً عن أرضية المعبد الداخلية؛ ونستنتج من ذلك أن المعبد سالف الذكر إنما شُيِّدَ على أساس المبدأ نفسه، فلو كان الأمر كذلك، فهذا يعنى أن واجهة المعبد لم تكتشف بعد، وأنا لا أتردد فى القول باحتمال العثور على بعض القطع الأثرية ذات الأهمية فى ذلك المكان، بل لعلَّ ذلك يلقى بمزيد من الضوء على الموضع الحقيقى لمنون. الجدير بالإشارة أيضًا أن فيضان النيل المنتظم فوق تلك الأرض بعينها أدى لارتفاع مستوى التربة فيها ارتفاعًا كبيراً مما يقضى على همة الرحالة فى البحث والتنقيب، لكن لا يمكن لأى عمل أن يتم دون المثابرة والمواظبة على بذل الجهد. لم يَحُلْ انشغالى بالمقبرة دون مواصلة أعمالى فى البحث، وتركتها بنيَّة استئناف العمل فيها مرة أخرى حينما تسنح لى الفرصة بمقابلة مستر سولت الذى حدد كل الأراضى حتى يقوم هو بأعمال الكشف الأثرى فيها؛ ولذا لم أرغب فى التعدى على أرضه فى طيبة.

وعلى غير العادة ، سارت الأمور فى المقبرة على ما يرام. فى تلك الأثناء سعدت سعادة غامرة حينما صنعت الكثير من القوالب للرسومات الرئيسية المحفورة بالنقش البارز. ووجدت أن الشمع وحده لن يبقى كما هو بسبب المناخ، لكننى عملت خليطًا ممتازًا من الشمع واللارنج(٢) والتراب الصافى. كانت الصعوبة الكبرى التى واجهتنى هى عمل القوالب للرسومات دون تشويه ألوانها. وجدت أن عدد الرسومات بالحجم الطبيعى يصل إجمالاً إلى مائة واثنين وثمانين، أما الرسومات الأصغر التى يتراوح طولها من قدم إلى ثلاث أقدام فلم أعدها، لكنها لا تقل بأى حال من الأحوال عن

(٢) اللارنج resin: مادة صمغية تسيل من معظم الأشجار عند قطعها أو جرحها. [المترجم]

ثمانمائة. تصل عدد النقوش الهيروغليفية فى هذه المقبرة إلى خمسمائة نقش على وجه التقريب نسختها جميعًا بأمانة وبالألوان، وتتسم هذه النقوش بأربعة أحجام مختلفة تتراوح من بوصة إلى ست بوصات، وكان علىَّ أن آخذ نموذجًا من كل حجم؛ وبذلك يصل عدد النقوش كلها إلى حوالى ألفى نقش. تمكنت من الحصول على بعض الصمغ من المدن الصغيرة فى هذه البلاد، لكن بكميات قليلة اضطرتنى إلى طلب المزيد مع المراكب النيلية المتجهة إلى قنا وفرشوط وجرجا.

زارنا فى أواخر شهر يونيو مستر بريجز إثر عودته من الهند، وأتى من تلك البلاد بأشجار الأناناس والمانجو التى غرس البعض منها فى حديقة أغا قنا، كما حاول زراعة بعض من هذه الأشجار فى طيبة. أعتقد أن شجر المانجو نما بشكل جيد للغاية فى قنا، إلا أن الأشجار التى زرعها فى طيبة ماتت لانعدام الرعاية على ما أظن، ولعدم وجود بستانى يقوم على رعايتها.

فى تلك الأثناء أوقفت كل أعمال البحث لعدم قدرتى على الحفر فى الأراضى التى أريد الحفر فيها، وقنعت بمجرد جمع ما اعتاد فلاحو القرنة الإتيان به إلىَّ. لابد لى من القول إننى تمكنت من تكوين مجموعة صغيرة من الآثار الخاصة بى نتيجة لمعارفى الكثيرين من سارقى المومياوات، وهى المجموعة التى يمكننى الفخر باقتنائى فيها لبعض الآثار المهمة لاسيما المخطوطات وما شابهها.

عمدت فى تلك الأثناء إلى القيام بالكشف الأثرى بين البقايا المتهدمة من معبد إرمنت، لكنى ما لبثت أن اقتنعت بعدم جدوى البحث؛ فآثرت الانسحاب. هذا المعبد من بين المعابد ذات الأهمية لأنه يختلف عن كل المعابد الأخرى تقريبًا من حيث الشكل والتكوين المعمارى. تصور اللوحة رقم (٣٧) هذا المعبد تصويرًا صحيحًا قدر استطاعتى. وتظهر خلف هذا المعبد إحدى الرسومات التى تصور حيوان الزرافة الذى يندر وجوده ندرة شديدة بين النقوش الهيروغليفية، فأنا لم أرَ فى مصر غير ذلك الرسم وذلك الذى ذكرته آنفًا فى حرم معبد الممنونيوم.

الدافع وراء رحلتى إلى البحر الأحمر

علم الباشا والى مصر قبل ذلك بفترة من الزمن من رجلين قبطيين نزلا على شاطئ البحر الأحمر قادمين من الجزيرة العربية أنهما رأيا بعض مناجم الكبريت فى الجبال القريبة من ذلك الشاطئ، وهى تبعد مسافة عدة أيام جنوبى القصير. وما أن سمع الباشا بهذا النبأ من الرجلين حتى أرسل فرمانًا إلى كاشف إسنا لدخول الصحراء بحثًا عن تلك المناجم. وانطلق الكاشف فى موكب من الجنود وستين من الإبل لتحميلها بالكبريت، لكنهم حينما وصلوا إلى هناك لم يجدوا سوى بضعة قطع متناثرة هنا وهناك، وبعد أن جمعوها كلها لم تَكْفِ لتحميل عشرين جملاً. كان من بين الجنود رجل من الخونة المماليك الذى أكد على رؤيته للعديد من المناجم والمعابد على الطريق المؤدى إلى ساحل البحر الأحمر.

لم يَنَلْ هذا النجاح الهزيل من عزيمة محمد على الذى كان مستعداً على الدوام لمواصلة الجهد والمثابرة فى أى مشروع، وأشار عليه البعض بإرسال بعض الأوروبيين للكشف عن هذه الأماكن ليروا إن كانت تستحق مواصلة العمل على اكتشاف الكبريت فيها أم لا؛ فأشار مستر دروتى على الباشا بإرسال مستر كاليود الذى يعمل صائغًا للفضة وكان يعمل لحساب مستر دروتى لفترة من الوقت فى جمع الآثار. انطلق مستر كاليود إلى ذلك المكان تصحبه فى الرحلة حامية من الجنود وعمال المناجم من الشام، ووجد المكان مجدبًا مقفرًا كما وصفوه، ولم يفته حين العودة رغم ذلك أن يذهب إلى جبال الزمرد بناء على التعليمات التى تلقاها من مستر دروتى الذى شاهد – كما هو واضح – أعمال بروس Bruce الذى أشار إلى زيارته لهذه المناجم. وجد مستر كاليود لدى وصوله إلى المكان العديد من الكهوف أو المناجم التى تركها القدماء كما هو ظاهر للعيان، ومن المحتمل أنه لم تمتد إليها يد إنسان منذ ذلك الحين. جمع من خارج بعض من المناجم عدداً من قطع قوالب الزمرد، فلما وصلت هذه القطع إلى الباشا، كان ذلك بمثابة دليل كافٍ على وجود مناجم فى البلاد، ووسيلة لإقناع محمد على لمواصلة أعمال البحث. وتصادف أن وصل مستر كاليود أثناء بحثه عن المناجم فى هذه البلاد إلى

سكيت Sakial-Minor التى تقع فى وادٍ يبعد بضعة أميال من جبل زبارة وحوالى خمسة وعشرين ميلاً عن البحر (انظر اللوحة رقم ٣٥).

إنه وادٍ تحيط به الصخور المرتفعة، وتقع على جانبى الصخور وعلى بُعْدِ مسافة صغيرة آثار متهدمة لبضعة بيوت صغيرة مبنية من الحجارة غير المصقولة، والبيوت جميعها بلا ملاط عدا بيت أو اثنين. وتشبه صخور هذا المكان مدرج المسرح من حيث الشكل والذى لا يزيد طوله عن ٢٥٠ مائتين وخمسين ياردة. يضم القسم العلوى من الصخور العديد من مناجم القدماء، كما يوجد على إحدى جانبى الصخور كنيسة صغيرة مقطوعة فى الصخر يبلغ [illegible] ٣٠ قدماً ولا يقل عرضها عن ٢٠ قدماً (انظر اللوحة رقم ٣٣ وأرقام ٦ و٧). ويصل [illegible] عدد البيوت ٨٧ بيتًا وفقًا للحصر الذى قمنا به عند زيارتنا لذلك المكان، ومن بين هذه البيوت بيت واحد يمكن النظر إليه باعتباره مقر إقامة أحد الأشخاص المتميزين عن باقى الناس. لم أدْرِ كيف حدث هذا الأمر، لكن مما يبدو أن الحماس الذى اتسم به وصف مسيو كاليود لهذا المكان أدخل فى رَوْع جامعى الآثار فى مصر فكرة هى أن ذلك المكان لابد أن يكون مدينة برنيس القديمة خاصة حينما أخبرنا بوجود ثمانمائة بيت والعديد من المعابد، وبدت له المدينة من حيث الشكل كأنقاض بومبى[٣] Pompeia. وأكد أيضًا أن هذه المدينة كانت قريبة من ساحل البحر، كما كان الاتصال بالبحر سهلاً للغاية. وفى تلك الأثناء أخرج مستر كاليود لنا نقشًا كتابيًا باللغة اليونانية القديمة، هو الذى عثرنا عليه أيضًا على قمة أحد الكوات أو المحاريب، ونسخنا هذه الكتابة بأحسن ما تكون الدقة والأمانة، وسوف أوردها فى هذا الكتاب فيما بعد، وكان هذا كافيًا جدًا. وفى النهاية زرنا مدينة برنيس القديمة، وعرفنا موقعها. ولم يتفق موقع المدينة تمام الاتفاق فى بضع نقاط مع موقعها كما وصفه القدماء، لكن سرعان ما زالت هذه العقبات لأننى رأيت أحد الجغرافيين المحدثين - وهو رجل ذو علم واسع ورحالة عظيم - يأخذ القلم بيده ليكشط لسانًا كبيرًا من الخريطة لما أرهقه ليضعه إلى الشمال بنفس البرود كمن يحرك قطعة فى لعبة

(٣) مجموعة آثار رومانية يتوسطها عمود بومبى، ولا علاقة لها بالمدينة الهندية التى تحمل الاسم نفسه. [المراجع]

الدامَّة أو على رقعة شطرنج لأنه يقع جنوبيّ مدينة برنيس المزعومة، وذلك حتى يجعل برنيس المكتشفة حديثًا تقع فى نفس البقعة التى لابد أن تقع فيها لتتفق والوصف الذى جاء به الجغرافى القديم؛ مما يؤكد أن هذا اللسان أو الخليج الصغير تحدد موقعه خطأً من جانب الجغرافيين القدماء الذى وضعوا خريطة البحر الأحمر.

جاء وصف مستر كاليود للمناجم دقيقًا إلى حد ما، ولو اكتفى بوصف دقيق لمدينة برنيس الجديدة كما أطلق عليها لكان خيرًا له. دفع محمد على بعد سماع كل هذه الأخبار والروايات بأحد الأغوات المسلمين، وهو عامل من عمال المناجم الشوام ومعه مائتى رجل، لينطلق مصحوبًا بمستر كاليود حتى يروه المكان الذى وجدوا فيه المناجم القديمة. وبعد مرور فترة من الوقت، غادر مستر كاليود منطقة المناجم بعدما وجد أنها ليست كثيفة الإنتاج كما هو متوقع، وعاد إلى مصر تاركًا عامل المناجم الشامى ليبحث عن الزمرد.

فى أثناء الوقت الذى تواترت فيه الأنباء والروايات جالت بخاطرى فكرة القيام برحلة إلى هذه الصحارى بالذهاب إلى مدينة برنيس الجديدة، وانتظرت حتى تسنح لى فرصة مناسبة للاضطلاع برحلتى القادمة.

واتفق أن أحد عمال المناجم الذى أرسل فى أواخر شهر سبتمبر من منطقة الجبال إلى النيل طلبًا للمؤن والغذاء أنه ذهب من إدفو إلى إسنا مارًا فى طريق عودته بالصحراء حينما أصابه المرض. وعندما سمع الرجل من بعض العرب عن وجود طبيب مسيحى فى بيبان الملوك، جاء طالبًا من الطبيب أن يصف له شيئًا من الدواء لعلاجه. ولا جدال فى أن لدىَّ معلومات كافية وواضحة عن كل ما أرغب فى معرفته من ذلك الرجل الذى وعدنى بأن يدلنى على الطريق خلال الصحراء إذا أردت الذهاب. وعقدت العزم على الفور أن أعمل على الاستعداد لرحلتى. قرر مستر بيتشى الذهاب معى أيضًا حينما أفصحت له عن نيتى فى الرحلة، كما اقترحت على الطبيب أن يصحبنا فى الرحلة إذ يمكننا الاستعانة به فى الرسم.

كان لدينا فى تلك الأثناء مركب كبير مُحَمَّل بالقطع الأثرية بشتى أنواعها من بينها ذلك التمثال العملاق الرائع الذى اكتشفته بين أنقاض المعبد الذى يسمى

بالمنونيوم. فلما جهزنا المركب، طلب خادم من خدم مستر دروتي من مستر بيتشي السماح له بالسفر معنا على ظهر المركب إلى القاهرة، وسمحنا له بذلك بالطبع. انطلقت السفينة واتضح لي من المعلومات التي تلقيتها من عامل المناجم أن المكان لن يتفق والوصف الذي أدلى به كل من هيرودوت وبليني Pliny عن موقعه، كما لم يؤيد اتجاه الطريق الذي سلكه مسيو كاليود إلى الجنوب لأن الجغرافي[٤] دانفييه D'Anville هو الذي حدد موقع بلدة برنيس، وهو رجل أثق بصحة قوله لما رأيته من صدقه في مواضع أخرى كثيرة. وأخيراً، وبعد يومين انطلق المركب في رحلته إلى القاهرة. استأجرنا مركباً أصغر حجماً من الأقصر لتأخذنا جنوباً إلى إدفو التي سندخل منها إلى الصحراء. انطلقنا من مكان قريب من معبد القرنة لوصول المياه إلى ذلك المكان.

ووفقاً لذلك أبحرنا في يوم السادس عشر من سبتمبر من عام ١٨١٨, وصحبني في الرحلة مستر بيتشي والطبيب وخادمان يونانيان وعامل المناجم وصَبِيَّان من القرنة استأجرناهما للعناية بحاجياتنا وأمتعتنا في الصحراء.

قُدِّرَ لنا أن نشهد واحدة من أكبر الكوارث التي نزلت بمصر وفقاً لما يتذكره أي إنسان لا يزال على قيد الحياة، فقد ارتفع منسوب المياه في النيل هذا الموسم ثلاث أقدام ونصف القدم عن أعلى منسوب سجله النهر في الفيضان السابق، واجتاح هذا الفيضان بسرعة غير عادية الكثير من القرى ليجرفها معه إلى جانب بضع مئات من أهالي تلك القرى.

لم أرَ أية صورة على الإطلاق يمكنها أن تجسد لي فكرة الفيضان بشكل صحيح أكثر من الفيضان الذي شهده وادي النيل في هذا الموسم. كان العرب يتوقعون فيضاناً

(٤) دانفييه D'Anville: اسمه الكامل جان بابتيست بورجوجنون دانفييهJean Baptiste Bourguignon D'Anville وهو الجغرافي وراسم الخرائط الملكي ببلاط ملك فرنسا في منتصف القرن الثامن عشر، في الوقت الذي كان لا يزال علم رسم الخرائط الفرنسي من الأفضل في العالم. جاء دانفييه خلفاً لجيلوم ديلسيل Guillaume Delisle، وهو الرائد الأول لعلم رسم الخرائط الجغرافية، كما أثر كثيراً في معاصريه من الجغرافيين وراسمي الخرائط. [المترجم]

غير عادى فى هذا العام نظرًا لندرة المياه فى العام السابق، لكنهم لم يتصوروا ارتفاع منسوب المياه إلى هذا الحد. وعادةً ما يبنى الأهالى السدود من الطين وعيدان القصب حول قراهم حتى تمنع المياه من الدخول إلى بيوتهم، إلا أن قوة هذا الفيضان قضت على كل جهودهم بالفشل. ولم تستطع أكواخهم المبنية من الطين أن تصمد للحظة واحدة أمام التيار، فلم تكد تصل إليها المياه حتى سوتها بالأرض. جرف التيار السريع معه كل شيء أمامه من رجال ونساء وماشية وقمح، كل شيء جرفه التيار فى لحظة وأضحى المكان الذى كانت تقع فيه القرية خلوًا من أية علامة تدل على وجود بيت واحد يومًا ما فى هذا المكان. ليس الأمر كما يتوهم الناس أن كل القرى المصرية ترتفع بوجه عام كثيرًا عن المستوى العام لسطح الأرض بمصر حتى لا تصل إليها المياه، بل على العكس إذ أننا نجد السواد الأعظم من القرى فى صعيد مصر لا تكاد ترتفع عن مستوى سطح الأرض فى سائر البلاد، ولا يملك الناس من وسيلة لحجب المياه عن بيوتهم عند ارتفاع النيل سوى إقامة السدود الصناعية من الطين وأعواد القصب. وبدا لى الأمر كمن يقف وسط بحيرة شاسعة الأطراف تتناثر بين أرجائها الجزر المختلفة والمبانى الأثرية الشامخة. نجد إلى جهة اليمين الصخور العالية ومعبد القرنة ومعبد الممنونيوم والصروح الأثرية الكبيرة فى مدينة أبو والتمثالان العملاقان اللذان برزا من الماء كالفنارات التى توجد على بعض سواحل أوروبا. وتقع إلى جهة اليسار البقايا المتهدمة من مدينتى الكرنك والأقصر، وتمتد من جهة الشرق وعلى بعد ثمانية أميال سلسلة جبال المقطم التى تمثل حدود هذه البحيرة الواسعة كما بدت لنا من قاربنا.

كانت قرية الأقالتة Agalta أول قرية نصل إليها، ولم نذهب إلى هذه القرية لمجرد رؤية المكان بل لترغيب القائمقام فى إرسال أحد العساكر لحراسة المقابر إلى جانب العرب وبعض من رجالنا الذين تركناهم هناك. ورأيت أن ذلك أمر ضرورى رغم وجود الباب القوى الذى أمرت بصنعه على مدخل المقابر. ظهر القائمقام على الفور عند اقترابنا من القرية، وظل يرثى حاله ويندب حظه إذ توقع أن يجرفه فيضان النيل. لم يكن بالقرية أية مراكب، وإذا أتت المياه على سدودهم الضعيفة، فليس أمامهم من فرص للهرب غير تسلق أشجار النخيل حتى ترسل العناية الإلهية إليهم أحدًا لينقذهم.

كانت المراكب جميعها مشغولة فى نقل القمح من القرى المهددة بالخطر. وتصل يد المساعدة فى نهاية القائمة إلى الرجال والنساء والأطفال فى كلٍ من الوجه القبلى والبحرى بمصر لأن حياة هؤلاء ليست لها قيمة القمح الذى يعود بالمال على الباشا. علَت المياه أربع أقدام بعد ذلك فوق سطح الأرض فى هذه القرية مما اضطر الفلاحين المساكين لمراقبة سدودهم ليل نهار. واستخدم هؤلاء الفلاحين الشادوف أو القِرَب لنزح المياه التى ارتفعت مرة أخرى من تحت الأرض، لكن لو انهارت السدود فسوف يضيع كل شىء. عرضنا على القائمقام أن نأخذه معنا فى مركبنا، إلا أنه لم يستطع مغادرة المكان الذى كان مكلفًا بحراسته. هبت الرياح هبوبًا خفيفًا حينما غادرنا هذه القرية، ولم نتمكن من المسير إلى الأمام كثيرًا، وفى المساء أرسينا مركبنا بالقرب من أرض مرتفعة بعض الشىء بين الأقالتة وإرمنت.

فى يوم السابع عشر رأينا العديد من القرى التى يهددها خطر الدمار. جاء تيار المياه السريع ليقلع السدود واضطر أهالى هذه القرى البؤساء للهرب إلى أراضٍ أكثر ارتفاعًا حيث من المتاح أمامهم إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المياه. كانت الكارثة التى حلت بهؤلاء الناس كارثة كبيرة، فلم يبقَ للبعض منهم سوى بضع أقدام من الأرض، وكان من المنتظر أن يرتفع منسوب المياه بعد اثنى عشر يومًا. وتظل المياه على نفس ارتفاعها لمدة اثنى عشر يومًا أخرى حسب المدة المعتادة للفيضان، وسعيد الحظ هو الذى يتمكن من الوصول إلى أى أرض مرتفعة. بينما عبر آخرون مياه النهر على قطع من الخشب، وعبر بعض منهم على الجاموس أو البقر، فى حين عبر أناس غيرهم على أعواد من القصب مربوطة إلى بعضها البعض على هيئة حزم كبيرة. تشكل المناطق الصغيرة من الأرض التى تعلو فوق سطح الماء عددًا كبيرًا من الأماكن التى لجأ إليها هؤلاء اللاجئين المساكين فأضحت مزدحمة بالناس والحيوانات (انظر اللوحة رقم ٢٦). وكانت موارد الغذاء الهزيلة التى استطاعوا إنقاذها هى وسيلة الإعاشة الوحيدة التى يمكن أن نتوقعها. لم تترك المياه أو كادت فى بعض المناطق أية أرض جافة، ولم يكن هناك من أمل فى الإنقاذ إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة. فعل الكَشَفة والقائمقامات فى البلاد كل ما فى وسعهم لمساعدة القرى بالمراكب الصغيرة، لكنها مراكب صغيرة

للغاية بالنسبة لما هو مطلوب، ولم يستطع هؤلاء إنقاذ السواد الأعظم من الناس البؤساء، ومن المثير للأسى رؤية هؤلاء المساكين البؤساء فى مثل هذا الموقف. كان اقترابنا منهم بمركبنا الصغير مصدر خطر على كلٍ منهم وعلينا لأن أعداداً كبيرة منهم سيصعدون على ظهره على الفور مما يعرض المركب للغرق وهم على ظهره مما يزيد عدد الغرقى. وحينما وصلنا إلى إرمنت حيث الأرض فيها مرتفعة جداً لحسن الحظ، ووجدنا الكثير من أهالى المنطقة المجاورة مجتمعين فوق هذه الأرض. رسونا على الفور واستخدمنا مركبنا لنقل الناس من القرية المقابلة. انطلق القائمقام بنفسه فى مركب آخر وعاد فى بحر ساعة ومعه الكثير من الرجال والصبيان. ثمَّ أرسل المراكب مرة أخرى، وعادت المراكب محملة بالرجال والقمح والماشية. جاءت المراكب فى المرة الثالثة بالمزيد من القمح والجاموس والغنم والماعز والحمير والكلاب. لاحظت أن تلك القرية لا نساء فيها، لكننا سرعان ما اقتنعنا بالاحترام والاعتبار الذى يولونه للجنس اللطيف فى تلك البلاد. وفى المرة الرابعة سارت المراكب حتى تأتى بالنساء باعتبارها آخر ممتلكاتهم وأقلها أهمية مما يجعل ضياعها أقل شأناً من ضياع الماشية. وأتمنى من خلال هذه الواقعة أن تقتنع نساء أوروبا بتفوقنا على الأتراك والعرب على الأقل من ناحية الاحترام الواجب لهن.

يقول هؤلاء الناس إن النساء لا أرواح لهن، ولا يمكننا أن نتوقع وجود الروح فى مثل تلك المخلوقات الضعيفة بعد المعاملة الوحشية القاسية التى يُعاملون بها.

فى يوم الثامن عشر وصلنا إلى إسنا. كان خليل بك فى القاهرة حتى يتولى مديرية بنى سويف، وأصبح إبراهيم بك الآن حاكماً على إسنا. استقبلنا الرجل بحفاوة وترحيب غير عاديين، كما منحنا فرماناً إلى الكاشف الذى يتولى مديرية إدفو. ولدى عودتنا إلى المركب وجدنا بعض الخبز والخضراوات وخروفاً أرسلها البك، فرددنا له الهدية بندقية إنجليزية فاخرة وبعض البارود. أرسل البك إلينا بناء على رغبتنا أحد الجنود لمصاحبتنا حيثما ذهبنا، لكنه أصدر أوامر مشددة بعدم أخذ أى زمرد من المناجم، ورغم أنه أكثر الأتراك الذين رأيتهم فى حياتى تحضراً وأدباً، فإنه لم يستطع

أن يمنع نفسه من الاعتقاد بأننا لن نذهب إلى تلك الصحارى لمجرد رؤية الجبال والرمال. وتخيل أننا إذا وصلنا حيث توجد المناجم، فإن ذلك يعنى أننا لابد أن نأخذ شيئًا من الزمرد وهو الشيء الذى سيلفت انتباهنا حسب تصوره. وانطلقنا فى اليوم التالى، ووصلنا إلى جزيرة حفاصى Hovasee قبل إدفو.

كان الوقت متأخراً بعض الشيء عند المساء حينما اقتربنا من السدود التى أحاطت بالقرية لحجز المياه عنها، وحذرنا الفلاحين كثيراً حتى جاءوا جميعًا إلى البقعة التى كنا فيها، وذلك حتى يخلوا لنا طريقًا نسير منه إلى مكان لا يشكل خطورة على السد، وظلوا يراقبوننا مراقبة شديدة طوال الليل. كانوا على حق ولاشك، فلو أن المركب اصطدم بالسد لأحدث به ثغرة ولا ريب مما سيؤدى بالطبع إلى غرق القرية وسائر الأرض بمياه الفيضان.

وفى صباح يوم الحادى والعشرين، ذهبنا جميعًا إلى الكاشف الذى فعل كل ما فى وسعه حتى يأتينا بكل ما هو ضرورى، كما أرسل الكاشف إلى شيخ القبيلة التى تسكن الصحارى التى سنمر عليها واسمه عبادة. كان هذا الرجل رهينة مقابل أمن الرجال الذين عملوا فى المناجم بالقرب من البحر الأحمر. أجرينا ترتيباتنا بالنسبة للجمال وسائقيها ووجدنا الشروط معقولة للغاية لأننا سندفع قرش صاغ يوميًا عن كل جمل وعشرين بارة عن كل رجل سيوفرون منها الطعام لأنفسهم وحيواناتهم. اتفقنا فيما بيننا على أن تظل الإبل معنا حسبما نشاء للذهاب عليها إلى أى مكان نراه مناسبًا. عبرنا قسمًا من الجزيرة على ظهر المركب لارتفاع منسوب المياه بأربع أقدام فوق ضفاف النهر، ورسونا على الشاطئ عند الناحية الشرقية من البر الرئيسى. قابلنا عند وصولنا محمد أغا ريس عمال المناجم، الذى وصل لتوه من جبال الزمرد، وكان فى طريق عودته إلى إسنا. بدا الرجل مهتمًا بذهابنا إلى هناك لدرجة أنه كان سيقنعنا بكل سرور بالانتظار لحين عودته حتى يصحبنا فى رحلتنا لعدم قدرة أى شخص على الذهاب إلى هذا المكان بدونه. فأخبرناه بألا يشعر بالانزعاج لأننا لن نذهب إلى هناك بحثًا عن الأحجار الكريمة بل عن الآثار. وبدا أن هذا لم يُرْضِهِ، وقال إنه سيعود مرة

أخرى فى القريب العاجل. وظللنا بقية اليوم فى انتظار إعداد السائقين للخبز الذى سيأخذونه معهم فى رحلتهم.

فى صباح يوم الثانى والعشرين لم تَبْدُ لنا أى بادرة للرحيل. لفت انتباهى هذا التغير المفاجئ الذى طرأ على الشيخ منذ أن رأى ريس عمال المناجم، وبدأت أظن أن تأثيره ما زال مسيطراً على الشيخ حتى يعوق حركتنا بقدر ما يستطيع على الأقل. اقترح عامل المناجم علينا أن ننتظر عند البقايا المتهدمة لأحد المعابد لمدة يومين تقريباً أثناء رحلتنا لحين عودته، وقابلنا اقتراحه هذا ولاشك بالرفض. رأيت رأى العين انزعاجه الشديد من ذهابنا خوفًا من قيامنا ببعض أعمال الكشف بين المعادن، ولم تجدِ معه كل محاولاتنا لتأكيد عكس اعتقاده. وصممنا على الرحيل فى ذلك اليوم، وبالفعل انطلقنا فى نفس المساء.

زادت صحبتنا بانضمام أحد الجنود من إسنا وأربعة من سائقى الإبل وشيخ ليدلنا على الطريق ليصل العدد إجمالاً إلى اثنى عشر رجلاً. كان لدينا ستة عشر جملاً، ستة منها محملة بالطعام والماء وآنية الطهى. وأنخنا الإبل عند سفح أحد التلال على بعد ثلاث ساعات.

شرعنا فى المسير فى صباح يوم الثالث والعشرين فى وقت مبكر، ووصلنا إلى البئر الأولى بعد مرور ثلاث ساعات. وهنا أخبرنا سائقو الإبل أنهم لن يستطيعوا التقدم حتى ينضم إلينا الشيخ إبراهيم الذى سيأتى بالمزيد من الغذاء للإبل. ظللنا فى انتظاره لمدة يوم كامل حتى نفد الصبر دون أن يظهر أى أحد. أفضى بنا الوادى الذى دخلناه إلى طريق معبدة لا بأس بها حتى وصلنا إلى سفح الجبل الذى يبعد حوالى خمسة عشر ميلاً عن النيل، وجلسنا تحت شجرة سنط جافة تبعد قليلاً عن أحد الآبار الصغيرة. وظلت الرياح الحارة المثيرة للرمال تهب طوال اليوم. وجاء نفر من العبابدة لسقى ماشيتهم عند البئر، لكنهم بقوا مبتعدين عنا. يعيش العبابدة متفرقين بين الصخور والأودية الصغيرة بين الجبال، لكنهم يجتمعون بين الحين والآخر لبضع دقائق. من الحماقة بل والخطورة المرور بهذا المكان دون التوصل إلى اتفاق تفاهم على

منح الأمان مع شيخهم. فلما رأينا أن الدليل لم يصل إلينا فى المساء، أرسلنا أحد السائقين إلى الشيخ طالبين منه إرسال الرجل على وجه السرعة وإلا سنضطر للعودة والتقدم بشكوى للكاشف لو لم يأتِ الرجل معنا مع شروق الشمس.

وأخيراً، وفى الصباح التالى ليوم الرابع والعشرين ظهر الرجل وانطلقنا فى الرحلة فى وقت مبكر إلى حد ما. أوصلنا الوادى الذى دخلناه الآن إلى طريق معبدة جداً لا بأس بها. ووجدنا فى هذه الطريق العديد من أشجار السنط والجميز بالإضافة إلى وجود النبات الشوكى المسمى باسيلاً Basillah فى الكثير من الأماكن، وتظهر صورة هذا النبات فى اللوحة رقم (٣٦). وتتغذى الإبل على هذا النبات الذى يتسم باللون الأخضر عند حلول موسم معين من السنة، أظن أنه الربيع، لكنه سرعان ما يجف ويتخذ ولا جدال لون القش. يحمل النبات ثمرة صغيرة بحجم حبة البازلاء لكنها مجوفة من الداخل. وتشبه ساق ذلك النبات سيقان نبات الأسَل أو البوط ولا تنمو الساق أكثر من ثلاث أقدام. وكلما مضينا فى المسير، يضيق الوادى أكثر وتزداد الأشجار كثافة فى بعض الأماكن، لكن كثافتها تتضاءل حتى لا نرى أى أشجار فى النهاية. لفت انتباهى وجود آثار عمران عند الناحية اليمنى من الوادى أثناء سيرنا فيه وكان ذلك بمثابة موقف للقوافل القديمة القادمة من النيل إلى مدينة برنيس، ووجدنا بعد ذلك العديد من هذه المواقف أو الاستراحات على الطريق على مسافات منتظمة حتى تتوقف فيها القوافل للراحة ليلاً. رأينا بأعيننا آبار الماء العذب فى بعض الاستراحات أو المواقف، إلا أنها الآن مردومة عن آخرها. وكلما تقدمنا فى السير، رأينا أن الجبال تقترب من بعضها البعض حتى تحول الوادى إلى ما يشبه الطريق الواسع. وأفضى بنا أحد الممرات الضيقة والمرتفعة بين الجبال الذى مررنا منه إلى سهل واسع. هنا تمتد الجبال التى تقع إلى اليمين نحو الجنوب، وتعود بعد دائرة كبيرة لتشكل وادياً مع الجبال الممتدة من جهة اليسار. وتقع إحدى الصخور المرتفعة عند مدخل هذا الوادى، ويقف أحد المعابد المصرية القديمة الصغيرة إلى اليسار من هذا الوادى. توجهنا بمسار الرحلة الآن إلى هذا المعبد، ووصلنا بعد ست ساعات منذ انطلاقنا من عند البئر فى الصباح.

عند اقترابنا من المعبد تملكنا قدر كبير من السعادة لرؤيته، ويتصف هذا المعبد بصغر الحجم كما يتضح من خلال اللوحة رقم (٣٠). وتظهر الخريطة فى اللوحة رقم (٣٣) رقم (٣). يتكون الرواق البارز من الصخر من أربعة أعمدة اثنان منها فى الواجهة واثنان فى المنتصف. يزدان المعبد بالرسوم المصرية القديمة المحفورة بالحفر الغائر التى ما زال بعضها محتفظًا بألوانه بدرجة كبيرة. هذه الرسوم بالحجم الطبيعى، كما أنها ليست أسوأ ما صممه الفنان المصرى القديم. توجد فى حرم المعبد المقطوع فى الصخر أربعة أعمدة، وفى نهايتها ثلاث حجرات بالإضافة إلى حجرتين أخريين تقعان على الجانبين، كما ترى فى زوايا الجدران الجانبية رسومات ونقوشًا هيروغليفية محفورة بأسلوب لا بأس به. لاحظنا على أحد الأعمدة كتابة منقوشة باللغة اليونانية، ولم أنسخها أنا لأن مستر بيتشى تولى هذا الجهد بنفسه[5]. ورسمت أنا المنظر الخارجى للمعبد حجرًا حجرًا. يتصل عمودا الواجهة بجوانب رواق الأعمدة عن طريق حائط يبلغ ارتفاعه ثلثى ارتفاع الأعمدة. هناك بالقرب من المعبد آثار أرض مسوَّرة لاشك أنها كانت موقفًا للقوافل، لكنه مختلف تمام الاختلاف عن أى من المواقف أو الاستراحات التى وجدنها على طول الطريق إلى برنيس. ويتكون الموقف من حائط، ويمكن مشاهدة شكل هذا الحائط وارتفاعه فى اللوحة (٣٣) رقم (٤). بنيت هذه الاستراحة على يد اليونانيين، ويصل ارتفاع الحائط إلى اثنى عشر قدمًا، ويضم العديد من المنازل داخله لإقامة المسافرين. هناك بئر فى منتصف هذه الأرض إلا أنها مردومة الآن بالرمال، وتحيط بها من كل النواحى منطقة واسعة أو أرض ترتفع عن سائر الأرض ست أقدام ويسير حولها حرس من الجنود من كل الجوانب. وعلى القسم الأعلى من الحائط فتحات لإطلاق السهام، وهى تشبه تلك الفتحات التى نراها فى المبانى القديمة فى أوروبا مخصصة لنفس الغرض. جوانب البوابات مبنية من الحجر الكلسى، أما الحائط فهو مبنى من قوالب الطوب. وفى تلك الأثناء اقتنعت بأن هذا

(٥) لن أستطيع إدراج الكتابة التى نسخها مستر بيتشى فى هذا الكتاب لأن ذلك الجنتلمان – للأسف – ساوره الشك عندما عاد إلى لندن فى مدى الدقة التى نسخ بها النقوش بما يصلح كمادة للنشر. [المؤلف]

الطريق لابد أن يؤدى إلى مكان ذى أهمية لأنه لا يخفى على أحد أن هذا الطريق كان ممراً مطروقًا للقوافل. ويطلق على المكان اسم وادى الميـة Wady el Meeah. وأظن أن بعض البطالمة هم الذين شيدوا هذا الصرح لحماية القوافل عند ازدهار التجارة مع الهند عن طريق برنيس والبحر الأحمر.

استأنفنا الرحلة فى تمام الساعة الثالثة صباح يوم الخامس والعشرين. لم نرَ أى أثر للحياة النباتية فى أى مكان من حولنا. كنا نمر أحيانًا بسهول واسعة ممهدة، وفى أحيان أخرى نمر بتلال شديدة الوعورة حتى قبيل غروب الشمس بساعتين حينما دخلنا الوادى الذى يسميه العرب وادى بيزاق Beezak. يمتد هذا الوادى من الشمال إلى الجنوب وتتناثر فيه أعداد من أشجار السنط هنا وهناك، وكذلك النباتات الشوكية الشائعة. توقفنا هنا لقضاء الليل، وفى أثناء الوقت الذى أعد فيه الطباخ طعام العشاء لنا، ذهبت أنا ومستر بيتشى لمشاهدة صخرة جرانيتية على بعد مسافة لأن العبابدة أخبرونا بوجود حجر سحرى هناك. دخلنا الوادى المتجه إلى الشمال، ولاحظت أن ذلك الوادى كان وفقًا لأرجح الاحتمالات طريقًا قديمًا لأن آثار أقدام الإبل ما زالت تترك علامات واضحة على الأرض. قلما يجد المرء رمالاً فى هذه الطرق، بل على العكس نجد إنها مغطاة بالحصى الصغير، ونظراً لكثرتها فى الطريق الذى كانت تمر منه الإبل، فإنها شكلت علامات قوية لا تزال تُرى حتى يومنا هذا، ويمكن اقتفاء أثر تلك العلامات على مدى مسافات طويلة فى تلك الأودية حتى نصل إلى المنطقة الرملية. وحينما وصلنا إلى الصخرة وجدناها من الجرانيت النقى على هيئة كتل كبيرة للغاية. وتوجد على أحد جوانب الصخرة العديد من الرسومات المقطوعة على الحجر التى لا يمكن النظر إليها إلا باعتبارها تقليداً للرسومات المصرية القديمة. وهذه الرسومات ليست إلا شخبطة سريعة لفنان متوسط الموهبة، لا شكل لها ولا منظر، لكنها إلى جانب طرق الإبل كافية لأن تشير إلى أن الوادى كان طريقًا مرتفعًا يمكن الاستدلال من اتجاهه أنه كان يصل من قِفْط إلى برنيس، وهو الأمر الذى وصفه دانفييه خير وصف. فى هذا المكان أصيب الطبيب مستر ريتشى Mr. Ricci بوعكة صحية شديدة رأينا على إثرها ضرورة عودته فى صباح اليوم التالى لأن المرض سيشتد عليه لو استمر فى السير معنا فى الصحراء.

وفى صباح يوم السادس والعشرين، انقسمت قافلتنا ثلاثة أقسام، أرسلنا الأمتعة والطعام فى الطريق المتجه إلى الشرق، وهو الطريق الذى نعتزم سلوكه، وعاد الطبيب فى اتجاه النيل غربًا، بينما ذهبت أنا ومستر بيتشى فى الاتجاه الجنوب الشرقى حتى نشاهد ما ذكرته لنا قبيلة العبابدة رغم أننا لم نستطع أن نتبين معنى ما أخبرونا به. وَلجَنا واديًا رمليًا ترتفع الصخور على جانبك بشكل عمودى تقريبًا، وهى من الصخور الرملية البيضاء والكلسية التى تختلط بها بعض عروق الرخام الأبيض. وصلنا بعد بضع ساعات من السير إلى مكان يطلق عليه اسم إسْمَنت حيث وجدنا آثار أحد المواقف أو الاستراحات القديمة التى يبدو من موضعها أنها كانت على الطريق من برنيس إلى قفط.

يتكون هذا الموقف من أجزاء متعددة من الجدران هى كل ما تبقى منه بالإضافة إلى بئر فى قلب الاستراحة (انظر لوحة ٣٢، رقم ٥). بنيت الحوائط من الحجارة غير المصقولة وبلا ملاط.

سلكنا الطريق إلى الشرق عبر العديد من الأودية رائعة الجمال والرومانسية إن جاز التعبير. كانت التربة رملية وصخرية إلا أن هذا لم يمنع النباتات الشوكية من النمو لتتغذى عليها الماشية إلى جانب الكثير والكثير من أشجار السنط التى تكون غابات كاملة فى بعض المناطق. تتميز الصخور على الجانبين بأنها ذات ألوان شتى بما يشبه لوحة تظهر بها أبدع المناظر الطبيعية وأكثرها تميزًا. ربما وجد مَنْ يريد الانعزال عن العالم فى هذه البرارى ملاذًا ساحرًا خلابًا لولا الحاجة إلى الماء وكل ما هو ضرورى لبقاء الإنسان على قيد الحياة، ناهيك عن حرارة الشمس الشديدة التى ترتفع فى الأيام العادية ارتفاعًا كبيرًا لا يطاق فى هذه الأودية. سرنا إلى الأمام ووصلنا بعد ثلاث ساعات إلى قمة رأينا من فوقها على بُعدٍ ما ظهر لنا من أسوار مدينة كبيرة وواسعة الأرجاء، وتحيط بها صخور عالية كأنها الحصن المنيع لها. رأينا عند اقترابنا سهلاً رمليًا مترامى الأطراف تبرز فيه العديد من المرتفعات الجرانيتية الصغيرة، وتبرز الصخور من على بُعدٍ من بعضها البعض، فظهرت لنا كأرخبيل من الجزر الكثيرة

والصغيرة. فلو كانت هذه الرمال ماء ما استطعت التمييز بين هذه البقعة وبين قلب الشلال، وأعنى المنطقة ما بين جنوبى ساين Syene وجزيرة فيلة. مررت بهذا المكان كما لو كان عبوراً للشلال مع الفارق الوحيد وهو أن معى جملاً وليس مركبًا، كما بدت لى الصخور الجرانيتية أفضل مادةً من صخور الشلال حتى اقتربنا من مناطق الحجر أو المرمر السُّماقى(٦). وإذ لم يستفد القدماء أى استفادة من هذا الحجر؛ فلاشك إذًا من صعوبة نقل هذا الحجر إلى النيل.

رحلنا من هذا المكان إلى جهة الشِمال نحو الوادى حيث عُقدت النية على التوقف. ووصلت قافلتنا إلى المكان قبلنا بساعة رغم أننا أسرعنا المسير إلى هناك. وجدنا هنا بئرين أحدهما ذات ماء مالح والأخرى ماؤها آسن غير عذب. قليلٌ هى الأنهار فى العالم التى يتميز الماء فيها بأنه أفضل من ماء النيل، وها نحن أُولاءِ مضطرون الآن لشرب أسوأ المياه، فيا له من تغيير فى يوم واحد لم نستطع تحمل تبعاته. أصيب مستر بيتشى بالإعياء الشديد نتيجة الشرب من البئر الأولى مما أصابنا بالخوف والقلق الشديدين من البئر الأخرى التى كانت أسوأ من الأولى حالاً. كان معنا من الطعام ما يكفينا لمدة شهر غير أن اللحم الطازج نفد، وحصلنا على ماعز هزيل للغاية بصعوبة بالغة. تنتمى القبائل فى هذه البلاد كلها إلى قبيلة العبابدة التى تمتد من حدود السويس إلى قبيلة البِشارية على ساحل البحر الأحمر تحت خط عرض ٢٣ْ. ويظهر من أخلاق وعادات هذا العرق البشرى أنهم عاشقون للحرية، فهم يفضلون العيش بين أحضان الصخور والصحارى المنعزلة لا يأكلون شيئًا سوى الذرة ولا يشربون إلا الماء بدلاً من الخضوع لسلطة أية حكومة على وجه الأرض. ويوم أن يقرروا ذبح إحدى الماعز الهزيلة، فهذا بالنسبة لهم يوم عيد واحتفال، لكنهم يأكلونه دون خوف أن تمتد إليه يد السلب والنهب لتختطفه من بين أيديهم. إن رجلاً بهذه الطباع سيجد نفسه – فى ظل اعتياده على الحرية والاستقلال – كالسجين إذا خضع للسيطرة تحت حكم

(٦) الحجر السماقى أو المرمر السماقى porphyry: نوع من الصخور الصلدة استخرجته المصريون القدماء من محاجرهم، ويتكون هذا الصخر من بلورات بيضاء أو حمراء فى قالب أحمر. [المترجم]

أفضل الحكومات. ويولى هؤلاء أقصى رعاية وعناية للإبل التى هى السند بالنسبة لهم وهم يربون الإبل حتى تصل إلى سن معينة ثم يرسلونها بعد ذلك لمقايضتها بالذرة التى يتكون منها غذاؤهم. تقتات الإبل وغيرها من الحيوانات الأخرى على النباتات الشوكية الشائعة التى تجدها أكثر النباتات توفراً فى تلك البلاد. ويكدُّ بعض أفراد قبيلة العبابدة فى العمل فى قطع الأخشاب ليصنعوا منه الفحم النباتى الذى يرسلونه إلى النيل محملاً على الجمال لمقايضته بالذرة والشحم وقماش الخيام. إلا أن عدداً قليلاً منهم هم الذين يضطلعون بمثل هذا العمل لأنهم يحبون العيش فى راحة وخلو بال. شرب الشيشة بالنسبة لهم من الترف، كما يجدون لقطعة من شحم الضأن النيئ مذاقًا لا يعلى عليه. وهم جميعًا عراة تقريبًا ويتصفون بصغر البنية وسوء المنظر. كما يتسم هؤلاء بحلاوة العينين ولاسيما النساء منهن حسبما تمكننا من رؤيته من هؤلاء النسوة اللاتى أتين إلى الآبار. وتحتجب النساء المتزوجات منهن، بينما تظل غير المتزوجات بغير حجاب[7]. أما أغطية الرأس فهى شديدة الغرابة. وتفخر بعض النسوة بطول شعرهن الذى يصل إلى أسفل آذانهن ويتشكل على هيئة لفات أو جدائل متشابكة يستحيل أن يمر أى مشط من خلالها؛ لذا لا تستخدم النساء الأمشاط على الإطلاق. وإذا ذبح هؤلاء الناس خروفًا ينعم بأى مقدار من الشحم – وهو الأمر الذى يندر وجوده ندرة شديدة – فإن النساء يدهنَّ رؤوسهن كلها من هذا الشحم ويتركنه قطعًا صغيرة لتذوب مع حرارة الشمس، ويبدين بهذا كمن يضعن البودرة على رؤوسهن، ويظل الشحم هكذا لعدة أيام حتى تذيبه أشعة الشمس كاملاً وتصدر منهن رائحة نفاذة لا تخطئها الأنف السليمة. تغطى النسوة رؤوسهن لمدة طويلة نظراً لشدة تموج وتجعد شعورهن، وحتى لا يزعجنَّ الماشطة حينما يشعرون بالحكة فى رؤوسهن، فإنهن يمسكن بقطعة من الخشب أشبه بالمِبرة[8] ليحككن بها أنفسهن بسهولة ويسر دون أن

(٧) لم يوضح بلزونى نوع هذا الحجاب عند نساء البادية المصرية فى عهد محمد على، أيقصد "غطاء الرأس" فحسب، أم "تغطية الجسم كله"، أم أن عدم التحديد هذا جاء متعمداً من كاتب قدير مثل بلزونى؟! إن اللفظة التى أتى بها وهى cover تعنى أنهن ببساطة "يغطين أنفسهن"، لكنها كلمة ليس فيها أى من الظلال الكثيفة لكلمة "الحجاب" فى العربية. [المترجم]

(٨) المِبرة packing needle: إبرة كبيرة تخاط بها الأكياس. [المترجم]

يختل وضع الحجاب الذى يَعْتَزِزْن به اعتزازًا كبيرًا فوق رؤوسهن. ويشبه لون جلد هؤلاء الناس لون الشيكولاته داكنة اللون، بينما يتميز شعرهم بلونه الأسود الفاحم، أما أسنانهم فهى حادة بيضاء بارزة وكبيرة للغاية.

كانت المنطقة التى يوجد فيها البئر الذى توقفنا عنده أشبه بمدرج مسرح من الصخور تقع الأشجار فى منتصفه. وفى الشتاء يتجمع كل أفراد قبيلة العبابدة المتفرقون فى الجبال فى هذا المكان، وتعقد فيه أيضًا مراسم الزواج. دائمًا ما يتم الزواج بعد إجراء المراسم اللازمة، فعلى العريس أولاً إرسال جمل إلى والد الفتاة، فإذا قبلوا منه الجمل، فإنه يتقدم لخطبتها شخصيًا فى حضور رجل واحد كشاهد. وبعدما توافق الفتاة، يتحدد موعد يوم الزفاف، ولا يرى العريس عروسه قبل هذا اليوم بسبعة أيام. وفى اليوم الثامن، تُعْرَض له العروس فى خيمة والدها. وتحتفل القبيلة بهذا اليوم بذبح عدد من الخراف الهزيلة ويعقد سباقات الهجن أو الإبل. وفى اليوم التالى ينتقل الزوجان السعيدان إلى خيمة العريس. وحينما يضيق الرجل ذرعًا بزوجته، فإنه يعيدها ثانية على نفس الجمل الذى أرسله من قبل إلى أبكا لأنه ملك لها منذ بداية الزواج. ولا يجوز لأم العروس أن تتفوه بكلمة واحدة للعريس طيلة حياتها، ويهدف هذا العرف إلى منع الأم من إفساد ما بين الزوجين الشابين من علاقة، وهو الأمر الذى نأمل أن يستفاد منه فى حال تطبيقه فى بعض البلدان الأوروبية.

لم تمطر السماء على هذه المنطقة منذ ثلاث سنوات إلى الآن مما أدى إلى الندرة فى النباتات الشوكية؛ وهذا هو السبب، كما أخبرونا، وراء هزال خرافهم وضآلة أحجامها. اضطررنا للتوقف طوال اليوم عند البئر لعمل الترتيبات لرحلتنا ولشراء بعض الخراف. صار الماء أكثر حلاوة بعدما تمكننا من غليانه، كما تناهى إلى علمنا أن الماء فى البئر الثانية لم يكن حلوًا كالماء فى الأولى. أسِنَ ماء النيل الذى جلبناه معنا بعد يومين، ووضعناه فى قِرَب تسمى "هدرى" hudry.

سوف أتناول قبل أن أغادر هذا المكان بمزيد من التفصيل عادات هؤلاء الناس وتقاليدهم. فحينما يولد طفل، فإن والده يذبح خروفًا فى اليوم التالى، ويطلق عليه

اسمًا. وحينما يصابون بالمرض، فإنهم يقولون "هو الله الكريم" ويرقدون فى الفراش حتى تتحسن حالهم، أو يلقون حتفهم. قابلت رجالاً شيوخًا لا يعرفون عمرهم أو لا يستطيعون تحديده ذلك أنهم لا يحتفظون بأى سجل لتلك الأشياء، لكن مظهرهم يؤكد أنهم فى سن التسعين من عمرهم. فإذا توفى أى أحد منهم، فإنهم يحفرون حفرة فى الأرض ليضعوا الجثة فيها، ويُدفن الرجل فى أغلب الأحيان فى نفس البقعة التى مات فيها، ثم يزحزحون خيامهم بعدها قليلاً. ولا يتزاوج هؤلاء الناس أبدًا إلا من بعضهم البعض. ،نفق أن إحدى الفتيات رفضت الزواج بأحد الكَشَفَة الأتراك رغم فقر حالها كسائر أفراد القبيلة. وحاول الكاشف اللجوء إلى القوة، وكانت النتيجة تجمع عدد منهم يزيد عن ثلثمائة فرد؛ وانسحب الرجل بحكمة تاركًا عروسه التى خطبها كى تتزوج من ابن عمها. وأظهر هؤلاء القوم درايتهم بأسلوب حياتهم المتسم بالهمجية، لكنهم سيظلون على نفس السلوك رغبة فى الحرية، فقد كتبوا إلى البك فى إسنا أنهم راضون بالعيش فى تلك الحالة من الهمجية كما كان الحال مع آبائهم وأجدادهم حتى يتحرروا من الطغيان والاستبداد، وأنهم سيمتنعون عن إثارة المشاكل إذا تركوا وشأنهم، فهم على العكس يفضلون الموت دون حريتهم.

أتى بعض من هؤلاء الهمج كما يطلق عليهم إلى البئر فى أثناء النهار، ولما رأوا أننا مسالمون وغير مثيرين للمشاكل، قرروا الاقتراب منا باقتناع من سائقينا. ولم يغادر إلا قليل منهم بلاده حتى نهر النيل لشراء الذرة، ويعتبر هؤلاء بينهم رجال علم ومعرفة، لكن السواد الأعظم منهم لم يغادر الجبال قط. فها هو واحد منهم لا يعرف ما هو قشر الليمون لما رأى قطعة منه ملقاة على الأرض، وهذا آخر ذهب إلى النيل من قبل، فأخذ قشرة الليمون وأكلها بكل ثقة حتى يظهر لصاحبه علمه ببواطن الأمور. أعطيناهم قطعة من السكر غير المجروش، فأكلوها وأخبرونا أننا ولاشك من وادٍ أفضل من واديهم ذلك لما ينتجه ذلك الوادى من خبز فاخر حلو الطعم. وعندما يشترون الذرة فإنهم عادةً ما يطحنونها بالطاحونة اليدوية الشائعة فى القرية التى يشترون الذرة منها ويأخذون الدقيق بعد ذلك إلى الصحراء. يخبز هؤلاء الناس الخبز تحت الرماد، ويأخذ الرغيف شكل الكعكة الكبيرة لكن بلا خميرة أو ملح. أما أعداؤهم الألداء فهم قبيلتا

المَحْس وبنوسى Banousy اللتـان تسـتـوطنان المنطقـة مـا بين السـويس إلى بـاطن الجزيرة العربيـة وحـدود الشـام. نشبت بين هذه القبـائل الكثـيـر من المعـارك، إلا أن الظاهر أن أحـداً منهم لم يتـقدم إلى أبعـد من حدوده القـديمـة، كمـا كانوا أيضـًا على خلاف مع قبيلة البشاريَّة فى الجنوب، لكنهم الآن فى حالة سلام مع كل هذه القبائل.

أما أسلحتهم فهى الرمـاح بصفة أساسية والسـيوف أو السكاكين الطويلة عتيقة الطراز، الضـيقـة من عند المقـبض والواسـعـة من عند السن. ولا يملكون من الأسلحـة النارية إلا أقل القليل، وتلك الأسلحــة من الطـراز القـديم ذات الفـتـيل بدلاً من الزناد. أفضت الحياة الخشنة على الدوام بهم إلى الاعتيـاد على أكل اللحم نيئًا وعلى مواجهة الصعاب فى الصحراء دون أدنى اكتراث. فقد رأيتهم عن كثبٍ لمدة أربع وعشرين ساعة بلا شـرب، ولديهم المقـدرة على المشى ليل نهـار فى أكثـر فـصـول السنة حـرارة. وهم ليسـوا مـتدينين كالـعرب فى وادى النيل، وقلمـا شـاهدت أحـداً منهم يؤدى الصلوات. أدركت من الحـرص الشديد الذى لحظته على الدليل أثناء سيرنا فى الصـحراء ضرورة أن نطلعهم على الحمـاية التى حصلنا عليها من شيخـهم، وبذلك تمكنَّا بتصـريح منه من السير بينهم وحدنا وبدون حامية من العساكر. وبدا لى أنهم كانوا شديدى السـخط على الجنود الذين أُرسلوا من وقت قـريب إلى جـبالهم بحـثًـا عن الزمرد، ولولا الخطر الذى يتهدد شيخـهم من الأتراك الذين يضـعـون أملاكه وحياته فى أيديهم، لما أبقوا أحدًا منهم إلا وطردوه من الجبال خـاصة أن عمـال المناجم كانوا مجموعة من الرجال المستـهترين بالأخلاق الذين أسـاءوا إليـهم أشد الإسـاءة، فهاجمـوا خيـامهم مراراً وارتكبوا أعمـال السلب والنهب وأهانوا نسـاءهـم، وهو الأمر الذى شكا منه العبابدة كثيراً.

استأنفنا الرحلة فـى الصبـاح الباكر من يوم الثـامن والعشـرين، ومررنا بكثير من الأودية الصخرية. لم يكن الطريق ممهداً كما كان الحـال من قبل، لكنه مـلائم تمامًا لأى حصـان حتى يركض فيـه. وليس فى هذا المكان مـا هو مـثـير للاهتمـام عدا السـهول الرمليـة الواسـعة والجبـال المرتفـعة أمـامنا. ووصلنا فى المسـاء عند بقـعة تسـمى باسم الجرف.

وفى يوم التاسع والعشرين اجتزنا العديد من الأودية التى تبعث على السرور فى النفس، وتتكون الجبال المحيطة بها جميعًا من الأحجار الصلدة التى يزينها بأبدع الألوان الرخام بشتى ألوانه.

وفى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر بدا لنا البحر الأحمر من على بُعد، ودخلنا فى نطاق منطقة جبلية وتوقفنا عند مكان يسمى الوعل Owell أو مكان الوعل.

وفى يوم الثلاثين استأنفنا الرحلة مبكرًا، وتوجهنا بمسارنا جهة الجنوب والجنوب الغربى، ومررنا بالعديد من الأودية نحو أحد الجبال شاهقة الارتفاع يسمى بجبل زبارة وهو الاسم الذى أطلق عليه نتيجة للزمرد الذى عُثِرَ عليه هناك. وعند سفح هذا الجبل أقام حوالى خمسين رجلاً معسكرًا للعمل فى مناجم القدماء العتيقة أملاً فى العثور على بعض من الأحجار الكريمة، لكن من الواضح أن أسلافهم من العمال أعملوا البحث جيدًا فى المنطقة قبل مغادرة أماكن العمل. ويصل إمداد هؤلاء التعساء والبؤساء بالطعام من النيل، ولا يصل الطعام أحيانًا فى الوقت المناسب؛ مما يؤدى بالطبع لشيوع المجاعات الكبرى بينهم. كان هناك بئران صغيران لا يبعدان عنا مسافة نصف يوم، ويتميز أحدهما بجودة الماء فيه إلى حد ما. بدأ عمل هؤلاء العمال منذ حوالى ستة أشهر، إلا أنه باء بالفشل. امتلأت مناجم القدماء أو آثارهم عن آخرها بالقمامة والركام من الجزء العلوى الذى تساقط عليها، وكان العمل على إزالة هذه القمامة جهدًا كبيرًا لصغر الفتحات صغرًا متناهيًا لا يكاد يسمح بمرور جسم رجل زحفًا على بطنه كالحرباء. كانوا جميعًا غاية فى الإرهاق بسبب هذا الوضع، ولعنوا الشخص المتسبب فى عملهم فى هذه الصحارى محرومين من كل ضروريات الحياة المتعارف عليها. ثار هؤلاء العمال عدة مرات ضد رؤسائهم فى العمل، وقُتِلَ اثنان منهم فى الحال. وفى اليوم الذى كنا فيه هناك سقط أحد هؤلاء المساكين البؤساء ضحية نوازع الجشع والطمع لدى رؤسائهم ذوى النفوذ والقوة لسقوط جزء من السقف على الرجل أثناء دخوله فى إحدى الفتحات، ولم يُؤَدِّ سقوط السقف إلى إغلاق طريق الرجعة أمامه فحسب، بل كاد أن يودى بحياته على الفور. ولحسن الحظ خرج الرجل حيًا من

بين الأنقاض، إلا أن هذا لم يشجع الباقين كثيراً على الاستمرار. تمكنًا بقدر المستطاع من الحصول على كل المعلومات عن رحلتنا الاستكشافية ووصلنا عنها أخبار سارة للغاية بالإضافة إلى المزيد من الأمل بخصوص المدينة القديمة موضع التساؤل التى تبعد عنا - وفقًا لرواية هؤلاء الناس - حوالى ست ساعات جنوبيًا، كما تقع عين أو ينبوع ماء بعد مسافة ست ساعات أخرى. ولا يبعد البحر سوى مسافة ست ساعات فقط من المدينة التى كنا نأمل أن ننعم بإلقاء النظر عليها قبل حلول الظلام. ذهبنا لرؤية المدخل المؤدى إلى المناجم، وكانت تلك المناجم شيئًا أشبه بالمقابر الشائعة فى القرنة المقطوعة فى الصخر، إلا أننى لاحظت أن المداخل المؤدية إليها جاءت بشكل يسمح بتتبع عروق الطلق الأبيض أو الميكا[٩] والرخام، وتمتد هذه الممرات مسافة كبيرة داخل بطن الجبل حتى تصل إلى الزمرد.

هناك عدد كبير من المناجم فى كل أنحاء هذا الجبل، وتعطينا كمية الركام المستخرجة منها والمتناثرة هنا وهناك فكرةً عن آثار القدماء المثيرة للدهشة والعجب.

لم تَجْرِ عملية الكشف فى أى اتجاه منظم، ففى بعض الأحيان جرت الكشوف على سطح مائل بشتى الزوايا، وفى أحيان أخرى جاءت العمليات بصورة عمودية أو أفقية حسب امتداد الميكا. أخبرنى عمال المناجم أنهم كلما اقتربوا من المركز وابتعدوا عن المداخل، فإن طبقتى الرخام اللتان تضمان الميكا فيما بينهما تقتربان من بعضهما البعض حتى تلتقيا معًا فى النهاية، وهذه هى أكبر فرصة للعثور على الزمرد. لفت انتباهى أن عروق الرخام والميكا تتخذ مسارها نحو المركز حيث تتشكل تلال منفصلة من الصخور، ويبدا لى من المسافة التى تقطعها تلك العروق من المدخل إلى العمق أن المكان الذى عُثِرَ فيه على الزمرد لابد أن يكون قريبًا من منتصف التل بدرجة كبيرة، وأعنى هنا تحت أعلى نقطة من ذلك الارتفاع، وهو ما يميز أى تل عن الآخر. ولم يسعدنى الحظ برؤية الزمرد لأن هؤلاء الناس لم يعثروا على أى شىء منه طوال عمليات

(٩) الميكا أو الطلق الأبيض mica: هى واحدة من مجموعات معادن السليكات لها بنية ذات طبقات. [المترجم]

البحث التى قاموا بها، وعرض علينا ريس العمال بعض العينات القليلة من نوع ردىء للغاية من الزمرد، ولم يعثر أحد حتى تلك الفترة إلا على القوالب التى يفترض وجود الزمرد بها. لكنه كان مصمماً على بذل المزيد من الجهد، وتناهى إلى سمعى بعد ذلك ببضعة أشهر أنه نجح فى العثور على البعض منه، لكن بكميات قليلة. وأنا أرى أن هذه الأحجار تتمتع بجودة أقل أيضاً حسبما رأيته منها. يعانى الناس الذين يعيشون هناك من وضع سيئ للغاية، فأقرب المناطق العمرانية إلى النيل لا يمكن الوصول إليها فى مدة أقل من سبعة أيام براً عن طريق القوافل. ويعتمد هؤلاء اعتماداً كليًا على ما يأتيهم من موارد غذائية من إسنا، وأحيانًا ما تكون هذه الموارد شحيحة للغاية رغم أنها لا تتكون إلا من الخبز والأرز والعدس. ويحدث كثيراً – وفقًا لما يرويه هؤلاء الناس – أن يتأخر إمدادهم بالطعام لا لشىء سوى إهمال متعهدى توريد الطعام المسئولين عن إمدادهم بالموارد الغذائية. بالإضافة إلى ذلك، فإن لديهم مصدراً آخر من مصادر القلق والخوف، فهم يرون – ومعهم الحق فى ذلك – أن العبابدة لا يرغبون فى رؤيتهم فى الصحارى، فأقل ما يقال فى هذا الصدد المعاملة القاسية والوحشية التى عاملهم بها بعض عمال المناجم إلى جانب ترويعهم فى خيامهم وإهانة نسائهم كما سبقت الإشارة، مما جعلهم – أى عمال المناجم – فى خوف وترقب من العواقب.

كان أكبر الخوف من مهاجمة العبابدة لقافلة المؤن والطعام فى طريقها من النيل، وذلك لعدم وجود أى مخزون من الطعام معهم قبل وصول دفعة أخرى من المؤن، وهو الأمر الذى يتطلب أربعة عشر يوماً على الأقل، مما يعنى أنهم سيموتون جميعاً من الجوع. وأدت هذه الظروف إلى إحجام العمال عن العمل، وسارت العمليات ببطء شديد عندما كنا هناك.

وبعدما تمكننا من الاستعانة برجل كبير السن من الأهالى حتى يرشدنا إلى الآثار المتهدمة من مدينة برنيس التى نبحث عنها، حصلنا على كل المعلومات التى استطعنا جمعها من الناس ومن بعض عمال المناجم الذين كانوا فى نفس المكان الذى تواجد فيه مسيو كاليود من قبل. ولم تأت روايتهم متفقة مع ما رواه مسيو كاليود، لكننا

وضعنا فى الاعتبار أن هؤلاء الناس ما جاءوا إلا بحثًا عن المناجم، ولم يكترثوا كثيرًا لما تمتاز به العمارة القديمة من روعة وجمال أو الصروح الأثرية من شموخ وعظمة، وهى آثار أقل ما يقال عنها إنها مذهلة وفقًا لما نتوقع أن نراه.

أعددنا العدة للرحيل فى صباح اليوم التالى، وهو يوم الأول من أكتوبر، وأدركنا بعد أن قطعنا حوالى نصف ميل عدم وجود أى دليل أو مرشد معنا. فلم يكن معنا كلٌ من الرجل الذى جاء بنا من النيل والرجل العجوز الذى كان سيصحبنا فى طول البلاد وعرضها لرؤية المدينة وغيرها من الأماكن؛ واضطررنا بناء على ذلك للعودة بحثًا عنهما، وعثرنا عليهما مختبئين وراء صخرة وهما يتناجيان فيما بينهما بحديث سر. أخبرنا الرجلان أنهما كانا يبحثان عن أحد الخراف الذى سُرِقَ ليلاً، ولم يبقَ معنا شىء آخر نعيش عليه، وحينما قالا إنهما لم يستطيعا العثور عليه، انطلقنا صوب مدينة برنيس القديمة التى طالما اشتقنا للوصول إليها.

صار الطريق الآن بين الصخور العالية، وفى الأودية شديدة الضيق، لكنها أودية تمتاز بعدد كبير من الأشجار، وتتشعب الجبال فى بعض الأحيان لتكوِّن دوائر واسعة يبلغ اتساع الواحدة منها ميلاً أو ميلين. يوجد الخشب فى مثل هذه الأماكن بوفرة ويحصل عمال المناجم منها على ما يستخدمونه من أخشاب. أكثر النباتات شيوعًا فى هذه المنطقة أشجار السنط والنباتات الشوكية الشائعة، كما شاهدت على الأرض بين البقاع الرملية نبات الحنظل أو العلقم وغيره من الأشجار الصغيرة. واتجهنا صوب الجنوب الغربى، وبالتدريج نحو الغرب حتى وصلنا إلى الجانب الجنوبى من جبل زبارة وهو أعلى القمم بين جبال الزمرد. وهنا قادنا الرجل المسن إلى اتجاهات شتى خلال أماكن برية وصخرية وعرة لمدة سبع ساعات. أخبرنا أن المكان الذى نرغب فى رؤيته يقع على مقربة منا، لكن علينا أن نجتاز الممر المرتفع الملتف حول الجبل المسمى بجبل عراى Arraie. استأنفنا رحلتنا وصعدنا إلى ما يشبه الأخدود أو وادى أحد السيول وعلى جانبه شىء أشبه بالطريق أو الممر القديم. رأينا من فوق قمة الجبل سورًا كبيرًا بدا لنا كأنه يطل على الممر من كلا جانبى الجبل. وحينما وصلنا إلى قمة الطريق،

أنهكت قوى الإبل حتى أن بعضًا منها سقط فى الطريق من شدة التعب ورفعت الأحمال عن هذه الإبل حتى تتمكن من الصعود، واضطرت أقوى الإبل للعودة لتحمل معها أحمال الجمال الأخرى. ولم أرَ قط إبلاً تعانى مثل هذه المعاناة مثلما رأيت فى هذا الموقف. فالجمل لا يناسبه السير على طريق منحدرة ووعرة فوق جبل، وهو فى هذا كالحصان الذى لا يناسبه الركض فوق الرمال الناعمة فى الصحراء.

ومن فوق هذه القمة بدأنا نجول بأعيننا بحثًا عن مدينة برنيس التى نرغب فى الوصول إليها، لكن ومع الأسف بلا جدوى! لقد حلق بنا الخيال عاليًا بسبب ما رواه مسيو كاليود لدرجة أننى توقعت رؤية مدينة تتميز بأعمدتها العالية وبعض صروحها الأثرية ذات العمارة الشامخة أو آثار شىء من برج عالٍ هو بالنسبة لى بمثابة دليل للمنطقة أنوى أن أركض نحوه بمجرد أن تقع عينىّ عليه. ولم يقل حرص مستر بيتشى على رؤية المدينة عن حرصى على رؤيتها، كما تساوت آمالنا فى مشاهدة آثار الجمال والعظمة، وأجرينا ترتيباتنا لكيفية مواصلة الرحلة عندما نصل ووضعنا فى اعتبارنا أننا سوف نتوقف هنا لبضعة أيام بسبب نقص موارد الطعام معنا؛ ووزعنا الوقت على هذا الأساس. سيتولى مستر بيتشى رسم كل المبانى الأثرية والصروح والرسومات والصور الجميلة - إن وجدت - بالإضافة إلى المنحوتات والتماثيل والأعمدة وما إليها، وسأنطلق أنا بكل ما أوتيت من قوة نحو الآثار الواسعة انطلاق السهم لأرى من الأشياء ما يستحق اكتشافه أو العثور عليه وعمل القياسات لكل الصروح الأثرية الجميلة ورسم الخرائط والصور التوضيحية لكل حجر فى تلك المدينة العظيمة. كان هذا ما دار فى خاطرنا من خيال، والآن لنعد إلى أرض الواقع. توقعت أن أرى من على القمة التى كنا فوقها الآن منظر البحر من بعيد، بل ومنظر سهل فسيح واسع، فمن البديهى أن نتصور أن مدينة كبومبى[10] Pompeii يمكن بناؤها بين أحضان هذه

(١٠) بومبى Pompei: مدينة قديمة بإيطاليا، اختفت بعد ثوران بركان فيزوف عام ٧٩م. وظلت هذه المدينة مدفونة تحت بقايا الحمم والرماد البركانى والأحجار مئات السنين. ولما أعيد اكتشاف بومبى فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى عُرف الكثير عن تاريخها. وفى كل عام تعطى الاكتشافات فى المنطقة حول بومبى بعض المعلومات الإضافية عن الفن القديم والعمارة بها، مما مكن من التعرف على الحياة اليومية =

الجبال الموحشة دون وجود شبر واحد من الأرض الزراعية حولها. وأرجعت اختفاء المساحات الواسعة إلى المكان الذى كنا فيه، وخلصت إلى افتراض يقضى بأن نندهش بالمثل عندما نقلب بعض الصخور أمام أعيننا، إذ لن تتضاءل آمالى على الأقل. وما أن نزلنا حتى أخبرنا الرجل المسن بأننا سنرى عن قريب لونًا من ألوان"البالية". كما أخبرنا أننا سنرى قبل وصولنا إلى المدينة بعض الكهوف فى الجبال التى استنتجنا أنها مقابر سكان تلك المدينة متسعة الأرجاء وفقًا لما أملاه علينا خيالنا المحلق فى الفضاء. ومضينا بلا وعى لا تطرف لى عين عن أى من الصخور التى رأيتها أمامى أملاً فى تقرَّ عينى برؤية ما أريد بمجرد الالتفاف من الزاوية القادمة. وأفصحت لنا الأسوار المتناثرة والمتهدمة هنا وهناك الخاصة ببعض الأراضى القديمة أننا سنشاهد عن قريب بعض المساكن البشرية. ولاحظت وجود فتحة مربعة فى إحدى الصخور ومن الواضح أن أحد عمال المناجم قام بقطعها على هيئة كنيسة مسيحية صغيرة كما سبقت الإشارة (انظر اللوحة ٣٣ رقم ٧).

بدأت الآن فى تهنئة نفسى على قرب الوصول حينما كنت أفكر فى الوقت نفسه فى الرجل المسن الذى سار فى مقدمة القافلة ليدلنا على الطريق، فأشار علينا بالوقوف. فأصدر الحُدَاة إشارة للإبل بالتوقف، ولم تنتظر هذه الإبل منهكة القوى لسيرها بين الجبال تكرار الإشارة، لكن سرعان ما أنزلت كل الأمتعة على الأرض، ولم

للرومان القدامى وعن أحوالهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم. لم تكن بومبى مدينة مرموقة، إلا أنها عرفت أكثر من المدن الرومانية الغنية بفضل بقاياها التى حفظت جيداً. وتقع بومبى على هضبة خصبية قديمة بالقرب من خليج نابولى. وتبعد أقل من ١,٦ كم من سفح جبل فيزوف.

ظلت بومبى قرية قليلة الأهمية نسبيًا حتى القرن الثالث قبل الميلاد، وبعدها بقليل دخلت هذه البلدة فترة الازدهار من حيث البناء والاتساع. وأصبحت بومبى جزءًا من المجتمع الرومانى عام ٩١ ق.م. اشتهرت بومبى برواج تجارتها فى النبيذ والزيت والدقيق. كما أنها كانت سوقًا للمنتجات الريفية الغنية، وكان لمينائها صلات واسعة بحوض البحر الأبيض المتوسط. وكانت تعد أيضًا مركزًا صناعيًا متخصصًا فى إنتاج بعض السلع التى اشتهرت بها مثل أحجار الطاحون وصلصة السمك والعطور والأقمشة. وضمت المدينة ذوى الأملاك الأثرياء والتجار الأغنياء والصنّاع وأصحاب المحلات والفنانين والعبيد. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

أعرف السبب وراء ذلك. أخبرت الحداة بأننا لا ننوى التوقف هنا، لكننا سنمضى قدماً نحو المدينة حيث يمكننا رؤية البيوت، عندئذٍ أخبرنا الرجل المسن بما دهشنا له دهشة كبيرة وهو أن هذا المكان هو المكان الذى زاره المسيحى الآخر من قبل. ولابد أن أعترف بأن غباوتى لم تجعلنى استنتج على الفور أن ما رواه مسيو كاليود من أخبار قد يشوبه الكثير من المبالغة مما يجعلنا نفترض ضرورة عثورنا على مدينة بومبى أخرى بدلاً من المكان الذى وصلنا إليه للتو؛ وتوجهت باللوم والعتاب إلى الرجل المسن لتوقفه بنا فى ذلك المكان وعدم السير قدمًا إلى المدينة التى لا يمكن أن تقع بعيداً وفقًا لروايته. فأخبرنى ثانيةً أن هذا هو المكان المقصود، وأنه ليس هناك أى مكان آخر به بيوت فى أى من هذه الصحارى أو الجبال. ما زلت فى حيرة عميقة من أمرى وظللت أدعوه للسير بنا قدمًا. أما مستر بيتشى فوقع فى نفس الورطة التى وقعت فيها. وعقدت العزم على عدم الرضوخ بعد ذلك لما ظننته تأثير الرجل المسن. لم يبقَ على غروب الشمس سوى أربع ساعات؛ فركبت مرة أخرى على ظهر الجمل الذى رغب فى البقاء حيث كان بدلاً الذهاب بحثًا عن مدينة برنيس القديمة. وانطلقت على الفور وتبعنى مستر بيتشى ثم تبعتنا القافلة بأسرها على مبعدة منا. دخلنا وادياً طويلاً يمتد جهة الجنوب يحدونا الأمل فى رؤية برنيس سالفة الذكر كلما انعطفنا عند كل زاوية وادٍ يقابلنا وظللنا نسير لمدة أربع ساعات متواصلة حتى حل الظلام تقريبًا دون أن نبصر أثرًا واحداً لأى عمران بشرى. وفى النهاية وصلنا إلى وادٍ آخر أكثر اتساعًا من الأول وتغطيه أشجار يسميها العبابدة الهجليج egley وغيرها من النباتات. يمتد الوادى من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى، وعندما فقدنا كل أمل فى العثور على برنيس فى تلك الليلة، توقفنا لنأخذ قسطًا من الراحة تحت صخرة جميلة على بساط نظيف من الرمال بدلاً من النوم بين المعابد الشامخة فى تلك المدينة العظيمة. فى تلك الأثناء نفد ما معنا من ماء، وبالرغم من تواجدنا بالقرب من إحدى المدن الكبرى وفقًا لرواية مسيو كاليود، فقد تعذر الحصول على الماء من أى مكان يبعد أقل من خمسة عشر ميلاً. ورغم التعب والإجهاد الشديدين الذى أصاب الإبل، فإنها اضطررت للانطلاق فوراً إلى عين الماء لا كى تشرب فحسب، بل لكى تأتى لنا بالماء أيضًا لأننا كنا فى حاجة ماسة إليه.

وكَثُرَت الافتراضات والتخمينات التى افترضناها عن السبب الذى يمكن أن يدفع الرجل المسن لئلا يوصلنا إلى المكان الذى وصفه مسيو كاليود. وتصورت فى بعض الأحيان أن الحداة تلقوا تعليمات من قائد عمال المناجم عندما قابلناه عند النيل تقضى بألا نتمكن من رؤية أى من المناجم فى مدينة برنيس أو فى المنطقة القريبة منها، لكن ومن جهة أخرى لم نكن لنصدق أن الحداة سيتفقون جميعًا على خداعنا لا لشىء سوى إرضاء رجل لا تأثير له عليهم. وعلى هذا لم نعرف كيف نفسر هذا الأمر، وبدأ مخزون الطعام فى تلك الأثناء يدق لنا ناقوس الخطر. ظللنا نأكل الكعك لمدة عشرين يومًا لاحقة، لكن ضياع الخروف فى الجبل زاد الأمر سوءًا، كما تحول مخزوننا القليل من الماء أيضًا إلى ماء فاسد آسن. وما زال من السهل أن ننساق وراء فكرة ألا نرضى إلا بالوصول إلى مركز التجارة المنشود الذى ازدهرت فيه التجارة قديمًا بين الأمم الأوروبية والهند، لكن وا أسفاه! اختفت هذه المدينة التى لطالما بحثنا عنها أو قل لم تظهر لنا أبدًا كالجزيرة التى كان ينشدها صاحب الأرض بطل الرواية الرائعة لا مانشا[11] La Mancha. رضينا بأن نتناول الكعك كطعام لنا إلى جانب قطعة من لحم الضأن المذبوح منذ ثلاثة أيام، وهو الأمر الذى دعانى - بغض النظر عن أى شىء آخر - إلى تهنئة نفسى على فقدانى لحاسة الشم.

رأينا فى صباح يوم الثانى من الشهر جبلاً عاليًا من جهة الجنوب الشرقى من الوادى، ويبعد عنا مسافة تتراوح ما بين أربعة إلى خمسة أميال، وعلمنا أن هذا الوادى يسمى بوادى الجِمَال. كان الوادى مملوءًا بتلك الشجرة الجميلة المسماة

(١١) يشير بلزونى هنا إلى الرواية الأسبانية الخالدة "دون كيشوت" Don Quixote de la Mancha للروائى ميجويل دى سيربانتيس Miguel de Cervantes، ويرى الكثير من النقاد أن هذه الرواية هى الرواية الأولى بالمعنى الحقيقى للكلمة فى العالم الغربى. كتب سيربانتيس (ينطق الاسم هكذا بالإسبانية) الجزء الأول منها عام ١٦٠٥، ثم أتم الجزء الثانى فى عام ١٦١٥. تدور أحداث الرواية حول رجل من طبقة الأعيان فى الريف أصابه الهوس والجنون بسبب ما كان يقرؤه من روايات الخيال البطولى التى كان ينظر إلى أحداثها باعتبارها أحداثًا حقيقية. وانطلق البطل فى محاولة منه لتقليد أبطال الروايات الخيالية التى اعتاد قراءتها، فأخذ سيفه وراح يمثل أنه يحارب طواحين الهواء، والمعنى الذى يريد بلزونى توصيله للقارئ هو البحث عن شىء موجود فى الخيال فقط وليس له أى وجود على أرض الواقع. [المترجم]

بالهجليج، وفكرت فى صعود الجبل لحين عودة الإبل لإلقاء نظرة على البلاد أو على آثار برنيس. وبناء على ذلك شددنا الرحال وفى الطريق لمحنا العديد من قطعان الظباء أو البقر الوحشى التى كنا نأمل فى اصطياد أى منه كوجبة نسد بها غائلة الجوع. ورغم كل الحرص الذى تمتعنا به، فإننا لم نتمكن من الاقتراب منها بما يكفى لاصطيادها. كانت هذه الظباء سمينة إلى حد ما وكنا نحن فى غاية الجوع، ورغم كل ذلك لم نتمكن من الاقتراب منها. يمتد الوادى رائع الجمال الذى تزينه الكثير من بساتين نبات الشورة suvaroe وأشجار الدليب debbo بالإضافة إلى وفرة من نبات الهجليج. كما توفر الصخور على كلا الجانبين الكثير من الفجوات التى تبعث السرور فى النفس مما يتيح للرحالة أخذ قسط من الراحة والاختلاء بنفسه. ربما لم يمر أحد بهذا الوادى منذ عدد من القرون، والاحتمال الأكبر أن قرونًا أخرى ستمر دون أن يسير فيه أحد آخر. وعندما وصلنا إلى قمة الجبل، ألقينا نظرة على كل المكان المحيط بنا. كان معنا خريطة لساحل البحر الأحمر لدانفييه وعدسة مكبرة صغيرة الحجم. تشرف القمة التى وقفنا عليها على مشهد يمتد إلى العديد من الأميال من كل الجهات، لكننا لم نرَ أى مكان يمكن أن تقع فيه المدينة. لم نرَ سوى قمم الجبال الأخرى الأقل ارتفاعًا، وفى النهاية بدأنا نقتنع أنه لا وجود لمثل هذه المدينة وأن مسيو كاليود لم يرَ هذه المدينة الكبيرة إلا فى خياله فحسب. من المثير للغضب القيام بمثل هذه الرحلة بناء على وصف مختلق لا أساس له من الصحة ، وأتمنى أن تكون هذه الحادثة بمثابة تحذير للرحالة حتى يتيقنوا مما يسمعونه من أخبار وممن يأخذون عنهم المعلومات. فالاستماع لروايات الأشخاص المعروفين بالمبالغة يمكن أن يفضى بك إلى المغامرة برحلة لا تأمن فيها من الانحراف عن الطريق الصحيح والوقوع فى خيبة الأمل كما حدث معنا أثناء بحثنا عن المدينة سالفة الذكر ببيوتها الثمانمائة التى تشبه مدينة بومبى أشد الشبه.

بعد مشاهدة كل المناطق المحيطة بنا والجبال القريبة منا، ألقيت نظرة عن بعد على الجبال حسبما سمحت به الفتحات فيما بينها، ولفت انتباهى أن الوادى الذى صعدنا منه إلى الجبل يمتد إلى جهة الشرق، ويظهر من أودية السيول أن مياه المواسم المطيرة تدفقت من ذلك الاتجاه. شاهدت جهة الجنوب الشرقى جبالاً عالية أخبرنى

الرجل المسن الذى تبعنا طوال الرحلة أنها قريبة من البحر. وبعد أن ألقيت نظرة فاحصة فى ذلك الاتجاه أى جهة الشمال الشرقى من المكان الذى وقفت فيه، رأيت حركة المياه تحت أشعة الشمس من مسافة بعيدة، وتوصلنا إلى نتيجة مؤداها أن الوادى لابد أن يفضى بنا إلى ساحل البحر. وبناء على ذلك عقدنا العزم على متابعة ذلك المسار، وبعدما أصابنا الإحباط وفقدنا الأمل فى رؤية آثار برنيس العظيمة، آلينا على أنفسنا محاولة الوصول إلى المنطقة التى حددها دانفييه على الخريطة باسم برنيس تروجلوديتيكا Berenice Trogloditica. لذا هبطنا من فوق الجبل وعدنا إلى المكان الذى مررنا منه فى الليلة الماضية فى انتظار عودة الإبل لتمدنا بالماء النقى العذب الذى لم يبقَ منه إلا القليل، إذ لم يتبقَ من الماء فى ذلك الوقت سوى زمزمية واحدة(١٢). استبد بنا العطش وشعرنا بشىء من الرعب والخوف من كارثة وجودنا فى الصحراء دون ماء. فالجوع يمكن تحمل آلامه، لكن تحمل العطش أصعب من الجوع وأشق على النفس بكثير. نسمع كثيراً عن رجل أفضى به الجوع إلى أخطارٍ جسام رغم وجود الماء معه فى كل الأحوال، فما الذى يمكن أن يحدث لو نقص هذا الشىء الضرورى أو اختفى، إذاً لتعرض المرء لمزيد من الأخطار الجسيمة والمخيفة. وأخيراً وبعد مرور ثلاث ساعات ظهرت الإبل فى الأفق عند صدر الوادى جهة الغرب وفرحنا فرحاً كبيراً لوصولها. بلغ التعب والإرهاق من الحداة المساكين مبلغه، لكن لم يكن لدينا وقت نضيعه فى الجدل والنقاش. وحينما قلنا لهم إننا ننوى استئناف المسير جهة الجنوب، أصيبوا جميعًا بالوجوم والقلق وثارت ضجة كبيرة لإقناعهم بالموافقة، ولم نتمكن من إقناعهم سوى بالوعود التى وعدناهم بها والتهديدات التى توعدناهم بها. وفى النهاية استأنفنا الرحلة نحو البحر فى اتجاه الشمال الشرقى.

بعد بدء الرحلة بست ساعات وصلنا إلى وادٍ تنتصب فيه الصخور على كلا الجانبين بشكل عمودى تقريباً، وتتكون هذه الصخور من الحجر الكلسى الذى تختلط

(١٢) الزمزمية: قربة مصنوعة من الجلد تحتوى حوالى ثلاثة أرباع جالون من الماء. [المترجم]

به طبقات من الرخام الأبيض والجرانيت الأحمر. وفى تلك الأثناء مضينا دون أن نعلم أدنى شىء عما ستنتهى به هذه الرحلة، وكان أملنا الوحيد ناشئًا من منظر البحر الذى رأيته فى الصباح. وصلنا عند الغروب إلى مكان به فتحة بين الجبال لا تختلف كثيراً عن الفجوة أو الثغرة. ويطلق العبابدة على هذا المكان اسم "شرم الجِمال" أى خيمة الجِمال أو الإبل وتبدو الفتحة بين الصخور كما لو كانت بفعل إنسان، فكل جانب منها عمودى تمامًا لدرجة يمكن معها أن نتصور أنها قطعت بغرض عمل طريق بين الصخور. وبعد أن مررنا بهذه الفتحة، دخلنا واديًا أكثر من الأول اتساعًا. كانت التلال تتسم بصغر حجمها وعند رؤية الضفاف الرملية توقعنا الوصول إلى البحر فى أى لحظة. ومضينا حتى ساعة متأخرة، وأخيرًا توقفنا عند بقعة رأينا أن الرمال فيها يمكن أن تكون بمثابة سرير مريح إلى حد كبير. ولحسن الحظ أننى وجدت فراشًا كهذا لأن الجمل كان فى غاية التعب والإرهاق لدرجة أننا ما كدنا نصل إلى الرمال حتى أوقعنى من فوق ظهره ظنًا منه إننى سأستمر فى السير، وتركنى هناك مع السرج وكل شىء وانطلق من فوره ليقتات وسط النباتات الشوكية. ونظرًا لقلقى أنا ومستر بيتشى عما ستتجم عنه هذه الرحلة من نتائج وأملاً فى رؤية البحر الذى ظننا أنه لا يبعد عنا كثيرًا، مشينا نحن الاثنين إلى قمة أحد التلال الصغيرة، لكننا عندما وصلنا إليه لم نكد نرى أى شىء من على بعد بسبب حلول الظلام. اقتنعت قناعة كاملة بعدم وجود مدينة برنيس المتخيلة وشعرت بضرورة التوصل إلى تفاهم ودى مع الأدلة أو المرشدين الذين كانوا على صواب فى المعلومات التى أعطوها لنا. ولم يخطر ببال أى أحد أن رجلاً لم يجد سوى بضعة آثار منعزلة للمساكن الفقيرة لعمال المناجم المساكين يمكن له أن يختلق قصة اكتشافه لمدينة برنيس، ذلك المركز التجارى الذى كان فى وقت من الأوقات بين الهند وأفريقيا وأوروبا.

استأنفنا الرحلة فى الصباح الباكر من اليوم التالى. امتد الوادى فى نفس الاتجاه، لكن المثير للدهشة والعجب أن التلال زاد حجمها بدلاً من تضاؤله مما جعلنا متخوفين من أننا ما زلنا بعيدين عن البحر. وأخيرًا فى حوالى فترة الظهيرة انفتح الوادى فجأة ورأينا من على بعد مسافة خمسة أميال البحر الأحمر Arabian Gulf،

ولكم كانت سعادتنا لرؤية منظر الأفق الفسيح بعد المنظر الضيق لوادٍ طويل وضيق. وعندما وصلنا إلى الشاطئ قفزنا فى البحر كما تغطس التماسيح فى النيل ووجدنا أن الاستحمام بعد رحلة طويلة أمر منعش للغاية، ولم يكن أمامنا وقت نضيعه لأن الكعك الذى معنا لن يبقى أكثر من سبعة عشر يومًا وفقًا لما أجريناه من حسابات، ولن يبقى منه شىء لساعة واحدة بعد ذلك.

رأينا أمامنا مباشرة جزيرة جامبو Jambo. بدت هذه الجزيرة للوهلة الأولى مجرد ضفاف رملية، لكن عندما ألقينا نظرة فاحصة عن كثب أدركنا أن بعض الصخور المرتفعة تبرز فوق الجزيرة من الجهة الجنوبية. كانت الجزيرة مرتفعة إلى حد ما عند المنتصف، ثم يقل هذا الارتفاع تدريجيًا كلما اتجهنا نحو الشمال. ويطلق العبابدة عليها اسم جزيرة الجِمال، وأظن أن السبب وراء ذلك هو مجرد وقوعها أمام الوادى الذى يحمل نفس الاسم. يتكون الشاطئ كله على امتداد البصر من كتل من التكوينات الحجرية المختلفة، ولست أدرى إن كنت أطلقت الاسم الصحيح على هذا النوع من التكوينات؛ فهى خليط من أعشاب البحر والمرجان الأبيض(١٣) والشعب المرجانية والجذور والقشور من مختلف الأنواع تشكلت كلها فى كتلة صلدة واحدة كالصخرة تمتد من الضفة الرملية التى تشكل حدود المدّ وتمتد داخل البحر لمسافة طويلة. وجدنا فى بعض الأماكن فُرُشًا من الرمال، لكننا لم نجد أى مكان لرسو القوارب دون التعرض لخطر الارتطام بالصخور. وقررنا الآن ألا نضيع الوقت ونأخذ الطريق المؤدى إلى الجنوب على طول الساحل حتى يمكننا القول بأننا عبرنا المنطقة التى تظهر بها آثار برنيس على خرائطنا، وتقع وفقًا لدانفييه الذى يعتبر أفضل العلماء وأمهرهم فى الجغرافيا القديمة بعد رأس بناس Cape Lepte extrema وهى بعد خط عرض ٢٤ْ بقليل. ونقلنا خبر نيتنا هذه إلى الحداة الذين كأنما أصابتهم الصاعقة من الخوف لدى سماعهم لمثل هذه الفكرة. رفض الحداة المضى معنا رفضًا قاطعًا وفشلنا فى إقناعهم

(١٣) المرجان الأبيض madrepores: نوع من الشعب المرجانية التى تنمو لاسيما فى المناطق الحارة وتتشكل منه الحواجز المرجانية. [المترجم]

رغم إلحاحنا الشديد عليهم. واحتج هؤلاء بقولهم إن هذه الفكرة تنطوى على مخاطرة كبيرة، فمخزوننا من الكعك أقل من القليل إلى جانب تعذر العثور على الماء فى ذلك الطريق، كما أننا سنقابل قبيلة البشارية التى تقع أرضها فى الاتجاه الذى نريد الذهاب إليه. ونظراً لتصميمنا على استئناف المسير حسب خطتنا، فقد اتبعنا المنهج الذى يقضى بإقناع كل شخص بالعمل حتى لو جاء ذلك ضد رغبته الخاصة. وأخبرناهم أننا نرغب فى الذهاب سواء رضوا بذلك أم لم يرضوا وأننا سوف نجبرهم على ذلك لأننا أكثر منهم عدداً. وما لبثوا أن رأوا ألا جدوى من المقاومة وتوصلنا أخيراً إلى ضرورة ذهاب الإبل مع سائقَيْن إلى أقرب عين ماء لحمل أكبر كمية ممكنة من الماء، وسننطلق فى المسير حين عودتها حتى نصل إلى الجلاهن El Galahen، وهو المكان الذى أفهمناهم ضرورة الذهاب إليه ومنه نأخذ الطريق عبر الصحراء إلى عين الماء الجارى. ووجدنا وفقًا لحساباتنا إمكانية العيش على خير ما يرام إذا ما اقتصدنا فى استخدام الماء.

وبناء على ذلك انطلقت الإبل فى اليوم الرابع من الشهر قاصدة البئر واضطررنا للانتظار لمدة يومين لحين عودتها. وفى تلك الأثناء قمت أنا ومستر بيتشى برحلة خلوية على طول الساحل فى اتجاه الشمال لكى نلقى نظرة فاحصة على أحد الخلجان الصغيرة رأيناه فى الخريطة. وسِرْنا على طول ساحل البحر، فما أن وصلنا عند البقعة التى كان يُفترض أن نجد فيها الخليج حتى وجدنا أن ذلك الخليج لا وجود له. لم يكن هناك اختلاف فى الساحل من ناحية التكوينات، كما كان السهل الممتد من الجبال إلى البحر مغطىً فى الكثير من الأماكن بأشجار الجميز والسِيال، مما يؤكد لنا رواية بروس Bruce فلا شك أن هذا هو المكان الذى نزل به الرجل عندما ذهب فى رحلته إلى مناجم الزمرد. وتبلغ المسافة من المناجم إلى البحر حوالى خمسة وعشرين ميلاً فى خط مستقيم، وقد تصل إلى ثلاثين أو اثنين وثلاثين ميلاً إذا سلكنا أحد الواديين باعتبارهما الطريقين الوحيدين اللذين يمكن سلوكهما. وأنا لا أرى سببًا يبرر الشك فى تأكيد مستر بروس على زيارته لهذه الجبال. فليست المسافة التى اضطر أن يمشيها من البحر أو خطر وقوعه ضحية جشع الأهالى ونزوعهم إلى النهب والسلب حججًا

تؤخذ عليه، فلدينا من الأدلة ما يكفى لإثبات قدرته على التغلب على صعوبات أكبر من تلك. وأنا أؤكد أن السبب الوحيد وراء تسرب مثل هذه الشكوك إلى جانب الكثير من الشكوك الأخرى فيما يتعلق بجهوده هى روح التناقض التى أثارها ضيق الأفق لدى الرحالة ومن هم دون ذلك، فالفريق الأول بسبب عدم قدرته على مقاومة الغيرة والحسد رغم كل جهودهم فى إخفائها، كشفت هذه الغيرة النقاب عن نفسها من خلال التظاهر باتساع الأفق والموضوعية، أما الفريق الآخر فبسبب عدم مقدرته على السيطرة على نزعته السيئة إلى الجدل والخلاف والحكم على كل شىء لا علم لهم به.

شاهدنا فى بعض الصخور التى تقع عند سفح الجبال المواجهة للبحر العديد من مناجم الكبريت، لكنى أشك فى الفائدة التى يمكن أن تعود من نتاجها بسبب موقعها. فهذه المناجم قريبة من البحر، لكن عملية النقل بالبر إلى النيل سيحول دون أى استفادة من المشروع. رجعنا إلى المكان الذى تركنا فيه قافلتنا لاقتناعنا بعدم إمكانية تحميل أى سفينة من عند ذلك الساحل. وظنى أن الجوع لم يكن باديًا على وجوهنا بعد تمكننا من تناول بعض الوجبات من المحار الذى ينتشر بكميات كبيرة على طول الساحل، وتمسكت بفكرة بأننا لن نموت جوعًا طالما وجدنا ما نأكله من هذا المحار. أما حلزونات البحر الكبيرة فلا يعلى عليها وتمتاز الصغيرة منها بأنها شديدة الليونة لذيذة الطعم لاسيما بالنسبة لرجل جائع. وجمعنا عددًا منها بما يقرب من نصف رطل، ويتصف جزء من الذيل بأنه طرى رغم أن البياض أو الجزء العلوى صلب إلى حد ما.

وفى طريق عودتنا عرفنا أن الدليل قابل أحد معارفه الذى يعيش على صيد السمك، ولا يبعد كثيرًا عن المكان الذى كنا فيه. ويتكون مسكنه الوحيد من خيمة ارتفاعها أربع أقدام وعرضها خمس أقدام وتتكون الأسرة كلها من زوجته وابنته وشاب هو زوجها. نجحنا فى إقناع الرجل المسن بالخروج والذهاب لصيد الأسماك، وكان الرجل على علمٍ بقيمة المال رغم معيشته فى تلك الصحارى، وقال لنا إن أناسًا كانوا يذهبون سنويًا إلى النيل لشراء الذرة يحملونها على ظهور الإبل فى أنحاء تلك الصحارى ثم يبيعونها إلى السكان، ويأخذون فى المقابل إما إبلاً أو نقودًا؛ ومن هذا

سَهُل علينا إقناع الصياد العجوز بالخروج لصيد السمك لنا، وبالفعل انطلق صوب البحر يصحبه زوج ابنته. وتتسم طريقتهم فى صيد السمك بالغرابة بعض الشىء، فهم يلقون فى الماء بقطعة من جذع شجرة دوم doomt يبلغ طولها من عشر إلى اثنا عشر قدمًا تقريبًا، وتثبت عند كل طرف من الأطراف قطعة من الخشب فى اتجاه أفقى لمنع الشجرة من الالتفاف، كما تثبت عند أحد الأطراف عصا بالطول لتكون بمثابة سارية تثبت فى أعلاها قطعة من الخشب أفقيًا كما هو الحال مع سائر القطع الخشبية الأخرى. ويلقى فوق العصا شال من الصوف يعتبر بمثابة الشراع وهو مثبت من كلا الطرفين وبقطعة الخشب المثبتة أفقيًا، ويصعد الصيادان على ظهر الجذع الكبير كما تُمتطى الجياد فيستفيدان من الرياح باستخدام حبل مثبت بمنتصف الشراع. ولا تحصل هذه الفائدة إلا عند هبوب الرياح من جهة الشمال أو من جهة الجنوب لأنها لو هبت من الشرق لما استطاعا الخروج بمركبهما من الشاطئ، ولو هبت من الغرب فسوف تقذف بهما بعيدًا فى عرض البحر. ولا أعرف كيفية إتمام باقى العملية بعدما يبتعد الصيادان قليلاً عن الشاطئ، لكن من خلال ما رأيته عرفت أنهما يغرسان رمحًا طويلاً ورفيعًا فى السمكة إذا رأيا أى أسماك، ويكسب هؤلاء الناس عيشهم بهذه الطريقة. وجلبا لنا حين عودتهما أربع سمكات يبلغ وزن الواحدة منها ستة أرطال ويصل طولها قدمًا واحدًا وست بوصات. كانت السمكات ذات لون أزرق مفضض غامق بينما تتلون الزعانف والرأس والذيل باللون الأحمر وأسنانها الأربعة مستوية وخارج أفواهها. وتتسم هذه الأسماك بضخامة قشورها التى لا تختلف فى شكلها عن سمسم(١٤) benne النيل. وأنا على يقين بأن قدماء المصريين كانوا على علمٍ بهذا النوع من الأسماك لأنه ظاهر بوضوح شديد فى نقوشهم الهيروغليفية، كما رأيت فى مقبرة بسمتك الجديدة بعضًا من هذه الأسماك مرسومًا بالضبط كما هو فى الواقع. إن هذه الأسماك ممتازة جدًا فهى قليلة العظم كثيرة اللحم.

(١٤) سمسم النيل Nile Benne: نبات حولى يتراوح طول ساقه بين ٤ و٥ أقدام، يتميز بشكل أوراقه المقلوب، وله أزهار أحادية ذات لون أبيض محمر. أما الثمرة فهى عبارة عن كبسولة مستطيلة ذات بذور صغيرة بيضاوية الشكل مصفرة اللون. الموطن الأصلى لهذا النبات هو المناطق الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية والهند، كما يزرع فى أسيا وأفريقيا. [المترجم]

وفى صباح يوم الخامس صعدت جبلاً عاليًا لأرى قدر استطاعتى أكبر مسافة من الساحل، ورأيت أنه يمتد رأسًا نحو الجنوب الشرقى. توجد البقعة التى كنا عندها فى النقطة رقم ١٦ على الخريطة ولا يمكننى أن أطلق على هذه المنطقة اسمًا أفضل من مصب وادى الجِمال لوقوعه تمامًا فى مواجهة المدخل المؤدى إلى الوادى الذى يحمل نفس الاسم. استرعى انتباهى أيضًا أن النقطة الجنوبية من جزيرة جامبى Gambe تقع فى خط مستقيم مع شروق الشمس على البحر وعلينا. وسوف تظهر على الخريطة على افتراض أن المكان الذى أقف عنده يقع فوق قمة الجبل وهو أقرب ما يكون إلى النقطة رقم ١٦ المذكورة سلفًا. تمكنًا باستخدام بوصلة صغيرة من تحديد اتجاه الساحل الشمالى إلى البقعة التى كنا عندها بالأمس، وكانت خرائطنا صغيرة جدًا، لذلك لم تكن بالدقة التى نتمناها. وفى الصباح الباكر من يوم السادس، عادت الإبل محملة بالماء العذب، وحسنًا فعلت هذه الإبل لأن العطش اشتد بنا لا بسبب نقصان الماء وحده، بل وبسبب المحار الذى وجدناه وأكلنا منه بكثرة، وهو الأمر الذى لم يشكل أى مشكلة بالنسبة للصيادين الذين اعتادوا على الماء المالح الذى يأتون به من بئر ليست بالبعيدة. وقسمنا القافلة فى ذلك الحين إلى فريقين وأرسلنا كل الأمتعة وأوانى الطهى وأحد العساكر وخادمى اليونانى والسواد الأعظم من الإبل إلى عين من عيون الماء الجارى فى جبال أميوز Amusue لتنتظرنا هناك لحين عودتنا. أما بالنسبة لنا، فقد أخذنا معنا ما استطعنا حمله من الماء وشكلنا مجموعة مكونةً من مستر بيتشى وأنا والخادم اليونانى وأربعة من الحداة وولدين عربيين جلبناهما من القرنة ومعنا خمسة من الإبل.

انطلقنا فى السير قبل الظهيرة وسرنا على طول الساحل حتى وصلنا إلى وادى البجسون Abghsoon بالقرب من مناجم الكبريت التى تقع جبال حَماطة إلى الجهة الجنوبية الغربية منها. التزمت المسير بجوار الساحل طول الطريق وأخذت اتجاهه، وقابلنا فى أثناء طريقنا بعض الصيادين كأولئك الذين قابلناهم من قبل. ولما رأونا من بعيد تركوا خيامهم وانطلقوا مسرعين نحو الجبال، ولم تُجدِ معهم كل الإشارات التى أصدرناها ليتوقفوا. وصلنا إلى خيامهم فوجدنا بعضًا من السمك الممتاز لا يزال على نار الشواء، ولا شك أن هؤلاء الناس كانوا يعدونه لطعام الغداء. عانينا لمدة يومين من

الرياح التى هبت علينا قوية من الشرق وهى فى ذلك تشبه الريح الشرقية(١٥) التى تهب على إيطاليا وبعدها هدأت أعصابنا. شعرنا فى أثناء تلك الفترة بكل شيء نلمسه كما لو كان مبللاً بالماء. ارتفعت الحرارة ليلاً ارتفاعًا كبيرًا وتلبدت السماء بالغيوم على نحو لم أره منذ ثلاث سنوات ونصف، ولحسن الحظ تبدلت الأحوال بعد مرور يومين، لكن سرعان ما انقشعت كل الغيوم بفضل الرياح الشمالية. ولو استمر الحال لمدة أطول لما تمكنًا من مواصلة رحلتنا. وفى الليل توقفنا عند بئر ماء مالح. وانطلقنا فى يوم السابع مبكرين حتى نرى مناجم الكبريت لأنها لم تكن بعيدة عن طريقنا. ولم تكن هذه المناجم منتجة على الإطلاق، ويبدو أن القدماء أتوا على كل ما فيها من إنتاج قليل فتركوها وقد نضبت كما هو الحال فى مناجم الزمرد. وقرب حلول الليل رأينا جزيرة شريفSuarif ووصلنا ليلاً إلى رأس الجلاهن el Golahen. وهنا بدأنا نشعر بحاجتنا إلى الماء. أجرينا حساباتنا ووجدنا أننا سنفقد الماء الذى معنا ما لم نتسم بالحرص الشديد، وبالتالى لن نحصل على كفايتنا من الماء. وفى الصباح الباكر من يوم الثامن استأنفنا الرحلة متجهين صوب الجنوب. بعد مرور ساعتين رأينا البحر من على بعد ومررنا خلال سهل واسع رحيب. اقتربنا من البحر قبيل فترة الظهيرة وقد استبد بنا العطش، فشربنا من الماء النزر اليسير ووصلنا إلى الشاطئ فى تمام الساعة الواحدة ظهرًا. لم نتوقع الوصول إلى أى آثار لأن المكان لا يتطابق حتى الآن مع المكان الذى حدده دانفييه على الخريطة تمام التطابق، لكن من المثير للدهشة أننا وجدنا أنفسنا فجأة أمام أحد الطرق المؤدية إلى الآثار المتهدمة التى تشير إلى وجود بقعة من الأرض بها مدن قديمة، وهو الأمر الذى نراه كثيرًا فى مصر. دخلنا فما لبثنا أن رأينا أماكن البيوت العادية والشوارع الرئيسية وتصميماتها، ورأينا فى قلب المدينة معبدًا مصريًا

(١٥) الرياح الشرقية sirocco: رياح جنوبية حارة وجافة ومحملة بالأتربة، تنشأ هذه الرياح من منطقة الصحراء الكبرى وتهب على ساحل شمال أفريقيا فى فصلى الربيع والصيف. تتشبع هذه الرياح ببخار الماء فى أثناء مرورها على البحر الأبيض المتوسط، وحينما تصل إلى السواحل الشمالية من البحر المتوسط – وبخاصة على السواحل الإيطالية وصقلية ومالطة – فإنها تتسبب فى ارتفاع نسبة بخار الماء فى الجو وهطول الأمطار الغزيرة. [المترجم]

صغيرًا تغطيه الرمال أو تكاد وكذلك داخل البيوت، وزدنا عجبًا على عجب عندما ألقينا نظرة الفاحص المحقق على المواد التى بنيت بها تلك البيوت. لم نستطع أن نرى شيئًا سوى الشعاب المرجانية والجذور والمرجان الأبيض والعديد من تكوينات أعشاب البحر.

المعبد مبنى من نوعٍ من الحجر الرملى الكلسى الرخو، لكنه متآكل بشكل كبير بسبب نسيم البحر. ويثير موقع هذه المدينة السرور والبهجة فى النفس (انظر اللوحة رقم ٣٤). يواجه البحر الواسع ذلك المعبد من جهة الشرق وتشبه المنطقة من الساحل الجنوبى إلى النقطة التى تقع عندها الرأس مدرج مسرح من الجبال فيما عدا ممر ينفتح على السهل الشمالى الغربى الذى أتينا منه. ويمتد رأس الجلاهن تقريبًا فى اتجاه مضاد للمدينة إلى الشرق ويشكل ملاذًا للسفن الكبيرة من الرياح الشمالية والشمالية الغربية. يقع فى الجهة المقابلة للمدينة مرفأ رائع من صنع الطبيعة يقع مدخله جهة الشمال، وتحيط به تكوينات من الصخور المغطاة بطبقة رقيقة من الرمال من جهة الشرق، كما تحيط به الأرض من جهة الجنوب والمدينة من جهة الغرب. أما الجانب الشمالى الذى تغطيه مجموعة الجبال التى تشكل الرأس - كما سبقت الإشارة - فيعمل على حماية المرفأ أيضًا. ويتميز مدخله بعمق يلائم السفن الصغيرة كتلك التى كانت لدى القدماء فى ذلك الوقت، لكن مما لاشك فيه أنه كان أكثر عمقًا. يقطع شريط من الرمال مدخل المرفأ فى الوقت الحالى منعًا لدخول أى شىء فى المياه الضحلة، ويمكن بالرغم من ذلك اجتياز أى ممر بكل سهولة والاستفادة من المرفأ. استنتجنا أن هذه هى برنيس التى تناولها بلينى وهيرودوت بالوصف وحدد دانفييه موقعها الذى اتفق تقريبًا مع المكان الذى يظهر على الخريطة. وقررنا رغبةً فى المزيد من الدقة والتأكيد أن نغامر بالصعود لمدة نصف يوم جهة الجنوب لنتيقن من ضرورة مرورنا من البقعة التى حددها دانفييه على الخريطة باعتبارها برنيس سالفة الذكر. قمت بقياس أبعاد المدينة التى يبلغ عرضها ١٦٠٠ قدم من الشمال إلى الجنوب ويبلغ طولها ٢٠٠٠ قدم من الشرق إلى الغرب. أخذت رسمًا لتصميم المعبد الذى يبدو أنه شُيِّدَ وفقًا للطراز المصرى القديم، وتصورنا أن الإغريق استقوا تصميماتهم من هذه الشعوب الموغلة فى القدم كما فعلوا فى الكثير من الأشياء (انظر اللوحة رقم ٣٢). يصل طول المعبد إلى

١٠٢ قدم أما عرضه فهو ٤٣ قدمًا ويحتوى على أربعة حجرات تقع اثنتان منهما على كلا جانبى المحراب والحَرَم، واثنتان فى الردهة الكبيرة التى تقع فى الواجهة. الصعوبة التى تواجهنا الآن هى الماء الذى أضحى شديد الندرة، ولم نتمكن من البقاء - بأى حال من الأحوال - باقى اليوم التالى بأكمله. نفد صبر قبائل العبابدة أو كاد على ما نقوم به من عمليات بحث لعدم امتلاكهم ولو قطرة ماء، ولم نتمكن من توفير أى منه لنا، كما أن أقرب بئر يبعد عنا مسافة يوم. لم يشرب أحد بالأمس إلا قليلاً، ورغم كل هذا، قررنا ألا نترك أى شىء دون الانتهاء منه قدر استطاعتنا. وعدناهم بأن نغادر فى اليوم التالى فى الساعة الثانية عشرة، ومن حسن الحظ أن القمر كان ساطعًا فى تلك الليلة التى قضينا بعضًا منها تحت ضوء القمر لإلقاء نظرة فاحصة على المكان.

مرت الآن ثلاثة أيام لم نأكل خلالها إلا الكعك الجاف والماء فيما عدا السمك الذى وجدناه فى كوخ الصيادين. رضينا بتناول الكعك إلا أن العطش زاد علينا وتضاءل ما لدينا من ماء. أقنعنا الدليل الشيخ إبراهيم بأن يصحبنا إلى الجنوب فى صباح اليوم التالى ويترك سائر الناس فى المدينة. فوافق على مضض وقال إنه يخشى عدم شروع الإبل والناس فى التحرك بدون ماء. لكننا فى صباح يوم التاسع وقبل شروق الشمس أصدرنا الأوامر إلى موسى الصغير ببدء الحفر. كان موسى أحد الصبيان العرب الذين جلبناهم معنا من القرنة، وأمرت الصبى بالبدء فى الحفر فى المعبد ولو يكن معه معْوَل، لكنه أحسن العمل باستخدام صدفة أو محارة لنعومة الرمال. مشينا على طول الشاطئ وانطلقنا رأسًا جهة الجنوب أمامنا. أمضينا القسم الأول من النهار فى حساب عدم وقوع البقعة التى حدد دانفييه المدينة عليها إلى الجنوب أكثر من ذلك. لم نرَ أمامنا أى شىء سوى سهلٍ واسع الأرجاء حتى سفح الجبل الذى يشكل الرأس فى الجنوب. كان معنا نظارات مكبرة واستطعنا رؤية كل الأرض التى لم يكن بها أى نوع من النتوءات أو المرتفعات أو أى إشارة أخرى يمكن أن نفترض منها وجود آثار عمران.

رجعنا إلى المدينة ووجدنا أن الصبى أخذ فى حفر حوالى أربع أقدام من الرمال بالقرب من الركن الشمالى الشرقى من الحَرَم، ولكَمْ كانت دهشتنا عندما رأينا أن

المعبد كان مصريًا قديمًا. زينت ذلك الجزء من الحائط الذى عُثِرَ عليه منحوتات مصرية قديمة بارزة متقنة الصنع. تمكننا من رؤية ثلاثة رسومات يبلغ ارتفاعها قدمان وثلاث بوصات أخذت منها رسومات قدر استطاعتى (انظر اللوحة ٣٢ رقم ١)، وتغطى النقوش الهيروغليفية وما إليها الجزء الباقى من الحائط. أنعمت النظر فى الجزء العلوى من الباب المؤدى إلى الحجرة الداخلية، وعثر الصبى فى نفس الفتحة الرملية على جزء من لوح مصرى قديم مغطىً بالنقوش الهيروغليفية والرسومات (انظر اللوحة رقم ١٦). هذا اللوح مصنوعٌ من نوعٍ من الحجر اللَّزيز المائل للحمرة أو الصخر الحصبائى الذى لا ينتمى إلى الصخور بالقرب من ذلك المكان. وأخذنا هذا اللوح معنا كتذكار لرؤيتنا لمعبد مصرى قديم على ساحل البحر الأحمر، وهو الأمر الذى لا يعرف أى تاجر آثار أدنى فكرة عنه. يتسم السهل المحيط بالمدينة برحابته واتساعه وتبعد أقرب نقطة إلى الجبال التى تتخذ شكل الهلال حوالى خمسة أميال إلى الغرب منه. ويبعد الجبل قرابة اثنا عشر ميلاً من جهة الشمال وخمسة عشر ميلاً من جهة الجنوب. كل هذا السهل صالحٌ للزراعة ويمكن أن ينتج ما تنتجه التربة الرملية من محاصيل، إلا أن الجزء المنخفض منه خاصةً والمتجه نحو البحر رطب بصورة دائمة ويمكن أن ينتج فى حالة استزراعه مروجًا ترعى فيها الإبل والأغنام وغيرها من الحيوانات. تنتج هذه الرطوبة بصورة طبيعية بفعل رطوبة البحر العالية فى حالة وجودها. أما الجزء المرتفع من السهل فليس رطبًا إلى ذلك الحد، وأعتقد أنه قد يكون أكثر إنتاجًا للنباتات الجافة. لست أدرى إن كان بالإمكان زراعة الحبوب لصناعة الخبز ذلك أن التربة ذات طبيعة رملية تشوبها نسبة قليلة من الطين المشبع بالتكوينات الملحية. وتنتشر فى هذه الأرض نباتات السنط والشورة suvaroe الصغيرة. رأيت هذا النبات الأخير على طول الساحل حيث ينمو قريبًا من المياه المالحة، وهو موجود بوجه عام بين الصخور كما ينمو بعض منها تحت الماء لاسيما فى المناطق التى تغمرها مياه المد، وهذا النبات من الأشجار الصغيرة التى لا يزيد ارتفاعها بوجه عام عن ثمانى أقدام وتتكون أوراقها من مادة تشبه أوراق نبات الغار. ويمكن إلقاء نظرة على شكل هذا النبات فى اللوحة رقم ٣٦ . تمتاز هذه الشجرة بجودة خشبها الذى يستخدم كحطب للوقود ولا شك عندى فى أن

المدينة كانت تفتقر إلى خشب هذه الشجرة أو أشجار السنط. الماء هو أهم السلع فى هذه البقعة قاطبة، فرغم وجود ثلاثة آبار، فإنها شديدة الملوحة لدرجة أن الماء ما أن ينزل فى حلق الإنسان حتى يزيد العطش. إلا أن الإبل وسائر الحيوانات يمكنها أن تشرب من هذا الماء بلا ضرر. لا يمكننا الافتراض بأن مدينة كبيرة كتلك يمكنها أن تستغنى عن مورد كبير من الماء العذب، ولاحظت أن أقرب جبل إلى المدينة لا يبعد أكثر من خمسة أميال. لابد أنه كانت بعض الآبار فى تلك المناطق الصخرية إلا أن هذه الآبار الآن إما رُدِمَت أو أصبحت غير معلومة المكان. بإمكانى التأكيد على وجود بئر ماء عذبة إلى حد ما على بعد يوم واحد فقط من السفر، وبعد مسافة يوم ونصف تنبثق المياه من أحد الينابيع الرائعة من بين الصخور الجرانيتية. بما أن القدماء استعانوا بالإبل وغيرها من وسائل النقل لنقل أى شىء من المسافات البعيدة، فإنه من غير المستبعد أن تحصل هذه المدينة على الماء من على بعد مسافة يوم سفر. إلا أننى ميال للرأى الذى يرجح حصولهم على الماء من الجبال القريبة التى تحتوى على آبار وما شابه بحكم موقعها. أما الخضراوات وغيرها من الضروريات فيمكن أن تنتجها الأرض بلا عوائق أو الحصول عليها من وادى النيل حيث توجد مدينة القصر Cassara (الأقصر) فى يومنا هذا. ورأيت بعد مسافة قصيرة من المدينة العديد من الآثار المتهدمة، وظهر لنا أنها كانت بيوتًا بنيت خارج المدينة فى اتجاهات شتى.

أجبرتنى العمليات الحسابية التى أجريتها عن البيوت والسكان على القول بأن البيوت لم تكن بالضخامة والاتساع الذى تتصف به فى وقتنا الحاضر. وكان من عادة هؤلاء الناس السكنى بجوار بعضهم البعض. رأيت أن أكبر البيوت حجمًا وصل طولها إلى حوالى ٤٠ قدمًا وعرضها إلى ٢٠ قدمًا، وهناك بيوت أصغر حجمًا من ذلك، لكننى عندما أجريت عملياتى الحسابية على أساس معدل عشرين فى أربعين قدمًا، واكتشفت أن المربع الذى يبلغ طول أضلاعه ٢٠٠٠ فى ١٦٠٠ قدم سيضم ٤٠٠٠ بيتًا، لكن نظرًا لوجود مساحات من الأرض بلا مبانٍ يمكن اعتبارها نصف مساحة المدينة، فإن ذلك يعنى أن عدد البيوت لا يزيد عن ٢٠٠٠ بيت فقط حتى لا يظن الناس أننى صورة أخرى من كاليود. لم يكن هؤلاء الناس فى حاجة إلى حظائر كبيرة لوضع العربات التى

تجرها الحمير أو الخيول فيها أو أى شىء ذى قيمة من سقط المتاع. تنام إبلهم وماشيتهم دائمًا فى الهواء الطلق كما لا يزال حالها فى سائر هذه البلاد، وليست فيها مزارع كبيرة لتربية المواشى. ولا توجد أى مبانٍ ضخمة ذات أغراض تجارية سوى بضعة محال تجارية، ولم تكن الحوارى والأزقة الضيقة التى كانت مستخدمة فى ذلك الوقت لتتسع لمساحة كبيرة من الأرض. ووفقًا لحساباتى، فإن عدد السكان فى ذلك الميناء مضافًا إليه البيوت خارج المدينة والمتناثرة على شكل مجموعات هنا وهناك لابد أن يزيد عن ١٠ آلاف نسمة، وهى مدينة يمكن اعتبارها ذات أهمية حتى يومنا هذا بالنظر إلى موقعها على الساحل كميناء للتجارة مع الهند. لفت نظرى أيضًا بعض المقابر التى حفرت فى أقرب المناطق الصخرية المنخفضة التى تتكون من نوع من الأحجار الرخوة أو الكلسية وهى الصخور الوحيدة الموجودة فى السهل بالقرب من المدينة على الجانب الغربى. تركنا المكان قبل مساء اليوم نفسه نتيجة لنقص الماء، وحينما بدأ حداة الإبل يفقدون صبرهم، أعطينا كل منهم نصف الثُمْن من الجالون واستأنفنا الطريق نحو الجبل على الجانب الشمالى الغربى بعد أن وطننا النية على العودة لإلقاء نظرة فاحصة ومتمعنة على كل منطقة الآثار المتهدمة.

بعد حوالى اثنا عشر ميلاً من البحر دخلنا أحد الأودية الذى يقع على الجانب الشمالى الغربى من المدينة وصولاً إلى الجبل الذى يشكل الهلال الذى يحيط بها.

مضينا القسم الأعظم من الليل تحت ضوء القمر، ومن حسن الحظ أننا وصلنا إلى البئر فى منطقة أحرتريت Aharatret فى منتصف الليل وهى منطقة جبلية بها ماء عذب صالح للشرب. أصابتنا الدهشة عندما عثرنا على البئر، لكن دهشتنا كانت أكبر حينما رأينا عدداً من الخراف حوله. لم يكن هناك منظر يبعث على السرور والسعادة أكثر من هذا، وظننا أنه بإمكاننا الحصول على شىء من هذه الخراف لتجديد نشاطنا. عرضنا شراء واحد من الخراف لنأكله بعد طهيه نصف طهى. اقتربنا أكثر إلا أن راعى القطيع فرَّ مسرعًا إلى الجبل وساق معه الوجبة التى كنا ننوى تناولها بعيداً عنا. بدأنا نفكر فى أننا لن نكمل الرحلة ونحن محرومون مما يمكننا شراءه بأموالنا وأرسلنا

بعضًا من الحداة لاقتفاء أثر القطيع، وهو ما قاموا به بكل حماسة وقوة لأنهم لم يكونوا أقل منا جوعًا. تعقبوا أثر الهاربين وأوقفوهم. ووصلنا إلى القطيع ووجدنا أن الرعاة لم يكونا سوى فتاتين جميلتين من فتيات الصحراء. تملك الفزع من الحوريتين السمراوتين عند الينبوع بسبب مَنْ تعقب أثرهما من الرجال، ولاذتا فرارًا بالجبال، لكنهما ما لبثتا أن لانت عريكتهما بعد سماع بعض الكلمات الطيبة من مواطنيهما؛ فعادا ووثقا بالاقتراب منا. تعاملنا معهما بكل شهامة ورجولة رغبة فى التهام بعضٍ من خرافهن الصغيرة. بدأت الفتاتان تألفانا بالتدريج؛ ولم يتورعا عن أن يجعلانا نرى وجهيهما السمراوين تحت ضوء القمر إلا أن الخروف احتل مركز الصدارة من انتباهنا. وليس أمام هؤلاء الفتيات المسكينات أية فرصة ليراهن الناس إلا عند البئر، فهو المكان الوحيد الذى يتيح لهن الفرصة لرؤية الناس أو ليراهُنَّ الناس. وفى النهاية اشترينا الخروف والتهمناه، بينما ذهبت الحوريات لسقى قطيعهن وملأن القِرَب وانطلقن بعد طلوع النهار. رأينا فى هذا الطريق طرق الإبل وقطعًا من الآنية الفخارية المتكسرة مما يدل على أن هذا الطريق من الطرق الرئيسية المؤدية إلى المدينة، ووجدنا فى منتصف الطريق بين هذا البئر وهابو جرى Haboo Grey موقفًا أو استراحة كتلك التى رأيناها من قبل فى الطريق إلى قفط. بحثت الأمر وتوصلت إلى أن هذا الوادى متصلٌ بنفس الوادى الذى سبقت الإشارة إليه مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الطريق العظيم من مدينة قفط إلى برنيس كان متجهًا إلى هذا المكان، وهو الأمر الذى يتفق ورأى دانفييه وخرائطه.

انطلقنا فى الصباح الباكر من يوم العاشر مرة أخرى نحو جبل زبارة بنيَّة إلقاء نظرة فاحصة على سكيت حيث لم تسنح لنا الفرصة لإلقاء نظرة متفحصة عليها من قبل.

يمتد الوادى الذى كنا فيه إلى الشمال الغربى ومشينا نحن نحو البحر. وصلنا إلى بئر من أجود الآبار وهى بئر الخفيرى Khefeiri فى حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر. استرحنا هنا الجزء الباقى من فترة بعد الظهيرة، ونجحنا فى العثور على خروفٍ آخر، لكنه لم يكن أفضل حالاً من الأول. كانت الأحشاء أفضل ما فى هذا الخروف، أما الباقى فلم يزد وزن ما به من اللحم صافيًا عن حوالى رطل واحد. كل الخراف فى هذا البلاد على هذه الشاكلة عدا ما هو خارق للعادة من حيث الحجم.

انطلقنا فى اليوم الحادى عشر ومررنا خلال وادٍ تحيط به الصخور الجرانيتية. وصلنا بعد فترة الظهيرة إلى عين ماء جارية تنبثق من أحد الصدوع الجرانيتية، وهو شيء عُجاب فى هذه البلاد، فالماء لا يتواجد بمثل هذه الوفرة فى أى مكان آخر من البلاد. تنطلق المياه من العين بما يكفى لتكوين نافورة قطرها قرابة بوصة واحدة، وتتميز المياه بحلاوتها وعذوبتها. يطلق على هذا المكان اسم أميوز Amusue، وهو يبعد عن سكيت مسافة يوم سفر واحد. وهنا وجدنا باقى القافلة التى أرسلناها من جهة البحر فى انتظارنا.

أرسلنا الترجمان اليونانى فى صباح اليوم الثانى عشر إلى زيارة ليطلب من محمد أغا قائد عمال المناجم أن يرسل لنا اثنين من هؤلاء اليونانيين الذين شاهدوا الرجل الفرنسى وهو يعاين ويقيس المكان فى الجبال أو فى المدينة القديمة، ورتبنا أمر مقابلتهم فى سكيت الليلة القادمة.

شكلت البقعة التى كنا عندها فى هذا اليوم مُرتفعًا ينحدر من وادٍ عالٍ ومتصل بغيره من الأودية المرتفعة وما إليها فوق قمم الجبال.

وفى اليوم الثالث عشر، استرحنا فى هذا المكان طوال اليوم بعد أن تملك التعب والإجهاد منا جميعًا وانطلقنا إلى سكيت فى اليوم الرابع عشر. وعندما وصلنا هناك سمعت من خادمى أن محمد أغا لم يرجع بعدُ من النيل إلى منطقة المناجم، وربما ظللنا فى انتظاره فترة طويلة فى المعبد الأول.

فى تلك الأثناء نَمَت لدينا قناعةٌ بعدم وجود أى مكان يستحق المشاهدة وانطلقنا رغبة فى إرضاء الذات إلى الساحل مرة أخرى فى يوم الخامس عشر وذلك خلال الوادى الممتد من سكيت إلى البحر وفى نفس الطريق الذى سلكه مستر كاليود. اتبعت كل الاتجاهات الممكنة باستخدام أجهزة البوصلة والحسابات. وصلنا إلى البحر فى المساء، وهى رحلة أطول بكثير مما قاله كاليود من أن هذه الرحلة لا تستغرق سوى ثلاث ساعات من المشى، لكننا وجدناها تتطلب تسع ساعات وذلك بأفضل طرق السفر فى هذه الصحارى. تركنا بعضًا من قِرَب الماء فى سكيت بغرض تسهيل سيرنا. وصلنا على بعد حوالى ميل شمالىّ وادى الجِمال، وهى البقعة التى زرنها من ذى قبل.

يوم السادس عشر – شغلنا أنفسنا بالنظر الفاحص المدقق لهذا الساحل واقتنعنا بعد إمكانية رسو أى سفينة أو مركب على ذلك الشاطئ. واتفق أن خريطة دانفييه لم تكن دقيقة فى هذه النقطة، فهى تحدد موقع خليج فى هذا المكان مما يشكل ميناءً ممتازًا حسب وجهة نظره إلا أن الواقع على العكس من ذلك، فلا وجود لمثل هذا الخليج، فهذا الساحل عبارة عن شاطئ صخرى ممتد بحيث لا تستطيع أى سفينة صغيرة الاقتراب منه، وليست هناك أية حماية للسفن ضد أى رياح ولا أى أثر لطريق يؤدى إلى المناطق الداخلية على البر. الطريق الذى سلكناه من سكيت هو نفس الطريق الذى سلكه كاليود إلى البحر، لو صح أن نسميه طريقًا. إنه وادٍ يؤدى إلى البحر من الفجوة أو الفتحة فى الجبال، لكن لا يظهر على الإطلاق أن هذا الوادى كان طريقًا فى أى وقت من الأوقات. إن الصعوبة التى واجهت الإبل وعلى ظهورها أحمالها أثناء عبور هذا الجبل جعلت من الانتقال أمرًا غير عملى، كما أنهم إذا أرادوا تشييد مدينة لأغراض تجارية، فإنهم لن يشيدوها مطلقًا فى هذا المكان. تستغرق الرحلة يوم سفر واحد من أقرب نقطة فى الجبال من جهة الشرق للوصول إلى البحر يسافر فيه المرء بين الصخور الوعرة فى وادٍ جاف ومجدب.

فى يوم السابع عشر رجعنا إلى سكيت. لا أستطيع إلا أن أخلص إلى حقيقة مفادها أن هذا المكان لم يكن أبدًا مركزًا تجاريًا أو مكانًا سكنه أى نوع من التجار، لكنى أعتقد أن هذه البيوت المتناثرة هنا وهناك إنما بنيت من أجل عمال المناجم الذين كانوا يعملون فى الجبال بحثًا عن الزمرد فى المناطق المجاورة، وكان هذا المكان مقرهم الرئيسى. وصلنا إلى هذا المكان فى وقت متأخر من الليل واكتشفنا أن الرجل الذى تركناه فى حراسة الماء قد ذهب وأخذ معه القِرَب ولم يترك لنا نقطة ماء. لحسن الحظ أن البئر كان يقع على بعد ست ساعات فقط منا، ولهذا أرسلنا الإبل إلى الماء ولكى تأتينا بالماء أيضًا.

النص التالى كتابات باللغة اليونانية ترجمها لى د. يَنْج وهو نص نسخته بيدى من محراب فى الصخور. فإذا كان بوسع علماء الآثار أن يستدلوا من خلال هذه النقوش المكتوبة على أن المكان سالف الذكر هو إحدى المدن التى سميت باسم برنيس، فإن من المؤكد أيضًا أن اليونانيين لم يبنوا مدينة كبيرة تحمل ذلك الاسم.

A. VNTOICT ЄKNOICKAKAIKATOIЄ CVN ЄMOS
ЄPΥAZOMCN T
ΛPTOI HCACIΔAωNAPTVT OVMTTAPAω OЄC
I AI TTI ATHKVPIΛYCI ΔITHCЄNCKЄITHO

B. OMOIωC ΦIΔΛHNΔTΓVRΔNΛBY TAYTATTANTA
ЄKTωNЄMωN ωPV
KANTIONЄVXΔHCTHCΔCTω CAPATTIAITωM NIЄI ЄΔ
TO NAAKKON H ΓOCΠΔVNIKAF
CAŌT=MKXЄXZTOIЄPΛO
NЄΠCIHCΔ

C. ΠO YPAΛIOC KΔITOYTPC
ωΔIHNOY MЄXKIP KZ

D. PωNIOVЄVXΔPIЄTMCΔC Tω
KΔITHICIΔIKAIωΔTTOMωNIKAI
NΔOICΘЄOICTTΔCIЄΠOIHЄNPOIЄPON

E. RЄPЄNЄIKHCKAITOZωΔIONXΛIOPVZΔC
pЄ VMΔTOCATTOΘЄMЄΛIOVKIF
MΔTωNANЄ ΘHKΔЄTTAΓΔΘω

F. ΠAKYBKCTIZ THC
TTЄTOCIPIC ЄΠO ΦΛVAΠT KΘ

ΠPOH THC
THCTCIΔI
TOC ЩA KΘ/

A. Σὺν τοῖς τέκνοις καὶ τοῖς σὺν ἐμοὶ
ἐργαζομένοις
καὶ ποιήσασι καὶ μαρτυρουμ. παρὰ τῳ θεῷ.
και παρὰ τῇ κυρίᾳ Ὑ'σιδι τῇ Σενσκείτῃ.

B. Ὁμοίως φιάλην ἀπύραν Λ β' .ταῦτα πάντα
ἐκ τῶν ἐμῶν χρη-
μάτων, εὐχαριστήσας τῷ Σαράπι καὶ τῷ Μνίει, 3δ.
τὸν λάκκον ⊱ η K.ος Παϋνι κά.
Σαράπ . . Μνίει . . τὸ ἱερὸ-
ν ἐποίησα.

C. . . πο . . υράλιος καὶ τοῦ Τρ . . ς
. . ωδιήνου Μεχεὶρ κζ'

D. . . . ρωνίου εὐχαριστήσας τῷ . . .
καὶ τῇ Ι"σιδι καὶ τῷ Απολλωνι [τοῖς συν-]
νάοις θεοῖς πᾶσι ἐποίησα πὸ ἱερόν.

E. . . . Βερενείκης καὶ τὸ ζώδιον καὶ ὀρύξας
ρεύματος ἀπὸ θεμελίου καὶ [ἐκ τῶν ἰδίων χρη-]
μάτων ἀνέθηκε· ἐπ' ἀγαθῷ.

F. Παχυβίστις τῆς . .
Πετόσιρις . . . ἐπο . . . "Φωαπι" κθ'

Προήτης
τῆς Ισίδι
τος Πα . . κθ'.

X X 2

الترجمة ستأتى تقريباً على هذا النحو:

أ) [آيات التقدير والإجلال] ... لأبنائى والذين عملوا معى وقاموا بهذا العمل وأشهدوا الرب .. وربتنا الإلهة Senscis.

ب) ... مثلما أن زجاجة الدواء التى لم تمسسها نارٌ وزنها رطلان، فإن كل هذه الأشياء تقع على حسابى الخاص وقدمت إلى سيرابيس Serapis وإلى منيوس Menéuis أربع دراخمات وقدم إلى صهريج الماء نصف دراخمة. السنة الثامنة من حكم قيصر، السنة الحادية والعشرين من باينى.

من أجل سيرابيس .. من أجل منيوس؟ أقمت أنا المعبد.

ج) تحت حكم أوريليوس وتراجان ...

عن هيروديان؟ أمشير السابع والعشرين.

د) [عن] سمبرونيوس .. تقديم آيات التقدير والاحترام إلى .. وإلى إيزيس وأبوللو ولكل الآلهة الأخرى المقدسة معهم، أقمت أنا المعبد.

ه) .. عن برنيس والحيوان المنحوت وشق [قناة] النهر من الأساس ونذرها [على نفقته الخاصة] مع ثروة لا بأس بها.

و) باسيبستس الـ...

بيتوزيريس .. جعل .. فاووفى التاسع والعشرين.

بروتس ابن إيزيدياس. باينى التاسع والعشرين.

لا يوجد هنا أى مورد للماء - سواء للإنسان أو الحيوان - قبل مسافة يوم من السفر، بالمثل لا توجد تربة صالحة لقيام أى زراعة، لكن هذا المكان محمىٌ من الرياح فهو يستقبل أشعة الشمس الشديدة كلها من كل الجهات. وإلى جانب كل هذه الظروف التى سبقت الإشارة إليها، نجد أن المحراب الصغير الذى وجدنا هذه النقوش المكتوبة عنده يقع على الطريق المؤدى إلى برنيس، فأنا لا أستطيع إقناع نفسى بأن مثل هذا

المكان يمكن أن يكون من الأماكن التى تحمل ذاك الاسم. فى اليوم الثامن عشر، بحثنا لعدة ساعات فى كل الجبال المجاورة، وعثرنا على كثير من المناجم على بعد نصف ساعة من المشى وذلك فى الوادى المؤدى إلى الفتحة المتجهة نحو زبارة، بالإضافة إلى ثلاثة مناجم أخرى بالقرب من هذا المكان.

اليوم التاسع عشر – اتجه مسار الرحلة منذ الصباح الباكر نحو الجنوب ووصلنا فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر إلى النقطة التى تحول فيها الطريق مسارها نحو الغرب. وجدنا فى هذا المكان أحد المواقف أو الاستراحات – كما ذكرت آنفًا – ويطلق عليه اسم حفافيت. أكملنا الرحلة حتى المساء ووصلنا إلى هابو قاضى Habookady بالقرب من جبل يأخذ شكل الجرس فى الوادى المعروف باسم وادى الجِمال، ورأينا عددًا كبيرًا من أشجار "الهجليج" ونبات آخر يشبه البوط يطلقون عليه اسم "المرك".

وفى صباح اليوم العشرين انطلقنا ومررنا خلال سهل رحيب واسع الأرجاء. وبعدما تركنا الجبل ووصلنا إلى هابو كروج Habookroog – وهو مكان يبدو أنه يقع عند المدخل إلى سلسلة الجبال التى تؤدى إلى النيل – بلغ التعب من إبلنا مبلغه فما عادت قادرة على التقدم أو كادت؛ وفقدنا ثلاثة منها فى الطريق وهناك آخر لا نتوقع أن يعيش طويلاً. من العسير تكوين فكرة صحيحة عن الصحراء دون أن تسير فى أى منها بنفسك، إنها سهل مترامى الأطراف من الرمال والحجارة تبرز منه فى بعض الأحيان جبال من كل الأحجام والارتفاعات، وليس فى الصحراء طرق أو مكان يأوى الإنسان إليه وليس فيها أى نوعٍ من موارد الغذاء. ولا تظهر الأشجار المتناثرة والشجيرات والنباتات الشوكية إلا بعد أن يأتى موسم المطر ببعض أثر من رطوبة، وتكفى هذه النباتات بالكاد الحيوانات البرية وبعض الطيور. كل شىء متروك للطبيعة؛ فالسكان الرحل لا يعبئون حتى بزراعة هذه النباتات القليلة، فحينما تنفد أى من هذه النباتات من مكان ما، فإنهم يرحلون منه ويذهبون إلى مكان آخر. وعندما تكبر هذه الأشجار وتفقد نضارتها واخضرارها فى ظل هذا المناخ، فإن الشمس التى تسطع عليها بأشعتها دائمًا لتحرقها وتحولها إلى رماد. رأيت كثيرًا من هذه الأشجار محترقًا

تماماً. أما النباتات الأخرى الأصغر حجماً فإنها ما إن تنمو على سطح الأرض حتى يجف ماؤها، وتأخذ جميعها لون القش فيما عدا نبات "الأراك" harack الذى يتساقط قبل أن يجف. إذا تكلمنا بوجه عام عن أى صحراء، فسنقول إن هناك القليل من عيون الماء التى تبعد عن بعضها البعض أربعة وستة وثمانية أيام سفر، وليست كل هذه العيون ذات ماء عذب، بل على العكس فالأغلب أن تجد ماءها مالحًا أو لاذع الطعم، فإذا شرب منه الرحالة العطشان زاد عطشه لتزيد معاناته عما كانت من قبل، إلا أن وقوع الكارثة المخيفة حينما نأتى عند البئر التالى بعد طول انتظار ورغبة فى الوصول إليه لنجده بئراً جافاً؛ ولا يمكننى أن أصف مدى التعاسة والأسى الذى يصيبنا فى هذا الموقف. أما الإبل التى تعتبر وسيلة الانتقال الوحيدة فمصابة بالعطش الشديد لدرجة تمنعها من السير إلى بئر آخر، وإذا أقدم المسافرون على ذبحها لاستخلاص السائل القليل الذى يظل موجوداً فى معداتها، فإن هؤلاء المسافرين أنفسهم لن يستطيعوا السير لمسافة أطول. لابد أن ذلك الموقف من المواقف المروعة التى لا حل لها. وأجدنى غير راغب فى إخفاء أى شىء مما سمعته عما يحدث فى مثل هذه المواقف.

يلقى الكثير من هؤلاء حتفهم نتيجة للعطش الرهيب، وفى هذا المقام نشعر حقيقةً بقيمة كوب الماء. أما مَنْ معه "زمزمية" فإنه ولاشك من الأثرياء. فى هذا الموقف لا فرق بين سيد وعبد، فالعبد الذى معه الماء لن يعطيه للسيد الذى لا يملكه، فما أندر الحالات التى يضحى فيها الرجل بحياته طواعيةً لإنقاذ حياة رجل آخر لاسيما إن كان ذلك فى قافلة فى الصحراء فيها الناس أغراب لا يعرف بعضهم البعض. فيا له من موقف بالنسبة لرجل، فبالرغم من ثرائه، بل لعله يملك كل القوافل! إنه يكاد يموت من أجل كوب ماء .ولن يعطيه أحد أى ماء .. يعرض عليهم كل ما يملك .. لا أحد يسمعه .. الكل هنا يحتضر .. رغم أنهم لو مشوا ساعات قليلة لكتبت لهم النجاة، أما الإبل فهى مستلقية على الأرض لا يستطيع أحد حملها على النهوض .. لا أحد لديه القدرة على المشى .. سوى ذلك الرجل الذى يملك كوباً من هذا السائل النفيس فيعيش ليمشى مسافة ميل آخر، وربما لقى حتفه أيضاً كالآخرين. إذا كانت الرحلات فى البحر تنطوى على خطورة، فإن الرحلات فى الصحراء تنطوى على نفس القدر من الخطورة، ففى

البحر تنفد المؤن أو الغذاء فى الغالب، أما فى الصحراء فالأمر أسوأ. فى البحر تواجهنا العواصف أما فى الصحراء فليست هناك عاصفة أسوأ من العثور على بئر جافة، يمكن أن يعترض طريقنا فى البحر القراصنة .. فنهرب ..أو نستسلم .. أو نهلك، لكن فى الصحراء يظهر قطاع الطرق فيسلبون كل ما مع الرحالة من ممتلكات وماء وقد يتركونه ليعيش، لكن أى حياة هذه! إنها حياة تؤدى إلى أكثر أشكال الموت وحشية وألمًا. باختصار، أسوأ وأفظع ما يمكن لأى إنسان أن يتعرض له من مواقف هو أن يشعر بالعطش فى الصحراء بلا ماء متعرضًا لحرارة الشمس المحرقة بلا مأوى ولا أمل فى العثور على مكان يستظل به. وأنا أعتقد أن هذا الموقف من أصعب المواقف التى يمكن للبشر أن يتحملوها؛ فالعين تتعرض للالتهاب وتتورم الشفتان واللسان كما يُسمع فى الآذان صوت أجوف مما يفضى إلى الإصابة بالصمم وتثقل الفكرة ويتورم المخ - كل هذا مما يشعر به الإنسان عند الحاجة إلى القليل من الماء. ووسط كل هذا الشقاء والألم، تظهر أمام أعين الرحالة المستنقعات الكاذبة (السَّراب) على مسافة ليست بالبعيدة، فهى أشبه ما تكون بالبحيرة أو نهر من الماء الصافى العذب. هذه الظاهرة الكاذبة معروفة جدًا - كما ذكرت من قبل - لكنها تنجح فى استدراج الرحالة الملهوف نحو ذلك العنصر حتى يتذكر السعادة التى كان يشعر بها لوجوده فى مثل هذا المكان. ولو تصادف أن أحد الرحالة انطلت عليه هذه الخدعة، فإنه يسرع الخطى للوصول إليها بسرعة، وكلما تقدم نحوها أكثر، تباعدت هى عنه حتى تختفى تمامًا فى النهاية، ويتساءل الرحالة المخدوع عادةً عن الماء الذى رآه على بعد مسافة قريبة، ولا يكاد ذلك المسافر يصدق أنه كان مخدوعًا لهذه الدرجة، ويؤكد أنه رأى الأمواج تحركها الرياح وانعكاس الصخور العالية على الماء.

ومن سوء الحظ أن يصاب أى أحد بالمرض فى الطريق، فليس هناك من بديل سوى تحمل تعب السفر على ظهر الإبل، وهو الأمر المجهد حتى بالنسبة للأصحاء، أو تركه وراءنا على الرمال بلا أى نوع من المساعدة ليظل هكذا حتى يأتى الموت البطىء فيستريح من العذاب. فيا له من أمر مرعب! ويا له من مصير قاسٍ يلاقيه مثل هذا الرجل المريض التعس! لا أحد يبقى معه ولا حتى خادمه القديم المخلص، لا أحد يظل

معه ليموت معه. الكل يأسفون لما أصابه، لكن أحداً لا يظل معه. فلماذا لا تتوقف كل القافلة حتى تتحسن صحته أو يفعلون كل ما فى وسعهم حتى يسلم الروح إلى بارئها؟ كلا، هذا التأخير غير مسموح به؛ فهذا من شأنه أن يعرض الجميع لخطر الموت عطشاً لو لم يصلوا إلى البئر التالى فى الوقت المحدد، كما أنهم جميعًا من جماعات مختلفة من التجار أو الرحالة بوجه عام، وهم الذين لن يرفضوا تعريض أنفسهم للخطر فحسب، بل ولن ينتظروا ولو لبضع ساعات لإنقاذ حياة شخص سواء كانوا يعرفونه أم لا.

فى مقابل هذه الصورة القاتمة، للصحراء متعتها ورفاهيتها أيضًا التى عادةً ما تكون بالقرب من الآبار حيث ينعم المرء بكل سعادة الشرب من الماء وبهجته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يختلف طعمه فى ذلك الموقف عن عصائر الفاكهة وغيرها من المشروبات النفيسة الأخرى. وتشرب الحيوانات جنبًا إلى جنب مع الطيور بالقرب من البئر. هناك شىء يشبه الحوض مصنوع من الطين يملؤه الحداة بالماء من البئر لتشرب منه كل الحيوانات العطشى معًا من إبل وخراف وكلاب وحمير وطيور، وهذه هى الفرصة الوحيدة التى يمكنهم خلالها الحصول على الماء، فلولا أن الحداة أخرجوا الماء من البئر ما استطاعت الحيوانات الوصول إليه. لم أرَ سوى أربعة أنواع من الطيور وهى النسور والغربان والحمام البرى وطيور الحَجَلة، وأكلنا من هذا النوع الأخير بعض الطيور التى وجدناها لذيذة الطعم إلى حد كبير، والغربان هى أكثر الطيور من حيث العدد، كما أنها تغيظ الإبل بنقر جراحها إن وجدت. أما التسلية الأخرى الأكثر بهجة هى الفتيات الجميلات اللاتى يأتين كراعيات لسقى ما معهن من قطعان وتخالطنا هؤلاء الفتيات أكثر عندما يتأكدن من عدم خطورة اقترابهن من الغرباء. كنا نجد تسلية بالغة حينما نرى ملامح وجوههن، لكننا وبعدما ملأنا القِرَب بالماء وحملنا متاعنا على ظهور الإبل، فإننا مضطرون لمغادرة هذه الأماكن العزيزة على قلوبنا على أمل لقاء مكان آخر مثله بعد بضعة أيام، وهكذا حتى نصل إلى نهر النيل المبارك، غير أن الرحلة كانت على خير ما يرام هذا اليوم وذلك لعثورنا على بئر بعد بضع ساعات. انطلقنا الساعة الثانية صباحًا من يوم العشرين ووصلنا قبل الظهيرة إلى البئر عند حَمِش وهو بئر يتميز بحلاوة مائه. وهنا فقدنا جملاً آخر من إبلنا لم يستطع أن يمضى إلى الأمام أكثر.

استأنفنا الرحلة مرة أخرى فى فترة بعد الظهر ووصلنا عند مكان على سفح جبل من الجرانيت. وفى صباح يوم الحادى والعشرين استأنفنا الرحلة ثانيةً وما لبثنا أن دخلنا وادٍ ضيق صغير من الصخور الجرانيتية يذكرنا بالبروز الصخرى الذى رأيناه عند مرورنا بهذه المنطقة من قبل. ووصلنا بعد ذلك إلى موقف سموط Samout الذى رأيناه أيضًا من قبل فى نفس الوقت. وصلنا ليلاً عند دنجوس Dangos حيث لا ترتفع الجبال ذلك الارتفاع الشاهق وتتكون صخورها من الحجر الكلسى. وجدنا ابتداء من البروز الصخرى وبالقرب من ذلك المكان أثرًا لطريق قديم يمتد فى اتجاه الجنوب الشرقى والشمال الغربى، ولا شك عندى فى أنه هو نفسه الذى رأيته عند بيزاق Bezack عند مرورنا بذلك المكان من قبل، وهو الطريق الذى يتخذ مساره فى خط مستقيم من قفط إلى برنيس. وفى يوم الثانى والعشرين أكملنا طريقنا فى الساعة الواحدة، ووصلنا إلى وادى الميدة Wady el Medah عند غروب الشمس. أخذنا قياسات القلعة – كما سبقت الإشارة – وفى صباح اليوم الثالث والعشرين، استأنفنا المسير ووصلنا عند البئر الأول لنجد أن طعم الماء فى هذا المكان غير مستساغ بالمرة عند ذهابنا، لكنه صار مقبول الطعم فى رحلة الإياب. وصلنا إلى النيل فى المساء وشعرنا بحلاوة ماء النهر وعذوبته بالمقارنة بماء الآبار الذى اعتدنا الشرب منه لحرماننا لفترة طويلة من الماء العذب.

لاشك أننى مع الرأى القائل بأن أنهارًا قليلة فى أوروبا – إن وجدت – يمكن مقارنتها بماء النيل. فماء النيل نافعٌ لكل الأغراض، ففيه عذوبة ماء العيون والينابيع ونقاؤها وحلاوة ماء الأنهار وطلاوتها، هو ماء صالح للشرب ونافع فى غير ذلك من الأغراض. اللوحة رقم (٣٨) خريطة طبوغرافية صممتها للرحلة المذكورة وتحريت فى عملها الدقة قدر استطاعتى.

صعدنا على ظهر مركبنا الصغير فى نفس الليلة. وفى اليوم الرابع والعشرين جاء إلينا شيخ العبابدة وأهديناه بندقية وبعض البارود والقنابل. اشتكينا له من ضعف الإبل التى جاء بها لنا، فقال لنا مؤكدًا إن أحدًا من العبابدة لم يقم قط بمثل هذه الرحلة التى اضطلعنا بها؛ وإن الإبل غير معتادة على مثل هذه المسافات الطويلة

والسير الحثيث. وأعطينا بندقية وشالاً وبعض المال إلى الدليل الذى كان مثالاً نادرًا لدماثة الأخلاق. تطرقنا فى الحديث عن تكرار الرحلة، فأكدوا لنا أنهم سوف يمدوننا حين عودتنا بإبل تأخذنا إلى حيث نريد من أماكن وتبقى معنا ما شئنا من زمن. أرسلنا زوجًا من المسدسات الصغيرة إلى الكاشف فى الجزيرة لنشكره على لطفه وعنايته بنا.

كان المكان الذى وصلنا إليه الآن فى النيل على بعد بضعة أميال شمالىّ ذلك الموضع الذى دخلنا منه إلى الصحراء المقابلة لإدفو وقليلاً إلى الجنوب من الليثية Eleithias. ولاشك أن الطريق الذى رأيته على طول الوادى كان حلقة الوصل بين تلك المدينة وبرنيس ومن جهة الشرق حتى مناجم الزمرد. ولا عجب أن مدينة الليثية كانت من المدن المهمة لقيام جميع احتمالات التجارة هناك، فلا يزال فى هذا المكان مرسى للسفن مما يدل دلالة واضحة على شحن المراكب وتفريغها لذلك الغرض، وأنا أرى أن القوافل القادمة من البحر كانت تتردد على هذا المكان أكثر من ترددها على قفط، فالمسافة أقصر إلى حد ما من هذه المدينة إلى النيل.

انطلقنا إلى إسنا، ومن الباعث على السرور أننا رأينا فى طريقنا إلى الشمال الاختلاف الذى أصاب البلاد، فكل الأراضى التى غمرتها المياه من قبل أصبحت الآن جافة، بل وجاهزة للزراعة بعد حرثها وأعيد بناء القرى المبنية من الطين من جديد التى جرفها تيار النيل السريع وفتحت الأسوار والفلاحون يعملون فى الحقول، فكأن كل شىء قد ارتدى حلَّة جديدة. لم يمضِ على انحسار ماء الفيضان أكثر من خمسة عشر يومًا، وفى غضون تلك الفترة انخفض منسوب الماء أكثر من ثمانى أقدام. لا يحدث هذا الأمر كل عام، فعندما يرتفع النيل ببطء، فإنه ينخفض أيضًا بنفس المعدل وذلك تبعًا لوفرة أو ندرة الأمطار التى تسقط أثناء الموسم المطير فى الحبشة[١٦] Abyssinia.

(١٦) الحبشة Abyssinia: إقليم جغرافى يمتد بين خطى عرض ٦ و١٥ْ فى نصف الكرة الشمالى، ويقع جنوبى منطقة النوبة، وهو إقليم متميز بين مناطق القارة الإفريقية لغرابة تضاريسه. ويشبه هذا الإقليم قلعة شاسعة الأرجاء تطل على سهول أفريقيا الشرقية. فهو - بحق - كتلة هائلة من حجر الجرانيت والبازلت، ويظهر على هيئة شكل بيضاوى جبلى كبير حافته الأساسية عند الشرق. وتمتد سلسلة جبلية لمسافة ٦٥٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب، تُرى من سواحل البحر الأحمر، وتشبه الحائط الكبير الذى =

ويفضل أهالى البلد الارتفاع السريع لمياه النيل لأنه يغطى مساحة أكبر من الأرض، فإذا لم يأت الفيضان بماء كثير كما هو الحال هذا العام، وإذا ظلت المياه فوق سطح الأرض ثمانية أيام، فإن نفس الفائدة تحصل منها لو ظلت فوقها عشرين يوماً. وبمرور الوقت ينسى الناس مَنْ أغرقهم الفيضان وتظل المصيبة الوحيدة متمثلة فى نقص الموارد الغذائية بين الفلاحين. فمياه النيل أخذت معها مخزونهم من الغلال، ولا شغل يشغل الكَشَفة سوى الحصول على التقاوى من الغلال. وفى كل هذه الحالات يصبح العامل الفقير آخر مَنْ ينشغل الناس بأمره.

وصلنا إلى إسنا فى صباح يوم الخامس والعشرين وزرنا البك الذى استقبلنا بكل تأدب ولطف ثم توجه بالسؤال عن المناجم، وكان غاية فى الحرص على معرفة النتائج. فأخبرناه أن من المحال معرفة أى شىء عن هذا الموضوع حتى تُزال كل المواد التى تملأ هذه المناجم عن آخرها. أعطيناه هدية هى مسدس إنجليزى من النوع الفاخر ففرح الرجل بهذه الهدية فرحاً عظيماً وعرض أن يقدم لنا يد المساعدة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. انطلقت الرحلة ووصلنا إلى القرنة فى نفس الليلة بعد مرور أربعين يوماً بعيداً عنها، وهى فترة من الزمن آمل أنها مرت بما فيه فائدة.

= يصل ارتفاعه إلى حوالى ٨٠٠٠ قدم عند كزان المقابلة لمصوَّع، وأكثر من ١٠,٣٠٠ قدم عند جبل صويرة، و١١٠٠٠ قدم عند هضبة أنجولالا، وأكثر من ١٠,٠٠٠ قدم عند شوا. لكن السلسلة ليست جبلية فى منطقة الحبشة إلا جهة الشرق. وتتكون من هضبات متعددة الارتفاعات تقطعها جبال تتناثر فيها الفوهات البركانية.

يمنح الارتفاع المميز لإقليم الحبشة مناخًا خاصًا؛ فالمناخ ينقسم وفقًا لذلك إلى ثلاث مناطق مناخية متمايزة. منطقة الأودية المنخفضة، وهى منطقة تتمتع بالمناخ السودانى، أى الحرارة المرتفعة وسقوط الأمطار بغزارة فى فصل الصيف. المنطقة الوسطى الأكثر ارتفاعًا، ويصل ارتفاعها إلى نحو ٨٠٠٠ قدم، كما أنها الأكبر مساحة فى كل الإقليم، وتقترب درجة الحرارة فى هذه المنطقة المناخية من مناخ البحر المتوسط، مع الفارق أن الصيف فصل مطير فى الحبشة. المنطقة العليا أو الباردة التى يزيد ارتفاعها عن ٨٠٠٠ قدم، وتنخفض درجات الحرارة كثيرًا فى هذه المنطقة خاصة ليلاً، كما توجد طبقات من الصقيع أو الثلوج. [المترجم نقلاً عن موسوعة "إنكارتا" الالكترونية]

سرد أحداث حَمْل المسلة من جزيرة فيلة إلى الإسكندرية

انطلقت إلى إسنا بعد عمل الترتيبات لتجهيز نماذج المقابر وفى نيتى السؤال عن إمكانية الحصول على إبل للذهاب إلى الواحة الكبيرة التى تقع إلى الغرب مباشرة من ذلك المكان. رجعت إلى طيبة بعد حصولى على كل المعلومات التى أردتها لإعداد العدة لرحلة قصيرة أخرى إلى الصحراء الغربية. بمجرد وصولى إلى القرنة عرفت أن القنصل مستر سولت ومستر بانكس والبارون ساك Baron Sack وصلوا من القاهرة. بعد أن أقنعت مستر سولت باستحالة البحث عن القطع الأثرية فى المكان الخاص بى على أساس التفاهم والاتفاق بيننا ونتيجة لاستيلائه على الأراضى فى طيبة، اقترح إجراء ترتيب أو اتفاق جديد بينى وبينه يحق لى بموجبه القيام بأعمال الحفر على كلا جانبى طيبة وفى أى أرضٍ أراها مناسبة مع أخذ نصيب معين مما يتم العثور عليه فى عمليات التنقيب مقابل ما بذلته من جهد. وبعد موافقتى على هذا العرض، لزم علىَّ استئناف عملياتى فى البحث والتنقيب. شعرت بالرضى التام عن الاتفاق المذكور على أساس أن هذا يمنحنى الفرصة لجمع القطع الأثرية من خلال نصيبى المخصص لى. وصل مستر دروتى فى تلك الأثناء إلى طيبة وعرض عن طريق مستر بانكس شراء التابوت الشهير المصنوع من المرمر الأبيض إلا أن عرضه قوبل بالرفض(١٧). وفى تلك

(١٧) ذات مساء كان الفريق كله مجتمعًا، واتفق أن مستر دروتى كان موجوداً. تبادل القنصل وهذا الرجل الحديث لفترة قصيرة عن حادث أو أمر لا أستطيع منع نفسى من ذكره. مما يُذكر أنه وقبل رحيلنا إلى منطقة البحر الأحمر، أراد رجل من خصومنا أن نوصله معنا على ظهر مركبنا إلى القاهرة، وهو الأمر الذى وافقنا عليه. وفى جرجا التى تقع على بعد ستة أيام شمالى طيبة لقى هذا الرجل المسكين مصرعه غرقًا بعد أن سقط من فوق سطح المركب كما شهد بذلك كل أفراد الطاقم وبعض العاملين الذين كانوا فوق سطح المركب عند وصوله إلى القاهرة. ووصل خبر هذه الحادثة إلى القنصل مستر سولت، ورغم وجود مستر دروتى فى تلك الأثناء، فإنه لم يُشر إلى ضرورة إجراء أى تحقيق فى هذا الشأن. أما الآن ومستر دروتى متواجد فى طيبة والقنصل كذلك، شكاَ مستر دروتى كثيرًا إلى القنصل أنه لم يأخذ وفاة ذلك الرجل بعين الاعتبار. فرد القنصل قائلاً إنه لم يسمع قط بمثل هذه الحادثة حتى يطلب التحقيق فى الأمر، فرد عليه مستر دروتى بضرورة إجراء مثل هذا التحقيق. فأجاب القنصل بقوله إنه طالما أن الرجل كان يعمل لدى مستر دروتى، فإنه مندهش لعدم تقدمه بهذا الطلب عندما كان فى القاهرة. فقال مستر د. إنه فعل ذلك مراعاة لشعور الآخرين، فأثار هذا الرد ضحك الجميع. وهكذا لم يترك خصومنا طريقًا إلا وسلكوه لتشويه سمعتنا بالتحايل والخداع. [المؤلف]

الأثناء أغرانى مستر بانكس بالذهاب إلى جنوب النيل حتى جزيرة فيلة لنقل المسلة التى استوليت عليها من قبل باسم القنصل الإنجليزى. وبعدها أخبرنى القنصل أنه تنازل عن المسلة المذكورة لمستر بانكس الذى كان ينوى إرسالها إلى إنجلترا على حسابه الخاص. قبلت العملية بكل سرور لأننى أشعر بالسعادة كلما أتيحت لى الفرصة لرؤية قطعة أخرى من الآثار تأخذ طريقها إلى إنجلترا ولأداء خدمة لرجل أكن له عظيم الاحترام والتقدير. قطعت أنا والقنصل نهر النيل إلى الكرنك قبل الرحلة بيومين لتحديد الأراضى المختلفة التى أخذها القنصل لنفسه من قبل. قابلنا عند نزولنا بالأقصر مستر دروتى الذى عرض أن يصحبنا إلى الكرنك حتى يشهد الأراضى المختلفة التى ستخصص لى بغرض التنقيب. وفى الطريق روى لنا مستر دروتى قصة طريفة عن رجل كان يرتدى مثلى واختبأ بين آثار المعبد المتهدمة، وشك - أى مستر دروتى - فى أن هذا الرجل كان يرغب فى إيقاع الضرر والأذى به؛ وبناء على ذلك ذهب مستر دروتى إلى القائمقام فى ذلك المكان كى يبلغه بهذا الأمر. وطلبت منه أن يخبرنى عن السبب الذى يمكن أن يدفع بذلك الرجل إلى انتحال شخصيتى بتقليد مظهرى. فقال إنه ما فعل ذلك سوى رغبة فى خداعه، فإذا قام هذا الرجل (النصاب) بأى عمل آثم، فإن الغرض منه إقناع الناس أنه أنا مَنْ قام بهذا العمل. فضحك القنصل من هذه القصة، أما أنا فأكدت على صعوبة أن يقوم أحد بانتحال شخصيتى. كانت المحصلة النهائية لكل هذا هى أنه لو تصادف ذهابى إلى منطقة الآثار - وهو ما اعتدت عمله باستمرار - وأطلق علىَّ أحد ما عيارًا ناريًا، فإنه سيقولون بعدها أنهم حسبونى خطأ ذلك الشخص الذى انتحل شخصيتى فى الملبس والهيئة. فأخبرت مستر دروتى بأنى آمل أن يخبر مَنْ يعمل معه من الأوروبيين بأن يتيقنوا أولاً قبل إطلاق النار على الشخص الذى يفترض أنه صورة منى سواء كانت هذه الصورة هى الصورة الحقيقة أو المزيفة من بلزونى، فلن يسعدنى أو يرضينى إذا ما اكتشف الخطأ فيما بعد. فرد بقوله أن هذا الرجل نُفِىَ من طيبة ولن يعود إليها ثانيةً. مررنا بين الأنقاض والآثار المتهدمة وحددنا مختلف الأراضى التى أخذناها قبل وصول عملاء مستر دروتى إلى طيبة؛ وبذلك توصلنا إلى تفاهم تام وأجرينا كل الترتيبات على أمل ألا تنشأ أى

منازعات فيما بعد من أى طرف من الأطراف. والآن جاء دورك أيها القارئ لتقرأ وتحكم بنفسك.

إن التطرق إلى مثل هذه الموضوعات فى هذا الكتاب ليس مما تتمناه نفسى وربما كانت هذه الموضوعات نفسها السبب وراء الاعتقاد بميلى إلى التطرق إليها والكشف عنها، لكن هذا أمر لا أستطيع التغاضى عن ذكره كما كان الحال مع غيره من الأمور، فلو حدث أن أخفيت عن الجمهور ما حدث فى تلك الفترة، فقد يؤدى هذا إلى انتهاز أى أحد للفرصة بعرض الأحداث أمام الجمهور بأى شكل غير شكلها الحقيقى.

وبعد أن مررنا خلال الأماكن المختلفة التى سأعمل على التنقيب فيها، دعانى مستر دروتى أنا والقنصل بكل ما أوتى من كياسة ولطف إلى الذهاب إلى مقر إقامته بين آثار الكرنك. قُدمت إلينا المشروبات من شربات وعصير الليمون وتحدثنا عن رحلتنا الأخيرة إلى برنيس. تحولت دفة الحديث إلى رحلتنا القصيرة القادمة إلى جزيرة فيلة، عند ذلك قلت إنه ومع ضرورة نقل المسلة من تلك الجزيرة إلى الشمال جهة الشلال، فإننى خشيت من فوات الوقت فى هذا الفصل من السنة بما لا يسمح بالمياه عند الشلال بأن يرتفع منسوبها لتحمل على ظهرها مركبًا يمكنه تَحُمُّل مثل هذا الوزن الثقيل. فقال مستر دروتى عندما سمع هذا الكلام إن أولئك المحتالين والمتشردين فى منطقة الشلال – أى أسوان – احتالوا عليه وخدعوه حينما وعدوه مرارًا بأن يأتوا له بالمسلة المذكورة، لكنهم ما وعدوه بذلك إلا لابتزاز المال منه. عندها أخبرت مستر دروتى أن هؤلاء الناس يعرفون أنهم غير قادرين على نقل تلك المسلة لأنها ومنذ رحلتى الأولى إلى جنوب النيل دخلت فى حيازتى بناء على فرمان حصل عليه القنصل مستر سولت الذى كان حاضرًا آنذاك من الباشا. فأخبر القنصل مستر دروتى أنه تنازل عن المسلة المذكورة إلى مستر بانكس الذى يعتزم نقلها إلى إنجلترا. وعند سماعه لهذا الرد، قال مستر دروتى إنه لم يكن يعلم أن المسلة صارت فى حوزتنا وسأل عما إذا كنا دفعنا أى مبلغ من المال فى ذلك الشأن، فلما أجبناه بأننا دفعنا مبلغًا من المال مقابل تعيين حارس على المسلة وأننا تفاهمنا مع أغا أسوان بأننا سنأتى مرة أخرى لأخذها معنا

عندما تسنح أول فرصة، فجاء رده أن هؤلاء الناس خدعوه واستدروا الأموال من عملائه. لكن ورغم كل هذا، فإنه لم يستطع أن يَنْبس ببنت شفة فى هذا الأمر بعد أن عرف أن المسلة آلت إلى مستر بانكس وأن القنصل تنازل له عنها طواعية. ولم يأت هذا الكلام مجاملة للقنصل الذى كان حاضرًا. أظن أن هذه كانت الهدية الثانية التى حصل عليها مستر بانكس كغطاء التابوت الذى حصلت أنا عليه وهو التابوت الذى كان مدفونًا بين الصخور فى القرنة لدرجة أن الجهود التى بذلوها لإخراجه باءت كلها بالفشل. وتساءل مستر دروتى عن موعد البدء فى العمل، فرد عليه القنصل بأن ذلك سيكون بعد غد.

وبناء على ذلك، وفى اليوم السادس عشر من نوفمبر غادرنا طيبة قاصدين الشلال الأول فى النيل. وكان فى الصحبة نفر كثير وهم مستر بانكس ومستر سولت والبارون ساك وهو أحد الرحالة البروسيين(١٨) وعالم التاريخ الطبيعى naturalist الشهير ومستر بيتشى ومستر لينون Mr. Linon وهو رسام والدكتور ريتشى وكاتب هذه السطور. وحصلنا على مركب كبير من أجل القنصل وسفينة صغيرة من أجل مستر بانكس وقارب صغير من أجل البارون إلى جانب زورق وضعنا فيه الخراف والماعز والدجاج والإوز والبط والحمام والديوك الرومى والحمير التى تنضم بين الحين والآخر إلى الفريق مع سائر القبائل، وتصحب موكب القوارب والسفن كأنها أعضاء فرقة موسيقية لا تتوقف عن العمل. أما بالنسبة إلى الطعام، فأعتقد أنه كان لدينا ما يكفينا؛ فالمراكب جاءت من القاهرة مؤخرًا وهى محملة عن آخرها بالطعام والشراب إلا أن هذا السفر جاء مرهقًا حيث عشنا محرومين من كل شىء فى الحياة فلم يكن معنا أى ثلج نبرد به

(١٨) بروسيا Prussia: هى الدولة أو المملكة الألمانية السابقة. امتدت هذه الدولة فى أوج توسعاتها فى أواخر القرن التاسع عشر على طول سواحل بحر البلطيق وبحر الشمال، ومن بلجيكا وهولندا وفرنسا ولوكسمبورج فى الغرب إلى الإمبراطورية الروسية فى الشرق، والنمسا والمجر من جهة الشرق والجنوب الشرقى والجنوب، وسويسرا من جهة الجنوب. أصبحت بروسيا الحديثة مملكة مستقلة (١٧٠١-١٨٧١)، ثم واحدة من أكبر الممالك فى ظل الإمبراطورية الألمانية (١٨٧١-١٩١٨)، ثم مقاطعة أو أرض فى جمهورية الفايمار Weimar من (١٩١٨-١٩٣٣). [المترجم]

على أنفسنا بعد تناول وجبة ساخنة سوى الفاكهة ونوعين فقط من النبيذ. باختصار كانت حياتنا عبئًا علينا بسبب هذا النوع من السفر المرهق والخطير. لم نكن كالرحالة الذين يأخذون فى هذه الحياة من كل شيء أفضله وأحسنه مما يستطيعون الحصول عليه ثم يعودون لأوطانهم ليكتبوا عن الصعوبات التى تعرضوا لها. كلا! كلا! إننا نحتقر السفر إذا افتقر إلى الخشونة والرجولة. وأصدقك القول بأن بعض الرحالة سيقولون: لِمَ أتضور من الجوع وأنا أعيش فى دولة خيرها وفير؟ نعم، لكن لا يجوز أيضًا أن تجعل العالم كله يصدق بأنك تتضور جوعًا فى الوقت الذى تعيش فيه حياة كالسير جون فالستاف[١٩] Sir John Falstaff.

وعند مرورنا بمدينة الليثية، توقفنا هناك بعض النهار وكل اليوم التالى تقريبًا. ولن أدخل فى تفصيلات أخرى عن ذلك المكان فليس لدىَّ ما أضيفه لوصف ذلك المكان.

زرنا إدفو فى يوم الحادى والعشرين وأجرينا مسحًا دقيقًا على هذه الآثار العظيمة بحق، حيث تزينها كمية رهيبة من الزخارف لدرجة أن الرحالة إذا زار هذه الآثار كل يوم فى حياته، فإنه سيجد هنالك شيئًا جديدًا يستحق المشاهدة. كان هذا المكان فى تلك الأثناء خاضعًا لأبحاث عملاء مستر دروتى وعرفنا أن أحد هذين الرجلين تلقى رسالة من رئيسه أعطاه إياها رسول خارجي؛ فانطلق على إثرها فورًا إلى جزيرة فيلة.

(١٩) ظهرت هذه الشخصية كشخصية أدبية عالجها ويليام شكسبير فى مسرحيته "هنرى الرابع" Henry IV بجزأيها الأول والثانى. اسم الشخصية الحقيقية هو سير جون فاستولف Sir John Fastolf (1378-1459)، وهو رجل عسكرى إنجليزى عُرِفَ بالخدمات التى أداها فى فرنسا فى غضون المرحلة الأخيرة من حرب المائة عام. تميز هذا الرجل فى معركة أجينكورت Agincourt التى وقعت عام ١٤١٥، ومعركة الهرنجز (أسماك الرنجة) التى وقعت فى يوم ١٢ من فبراير ١٤٢٩، وسميت هذه المعركة بهذا الاسم نظرًا لأن فاستولف وفى أثناء إمداده للإنجليز الذين حاصروا أورليانز Orleans، شكَّل خطًا دفاعيًا من براميل الرنجة وبذلك وبمساعدة الرماة تسبب فى انسحاب عدد كبير من أفراد الجيش الفرنسى. وفى يوم ١٨ من يونيو، منيت قوات فاستولف وجون تالبوت John Talbot - أول إيرل لشروسبرى بالهزيمة فى باتيه Patey فى فرنسا على يد البطلة الوطنية الفرنسية جون دارك Joan D'Arc. سجن فاستولف فى حركة تمرد كايد Cade (1450) فى برج لندن بتهمة التسبب فى هزيمة إنجلترا فى فرنسا. كرس فاستولف كل وقته بعد إطلاق سراحه لإدارة شئون أملاكه ومنها القلعة العظيمة فى نورفولك Norfolk التى بناها عام ١٤٥٤ من الثروة التى جمعها من الحروب التى خاضها. [المترجم]

استكملنا الرحلة فى النيل ولقينا قبل وصولنا إلى السلسلة أو سلسلة الجبال قاربًا صغيرًا على ظهره العميل المذكور مواطن مستر دروتى مستر ليبولو Mr. Lebulo وهو من بيدمونت. ألقينا عليه التحية، لكننا لم نتوقف لنتحدث معه. توقفنا فى هذا المكان ليلاً وانتشرنا جميعًا فى الصباح الباكر بين تلك المحاجر، لا بحثًا عن طيور الحَجَلة، بل بحثًا عن المقابر والأحجار القديمة والنقوش الإغريقية وتماثيل أبى الهول أو أى نوع من العجائب المصرية القديمة. والحق أقول إن هذا المكان يستحق اهتمامًا من الرحالة المتعلم أكبر مما هو الحال عليه الآن. هناك العديد من أماكن الدفن ذات الأهمية بين المحاجر الصخرية، ومن الواضح أن القدماء أخذوا تماثيل أبى الهول ذات رؤوس الكباش التى توجد فى الكرنك من هذا المكان لأننا رأينا تمثالاً من نفس النوع منحوتًا دون صقل ثم نقل جزء منه من منطقة الصخور إلى النيل، بينما يظهر تمثال آخر يشبه الأول لكنه منحوت تقريبًا من صخور المحاجر. بالنسبة للحكاية القديمة التى تقول إن هذين الجبلين كانا متصلين ببعضهما البعض بسلسلة، ولا يسعنى إلا القول بأننى أعترض على هذه الحكاية لأن القدماء لو كانوا يريدون منع مرور المراكب فليس هناك مكان أكثر ملاءمة لذلك الغرض من أسوان لأن الممر من جزيرة إلفانتين إلى المنطقة الصخرية من أسوان القديمة أضيق بكثير من الممر بين جبال السلسلة، بل إن الشلال نفسه يمكن أن يشكل عائقًا من أهم العوائق التى يمكن أن تعترض مجرى النيل. يُفْترض أن السلسلة كانت متصلة عند موضع حجر على الجانب الغربى من الجبل المذكور، لكننى ومن جانبى لا أرى أية علامات فى الموضع الذى كانت السلسلة مثبتةً عنده ولا يبدو أن الحجر نفسه مناسب لهذا الغرض؛ لذلك فأنا أميل إلى الرأى القائل إن اسم جبال السلسلة مشتق من موقع الجبل نفسه وتمتد هذه الجبال على شكل سلسلة من الشرق إلى الغرب لتصل إلى النيل من كلا الاتجاهين مما يشكل أضيق ممر فى ذلك النهر من الشلال إلى البحر، ومن هذا يمكن القول بأن القدماء أطلقوا ذلك الاسم عليها فأنا لا أعتقد أن تجارتهم كانت من الازدهار بحيث يضطرون لوضع سلسلة حديدية عبر النيل لإيقاف المراكب ليلاً فى الوقت الذى كان فيه الحديد من أغلى السلع وأثمنها وكانوا يستخدمونه لأغراض أفضل من ذلك.

وصلنا إلى كوم أمبو في اليوم التالي، كنت شغوفًا بالذهاب إلى أسوان في الوقت الذي اضطرت فيه صحبتنا إلى التوقف هناك ليوم آخر، لأنني لم أتوقع أن تثمر رحلة ليبولو عميل دروتي المبكرة عن أي خير. وعلى هذا، انطلقت إلى ذلك المكان في سفينة صغيرة جاءت لمقابلتنا حتى تأخذ القنصل جنوبًا إلى النوبة. اصطحبت معي شابًا اسكتلنديًا جُلِبَ إلى مصر إبان الغزو الإنجليزي الأخير على تلك البلاد، ووقع الفتى في الأسر، ثم دخل بعد ذلك بسنوات في خدمة باشا مصر، وأسمى نفسه عثمان. تعرف هذا الشاب بالشيخ بيركهارت، وكافأه الشيخ لما رأى من أمانته وحبه له. كان الشخص الوحيد والأخير الذي أغلق عيني ذلك الرحالة المغفور له، وقد تحدثت مع هذا الرجل عن هذا الموضوع كثيرًا.

عند وصولي إلى أسوان عرفت أن المدعو ليبولو أوعز إلى أغا أسوان وإلى أهالي جزيرة فيلة بألا يدعو الإنجليز القادمين إليهم يأخذون المسلة معهم. فاحتج الأغا عليه قائلاً بأنني وضعت يدي على المسلة منذ ثلاث سنوات وعُيِّنَ حارس قررنا له راتبًا على هذا الأساس. نتج عن هذا الرفض أن مضى مستر ليبولو إلى جزيرة فيلة. وعندما سمع الرجل من كل الأهالي عن حيازتي للمسلة منذ وقت طويل، انتهج سياسة الخداع لإغراء هؤلاء البسطاء؛ فادعى قدرته على قراءة النقوش الهيروغليفية على المسلة وقال إن المكتوب عليها أن المسلة ترجع إلى أجداد مستر دروتي؛ وبالتالي فإن له حقًا فيها. فصدقه الناس وأعطاهم بعض الهدايا البسيطة ثم ذهب بهم إلى القاضي لسماع شهادتهم بأن المسلة ملكٌ لمستر دروتي. تلقى القاضي هدية وكتب شيئًا كالشهادة وفقًا لما أدلاه هؤلاء الناس من شهادات. وبعد كل ذلك، كتب مستر ليبولو مذكرة تركها مع أحد الشيوخ في الجزيرة حتى يعطيها لنا حين وصولنا وانطلق على الفور لأنه لم يجد في نفسه الشجاعة الكافية حتى يرينا وجهه بعد الذي فعله.

وما أن وصلت إلى أسوان حتى تناهى إلى علمي الصعوبات التي ألقاها هذا العميل في طريقنا لكنني قلت محتجًا للأغا إن عليه أن يتذكر جيدًا أنني وضعت يدي على المسلة منذ رحلتي الأولى وأن الحارس الذي عَيَّناه كان يتلقى راتبه عن طريق أحد

العساكر الإنكشارية للباشا وهو مستعد للشهادة على هذه الواقعة، وأنه – أى الأغا نفسه – وقع عقداً لاستلام مبلغ ثلاثمائة قرش (ثلاثين دولاراً) بعد نقل المسلة مباشرة. أقر الرجل كل هذا وقال إن الفريق الآخر حاول الاستيلاء على المسلة مرات عديدة، لكنهم باءوا بالفشل، كما حاولوا مرة أخرى مؤخراً، غير أن الانخفاض الحاد فى منسوب المياه فى الشلال حال دون المرور فى هذا الوقت من السنة. شغلتنى هذه الملحوظة الأخيرة أكثر من أى شىء آخر فى كل كلامه معى لأن الأمر برمته كان معتمداً على احتمالية تمكنهم من الوصول إلى الشلال فى هذا العام ونجاحهم بالتالى فى نقل المسلة. وصل فريقنا فى اليوم التالى إلى أسوان وذهبوا إلى جزيرة فيلة لإلقاء نظرة على ضفة النهر التى سنحمل منها المسلة إلى النيل ونقلها بعد ذلك إلى حيث قُدِّرَ لها أن تنطلق. وصلت إلى هناك فجاءنى شيخ كبير وعرض علىّ الملحوظة التالية:

"إن وكيل أعمال مستر دروتى يطلب من السادة الرحالة الأوروبيين احترام حامل هذه الرسالة وحارس وحامى المسلة – الموجودة فى جزيرة فيلة – والتى تنتمى إلى مستر دروتى".

"ليبولو"

فيلة، فى يوم ٢٢ سبتمبر ١٨١٨

أخبرنى أهالى الجزيرة بعد ذلك بالوسائل التى اتبعها مستر ليبولو لإقناعهم بالشهادة بأن المسلة تنتمى إلى فريقه. عرفت من تاريخ الملحوظة أن هذا الأمر لم يتم سوى قبل ثمانية أيام فقط. كان لديهم ما يكفى من الوقت لتنفيذ كل هذه الأعمال فى الظلام لأن رحلتنا فى النيل من طيبة إلى أسوان استغرقت خمسة عشر يوماً.

عند عودتى إلى أسوان عرفت القنصل ومستر بانكس بما حدث واقترحت عليهما أن الطريقة الوحيدة للتصرف فى هذا الأمر هى الالتقاء شخصياً مع الأغا نفسه لنعرف منه مَنْ حاز على ملكية هذه المسلة أولاً. وبناء على ذلك، طلبنا من الأغا أن يأتى على ظهر المركب وأعلن فى حضرة القنصل أننى كنت أول من وضع يده على المسلة من

بين الناس جميعًا. أصدرت الأوامر إلى الرجال بالعمل على هذا الأساس وحصلت على مركب لذلك الغرض تصادف وجوده في أسوان. كانت الصعوبة الكبرى في إقناع الريس أو قبطان الشلال بقيادة المركب شمالي الشلال ومعه المسلة. انخفض منسوب المياه هذه المرة انخفاضًا كبيرًا، ومما زاد العملية صعوبة أن الفريق الآخر طلبوا منه نقل المسلة منذ شهرين حينما كان المنسوب أعلى مما هو عليه بكثير، فرفض على أساس أن المنسوب لم يكن مرتفعًا بما يكفي. إلا أننا هدأنا من روع الريس حينما وعدناه بهدية لا بأس بها استلام نصف المبلغ من المال في يده؛ ووعدنا بأن ينجز هذه المهمة. أعطيت الأغا هدية عبارة عن ساعة يد ذهبية تبلغ قيمتها مائة وخمسون قرشًا (أي خمسة عشر دولارًا) باسم مستر بانكس وكان لابد من اكتساب شيوخ المرادة Mo-raidaوغيرها من الأماكن المحيطة إلى جانبنا حتى يتسنى لنا توفير الرجال للعمل. وتم هذا بالطبع بإعطاء بعض الهدايا الصغيرة إلى باقي العمال كما وعدناهم بالمزيد إذا أحسنوا السلوك. قابلتني بعض الصعوبات في الحصول على القليل من العصي أو الأعمدة الصغيرة في أسوان لعدم وجود أي خشب في هذه الأماكن عدا ما يستوردونه من القاهرة لإصلاح مراكبهم لا غير. وواجهتني مشكلة في البداية عند نقل المسلة المذكورة من مكانها الأصلي، لكنها ما لبثت أن وصلت إلى ضفاف النهر عندما وضعناها على الطريق. شكلت قاعدة المسلة بعض الصعوبات نظرًا لشكلها المربع كما كانت مدفونة تقريبًا تحت الركام، وأدى افتقارنا إلى الأدوات أو المعدات ونقص الخشب لدينا إلى تأخير العمل لمدة يوم أو يومين. جاء أغا أسوان إلى الجزيرة في تلك الأثناء وعرض علينا خطابًا تلقاه من مستر دروتي نفسه ومختومًا بخاتمه الذي يعرفه الأغا جيدًا يأمره فيه بألا يسمح بأي أحد بأن يأخذ المسلة. ترجم عثمان الاسكتلندي هذه الرسالة وهو شخص لا نشك في صحة ما نقله لنا من فحوى الرسالة. طلب القنصل من الأغا إرسال تحياته إلى مستر دروتي وإخباره بأننا سوف ننقل المسلة. وفي تلك الأثناء وصل مستر بالي Mr. Baley ومستر جودفري Mr. Godfrey ورجلان آخران إلى الجزيرة من رحلة خلال بلاد اليونان وغيرها من البلدان.

استعد فريقنا للقيام برحلة إلى الشلال الثاني. أصبحت المسلة جاهزة الآن لنقلها في نفس الوقت الذي وقع فيه الحادث التالي الذي كان برمته نتيجة لإهمالي عندما

وثقت مرةً فيمن يقولون أكثر مما يفعلون. تركت لبعض الناس العمل على وضع نوعٍ من الدعامات من قوالب الحجارة الكبيرة، فى الوقت الذى ذهبت فيه لإلقاء نظرة على ممر معين فى الشلال حيث سيأتى المركب خاليًا ثم يعود محملاً بعد شحنه. اكتشفت عند عودتى أن الدعامة قوية بما يكفى لتحمل أربعين ضعفًا على الأقل من الوزن التى ستحمله، لكن يا للأسف! فما أن تحركت المسلة تدريجيًا من ضفة النهر المنحدرة وفوق الدعامة الوزن كله حتى سقطت هذه الدعامة مع المسلة وبعض الرجال فى حركة بطيئة بكل شموخ فى النهر متمنية لنا حظًا أوفر. وقع هذا الحادث وأنا أقف على بعد مسافة لا تزيد عن ثلاث ياردات. لابد أن أقول إننى ظللت واقفًا لبضع دقائق متسمرًا فى مكانى كالتمثال. أول شىء خطر ببالى هو فقدان مثل هذه القطعة الأثرية والأمر الثانى هو ما سيعترى خصومنا من ابتهاج وفرحة بعد كل ما قيل عمن يحق له امتلاكها وأخيرًا اللوم الذى سيتوجه به إلىَّ وسط تجار الآثار وعلماءها فى العالم كله. كثيرًا ما يحدث أنه وبعد أن تفلت الزهرية مثلاً من أيدينا لتسقط على الأرض فتتكسر؛ فإن من الطبيعى أن يتلفت المرء لينظر على القطع المكسورة، وهذا ما فعلته؛ فقد ركزت عينىَّ على المكان الذى تحركت منه الدعامة من تلقاء نفسها إلى النيل ورأيت أن الأحجار التى كانت بمثابة أساس فوق الضفة المنحدرة إلى الشاطئ لم توضع سوى على السطح، فكان من الطبيعى إذًا أن يجرفها وزن المسلة أو يغرسها فى أرض الشاطئ لتنطلق هى إلى النيل. ما زالت المسلة بارزة بعض الشىء فوق سطح الماء وكان الرجال بين حزين – لا على المسلة التى لا يمثل ضياعها أى خسارة بالنسبة لهم – بل لضياع فرصة المكسب فى العمليات القادمة عند نقلها من الشلال شمالاً وبين ضاحك – على ما أظن – لرؤية ملامح خيبة الأمل واضحة على وجهى وذهب بعض الناس فى طريق واتبع آخرون طريقًا آخر وظللت وحدى جالسًا على ضفاف النهر متأملاً الجزء الصغير البارز فوق سطح الماء ودوامات الماء التى أحدثها التيار فى ذلك المكان نتيجة لسقوط المسلة. لكن لم تدم آثار الدهشة طويلاً. بدأت أفكر ورأيت إمكانية رفع المسلة من المياه مرة أخرى. لسوء الحظ لم يكن معى ماكينة واحدة للقيام بالعملية، حتى حبالنا المصنوعة من سعف النخيل مقطوعة ومهترئة تقريبًا ولم ينفع استخدام أى نوع من

أنواع الخشب على الإطلاق لذلك الغرض. المسلة عبارة عن قطعة واحدة من الجرانيت طولها ٢٢ قدمًا وعرضها عند القاعدة قدمين. ولا يقل ارتفاع هذه المسلة عن تلك المسلة الموجودة فى سانت جورج فيلدز St. George Fields لكنها منحوتة من حجر أثقل بكثير. غير أننى استعنت بالرجال المهرة فى السباحة البارعين فيها الذين يستطيعون البقاء فى الماء لمدة يوم كامل دون أدنى صعوبة.

وبعد أن عقدت العزم على استخراج المسلة، وجدت أن هذا الأمر لن يستغرق سوى يومين أو ثلاثة من العمل. وبناء على ذلك أصدرت الأوامر إلى الرجال للمجىء فى صباح اليوم التالى وأرسلت إلى أسوان فى تلك الليلة لنجلب منها بعض الحبال إذا أمكن. لم يكن مستر بانكس موجوداً وقت وقوع ما حدث ذلك أنه عبر النيل بعد الظهيرة فى نفس اليوم، لكن العمال الذين عادوا إلى بيوتهم بعد سقوط المسلة فى الماء أخبروه بما حدث. وأعتقد أنه لم يكن أقل منى استياءً عند رؤية الحادثة وقال حين وصوله إن مثل هذه الأمور تحدث أحيانًا، لكنى رأيت أنه لم يبدِ اهتمامًا، لذا أخبرته أن المسلة لم تضع وأنها ستكون على ظهر المركب فى غضون ثلاثة أو أربعة أيام. مضى اليومان التاليان فى هذه العملية وجاء سير العمل على هذا النحو:

أمرت بإحضار كمية هائلة من الحجارة إلى الشاطئ ثم طلبت من نفر من الرجال الدخول فى الماء ووضع كومة من الحجارة على جانب المسلة المواجه للشاطئ بما يشكل قاعدة صلبة تستند عليها الرافعتين أو العتلتين. وبناء على هذا، وضعت العتلتين تحت المسلة، أحدهما عند القاعدة، والأخرى بالقرب من نقطة الارتكاز، وبهذا وبفعل ضغط العتلتين لابد للمسلة أن تدور حول محورها. لم يستطع الرجال وضع العتلة تحت الماء كما يفعلون وهم على الشاطئ، لكن ومع وضع أجسامهم على طرف العتلتين وصلنا إلى الأثر المنشود بسبب ضغط أوزانهم. قام العمال بتمرير حبلين تحت المسلة وثُبِّتَ طرف الحبلين من تحت المسلة ببعض أشجار النخيل التى تصادف وجودها على ضفاف النهر بطرف الحبلين من فوقها وأصدرت الأوامر إلى أكبر عدد من الرجال بجر الحبال بالشكل الذى رأيته مناسبًا. وأمرت بتواجد بعض الغواصين المهرة على الجانب

الذى توجد فيه العتلتين وكان هؤلاء الغواصون على استعداد لوضع الحجارة الكبيرة تحت المسلة عندما ترتفع، وبذلك نضمن عدم رجوعها مرة أخرى إلى وضعها السابق. بعد إصدار الأوامر إلى الرجال بشد الحبال وإلى الغواصين بالاستناد على أطراف العتلتين ارتفعت المسلة إلى الجانب المقابل من ضفة النهر، وبعد إزالة العتلتين، فإن المسلة ستستند على الحجارة تحتها. ارتفعت المسلة حتى تسبب وزنها نفسه فى تحركها حول نفسها من كل جهة حينئذٍ تمكننا من كسب مساحة عرضها تقريبًا، وهكذا حتى وصلت إلى الأرض الجافة. تم هذا العمل خلال مدة أقل من يومين، بعدها انطلق الفريق إلى الشلال الثانى. فكرت أنه من الأفضل قبل نقل المسلة على ظهر المركب أن ننقل قاعدتها من الجزيرة أولاً لأن المركب لن يصلح لنقل الاثنين معًا. ونقلناها وأخذناها إلى المرادة بحالة جيدة حتى يسهل بعد ذلك نقلها. فى هذه اللحظة جاء أحد عملاء مستر دروتى إلى أسوان وأثار الاضطرابات والقلاقل فى المدينة كلها. أتى الرجل بالأغا إلى جزيرة فيلة حتى يتحدث معى ويقنعنى بأن من الأفضل لى أن أترك المسلة حيث كانت. سألت الأغا عما يمكن أن يقال فى هذا الشأن وعما إذا كان يرى من الصواب أن أترك المسلة حيث كانت - ونحن على وشك نقلها - لمستر دروتى. لمَّا رآنى الأغا والابتسامة مرتسمة على وجهى رد قائلاً إنه ليس لديه أى شىء ليقوله فى هذا الشأن؛ ومن هذا المنطلق كتب مستر دروتى إلى الدفتردار بك فى أسيوط، ورد الدفتردار بك عليه كتابيًا بأن الأغا لن يتدخل أو يتحيز لأى من الفريقين. أهان العميل الأغا، لكن بلا جدوى، لأن كل ما فعله لم يحل بينى وبين العمل. بعد ذلك حاول إقناع الشيوخ بإيقاف الرجال عن العمل وعرض عليهم مبلغًا من المال مقابل الوقت الذى سيبذلونه دون أى مشكلة. إلا أنهم رفضوا مثل هذه العروض التى عرضت حتى على العمال بكل تقزز. استأنفت عملياتى ووضعت المسلة على ظهر المركب باستخدام جسر من جذوع النخل التى مددناها من المركب إلى الأرض تحت المسلة التى وضعناها على الجسر، ومن ثَمَّ على ظهر المركب. توسطت المسلة المركب، فأزلت كل الجذوع من تحتها وسرعان ما انطلقنا بعد ذلك بالمسلة إلى المرادة لتجهيز شحنها إلى الشلال فى الصباح التالى.

ظل ريس الشلال أو الجندل على ثباته إلى جانبه وعملت أنا على استمرارية هذا الثبات. تسلم الرجل نصف المبلغ وجاء الآن لاستلام النصف الباقى قبل اضطلاعه بالعمل. لم أرَ من الحكمة أن نخيب ظنه فيما كان يأمله منا؛ ولهذا دفعت له النصف الباقى - وهو مبلغ خمسة وعشرين دولاراً - على شرط أن يتعهد أمام اثنين من رجالى بالالتزام بكلمته، لكن إن نقض كلمته، فإننى سأرفع الأمر إلى محمد على باشا فى القاهرة. كان الرجل راضى النفس وانطلق فى عمله بعد عمل الترتيبات بخصوص عدد الرجال الذين سيعملون فى صباح اليوم التالى. وفى نفس الليلة أخذت جولة حول صخور الشلال الجرانيتية التى مررنا بها، وفى اليوم التالى لفت انتباهى شئ ما فى طريقى لطالما فكرت فى الحديث عنه. هناك الكثير من هذه الصخور عليها نقوش هيروغليفية ورسومات لم ينحتها - كما هو واضح - سوى دارسين متخصصين كانوا على الأرجح يدرسون علم النحت فى تلك الكتل الصخرية. الملحوظة التى جئت بها هى إمكانية حساب العصور من الألوان المختلفة التى تتميز بها الصخور المأخوذة من منابعها ومن الزمن الذى نحتت فيه، فعلى سبيل المثال، يمكننا الافتراض بأن كتلة الجرانيت عندما تكونت لأول مرة بفعل الطبيعة، فإنها كانت بيضاء بنفس الدرجة التى نراها الآن فى الجرانيت المقطوع منذ فترة قصيرة. بعد ذلك لابد لنا أن نحدد العصر الذى نحتت فيه النقوش الهيروغليفية على تلك الصخور ومنها نحسب درجة الألوان الثلاثة التى نراها؛ فعلى سبيل المثال يظهر الجزء الذى لم يمسسه أحد باللون البنى الغامق، أما الجزء المنحوت الذى يفترض أنه مضى عليه حوالى ثلاثة آلاف عام فيتميز باللون البنى الفاتح ولا تزال بعض الأجزاء التى نحتت فى العصور المتأخرة ذات لون فاتح. ويظهر الجزء المنحوت منذ ساعة واحدة كما لو كان يوم تكونه كما سبقت الإشارة، وبذلك يمكن حساب العمر من خلال نسبة مختلف الألوان على الصخور، وبتلك الطريقة يمكننا إيجاد عمر التكون.

أستميح القارئ عذراً بالنسبة للجزئية التى أوردتها وهى جزئية لن يستفيد بها القارئ - وفقًا لتقديرى المتواضع - إلا قليلاً، لكننى أعرض الفكرة كما خطرت لى أمام الجمهور.

فى صباح اليوم التالى أعددنا العدة جميعًا من أجل عملية عبور منطقة الشلال بالمسلة بما ينطوى عليه ذلك من خطورة. وذكرت من قبل أن هذا هو أكبر شلال أو منحدر للمياه فى منطقة الشلال. فحينما يصل الفيضان إلى نصف ارتفاعه فى النيل، فإن شلالاً من المياه يبلغ طوله حوالى ٣٠٠ ياردة يسقط بزاوية مقدارها ٢٠,٢٥ درجة بين الصخور والأحجار التى تبرز فى مختلف الاتجاهات. جئنا بالمركب حتى حافة الشلال الصغير وربطنا حبلاً قويًا أو بالأحرى حبلاً صغيرًا حول إحدى الأشجار الكبيرة ويمرر طرف هذا الحبل من خلال الألواح الخشبية بالمركب حتى يتسنى لنا إرخاؤه أو إيقافه متى شئنا. لم يكن على ظهر المركب سوى خمسة رجال بالإضافة إلى عدد آخر فوق الصخور على جانبى الشلال الصغير فى أماكن متفرقة بأيديهم حبال مثبتةٌ بالمركب لتوجيهه إلى هذه الجهة أو تلك حسبما تقتضى الحاجة منعًا لارتطامه بالأحجار، لأن المركب لو لَمس تلك الأحجار بأقل درجة مع مثل هذا الوزن على ظهره وفى وسط هذا التيار السريع، فإنه - أى المركب - لن ينجو من الحطام. كان الحبل الذى استعرته من أحد تجار المراكب فى أسوان قويًا، لكنه ليس بالقوة الكافية لإيقاف المركب أثناء سيره فى حالة وجود خطورة من ارتطامه بالصخور، فلم يكن من القوة إلا بما يكفى لتقليل سرعته ولن يتوقف المركب فى مثل تلك الحالة لأن المياه ستجرى فوق سطحه ليغرق على الفور. فى ظل هذه الظروف، اعتمد الأمر كليةً على خفة حركة الرجال الذين اتخذوا مواقعهم فى أماكن متفرقة لشد الحبال أو إرخائها حسبما تقتضيه الضرورة. ولم أخفق فى اللجوء إلى كل طرق الإقناع الممكنة وإلى الوعود بإعطاء البقشيش إلى هؤلاء الهمجيين - كما يطلق عليهم - لكنهم ثبتوا فى ذلك الوقت كأى قبطان. كاد الريس الذى أجرت منه المركب يخرج عن شعوره عندما رأى أن مصير المركب سيؤول لا محالة إلى حطام. ولم يعطنا الرجل المسكين قاربه لا لشىء سوى ضياع تجارته، واتفق أنه كان فى أسوان منذ فترة من الزمن بلا أمل فى الحصول على بضاعة ينقلها على ظهر مركبه واضطر للاستدانة مما قيد إقامته هناك وستسعده أى شحنة على مركبه للخروج مما هو فيه، لكنه عندما رأى الخطر الذى تعرض له المركب بكى كالأطفال وتوسل إلىَّ للتخلى عن مشروعى وإعادة المركب إليه

سالمًا. لكنه حينما رأى المركب على وشك الانطلاق، ألقى بنفسه ووجهه نحو الأرض ولم ينهض حتى اطمأن أن كل شىء فى مأمن من الخطر. رأيت أن كل شىء جاهز، فأعطيت الإشارة بإرخاء الحبل. كان ذلك من أروع المناظر التى رأيتها فى حياتى؛ فقد اتخذ القارب طريقه بسرعة يمكن أن تصل إلى اثنى عشر ميلاً فى الساعة. وبناء على ذلك أرخى الرجال على البر الحبل، بعدها قابلت المركب وعلى بُعد مائة ياردة دوامة أدى اصطدامها بصخرة إلى ارتدادها صوب المركب مما ساعد كثيرًا على إيقافه. جذب الرجال القارب من الجانب بعيدًا عن اتجاه تلك الصخرة واستمر القارب فى طريقه، تتضاءل سرعته تدريجيًا حتى وصل إلى أسفل الشلال، ولَشَدَّ ما كانت سعادتى عندما رأيته فى أمان من الخطر. بدا السرور والسعادة على الرجال جميعًا لنجاح المحاولة بغض النظر عن الفائدة التى يمكن أن تعود عليهم فى نظرى، وليس من الأمور الشائعة الغالبة أن يداخل صدور هؤلاء الناس مثل هذا الشعور. وجاءنى ريس المركب متهللاً ترتسم البهجة والفرحة على وجهه كما نتخيلها.

صعدت إلى ظهر المركب بعد عمل كل الترتيبات لعبور الأجزاء الأخرى من الشلال واستأنفنا المسير فى النهر. لم يكن أمامنا سوى موضعين أو ثلاثة مواضع تنطوى على شىء من خطورة، لكننا - والشكر للرب - وصلنا سالمين إلى أسوان فى نفس اليوم. أرجو من القارئ أن ينتبه إلى أن ذلك لم يكن الطريق الذى تسلكه المراكب الصغيرة شمال الشلال وجنوبه لوجود طرق أخرى أصغر يسمح عمقها بطفو المراكب الصغيرة، لكن ليس بطفو هذا المركب وفوق ظهره المسلة.

ما إن وصلت هناك حتى أعددت العدة للرحيل إلى طيبة وانطلقت فى رحلتى بعدما أرضيت الأغا وفقًا لوعودنا له. تركت المركب قبل وصولنا إلى هناك لأن الرياح لم تكن معنا وذهبنا بطريق البر. أقمت فى محل إقامتى القديم فى المقابر فى بيبان الملوك. هناك وجدت زوجتى التى عادت من القدس بعد أن أرسلت إليها بعد تمكنى من الذهاب إلى سوريا. كان ذلك يوم عيد الميلاد واحتفلنا بذلك اليوم المبارك وسط سكون المقابر بعيدًا عن صخب البشر وحماقاتهم. ولم يكن معنا هناك سوى نفر من العرب المسالمين

الذين يحرسون المقابر الجديدة، لكنها لن تظل طويلاً على هذه الحال. لابد لى الآن من الدخول فى مصادمات وصراعات مع الأشرار، فبالرغم كل حرصى على تجنب عرض الرذائل الناجمة عن الحقد والضغينة أمام الجمهور، أجدنى غير قادر على تجنب إيرادها فى هذا الكتاب. فقد أدت الوقائع التالية بى إلى مغادرة مصر وكل من سيتعطف بقراءة هذه الكارثة مركزًا فى أحداثها سيتفق معى فى القول إنه آن الأوان لمغادرتها. حدث فى هذه الفترة أن شخصًا ما لا أود ذكر اسمه، من أجل الإنسانية، لكنه لم يكن إنجليزيًا ولا فرنسيًا، جاء إلى صعيد مصر لا لرؤية الآثار بل ليشترى منها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. جاء هذا الرجل من إحدى العواصم الأوروبية وكان يعتزم العودة مرة أخرى. عرض علىَّ أن يفعل أى شىء من أجلى فى أوروبا إذا أردت، فقد كنا على وفاق. أعتقد أنه كان صديقًا مخلصًا أمينًا إلى أن تمكنت روح المصالح الشيطانية من الوصول إلى قلبه، بعدها عانى من استسلامه لهذه الروح. ولأننى أعرفه من قبل، انتهزت فرصة رجوعه إلى نفس ذلك المكان الذى يوجد به رجل كنت فى حاجة لإقامة صفقة تجارية معه. كانت الصفقة أن يأخذ معه فى طريق عودته إلى أوروبا أربعة تماثيل لأبى الهول أو تلك التماثيل ذات رؤوس السباع - التى كانت تمثل نصيبى المخصص لى - إلى العاصمة التى كان ذاهبًا إليها وأن يتقدم بعرض هدية إلى إحدى الشخصيات الكبيرة باسمى، وهو الأمر الذى اضطلع بعمله بسعادة بالغة واتفقنا على أن أمنحه مرسومًا موجهًا إلى القنصل الإنجليزى بالإسكندرية لاستلام التماثيل سالفة الذكر التى كانت بحوزة الوكيل الإنجليزى فى رشيد. وحدث فى الوقت نفسه أن تعرف هذا الرجل بخصومنا، وبما أنه سيأتى ذكره فى الصفحات التالية، فإننى سأطلق عليه اسم "الغريب".

وفى عشية عيد الميلاد وصل المركب وعلى ظهره المسلة وتوقفنا فى الأقصر انتظارًا لشحن بعض البضائع الخفيفة ثم الانطلاق إلى رشيد.

ومما يذكر أيضًا أننى بدأت بعض الترتيبات مع مستر سولت قبل رحلتنا الأخيرة إلى الشلال حيث أقمت فى المكان الذى سأجرى فيه عمليات البحث والتنقيب المتعددة

وسط آثار الكرنك القديمة. عبرنا النيل يوم عيد القديس ستيفن[٢٠] إلى ذلك المكان بنية البحث فى الأراضى المخصصة لنا وفقًا للاتفاق المبرم بين كلٍ من السيد سولت ودروتى. فى الأقصر ركبت على ظهر حمار عالٍ للغاية، فالحمير هى الوسيلة الوحيدة لقطع المسافات القصيرة فى تلك البلاد نظرًا لندرة الخيول، كما أن ركوب الإبل لقطع أى مسافة صغيرة أمر مرهق جدًا. تبعنى خادمى اليونانى بعد ذلك وسائقين للإبل من العرب. لم يكن معى سلاح، لكن خادمى كان مسلحًا بمسدسين كالعادة. أقام خصومنا مع قائدهم مستر دروتى فى بعض البيوت المبنية من الطين وسط آثار الكرنك. كان المركب وفوق ظهره المسلة التى جئت بها لتوى ونزلت بها إلى الأقصر قريبًا للغاية وتحت أنظارهم – حسب تعبيرهم – وبلغ منهم الغيظ مداه لدرجة أنهم لم يخططوا للانتقام بأى شىء سوى التعرض – كما قالوا – بالإهانة والإساءة إلى بلزونى، لكن هذا لن يتم لهم دون الوقوع فى مغبة أن آخذ أنا بالثأر، بل ربما بما يأتى لمصلحة العملية. كانت الوسيلة الوحيدة للانتقام هى استغلال حجة ما وبإثارة بعض الخلافات والمنازعات ضدى بشكل أو بآخر، وبهذا حيكت الخطة. احتل رجال مستر دروتى أول قطعة من الأرض كنت سأبحث فيها وسط الآثار المتهدمة، نتيجة لذلك كان من المتوقع أن أبدى الاعتراض وبذلك يشب النزاع بما يشفى غليلهم منى. حذرنى أحد العرب قبل وصولى إلى الأرض سالفة الذكر من الذهاب إلى حيث كان الأوروبيون الآخرون، لكننى لم أكترث لما قال فهؤلاء الناس أحيانًا يهولون الأمور من لا شىء. مضيت فى طريقى

(٢٠) يوم القديس ستيفن St. Stephen's Day: يعرف القديس ستيفن بأبى الشهداء (توفى عام ٣٦م؟)، وهو أول شهيد فى المسيحية وفقًا لرواية العهد الجديد (انظر أعمال الرسل ٧،٦). عُرف هذا القديس بقوة إيمانه وصلابته وكان أول من اختير من الشمامسة السبعة الأوائل للكنيسة الأولى. مَثَل القديس ستيفن أمام مجلس "السنهدرين" (وهو مجلس قضائى دينى وإدارى أعلى لليهود وعدد أعضاؤه واحد وسبعون) بتهمة التجديف نظرًا لخلافه مع يهود أورشليم (القدس) الهيلينيين (أى المتحدثين باليونانية) بسبب فصاحته وطلاقته فى الدعوة إلى المسيحية. لم يُسمح له بإنهاء دفاعه عن إيمانه بالدين الجديد، حُكم عليه بالموت رجمًا. ولم يكتف شاول الطرسوسى الذى أصبح بولس الرسول فيما بعد بالموافقة على تنفيذ الحكم بل حمل ملابس الشهود الرئيسيين ضد القديس ستيفن. ويظهر من بعض أجزاء من خطبة للقديس ستيفن وردت فى أعمال الرسل أنه كان سابقًا على بولس فى الدعوة إلى عالمية الدين الجديد وتبعيته لليهودية. يحتفل المسيحيون بعيده يوم ٢٦ ديسمبر. [المترجم]

حتى وصلت إلى الأرض المذكورة سلفًا، وأول ما رأيت هناك عددًا من الرجال يعملون فى قطعة من الأرض يعلم الجميع أنها مخصصة لنا بموجب الاتفاق. عندئذٍ أدركت ما يريده هؤلاء الأساتذة الأفاضل؛ فلم أبْدِ أى اهتمام ومررت بالفعل من أمامهم دون التوقف لألقى نظرة عليهم. لم يكن هناك أى أحد من الأوروبيين، وقال لى خادمى أن تلك الأرض جزء من حصتنا، فقلت له بألا يقحم نفسه فى هذا الموضوع ومضينا فى سيرنا. كانت أرض الآثار سالفة الذكر قريبة من البحيرات الصغيرة وكان الأساتذة الأفاضل يعيشون فى فتحة مدخل المعبد الكبير يبعد قرابة ربع ميل عن الأرض سالفة الذكر. مررنا من أمامهم بهدوء ومضينا قافلين إلى الجانب الشمالى من الآثار المتهدمة حتى وصلنا إلى أقصى الشمال بما يبعد مسافة ربع ميل آخر. ظللت هناك بعض الوقت للتنقيب فى بعض الأراضى، وفى أثناء عودتى فى اتجاه مدخل المعبد الكبير الذى مررنا من أمامه فى طريق عودتنا إلى الأقصر قابلت رجلاً عربيًا يجرى نحونا وهو يصرخ من جراء الضرب المبرح الذى تعرض له على يد خصومنا لا لشىء سوى أنه خدمنا وكان مخلصًا لنا أشد الإخلاص بقدر ما يستطيع العرب. كان من الممكن أن يكون هذا حافزًا آخر لإثارة بعض النزاعات، لكنه لم يأت بأى أثر، إذ أننى لم أُعِرْهُ اهتمامًا، ومضيت قدمًا إلى الأقصر. كنت على بعد حوالى ٢٠٠ ياردة من مدخل المعبد الكبير عندما رأيت جماعة من الناس يركضون نحونا، كانوا حوالى ثلاثين عربيًا يرأسهم أوروبيان يعملان لحساب مستر دروتى. اقتربا لأجد أن الأول مستر ليبولو والآخر الخائن روسينانو Rossignano وكلاهما من بيدمونت كما ينحدران من نفس بلد مستر دروتى. بدأ ليبولو حديثه لى بسؤالى عن السبب الذى دعانى إلى نقل مسلة لا تخصنى من مكانها بالإضافة إلى قيامى بالكثير من أمور من هذا القبيل مما يحسن بى ألا أقوم بها مرة أخرى. فى تلك الأثناء أمسك الرجل بلجام حمارى بيدٍ، فى الوقت الذى أمسك فيه صديرى قميصى باليد الأخرى ليوقفنى من الاستمرار فى المسير، كما كان يربط عصا كبيرة حول معصم يده بحبل أو دوبارة. فى تلك الأثناء تعرض خادمى للهجوم على يد عدد من العرب كان اثنان منهم يعملان فى خدمة مستر دروتى بصفة دائمة. وفى الوقت نفسه، وقف الخائن روسينانو على بعد أربع ياردات منى وصوب

بندقية ذات الماسورتين إلى صدرى بكل الغضب والغيظ الذى يمكن أن تجده فى أى مجرم متوحش، فاستفز مشاعرى بكل ما يستطيعه أى نذل حقير، فى الوقت الذى جُرِّدَ فيه خادمى من السلاح وتكاثر عليه الرجال واستولوا على مسدساته من حزامه بالرغم من الجهود التى بذلها. استمر الفارسان المغواران أمامى - أعنى ليبولو وروسينانو الذين صحبهما خادما مستر دروتى العربيين الآخرَيْن المسلحَيْن بالمسدسات وغيرهما آخرون مسلحون بالعصى - فى إثارتى واستفزازى إلى أقصى درجة، ولا يزال الشجاع روسينانو مصوباً البندقية إلى صدرى وقال إن الأوان قد آن حتى أدفع ثمن كل ما فعلته بهم. وقال ليبولو المقدام بلهجة حادة يملؤها الغضب إنه كان سيحصل على ثلث الربح من وراء بيع تلك المسلة فى أوروبا حسب وعد مستر دروتى له لولا أننى سرقتها من جزيرة فيلة. كنت فى موقف لا أحسد عليه، فأنا محاطٌ بعصابة من المجرمين العتاة من أمثال هؤلاء، ولاشك عندى أننى إذا حاولت النزول من على ظهر حمارى، فإن الجموع الغفيرة من الناس سيبطحوننى أرضًا ثم يقولون إنهم ما فعلوا ذلك إلا دفاعًا عن النفس كما لو كنت أنا الجانى. رأيت أن أفضل وسيلة هى أن أظل على ظهر حمارى وأن أنظر إلى الأنذال باحتقار. قال ليبولو إن رجلاً آخر منهم غرق فى جرجا وهو على ظهر المركب الإنجليزى، فإن لم يأخذوا أى تعويض عن ذلك، وهو يقصد حسبما أظن ذلك الرجل المسكين الذى سقط من فوق ظهر المركب فى جرجا فى طريقه إلى القاهرة. أخبرت ليبولو بأن يدعنى أمضى إلى حال سبيلى وأننى على استعداد لعلاج أى شىء خطأ ارتكبته، لكن بلا فائدة. لقد أعماهم الغضب فأصبحوا لا يرون ولا يسمعون شيئًا.

فى هذه الأثناء، رأيت جماعة أخرى من العرب تجرى نحونا. فلما اقتربوا أكثر، شاهدت مستر دروتى نفسه بينهم وإلى جانبه خادمه المسلح بالمسدسات. سألنى مستر دروتى بمجرد وصوله وبلهجة ليست أقل حدة من اللهجة التى تحدث بها أتباعه عن السبب أو السلطة التى تخول لى الحق لإيقاف رجاله عن العمل. فأخبرته أننى ليس لدى علم بما يقصده وأننى وجدت نفسى أتعرض لأسوأ أنواع المعاملة على يد رجاله هؤلاء وأنه لابد من رده على سلوكهم هذا. فطلب بلهجة حازمة أن أترجل من على

حماري الأمر فرفضت. في هذه اللحظة انطلق عيار ناري من ورائي، لكنني لم أتمكن من معرفة الفاعل. عقدت العزم على التحمل ورباطة الجأش بدلاً من الاصطدام بهؤلاء الناس الذين لا يتورعون عن التهجم عليَّ في وسط معمعة من المصادمات والمشاجرات، لكنني حينما سمعت صوت العيار الناري ينطلق من وراء ظهري، رأيت أن الوقت حان لأشتري حياتي بأغلى ما أملك. ترجلت عن الحمار، عندئذٍ أكد لي مستر دروتي طيب القلب أنني في مأمن من أي خطر طالما أنه موجود معنا، أما مستر ليبولو الذي لعب من قبل دور المجرم الخطير، تراه الآن يحاول لعب دور الجنتلمان المحايد. في أثناء ذلك وصل جمع كبير آخر من العرب من قرية الكرنك إلى هذا المكان، فما رأوني محاصراً بهذا الشكل، لكم معي أن تتصوروا بحق العالم المسيحي والحضارة أن هؤلاء العرب البرابرة - كما نطلق عليهم - شعروا بالتقزز والنفور من تصرف الأوروبيين وتدخلوا لصالحي! فأحاطوا بروسينانو الخائن الذي كان سلوكه بالنسبة لهم أكثر فظاظة وغلظة من أي أوروبي، بل وأكثر من أسوأ عربي من العرب. فيالها من أفكار تلك التي تكونت في أذهان هؤلاء الناس عن حضارة أوروبا من جراء سلوك أمثال هذا النذل الخسيس! تناهى إلى علمي في ذلك الوقت أن غريبًا من أوروبا موجودٌ في مقر إقامة مستر دروتي. أرسلت عربيًا لأطلب منه الحضور إلى حيث كنا، لأنني ظننت أنه قد يشهد على ما يمكن أن يحدث فيما بعد رغم انتهاء الشجار وأحداث الشغب تقريبًا. وقال مستر دروتي الذي أضحى هادئ المزاج تمامًا الآن إنه لم يصدر أية أوامر إلى رجاله بالعمل في أية أراضي خاصة بنا وأنه كان يحسن بي أن أتقدم بطلب إليه حتى يوقفهم هو بنفسه، لا أن أقوم أنا بإيقافهم عن العمل. فكررت قولي إنني لا أدري ما الذي يقصده بقوله وأن كل ما حدث كان خليطًا من حيل وألاعيب نفذها أتباعه ووكلاء أعماله. فقال إن عربيًا جاء إلى مقر إقامته وأخبره بأنني أصدرت الأوامر إلى العمال بالتوقف عن العمل. تعرف أحد الرجلين العربيين من القرنة اللذين تبعاني لسَوْق الإبل على العربي المذكور الذي كان قريبًا من مستر دروتي طوال هذا الوقت وطلب لقاءه لكن بلا فائدة والذي لم يتعرف عليه رغم أنه رآه منذ بضعة دقائق مضت. فلما مثل الرجل أمامي، حملقت في وجهه وأمرته أن يكرر علينا ما قاله لمستر دروتي عني. فقال إنه لم يقل

لمستر دروتى إننى أوقفت الرجال عن العمل، بل هذا ما فعله خادمى، رغم أننى كنت واثقًا تمامًا من نقيض ذلك لأنه لم يبعد عنى أكثر من ياردتين عندما مررنا من ذلك الطريق. وجدت أن الجدل فى تلك النقطة أمر لا طائل من تحته ذلك أننى رأيت أن الموضوع ما أثير إلا لتغطية السبب الحقيقى لهجومهم علىّ وبدا ذلك لى من كلامهم فى أول الأمر عن المسلة. صممت أن يأتى مستر دروتى معى إلى المكان الذى يعمل فيه الرجال حتى أوضح له أن رجاله هم الجناة الذين تعَدّوا على حصتنا من الأرض، فاقتنع بذلك مرغمًا. وبمجرد انطلاقنا فى السير، سار البلطجى روسينانو ورائى من على بعد. وصل الرجل الغريب إلى حيث كنا وثبت أنه هو مَنْ سبقت الإشارة إليه من قبل الذى أرسلت معه التماثيل الأربعة إلى أوروبا. أخبرته بمجرد وصوله عما حدث، إلا أن مستر دروتى أخبره أننا لم نتحدث إلا قليلاً، هذا كل شىء. فرد الرجل الغريب قائلاً إنه رأى هؤلاء الناس يحملون السلاح ويخرجون مسرعين أثناء وجوده فى بيتهم أو محل إقامتهم وتذكر قول مستر دروتى نفسه لما قال إنه لابد من اللحاق بهم خوفًا من قيامهم بإثارة المشاكل وأن تصرفهم هذا غير سليم. فرد مستر دروتى على هذا بقوله إنه لا يملك السيطرة على ما قام به هؤلاء الناس من أفعال؛ فرد الغريب على هذا القول بضرورة فصلهم من العمل. أعرب مستر دروتى عن أسفه العميق لنقل المسلة من مكانها الأصلى. فذكرته بأنه على علم ولاشك بأننا حصلنا على المسلة قبل وصول أتباعه إلى جزيرة فيلة بفترة طويلة وأنه أخطأ بإرسال أتباعه إلى ذلك المكان لمنعنا من أخذها بعدما عرف بانطلاقنا إلى هناك لذلك الغرض. فقال إن هذا بسبب مستر بانكس الذى لم يتصل به قبل انطلاقه إلى ذلك المكان وعدم التحدث معه فى هذا الموضوع. الحقيقة أن مستر بانكس لم يرَ أن من الحكمة أن يلزم نفسه أمام مستر دروتى بالتزام لا ضرورة له. بعد ذلك أخبرت مستر دروتى بأننى قاومت الكثير من أشكال الهجوم المختلفة التى تعرضت لها على يد أتباعه، لكننى لم أتوقع منهم أن يصلوا إلى مثل الدرجة والآن حان الوقت بالنسبة لى لمغادرة البلاد، فعدت إلى بيبان الملوك لأننى لم أعد قادراً على العيش فى بلد أصبحت فيه هدفًا للانتقام من أناس لا يتورعون عن اللجوء إلى أحط الوسائل وأحقرها لتحقيق أهدافهم. وبالرغم من المزايا التى يمكننى

الحصول عليها من استمرارى فى أعمال البحث والتنقيب خاصة مع تحسن الظروف الآن مع القنصل أكثر من أى وقت مضى، فإننى أشعر بالنفور الشديد بما جعلنى أتخذ القرار المذكور سلفًا بناء على ما تقدم.

كتبت تفاصيل ما حدث إلى القنصل وأضفت قائلاً إننى سأكون فى طريقى إلى الإسكندرية فى الوقت الذى سيتسلم فيه خطابى لأننى عزمت على انتهاز أول فرصة للرحيل إلى أوروبا. لم أطالب بأى تعويض عما حدث لى، لأننى لا أتوقع الحصول عليه فى تلك البلاد. ونظرًا لوجود المركب الذى نقلنا المسلة عليه، فقد استغللت هذه الفرصة للانطلاق فى النيل شمالاً على ظهره.

بعد الانتهاء من كل النماذج والرسومات التى أخذناها للمقبرة وبعد أن وضعت على ظهر المركب كل ما جمعته لحسابى الخاص، بدأت عملية استخراج التابوت من المقابر. ولابد لى من التعبير عن أسفى للمصير المؤسف الذى تعرضت له بعض الرسومات الجدارية داخل هذا المكان. وأذكر القارئ بأننى أشرت من قبل إلى أن مدخل المقابر يقع تحت سيل صغير للمياه، فإذا حدث أن أمطرت السماء، فإن المياه تجرى إلى الوادى. وكنت بدأت آنذاك فى شق قناة لتحويل مسار المياه حتى لا تجرى إلى المقبرة عند نزول المطر، لكن العمل انتهى فيها بمجرد وصول القنصل. وكانت النتيجة أن السماء أمطرت حينما كنت بعيدًا جنوبى النيل، ودخلت المياه إلى المقبرة لما وجدت مدخلها مفتوحًا، ورغم أنها لم تكن أمطارًا غزيرة، فإنها كانت كافية لإحداث بعض التلف ببعض الرسومات الجدارية. امتص الجفاف الذى يتسم به الحجر الكلسى – الذى يشبه الجير أكثر من الحجر الخام – الرطوبة؛ ونتج عن ذلك حدوث تشققات فى الكثير من الأماكن لاسيما فى زوايا الأعمدة عند البوابات. كما انفصلت قطعة من الحجر فى إحدى الحجرات وكانت هذه القطعة تضم الجزء العلوى من ثلاثة رسومات جدارية، ومن حسن الحظ أن أحد الرسومات سقط فى إحدى الغرف الأخرى دون أن يتعرض لقدر كبير من التلف رغم أنه تحطم ثلاث قطع ، وقد أنقذته من التعرض للمزيد من التلف. شعرت بالغيظ الشديد لرؤية ما حدث. كانت نسبة التلف الذى حدث فى ذلك

الوقت صغيرة فى مكان بهذا الاتساع، لكن ما أخشاه أن تزيد هذه النسبة بمرور السنين القليلة القادمة ويزداد الأمر سوءًا، كما أننى على اقتناع بأن الرطوبة التى تتكون فى الأيام الممطرة تسببت فى قدر من التلف الذى لحق بالمقابر بقدر ما تسبب فيه أى عامل آخر. لابد أن نلفت النظر إلى أن المناخ تغير ولاشك منذ عهد هيرودوت حينما أشار إلى سقوط بعض الأمطار فى طيبة باعتبارها ظرفًا أو ظاهرة عَرَضية أو استثنائية لأنها تمطر سنويًا فى طيبة فى الوقت الحاضر. أنا لا أقصد القول بأنها تمطر بصورة مشابهة لما اعتدنا عليه فى أوروبا، لكن يكفى أن نقول إنها تمطر يومين أو ثلاثة - على سبيل المثال - فى الشتاء، وربما لا تمطر فى هذين اليومين أو الثلاثة إلا نصف ساعة فقط فى المرة الواحدة. ومما يبدو أيضًا أن قطرات المطر تنزل فى بعض الأحيان كبيرة الحجم فتصيب المسافر بالبلل الذى لم يستعد لمثل هذا الظرف فيشعر بالغرابة من هذا الأمر، لكن القدر الأكبر من مياه الأمطار يأتى كما ذكرت سلفًا من الصحراء عن طريق الأودية المؤدية إلى النيل. ومن الغريب أيضًا أن نلاحظ الاختلاف الشاسع فى الأقاليم المناخية فى مسافة صغيرة تزيد قليلاً عن مائتى ميل جنوبى طيبة حيث لا تمطر هناك إلا نادرًا، بل وتمر العديد من السنوات دون أن تمطر على الإطلاق، وبهذا يمكن اعتبار هذه المنطقة - إضافة إلى وقوعها عند مدار السرطان - من أكثر المناطق جفافًا وحرارةً على سطح الأرض. ما أعنيه هو ذلك الشريط من الأرض الذى يمتد من الشلال الأول إلى الشلال الثانى فى النيل والذى يطلق عليه اسم النوبة السفلى. ويضم هذا الشريط النطاق المدارى (حول مدار السرطان)؛ ونتيجة لذلك يتعرض هذا الشريط لقدر من حرارة الشمس أكبر من أى مكان آخر من هذا الجانب من خط الاعتدال، فهى (أى الشمس) تمر مرتين عموديًا فى غضون أيام قلائل فى وقت الانقلاب الشمسى solstice. وبذلك ومع ظاهرة أنها لا تمطر أبدًا فى هذه المنطقة لأننا لا يمكن أن نقول ذلك إلا إذا اعتبرنا أن قطرات المطر القليلة التى قد تنزل فى بحر خمس سنوات، وربما أكثر يمكن أن نسميها أمطارًا، كل هذا يتسبب فى ارتفاع درجة حرارة الصخور بـ ـ ـ مستمرة مما يؤدى إلى ارتفاع درجات الحرارة ارتفاعًا كبيرًا أكثر من أى مكان آخر على وجه الأرض. ومما يُذكر - كما سبقت الإشارة - أن درجة

الحرارة سَجِّلت فى أوائل شهر يونيو ١٢٤ درجة فاهرنهايت فى الظل فى جزيرة فيلة، ومن الجدير بالملاحظة أيضًا أن الترمومتر لم يُرِنَا إلى أىٍّ مدى ارتفعت درجة الحرارة لأنه وصل إلى ١٢٤ْ، ونتيجة ذلك أن الزئبق كان يمكن أن يرتفع إلى درجة أعلى لو كان الأنبوب الزجاجى أطول. والآن فلنعد إلى رحيلنا عن طيبة.

بعد إعداد العدة لكل شيء ونقل كل نماذج المقابر، استخرجت التابوت الشهير مما جعلنى انشغل بعمل ما (نظرًا لهشاشته الشديدة ودقة سمكه)، لئلا يتعرض للكسر من أقل لمسة من أى شيء، لكننا أخرجناه رغم ذلك من المقبرة سالمًا ووضعناه فى تابوت آخر قوى. كان الوادى الذى مررنا به للوصول إلى النيل غير مُعَبَّدٍ تقريبًا لمسافة تصل إلى أكثر من ميلين وميل واحد من الرمال الناعمة والحصى صغير الحجم. أمرت العمال بنقل التابوت على دحاريج على طول الطريق ونقله بسلام على ظهر المركب. فى تلك الأثناء وصل مستر رايت Mr. Wright ومستر فيشر Mr. Fisher إلى طيبة من رحلة عودتهما من النوبة وحظيت بشرف المشى وسط آثار طيبة القديمة مع هذين الرجلين الفاضلين. لابد أن أعترف بأننى شعرت بقدر كبير من الأسى لأننى سأترك مكانًا أصبح بينى وبينه ألفة كبيرة، هذا المكان الذى وجدت فيه - بخلاف أى بقعة أخرى من بقاع العالم - الكثير والكثير من الآثار التى تتناسب مع ميولى بدرجة كبيرة. ولابد لى أن أقول إننى شعرت بالحزن عندما تركت طيبة أكثر من أى شعور بالحزن عندما تركت أى مكان آخر فى حياتى. كان ذلك فى يوم ٧ يناير ١٨١٩ عندما رحلنا عن تلك الآثار الخالدة بحق ووصلنا إلى القاهرة فى يوم ١٨ فبراير.

بعد مرورنا على بنى سويف رأينا قاربًا صغيرًا واستنتجنا من هيئته أنه لابد أن يكون عليه بعض الأوروبيين. ونادوا علينا لما رأوا أننا أوروبيون أيضًا. ذهبنا إلى الشاطئ؛ فرأينا على المركب مستر فُلَر Mr. Fuller الذى اتجه جنوبًا فى النيل وهو رجل فاضل دمث الخُلُق ثم شَرُفت بمعرفته بعد ذلك فى القاهرة. صحب هذا الرجل شخصًا اتجه إلى الجنوب فى النيل لتوزيع نسخ من الكتاب المقدس باللغة العربية لخدمة المجتمع. ومن المؤسف أنه لم يكن على دراية كافية ببعض الأماكن المعينة فى مصر

وبمديرية الفيوم التى يقيم بها الكثير من الأقباط المسيحيين الذين سيسعدون بالحصول على نسخة من الكتاب المقدس. رأيت فى المركب سالف الذكر شخصًا غريب الهيئة والمنظر مما جعلنى أتساءل عن هويته من يكون. واندهشت كثيرًا عندما اكتشفت أنه مستر بيرس Mr. Pearce الذى كان يسكن فى الحبشة لعدة سنوات وقد تركه هناك اللورد فالنتشيا Lord Valentia، الذى أصبح الآن إيرل ماونتنورس. وسرعان ما تعارفنا، لكنى أشعر بالأسف لأننى لم أقابله إلا فى هذه المناسبة، لأننا لم نَبْقَ معًا سوى وقت قصير للغاية. أجاب الرجل على الأسئلة التى تمنيت أن أطرحها عليه بخصوص هذه البلاد بصورة أقنعتنى بأنه رجل نشيط لا يركن إلى حياة السكون والخمول، معتادٌ على المشقة والتعب ولاشك أن الحياة والمتاعب التى مرَّ بها أثناء إقامته فى الحبشة ستكون شائقة بالنسبة للجمهور. لم نتوقف فى القاهرة سوى بضعة أيام واستأنفنا رحلتنا إلى رشيد وهناك أنزلنا قطع الآثار المختلفة والمسلة والتابوت الذى عثرنا عليه فى إحدى مقابر الملك وغطاء تابوت آخر هو أفضل قطعة أثرية بين كل القطع الأثرية التى جمعتها لحسابى الخاص. سقط ذلك الغطاء من تابوته عندما فُتِحَ ذلك التابوت عُنوة، ولأنه كان مقلوبًا على وجهه، فإنه ظل مدفونًا تحت الحجارة ولم يلحظ أى من الرحالة وجوده. أزلت كل الحجارة ووجدت بعدما تفحصت الجزء السفلى من التابوت نقشًا بارزًا[٢١] عاليًا بديعًا أكبر من الحجم الطبيعى وكان بحالة ممتازة بأكمله فيما عدا القدم. بعد أن رفعت الحجر اكتشفت وجود نقشَيْن آخرين - إلى جانب النقش المذكور الذى يتوسط الغطاء - على الجانبين بالنقش البارز ضئيل البروز[٢٢]

(٢١) النقش أو النحت الناتئ alto relievo: تبرز النقوش وفقًا لهذا النوع من النحت فيه من خلفيتها بأكثر مما يعادل نصف سمكها. ويسمى النحت الناتئ باسمه الإيطالى ألتو ريليفو. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

(٢٢) النقش البارز basso relievo: تبرز النقوش وفقًا لهذا النوع من النحت فيه من خلفيتها بأقل من نصف سمكها ضئيلة البروز، وإذا كان العمل محكم الإنجاز، تظهر النقوش كأنها بارزة أكثر مما هى فى الحقيقة. وأشهر نموذج للنحت الضئيل البروز إفريز البارثينون. أحيانًا يكون النحت الضئيل البروز مسطحًا تقريبًا، كما هو الحال فى صورة منقوشة على قطعة نقدية. ويعرف النحت الضئيل البروز باسمه الفرنسى باس ريليف. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

وهما يتمتعان بحالة جيدة للغاية فيما عدا الأقدام أيضًا ويعزى سبب احتفاظها بحالتها كما هى إلى وضع التابوت المقلوب. بعد أن نقلنا كل تلك الأشياء على ظهر أحد القوارب مرة أخرى، ذهبنا إلى الإسكندرية بنية وعزيمة لا تلين على الانطلاق حين تسنح أول فرصة وشعرت رغم ذلك بكثير من الأسى لرحيلى عن البلد التى تمنيت أن أمضى به فترة أطول دون التعرض للمتاعب، لكن فى ظل الظروف التى واجهتها لم يكن أمامى سوى التعجيل بالرحيل. إلا أن الوقت لم يَحِنْ حتى الآن. وجدت لدى وصولى الإسكندرية خطابات من القنصل ومستر بانكس ردًا على خطاباتى التى أرسلتها إليهما من بيبان الملوك. أرسل هذه الخطابات رجل من العرب حتى القاهرة ومنها إلى الإسكندرية. أشار القنصل علىَّ بالتوقف حتى يصلنى الرد من إنجلترا وحتى أحصل على تعويض عن السلوك الشائن الذى قام به هؤلاء الرجال الأفاضل. كان ذلك آخر شىء يمكننى أن أتمناه لأننى أعرف عن هذه البلاد ما يكفى لأن يجعلنى أعرف ما سيؤول إليه الأمر فى النهاية، كما أننى على علم بمدى تأثير رئيسهم ونفوذه بينهم وأنا على ثقة بأنه سيعمل كل ما فى وسعه لمنع تحقيق العدالة؛ لذا شعرت برغبة فى الرحيل لاسيما أن الطاعون ضرب البلاد فى ذلك الوقت، إلا أن مستر لى Mr. Lee نائب القنصل فى الإسكندرية ذكر لى أنه أدلى بشهادته عن الأحداث التى وقعت فى طيبة وعرضها على القنصل الفرنسى مستر روسل Mr. Rousell. كنت سعيداً للاهتمام الذى حظيت به قضيتى، لكننى لم أعلق آمالاً كبيرة على الحصول على أى تعويض لأن هذا الأمر لم يحدث قط فى تلك البلاد وخصوصًا ضد مثل هؤلاء الناس. أخذ مستر دروتى الذى كان فى الإسكندرية فى ذلك الوقت على عاتقه الدفاع عن وكلاء أعماله، بل قدم احتجاجًا ضد القنصل البريطانى مستر سولت الذى توجه إليه بالاتهام على حد تعبير الأول وتم التوصل إلى اتفاق بأن يترك الموضوع جانبًا لحين عودة مستر سولت من صعيد مصر؛ وبذلك تأجل رحيلى حتى تلك الفترة. فى تلك الأثناء شَرُفْتُ بالتقرب إلى مستر بريجز Mr. Briggs وهو رجل فاضل تعرفت عليه قبيل رحيله إلى أوروبا بيوم واحد وهو الرجل الذى اقترح على باشا مصر شق قناة من الفوّة إلى الإسكندرية لتسهيل نقل منتجات البلاد على السفن الأوروبية فى الميناء، تلك السفن التى كانت

تضطر فى الأحيان إلى الانتظار ستة أشهر وفوقها البضائع نظراً لصعوبة عبور البوغاز أو المضيق الذى يمر بمصب النهر؛ وتظل القوارب محملة بالبضائع لمدة ثلاثة أشهر دون أن تتمكن من العبور. يبلغ طول هذه القناة ٤٠ ميلاً، كما تكلف شقها أكثر من ثلاثمائة ألف جنيه للانتهاء منها، إلا أن هذه القناة أدت إلى تسهيل حركة النقل بدرجة كبيرة كما عادت بالمنفعة على التجارة فى مصر بوجه عام.

قبل ذلك الحين كان الرجل الغريب – الذى أشرت إليه من قبل – قد وصل إلى الإسكندرية وتغير موقفه تماماً كشاهد حيث وقع باسمه على شهادة كتبها ليبولو بنفسه وهى شهادة لا تدين الفريق الآخر بالطبع. وعندما أُستدعيَ لتقديم الأدلة نسى ذلك الرجل أنه رأى هؤلاء الناس يأخذون أسلحتهم ويركضون نحو المكان الذى كنت فيه. وبالرغم من الموضوعات أو الكلمات التى حاولت تذكيره بها وتكرارها على مسامعه، فقد نسى كل شىء ولم يتورع عن القول أمام القنصل مستر "لى" بأنه كان على استعداد للتوقيع باسمه من أجلى كما فعل من أجل غيرى لو أننى طلبت منه ذلك قبله أو لو أننى كتبت الشهادة بنفسى. بعد أن ثبت تناقض الشهادة التى أدلى بها، ذهب الرجل إلى مكتب القنصل – وبكل برود ولا مبالاة – أدلى فعلاً بشهادة تناقض ما سبق أن أكده لصالح الجناة. فقد قال الرجل من قبل إنه كان موجوداً أثناء المشاجرة أو المشادة الكلامية كما يسميها الأستاذة الأفاضل من الطرف المناوئ لنا وها هو يقول الآن إنه سمع من مستر دروتى ووكلاء أعماله بوقوع مشادة كلامية. كان هذا ما استعد به الرجل الغريب من وسائل للدفاع عن نفسه. ولننتهى الآن من الحديث عن هذا الرجل. ما كاد الرجل يبلغ خصومى بنيتى فى تقديم التماثيل الأربعة سالفة الذكر كهدية إلى أحد القصور الملكية الأوروبية حتى اجتمعوا مع بعضهم البعض على الفور وتم تنفيذ كل شىء فى سرية تامة. وُضِعَت بعض التماثيل الخاصة بهم على ظهر إحدى السفن المتجهة إلى أوروبا واختيرت مجموعة من الآثار لعرضها للبيع على القصر الملكى سالف الذكر. وفى الوقت الذى ظننت فيه أن تماثيلى فى طريقها بحراً إلى أوروبا كما أسلفت، اكتشفت أن الرجل الغريب رحل ومعه ما حصل عليه من خصومى ليتركنى وتماثيلى حتى أتعرف عليه بصورة أحسن.

أنا لا أقصد إلقاء اللوم على أى أحد لمحاولته القيام بأى عمل يرى فيه مصلحته طالما أنه يقوم به بطريقة شريفة، لكننى لا أستطيع منع نفسى من القول إنه مهما كانت الصفقة التى أمكنه الحصول عليها ومهما كانت الأشياء التى نقلها إلى أوروبا من أجل خصومنا، فإن الطريقة التى حصل بها على ما أراد خاطئة إلى أبعد الحدود.

رأيت أن لدىَّ بعض الوقت حتى يصل القنصل ولم أعرف كيف أشغل نفسى فى هذه الفترة؛ ففكرت فى القيام ببعض أعمال البحث فى الوجه البحرى ولم يساورنى الشك فى أننى سأواجه بعض الصعاب هناك أيضًا لأن زعيم خصومنا لم يكن بعيداً، لكننى لم أستطع البقاء هكذا دون عمل. لطالما تمنيت القيام برحلة صغيرة فى الصحراء الغربية. ولفت نظرى أن معبد جوبيتر آمون كان موضوعًا للدراسة والبحث لمدة طويلة على يد أكثر من رحالة، إلا أن المكان الحقيقى التى يوجد به المعبد لم يتم تحديده بعد. رأيت أن الفيوم من الأقاليم التى لم يرتدها أحد إلا قليلاً ويمكننى القيام برحلة إلى هناك دون أن يزعجنى أحد ومن هناك انطلق إلى الصحراء الغربية. لم أكن لأجد صعوبة فى الحصول على فرمان، لكننى لا يمكننى الحصول عليه دون أن يعرف الجميع وجهة رحلتى؛ لذا رأيت أن من الأفضل الذهاب بدون فرمان على أملٍ أن أتوصل إلى حل بطريقة أو بأخرى. استأجرت من أحد التجار الإنجليز المقيمين بالإسكندرية منزلاً صغيراً فى رشيد بالقرب من الوكالة البريطانية حيث تركت زوجتى. وبناء على ذلك أخذت قارباً صغيراً وانطلقت فى رحلتى إلى الفيوم.

الرحلة إلى واحة سيوة

غادرت رشيد فى يوم العشرين من إبريل ووصلت إلى بنى سويف فى التاسع والعشرين من نفس الشهر عام ١٨١٩ . أخذت معى خادمًا صقليًا استأجرته من الإسكندرية نظراً لعودة غلامى الأيرلندى إلى إنجلترا من القدس مع مستر ليف Mr. Legh. اصطحبت معى أيضًا أحد الحجاج المغاربة الذى كان فى طريق عودته من مكة والذى طلب إلىَّ أن آخذه على ظهر قاربنا إلى قنا. رأيت فى صحبة هذا الحاج

بعض الفائدة بالنسبة لنا وثبت عظم الفائدة التى حصلت لنا من صحبته. وفى بنى سويف اشترينا بعض الحمير كوسيلة انتقال وبعض الطعام يكفينا للوصول إلى بحيرة موريس.

بدأت الرحلة فى يوم التاسع والعشرين، سرنا فى طريقنا عبر سهل واسع من الأراضى المزروعة قمحًا وغير ذلك من منتجات البلاد. تغمر المياه هذا السهل بأكمله فى موسم الفيضان فيما عدا القرى المتناثرة هنا وهناك والتى تقف مرتفعة عن الماء فتبدو كما لو كانت جزرًا كثيرة فى تلك الأثناء. وتبعد سلاسل الجبال المنخفضة التى تقع جهة الغرب قرابة خمسة عشر ميلاً عن النيل. وتنفتح هذه الجبال لتكوّن واديًا يصل إلى الفيوم ووصلنا عند هذا المدخل فى أول ليلة من رحلتنا. ويمر بحر يوسف بقلب هذا الوادى ويدخل إلى الفيوم بعد أن يأخذ مجراه اتجاهات متموجة[٢٣]. توقفنا تحت بعض أشجار النخيل بالقرب من الماء بما يبعد حوالى ميلين عن الهرم الأول. هنا وبعد أن تناولت وجبة خفيفة ذهبت لأنام فى فراشى المعتاد وهو عبارة عن فراش قليل السُمك بدرجة تجعل منه سرجًا إذا طويته نصفين، لكننى لو فرشت هذا الفراش على الحصيرة أو على الأرض فإنه سيمثل سريرًا لا بأس به بالنسبة لأى رحالة. استمر الخادم الصقلى والحاج المغربى وسائقو الحمير فى مراقبة جهتهم ورتبت أنا هذا الأمر بحيث يلاحظ الناس هذا النظام أثناء رحلتنا كلها.

فى يوم الثلاثين انطلقنا فى الرحلة قبل الشروق وسرعان ما وصلنا إلى الهرم المكون من قوالب الطوب المحروق فى الشمس، كما يستقر على أرض مرتفعة عند سفح التل الموجود على الجانب الشمالى من الوادى. وتغطى الرمال والحجارة قاعدته من جميع الجهات. يرتفع الهرم ٦٠ قدمًا، لكن لابد أن ارتفاعه الحقيقى كان أكثر من ٧٠ قدمًا نظرًا لسقوط قمته ويبلغ ارتفاع القاعدة فوق الرمال ٨٠ قدمًا. لفت انتباهى العديد من قوالب الحجارة الكبيرة مختلطة بقوالب الطوب بما يسمح بتدعيم الكتلة كلها وتقويتها. يبلغ طول قالب الطوب ١٢ و١٤ و١٦ بوصة، أما عرضها فهو إما خمس أو

(٢٣) أورد بلزونى فى الأصل كلمة serpentine. [المترجم]

ست بوصات. صعدت الهرم وتمكنت من فوق قمته من رؤية الوادى بأكمله ومدخل الفيوم. استطعت بعد أن قطعنا مسافة ساعتين فقط من المشى أن أرى الهرم الآخر جهة الغرب وهو يقع على أرض أقل ارتفاعًا؛ ولذا فإنه يظهر أقل ارتفاعًا. وعندما مضيت أكثر جهة الغرب رأيت مدينة الفيوم التى تقوم على أنقاض مدينة أرسنوى(٢٤) القديمة، وتتمتع المدينة بمنظر يدعو إلى الاحترام من على بُعد. هبطت من هذا الهرم إلى القناة مرة أخرى وعبرت جسرًا صلبًا يقع عند الجهة الغربية من الوادى. بعد ذلك استأنفنا الرحلة على طول سفح هذه التلال حتى وصلنا إلى الهرم الآخر. عبرنا النهر على ظهور الحمير حتى نصل إلى الغرب ومررنا خلال فرع آخر من نفس النهر، وكان هذا الفرع جافًا تقريبًا فى ذلك الموسم. دخلنا مكانًا تبلغ مساحته ٦٠٠ قدم مربع محاطٌ بأسوار عالية من الطين لحماية الأرض سالفة الذكر من فيضان القناة كما هو واضح. لاشك أن هذا الموضع كان مهدًا لمدينة قديمة لم يبقَ منها شىء سوى بضعة قوالب من حجر وبعض أشياء مصنوعة من الطوب. مضينا قدمًا نحو الهرم ووصلنا إلى سفح هذا الهرم بعد أن عبرنا قناة صغيرة شقها أحد حكام مصر المتأخرين. وجدت أن ارتفاع قاعدة الهرم لا يزيد سوى ٣٠ قدمًا عن مستوى سطح المياه فى القناة وأنه فى نفس حجم الهرم الأول تقريبًا. يحيط بالهرم مقابر أصغر حجمًا، كما توجد آثار باقية من أحد المعابد المصرية من جهة الجنوب ولاشك أن هذه الآثار هى الأكثر روعة. لا يُرى من هذه الآثار الآن إلا بقايا متناثرة من ألوان الجرانيت، ولابد أن أقول إن هذا هو العمود الوحيد من ذلك النوع من الحجارة التى رأيتها فى كل مكان. ولا يوجد فى كل المعابد المعروفة فى وادى النيل ما يمكنه أن يزهو بمثل هذا الشموخ

(٢٤) تسمى حاليًا كيمان فارس وهى تنتشر فى مساحة تبلغ أكثر من ٢٠٠ فدان، ولذا تعد أطلالها أوسع ما عُرف من بقايا المدن المصرية القديمة، وتجرى مصلحة الآثار حفائر فى تلك المنطقة للكشف عما تخفيه من آثار توطئة لتصفيتها لاستغلالها فى التوسع العمرانى. وقد كشفت المصلحة عن مجموعة من الحمامات من العصر اليونانى الرومانى، كما عثرت على أوانٍ فخارية وبعض العملة البرونزية وتماثيل فخارية. الجدير بالذكر أن بطليموس الثانى، فيلادلف، أطلق اسم أرسنوى تمجيدًا لأخته التى تزوجها وسماها اليونانيون كروكوديلوبوليس أى مدينة التمساح. [المترجم نقلاً عن كتاب الآثار المصرية فى وادى النيل (منطقة مصر الوسطى) - تأليف جيمس بيكى - الألف كتاب - ١٩٦٧]

والعظمة. هناك الكثير من المقابر المبنية على الطراز المصرى القديم وهى مقطوعة تحت الأرض. غادرنا هذا المكان ووصلنا إلى مدينة الفيوم فى نفس المساء. وتتميز البلاد كلها بالخصوبة الشديدة، كما تتناثر مزارع أشجار الفاكهة والورود هنا وهناك. ويشتهر هذا المكان بنبات ورد الماء الذى يباع فى القاهرة وكل أنحاء مصر لعلية القوم الذين يحرصون على نشره فى دواوينهم وأماكنهم الأخرى، بل وعرضه على أى غريب يزورهم. اقتربنا من البلدة ووافقت على أن نزور بيت يوسف بك حاكم ولاية الفيوم، لكننى عرفت أنه ذهب إلى القاهرة. لكننى تمكنت من الحصول على فرمان ودليل بعدما تقدمت بطلب إلى كاخيا بك وكان هذا كل ما أردت آنذاك بالإضافة إلى الإقامة فى إحدى غرف البيت.

وفى يوم الواحد والثلاثين، صحبنا جندى كدليل إلى بحيرة موريس. انطلقنا فى نفس اليوم عبر الطريق المؤدى إلى جهة الشمال ومررت بآثار أرسنوى الواسعة وأجلت إلقاء النظر عليها لحين عودتى ذلك أننى نويت العودة من نفس الطريق. بدت البلاد طوال سفرنا رائعةً وخصبة الأرض. وعند الظهيرة وصلنا إلى القصر وبقايا آثار معبد قديم وموضع بلدة لم يبقَ منها سوى جزء من الجدران. لم يكن المعبد ضخمًا بدرجة كبيرة بسبب ما بقى من أساسه وقطعتين من الجدار. ويتكون الجزء المتبقى منه من قوالب كبيرة من الحجارة ليس عليها نقوش هيروغليفية. وصلنا ليلاً إلى سنورس وهى قرية تقع على بعد ١٠ أميال تقريبًا من بحيرة موريس.

استأنفنا رحلتنا فى صباح يوم الأول من مايو وبعد مرورنا بالعديد من بساتين النخيل وغيرها من المزارع والحقول كما سبقت الإشارة، انفتح المنظر فجأة على أرض برية تنحدر تدريجيًا حتى حافة البحيرة. تمتد المياه من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، بينما تشكل الجبال من ناحية أخرى منظرًا يتسم بالقبح والجدب. وعند الظهيرة وصلنا إلى البحيرة لكننا لم نجد أى أثر لحياة هناك. قاد الدليل الرحلة على طول الشاطئ حتى وصلنا إلى مسكن صغير أو كوخ من أكواخ الصيادين يقع بالقرب من مصب القناة أو بحر يوسف فى البحيرة ولم نرَ هناك شيئًا إلا قاربًا صغيرًا متعفنًا.

ويسكن الكوخ عدد من الصيادين وجندى كان يجبى الضرائب عن السمك الذى يصيدونه. أما الآن، فليس للصيادين سوى حصة من السمك الذى يصيدونه ويباع الباقى فى مدينة الفيوم ويصل إلى الباشا ربح هذا البيع. طلب الدليل قاربًا وأُرْسِلَ فى طلبه من على بُعد أعلى القناة، فلما وصل لم أرَ شيئًا يمكن أن نشبهه به أكثر من قارب باريس القديم[٢٥] أو قارب قارون الذى كان مختلفًا عن شكل القوارب العادى تمام الاختلاف. فالهيكل الخارجى من هذا القارب يتكون من قطع من الخشب تكاد تتصل ببعضها البعض وتربطها أربع قطع أخرى وتغطيها أربع أخرى فوقها بما يشكل ظهر المركب. ليس هناك أى زفت أو قطران من الخارج أو الداخل لحماية المركب من الماء وتستخلص المادة الوحيدة لحماية القارب من الماء من أحد الأعشاب الذى يرطبونه بالماء ويوضع بين ألواح الخشب. بعد أن توصلنا إلى اتفاق مع صاحب المركب، ولعله هو الشخص الذى أطلق اسم قارون المسن عليه، وضعنا على ظهر المركب بعض الطعام وانطلقنا جهة الغرب إلى حيث يفترض وجود المتاهة الشهيرة. وماء البحيرة صالح للشرب، إلا أن به نسبة من الملوحة ولم يتمكن أحد من شرب الماء من البحيرة إلا فى هذا العام فقط نظرًا لفيضان النيل غير العادى الذى غمر كل الأراضى المرتفعة فضلاً عن بحر يوسف وجرت المياه سيولاً إلى البحيرة مما ترتب عنه ارتفاع منسوب الماء ١٢ قدمًا أعلى من أقصى ارتفاع وصل إليه حسبما تذكره أكبر الصيادين الموجودين بيننا سنًا. تقدمنا بمركب باريس أو قارون القديم نحو الغرب. وعند الغروب لم أرَ على الشاطئ إنسانًا ولم يظهر أمامنا سوى البحيرة والجبال إلى الشمال منها. أشعل قارون المسن وقائد المركب نارًا، فى الوقت الذى ذهب فيه الآخر لصيد السمك بالشبكة وسرعان ما عاد إلينا بعشائنا من السمك.

كانت الأرض التى نحن بها الآن أرضًا زراعية فى القدم مما يبدو من العديد من الآثار المتحجرة تقريبًا من أشجار النخيل المقطوعة وغيرها من الأشجار. كما رأيت

(٢٥) قارب باريس القديم old Baris: هو القارب الذى كان قدماء المصريين يحملون فيه موتاهم إلى المقابر. [المؤلف]

أيضًا أشجار الكرم بأعداد كبيرة. كان المنظر هنا رائعًا حيث سكون الليل وأشعة القمر التى تسقط على مياه البحيرة الساكنة وعزلة المكان ومنظر المركب والصيادين والمعبد الذى يحمل اسم قارون القديم أو المسن والذى يبعد عنا قليلاً مما جعلنى أذكر بحيرة أكيرون[٢٦] Acheron وقارب باريس وقائد القارب المسن فى نهر ستيكس[٢٧] Styx. وأدركت أن هذا المكان هو نفس المكان الذى أبدع فيه الشعراء حكاية مرور الأرواح فوق نهر النسيان[٢٨] river of Oblivion. لا شىء يمكن أن يكون أكثر إمتاعًا للخيال من وجودى بالقرب من إلسيوم[٢٩] Elysium، بل فى إلسيوم نفسها. ورأيت

(٢٦) بحيرة أكيرون Acheron Lake: أكيرون نهر فى هايدس Hades وفقًا للأساطير الإغريقية، وهو أيضًا اسم نهر يقع جنوبى إبيريس فى اليونان، ويجرى هذا النهر تحت الأرض لمسافة (٥٨) ميلاً إلى أن يصب فى البحر الأيونى. [المترجم]

(٢٧) ستيكس Styx: نهر مظلم فى العالم السفلى فى مجموعة من الأساطير اليونانية والرومانية. وستيكس كلمة يونانية الأصل تعنى الشىء المكروه. وغالبًا ما كان يوصف المراكبى شارون بأنه كان يسير بقاربه وسط أرواح الموتى عابرًا نهر ستيكس، وكانت الآلهة تقطع على نفسها العهد المقدس بالنطق باسم ستيكس، وإذا ما خالفت تلك الآلهة مثل هذا العهد فإنها تُعاقب بقضاء تسع سنوات فى تارتارس، وهى حفرة عميقة توجد فى العالم السفلى. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

(٢٨) نهر النسيان river of Oblivion: وفقًا للأساطير الإغريقية، هو نهر النسيان الذى يقع فى العالم السفلى. وتشرب أرواح الموتى من مائه حتى ينسوا آلام حياتهم على الأرض قبل دخول الإلسيوم. وعندما زار الأمير الطروادى إينياس Aeneas عالم الموتى وجد عددًا كبيرًا من الأرواح تتجول عند ضفاف النهر. وأخبره والده أنكسيس Anchises الذى سعد بلقائه بعد طول فراق أن هذه الأرواح لابد أن تشرب من نهر النسيان قبل الحياة مرة أخرى فى العالم العلوى وذلك حتى ينسوا السعادة التى عاشوها فى الإلسيوم. [المترجم]

(٢٩) إلسيوم Elysium: تعرف أيضًا بالحقول الإليسية، وفى الأساطير اليونانية القديمة هى الفردوس قبل العصر الهيلينى، أرض السلام والسعادة الكاملة. وتظهر الإلسيوم فى أعمال الشاعر هوميروس كأرض تقع فى أقصى الطرف الغربى من العالم حيث يُحمل إليها الأبطال العظام بالجسد والروح حتى يصبحوا خالدين. ويجدون هناك الحرية لعمل ما يحلو لهم من أنشطة، كما لا يعرفون الهموم والقلق والمرض. لكن ما لبث أن أصبحت الإلسيوم مقرًا لمن حلت عليهم البركات من الموتى حيث تعيش أرواح من مات من الأبطال والشعراء والكهنة وغيرهم فى سعادة كاملة تحيط بهم الخضرة والأشجار والنسيم العليل ويغشاهم نور سرمدى تغلفه رائحة الورود.

كانت الإلسيوم، وفقًا للأساطير الرومانية، جزءًا من العالم السفلى والمكان الذى يُثاب فيه الصالحون من الموتى. وهى بالنسبة للبعض ليست سوى فردوس أو جنة مؤقتة. ويتدفق عند أطراف حقولها الخضراء الندية نهر "الليذى" أو نهر النسيان الذى تشرب منه كل الأرواح التى ترجع إلى العالم العلوى مرة أخرى. [المترجم]

النباتات التى تبدو الآن شبه متحجرة على أنها نفس النباتات حينما كانت الأرواح تتمتع بسعادة صفوها ونقائها. كنت أتجول على طول ضفاف البحيرة مستغرقًا وحدى فى التفكير، لا أختلف كثيرًا عن أى من تلك الأرواح المتجولة التى تنتظر دورها لعبور نهر ستيكس، فى تلك الأثناء كان قارون المسن يعمل هو وصحابه من أشباه الشياطين على تحضير طعام العشاء. أتمنى لو كنت شاعرًا لأغنى بالشعر ما دار بخلدى من أفكار وأحاسيس جميلة شعرت بها فى ذلك الموقف. ورأيت أن هذه الليلة واحدة من أسعد الليالى فى حياتى وأنا بعيد عن أيدى البشر الأشرار. وبينما أنا سعيد وسط الحقول التى تشبه حقول إلسيوم، لم أشعر بالخوف من صنوف الحقد والخيانة وألوانها من حسد وغيرة وغل وانتقام ولا من ألف أخرى من حِيَل البشر. كدت أنسى أننى لا زلت على قيد الحياة والظن أننى لو ظللت منتشيًا هكذا لتأكدت أن هذه المياه تتمتع بقوة النسيان.

وفى يوم الثانى من الشهر دخلنا باريس القديمة قبل طلوع الشمس ثمَّ عرجنا نحو الغرب حتى وصلنا بالقرب من آخر البحيرة الذى امتد هذا العام وفقًا لرواية هؤلاء الصيادين أكثر مما استطاعوا تذكره نتيجة للفيضان الكبير سالف الذكر. نزلنا فى هذا المكان، واصطحبت اثنين من المراكبية وانطلقنا إلى المعبد المسمى بقصر قارون الذى يبعد حوالى ثلاثة أميال عن البحيرة. ويقع هذا المعبد وسط الآثار المتهدمة لمدينة لم يبقَ منها شىء يذكر سوى جزء من حائط وأساس العديد من البيوت ومعابد صغيرة أخرى. كما يوجد بها آثار متهدمة لأعمدة وكتل من الحجارة من الحجم المتوسط. يتمتع المعبد بحالة جيدة فيما عدا الجزء العلوى، فهو يمتاز بطراز معمارى غريب ومختلف إلى حد ما عن الطراز المعمارى المصرى، لكننى أعتقد أن هذا الجزء تعرض للتغيير أو أُعيد بناؤه وتقسيمه إلى العديد من الحجرات الصغيرة كما يتضح من الصورة فى اللوحة رقم (٣٢). ليست هناك أية نقوش هيروغليفية بالداخل أو بالخارج ولا تظهر سوى لوحتين على حائط الجانب الغربى من الحجرات العلوية إحداهما لأوزوريس والأخرى لجوبتر آمون. يوجد أمام هذا المعبد عمود شبه دائرى على كل جانب من جوانب الباب وعمودان ملتصقان بالحائط، لكن من الواضح أن التصميم الخارجى

يرجع إلى زمن متأخر عن المعبد. هناك جزء من المدينة تغطيه الرمال ويوجد على الجانب الشرقى منها شىء أشبه ببوابة تتخذ شكل ثمانى الأضلاع وتقع إحدى الكنائس اليونانية الصغيرة على بعد مسافة صغيرة منها وترتفع الكنيسة فوق شرفة عالية وتحتها أكثر من قبو.

بعد أن ألقيت نظرة سليمة على المعبد والمدينة، ذهبت لرؤية الكنيسة اليونانية الصغيرة يصحبنى الاثنان المراكبية وتركت بندقيتى والمسدسات فى المعبد إذ لم تبدو هناك أية بوادر خطر، إلا أننى عانيت من جراء حماقتى وتسرعى لأنه وبمجرد أن صعدت بضعَ سلمات تؤدى إلى شرفة الكنيسة الصغيرة حتى انطلق ضبع كبير من الحجرات القريبة من الكنيسة، ولولا وجودى على السلمة الأولى لما تمكن من تفادى مهاجمتى، فليست أمامه أية طريق أخرى يمكن بها الخروج سوى ذلك. وقف الحيوان على بُعد ثلاث أو أربع ياردات، بعدها استدار لى كما لو كان ينوى مهاجمتى، لكن مما يبدو أنه غيَّر رأيه بعد تفكير وبعد أن كشر عن أنيابه الرائعة وزأر زئيرًا منفرًا وانطلق يجرى بأسرع ما يمكن. ندمت فى هذه اللحظة على عدم أخذ أى من الأسلحة معى، لكننى سعدت حينما رأيته يذهب بعيدًا. وأنا أعزو هروبه بالصوت العالى الذى أصدره المراكبية اللذين كانا بالقرب منى ورأيا أن الضبع كان سيفترسهما.

من الواضح أن هذه الكنيسة الصغيرة بنيت فى عصر متأخر عن سائر الآثار التى لم يبقَ منها شىء سوى القليل. هناك على الجانب الغربى من المعبد أجزاء من المبانى الأخرى المتصلة بالحائط. ورأيت العديد من قطع الرخام والجرانيت الأبيض. استنتجت من الجرانيت وجود مبنىً من المبانى المهمة فى هذه المدينة نظرًا لصعوبة نقله إلى هناك أكثر من أى مكان آخر فى مصر بسبب طول المسافة. لكن مهما يكن من آثار الجمال التى يمكن رؤيتها فى المدينة، فإنه لا يبدو أن هذا المكان هو نفس مكان المتاهة الشهيرة ولا أى شىء مكانها. وفقًا لكتابات هيرودوت وبلينى وغيرهما لا يوجد أدنى دليل يضمن وجود مثل هذا المبنى فى ذلك المكان. كانت المتاهة عبارة عن مبنىً مكون من ٣ آلاف حجرة نصفها بالأعلى ونصفها الآخر بالأسفل. إن إنشاء مثل هذا الصرح

المعمارى الضخم وتلك الكمية الهائلة من مواد البناء المتراكمة لابد أن يترك عينات بما يكفى لأن يراها الرائى حيث كانت، لكننا لم نرَ أى أثر لأى شىء. يبلغ محيط المدينة حوالى ميل واحد ويقع المعبد فى قلبها مما جعلنى لا أفهم كيف يمكن للمتاهة أن تقع فى هذا المكان. وعلى هذا الأساس غادرت المكان ومررت فى طريق عودتى نحو البحيرة بشريط من الأرض التى كانت مزروعة فى يوم من الأيام، كما شاهدت عدداً كبيراً من النباتات المقطوعة المحترقة تقريباً. ولدى وصولى إلى البحيرة هبت رياح عالية من جهة الجنوب الغربى مما أدى إلى زيادة منسوب المياه فى البحيرة زيادة كبيرة وتراكم الرمال فى الهواء وتحرك مركبنا نحو الشاطئ. جمعنا فى ذلك المكان سالف الذكر كمية كبيرة من الخشب وأشعلنا ناراً وأمضينا الليل تحت حصيرة معلقة على عصاتين مغروستين فى الأرض.

توقفت الرياح قبل صباح اليوم الثالث وسرعان ما عادت مياه البحيرة إلى طبيعتها. انطلقنا بالمركب مرة أخرى وتحولنا بمسارنا طوال اليوم إلى الشمال باتجاه الشاطئ. ولم أرَ عند سفح الجبل الذى يحد البحيرة عند تلك الناحية أى شىء يستحق الذكر. يوجد فى عدد قليل من الأماكن القريبة من ضفاف البحيرة كميات كبيرة من الأعشاب التى تنمو من تحت الماء، كما توجد كمية كبيرة دائماً من الصيد وسط هذه النباتات. وينتشر البجع على هذه البحيرة كما هو الحال على النيل. وهناك الكثير من البط البرى ونوع من الطيور يُدعى الشُّنقُب[٣٠]. وقبيل المساء وصلنا إلى الشاطئ المقابل للشاطئ الذى أبحرنا منه وقرر المراكبية عبور البحيرة فى صباح اليوم التالى وأخذونا مرة أخرى إلى المكان الذى أبحرنا منه أولاً، لكن على ما أذكر أننى رأيت إحدى المدن فى بعض المواضع التى تصف تلك البحيرة ليست على مبعدةٍ من المكان الذى كنا فيه. وفى صباح يوم الرابع وبدلاً من الصعود على ظهر المركب، اتخذت طريقى نحو الجبال. جرى العسكرى والمراكبية ورائى كى يقنعونى بعدم وجود أى شىء يستحق المشاهدة هناك، غير أننى أخبرتهم بأننى لابد أن أتسلق الجبال لرؤية البحيرة

(٣٠) الشُّنقُب snipe: طائر غواص ذو منقار طويل مستقيم يعيش فى المستنقعات. [المترجم]

والبلاد المحيطة بها جميعًا. وتصادف أن قال واحد منهم على غفلة منه إنه لا يوجد أى شىء هناك سوى بعض البيوت المتهدمة وأحد الأسوار العالية. كان ذلك كافيًا بالنسبة لى. وبعدما أمَّنْتُ الرجل بأساليب الترغيب والترهيب، أصررت على أن يدلنى على المكان المذكور. وبناء على ذلك انطلقت مع طاقمى كاملاً، ولم نكد نصل إلى قمة السلسلة الأدنى من الجبال حتى وقعت عينىَّ على آثار مدينة ليست بالبعيدة. ولدى وصولى اكتشفت أنها مدينة إغريقية (انظر اللوحة رقم ٢٣) ولا يمكن أن تكون هذه المدينة سوى مدينة باخوس Bacchus التى رأيتها فى بعض من خرائط الكُتَّاب القدامى. هناك عدد كبير من البيوت نصف المتهدمة وسور عالٍ من الطوب المحروق فى الشمس يحيط بأنقاض معبد. لا تتسم البيوت بالوحدة، فهى غير مبنية بأى نسق أو نظام كالشوارع، بل تفصل بينها الحوارى الضيقة التى لا يزيد عرضها عن ثلاث أو أربع أقدام وكلها مبنية من الطوب المحروق فى الشمس. هناك ممر أو طريق يمتد خلال المدينة إلى المعبد الذى يواجه ناحية الجنوب. شاهدت فى قلب المدينة عددًا من البيوت، بل قل المخازن أو القبو تحت الأرض كما يظهر من أعلاها تغطيها قطع من الخشب القوى فوقها بعض الخيزران وبعد ذلك فوقها طبقة من الطوب على مستوى سطح الأرض بحيث يمشى المرء عليها دون أن يحس أنه يطأ بقدمه على سقف بيت. أتى الصيادون ببلطاتهم فأصدرت الأوامر بإماطة اللثام عن اثنين أو ثلاثة من هذه البيوت. وجدنا بعد إزالة طبقة الطوب طبقة أخرى من الصلصال ثم طبقة من الخيزران التى كانت محترقة تقريبًا وأخيرًا تحت الخيزران بعض عروق الخشب التى يتكون منها السقف. كان الخشب بحالة جيدة ويتمتع بقدر من الصلابة. وكان الكوخ أو القبو مملوءًا من الداخل بالقمامة والركام، لكن من الواضح أنها كانت مساكن لأننا رأينا فرنًا فى كل منها. ولا تزيد مساحة أى من هذه المساكن عن عشر أو اثنا عشر قدمًا مربعًا، أما حلقة الوصل بين البيوت فهى حارة ضيقة لا يزيد عرضها عن ثلاث أقدام وهى مغطاة أيضًا. ولا أستطيع أن أتبين السبب وراء سكنى هؤلاء الناس فى مثل هذه الأماكن. من المؤكد أنهم لم يعيشوا فيها اتقاءً لحرارة الشمس، بل على النقيض، لابد أنهم تعرضوا لكل طاقة الشمس التى تسطع فوقهم دون أدنى فرصة لأن تهب عليهم

نسمة هواء أو رياح. كانت البيوت فوق الأرض مصممة على طراز مختلف إلى حد ما عن أي طراز معمارى رأيته من قبل. هناك عدد قليل من البيوت المكونة من طابقين، أما البيوت الأعلى من ذلك فهى ضيقة للغاية بحيث تميل إلى أن تأخذ شكل الأبراج أكثر من شكل البيوت العادية، لكن الآن قلما وجدت أيًا من هذه البيوت كاملاً. أما المعبد فهو متهدم، لكن مما يبدو أنه كان كبير المساحة والحجم. فقوالب الحجارة تتسم بأنها أكبر حجمًا حيث يصل طول بعضها إلى ثماني وتسع أقدام. وجدنا الآثار المتهدمة فى حالة من الفوضى بما يستحيل معه تكوين أى فكرة عن طرازها أو أساسها. وأكاد أجزم مما أراه أمام عينىَّ أن سقوط هذا المعبد جاء بفعل فاعل، فمما يبدو لى أنه لا يمكن أن يتهدم ويتآكل بهذا الشكل بفعل عامل الزمان البطىء. ورأيت بين هذه الحجارة شظايا تماثيل من الصخر الحصبائى وأحجار أخرى من النحت الإغريقى، لكن لم يكن الجرانيت من بينها ورأيت أيضًا قطعة من تمثال لا تختلف عن أى جزء من تمثال لأبوللو. كما عثرنا على شظايا من تماثيل لسباع من حجر رمادى لا ينتمى إلى هذه الجبال. يمكننى القول مما استطعت رؤيته إن المدينة كانت مكونة من ٥٠٠ بيت، لا تزيد مساحة أكبرها على ٤٠ قدمًا مربعًا. وتبلغ مساحة المنطقة التى يحيط بها السور حول المعبد ١٥٠ قدمًا مربعًا ويصل ارتفاعه إلى ٣٠ قدمًا وسمكه إلى ثمانى أقدام. ويقع أحد الأودية شمالى المدينة، ويبدو أنه كان مزروعًا فى يوم من الأيام، إلا أن الرمال تغطيه فى الوقت الحاضر. وعندما سألت عرفت أن هذه المدينة معروفة عند عرب البحيرة باسم دِمّاى. رجعنا إلى المركب وعبرنا الماء إلى جزيرة الحير وهى جزيرة مجدبة تمامًا ولا يوجد بها أى أثر يدل على سكنى البشر بها. بعد ذلك عبرنا البحيرة شرقًا وشاهدنا العديد من بقايا الأعمدة والأنقاض تحت الماء تقريبًا لنصل فى المساء إلى نفس الشاطئ الذى أبحرنا منه. اتخذت هذا المكان كاستراحة لقضاء الليل إلى الشرق من الكوخ الصغير وأعددت عشاء ممتازًا من السمك الطازج وقطعة من لحم البجع. واتفق أن الجندى الذى كان يعيش هناك ذبح واحدًا من هذه الطيور التهمه الصيادون بمجرد سلقه ولا يختلف لحم هذا الطائر عن لحم الضأن فى المادة والشكل، إلا أن طعمه يشبه كثيرًا طعم ما يُصاد من الطير، فهو طرى للغاية ومستساغ المذاق

فى الفم. لابد أن وزنه بلغ ٤٠ رطلاً على الأقل، أما الدهن فهو كريه المذاق وأصفر اللون كالزعفران.

وفى صباح اليوم الخامس، اتخذت طريقى على الجهة الغربية من البحيرة ورأيت موضع مدينة أخرى يطلق عليها اسم الحَمَّام ولم يبقَ منها شيء سوى بعض القطع المتناثرة من الطوب وجزء من حمَّام. يقع هذا المكان فوق البحيرة بأربعين قدمًا وتغطى الأرض من كل الجوانب الأصداف الصغيرة مثل المحار والأصداف الحلزونية الصغيرة وغيرها من الأصداف التى لا تختلف عن حلزون البحر. عدنا بعد ذلك شرقًا فى نفس اليوم وعبرنا العديد من القرى القديمة المبنية من الطوب المحروق فى الشمس. وقعت عيناى على الكثير من قوالب الحجر الأبيض والجرانيت الأحمر المأخوذة كما هو واضح من صروح أثرية أكبر مما كان موجودًا هناك. وبالنظر إلى الوصف الذى قدمه بلينى لموضع المتاهة الذى يوجد حسب قوله غربى بحيرة موريس، قمت أنا بالبحث الجاد فى هذا الموضوع على وجه الخصوص على الأرض التى كنت أقف عليها آنذاك. لم أرَ أى أثر يذكر لأى مبنى سواء فوق الأرض أو تحتها، لكننى لاحظت فى كل المنطقة المحيطة عددًا كبيرًا من الحجارة والأعمدة ذات الألوان الجميلة من الرخام الأبيض والجرانيت. رأيت القطع الأثرية سالفة الذكر متناثرة هنا وهناك لمسافة عدة أميال، بعضها على الطريق وبعضها الآخر فى بيوت العرب، وأخرى يستخدمها الناس استخدامات متعددة فى بناء الأكواخ وغير ذلك. ولاشك عندى من أن تتبع مصدر هذه الأشياء لابد وأن يُفْضِيَ بنا إلى اكتشاف موضع المتاهة التى لا شك أنها الأكثر روعة وعظمة حتى فى حالتها المتهدمة، لكن ما أخشاه فوات الأوان بالنسبة لمثل هذه الأبحاث ذلك أن سبب اختفائها قد يكمن فى أنها لم تكن مبنىً شاهق الارتفاع، أما الحجرات السفلية كانت تحت الأرض. وربما دُفنت تحت الطين الذى تأتى به مياه النيل إلى هناك كل عام، كما أنه ليس من المستحيل أن تقع المتاهة فى موضع بحيث تغطيها المياه كليةً كما هو الحال فى سائر الآثار الأخرى على الجانب الشرقى من البحيرة التى تغمرها المياه عن آخرها تقريبًا. ومن المؤكد أن الصرف السنوى للنيل فى البحيرة يأتى بكمية كبيرة من الطين أو الغرين ويتركها هناك؛ وبالتالى لابد أن قاع البحيرة قد ارتفع عن مستواه

الأصلى وانتشر فى مساحة كبيرة جداً من الأرض مما يدفعنى إلى الافتراض أن البحيرة المذكورة كانت مستودعًا للاحتفاظ بالمياه أثناء فيضان النيل بحيث يؤدى إلى شىء أشبه بفيضان ثانٍ، ومما هو واضح أنه - أى هذا الفيضان - من صنع الطبيعة وليس من صنع الإنسان، لكن لا يبدو لى أنه من المحال الاستفادة منه كمستودع للغرض المذكور. لا يمكن لهذا الفيضان الثانى أن يمتد خارج حدود الفيوم ويمكن الاحتفاظ بالمياه فى البحيرة أثناء فيضان النيل عن طريق مزلاج بعرض القناة عند مدخل البحيرة ويمكن فتح هذا المزلاج عند انخفاض مستوى المياه، لكن لابد من إغلاق القناة عند مدخل الفيوم من الناحية الشرقية وإلا عادت المياه مرة أخرى إلى النيل عن طريق بحر يوسف. ونتيجة لذلك لا يمكن أن يحدث فيضان ثانٍ فى أى مكان آخر غير الفيوم التى تحيط بها الجبال من الشمال والمرتفعات من الناحية الأخرى بما يصنع بحيرة.

استأنفنا رحلتنا فى اتجاه موازٍ للبحيرة عبر العديد من القرى وغابات من أشجار النخيل وغيرها من أشجار الفواكه الأخرى والأراضى الخصبة ووصلنا عند غروب الشمس إلى فدمين الكنائس التى تعنى مكان الكنائس وهى تقع على تل من الطين والقمامة، ومن الجلى أنه مبنىٌ فوق الآثار المتهدمة الأخرى. المدينة مقسمة إلى قسمين تفصلهما قناة صغيرة متفرعة عن بحر يوسف. هناك جانب من المدينة يسكنه الأقباط المسيحيون ويسكن المسلمون فى الجانب الآخر. ورغم أن كلاً من الديانتين تقوم بمهامها على مرأى ومسمع من الأخرى، فإنهما لا يتدخلان فيما لهما من حقوق. كان الأقباط المساكين محرومين من الوسيلة الأساسية لتعليم أطفالهم وكان المرجع الوحيد لديهم عن تعاليم الدين المسيحى كتاب قديم من المخطوطات المنسوخة من الكتاب المقدس، لكن حتى هذا المرجع ظل محفوظًا بعيداً عن الناس باعتباره الشىء الوحيد الباقى لديهم. ولو تصادف أن معى نسخة من الكتاب المقدس أو العهد الجديد باللغة العربية لأصبحت بحق رجلاً عظيمًا بينهم، وإنى لأتساءل عن إرساليات جمعية الكتاب المقدس التى زارت مصر مؤخراً وتجاهلت هذا المكان رغم كونه من المدن المسيحية المعروفة، وأنا أفترض أن الأعمال الشامخة لفرعون القديم جعلتهم ينسون موسى وأتباعه وكل من يرغبون فى معرفة أى شىء عنه. غير أننى وإحقاقًا للحق أقول إن شابًا

يدعى بيركهارت، وهو ابن عم صديقى العزيز الرحالة الشهير الذى يحمل نفس الاسم، جاء دون حماية إلى مصر بغرض توزيع نسخ من الكتاب المقدس؛ وتعرض على إثر ذلك للمطاردة من قبل السلطات مما اضطره للهرب على وجه السرعة. فذهب إلى الشام ولم يستطع بسبب شدة الإرهاق أو ربما بسبب تأثير المناخ المضى إلى أبعد من حلب حيث مات. ويؤسفنى القول إن مَنْ جاءوا بعده ووصلوا إلى النيل ومعهم الحماية وكل وسائل الراحة لم ينجحوا فى رحلتهم هذه إلا قليلاً.

ومما يذكر فى تراث مدينة فدمين الحناسيس أنه كانت هناك فى قديم الزمان ثلاثمائة كنيسة فى ذلك المكان تركها سكانها القدامى لتسقط وتتهدم، ولما قَدِمَ المسلمون إلى البلاد شيدوا المدينة الحالية فوق أنقاض الثلاثمائة كنيسة المذكورة، ولهذا السبب سميت المدينة باسم فدان الكنائس. تبدو القصة غريبة إلى حد ما، بل لعلها تبرر للرحالة الحديث أسباباً لوضع المتاهة المصرية القديمة فى هذا الموضع لأننا لو رأينا أن الكنائس الثلاثمائة[٣١] هى حجرات المتاهة الثلاثمائة كما ذكر هيرودوت أو بافتراض أن أبا التاريخ كان يقصد ثلاثمائة بدلاً من ثلاثة آلاف، فإن الكنائس سالفة الذكر لابد أن تكون المتاهة المصرية القديمة نفسها. وقد يمر الرحالة على كل هذا مرور الكرام، لكن وللأسف هناك دليل يثبت النقيض مما يدحض أى افتراض آخر. يمر فرع بحر يوسف المذكور خلال المدينة وقد شُقَّ هذا الفرع منذ أكثر من قرنين من الزمان ولم تظهر أى من الكنائس سالفة الذكر أثناء عملية البحث والتنقيب فى المدينة مما يدل ولاشك على أنها شيدت على أنقاض الكنائس الثلاثمائة المذكورة. لكن لابد لى أن أنتهى إلى النتيجة التالية وهى أنه وعلى الرغم من ضعف الاحتمال بوجود المتاهة فى هذا المكان، فإننى لا أملك سوى تكرار رأيى وهو أنها لا تبعد كثيراً عن البحيرة لأن الكمية الهائلة من المواد المتناثرة هنا وهناك فى البلدة لابد أنها ترجع إلى مبنىً يتسم بالاتساع والفخامة.

(٣١) عاش هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد كما هو معروف، ومن هنا فصياغة المؤلف غير واضحة وكون الكنائس هى المتاهة المصرية القديمة مسألة غير واضحة أيضا، ولم يعاصر هيرودوت المسيحية كما هو معروف. [المراجع]

غادرنا فدان يوم السادس، وبعدما تجولنا فى بلد من أروع البلاد وأجملها، وصلنا فى المساء إلى مدينة الفيوم.

وفى صباح يوم السابع ذهبت لرؤية آثار مدينة أرسنوى القديمة. كانت هذه المدينة كبيرة للغاية، لكن لم يبقَ منها شىء فيما عدا تلال عالية من كل أنواع الركام والقمامة. ويبدو أن المواد الرئيسية هناك من الطوب المحروق. هناك العديد من المبانى الحجرية وكمية هائلة من الجرانيت المستعمل. وفى بلدة المدينة الحالية رأيت العديد من بقايا أعمدة الجرانيت وغير ذلك من المنحوتات ذات الذوق الفنى الرفيع. ومن الغريب ولاشك أن الأعمدة الجرانيتية هى الشىء الوحيد الذى يمكن رؤيته فى هذا المكان بالقرب من الأهرام على بعد ستة أميال. وشاهدت بين آثار أرسنوى أيضًا العديد من بقايا تماثيل من الجرانيت متقنة الصنع لكنها متآكلة بدرجة كبيرة، وفى رأيى أن هذه المدينة تعرضت للدمار بالحديد والنار. فقد وجدت بين الركام قطع من الحجارة والزجاج يظهر منها أنها منصهرة تقريبًا بفعل النار. ومن الجلى أن بلدة المدينة الجديدة بنيت من المواد القديمة من أرسنوى ذلك أنك تجد بقايا المدينة فى كل ركن من المدينة. وصغرت أحجام قوالب الحجارة الكبيرة من الجوانب، لكن ترك عدد كافٍ منها ليظهر الغرض الأصلى منها. قمت بأعمال التنقيب فى قلب تلك الآثار داخل خزان أثرى اكتشفت أنه فى عمق بحر يوسف ولاشك أنه يمتلئ أثناء الفيضان لتوفير المياه للبلدة. وهناك آبار مشابهة أخرى بين تلك الآثار مما يثبت أن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى كانت لديهم للاحتفاظ بالماء بالقرب منهم ذلك أن النهر يبعد عن البلدة. وجدت وسط تلك التلال العديد من عينات الزجاج وفقًا للصناعة الإغريقية والصنعة المصرية القديمة، ويبدو لى أن هذه المدينة من أفضل المدن فى مصر.

بعدما شاهدت كل ما تمنيت مشاهدته فى ذلك المكان، ذهبت لرؤية المسلة وهى معروفة للغاية بما لا يحتاج منا إلى المزيد من تفصيل القول عنها. بعد ذلك أعددت العدة لرحلتى إلى الواحة فى الغرب. وبناء على ذلك ذهبت إلى يوسف بك الذى كان قد عاد من القاهرة فى تلك الأثناء. جاء هذا الرجل أصلاً من بلاد الشركس Circassia إلى

السوق كالعادة كواحد من عبيد باشا مصر الذى عينه بعد الكثير من السنوات قضاها فى الخدمة برتبة بك أو حاكم على واحدة من أفضل مديريات تلك البلاد وأحسنها. وكان هذا الرجل مهذبًا دمث الأخلاق على غير العادة، شغوفًا بمعرفة أى شىء لا يألفه، لكن حينما تقدمت إليه بطلب دليل بدوى ليدلنا على الطريق فى مسالك الصحراء، قال لى إن كل البدو متجمعون فى ذلك الجزء من المديرية التابع لخليل بك فى بنى سويف. شعرت بالسعادة حينما سمعت بأن الشخص الذى سأتقدم إليه بطلبى هو صديقى القديم خليل بك وعلى الفور سألت عن المكان الذى يتجمع فيه البدو. وعندما عرفت أنهم موجودون على بعد حوالى عشرة أميال، شددت الرحال فى صباح اليوم العاشر ووصلت إلى مخيمهم قبل الظهيرة، لكن لم يستطع أحد من هؤلاء الناس أن يدلنى على الواحة التى تقع جهة الغرب. وأشار الجميع ناحية الجنوب بما يفيد أن الواحة تقع فى ذاك الاتجاه. وعرفت أنهم كانوا يقصدون واحة أسيوط ومالونى Maloni التى تعرف باسم الواحة الكبيرة. وأخيراً وبعد الكثير من الجلبة واللغط، أخبرنى رجل مسن بأن هناك واحة تقع إلى الغرب من بحيرة موريس وهو نفس المكان الذى تمنيت زيارته، لكن لا أحد من البدو يرغب فى الذهاب إلى هناك. وسألت إن كان أى منهم يعرف الطريق، فردَّ قائلاً إنه يعرف شيخًا من شيوخهم يعيش فى مخيم يبعد قرابة ثمانية أميال وله ابنة تزوجت بأحد شيوخ الواحة. غمرنى شعور عارم بالسعادة بهذا الاكتشاف ومنَّيت نفسى بأننى سأستطيع إقناع الشيخ المذكور كى يصحبنى إلى هناك. مكثنا فى المخيم طوال الليل وانطلقنا فى صباح يوم الثانى عشر نحو النيل مرة أخرى. مررنا خلال العديد من مزارع أشجار الفاكهة وكميات هائلة من الورود التى يصنعون منها ماء الورد كما سبقت الإشارة من قبل. ويوجد نبات القطن هنا بوفرة، كما تكثر ثمار التين لدرجة أنهم يجففونها فى الشمس ويرسلونها إلى القاهرة. جن الليل وحل الظلام قبل أن نصل إلى ضفاف النيل ولم يكن لدينا ما نفعله فى تلك الليلة، فجعلت من سرجى فراشًا استلقيت عليه لأنام. أنا لا أعرف السبب الذى يعزى إليه ذلك، إلا أن من المؤكد أننى نمت على ضفاف النيل أو على رمال الصحراء نومًا صحيًا أكثر من أى مكان آخر لاسيما الأماكن التى لها سقف.

وفى الصباح الباكر من يوم الثالث عشر أيقظنى الحاج المغربى ليخبرنى وإمارات الدهشة والعجب مرتسمة على وجهه أن رجلاً غريبًا كان قادمًا نحونا وأنه أخطأه بسبب الخوف وظن أنه لص يقترب منا. أخذت سلاحى، لكن سرعان ما اكتشفت لما رأيت أنه أوروبى أن الرجل ليس إلا الموقر مستر سلومان Mr. Slowman وهو جنتلمان يبلغ الثانية والستين من العمر. نزل هذا الرجل من سفينته لكى يسير على قدميه ويتتبع آثار الرحالة المشاهير رغم كبر سنه، لكنه لم يتفاخر أمام أصدقائه فى إنجلترا بهذا الإنجاز الصعب؛ وبالتالى لم يضعه الناس فى مصاف المغامرين الشجعان البواسل. كان ذلك الرجل الموقر المقدس المسن شجاعًا لدرجة أنه زار كل بلاد الشام التى يظنها الرحالة من الرحلات الصعبة الشاقة. لم يصحب معه ترجمانًا قط ولم يكن يفقه كلمة واحدة فى اللغة العربية. لاقى هذا الرجل من الصعاب والمتاعب ألوانًا. عانى الكثير، لكنه ما اشتكى قط سوى من المعاملة السيئة التى لقيها من الرحالة الآخرين الذين أحسوا بالخزى من ذلك الرجل الموقر المسن ذى الاثنين وستين عامًا الذى سار على خطاهم فى صمت ولم يلّقِ بالاً لما قام به من إنجازات، بل ولم يعبأ بأن يعرف أحد أى شئ عن رحلته هذه. ثم رحل بعد ذلك فى طريقه إلى الشلال الثانى وبعد فترة من الزمن شرفت برؤيته مرة أخرى على خير ما يرام بعد عودته من ذلك المكان. تعرض الرجل المسن للسخرية بل والمعاملة السيئة على يد شخص لابد من ذكره، كان هذا الرجل يرغب أن يشاركه أحد فى السفر، لكننى وكما قلت مسبقًا إننى لم أدخل فى تفصيلات رحلات بعض الرحالة فى مصر ذلك أننى أنوى بسط كل الحقائق فى كتاب آخر. استأنف الموقر مستر سلومان رحلته وذهب لرؤية صديقى القديم والحميم خليل بك الإسناوى الذى أصبح الآن حاكمًا أو واليًا على مديرية بنى سويف. كان اللقاء بعد طعام العشاء عندما قدمت للزيارة. كانت سعادته غامرة لرؤيتى، كما سَرَّه أن لديه القدرة على إسداء أى خدمة لى. وما أن أخبرته برغبتى فى الوصول إلى الواحة الغربية حتى أرسل على الفور بناء على طلبى إلى شيخ البدو. سألنى عن أشياء كثيرة بخاصة عن مناجم الكبريت والزمرد لأنه كان يرى أن هذه المناجم فى غاية الأهمية بالنسبة لخزانة الباشا. ظللت معه باقى الليل ووعدته بأن أراه مرة أخرى فى اليوم التالى حينما أرى شيخ البدو.

وعلى هذا الأساس ذهبت يوم الرابع عشر، لكن الشيخ لم يأتِ وقضيت اليوم كله في عناء بلا عمل. وبعدما دخل البك إلى حريمه بعد ساعة معينة، ذهبت أنا إلى المقهى في أحد البازارات بالبلدة وهو المكان الوحيد للتسلية والترفيه هنا، وفي مثل هذه الحالات لا يمكن للمرء سوى أن يرغب في شيء لشغل وقت فراغه. لا يرتاد هذه الأماكن سوى العساكر الأتراك، فرغم أن فنجان القهوة لا يكلف أكثر من خمس بارات - أي أكثر قليلاً من نصف بنس - فإن هذا أكثر مما يقدر أي عربي على دفعه لأن أجره العام لقاء عمل اليوم كله يبلغ عشرين بارة فقط أي ثلاثة بنسات؛ وبناء على ذلك قلما تجد أي عربي في أماكن التبذير والإسراف كهذه. ومن الغريب أيضًا رؤية هؤلاء العساكر أثناء احتسائهم للقهوة وهم يستشعرون في أنفسهم نفس الشخصية والأهمية كرؤسائهم البكوات. فإن البنباشي الذي لا يزيد في رتبته عن رتبة الرقيب يصدر إلى العريف أو الأومباشي الأمر الذي تلقاه من الكاشف وبنفس النبرة التي تلقاه به ويقوم العريف بنفس الشيء مع الجندي أو العسكري الذي عادةً ما يصدر الأمر إلى أي من العرب بنفس الطريقة والأسلوب.

وصل الشيخ في يوم الخامس عشر وأكد لي أنه عاجز عن إرشادي للطريق الذي يؤدي بي إلى المكان الذي أرغب في زيارته. وأصر البك على أن يجد أحدًا في معسكره يعرف الطريق وهو الأمر الذي وعد بتنفيذه. اتفقنا على أنني سأقابل الشيخ في إحدى القرى عند حافة الصحراء في المكان الذي يفترض أنني سأقابل فيه الشيخ جرومار Grumar الذي سيدلني على الطريق إلى الواحة. أكدت للشيخ أنه لابد لي من الحصول على فرمان من البك لتقديمه إلى شيوخ الواحة، لكنه قال إنه غير ضروري وأفهمني أن من الأفضل الذهاب بدون فرمان بعد أن يصحبني رجل يرسله البك معي.

وعلى هذا الأساس انطلقنا في صباح اليوم السادس عشر إلى القرية المقصودة المسماة بسِدمنْت الجبل عند حافة الصحراء حيث يقيم البدو. ولست في حاجة إلى وصف الأرض التي مشينا فوقها لأنها تشبه في كثير من الأحيان سائر الأراضي في الفيوم. وعند وصولي ذهبت لرؤية كاشف القرية حيث وجدت شيخ البدو والشيخ

جرومار أيضًا فى انتظارنا. وجدت قدرًا من الصعوبة فى إقناعهم بأن نأخذ ستة جمال فقط ذلك أنهم كانوا يخشون ألا نتمكن من حمل ما يكفى من الماء، لكن الصعوبة الكبيرة تمثلت فى خوف الشيخ جرومار الذى صحبنا من العواقب الوخيمة التى ستترتب على ذهابنا إلى الواحة ذلك أنه أكد لى أنه لم يسبق لأى من الأوروبيين الذهاب إلى هناك، بل إن نفرًا قليلاً للغاية من البدو أنفسهم لا يسافرون إلى هذه الأماكن إلا لشراء الأرز والبلح، لكن وبعد التغلب على كل هذه الصعوبات الصغيرة، قررنا البقاء فى المخيم لمدة ثلاثة أيام بهدف تجهيز الطعام من أجل الرحلة.

كان مخيم البدو يقع عند سفح مجموعة من الجبال المنخفضة التى تشكل حدود الصحراء (انظر اللوحة رقم ٢٥). وكان لرئيسهم خيمة كبيرة أعلى من سائر الخيام وكان شعبه يعامله معاملة الملوك. اتخذت مقر إقامتى أمام خيمته مباشرة ونجح الحاج المغربى باستخدام شالين فى إقامة خيمة لى. لقد تعرضنا بالوصف لنمط حياة هذه الشعوب (القبائل) فى مواضع كثيرة حتى إننى لأتصور إنه صار مألوفًا بالنسبة للكل، لكن ونظرًا لوجود بعض الاختلافات بين كل قبيلة والأخرى، فإننى سأتعرض لما شاهدته فى قبيلة الشيخ جرومار. كان رجلاً ربعةً طويل القامة يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، يتميز بملامح تدل على حزم صاحبها ورباطة جأشه وولعه الشديد بالمكسب. كان يُشْعِرُ جنوده[٣٢] بأنه أعلى وأفضل منهم، كما كانوا ينفذون أوامره على الفور ودون تردد. كان لهذا الرجل زوجتان وهما على وفاق تام مع بعضهما البعض وكذا جارية سوداء عجوز رزق منها بطفلين جميلين؛ وعلى هذا كان لها من القوة والسيطرة ما كان للمرأتين الأخريتين اللتين كانتا أقل اسمرارًا منها. وتعمل تلك النسوة أساسًا فى طحن القمح وصنع الزبد. تتميز الطاحونة اليدوية (أو الرحاية) التى

(٣٢) أورد بلزونى فى الأصل لفظة subaltern وهى من مصطلحات العسكرية البريطانية التى يقصد بها أى من الضباط الأقل رتبة من النقيب أو من هو فى رتبة الملازم الثانى، وتحمل الكلمة أيضًا ظلال معانٍ خاصة بدور ضباط الجيش البريطانى أثناء فترة الاستعمار (لاحظ أن الفترة التى ألف فيها بلزونى هذا الكتاب كانت من الفترات الذهبية فى تاريخ الإمبراطورية البريطانية بالنسبة لدور الجيش فى تأسيسها استعماريًا) [المترجم]

يستخدمنها بأنها أكبر حجمًا من تلك التى تستعملها النساء العربيات فى مصر مما يدل على تفوقهن من ناحية القوة أو الصحة. إنهن يضعن الدقيق فى الماء المغلى ثم يقلبنه بعصا فيصنعن منه كمية كبيرة من المهلبية ثم تُصَبُّ فى طبق من القش فى الوقت الذى تعمل فيه حفرة من أعلى تملأ بالزبد. هذه هى الوجبة الرئيسية لديهم ويطلق عليها العصيد. ويشعر هؤلاء الناس بالسعادة الآن أكثر مما كانوا عليه منذ بضع سنوات مضت لأن محمد على منحهم الحرية فى تأجير الأراضى على حدود الصحراء. وهم لا يرهقون أنفسهم بشأن حراثة الأرض لأنهم يرون أن تربية الإبل أكثر ربحًا. وأكثر الأعمال إرهاقًا وإزعاجًا لهم تكسير القش لإطعام الإبل حينما لا يوجد عشب فى المراعى ويستخدمون لذلك آلة مكونة من خمسة أو ستة قضبان حديدية تمر فوق القش على الأرض. أما خيولهم فهى ليست بحالة ممتازة وإن كانت تمتاز بالقوة الشديدة. وغالبًا ما ينتقلون بخيامهم إلى مواضع أفضل، إلا أنها دائمًا ما تكون بعيدة عن أى عمران بشرى كقرية كبيرة أو مدينة على الأقل. وترتدى النساء قماشًا من الصوف الثقيل المصنوع فى ساحل البربر ويباع فى القاهرة وغيرها من المدن فى مصر. أما الرجال فإنهم عادةً ما يرتدون جلبابًا من الكتان وشالاً كبيرًا من الصوف يغطى الشخص كاملاً من رأسه إلى قدميه. ولدى هؤلاء الناس بوجه عام كميات كبيرة من البراغيث أعزوها - حسب اعتقادى - إلى كم القماش الثقيل الذى يرتدونه حتى خيامهم تمتلئ بها بشكل كبير لدرجة أنه من المحال على أى إنسان أن يقترب منها دون أن يتعرض لأذاها. لم أتمكن من النوم للحظة واحدة فى أثناء الوقت الذى قضيته هناك. كان الناس فى خجل من الحديث معنا فى اليوم الأول من وصولنا، لكنهم بمجرد أن بدأوا الحديث معنا حتى ظلوا يستفسرون عن أشياء كثيرة بخصوص بلادنا، كما سألوا عن أشياء أخرى تافهة لا قيمة لها. وفى النهاية وبعد توفير الخبز من أجل رحلتنا وكذا طعام الإبل، انطلقنا فى يوم التاسع عشر ودخلنا الصحراء فى اتجاه الغرب على طول الجانب الجنوبى من الفيوم ومررنا بعد ساعتين من المشى الحثيث بالقرب من آثار متهدمة لإحدى القرى الأثرية ووصلنا بعد مرور ساعة ونصف أخرى إلى مكان يطلق عليه اسم رواجى طولون Raweje Tolon وهو موضع إحدى المدن

الأثرية الكبيرة. رأيت عدداً كبيراً من قوالب الحجارة الكلسية منقوشاً عليها النقوش الهيروغليفية والرسومات المصرية القديمة بحرفية وفنية بالغة إلى جانب بعض قواعد الأعمدة. أما المواد الرئيسية فكانت قوالب الطوب المحروق، إلا أننى شاهدت أيضاً العديد من القطع الجرانيتية ولا شك عندى استناداً على مدى انتشار تلك القطع من أنها كانت مدينة كبيرة للغاية. وبعد ساعة أخرى وصلنا إلى آثار قرية أخرى يطلق عليها اسم تل الحجر Talet el Hagar. ومن الغريب إلى حد ما أن هذه القرية تمتلئ بقواعد الأعمدة المأخوذة كما هو واضح من المدينة الكبيرة التى تحولت فيما بعد إلى طواحين لطحن القمح. وعند الغروب وصلنا إلى موضع يقال له الخَرَق El Kharak وهى أرض منفصلة تماماً عن الفيوم يرويها فرع من القناة أو بحر يوسف. وفى هذا الموضع قرية تحمل نفس الاسم تنتشر حولها العديد من الأراضى الزراعية الخصبة التى تنتج الذرة والبرسيم فى الموسم المناسب. وينتمى العدد القليل من الناس الذين يعيشون هناك إلى الطبقة العاملة فى الأعم الأغلب وهم يأجرون الأرض من البك حاكم الفيوم. وهنا أخذنا معنا الطعام للإبل كما ملأنا القِرَب بالماء العذب.

تقدمنا فى اليوم العشرين نحو الغرب وهنا تغيرت تضاريس الأرض تماماً، إذ بنا نجد أنفسنا بين مجموعة من الصخور المنخفضة والتلال الرملية والأودية القاحلة المجدبة. رأيت من على بُعد بضعة أميال من آخر موضع وصلنا إليه الجزء العلوى من جدار شديد السُمك كما لو كان سوراً يحيط بمدينة كبيرة كما هو واضح، إلا أنه مدفون تحت الرمال تماماً. وكنت سأنظر إليه باعتباره سوراً يحيط ببعض الأراضى الزراعية ما لم ألاحظ وجود الجزء العلوى من بعض المبانى الأخرى والأسوار الشديدة السُمك من قوالب الطوب المحروق داخل هذه الأرض. شاهدت خارج السور كميات كبيرة من جنوع الشجر وأشجار الكرم المحترقة تقريباً والتى تتحول إلى رماد أو تراب بمجرد أن تلمسها يد. ويطلق على هذا المكان نفس اسم الموضع الذى غادرناه فى الصباح أى الخَرَق.

ظللنا نسير أثناء القسم الباقى من فترة ما قبل الظهيرة خلال عدد من الأودية الصخرية والضفاف الرملية. وصلنا قبيل المساء إلى موضع موازٍ للحد الشرقى لبحيرة

موريس. أمضينا الليل فى قلب أحد الضفاف الرملية وفى تمام الساعة الرابعة من صباح يوم الحادى والعشرين استأنفنا طريقنا. اتسع الوادى الذى كنا فيه الآن أمامنا وما هى إلا ساعات قلائل حتى ظهرت أمام أعيننا صخرة مرتفعة على بعد مسافة كبيرة منا. قضينا اليوم كله تقريبًا فى الوادى المذكور بين الصخور والرمال ووصلنا قرب المساء إلى قصر رشوان. كان هذا المكان مأهولاً من قبل ويتميز بوجود الكثير من الأراضى الممتازة التى كانت مزروعة من قبل لكن الرمال تغطيها كلها الآن. وتحيط بهذا المكان الصخور المرتفعة وقد تصل مساحة هذه المنطقة إلى حوالى ثلاثة أميال مربعة. هناك وفرة من أشجار السنط والنخيل غير المثمرة ويمكن العثور على المياه بكميات كبيرة تحت الرمال لأنك لو حفرت بالعصا فى الأرض تجد أن المياه تندفع متدفقة. وهناك أنقاض أساس أحد المعابد المصرية القديمة الصغيرة الذى استغل فيما بعد كمدفن للناس فى عصور متأخرة. أمضينا الليل تغمرنا السعادة العارمة تحت أشجار النخيل، لكن لسوء الحظ كان الماء فى هذا الموضع مالحًا بعض الشيء، لولا ذلك لأمضى النُّساك العُبَّاد أيام عمرهم هنا بعيدًا عن العالم الصاخب.

وفى اليوم الثانى والعشرين استأنفنا طريقنا نحو الغرب واضطررنا للمرور فوق ضفة رملية فى غاية الارتفاع لكى نغادر قصر رشوان ولنصل إلى أحد الأودية الذى ظللنا نسير فى نفس اتجاهه حتى وصلنا إلى سهل فسيح وأفق رائع المنظر أمامنا. رأيت عن بعد سهلاً رحيبًا من الرمال والحجارة به العديد من أكوام الرمال والأحجار أكثر من غيره. وعندما اقتربنا من المكان وجدنا أن هذه الأكوام ما هى إلا أكوام من تراب وحجارة فوق مجموعة من القبور تأخذ شكل متوازى الأضلاع تقريبًا يتراوح طوله من عشرين إلى ثلاثين قدمًا. كان هناك حوالى ثلاثين كومة - على ما اعتقد - ورأيت أن بعضًا منها يتسم بالضخامة والاتساع بما يكفى ليضم مائة جثة؛ وبالتالى تشكل إجمالاً عددًا كبيرًا. واستأذن القارئ فى التعليق على هذه الأكوام من المقابر مما قد يعطى فكرة للمتعلمين من الناس لأننى آمل أن يلقى رأيى المتواضع القبول لدى البعض منهم. من المعروف أن قمبيز بعدما غزا مصر أرسل جزءًا من جيشه لغزو الآمونيين Ammoni فى صحارى ليبيا الذين تعرضوا للخيانة على يد الأدلة من

المصريين وتركوهم ليلاقوا حتفهم فى الصحراء ولم يسمع عنهم أحد أى شىء بعد ذلك. ويقول الرأى الشائع إن الآمونيين كانوا فى الجهة الغربية من النيل ومن المعروف إن الإسكندر لم يمكث سوى تسعة أيام أثناء زيارته إلى ذلك المكان من الإسكندرية. وبالتالى يتضح لنا جليًا أن الآمونيين لم يكونوا فى الواحة الغربية - كما هو الاعتقاد الشائع - لا لشىء سوى أن هذا ما نص عليه هيرودوت، بل إن كل الشواهد ترجح أنهم لم يكونوا على بُعد مسافة كبيرة من البحر. والأرجح أن الجيش أرسِل من ممفيس وليس من طيبة مما يتفق والكثير من الحقائق الأخرى فى التاريخ لا فيما يخص المسافة - على سبيل المثال - بل وكذا ما يختص بوصف الواحة الغربية ومعبدها. ها أنذا أبسط أمام القارئ آرائى التى كونتها نتيجة لمشاهداتى وحساباتى التى استطعت القيام بها من التاريخ القديم عن هذا الموضوع. وعندما نذكر أن جيش قمبيز سالف الذكر قد تاه فى هذه الصحارى، فإننى لا أتردد فى القول بأن الأكوام المذكورة من المقابر أقيمت لتغطية البؤساء المساكين الذين هلكوا ولاشك من العطش. ويتجه المسافر من ممفيس إلى تلك الواحات غربًا سواء إلى واحة سيوة أو واحة القصر. إن الموضع الذى ذُكِرَ أن هؤلاء الناس لقوا حتفهم فيه هو صحراء ليبيا، بينما تقع أكوام المقابر بين ممفيس والواحات فى صحراء ليبيا حيث لا يوجد أى مؤشر يوجه المسافر الغريب فى سفره إذا تركه الدليل، ولا أى حجر أو ظل يستظل به ليحميه من الشمس.

أخبرنى أحد الرجال من ذوى العلم أن هؤلاء الناس يمكن ألا يكونوا من الفرس لا لشىء سوى أن تغطية جثث الموتى لم تكن من عادات الفرس ولا ديانتهم، بل كانوا يتركونها للطيور الجارحة؛ وبالتالى لم يكن هؤلاء جيش قمبيز. لكنى أدعو هذا الرجل العَالِم ألا ينسى- بغض النظر عن النقاط التى أثارها - أنه ربما لم يدفن هؤلاء الناس أى أحد من بنى وطنهم على الإطلاق لأن من البديهى أن نفترض أن أحدًا منهم لم يعرف مكانهم، وإلا لكان هذا مبررًا للاعتقاد بأننا نعرف ما الذى حدث لهم أكثر من الرواية الجافة التى أدلى بها هيرودوت وهى أنهم تُركوا ليهلكوا فى هذه الصحارى. لذا من المنطقى أن نفترض أن أناسًا آخرين قاموا بجمع أشلاء هؤلاء المساكين، بل ربما قام بذلك الآمونيون أنفسهم، رغم ما ادعوه من عدم معرفة أى شىء عنهم ومن أن

الجيش لم يصل إلى بلادهم. وعلى أية حال، يسعدنى أن أعرف من هؤلاء الناس والسبب الذى جاء بهم إلى هذه البلاد إذا ثبت أنهم ليسوا من جيش قمبيز سالف الذكر.

لم يكن إحصاء الأعداد دقيقًا نظرًا لاختلاف أحجام المقابر، فلو جُمعت هذه الجثث وهى هياكل عظمية، فإنها ولاشك ستحتل مساحة أقل بكثير مما لو كانت جثثًا من لحم وشحم، لكن ورغم كل هذه الشكوك، فإننى لا أتردد فى التأكيد على أن عدد الجثث الموجودة فى أكوام المقابر التى رأيتها يمكن أن يكون ٣ آلاف جثة. تناهى إلى علمى إلى جانب المعلومات التى استقيتها من البدو أن هذا لم يكن المكان الذى يوجد به أكبر عدد من الجثث وأن هناك عددًا كبيرًا من نفس الجثث على مسافة قليلة وفشلت فى إقناع البدو بأن يصحبونى إلى هناك لخوفهم من عدم كفاية موارد المياه لدينا.

استأنفنا رحلتنا نحو الغرب فى اليوم الثالث والعشرين فى أحد السهول الذى غطاه الحصى ذى اللون البنى والأسود وكانت الأرض منبسطة للغاية لدرجة أننا شاهدنا الأفق الذى لا يختلف كثيرًا عن البحر حولنا من كل مكان فى بضع ساعات. واستأنفنا الرحلة على هذا طوال اليوم.

استمرت الرحلة فى يوم الأربع والعشرين وقرب حلول المساء وصلنا إلى بحر بلامى Bahar Bela Me حيث شاهدنا الصخور العالية جهة الغرب. هذا المكان من الأماكن المتفردة التى تستحق اهتمام عالم الجغرافيا لأنه "نهر جاف" وبه كل آثار المياه كما لو كانت تجرى فيه، بينما تمتلئ الضفاف والقاع بالأحجار والرمال. هناك العديد من الجزر فى منتصف النهر، إلا أن أكثر الظواهر جذبًا للانتباه وجود علامة عند منسوب معين على ضفاف النهر مما يدل على وصول منسوب المياه إلى درجة كبيرة للغاية، كما أن لون الرمال والصخور فوق هذه العلامة أفتح بكثير من لون الرمال والصخور أسفلها. ومما يدل أيضًا على وجود المياه هناك أن الجزيرة بها نفس العلامة وعلى نفس المنسوب الموجود على ضفاف النهر الجاف المذكور. إننى أشعر بقدر من الحيرة حينما أعرف أن مجرى هذا النهر غير معروف إلا بشكل محدود للغاية ذلك أننى رأيته مرسومًا بالقرب من بحيرات النطرون ويتجه مجراه من الشمال الغربى إلى

الجنوب الشرقى وهو الأمر الذى لا يتفق مع مجراه هنا الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب، إلا أن له نفس الاسم ويمتد من الشمال إلى الجنوب حسبما استطعت أن أراه من فوق قمة صخرة مرتفعة على الجانب الغربى منه. أكد لى العرب أنه - أى مجرى النهر - يمتد لمسافة كبيرة فى كلا الاتجاهين وأنه هو نفسه الذى يمر بالقرب من بحيرات النطرون. فإذا كان هذا هكذا، فلابد من مروره أمام حد بحيرة موريس على مسافة يومين إلى ثلاثة أيام فى اتجاه الغرب. هذا هو المكان الذى يوجد به عدد من جذوع الأشجار المتحجرة وكذلك الكثير من الحصى إلى جانب المياه الجارية أو المتحركة به. رأيت حوالى ست حصيات من حجر الصوان بلا أية عروق من أى نوع.

فى صباح يوم الخامس والعشرين استكملنا الرحلة جهة الغرب ومررنا بعدد من الصخور والضفاف الرملية المنعزلة. شاهدنا عند الظهيرة تلاً مرتفعاً على مسافة بعيدة ولم يمر وقت طويل حتى أشار الدليل إلى صخور الواحة. ما هى إلا بضع دقائق حتى رأينا غرابَيْن يبدو أنهما جاءا لمقابلتنا. إن وجودهما إشارة مؤكدة على عدم بُعْدِنا عن الماء، فرغم أن هذه الطيور بإمكانها الطيران والانتقال بسرعة ودون تكلفة، فإنها تظل بوجه عام بالقرب من المياه فى تلك الصحارى. وصلنا بعد الظهيرة إلى حافة الواحة التى تسمى بواحة القصر وهو وادٍ تحيط به الصخور العالية مما يشكل سهلاً رحبًا يتراوح طوله ما بين اثنا عشر إلى أربعة عشر ميلاً، بينما يصل عرضه إلى حوالى ستة أميال. ليست هناك أية مساحات مزروعة من الوادى سوى مساحة صغيرة على الجانب المقابل الذى وصلنا إليه ولا يتميز هذا الجانب إلا بغابات أشجار النخيل التى تغطيه. أما سائر الوادى فتغطيه قطاعات من الرمال، لكن من الواضح أن كل هذه المنطقة كانت مزروعة فى زمن ما. تغطى الكثير من الأراضى هنا طبقة من الطمى أو الغرْيَن التى يمكن الاستفادة بها اليوم. وهناك العديد من التلال الصغيرة المنتشرة هنا وهناك، كما توجد فوق قمة بعضها ينابيع الماء الطبيعية وتغطيها نباتات البردى وغيرها من النباتات الصغيرة. تقدمنا نحو غابة من أشجار النخيل ووصلنا قبيل حلول الظلام على بعد ميل من إحدى القرى تسمى الزبو وقد بلغ منا العطش مبلغه وهنا رأينا بعض الأراضى الزراعية والعديد من حقول الأرز وبعض أشجار السنط وغيرها. وقبل

وصولها تشممت الإبل رائحة الماء عن بُعد وأطلقت ساقيها للريح لأنها لم تشرب الماء منذ أن غادرت رجان Rejan ولم تتوقف حتى وصلت عند غدير صغير عذب الماء رغم أن التربة كانت مشبعة تقريبًا بالأملاح. رأيت هنا أعدادًا كبيرة من الطيور البرية وخصوصًا من البط البرى بأعداد كبيرة أكثر من أى طائر آخر. ترجلنا عن ركوبتنا فى هذا المكان لفترة من الوقت للسماح للإبل بالشرب ولاحظت نوعًا من عدم الارتياح فى أسلوب الدليل الشيخ جرومار وهو الأمر الذى لم أجد له تفسيرًا. كثيرًا ما ألح لى عما إذا كنت أرغب فى أن يرانى الناس باعتبارى مسلمًا أو مسيحيًا وكنت دائمًا أقول له إنه ما من داعٍ للتنكر. ذهبت على مبعدة من الإبل لكى أشرب أيضًا. وبعدما سقينا الإبل ولم نكد نمضى ببطء نحو القرية حتى سمعنا صوتًا ينادى علينا فى الوقت نفسه خرج علينا رجل مسرعًا من وراء إحدى الشجيرات ممسكًا ببندقية واتخذ وضع من يريد إطلاق النار علينا. لم يكن مظهره مخيفًا بدرجة كبيرة ولم يدل ملبسه على أنه من الشخصيات الهامة فى تلك البلاد. لا يزيد طول هذا الرجل عن أربع أقدام وهو ذو بشرة بنية داكنة هزيل البنية وتغطى جسده ملابس من الصوف الأسود. ترجلٌ الشيخ جرومار على الفور عن ركوبته وتقدم نحو الرجل وتكلم معه بلهجة عربية معينة اكتشفت أنها لهجة ذلك المكان. وسرعان ما تعرف عليه الرجل واقتربا من بعضهما البعض كالأصدقاء الأمر الذى أعطانى الأمل فى أن كل شىء سيسير على خير ما يرام فى ذلك المكان. كان الرجل حريصًا على معرفة ماهيتنا عندها أخبره دليلنا على الفور أننا أناس جئنا بحثًا عن الأحجار القديمة وأن واحدًا منا حاج عائد لتوه من مكة. ويبدو أن الرجل شعر بالرضى والسعادة بعد سماع العبارة الأخيرة، إلا أنه رد قائلاً إنه لم يأتِ أحد مطلقًا إلى ذلك المكان للبحث عن أحجار قديمة وأنه لا يدرى ما الذى سيظنه شيوخ قرية الزبو من مجيئنا إلى هنا ، وأنه كان سيطلق النار علىَّ حينما كنت أشرب. فى تلك الأثناء سرنا قدمًا نحو القرية ونجح دليلنا فى إقناعه بأننا فرنسيون مسالمون قاصدًا بذلك خادمى الصقلى وأنا. ولم يعرف الرجل إلى أى قبيلة ينتمى الفرنسيون، لكنه قال إن قاضيهم الذى كان فى القاهرة فى يوم من الأيام لابد أن يعرف. أخبرنا الدليل بكل هذا باللغة العربية، وظل هذا الدليل يستفسر باستمرار عن صحة هذا

الشيخ وذاك الشيخ وعلى رأس الجميع ابن أخيه الشيخ إبراهيم. وشرع الرجل فى المشى أمامنا ولما اقتربنا من القرية أطلق ساقيه للريح صوب غابة من أشجار النخيل. مضينا قدمًا حتى دخلنا طريقًا ضيقًا بين هذه النباتات وتوغلنا أكثر لندخل مكانًا من أجمل الأماكن ملئ بثمار البلح مختلطًا معها أشجار أخرى بعضها مزهر وبعضها الآخر مثمر مثل ثمار المشمش والتين والبرقوق وبعض الكروم. وكانت ثمار المشمش أكثر وفرة من غيرها أما التين فكان فى غاية النضج. كانت التربة مغطاة بخضرة من الحشائش والأرز وبدا المكان ككل بأبدع صورة وأجملها وخصوصًا بعد المناظر القاحلة فى الصحراء.

وعندما اقتربنا من مكان فسيح توقف الدليل وطلب إلينا أن ننتظر لحين عودتنا ومضى هو مشيًا ورأيته يذهب متوجهًا إلى أحد البيوت على بعد. وبناء على ذلك انتظرنا هناك لبعض الوقت، لكننى رأيت بعد حوالى نصف ساعة أن من الغريب أنه لم يرجع إلينا. وعندما استفسرت من الحداة عن المكان الذى ذهب إليه الدليل، أخبرونى أنهم لا يعلمون. وفى النهاية سَئِمْتُ من الانتظار وانطلقت معى مسدسى نحو المكان الذى رأيت الدليل يدخل فيه، لكننى وقبل أن أصل إلى المكان سمعت أصوات رجال ونساء وأطفال ولما اقتربت أكثر رأيت حائطًا يحيط بعدد كبير من البيوت وكان هناك فناء وراء البوابات مباشرةً حيث اجتمع كل أعيان القرية وغيرهم الكثير جالسين على الأرض لمناقشة أمر السماح لنا بالدخول وكان دليلنا مشغولاً للغاية بإقناعهم بأننا لسنا سوى أناس مسالمين وأننا لم نأتِ هنا إلا للبحث عن الأحجار القديمة. تحول كل انتباههم إلىَّ لدى وصولى إلى البوابة وحل الصمت المطبق على المكان. مشيت إلى الأمام حينها نهضوا من أماكنهم وحملقوا أعينهم فىَّ ورأيت من ملامحهم أنهم لا يعرفون ما يقولون. ذهبت بينهم وسألتهم عن شيخهم عندئذٍ أخبرنى الدليل أن ثلاثة أو أربعة رجال مسنين وشاب صغير هم شيوخ هذا المكان. ألقيت عليهم التحية دون تحفظ وصافحتهم يدًا بيد وهو الأمر الذى لا يفعلونه أثناء التحية على العكس من النظام الإنجليزى. تمنيت لهم الرخاء والازدهار. ورأيت من أسلوبهم فى هذه المناسبة أنهم منقسمون فى الرأى. فالبعض منهم استقبلنى بحفاوة، بينما أعرض البعض الآخر وهم

يتمتمون بأشياء لم أتبينها فى تلك اللحظة. سألونى عما أريد. أخبرتهم بأننى رجل غريب أتيت إلى هنا لزيارة ذلك المكان لأننى أتوقع العثور على بعض الأحجار التى ترجع إلى المسجد الكريم لآبائى وأجدادى وأتمنى أن نصبح أصدقاء. أرسلت دليلى فى الوقت نفسه لإحضار الإبل وعند وصولها أصدرت الأوامر بإعداد القهوة. أحضرت حصيرة لا بأس بها وسجادة جديدة مما أضفى على المكان رونقًا وجمالاً. فرشتهما على جانب الحائط، وجلست ودعوت الشيوخ إلى المجيئ والجلوس بجوارى وفى تلك الأثناء تساءلت عن إمكانية شراء خروف بسعر رخيص. جلس البعض منهم مبتهجين على حصيرتى، لكن البعض الآخر ظلوا جالسين على مبعدة وهم عبوس وهو ما تظاهرت بعدم انتباهى له. اقترب ابن أخى الدليل وقال لى إنه سيبيعنى خروفًا مقابل دولار واحد، فوافقت شريطة أن يسلق لنا قدرين كبيرتين من الأرز من مرقته. كنت أعلم أن الأرز هناك رخيص جداً واستفدت من ذلك بأن جعلتهم يظنون أننى لا أملك الكثير من المال، لكننى وفى الوقت نفسه أرغب فى إقامة وليمة معهم. فى تلك الأثناء، أعد خادمى الصقلى والحاج إبريقًا كبيرًا من القهوة وزالت الكلفة بينهما وبين بعض هؤلاء الناس. وأثناء دوران الخادم بالقهوة، جعلت الأولوية للشيوخ بتقديم القهوة لهم أولاً، فلما رأى باقى الرجال سمر البشرة مثل هذه المعاملة جاءوا وجلسوا هم أيضًا وشاركوهم نفس واجب الضيافة لأنهم لا يقدرون على مقاومة إغراء فنجان القهوة، فهذا ترف ربما لا يتاح لهم غير مرة فى العام، فى اليوم الأول من وصول قافلة البدو التى جاءت إلى هناك بغرض نقل البلح إلى القاهرة أو الإسكندرية. وبهذه الطريقة غدا أكثرهم بربرية ووحشية أقرب إلى الاعتدال والدماثة، ورأوا عدم اكتراثى بأمر صداقتهم فظنوا أنَّ من صالحهم أكثر أن يصبحوا اجتماعيين معنا. بحلول هذا الوقت تجمع باقى أهل القرية والأبقار والإبل والخراف والحمير والرجال والنساء والأطفال كلهم على هيئة نصف دائرة وهم يحملقون فىَّ كما لو كنت قادمًا من القمر. فقد رأى بعضهم الأتراك وغير ذلك من قبائل العرب، لكن لم يرَ أى منهم فرنسيًا أو مسيحيًا من قبل على الإطلاق. أحضرت قليلاً من التبغ الجيد وقدمت لكل شيخ من الشيوخ الشيشة وأخذنا فى التدخين وتجاذبنا أطراف الحديث عما يمكننى أن أراه فى اليوم التالى. فأخبرونى

أننى لن أرى شيئًا هناك، غير أننى يتعين علىَّ الذهاب إلى الواحة القادمة التى تبعد مسافة أربعة أيام شمال غربى الواحة التى كنا فيها حيث سأرى شيئًا أبحث عنه. لاشك أنهم كانوا يقصدون سيوة التى تعتبر أيضًا واحدة من واحات الآمونيين. هناك معبد بهذه الواحة زاره السادة براون Brown وهورنيمان Horneman ودى بودين De Buden. قص عليهم دليلى العديد من القصص الرائعة فعلاً فى أثناء هذا الوقت وأحدها على وجه الخصوص أنه رحل وبعض أصحابه إلى الجنوب وأنه وجد قبيلة مختلفة عنا تمام الاختلاف فهم يمشون كما تمشى الكلاب وتحارب نساؤهم القبائل الأخرى. وقال دليلى إن هذه القبائل بعيدة للغاية لدرجة أن "بلدهم" أو قريتهم تكاد تصل إلى السماء وإنه إذا كان لدى من الوقت متسع لذهبت إلى قمة أحد التلال المرتفعة ولاستطعت أن ألمسها بيدىَّ. ويظن هؤلاء الناس أن السماء والأرض تلتقيان عند الأفق.

وفى أثناء هذا كله، عقد باقى الشيوخ الآخرون جلسة تشاور فيما بينهم ، وبدا عليهم القلق الشديد بشأن ما أعلنته من النية فى زيارة كل أنحاء البلاد رغبة فى البحث عن بعض الأحجار القديمة. وفى تلك الأثناء أتى ثلاثة رجال ببعض الأوانى الخشبية الكبيرة المليئة بالأرز ووضعوا أحد هذه الآنية أمامى ووضعوا الباقى أمام سائر الناس. وجلسوا جميعًا حول آنيتهم وظللت أنا ومعى نصيبى الكبير وحدى. فأخبرتهم على الفور أننى لن أذوق هذا الطعام حتى يأتى كل الشيوخ ليأكلوا معى؛ فتهللوا لهذا وفرحوا فرحًا عظيمًا وجاءوا ليأكلوا معى حتى الحقير منهم جاء وغمس يده فى نفس الإناء. لم يمر الكثير حتى جاء رجل وألقى بسلة على الأرض مما أثار بعض الغبار الذى غطى الأرز كما يغطى السكر الكريمة. لم أستطع تخمين السبب وراء ذلك وكنت حريصًا على معرفة ما يوجد بهذه السلة حينما مدَّ أحد الشيوخ الجالسين قبالتنا يده داخلها وأخرج قطعة من لحم الضأن المسلوق. لقد رأيت طعام الغداء يقدم للناس بطرق كثيرة، لكننى لم أرَ أبدًا لحم الضأن المسلوق يؤكل من سلة تلقى على الأرض بهذه الطريقة. وُزِّعَت قطع اللحم بعد ذلك والتهمها الناس. أضحينا أكثر حميمية بعد تناول طعام الغداء والواقع أن الناس فى هذه البلاد إذا تناولوا الطعام مع الغرباء فإنهم ينحون جانبًا أى عداوة أو شحناء، بل ويصبحون أصدقاء فى بعض الأحيان. هذه

خيانة، هذا صحيح، لكن بعدما يأكل أى منهم مع أى غريب أمام الناس، فإن عليه على الأقل أن يلعب دور الصديق. كان لدينا المزيد من القهوة والشيشة وألمحت لهم مرة أخرى عن الذهاب لرؤية الأرض فى صباح اليوم التالى ووعد ابن أخى دليلى بأن يصحبنى إلى أى مكان أشاء. تحدثنا مع بعضنا البعض بلغة عربية ركيكة لأنهم كانوا يودون الحديث معى، لكنهم يتحدثون مع بعضهم البعض بلهجة أخرى مستخدمة فى سيوة. ومع حلول الظلام فى تلك الأثناء أشعلنا شمعة وهو الأمر الذى اندهشوا له دهشة بالغة ودارت أمام كل واحد منهم حتى يراها. ما كان ينبغى علىَّ أن أذكر هذا الأمر ما لم يبد لى أن عدم رؤية هؤلاء الناس لأى شمعة على الإطلاق - رغم إقامتهم على بعد أيام معدودة من النيل - من الأمور التى يصعب على العقل تصديقها. وبعد انتهاء شرب القهوة، نهض أحد الشيوخ وتبعه الباقون ومضى بالشمعة دون أن يَنْبَس ببنت شفة ليتركنى فى الظلام ومعى السجادة والحصيرة لأنام عليهما. أتى حداة الإبل بكل الأطعمة وما إليها بالقرب منا واستأنفنا الخطة القديمة بمواصلة الحراسة طوال الليل على أساس ساعتين لكل مناوبة.

وفى يوم السادس والعشرين، جاء بعض الأهالى لرؤيتنا قبل الشروق، وعلى الرغم من كل ما أبديت لهم من أدب ولطف معاملة فى الليلة الماضية، فإنهم كانوا وقحين للغاية فى الصباح. لم تكد تسطع الشمس حتى جاء الشيوخ وعقدوا اجتماعًا للتشاور فى إذا كانوا سيسمحون لى برؤية الآثار أم سيذهبون بى إلى القرية الأخرى وراء الجبل. كنت أعلم من قبل أن هناك قرى أخرى أكبر من هذه القرية غربى الواحة وأن بها العديد من الآثار، لكننى وبعد أن اكتسبت بعض المعارف هنا تمنيت أن أرى كل شىء قبل أن أمضى إلى أى مكان آخر. وعلى هذا الأساس، ذهبت إلى الشيوخ حينما كانوا جميعًا فى المجلس وأخبرتهم أننى لم آتِ إلى هنا كعدو، بل كصديق، وأننى أرغب فى أن يخبرونى باعتراضهم على ذهابى لرؤية البلاد. وجاء ردهم بأننى عرفوا أننى أريد الكنز وليس الحجارة وأن أى إنسان لا يجوب الصحارى للحصول على الحجارة من الواحة وما إلى ذلك. باختصار، أضحت كل مجهوداتى لا طائل من تحتها، لاقتناعهم بأننى أريد الذهاب إلى هناك بحثًا عن كنز وهو ما طفقوا يرددونه مرارًا

وتكراراً. عندئذٍ اتبعت الطريقة القديمة فى إقناعهم بالنقيض وأخبرتهم بأننى سأعطيهم أى ذهب أعثر عليه وهو ما وافقوا عليه وقالوا قُضِىَ الأمر بمعنى أنهم سيحصلون على الكنز. وفى النهاية، انطلقنا نحو الشرق وبعدما مررنا خلال أَجَمَةٍ من أشجار النخيل - كما حدث فى اليوم السابق - وصلنا إلى أرض رحبة يغطيها الملح النقى تماماً فى بعض الأماكن منها فبدت للرائى كالثلوج. الأمر الأكثر غرابة من ذلك وجود العديد من الغدران الصغيرة التى تجرى فوق السهل الملحى وكونت رواسب خاصة بها ولم تندمج بأى حال من الأحوال مع الملح مما جعل المياه عذبة بها، وعندما مضينا إلى الأمام وصلنا إلى موضع شيدت فيه على ما يبدو إحدى المدن القديمة. ووجدنا بعد مسافة قليلة العديد من الحفر التى لا تختلف فى شكلها عن المقابر المصرية القديمة. ولما دنوت من إحدى هذه الحفر ودخلتها، أصابت الدهشة الشديدة أهالى المنطقة الذين لم يغامروا قط بدخول أى منها ذلك أنهم يعتقدون أن الشيطان يسكن فيها. اكتشفت أن هذه الحفرة ما هى إلا مقبرة مقطوعة فى الصخر كما هو الحال فى المقابر المصرية القديمة وتمتد إلى أسفل فى اتجاهات مختلفة. فلما خرجت منها تلقانى الشيوخ بعيون فاحصة متفحصة ليروا إذا كنت خرجت ومعى الكنز أم لا. ولحسن الحظ لم يكن معى أية أموال خاصة بى وإلا لقالوا إننى عثرت عليها هناك، ومن الغريب أيضاً أن المفهوم الأساسى لديهم عن النقود هو الدولار الأسبانى. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن بعضاً من البدو الذين يذهبون إلى هناك لشراء التمر والأرز يأتون ببعض تلك النقود لدفعها إليهم إلى جانب العديد من السلع للمقايضة وأحياناً ما يحدث أن تمر القافلة من مكة إلى فزان أو طرابلس عبر الواحة وتشترى منهم الأرز الذى يُدْفَع ثمنه بالدولار. تقدمنا أكثر فى طريقنا وفى النهاية صحبنى الأهالى لرؤية أنقاض مبنىً أثرى قديم من الطوب المحروق والظن أن المبنى كان كنيسة مسيحية، لكن لم يبقَ منه الآن أى أثر، ولم أصدر حكمى هذا إلا على أساس الشكل الذى يميل بعض الشىء إلى ذلك النمط من المبانى. ثم سلكنا الطريق بعد ذلك إلى القرية مرة أخرى، لكن من اتجاه آخر. مررنا بالعديد من الأراضى التى ربما كانت مزروعة فى يوم من الأيام وأنا أعتقد أن السبب الوحيد وراء عدم زراعتها يكمن فى أن السكان قانعون بما لديهم من أرض زراعية ويسقى

هؤلاء الناس أراضيهم من مياه العيون والينابيع الجارية. اصطحبونى فى الطريق لرؤية ما أطلقوا عليه بيت الشيطان الذى صنعه بنفسه ولنفسه فى ليلة واحدة. كانت هذه صخرة منخفضة توجد عند أحد جانبيكا العديد من المقابر على الطراز المصرى القديم أيضًا، لكن نظرًا لأن مداخلها تختلف بعض الشىء عن سائر المقابر، سميت بالاسم سالف الذكر؛ وبذلك لم يجرؤ أحد من الأهالى على الاقتراب منها على الإطلاق. وظلوا على بعد مسافة كبيرة حينما اقتربت من المكان حتى الحاج المغربى الذى رأى المقابر بالقرب من الأهرام فى الفيوم بدأ يشعر بالقلق من روايتهم بسكنى الشيطان لهذه الأماكن. أخذت خادمى الصقلى، أشعلت شمعة ودخلت غارًا فى أحد الصخور قادنا من الداخل إلى الكثير من المقصورات الصغيرة وكذلك حجرات صغيرة مقطوعة فى الصخر كتوابيت على النمط المصرى القديم لكن بلا أية نقوش هيروغليفية. عثرنا فى مقصورة داخلية على العديد من التوابيت من الصلصال المحروق على هيئة رجل وذات حجم عادى يتسع لرجل واحد بوجه عام. يبلغ سمك التابوت بوصتان ويتسم بصلابة شديدة، أما الغطاء فهو مسطح تمامًا وعليه رأس رجل أو امرأة أو حيوان فوق رأس المومياء مباشرة. ونظرًا لثقل وزن التابوت لدرجة أن الجمل لا يستطيع حمله عبر الصحراء، فقد أخذت معى بعضًا من رؤوس الرجال على أغطية التوابيت ورأس لأحد الكباش. وهذه الرؤوس غير مصقولة الصنع. وفى طريقنا إلى الخروج وجدنا الشيوخ والآخرين فى شك فى قدرتنا على الرجوع من بيت بلوتو، لكن وعلى الرغم من ذلك، فإنهم لم يتخلوا عن الافتراض بأننا نبحث عن المال. عدنا إلى القرية مرة ثانية، وذهبنا بعد أن تناولنا وجبة خفيفة لرؤية نافورة مياه أو قل عين مياه جارية. وهذه العين عبارة عن غدير غريب من الماء وهو ذو فائدة كبيرة لأهل البلد لأنهم عندما يضعون أقمشتهم المصنوعة من الصوف الأبيض فيه – أى فى الغدير – لمدة أربع وعشرين ساعة، فإنها تخرج منه سوداء كأى قماش مصبوغ بهذا اللون. وهذا من الأمور المعاشية العظيمة لكل من النساء والأطفال الذى يرتدى جميعهم تقريبًا ملابس بهذا اللون. إلا أن الشيوخ وأكابر القوم فهم يرتدون البياض من الملابس. ويدين هؤلاء بدين الإسلام، لكنهم لا يتبعون تعاليمه إلا قليلاً. وهناك شاب فى القرية مكث فى مصر من قبل وتعلم بها شيئًا

من حروف الهجاء فأصبح بينهم حكيمًا، أما كل مراجعه فهى بضع أوراق بها نسخ من نصوص القرآن. فما أغلى قيمة الكتاب المقدس بالعربية فى مثل هذا المكان! نمط حياتهم بسيط للغاية، فطعامهم الأساسى هو الأرز الذى يتوفر لديهم بكميات كبيرة، لكنه من نوع ردئ جدًا لدرجة أنهم قلما استطاعوا بيعه أو مقايضته بأى شيء ولا يدور التعامل إلا مع نفر من البدو الذين يذهبون إلى هذا المكان سنويًا لشراء البلح الممتاز والفاخر. لديهم عدد قليل من الإبل والحمير والعديد من الأبقار والجاموس والماعز والخراف وبالتالى ليس لديهم أى سبب للشكوى على الإطلاق. يمكن لهؤلاء الناس أن يكونوا سعداء فى هذا الإلسيوم لأن هذا المكان يستحق هذا الاسم أكثر من أى مكان آخر لانعزاله عن سائر البشر، لكنهم بشر فانون mortal ولابد أن لهم شرورهم وآثامهم. أعدى أعدائهم هم جيرانهم فى القرية المجاورة المسماة بالقصر التى تقع عند الناحية الأخرى من صخرة مرتفعة وتفصلها عنهم مسافة ثلاثة أيام وبينهم وبين سيوة مسافة أربعة أيام. وهم فى صراع مستمر مع بعضهم البعض وغالبًا ما يعتدون على بعضهم البعض ولأسباب تافهة للغاية فى بعض الأحيان. أخذونى بعد الظهيرة لكى أرى قطعة أخرى من الآثار لا تبعد كثيرًا عن البلدة، ومررت ببعض تلال الرمال المرتفعة ووصلت إلى سهل رحيب يمتد إلى سفح الصخرة التى تفصل بين القريتين. وفى وسط هذا السهل هناك تل صغير فوقه أنقاض معبد صغير مشيد من قوالب الحجر الرملى الكبيرة بما لا يختلف عن قوالب الحجارة المصرية القديمة، لكن ليس منقوشًا عليها نقش هيروغليفى واحد. وإنما نقش عليها عدد من النقوش غير المنتظمة بالأبجدية اليونانية، لكنها كانت مشوهة المعالم لدرجة أننى لم أتبين منها سوى حرف أو اثنين فى مواضع مختلفة. وحول المعبد قامت بيوت مشيدة من الطوب المحروق. فى تلك الأثناء وصلت أنباء إلى قرية القصر أن أحد الغرباء أو الأجانب وصل إلى قرية الزبو بحثًا عن كنز يجرى العثور عليه تحت الأنقاض فى القرية وأنه غامر بالدخول فى بيت الشيطان دون خوف. وثارت ثائرة الناس وأقسموا ألا يدخلن هذا الغريب قريتهم أبدًا بل ولا يقترب منها. وأتانى رجل كان يعيش فى منطقة وسط بين القريتين وينقل ما يحدث أو يقال من طرف إلى آخر بين الحين والآخر حينما كنت أشاهد المعبد المذكور

وقال إن هناك معبداً ضخماً فى القرية الأخرى المسماة بقرية القصر وأن هناك فتحات تحت الأرض تحت القرية مباشرة حيث يتوقع العثور على كنز عظيم، إلا أن الناس أقسموا على ألا أدخل القرية على الإطلاق. سألته عن أسماء أهم الأشخاص والشيخ الكبير والقاضى ودونت أسماءهم وطلبت إليه أن يحمل رسالة منى إليهم؛ فتردد فى البداية، لكنه وافق على الذهاب إلى القرية فى الصباح الباكر من اليوم التالى لما وعدته بأننى لن أقول لهم إنه هو الذى أخبرنى بشأن الكنز. وضمت الرسالة تحياتى إلى الشيخ الكبير الشيخ سالم والقاضى أو القائم على العدالة الشيخ إبراهيم، كما أخبرتهم بها أننى جئت إلى الواحة لزيارتهم وأننى لست من العسكر وأنهم إذا رغبوا فى تحديد مكان يمكننى أن ألتقى فيه بهم فى صباح اليوم التالى، فإن من دواعى سرورى أن ألقاهم أينما شاءوا. رجعت إلى القرية وعاد الرجل إلى تردده مرة أخرى. قضينا المساء بما لا يختلف كثيراً عن مساء البارحة ودار أكثر الحديث عن المخاطرة التى قمت بها عند دخولى بيت الشيطان دون العثور على أية أموال أو ذهب فيه. ضحك الشيوخ على بعضهم البعض حينما رأوا أنهم اقتربوا كثيراً من المكان.

وفى صباح يوم السابع والعشرين اصطحبونى لرؤية موضع إحدى المدن القديمة فى الجنوب. كان الشيوخ على قناعة بأننى إذا عرفت كيف أرى المكان فسوف أعثر على الكنز هناك، ولم تُجْدِ كل محاولاتى فى إقناعهم بأننى لم آتِ بحثاً عن أى كنز. وصلنا إلى هذا المكان الذى لم يبعد أكثر من ميل ونصف. كانت هناك أكوام وأكوام من القمامة، أما المقابر فهى مقطوعة على شاكلة مثيلاتها الأخرى التى يمتلئ البعض منها بالقمامة. طلبت البدء فى الحفر وفتح مقبرة من تلك المقابر، لم يستهجنوا الفكرة لأننا قد نعثر على بعض المجوهرات فيها، لكن وبعد محاولة واهية تملك منهم التعب والإرهاق وتركوا المقابر بما فيها من كنز مزعوم. رجعنا إلى القرية، لكننا وقبل وصولنا إليها علمنا أن الشيخ الكبير وقاضى القرية الأخرى قادمان نحو الزبو. أسرعنا المسير حتى نلقاهم، لكننى لاحظت أن بعضاً من الشيوخ لم يَرُقْه هذا الخبر. ولدى وصولنا إلى القرية قابلنا الجماعة وهم قادمون نحونا. كان الأول رجلاً باشّ الوجه يمتطى حصاناً ويرتدى ملابس من الكتان الأزرق المخطط وعمامة حمراء بالإضافة إلى مسدسات

وبندقية. علمت أن هذا الرجل هو الشيخ الكبير فى الواحة. أما الرجل الآخر فكان رجلاً عَبِس الوجه بما لم أرَ فى أحد من قبل ويرتدى رداءً وعمامة خضراء بالإضافة إلى المسدسات والبندقية. كان هذا الرجل قاضيًا وشيخًا بمعنى القاضى للفصل فى المنازعات وشيخ أو إمام المسجد church. كان ذلك الرجل أكثر جاذبية من الباقين فى ملبسه ومظهره فهو يرتدى عمامة من شال كشمير جاء بها حينما كان فى القاهرة. جاء بعد هذين الرجلين المهمين قرابة عشرين رجلاً يمتطون ظهور الخيل والكثير من المشاة جميعهم مسلحون بالمسدسات والبنادق والسيوف. عندئذٍ دنا دليلى بالقرب منى وأخبرنى بأن هذين الرجلين ذوى الأهمية هما الحكام أو ولاة الأمر فى الواحة. لما وصل الشيخ سالم إلى الأسوار التى تحيط بالقرية توقف ونزل عن ركوبته ونظر حوله ليرى إن كان هناك أحد يعرفه. وفعل القاضى مثل فعله وكذا باقى الرجال سواء الراكبين على ظهور الخيل أو المشاة المحيطين بهم. أُمِرَ بإحضار عدد من الحصر وفرشها على الأرض فى ظل أحد الجدران الذى يبلغ ارتفاعه عشر أقدام. جلس أكابر القوم هناك ودعوا بعضًا من حاشيتهم للجلوس معهم. فى تلك الأثناء لاحظت أن كبار الشيوخ فى الزبو انسحبوا وحدهم إلى مكان آخر. ونأيت عنهم فى مكان بعيد حتى رأيت أنهم استقروا جميعًا فذهبت إليهم. بعد أن أفشيت السلام عليهم كما هى العادة، طُلِبَ منى الجلوس بين الشيخين الكبيرين. لم أدرِ ما التماثيل التى سآخذها من هذا المكان، لكننى عرفت بما لا يدع مجالاً للشك أن الجماعة من حولى - فيما عدا الشيخ سالم - لم تبد الترحيب بى من خلال الحكم بالظاهر. بعد ذلك شرعت فى الحديث مع الرجلين الكبيرين اللذين كانا حريصيْن على معرفة ما أعمل فى الواحة، لكنهما لم يرغبا أن يكونا أول من يسأل عنه. وفى النهاية، سألنى القاضى مباشرةً باللغة العربية "إلى أين أنت ذاهب وما السبب الذى جاء بك إلى هنا؟" فرددت قائلاً بأننى رحالة أجوب البلاد بحثًا عن الأحجار القديمة، فأنا لم آت إلى هنا إلا لأرى إن كانت هناك أية مبانٍ قديمة تعطينى أى فكرة عن ديانة أجدادى ولسانهم اللذان أصبحا مجهولان اليوم. وبدا لى أن هذا الرجل أصاب نفس الانطباع الذى أصابه داود الكاشف فى النوبة لأنه أجاب بنفس الإجابة، إن لم يكن أغلظ منها حيث قال: "أنت جئت إلى هنا

بحثًا عن كنز وليس عن حجارة. ما شأنك أنت والحجارة؟" فرددت بقولي إنني لا أريد كنزًا فكل ما أبحث عنه هو الأحجار وإنني لا رغبة لديَّ في أخذ أيٍّ منها ما لم يوافقوا على ذلك، كما وعدتهم بإعطائهم أي كنز أعثر عليه كدليل على أمانتي وإخلاصي. قعد القاضي يفكر في عرضي هذا وقال الشيخ سالم إنني إن عثرت على أي كنز فإن والي مصر سيشن الحرب عليهم حتى يأخذ ذلك الكنز منهم. كان تفكيره دقيقًا للغاية، لكنني أخبرته أنه لا خوف من أي مخاطرة إذا عثرت على أي أموال لأنني لا أرى ذلك على الإطلاق. فقال القاضي: "لكن ما الغرض الذي جئت من أجله إلى هذه البلاد؟" بينت لهم مرة أخرى أمر الأحجار وأنني ما جئت إلا لرؤيتها إذا سمحوا لي بذلك، فإن لم يفعلوا فلن أعير الأمر اهتمامًا وسوف أعود أدراجي في الغد إلى النيل لأنهم ألقوا الكثير والكثير من الصعوبات أمام أحد الغرباء الذي لم يرغب سوى في رؤية بعض الأحجار. وآتى تظاهري بعدم الاهتمام بالثمرة المرجوة وبدأ الشيخان يتساهلان معي بعض الشيء. وفي تلك الأثناء قدمت بعض من القهوة الفاخرة والشيشة حينها أخذنا جميعًا نصيبًا من الشراب والدخان، بينما تناجي القاضي بحديثٍ مع بعض الخيالة الذين كانوا يجلسون بجانبه وفجأة نهض واحد منهم من مجلسه وأقسم بمحمد (ص) أن الغريب لن يدخل قريتهم أبدًا لأنه إذا دخلها فإنهم سيصابون جميعًا بالمرض والموت. جاء هذا العمل بإيحاء من القاضي ولعله قصد أن يرى مردود هذا عليَّ. فرددت قائلاً مرة أخرى إن كان ذهابي للقرية سببًا للنزاع، فإنني سأعود من حيث أتيت قبل أن يظن بي أي أحد منهم ظن السوء. عندئذٍ قال الشيخ سالم إن الناس يخشون من الاضطرابات المقيتة التي يمكن أن أسببها للقرية. ولفت نظري أنني لو كنت قادرًا على فعل ذلك ما فعلته بأهل الزبو الذين عاملوني جميعًا معاملة حسنة رغم أنني لم أقم هناك إلا منذ ثلاثة أيام. كان هناك الكثير من الأمور التي لابد من القيام بها والحديث عنها بخصوص هذا الموضوع لمدة ساعتين. وفي النهاية تقرر أن أدخل القرية في المساء لكن بشرط ألا أكتب كلمة واحدة ولا ألمس أو آخذ أي شيء من موضعه وأن أبقى على بُعْد مسافة كبيرة من الآثار. وافقت على كل هذه الشروط وطلبت ذبح أحد الخراف ولحسن الحظ قُدِّم لنا طعام العشاء. تناول الرجال المسلحون مع شيوخ قرية

الزبو، بينما تركونا نحن لنأكل وحدنا . وشعر شيوخ الزبو بقدر أكبر من الحرية معى أكثر من أى وقت مضى حينما رأوا أننى أصبحت ودودًا مع الآخرين، إلا أنهم رفضوا دعوتى إليهم لتناول الطعام معى، لكنهم وافقوا بناء على طلب القاضى وأكلنا جميعًا من نفس الطبق أو الوعاء الخشبى عدا الشيخ سالم الذى أكل وحده. طلبت إليه عدة مرات أن يخبرنى عن السبب، لكنه رفض وعلى وجهه ابتسامة. وسرعان ما أدركت أن هؤلاء الناس لم يكونوا على وفاق مع بعضهم البعض وأن هذا الرجل باعتباره شيخهم الكبير لن يأكل مع أهل الزبو ذلك أنه لو فعل لعم السلام بينهم، لكننى ربما لم أكن على يقين من ظنى هذا، فلم أتدخل فى هذا الشأن الذى كان سيوقعنى فى دائرة الخطر فى هذه الحال. وما كاد الباقون ينتهون من تناول طعام العشاء حتى قُدِّم نصيب منه خصيصًا للشيخ نفسه. بعد ذلك دُعيت إلى تناول الطعام معه وهو ما دبرت له فالوجبة السابقة لم تسد رمقى بحيث يمكننى تناول وجبة أخرى. وانطلق الجميع بعد تناول طعام العشاء والقهوة. بعد مرور بعض الوقت استعددنا للحاق بهم وطلب منى شيوخ الزبو أن أعدهم بأن أمرَّ عليهم فى طريق عودتى. انطلقنا قبل غروب الشمس بثلاث ساعات ررنا بالكثبان الرملية غربىّ القرية وعبرنا السهل وصعدنا الصخور التى تفصل بين القريتين. تمكنت من فوق قمم الصخور أن أرى منظرًا رائعًا للواحة وكانت البلدة فى أروع ما يمكن من ناحية القصر. فأحاطت بالقرية غابة من أشجار النخيل التى امتدت على هيئة دائرة كبيرة تضم مساحة واسعة من الأرض الزراعية. رأينا أمامنا على امتداد البصر مجموعة من الصخور التى تحيط بالواحة وتنفتح على جهة الغرب لتكوِّن مدخلاً إلى وادٍ يمتد فى ذلك الاتجاه. نزلنا من فوق الصخرة وتقدمنا تدريجيًا نحو القرية وما أن اقتربنا منها حتى وجدنا المكان الذى مررنا به مزدحمًا بالناس الذين علموا أن الرجل الغريب آتٍ إلى هنا بحثًا عن الكنز ولم يكن هؤلاء الناس مرحبين بإقحام أنفسنا عليهم. ومن الخير أننى تحدثت إلى شيخهم وقاضيهم اللذين أكدا لهم من قبل أنهما سيعملان على ألا نصيبهم بأى مكروه أو أذى. حضر أول شخص قابلناه ووقف أمامنا وتوقف أول جمل ولم نتمكن من المسير؛ وبالتالى توقفنا حيث كنا على بُعد ربع ميل من القرية، لكنه - أى هذا الرجل - رأى أننا تقدمنا بما فيه الكفاية. طلبت

إلى دليلى أن يتكلم معهم ويرسل دليلاً إلى الشيخ أو القاضى، لكن كان الليل قد حلَّ تقريبًا ومكثنا فى مكاننا. وظل الناس يراقبوننا طوال الليل ليطمئنوا أننا لم نتقدم أكثر نحوهم.

وفى الصباح الباكر من يوم الثامن والعشرين جاء الكثير منهم لكى يرونا لكن من على بُعد مسافة كبيرة. كنا نريد أن نرسل أحدًا منهم إلى الشيخ ، لكن لم يكن أحد منهم ليسمعنا. أخبرهم الدليل أن الإبل لا يمكنها أن تبقى هكذا بلا غذاء وإلا هلكت. فردَّ الناس أننا قد نهلك أيضًا وقتما شئنا. ومرت فترة ما قبل الظهيرة بهذه الطريقة. كان المكان الذى توقفنا فيه موضعًا جافًا، فلا مكان نستظل به من الشمس ولا مصدر ماء قريب منا، كما أننا لم نحضر معنا أى موارد للغذاء ؛ لأننا لم نتوقع مثل هذا الاستقبال. قرر دليلى وحداة الإبل العودة إلى الزبو بمجرد قرب الشمس من المغيب ، ولم أكن لأمنعهم حينئذٍ. وبالقرب من هذا الموضع شاهدت محجرًا كانت تُؤْخَذ منه قوالب الحجارة الكبيرة مما أكد لى ضرورة وجود مبنىً ما بهذه الضخامة فى القرية أو فى مكان ما غير بعيد عنها. وفى النهاية وقرب المساء جاء القاضى إلينا ، وقال إنه كان لا يمكننا دخول القرية ليلة أمس لأن الناس لم يعرفوا بهذا الأمر ولم يوافقوا على دخولنا حتى تلك اللحظة – وعلمت فيما بعد أن هذه عقبة المسئول الأول والوحيد عنها هو القاضى نفسه لأن الناس رغم انزعاجهم لذهابنا إلى القرية، فإنهم لم يعترضوا فى الليلة الأولى أكثر من اعتراضهم فى الليلة الثانية.

وأخيرًا سرنا ببطء نحو القرية ونزلنا عن ركوبتنا قبل أن ندخلها. مررنا من تحت بوابة أفضت بنا إلى مكان واسع فسيح. هذا المكان هو سوقهم الذى تباع فيه الإبل وغير ذلك من الماشية ونصبنا محل إقامتنا فى وسط هذا السوق. تمثلت العقبة الأساسية فى الحصول على الغذاء للإبل وهو الأمر الذى رفضوه رفضًا مطلقًا فى بادئ الأمر، إلا أن المسلم عندما يرى أن بهائمه ستهلك، فإنه يعطيها بعضًا من قش الأرز. وأشعلنا نارًا وأعددنا الآنية لعمل القهوة. وضعنا أمتعتنا كلها بالقرب منا وجلسنا حولها. وأغْرَت رائحة القهوة الفواحة هؤلاء البرابرة بالاقتراب منا لشمها بأنوفهم. وفى تلك الأثناء جاء بعض منهم بالقرب منا وشرعوا فى الحديث اللطيف معنا.

شربت قهوتى وكذا دليلى. اقترب الناس أكثر وأكثر حتى استطعت أن أسألهم إذا كانوا يرغبون فى تناول بعض القهوة، فأجابوا بالإيجاب بكل حماسة. وجذب منظر شرب هؤلاء الناس للقهوة آخرين غيرهم حولنا ليصبحوا أقرب وأقرب. وبدأنا الحديث وجاء القاضى بعد مُضى بعض الوقت وطلب بأن تفرش حصيرة كبيرة على الأرض بالقرب منى، ومما أثار دهشتى كثيراً وضع وعائين كبيرين من الأرز أمامنا. كان هذا فى مقابل ما أعطيته لهم فى صباح الأمس. بعد هذا، قدمت القهوة مرة أخرى وجاء الشيخ الكبير بنفسه ليشاركنا. ولعلنى أجد سبباً فى إبداء الدهشة والعجب من فوائد فنجان قهوة. وتحدثنا فى كل شىء ما عدا موضوع رؤية الآثار. وفى النهاية ومع حلول الليل والظلام دعانى الشيخ إلى دخول بيته لقضاء الليل فيه. كنت أفضل البقاء حيث كنت، لكننى لم أكن أجرؤ على رفض هذه الدعوة. ذهبت معه وظننت أننى سأستطيع النوم بعد أن وضعت سرجى على الأرض. كان بيت الشيخ مبنياً من الطين كالمعتاد ووضعت بضعة ألواح من جذوع النخل فوق البيت كسقف ووضعت فوقها كمية كبيرة من القش وعليها عدد من الحصر القديمة. تسقط الأمطار فى هذا المكان أحياناً، لكن بكميات قليلة. وعندما كنا وحدنا قال لى الشيخ أنه سيفعل كل ما فى وسعه أن يفعله من أجلى، لكنه قال إن والد القاضى الذى يعمل تاجراً للبلح استلم مبلغاً كبيراً من الدولارات من البدو الذين يأتون إلى هذا المكان للتجارة والشراء مرة واحدة فى السنة، ومن المفترض أنه خبأها بين الآثار؛ لذلك أحس بالخطر ظناً منه أنك ستأخذها من تحت الأرض بسحرك. أكدت للشيخ أننى لست ساحراً وأننى لا أعبأ بالكنز. وفى النهاية خلد الشيخ الكبير للنوم وهذا ما فعلته أنا أيضاً، لكننى أتمنى ألا يفعل القارئ مثلنا أيضاً.

وفى صباح يوم التاسع والعشرين دار جدل كثير وكانت العقبة الكبرى هى إقناع والد القاضى بأن يدعنا نمر خلال الآثار. واحتدم النقاش والجدل الذى وصل فى النهاية إلى أن يصحبنا بنفسه – ولا أحد غيره – إلى هناك حتى يطمئن أننى لن أذهب إلى أبعد مما يقودونى إليه، وأننى لن أدون أى شىء أو آخذ أى شىء معى. مما لا شك فيه أننى وافقت على كل هذه الشروط المذكورة لأنه لو كان هناك الكثير من الأشياء

التى تستحق المشاهدة فإننى لن أفوت الفرصة لمشاهدتها ويمكننى تدوين ملاحظاتى بعد ذلك فى مذكرتى ليلاً أو لو كان هناك أى شىء يستحق المعاينة فإننى سأجد الوسيلة لمشاهدته مرة أخرى بعد زيارتى الأولى. انطلقنا مع الرجل البخيل المسن الذى قادنى عبر حارة حيث البيوت مبنية على أنقاض أحد الصروح الأثرية الكبيرة. تبرز قوالب الحجارة فى أجزاء عدة وفى مجرى الحارة نفسها، لكن هذا كله يظهر لمن يسير فى الطريق. وفى النهاية هبطنا عند أحد جوانب القرية التى تقع فوق ربوة أو مرتفع نشأ عن بقايا الآثار ولاشك. التففنا حول بعضٍ من القرية وشاهدت عند الجانب الشمالى منها بقايا معبد يونانى قديم يتكون من جدار عالٍ له ضلعان جانبيان وقوس فى المنتصف. ويتخذ هذا المعبد موقعًا مناسبًا إذ لابد أنه شُيِّدَ على أنقاض معبد آخر أكبر حجمًا. لا يزيد عرض هذا المعبد عن ٦٠ قدمًا ولابد أنه كان ممتدًا بالطول بما يتناسب مع هذا العرض. واحتشد الناس وراءنا لكنهم ظلوا على بُعد مسافة منا وبدا لى أن لهذا الرجل المسن تأثير عظيم عليهم. ومنعنى من المضى قدمًا على بعد مائة وخمسين ١٥٠ قدمًا تقريبًا وفشلت فى إقناعه أن المسافة كبيرة للغاية بحيث إننى لن أستطيع تمييز أى شىء. وجلس عدد كبير من الناس فوق السور ليروا ما الذى سأفعله.

أخرجت من جيبى منظارًا صغيرًا لا يزيد طوله عن قدمين عند فتحه إذ توقعت أن أجد بعض النقوش على السور. وعندما توجهت بالمنظار جهة الجزء العلوى من السور، تراجع كل الناس الذين كانوا هناك بسرعة كبيرة وكاد يفعل مثلهم آخرون كانوا بالقرب منا. حملق فىَّ الرجل المسن وفى المنظار وأراد أن يعرف ما الذى أنوى فعله. رأيت التصرف الأمثل فى إرضاء الرجل المسن بأن يلقى نظرة من خلاله. شعر الرجل بالخجل فى البداية، لكنه أخذه وبعد أن عاينه طويلاً وجدت صعوبة فى جعله يضعه على عينيه. وفى النهاية وضع عينيه على بؤرة العدسات، ولكم كانت دهشته وعجبه عندما رأى أن أحجار السور تقترب منه جدًا. ورأى أن هذا ليس من الحق لأننى وعدت بألا ألجأ إلى السحر فى شىء. ووضحت له أن هذا ليس سحرًا، لكنه شىء مما يستطيع أى أوروبى القيام به كل يوم. ألقيت نظرة طويلة على ذاك السور، لكننى لم أكتشف أيًا من النقوش سوى أربعة حروف على الضلع الشرقى من السور وفوق الإفريز وهى بالضبط كما يلى: E. P. H. S.

صعدنا بقايا الآثار مرة أخرى ودخلنا من خلال بيت إلى داخل المعبد، لكننى لم أرَ شيئًا هناك إلا الناحية الداخلية من السور المذكور التى لابد أنها كانت المحراب. رجعنا إلى البيت من نفس الطريق وبدا لى أن كل ما شاهدته هو بقايا آثار متناثرة لصرح أثرى كبير تغطيها أكواخ الطين التى تتكون منها القرية وأن أممًا لاحقة شيَّدت الجزء القائم من المعبد وأن مواد المعبد السابق استخدمت لتشييد المعبد اللاحق، إلا أن الحجارة أصبحت أصغر حجمًا. وأمضينا باقى المساء فى بيت الشيخ لإقناعه والآخرين بأهدافى النبيلة لما علموا من هذه المحاولة الأولى أننى لم أتعرض لأى أحد بالأذى. ظل المنظار عالقًا فى ذهن الرجل المسن وأخبر الباقين بأننى رغم عدم تعدىَّ بالمضى إلى أبعد مما سمح لى به، إلا أننى استخدمت وسيلة لتقريب سور القصر أو المبنى الأثرى منى لذا فإن هذا بالضبط كأننى اقتربت أكثر. لكن الرجل المسن قال ذلك كله بطريقة ظريفة مما جعل الباقين يضحكون جميعًا.

فى تلك الأثناء جاء اثنان من الزنوج كانا يعيشان فى الواحة وأحضرا معهما قربتين من شراب معين يستخلصونه من شجر النخيل بقطع كل فروعه ثم يصنعون حفرة فى أعلى النخلة يضعون فيها أنبوبًا يتصل بقنينة القربة، فيجرى السائل إلى أعلى النخلة ثم ينزل فى القنينة من خلال الأنبوب. ولا يختلف هذا الشراب عن الجعة أو منقوع الشعير ولا يشرب الأهالى كثيرًا من هذا المشروب دون أن يشعروا بنشوى السُّكْر. وشربت بعضًا منه وطلبت من الزنوج إحضار المزيد.

فى أثناء ذلك وصل أكابر القوم فى القرية وبدأوا يقنعون أنفسهم بأننى لم آتِ بحثًا عن الذهب لأننى لم آخذ أى كنز من المعبد. لكن، وعلى الرغم من هذا كله، لم يتمكنوا من استيعاب فكرة أن يسافر رجل هذه الأميال الطويلة لا لشىء إلا لرؤية أحجار ذلك المكان. وكان المنظار محط اهتمامهم فى الوقت الحالى وتناقلته الأيدى، لكن للأسف لم يستطع أحد بعد أول ناظر رؤية أى شىء واحتج بأن سعفة من سعف النخيل كانت على بُعد مسافة منه اقتربت كثيرًا لدرجة أنها لمست أنفه. ورغب كل الناس الآخرين فى رؤية هذه المعجزة، لكنه وضع المنظار على حين غفلةٍ منه عكس بؤرة

العدسات؛ وبالتالى لم يستطع الآخرون رؤية أى شىء. فلما أعدت البؤرة إلى وضعها الصحيح مرة أخرى تعجب أول من نظر فيه من قربه الشديد من النخلة. ولم تطلْ متعة النظر طويلاً لأنه ما كاد يقول إنه رأى شيئًا حتى أُخِذَت العدسات منه وعُكِسَت بؤرتها مرة أخرى. أثار هذا جوًا من المرح لأكثر من ساعتين واستعدت منظارى مرة أخرى دون ضرر وكان هذا أكثر مما توقعت. كانوا جميعًا فَرِحين بالمنظار وبمعرفتهم به فرحًا عظيمًا لدرجة أننى حينما اقترحت القيام بجولة سياحية حول القرية من الخارج وافق الجميع على اصطحابى إلى أى مكان أريد. نهضت من مجلسى على الفور وانطلقنا عن بكرة أبينا خارج القرية وجاء ورائى نصف أهلها على الأقل لأنهم أضحوا أكثر حرية فى التعامل معنا بعدما رأوا أننى لم أتسبب فى إثارة أية مشاكل بينهم. واستفسرت من البعض منهم الذين كان لديهم استعداد لأن يخبرونى بأى شىء عما إذا كانت هناك أى أماكن تحت الأرض وتملكتهم الدهشة من معرفتى لوجود مثل هذه الأماكن وأخبرونى بأن هناك العديد منها حول القرية. انطلقت فى السير نحو هذه الأماكن وشاهدت لدى وصولى عددًا من المقابر المقطوعة فى الصخر كغيرها فى الزبو ولا تختلف عن مقابر المصريين القدماء. دخلت المقابر على ضوء الشموع ووجدت ثلاث أو أربع حجرات فى كل منها العديد من التوابيت المصنوعة من الصلصال المحروق والمومياوات داخلها ولم تكن اللفافات حول المومياوات عظيمة السُمك أو عالية الجودة وكان الكتان من النوع الخشن، أما الجثث فهى بلا قطران وبالتالى لم تكن بحالة جيدة. توجد المومياوات بأعداد كبيرة فى كل مقبرة، ولا تزال العديد من التوابيت بحالة جيدة، لكننى لم أستطع أن آخذ شيئًا منها لأنها ستشكل حملاً ثقيلاً جدًا على أى جمل.

رجعنا إلى القرية ثانيةً بعد جولة طويلة وسط هذه المقابر. كانت الخطوة التالية زيارة عين الماء الساخن والبارد التى سمعت دليلى يتكلم عنها. ولو أننى سألت عن هذا الينبوع، لربما واجهتنى بعض العقبات فى أن يذهبوا بى إلى هناك؛ لذا أعربت عن رغبتى فى الاستحمام، فأشار الناس لى إلى مكان الينبوع سالف الذكر. عدت إلى بيت الشيخ، وبعدما تفرق كل ذلك الجمع الغفير الذى لابد أنه كان مكونًا من قرابة ثلثمائة شخص، انتظرت الفرصة حتى انطلق دون أن يشعر بى أحد ولا يحيط بى مثل هذا

العدد الغفير من الناس. اصطحبت معى خادمى الصقلى والحاج الذى ذهب لرؤية عين الماء فى تلك الأثناء لتمتعه بقدر أكبر من الحرية مكنه من الذهاب دون أن يلحظه أحد. وجدت عين ماء مساحتها ثمانى أقدام مربعة ويزيد عمقها عن ٦٠ قدمًا. عندما وضعت يدى فى هذه المياه لأول مرة شعرت بدفئها وكان ذلك بعد غروب الشمس. وتتبع هذه المياه من قاع العين وتفيض على هيئة غدير ماء يجرى ليروى بعض الأراضى الزراعية. تقع هذه العين أو البئر بالقرب من الآثار فى قلب غابة بديعة الجمال من النخيل وغيرها من الأشجار. ويميل لون الماء فى هذه العين إلى السواد ولعل هذا يرجع إلى تربة الأرض التى تنتقل من قاع البئر حتى أعلاها. تقررت الزيارة التالية فى منتصف الليل لملاحظة اختلاف درجة حرارة المياه. ووجدت لدى عودتى إلى بيت الشيخ شيوخ قرية الزبو الذين جاءوا لرؤيتى – على حد تعبيرهم – لكننى أرى أن هؤلاء الناس يميلون إلى إعادة أواصر الصداقة مرة أخرى مع شيوخ قرية القصر. وقُدِّم لنا بعض الأرز كالمعتاد لكن بلا لحم. لاحظت أن كبير شيوخ الزبو لم يأكل مع الباقين كما فعل الآخر عند زيارته لقريته وقُدِّم له نصيبه من الطعام كما فعل الآخر. ودعانى إلى تناول الطعام معه وبالطبع لم أستطع رفض طلبه؛ وشاركته فى الطعام. كان عشاؤه مكونًا من الأرز والبيض المسلوق. وانطلقوا جميعًا للعودة إلى الزبو مرة أخرى رغم تأخر الوقت وذهبنا لأخذ قسط من الراحة لبعض الوقت ولكننا لم ننم، ذلك أننى كنت منتظرًا حتى منتصف الليل لأزور عين الماء. وخلد الجميع للنوم، أما أنا فتمكنت من الكتابة قليلاً عما دار ذلك اليوم من أحداث على ضوء مصباح صغير. وعندما انتصف الليل، أخذت خادمى والحاج وذهبنا إلى العين. ومررنا فى طريقنا على الكثير من الناس الذين ينامون دائمًا حول الحارة التى تؤدى إلى الجانب الخارجى من القرية ووصلنا إلى العين. اضطررنا لارتقاء سور للوصول إلى ذلك المكان لأن الباب كان مغلقًا فى ذلك الوقت، لكننا سرعان ما تغلبنا على هذه العقبة. اكتشفت أن الماء أكثر دفئًا بشكل واضح عما كان عليه فى المساء وشعرت بالندم الشديد على كسر مقياس الحرارة الخاص بى. ورجعنا سالمين إلى البيت وخلدنا إلى النوم. ذهبنا فى الصباح الباكر وقبل شروق الشمس إلى عين الماء مرة أخرى بحجة الاستحمام. وجدت الماء كما تركته فى منتصف الليل أو أقل دفئًا

لكن ليس أقل دفئًا مما كان عليه في المساء. فعلى سبيل المثال، لو افترضنا أن درجة حرارة الماء كانت ٦٠° في المساء، فإنها قد تصل إلى ١٠٠° عند منتصف الليل وتصل في الصباح إلى حوالي ٨٠°، لكنني عندما عدت عند منتصف الظهيرة كانت المياه باردة وقد تصل إذا حسبنا النسبة مقارنة بالقياسات الأخرى إلى ٤٠°. هذه هي درجات الحرارة المختلفة في مياه تلك العين وفقًا لملاحظاتي البسيطة، لكنني مقتنعٌ تمامًا بأن هذا نابع من تأثير درجات الحرارة المختلفة في الجو. ولأن المياه محصورة في بئر عمقها ستون قدمًا ومساحتها ثماني أقدام، فليس أمامها وقت لكي تبرد، لذا تظل على الدوام على درجة حرارة واحدة، ومن هذا نَخْلُص إلى أن التغير الواضح ناتج عن التغير في درجة حرارة الجو نفسه لاسيما أنه ثبت نقاء هذه المياه وخلوها من أي تكوينات ملحية كما أظهر نتيجة التحليل الذي طلبت إجراءه منذ وصولي إلى لندن. لكن مهما يكن من أسباب هذا التغير الواضح في درجة حرارة الماء، فإن هذا لا يعنينا في شيء لأن النقطة الأساسية هي إثبات وجود عين الماء نفسها بناء على الوصف الذي وجدناه عند هيرودوت عند ذكر الملبومين[٣٣] Melpomene حيث قال إن هناك عين ماء بالقرب من معبد جوبتر آمون تتغير درجة حرارة الماء فيها، فهي باردة عند منتصف الظهيرة ومنتصف الليل ودافئة في الصباح والمساء. وهذا لا يتفق على الإطلاق مع ما وجدته من دفء الماء في منتصف الليل، لكن علينا أن نتذكر أن هيرودوت لم يشاهد هذه الظاهرة بنفسه لأنه لم يذهب قط إلى الصحراء الليبية، فإذا طرأ التغير الظاهر على درجة حرارة المياه في العين نظرًا لحرارة الجو، فعلينا الأخذ في الحسبان أن بساطة هؤلاء الناس حالت بينهم وبين معرفة السبب الحقيقي وراء التغير المذكور، لكنهم افترضوا بطبيعتهم أن الماء وراء هذا التغيير. ويكفيني أن أذَكِّر القارئ بأن ما قيل عن عين ماء كهذه جاء وصفها بالقرب من معبد جوبتر آمون بالإضافة إلى غير ذلك من وصف موضعها والمسافة التي تفصل بينها وبين الآثار، كل هذا يجعلنا نفترض أن معبد جوبتر آمون ربما يقع في هذا الموضع. وأنا من جهتي أترك للآخرين الافتراض

(٣٣) الملبومين Melpomene :إلهة التراجيديا أو المأساة في الأدب الإغريقي القديم. [المترجم]

بوقوعه فى هذا الموضع أم لا، أما أنا فإن رأيى المتواضع هو أنه وفى ظل هذه الأمور علينا أن نفترض أن واحة سيوة - وهى واحة أخرى من واحات الآمونيين - هى موضع معبد جوبتر آمون سالف الذكر، رغم أن هذا، وللأسف الشديد، هو رأى الكثير من أفراد الطبقة المتعلمة الأولى وهو ما لا يتطابق والوصف الذى جاء به الرحالة الذين زاروا ذلك المكان لاسيما مستر هورنمان Mr. Horneman ومستر براون Mr. Brown اللذان يجزمان أن المعبد الذى شاهداه فى سيوة ليس معبد جوبتر آمون. إلا أننى أطلب الانتباه إلى حقيقة أن واحة سيوة تتفق مع الوصف المذكور من ناحية المسافة وكذا واحة القصر ولأنها تشكل زاوية مع ذلك المكان والإسكندرية وتقع على بعد مسافة تسعة أيام وهى نفس المسافة بينها وبين ذلك الثَّغر، فإننى أرى أن الاحتمال واحد بين الموضعين، لكن اعتراضى الوحيد على واحة سيوة أن أنقاض الآثار بها تحيط بها المياه، وهو ما لم يرد ذكره عند القدماء، وربما تكونت بها بحيرة منذ ذلك الحين، غير أن رأيى الذى أتمسك به هو أن القدماء لم يقصدوا موضعًا آخر غير هاتين الواحتين باعتباره موطن الآمونيين؛ وبالتالى لن يقع معبدهم إلا فى هاتين الواحتين أو فى مكان غير بعيد عنهما. وبعدما رأيت كل ما استطعت رؤيته فى هذا المكان، طلبت العبور إلى واحة سيوة الأخرى، لكن لولا العروض والوعود والالتماسات التى قدمتها لما استطعت إقناع دليلى جرومار بأخذى إلى هناك ثم تقدمت بطلب آخر للذهاب إلى واحة الهيبس el Haix التى تبعد مسافة ثلاثة أيام باتجاه الجنوب الغربى وواجهتنى بعض العقبات لكننى تغلبت عليها بهدية صغيرة قدمتها إلى الشيخ والقاضى. انطلقنا فى رحلتنا فى يوم الحادى والثلاثين خلال الوادى بموازاة الجانب الغربى من الواحة. ومضينا فى طريقنا باتجاه الجنوب الغربى طوال اليوم ولم نشاهد شيئًا ذا أهمية يستحق الذكر، فلم يكن هناك سوى بعض الصخور المرتفعة عن الصخور التى يتكون منها الوادى. مضينا فى المسير يومًا وعادت الإبل إلى نشاطها مرة أخرى لنمضى فى اليوم التالى، وهو يوم الأول من يونيو، فى السير حتى المساء حينما رأينا واحة أخرى على بعد مسافة كبيرة. وصلنا إلى هناك فى يوم الثانى من الشهر ووجدناها شريطًا طويلاً من الأرض على هيئة هلال يبلغ طوله أكثر من عشرين ميلاً من أوله إلى آخره. وهناك

العديد من الأراضى الصالحة للزراعة والكثير من عيون الماء العذب. دخلنا من جهة أحد طرفى الهلال ووجدنا هناك عدداً من الأشجار وبعض الأراضى المزروعة أرزاً وأحد مقامات الأولياء المسلمين ولم نرَ أحداً فى أى مكان حولنا. مضينا فى السير بحثاً عن الماء وسرعان ما وجدناه بالقرب من شجرة جميز كبيرة كانت بمثابة الفيء الظليل من الشمس، وبالقرب من هذه الشجرة اكتشفنا كوخاً من أربع حصرٍ ملتصقة ببعضها البعض ورأينا داخله وعاءً من الحليب الطازج كما وجدنا بعض التمر فى خُرْج بحذاء الكوخ. بعثنا بأحد حداة الإبل بحثاً عن سكان هذا الكوخ ومضى بعض الوقت حتى استطاع العثور على أحد، وفى النهاية أحضر إلينا رجلاً على ملامحه البؤس والشقاء وأصيب بالخوف والرعب من منظر الغرباء ولم يستطع أن يتغلب على هذا الشعور رغم المعاملة الطيبة التى قابلناه بها. كان من النوع الطيب بطبيعته، فهو يعيش بمنأى عن العالم الشرير – كما ظننت – لدرجة أننى كدت أحسده على ما هو فيه، لكن البشر هم أكثر الحيوانات جميعاً وحشية وهمجية لاسيما مع بعضهم البعض. وتناولنا الوجبة المعتادة مع الحليب ودعونا الرجل ليشاركنا فأعطيناه بعض الذرة والدقيق وبعض حبوب القهوة المحمصة التى طاب له تذوقها. ومضى الرجل بعد تناول الطعام وسرعان ما عاد ومعه رجل آخر شكله أسوأ من الأول، فهو رجل قصير القامة دميم الوجه، معوج الأنف، طويل الأسنان تراها بارزة من فمه، غليظ الشفتين بصورة غير عادية، تبرز عيناه من جبهته، كما يشبه شعره أفاعى ميدوسا[٣٤] Medusa. كان ذلك الرجل

(٣٤) ميدوسا Medusa: أحد الجورجونات المعروفة فى الأساطير الإغريقية، والجورجونات ثلاث أخوات تصفها معظم المصادر القديمة بالبشاعة والقبح الذى يؤدى إلى تحويل كل من ينظر إليها إلى حجر. وتكسو رؤوسها الأفاعى الحية بدلاً من الشعر. ولهن أياد من البرونز وأجنحة من الذهب. كان الإغريق ينحتون صور رؤوسها على أسلحتهم لإرهاب أعدائهم فى المعارك، كما يستعملون صور رؤوسها كتعويذة تقى من شرور السحرة.

وفقاً لمعظم المصادر كانت الجورجونات (ومنها ميدوسا) بنات فروسن إله البحر وأخته سيتو غولة البحر. ويطلق عليها (أى الجورجونات) سثينو وتعنى القوة، وأيوريل وتعنى القفز الواسع، والميدوسا وتعنى الملكة أو الحاكم. تعد سثينو وأيوريل خالدتين لكن الميدوسا قُتلت على يد البطل برسيوس بمعاونة الربة أثينا. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

شديد الوجوم معنا، ورغم كل مساعينا لمعاملته بود وحميمية، فإنه لم يستطع أن يقابل هذه المساعي بالمثل. ولم أستطع إدراك السبب وراء اختلاف هذا الرجل عن الرجل الآخر هذا الاختلاف الجذري، والحقيقة أن ذلك الرجل عرف اتفاقاً أن دليلي كان واحداً من الذين هاجموا بعضاً من قبيلته عند موضع بالقرب من الواحة الجنوبية وأنه هرب منهم بالصدفة. كل هذا نقله الرجل طبيب القلب باللغة العربية إلى الحاج الذي أعاده عليَّ مرة أخرى. ونقلت أنا بدوري هذا الكلام إلى دليلي الذي عرف الرجل على الفور. بعدها ذهب دليلي إليه وتحدث معه بصورة ودية، لكنه لم يستطع أن يتقبل هذا بصدر رحب. وطلبت إلى الحاج السؤال عن عدد الناس في الواحة، فقال إنهم كثير لكنه لم يذكر العدد والظن أنهم قليل إلا أنهم أرادوا ترويعنا وإبعادنا عنهم. وعلى الرغم من كل ذلك، رأيت أنه من الأسلم أن نشدد الحراسة ليلاً، لكننا سرعان ما اكتشفنا أننا لم نكن لنقضي الليل هناك. اختفى الرجل الدميم قبل أن نكتشف ذلك بنصف ساعة، وفي تلك الأثناء كان الظلام قد أطبق بجناحيه وشعرنا بأن شيئًا من عدم الارتياح والارتباك اعترى دليلنا، غير أنه لم يرغب في أن يظهر شيئًا من هذا لنا أو لأي من أهل ذلك المكان. ظللنا وحدنا بعد فترة من مضي الرجل الآخر بحجة الذهاب لإحضار الماء. ما زال دليلنا على حاله من الشعور بالقلق والاضطراب، وفي النهاية أصررت على معرفة الأمر، فأخبرني عندئذٍ وبكل بساطة أنه يتوقع أن نتعرض للهجوم من قبل جماعة من الناس في تلك الليلة وأنه يخشى أن يكونوا أكثر منا قوة، ورأى أن الحل الأمثل هو شد الحمولة على جمالنا والانطلاق بأسرع ما يمكن. رأيت أنه ليس هناك وقت نضيعه، ولكن وعلى الرغم من ذلك لم أردْ أن نمضي بعيداً لمجرد افتراض ما تُخْشى عقباه. وتوصلنا إلى قرار بحمل المتاع على الإبل وتغيير موقعنا حتى نرى ما سيحدث. وحسناً فعلنا، فلم نكد نفعل حتى شاهدنا عدداً من الرجال من مختلف الجهات. انطلقت الإبل والأمتعة على ظهورها وظللت أنا غير بعيد عن المكان الذي كنا فيه من قبل مع الدليل. استطعنا رغم حلول الظلام أن نرى ما يفعلون وما أصابهم من خيبة الأمل لما لم يجدونا هناك وجاءوا بأعداد لم يكن لنا قِبَل بها. أسرعنا في السير أو الارتداد السريع ومضينا بنفس السرعة طوال الليل حتى وصلنا إلى الجهة المقابلة من هذه الواحة وهنا

بلغ منا التعب والجهد مبلغه ولم تستطع الإبل السير إلى الأمام قيد أنملة دون أن تنال قسطًا من الراحة، وفى النهاية وبعد بضع ساعات دخلنا هذا المكان فى صباح يوم الثالث وألفيناه أكثر خضرة وزرعًا من الطرف الآخر من الهلال. مررنا من هذه الناحية نظرًا للحاجة إلى الماء لسقاية الإبل ولولا هذا ما مررنا بذلك الطريق لأنه لم يكن طريق عودتنا إلى الواحة الكبيرة. وهنا وجدت المزيد من الخضرة والزرع والكثير من أشجار التفاح الصغير حلو المذاق (النَّبق) التى توجد فى مصر أيضًا، كما وجدنا هناك التمر والنباتات والخضراوات للإبل. لفت انتباهى سور عالٍ رأيته من على بُعد. وعندما وصلت إلى هناك وجدت موضع مدينة قديمة صغيرة شيدت من الطوب المحروق ولم يبق من مبانيها شىء بحالة جيدة سوى الحمامات التى طليت من الداخل بنفس الإسمنت الذى كان يستخدمه الإغريق والرومان لذلك الغرض وهو نوع من الإسمنت المائل إلى الحمرة المصنوع من الطوب الرملى المخلوط بالجير الكلسى. وتُرى جدران البيوت هناك وبالقرب من المدينة يقع السور العالى الذى جذب انتباهى إلى هناك. ومن الواضح أنه كان يحيط بأحد المبانى الأثرية الذى لم يبقَ منه الآن إلا جزء بسيط جدًا لاشك أن أحجاره أُخِذَت لتشييد مبانٍ أخرى لأننى رأيت سورًا آخر على مسافة ليست بالبعيدة وحينما اقتربت منه وجدتها كنيسة مسيحية يونانية لا تزال بحالة جيدة. شُيِّدَت هذه الكنيسة من الداخل على هيئة صليب وبها أقسام متعددة من كل جهة وفى نهايتها توجد كنيسة صغيرة منفصلة عنها كالمعتاد وكذا مكانان يوجد بهما المذبحان الجانبيان اللذان يشكلان ضلعى الصليب. يبلغ طولها حوالى ٥٠ قدمًا وعرضها ٢٠ قدمًا. بنيت هذه الكنيسة من الطوب المحروق وغير المحروق. وصلت إلى مبنىً آخر على بُعد مسافة منها وكان ذلك المبنى سورًا مربع الشكل، شديد الضخامة ولا مدخل له. نجحت فى الصعود إلى قمته ووجدت أنه لابد أن يكون ديرًا قبطيًا. كانت هناك العديد من الحجرات الصغيرة المنفصلة عن بعضها البعض وبئر ماء شديدة العمق فى قلب الدير؛ وبذلك لا يحتاج المقيمون فى ذلك المكان إلى الخروج منه بحثًا عن الماء.

بعدما أطعمنا الإبل مضينا قدمًا إلى هذا الجزء من الواحة لضرورة عبوره للوصول إلى طريقنا مرة أخرى. رأينا رجلاً على بُعد مسافة منا، لكنه ما أن رآنا حتى

انطلق يعدو هربًا كالظبى. وجرى دليلنا وراءه ونجح فى الوصول على مرمى إطلاق النار منه ثم نادى عليه؛ فتوقف إذ حينما يجد الإنسان نفسه قاب قوسين أو أدنى من إطلاق النار عليه، فإن عليه التزام الطاعة وإلا فليتوقع عيارًا ناريًا يلحق به. عندها رجع دليلنا وتبعه الرجل. وعندما اقترب منا بما يكفى ليسمح لى بالحديث معه، وجدته لا يكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه من الخوف. وأظن أن الوقت قد حان لكى أذكر السبب وراء الخوف الشديد الذى اعترى هذا الرجل وكذا الرجل من الجانب الآخر من هذه الواحة، فلابد لى أن أذكر للقارئ أن دليلى لم يكن يختلف عن أى من شيوخ هذه القبائل البدوية التى تقوم بالإغارة على هذه الأماكن وقت حصاد الأرز أو الشعير، فيأخذون معهم كل ما يجدونه؛ فيسلبون الأهالى المساكين ثمرة كدهم وشقائهم وعادةً ما يتركونهم ليتضوروا جوعًا فى صحراء غير مأهولة، فإذا أبدوا أى محاولة للمقاومة، فإنهم غالبًا سيخسرون أرواحهم فى هذه المحاولة لحماية أملاكهم. كان جرومار معروفًا لدى كل أهل الواحة، لكن لم يبلغنى أحد بهذا الأمر، لكن الحاج المغربى توصل إلى هذه المعلومة عن طريق أناس آخرين وهو بالطبع الذى أبلغنى بالأمر ولو أننا ظللنا مدة أطول لدفعنا ثمن ما فعله جرومار مع هؤلاء الناس من قبل. ولهذا السبب لم يكن ليأخذنا إلى سيوة لأنه كان معروفًا لدى الجميع هناك، ولو أننا ذهبنا إلى ذلك المكان مع هذا الرجل، لصرنا ضحايا الانتقام. طلبنا من الرجل البائس أن يرينا الطريق إلى الماء، فأخذنا إلى هناك فى دقائق معدودات. توقفنا قليلاً لنروى إبلنا ونجهز غذاءنا أو عجينة الدقيق. جعلنا موقفنا تحت شجرة سنط كبيرة وتركنا الإبل حتى تنتهى من طعامها. يأخذ المكان شكلاً دائريًا يجرى فى منتصفه غدير صغير. تتمتع المياه بالحلاوة والعذوبة الشديدة وتنتج الأرض الأرز والشعير الفاخر. ويبلغ عدد سكان هذا المكان ستة أفراد فقط أربعة رجال وامرأتان ويعتمد هؤلاء فى معيشتهم على نتاج عملهم ومياههم اعتمادًا كليًا. فلا عجب إذًا أنهم كانوا خائفين من دليلى لسابق معرفتهم بحيله القديمة عندما جاءهم بكل قبيلته. ولم نرَ من هؤلاء الناس إلا اثنين، أما الآخرون فكانوا بعيدًا فى عملهم ولا يعودون حتى حلول الليل. غادرنا هذا المكان ووصلنا بعد يوم من السفر من الواحة الأولى أو واحة القصر ووصلنا إلى ذلك الموضع

مرة أخرى فى مساء يوم الرابع. عرفنا أن الحاج أضاع صُرَّة بها ثلاث أو أربعة دولارات فى الطريق. وظن أنه سيعثر عليها لو أنه وجد حماراً يرجع به بضعة أميال، لكن الجميع رفضوا أن يقرضوه أى حمار من حميرهم، وعندما عرفوا المكان الذى ظن أنه أضاعها فيه، انطلقوا إلى هناك ووجدوا الصُرَّة التى ادعوا بالطبع أنها ملك لهم.

أمضينا فترة ما قبل الظهيرة يوم الخامس فى القرية وسألتهم إن كان لدى أى منهم أى أشياء يريدون التخلص منها وأخبرتهم أننى سأعطيهم مالاً فى المقابل، فلم يأتِ لى أحد بأى شىء ذى قيمة عدا مزهرية يونانية مكسورة من البرونز طولها حوالى ثمانى بوصات ذات شكل شديد الغرابة وملاك[٣٥] (كروبيم) إغريقى لا يزيد طوله عن بوصات ثلاث. وفى أثناء الصباح انتحى بى القاضى جانباً وكان مهذباً معى على غير العادة طوال الوقت وهو ما لم أستطع أن أجد له تفسيراً؛ وأخبرنى باختصار أنه وأبك والشيخ سالم قد قرروا أن يعرضوا علىَّ البقاء معهم بشرط أن أتحول إلى الإسلام وأنهم سيقيمون احتفالاً كبيراً على شرفى يوم الاحتفال بتلك المناسبة، كما سيعطوننى جزءاً من أراضيهم، فلو نجحت فى زراعة منتج جديد، فإن الفائدة كلها ستعود علىَّ وحدى، وأخيراً يمكننى أن أختار أربع زوجات من بين بناتهم، وبذلك تكتب لى السعادة دون أن أرهق نفسى فى البحث عن الحجارة. وجدت صعوبة بالغة فى التخلص من هذا المأزق وتركت القاضى على أمل أننى سأعود مرة أخرى فى القريب العاجل، لعلنى عندئذٍ أفكر أكثر فى البقاء هناك والزواج، لكننى لا أستطيع فى الوقت الحالى أن أترك سائر شئونى فى القاهرة بلا نظام. تعرض خادمى الصقلى للهجوم فى نفس الوقت

(٣٥) كروبيم أو cherub: كائنات سماوية مجنحة شبيهة بالملائكة. وفقًا للفكر العبرى أو اليهودى القديم، فإن الملائكة نفسها تتصف بصفات البشر، فى حين يتسم ملاك الكروبيم بالأجنحة وصفات الحيوان. إلا أنه يشكل واحداً من الطبقات التسع للملائكة وفقًا للنسق المتطور للمفهوم العبرى للملائكة. وضع الله الكروبيم عند الجانب الشرقى من جنة عدن لمنع البشر من دخول الجنة مرة أخرى والوصول إلى شجرة الحياة (انظر سفر التكوين ٣:٢٤). كما تعمل الكروبيم أيضاً كعرش الله أو مركبته الحربية (انظر المزامير ٨٠:١، ١٨:١٠). ويعد وصف حزقيال الرائع والمفصل للكروبيم (انظر حزقيال ٢٨-١:٤، ٢٢-١٠:٣) مسئولاً بدرجة كبيرة عن دخوله تاريخ الفن، رغم ما يتسم به وصفه هذا من فردية. ويشبه السيرافيم الذى لم يذكر إلا فى سفر إشعيا إصحاح ٦ هذه المخلوقات. [المترجم]

أيضًا، لكنه تمكن من الهرب أسرع منى، إذ أخبرهم ووعدهم بأنه سيرجع إليهم على الفور بمجرد أن يصحبنى إلى القاهرة وسيمكث معهم بقية حياته.

وأخيرًا، غادرنا بعد الظهيرة قاصدين قرية الزبو وتركنا كل الأصدقاء الحميمين فى قرية القصر. أهديت إلى الشيخ سالم عقدًا من نوع شائع من الشعاب المرجانية؛ ففرح به فرحًا عظيمًا وكذلك بعض قطع الصابون وكمية من البن كما أهديت إلى القاضى نفس الهدايا تقريبًا. وَدَّعَنا الناس عند مغادرتنا للقرية بحرارة شديدة وقالوا إنهم يتمنون أن يرونا مرة أخرى فى القريب العاجل حتى نبقى معهم. بدأنا رحلتنا فى هذا اليوم والسعادة تملأ قلوبنا، إلا أنها انتهت نهاية سيئة للغاية. صعدنا الصخرة التى كان لابد من المرور بها للوصول إلى قرية الزبو وأثناء نزولنا منها زلقت قدم جملى من إحدى النواحى وتدحرج هبوطًا من أعلى الصخرة مسافة حوالى عشرين قدمًا وتدحرجت معه بالطبع. لم أتمكن من الخلاص هذه المرة بالسهولة التى قمت بها حينما سقطت على الرمال فى وادى الجمال، فالمكان هنا ملئ بالصخور الصلدة، لكن من حسن الحظ لم أصَبْ بإصابات أخرى كما ظهر لى حينئذٍ غير بضعة رضوض وكدمة فى جنبى. وضعونى على ظهر حمار يمتلكه رجل جاء وراءنا من القرية الأخرى وجاءوا بى إلى قرية الزبو وبالتحديد إلى منزل الشيخ إبراهيم ابن أخى دليلى. وأصبح سرجى سريرًا لى كالمعتاد. كان لدينا لحسن الحظ بعض قطرات من البراندى[٣٦] brandy فى مخزوننا من الطعام والشراب، فدلَّكت به رضوضى، لكننى لم أستطع التقلب على جنبى دون أن أشعر بألم حاد. ولما دخلنا الدار، رأيت هناك عددًا كبيرًا من الناس وهم يأكلون الأرز فى أوعية طعامهم المعهودة. أقمت فى الممر الذى يمتد من باب الشارع إلى الفناء وراء المنزل. احتل فراشى أو سرجى نصف المسافة من الحائط إلى الحائط المقابل ولم يبقَ هناك سوى قدمين كى يمر من خلالها الرجال والنساء والأطفال والبقر

(٣٦)البراندى brandy : مشروب كحولى يُصنع بتقطير نبيذ العنب ويُعتق فى براميل خشبية. يتميز البراندى عند تقطيره بأنه سائل صافٍ عديم اللون لكنه إذا وضع فى البراميل الخشبية، فإن المادة الكحولية ما تلبث أن تحلل المادة الملونة للخشب لتصبغ البراندى بلون بنى فاتح. [المترجم]

والجاموس والحمير والغنم والماعز والكلاب. وكان الممر باستمرار مزدحمًا بالناس الذين وطئوا على قدمي من حينٍ لآخر أو أصابوا رأسي بأقدامهم. لكن هذا لم يكن أسوأ ما في الأمر، فكثيرًا ما كنت أخشى أثناء مرور الأبقار أو الجاموس أو الحمير من عاقبة وجودي في هذا الموضع. وهناك شيء آخر لم يكن أقل من سائر المواقف. جاءت وليمة الأرز في أعقاب وفاة أحد أقارب الشيخ إبراهيم، وهو صاحب البيت الذي أقمت فيه، وأخذوا هذا الرجل ليدفنوه قبل أن وصولي بلحظات. لم يكد الناس ينتهون من تناول طعامهم حتى صدر أعلى صياح سمعته من الأبواب الخارجية وكانت هذه هي أرملة المتوفى التي عادت إلى الدار يصحبها كل السيدات matrons الأخريات في القرية وقد علا صخبهن وصياحهن ومررن هؤلاء جميعًا من جانبي إلى الفناء حيث دار المتوفى وتكرر هذا العويل كل نصف ساعة في كل الشارع المواجه للبيت؛ لذا ظل المكان الذي رقدت فيه ممرًا للناس باستمرار. ولم تخف حدة الألم في جنبي، كما تحوَّل لون الجلد إلى اللون الأسود. حاولت أن أتحرك، لكنني لم أستطع.

وفي صباح يوم السادس، زارني الكثير من الشيوخ الذي جاءوا جميعًا لتهنئتي على النجاة من هذا الحادث الذي كان يمكن أن يقضي عليَّ. أمضيت سائر اليوم في تدوين الملاحظات. وقضيت مساء اليوم الثاني مع الحاج المغربي وخادمي الصقلي اللذين كانا طبيبيْن لي. شعرت بتحسن بعض الشيء في جانبي وكنت آمل أن أتحمل حركة الجمل في اليوم التالي. وبعد الغروب جاءت الأرملة التي دفنت زوجها بالأمس وجلست إلى جواري وهي تشهق بالبكاء - كما تصورت - حزنًا على فقدان زوجها. حاول خادمي الصقلي أن يقنعها بأن تتحمل فقدانه بصبر، لكنها استمرت في البكاء والنشيج. وأخيرًا قالت إنه لا يمكن لأحد أن يعيد إليها السعادة سواي وإنها تتمنى ألا أرفض أن أسدي إليها معروفًا. لم أفهم ما الذي كانت تقصده هذه المرأة وأجهشت بالبكاء مرة أخرى، في الوقت الذي تحدث معها الحاج المغربي لتهدئتها، لكن دون جدوى. فظلت على حالها وقالت إنه لا يمكن لأحد أن يداوي كل متاعبها سواي. في النهاية سألتها ماذا تريد مني. فقالت إنها رأتني أكتب سحرًا وطلبت إليَّ أن أكتب لها ورقتين، إحداهما للحصول على زوج آخر بأسرع ما يمكن، والأخرى لاستخدامها

لنفس الغرض فى حالة وفاته. حاولنا إقناعها بأننى لا أشتغل بالسحر، لكنها لم تكن لتقتنع وذهبت وهى شديدة السخط من معاملتى الجافة معها. ولا يسعنى المقام هنا إلا القول إننى لو كنت أحترف فن الحصول على أزواج للأرامل لوجدت ما يكفى من عمل فى أوروبا دون أن أتجشم عناء السفر إلى بلاد غريبة لهذا الغرض.

حاولت أن أمتطى الجمل فى يوم السابع، لكنى جنبى لم يسعفنى. وانطلقنا أخيراً بعد ظهر يوم الثامن. شعرت بألم شديد فى أول يومين، لكن بدأت تخف حدة الألم بعد ذلك. وصلنا فى اليومين سالفى الذكر - يومى الثامن والتاسع - إلى صحراء الأفق السهلية ووصلنا يوم العاشر إلى أكوام الرمال والحجارة فوق المقابر، وفى يوم الحادى عشر وصلنا إلى رجان Rajan. وصلنا إلى هناك بلا ماء واضطررنا لشرب بعض الماء الذى كان شديد الملوحة من ذلك المكان، لكننا ملأنا القِرَب وأخذنا طريقنا يوم الثانى عشر نحو الجنوب الشرقى من جهة الشرق ذلك أننى أردت أن أزور مكاناً يسمى المولى El Moele. مررنا بكميات هائلة من الكثبان الرملية فى هذا اليوم ونمنا على قمة أحدها.

بعد ظهر يوم الخامس عشر وصلنا إلى المولى على أمل العثور على الماء العذب، لكن ويالـلأسف! خاب أملنا. طبخ حداة الإبل الطعام بالماء المالح وأكلنا منه. رأيت فى هذا المكان أنقاض قرية قديمة صغيرة وآثار كنيسة مسيحية كبيرة للغاية ودير مسيحى. لا تزال بعض الرسومات على الجدار بحالة جيدة جداً لاسيما صور الرسل الاثنا عشر فوق أحد المحاريب وفوق المذبح وما زال الذهب موجوداً فى أماكن متفرقة، كما ظلت وجوههم بحالة جيدة. ويقع هذا المكان عند طرف شريط طويل من الأرض التى كانت أرضاً زراعية فى القديم، لكنها تركت الآن بلا زراعة نظراً للحاجة إلى الماء. ويمتد هذا الشريط نحو النيل لأكثر من عشرة أميال من الغرب إلى الشرق. مضينا بمجرد أن متعنا أنفسنا بتناول العجين المالح وشرب الماء المالح، ونظراً لما عانيناه من إحباط وخيبة أمل، فإن المصدر التالى للماء هو النيل أو بعض القنوات والترع المتفرعة منه على الأقل. مضينا فى سفرنا حتى منتصف الليل ووصلنا على بعد اثنا عشر ميلاً من ذاك النهر. عانينا من العطش بشدة فى هذه الليلة، ورغم قربنا الشديد من الماء،

وتكونت حول فمى طبقة أو قشرة من الملح؛ فلم أستطع الكلام إلا بالكاد وشعرت لعدة ساعات معنى العطش الحقيقى، لقد كنا جميعًا فى كرب شديد. فى النهاية طلب منا أحد الحداة بالتوقف لوجود الماء العذب بالقرب منا. واندهشنا جميعًا لسماع هذه الكلام، لكننى لم أستطع أن أدرك أين يمكن أن يوجد الماء حيث كنا فى سهل مستوٍ يغطيه الحصى والحجارة الصغيرة. كان الرجل محتفظًا بقربة ماء صغيرة فى جوال طوال الطريق من الواحة وقال لنا إنه توقع أن هذا سيحدث. لم أعرف أننى ما ذقت فى حياتى كلها أى شىء أكثر حلاوة ولذة من ذلك الماء رغم وجوده فى قربة لعدة أيام. وأخيراً، وقبل سطوع شمس يوم الرابع عشر وصلنا إلى وادى النيل عند بحر يوسف ووصلنا إلى سدمنت فى مساء نفس اليوم، هذا المكان الذى تعاملت فيه مع دليلى لأول مرة، وعدنا فى يوم الخامس عشر إلى بنى سويف ومنها سافرت إلى القاهرة.

لم تتحسن الكدمة التى أصبت بها بعد سقوطى فى الواحة، بل ظلَّت تؤلمنى كثيراً وتورم هذا الجزء وتحول إلى اللون الأسود. وعرفت أن القنصل مستر سولت عاد من الصعيد. كان الطاعون عنيفًا جداً فى القاهرة فى ذلك الوقت، لكننى ذهبت إلى القنصلية ليلاً لمناقشة بعض الأمور مع القنصل وبعد ترتيب أمورى معه، رجعت إلى رشيد التى وصلت إليها يوم الثالث والعشرين على أمل الانتهاء من موضوع الاعتداء فى الكرنك بأسرع وقت ممكن، والسفر بعد ذلك إلى أوروبا. لكننى كنت مخطئًا تمامًا لأن الحيلة التى ظهرت فى هذا الشأن تستعصى على الشرح والتوضيح. إذ قال مستر دروتى دفاعًا عن مُواطنَيْه والعاملَيْن فى خدمته المعتديَيْن ليبولو وروسينانو إن مستر سولت هو الذى أشار بالاتهام، وذكرت فى التقرير الذى أرسلته إلى مستر سولت أننى لا أسعى وراء التعويض، وبالفعل لم أسعَ وراء ذلك لدرايتى التامة بالحيل والألاعيب التى قد يمارسها خصمى، لكن بعدما طُرِح الموضوع، تقدمت بإعلان رسمى ضد كل من المعتديَيْن ليبولو وروسينانو. استفاد مستر دروتى من تأثيره على القنصل الجديد مستر رَسِل Russel الذى نسج قصصًا من وحى خياله فقال إننى ذهبت تحت شباك بيته لأمنع الناس من العمل وأن الأمر لم يكن أكثر من مشاجرة أو نزاع وليس اعتداءً مدبراً. طلب مستر رَسِل تنحية هذا الموضوع جانبًا وألا يقال أى شىء آخر، لكننا

أصررنا على ضرورة طرح الموضوع وإحضار المعتدَيْن من طيبة إلى الإسكندرية. تقدم مستر دروتي بقوله إن مستر سولت أشار بأصابع الاتهام إليه؛ وفقد الإعلان الذى تقدمت به وشهادتي ضد هذين المعتدِيَيْن فعاليتهما فى الحصول على أية مكاسب أخرى ولمنع الإجراءات التى أقوم بها ضد وكلائه بحجة أنه تعرض للاتهام أيضًا.

فى تلك الأثناء، أصبحت الإصابة التى تعرضت لها من جراء سقوطى فى الواحة شيئًا مثيرًا للمتاعب وظللت بسببها قرابة شهر فى سريرى فى رشيد. واتفق أن حان وقت عودة مستر رَسِل القنصل الفرنسى إلى فرنسا وخلفه مستر تيدنار ديفان Mr. Tednar Divan نائب القنصل فى الوقت الحاضر. وكان هذا الجنتلمان الطيب النزيه شرفًا عظيمًا لبلاده بعمله كقاضٍ للعدل مقيمًا فى مصر لسنوات طويلة وكان من بين الذين بزغ نجمهم إبان الثورة. لم يسافر هذا الجنتلمان جنوبيًا أبعد من القاهرة وكان يرغب بشدة فى السفر جنوبيًا حتى طيبة. ولم تُتَحْ له من قبل فرصة أفضل مما أتيح له الآن لأنه سيحكم كقاضٍ فى القضية سالفة الذكر. وردَّ على قنصلنا بأننى إذا أردت الاستمرار فى الإجراءات القضائية، فلابد من إيداع مبلغ ١٢٠٠ دولار فورًا كتأمين لسداد قيمة التكاليف التى سيتم دفعها لبحث هذا الشأن؛ لاضطراره للذهاب إلى طيبة يصحبه المحامون والكَتَبة ورفاق السفر والشهود والقوارب والسفن الصغيرة وما إليها – كل هذا على نفقتى الخاصة فى الوقت الذى لا أطلب فيه سوى التعويض. كنت متعبًا للغاية وفقدت كل أمل فى التعويض لمعرفتى بالناس الذين اضطررنا للتعامل معهم وما الذى يرمون إليه من حيل وألاعيب.

كُنْ على يقين – أيها القارئ الفاضل – أنك لن تستطيع إلا تكوين فكرة صغيرة جدًا عما حدث من خلال هذا العرض البسيط للموضوع لأننى لست قادرًا فى الوقت الحاضر على الدخول فى الكثير من التفاصيل لتوضيح ما جرى. ولن أذكر إلا كيف انتهى الأمر.

اضطر المعتدِيان ليبولو والخائن روسينانو – وهما من مواطنى بيدمونت – للذهاب إلى الإسكندرية للمثول أمام المحكمة ولدى وصولهما كانا واثقين أتم الثقة أنهما

سينالان براعتهما بطريقة أو بأخرى لدرجة أنهما لم يؤكدا شهادتى أمام القضاة، بل راحا يفتخران بما عملاه. والآن إلى النتيجة. كان مصدر الحماية لهما مستر دروتى على دراية تامة بما يجب عمله للخروج من أى مأزق إذا تأزم الموقف. وطلبت ترتيب مقابلة شخصية معه فى حضرة القنصل وعدد من الناس الآخرين وذلك لتقديم تفسير للمظالم المتعددة التى تعرضت لها على يديه، لكن بلا جدوى. أصررت على موقفى وفى النهاية نظم مستر دروتى إجراء مقابلة شخصية يحضرها أنا وهو وكل من نائب القنصل البريطانى والقنصل الفرنسى. لم يكن هذا ما كنت أريده لأننى ظننت أنه ستتاح لى الفرصة لفضح سلوكه تجاهى أمام الناس، لكنه كان حريصًا على ألا يتم عقد أى اجتماع على الملأ على الإطلاق. وللأسف أصبحت عند قدومى إلى تلك البلاد مدينًا له ولشخص آخر خاصةً بعد أن أخذت بيتًا فى الأوكسال الخاص به لمدة ثلاثة أسابيع أثناء الطاعون وكان من المفترض والمتوقع منى تعبيرًا عن العرفان بالجميل أن أضحى بمبادئى وكان هذا سببًا آخر للكراهية الشديدة التى تعرضت لها. لكنه لم يكن منتبهًا فى اللحظة التى طلبت فيها منه أن يوضح لى أمام القنصلَيْن السبب الذى دفعه إلى إبداء كل هذه العداوة والبغضاء تجاهى، ذلك أنه ومن أول كلمة قال كلامًا يتعلق بما ارتكبته من خطأ بأخذ المسلة من جزيرة فيلة. لم أكد أصدق أن رجلاً كان يومًا ما يتقلد منصب قنصل يمكن أن ينسى نفسه بإظهار العداوة صراحةً ضد أى شخص لا لشىء سوى أنه موفق الحظ فى عمله. ولابد أن أعترف أن أمرًا كهذا كان مستفزًا لرجل مثل مستر دروتى، رجل لا يبحث عن الآثار حبًا فى هذه الأشياء البائدة، بل لمجرد الرغبة فى المكسب وتخدم آراؤه ومساعيه المتحف البريطانى والفرنسى بشكل أساسى، عندما يرى رجلاً غريبًا مثلى يجمع فى سنوات ثلاث مجموعة من الآثار أكبر وأرقى بكثير مما جمعه هو فى خمسة عشر عامًا؛ ونتيجة لهذا ضاعت آماله التى كان يعلقها على المتحف البريطانى، فلم يستطع بعد ذلك كبح جماح مشاعره. وكانت نتيجة هذه القضية كلها أنه وبعد تسعة أشهر من الصراع حتى يَمْثُلَ المعتديان للمحاكمة، جاء القنصل الفرنسى ليضع حدًا للأمر فى بضع كلمات، فلم يزد عن قوله بأن هذين الشخصين ليسا من الرعايا الفرنسيين، لكنهما من بيدمونت، وأننا إذا أردنا أى

تعويض، فلابد لنا من الذهاب إلى تورين Turin من أجل ذلك. وهذا هو التعويض الذى تلقيته عن هذا الإهانة الجارحة، لكننى لست مندهشًا فذلك ما كنت أتوقع أن تنتهى إليه الأمور. ما كان ينبغى علىَّ أن أقحم مثل هذه القصة على قارئى الصبور ما لم أجد أن التحقيق مع مستر دروتى لم ينتهِ بعد حتى فى باريس. ووجدت حين وصولى إلى تلك العاصمة ابن أخيه مشغولاً بالمطبوعات العامة وقام هذا الرجل بدافع تأكيد ثقته بنفسه والحقد والتعصب الذى يملأ قلبه تجاهى لعملى على خدمة بلد آخر بنشر ما استطاع إقناع الرقابة بنشره للجمهور، أما ما لم يستطع نشره فعمل على تأكيده على الملأ بأشنع الطرق وأحقرها. أرسلت ردًا على هذه المنشورات حتى ينشر فى صحف باريس، لكن ومع استمرار الحيل والألاعيب؛ لم تصل الرسالة إلى من ينبغى أن تصل إليهم، بل أرسلت إلى مستر دروتى فى الإسكندرية؛ وبالتالى لم تصل قط إلى يد المحررين. وفى النهاية، وبعد أن أنهيت كل أعمالى فى مصر فى منتصف شهر سبتمبر من عام ١٨١٩، أبحرنا بالسفينة – والشكر للرب! إلى أوروبا. لا أقول ذلك لأننى كرهت البلد الذى كنت فيه، بل على العكس فأنا أشعر بالامتنان والعرفان لها ولا لأننى شكوت من الأتراك أو العرب بوجه عام، لكن بسبب بعض الأوروبيين الذين كانوا فى ذلك البلد والذى يعد سلوكهم ونمط تفكيرهم عارًا على الطبيعة البشرية نفسها.

وعدت إلى حضن أسرتى التى تركتها قاصدًا إنجلترا بعد غياب طال لمدة عشرين عامًا. ولاقتناعى بأن أبسط أمام العالم كله أخبار عمليات البحث والتنقيب التى قمت بها فى هذه البلاد، فإننى أرجو من القارئ الإنجليزى أن يغفر لى الأخطاء الكثيرة التى وقعت فيها فى هذا الكتاب لاسيما فى جمل وعبارات اللغة الإنجليزية.

أمور تافهة روتها زوجتى

عن نساء مصر والنوبة وبلاد الشام

بعدما سمعت كثيراً عن الأتراك والعرب، انتهزت فرصة إقامتى فى مصر حتى أرى عادات النساء فى تلك البلاد. سنحت لى الفرصة مرات عديدة أثناء إقامتى فى شبرا لملاحظة هذه العادات، لكن لأنه قُدِّرَ لى أن أبحر فى النيل جنوبيًا، فإننى تمكنت من رؤية مختلف أنماط الحياة بين هؤلاء الناس أنصاف البرابرة. كانت طيبة القديمة أول مكان نقيم فيه لفترة من الوقت طالت أو قصرت، لكننى سأغفل ذكر ذلك الآن لأننى سأتناوله فيما بعد.

عند وصولنا إلى أسوان ذهبت لزيارة نساء أغا ذلك المكان، واستقبلنى الرجل بنفسه لدى الباب هو وزوجته وأخته وزوجها وطفلان صغيران وثلاث نساء عجائز قبيحات المنظر وعبد زنجى مسن. دخلت إلى فناء صغير وأحضروا لى كرسيًا من خشب الصنوبر. خرج الأغا فالتفت النسوة وقوفًا من حولى. فى تلك الأثناء كان زوج أخت الأغا يحضر القهوة، وأعدَّ الشيشة التى قدمها لى ولم يسمح لباقى النسوة بلمسها. لم يجرؤ على الثقة بهن فى أى شىء لما يعرفه من حيلهن التى تشبه حيل القرود كلما أدار ظهره لهن. يبدو أنه فخور بنفسه لما لديه من معرفة كبيرة بالعالم حينما عالج فضول النسوة المجوج لما حاولن فحص فستانى بصورة وقحة للغاية.

أشرت إليهن برغبتى فى أن يجلسن خصوصًا أن الزوجة لابد أن تتناول القهوة معى، لكنه عاملهن بجفاء شديد وفهمت منه أنه يرى أن شرب القهوة ترفٌ لَسْنَ أهلاً له، وقال إن شرب الماء كافٍ لهن فى نفس الوقت الذى أمسك فيه بإبريق القهوة ملحًا علىَّ

لشرب المزيد فرفضت؛ فذهب ووضع إبريق القهوة فى غرفة صغيرة وأغلقها حتى لا تشرب النسوة منها. كنت فى تلك الفترة قد مكثت طويلاً بين النساء فى مصر وأجبرت على التدخين لدرجة أننى قادرة على الانتهاء من تدخين نصف شيشة بكل سهولة. بعد التدخين لبعض الوقت، وضعت الشيشة جانبًا، فإذا بإحدى النساء تأخذها وتبدأ فى التدخين. فلما رأى الرجل هذا الفسق الصريح، جذبها منها بشدة وأوشك أن يضربها لولا أننى منعته بالطبع. فملأها مرة أخرى وأعطاها لى، لكننى لم أرغب فى المزيد من الدخان؛ لذا قام وأحكم إغلاق الباب عليها وقال لى إنها تحت أمرى كلما أردت التدخين منها.

لابد أن أعترف بأننى أحسست بالألم لرؤية هذا التمييز، لكننى رأيت ضرورة هذا الفعل. لم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فى التناقض الذى لقيته غالبًا فى سلوك هؤلاء الرجال، فهم يعاملون النساء باحتقار شديد فى الوقت الذى يتصرفون فيه نحوى دائمًا بكل احترام، بل أحيانًا بتواضع وتذلل وبذلك لا يبدو أن فظاظة الطبع هذه موجهة نحو النساء بوجه عام. سمعتهم يوضحون لى أكثر من مرة أنهم لو عاملوا هؤلاء النسوة كما يعاملوننى فإنهم سيفقدون السيطرة عليهن.

وبعد وقت قصير عاد الأغا وتساءل عما إذا كانوا قدموا لى القهوة والشيشة وذهب إلى خزانته ليحضر بعض العنب المخدوش المتسخ وقدمه لى باعتباره أحسن ما لديه وظلت النساء المسكينات ينظرن إلى السلة بعين الشوق والتمنى لما لا يرجى الحصول عليه. فى تلك اللحظة أخذت السلة وأعطيتها لزوجته ثم للباقين اللاتى رفضن جميعًا، ورغم أنهن لا يجرؤن على تناول أى منه، فإنهن ضغطن علىَّ حتى آكل واندهشن أننى لم آخذ سوى عنقود صغير بسبب اتساخه. أمسكت بالعنب فى يدى لبعض الوقت قبل أن استجمع شجاعتى لأكله. وأخيراً بدأت آكل واحدة بواحدة وأنا أحاول مسحها بمنديل دون أن يلاحظن ذلك، لكننى كنت مخطئة لأنهن وضعن أعينهن علىَّ عن قرب ورأت امرأة عجوز ما كنت أفعل، فهرعت وأحضرت لى إناء من الماء. لم أطلب الماء فى البداية لأننى لم أكن أعرف عادات هؤلاء الناس، فخشيت أن أفعل أى شىء يؤذى مشاعرهم.

والآن أعطيتهن هديتى الصغيرة المكونة من الخرز وعدسة مكبرة تضم صندوقًا أو درجًا. أعجبت النساء بالخرز، أما العدسة التى كانت أكبر ما رأته أعينهن فجعلتها تقف دون أن أمسكها مثيرةً بذلك دهشتهن وعجبهن. ولو وصفت الحيل التى لعبت بها النساء بهذه العدسة، من جذبها من بعضهن البعض واستعمالها بكل الطرق عدا الطريقة الصحيحة، لظن الناس أننى أرسم موقفًا مضحكًا. فى بادئ الأمر حاولت أن أريهن الطريقة الصحيحة لاستعمالها، لكن الوسيلة الوحيدة التى تصلح مع هؤلاء النسوة هى أن أتركهن ليتعاملن معها وحده، وأعتقد أن الأمر كذلك فى البلدان الأكثر تحضراً أم أننى جانبت الصواب. عندما اكتشفت الزوجة أنهن أخرجن العدسة من إطارها، أخذتها ووضعتها فى غرفة صغيرة وأغلقت الباب عليها مع الخرز. بعد ذلك بدأن فى فحص ملابسى لأن الرجل لم يكن موجوداً وهو الأمر الذى أسفت له. كنت أرتدى وقتئذٍ الملابس الأوروبية.

أول شىء فحصنه كان قبعتى وشعرى ومنديل الرقبة المصنوع من الحرير الأسود وهو ما أثار غيرتهن كثيراً، بعدها أزرار المعطف ولم يقتنعن بأى شىء سوى أننى أخبئ المال فى هذه الأزرار. فتحت أحد الأزرار لأقنعهن بالعكس ولم يَبْدُ أن هذا شفى غليلهن لأنهن رأين من منظور ما لديهن من حيل أن هذا الزر مصمم خصيصاً ليخدع الناس. ورأيت حقًا أن الرجل لو لم يأتِ الآن لأثارت هؤلاء النسوة الكثير من المشاكل. إلا أننى تعلمت منذ زيارتى الأولى ما يكفى لأن يرشدنى فى المستقبل ولأن أتخذ قدراً أكبر من الحيطة والحذر مع النسوة الأخريات اللاتى قد أتعامل معهن بشىء من عدم التكلف على أساس جهلى بطباعهن؛ فيعملن على استغلال ذلك. وجاء الرجل، فبدأن فى إعداد طعام العشاء للأغا الذى يتكون من طبق من البامية المسلوقة فى حساء لحم الضأن الموضوع فوق الخبز مع قطعة صغيرة من لحم الضأن وبعض الزبيب وخليط التفاح والبهارات mincemeat المخلوط مع الأرز ولا أعلم أسماء باقى المقادير التى خُلِطَت بهذا الطعام، كما تعجز كلماتى عن وصف نظافة هذا الطعام. فالهلع الذى أصبت به من التفكير فى اضطرارى لتناول هذا الطعام كان أكثر مما تستطيع معدتى الإنجليزية التعايش معه فى تلك اللحظة. أحضروا لى جميع الأطباق قبل أن يأخذوها

إلى الأغا وزوجي الذي كان يتناول طعام العشاء معه، جاءوا أولاً بالبامية التي رفضت الأكل منها، لكنني أخذت قطعة من لحم الضأن المسلوق باعتباره الأنظف مع بعض الخبز. لم يكن هذا كافيًا فأخذت الزوجة بعض الزبيب وخليط التفاح والبهارات والأرز في يدها وأصرت على أن أتناولها بعد أن فهمت منها أن هذا أفضل شيء. وفي النهاية أخذ كل الطعام إلى الأغا. بعد ذلك قدموا لي القهوة المعتادة والشيشة. ويتكون البيت أو لنقل الإسطبل من أربعة جدران السماء سقفها ويضم غرفتين صغيرتين إحداهما يحتفظ فيها الأغا بكنوزه مثل القهوة وفناجين القهوة والتبغ ما إليها والأخرى تخص الزوجة وتضم كل الخزانة العظيمة للملابس إلى جانب الخبز والبصل والدقيق والذرة والزيت والكثير مما شابه. ويتكون الأثاث من أباريق الماء والمناخل لدَرس القمح ونخل الدقيق وعدد من الآنية الفخارية للطبخ وبعض الأواني الخشبية للأكل وفرن وبعض الآنية أو البرادق لتبريد الماء وإبريق صغير للقهوة وحُصْر قديمة للنوم عليها. استأذنت بالانصراف وأعطيت الأطفال والنساء هدية صغيرة من المال ووعدتهم بالزيارة ورؤيتهم لدى عودتي.

في الصباح التالي أرسلت إليَّ زوجة أخرى من زوجات الأغا تقول لي إنها ستسعد برؤيتي. لم أشعر برغبة في زيارتها، ولكيلا أميز بينهن ذهبت وكم كانت دهشتي لما وجدتها شابة جميلة للغاية. تعيش هذه الزوجة في البيت المجاور لبيت الزوجة الأخرى التي صعدت فوق الجدران لتعرف ما الذي يدور بيننا. لم يكن عندها قهوة تقدمها لنا، لكنها قدمت لي بعضًا من التمر والذرة المجروشة. بدت هذه المرأة شديدة الخوف من الزوجة الأخرى. ورغم أنها كانت جميلة في عيني، فإن أهل بلدها لم يَرَوْها كذلك، أما الأخرى فرغم كبرها في السن فإنهم يَرَوْنها مثال الجمال في أسوان على أساس سمنتها المفرطة. تضفر النساء شعرهن على الطريقة النوبية، فيزينَّه ببعض الحلي الذهبية والكثير من الدهن الخام المقرف ومسحوق لحاء شجرة ما لزيادة اسوداد شعورهن وله رائحة عطرية فظيعة يعتبرنها هن لمسة مهمة تضاف إلى سحرهن وجمالهن وهو مختلف عن المسحوق الذي يستعملنه لإضفاء اللون الأسود على حواجبهن وجفونهن. أعطيتها هدية عبارة عن بعض الخرز الذي حاولت إخفاؤه ثم ودعتها.

لم أذهب إلى شاطئ النيل عند وصولنا إلى أبى سمبل. وعندما سمعت زوجة داود الكاشف بوجود امرأة فرنسية على سطح المركب، أرسلت فتاة زنجية صغيرة حتى تعرف إلى أى نوع من الكائنات أنتمي. كانت الفتاة خَجِلة بعض الشىء من الاقتراب منى فى البداية، لكنها جاءت على مضض بعدما أخبرها الرجال أنها ستحصل على بقشيش من "ستى" إذا صعدت إلى المركب. أعطيتها بعض الخرز الأمر الذى أزال كل مخاوفها على الفور وأخذت فى ملاحظة كل شىء على ظهر المركب بدقة وعناية. استقرت عينيها لفترة على حوض مقاس نصف باينت half-pint؛ فقفزت وركضت ثم عادت بعد بضع دقائق بعد أن أحضرت معها بعض الخبز المصنوع من الذرة والتمر وأخبرتنى أن مخدومتها تتمنى ألا أرفض أن أرسل إليها ذلك الحوض الجميل وأشارت عليه. من المثير للدهشة والعجب ذلك القلق الذى بدا على الفتاة خوفًا من ألا أعطيه إياها وأفهمتنى أن مخدومتها أخذت كل الخرز الذى أعطيته لها. أعطيتها المزيد من الخرز مع الحوض الجميل وطبق شبيه به. كانت الفرحة التى شعرت بها هذه المسكينة حينما أعطيتها هذه الأشياء فرحة عارمة لدرجة أنها كادت أن تسقط منها فتنكسر وهى تهرول فى عجالة للخروج من المركب.

توقفنا عند عودتنا من الشلال عند قرية إشكيت لإجراء بعض التعاملات التجارية مع حسين الكاشف. مكثت على ظهر المركب فى الوقت الذى ذهب فيه زوجى لزيارتهم، فى تلك الأثناء جاءت نساء القرية ومعهن أطفالهن جريًا نحو القارب، لكن بعض الرجال الذين يتبعون الكاشف لم يسمحوا لهن بالاقتراب منا وأخذوا يضربون اللاتى يقتربن أكثر ويقذفون نساء أخريات بالحجارة. فلما رأيت ذلك أشرت للنسوة بالاقتراب وشعرت بغضب شديد من الرجال لضربهن. وجاءت النسوة اللاتى استطعن الاقتراب منى وقَبَّلْن يدى وأبدين امتنانهن العظيم لمنعى الرجال من ضربهن، كما أبدين سرورهن لبياض بشرتى ولون شعرى. وأعطيت بعض الخرز للنسوة والأطفال اللذين لا يمتلكن سوى القليل من الحلى. إن أعظم ما سعدت به أنهن لم يبدين أى نوع من أنواع الهوى أو الطمع ولم يعربن عن أى رغبة فى أن أعطيهن أى شىء. بدين راضيات تمامًا عندما سمحت لهن برؤيتى وبتقليد الإشارة التى أشرت بها للرجال لمنعهم من ضربهن. أعطيت

لهؤلاء النسوة بعض الخرز حتى يذهبن ولم أتوقع أن أراهن ثانيةً، لكنهن عُدْنَ بعد فترة قصيرة وقد أحضرن لى بعض الخبز المصنوع من الذرة والتمر وهو أجود ما رأيت فى حياتى على الإطلاق. استنتجت بالطبيعة أن هذا طلب لبقشيش آخر. وجريًا على عادة نساء العرب، فإذا أعطيتهم بعض الخرز، فإنهن يخرجن ما سبق أن أعطيته لهن ويقبّلن يدى راجين أن أقبل هداياهم وهو ما فعلته؛ عندئذٍ يرسلون إلىَّ المزيد من التمر. أفهمتهن أننى لم أعطيهن الخرز إلا كتذكار وليس بغرض الحصول على أى شىء فى المقابل. وعندما رأين زوجى وبعض رجال الكاشف من على بُعد، أطلقن صيحة عظيمة وقلن لى إنه لابد لهن من الذهاب. شعرتُ بالأسى الشديد لفراق هؤلاء النسوة بهذه السرعة، إذ أبدين لى من الحب والمودة أكثر بكثير مما قابلت فى حياتى وظللن ينظرن إلى المركب من على بُعد حتى غادرنا الشاطئ.

ذهبت عند عودتنا إلى أبى سمبل لزيارة زوجة داود الكاشف وهى على علم مسبقًا بنيتى فى زيارتها وعلى هذا الأساس رتبت نفسها وقصرها. وعندما نظرت إلى المبنى من الخارج، توقعت أن أجد ولاشك شيئًا أفضل بالداخل، لكنه كان شيئًا أشبه ببيوت أسوان. دخلت فوجدتها جالسة على قطع مخيطة ببعضها البعض من جلد الماعز الأسود وأدركت أن هذا يعتبر علامة من علامات الفخامة والأبهة غير الشائعة. نهضت، وبعد التحية أخذت الجلد المذكور ووضعته لى لأجلس عليه وجلست هى على الأرض. لو سألتنى لقلت بكل سرور إننى لا أريد الجلوس على جلد الماعز. كانت ترتدى جلبابًا أزرق من القطن من الوجه البحرى وهو ما يعتبر من الملابس الفاخرة جدًا فى النوبة. قدموا لنا القهوة وهى من بعض ما أعطيناه لهم أثناء مرورنا بهذه المنطقة، فقلما تجد القهوة عندهم، فأنهم يشربون الكركديه وهو من الغلال الصغيرة التى تُزرع فى هذه البلاد وليس معى منه إلا القليل. رأيت طفلها الصغير مستلقيًا وهو عارٍ على إحدى هذه الجلود. كان يبلغ من العمر عشرين يومًا ونادرًا ما اهتمت به. أعطيتها بعض الأنواع المختلفة من الخرز واندهشت لأننى لا أرتدى منه. أخبرتها أيضًا بأننى يمكن أن أرتدى ملابس كالرجال؛ فتحدثت بصوت خافت مع الفتاة الصغيرة - الجارية سالفة الذكر - التى جاءت وجلست بجوارى إلى جانب بعض النساء العجائز الأخريات التى أرسلت

إليهن. بدأت الفتاة أولاً بفك منديل العنق وفحصت معطفى وأبدت من الفضول حول أزراره مثل ما بدا من صديقاتى فى أسوان، أما تعليقاتهن على الكورسيه الذى كنت لا زلت أرتديه فجاءت عملية وفى محلها تماماً. أفهمتهن أنه – أى الكورسيه – ينتمى إلى الجزء النسائى من ملبسى نظراً لجهلهن بالموضة التى استجدت منذ أن غادرت أوروبا وظللن يرددن "طيب، طيب" على كل شيء أريه لهن. وجدت أن النساء النوبيات بوجه عام أكثر وداً وخلقاً ولم يبدين تلك الغيرة والطمع الممقوت الذى تتمتع به النساء العربيات. وبعد أن أرضيت فضولهن بشأن ملابسى، أمرت السيدة النساء التى أرسلت إليهن عن عَمْدٍ بالرقص ظناً منها أن هذا سيسلينى، لكننى – وللأسف – لم أقدر هذه الإمارة من إمارات التقدير والاحترام التى ظنن أنهن يحيينى بها. بعد مرور فترة من الوقت نهضت من مكانى واستأذنت بالانصراف، رغم أنها أرادت أن أمكث معهن فترة أطول.

أثناء إقامتى جاءتنى امرأة شابة على ظهر المركب وهى تتوسل إلىّ أن أعطيها بعض الخرز فى الوقت الذى أوضحت لى أنه ليس لديها إلا القليل ورأيت من بين ما تمتلك خرزتين أثريتين أو ثلاثاً من العقيق الأحمر إلى جانب دلاية واستبدلتها ببعض الخرز؛ فخرجت من عندى وهى فى منتهى السعادة. كنت راضية تماماً بهذه المقايضة وقررت الذهاب إلى النساء فى كل مكان نتوقف عنده. وعند وصولنا إلى جزيرة فيلة تركت زوجى وفقاً للعادة وذهبت بحثاً عن النساء. أول من قابلت هناك امرأة شابة جميلة تحمل طفلاً على كتفها، حيتنى هذه المرأة بودٍ ولطفٍ شديد وعرضت أن تُرِيَنى المكان. وما هى إلا لحظات حتى التحقت بنا امرأة عجوز وابنتها – وهى فتاة جميلة جداً – والظاهر أن تلك المرأة لم تسرُّ بالملاحظة التى أبديتها عن المرأة الشابة الأخرى التى أعطيت لطفلها بعض الخرز، ولدىَّ من الأسباب ما يجعلنى أعتقد بأنهن لا يعرفن إننى امرأة لأنهن لم يَرَيْن أحداً من مركبنا. وبما أنهن رأين بعض الأوروبيين بنفس هذا الزى منذ بضعة شهور، فإن من المحتمل أن يخطئن فى التمييز. طلبت منى المرأة بعض الخرز بفظاظة حينما رأت أن الأخرى حصلت على البعض منه ومع ذلك أعطيتها نفس الكمية التى أعطيتها للأخرى؛ فطلبت المزيد بالحاح وتصرفت كأنها ستعيد إلىَّ الخرز الذى أعطيتها إياه ما لم أعطها المزيد، فما كان منى إلا أن أخذتهم منها

وأعطيتهم للمرأة الشابة الأولى مع المزيد. استشاط غضبها وحاولت أخذهم منها، فمنعتها؛ فطلبت منى بأسلوب أكثر أدبًا وتهذبًا، لكننى قررت ألا أعطيها أى شىء وأفهمتها أننى لا أخضع لأحد. ذهبنا بعد ذلك لرؤية المعابد المختلفة وانضمت إلينا بعض النساء الأخريات من سكان الجزيرة. بعد رؤية كل المبانى وصلنا إلى معبد صغير للغاية حيث تسكن هذه السيدة نفسها، كان مغلقًا بباب، لكنها قررت أن تُرِيَنى إياه. أخذتنى من يدى بلطف شديد وأظهرت أنها نسيت النزاع الصغير الذى نشب حول الخرز، وفى الوقت الذى كانت تفتح فيه الباب، ضغطت صديقتى الطيبة التى تحمل الطفل على ذراعى الأيمن الذى كان بجانبها وأشارت لى بعدم الدخول. استنتجت أنها سمعت المرأة الأخرى وهى تقول إنها تبيت لى الشر. رفضت الدخول. ولم أدرك لماذا لم تردْ الأخرى لى أن أدخل وبدا عليها السرور لفهمى للإشارة وعلى الفور أوصلتنى مرة أخرى إلى حيث يوجد زوجى. أعطيتها وامرأة أخرى عجوزًا طيبة مبلغًا صغيرًا كبقشيش وقضيت بقية اليوم فى منطقة مرادة Morada فى تبادل الخرز مع النساء. ولو أننى دونت كل شىء أراه أو يحدث لى لحسبته شديد التفاهة.

عند عودتنا إلى أسوان كان لابد لنا من إيجاد مركب ليأخذنا إلى الأقصر. طلب منى الأغا الذهاب والبقاء مع زوجته الجميلة البدينة حتى نحصل على مركب وهو ما رفضته رفضًا قاطعًا، فأنا أفضل أخذ قسط من الراحة تحت أشجار النخيل بدلاً من الإقامة فى مكان لا أرغب فى المكوث فيه. بعد الإستقرار على أحد الأماكن، أخذنا معنا كل أمتعتنا التى أحضرناها معنا وكذا كل الأمتعة التى تركناها عند الأغا وخصوصًا إحدى الحُصْر الكبيرة التى سعدت باقتنائها. فرشتها فورًا على الأرض وجعلت جزءًا منها فراشًا لنا والجزء الآخر لتناول الطعام عليه. كنت أُمَنِّى نفسى بأننا سنشعر بقدر كبير من الارتياح ونيل قسط من الراحة بعد التعب والإرهاق من التكدس فى مركب صغير لمدة شهر. بعد إتمام كل الاستعدادات للإقامة تلك الليلة، جاء الأغا يتبعه أحد خدمه يحمل صينية عليها عدد من الأطباق قال إنه أعدها لنا وله. أنا على يقين أن هذه هى المرة الأولى فى حياته التى يمد فيها الأغا يده فى نفس الطبق sour sour مع أى امرأة. وبعد الانتهاء من هذه الوليمة تمنى لنا قضاء ليلة سعيدة. حاولنا أن ننام، لكن دون جدوى ذلك لتعرضنا للأذى والعذاب بسبب النمل من الأشجار على ما أظن.

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى صعدنا على ظهر مركب صغير لا يكاد يسعنا جميعًا، ولم يكن أمامنا غيره لأننا كنا نريد الوصول إلى طيبة بأقصى سرعة. فرشت الحصيرة الكبيرة سالفة الذكر على ظهر المركب وغطيتها بالحُصْر الصغيرة الأخرى لتكون لنا ظلاً من حرارة الشمس، ويالهول ما حدث! استعمل الأغا الخبيث الحصيرة طوال الوقت فى أثناء فترة غيابنا فى النوبة وعند عودتنا وجدناها ملفوفة كما تركناها؛ وبذلك وقع الأمر الذى حرصنا على تجنبه طويلاً. فبالإضافة إلى الإصابة بالحمى على فترات متقطعة بلا دواء أو شاى وعدم قدرتى على الاستلقاء بظهرى على فراشى والموقف الصعب الذى وضعنا فيه بسبب هذه الحصيرة المتواضعة مما جعلنا فى حال لا نحسد عليه.

أخيرًا وصلنا إلى الأقصر، لكن لم يحن الوقت بعد كى نريح أقدامنا. لم نجد قاربًا واحدًا ينقل رأس التمثال الكبير على ظهره، ورغم هذا الوضع المؤسف، فإننا اضطررنا للذهاب إلى قنا. فما كدنا نصل إلى هناك حتى اضطررنا إلى العودة لما وجدنا قاربًا كبيرًا مخصصًا للباشا كان على ظهره بعض الفرنسيين فى طريقهم إلى أسوان، ووُعِدَ زوجى بالاستعانة بهذا القارب لنقل الرأس. ربطنا قاربنا الصغير بالقارب الكبير وسِرْنا باتجاه التيار بشكل مرضٍ بمركبنا المتواضع، لكننا عندما سرنا عكس التيار لم تمضِ أكثر من عشرين دقيقة حينما بدأ العرب فى الصياح بشكل مثير للخوف والرعب، وما هى إلا لحظات حتى امتلأ نصف القارب بالماء. ولحسن الحظ أن القارب الكبير أسرع إلى البر على الفور لما استشعر الخطر وصعدنا نحن على ظهره.

وفى صباح اليوم التالى وصلنا إلى البر المنشود. لم يملك زوجى إلا الوقت الكافى ليسكننى فى أحد البيوت التى علم بوجود غرفة فى الدور العلوى لى ثم اضطر للانطلاق فى النيل إلى إسنا لتأمين القارب.

هذه هى المرة الأولى التى يتركنى فيها زوجى وحدى مع العرب دون ترجمان أو أى من الأوروبيين ولا أعرف من العربية سوى عشرين كلمة. ما يصفونه بالغرفة شىء يتكون من أربعة جدران السماء سقفها تمتلئ بالبلح الذى تركوه ليجف فى الشمس

وفرن فى أحد الأركان وإناء للماء أو قُلّة وموقد مكون من ثلاث قوالب طوب لوضع الإبريق فوقه وهو بلا مدخنة وهذا المكان ليس مخصصًا لى وحدى بل كان المكان المخصص للنساء. لم أشعر قط فى حياتى بمثل هذا القدر من العزلة والبؤس حيث أصبت بحمى شديدة وتعرضت لأشعة الشمس المحرقة إلى جانب العذاب الذى تعرضت له من جراء قدوم كل نساء القرية لرؤيتى بدافع الفضول. وأخيرًا بدأت أفكر بشكل جدى فى الانعزال بنفسى فى أحد أركان هذا المكان. لحسن الحظ كان ذلك اليوم يوم السوق وأرسلت لشراء بعض الحُصْر وأقمت بمساعدة النساء (أكاد أقول) اللاتى كان ضررهن أكبر من نفعهن حجرة صغيرة مريحة منفصلة بذاتها ومغطاة من أعلى ووضعت فيها كل متعلقاتى. حظيت إضافة إلى متعة جلوسى وحدى بترف آخر وهو أوقيتين من الشاى الذى حصلت عليه من القاهرة عند عودة أحد المراكب. أحسست بالقناعة فى تلك اللحظة أكثر مما كنت سأشعر به الآن لو أقمت فى أفضل قصر فى أوروبا. كان باقى سكان البيت امرأة عجوز وأربع بنات وكنة وزوجة صاحب البيت. وفى تلك الأثناء رأيت امرأة تحمل بعض اللحم وأفهمنى أن هذا اللحم لى، لكن ونظرًا للحمى التى عانيت منها فيما بعد، لم أتناول أيًّا من ذلك اللحم. صنعت لنفسى بعض الشاى ورجعت إلى حجرتى بحيث أستطيع رؤية كل ما يحدث، ومن هناك رأيت الكنة وهى تضع اللحم بين أسنانها وتخرجه بيدٍ بينما تمسك بالأخرى سكينًا غير حادة لقطع أو تمزيق اللحم إلى قطع صغيرة حسبما تراءى لها. من حسن الحظ أننى لم أكن جائعة أو لدى رغبة فى الطعام وجاءت المرأة المسكينة باللحم بعد نضجه وألحت علىَّ بأن آكل. أخبرتها على قدر استطاعتى بأننى لا أستطيع تناول أى طعام بعد تناول الشاى. طلبت منها أن تأكل ففعلت لاشك حتى تثبت لى أن الطعام ليس به أى شىء يضرنى وأخذت كسرة خبز وأكلت قليلاً لكى ترى أنه ليس هناك ما يمنعنى من تناول طعامى معها. وما أن بدأت استمتع بالقليل من الراحة والهدوء حتى أصبت بالرَّمد. كانت عَيْنىَّ أثناء الأيام العشر الأولى تفرز إفرازًا خبيثًا شديد العدوى ولم يكن هناك شىء أستعمله كعلاج. لم أتحمل الضوء واعتدت أن أطهر الماء قبل غسل عَيْنىَّ. وكلما رأتنى النسوة أغسلهما بالماء يشهقن ويصِحْنَ جميعًا قائلات بأن هذا ضار جدًا وأن غسيل العينين كل صباح هو ما أدى بها إلى هذه الحال. كانت النساء فى النوبة لديهن نفس هذه الفكرة.

اضطر زوجي في تلك الأثناء للذهاب والإياب مرات عديدة بين إسنا وقنا وهو الأمر الذي لم يستطع له دفعًا. لابد لي ألا أظلم النساء العربيات - المسلمات منهن والمسيحيات - لمعاملتهن الطيبة لي، فلم يمرَّ يوم دون أن تزورني نساء من الأقصر والكرنك وغيرها من القرى الأخرى. واعتادت النساء المسيحيات - بصفة خاصة - إحراق بعض الأعشاب في وعاء فخاري صغير وتلاوة الصلوات ورسم الصليب عليها، في الوقت الذي انتظرت فيه النساء المسلمات بشغف شديد للحصول على ما يتبقى من هذا الرماد المبارك ظنًا منهن أن بها البركة الكاملة لأنها صنعت لعلاج امرأة مسيحية، هذا العلاج الذي لو صنع لهن ما كان له نفس التأثير. على سبيل المثال، في المرة الأخيرة التي كنت فيها في الأقصر وقبل مغادرتها أريت بعض الرجال أن علاج لدغة العقرب يكمن في وضعها في الزيت، فأنا أعتقد أن الأثر الناجع يختص به الزيت وحده. فنظروا لي وهزوا رؤوسهم وقالوا إن هناك سرًا آخر وضعته أنا في الزيت. عندما اتجهت إلى حجرتي الصغيرة في السنة التالية، لم تكد تمر ليلة حتى يطلبني أناس تعرضوا للدغة العقرب، فما لم أرسل لهم الزيت إليهم بنفسي وأضمده بنفسي، ظنوا أن العلاج لن يفيد. ما ذكرت هذه الحوادث إلا لبيان شك العرب ونزوعهم إلى عدم تصديق الآخرين، فأبسط الأشياء لديهم أسرار عظيمة لا يفشونها مما يجعلهم يبدون للناس من ذوي العلم والحكمة. ومعظم القرى بها هذا النموذج من الرجال العظماء ذوي العلم والحكمة، فإن أخبرهم أي رحالة بحسن نية عن أي شيء ينفع الناس، فلن يصدقوه إلا باعتبار أن هناك سرًا عظيمًا وراءه لأن ذلك ما اعتادوا عليه من حكمائهم.

الآن أعود إلى موضوع عَيْنَيَّ اللتين صممتا على ألا تشفيا هكذا بسهولة وسَعِدْتُ بمواساة النساء اللاتي يشبهن من واسوا النبي أيوب في محنته حينما أخبرنني أن حالتي ربما تتحسن خلال عشرين يومًا، فلو لم تتحسن الحالة في غضون ذلك الوقت، فقد تتحسن بعد مرور أربعين يومًا وانتهى كلامهن بقولهن "معلهش". وبدلاً من أن أتحسن بعد مرور العشرين يومًا، أصبحت عمياء تمامًا. لا أستطيع وصف الألم الشديد الذي شعرت به بهذه المناسبة حينما ظننت أنني فقدت بصري إلى الأبد. كنت في موقف لا أحسد عليه وما زالت النساء على قولهن لي "معلهش". جاءت آخر مرحلة

فى المحنة قاصمة حقًا حيث فقدت جفونى قدرتها على الحركة، فلم أستطع رفعها لأعلى وكانت هذه الضربة الأخرى. سلّقت النسوة الثوم فى الماء ليصنعن منه كمادات على عَيْنىَّ ومن المحتمل أنها تركت أثرًا حسنًا رغم أننى لم أشعر به على الفور. اكتشفت أن خبرتهن بهذا الأمر صحيحة تمامًا إذ بدأت جفونى فى استعادة قوتها واستطعت تدريجيًا بعد مرور الأربعين يومًا الإبصار قليلاً.

فى تلك الأثناء نقل زوجى رأس التمثال على ظهر المركب فى الوقت الذى أصابه نفس البلاء. لست أدعى بأننى سأدلى بالرأى الصواب عن سبب هذا المرض، لكن ما أنكره هو ما صار إليه حالى بعد الإصابة به. كنت أقف فى الليلة الماضية بجوار فتحة على هيئة شباك فى جدار حجرتى حينما شعرت بهبوب تيار عاصف فى عَيْنىَّ، لكننى لم أعبأ به. وهذه هى نفس الطريقة التى أصابت زوجى حيث تعرض لهبوب الريح. ويفترض بوجه عام أن هذه الإصابة ناتجة عن الحرارة الشديدة أو الرمال الذى يملأ الهواء فى بعض الأحيان، لعل هذا هو السبب فأنا أتكلم من خلال تجربتى الشخصية فحسب. كنا فى ذلك الوقت مكثنا فى مصر والنوبة لمدة ثمانية عشر شهرًا، قضينا عشرةً منها فى شبرا – التى تبعد مسافة صغيرة عن القاهرة – أمام النيل متعرضين لكل اتجاهات الرياح. لم تكن هناك شبابيك زجاجية، لذا لو كان للرياح الحارة أثرها على العينين لما أمكننا الخلاص منه على ما أظن طوال الوقت. وفى الوقت الذى تعرضنا فيه أثناء إقامتنا فى شبرا بمصر والنوبة لرياح الخماسين المزعجة، لم يكفِ إغلاق ضلّف الشبابيك لمنع دخول الغبار حيث ظل الهواء محملاً بالرمال الساخنة لعدة ساعات بما يجعل التنفس صعبًا واضطررنا لإغلاق أعيننا. توقعت كل يوم فى تلك الأثناء أن نتأثر بهذا المناخ المتقلب، لكن لم يحدث شىء فيما عدا شعورى بعدم الراحة فى عَيْنىَّ نتيجة للرياح الحارة. كنت أغسلهما مما منحنى نوعًا من الراحة المؤقتة. ووجدت أن بصرى أصبح أكثر صفاءً فى تلك الفترة عما كان عليه فى أوروبا. فالعرق الغزير – فى رأيى المتواضع – يساعد على نقاء البصر على شرط ألا يدخل هذا العرق إلى العين.

بعد تماثلي للشفاء من هذه الإصابة، جعلت من عادتي وديدني غسل عَيْنيَّ يوميًا بالماء الممزوج بالمشروبات الروحية مما أعطاهما قوة وكلما رأيت أنهما سيعودان إلى الوضع السابق، غسلتهما بقوة أكبر وأظل أغسلهما عدة مرات في اليوم. لم أفشل إطلاقًا في علاجهما بهذه الطريقة رغم أنني لم أشعر قط بأن بصري قوي بهذه الدرجة كما كان في الماضي.

عند وصولي للمرة الثانية إلى فيلة في الخامس من يونيو لعام ١٨١٧ وجدت زوجي وعددًا من رجال بلادي على استعداد للسفر إلى أبي سمبل. كان زوجي شديد الشغف بالانتهاء من افتتاح المعبد وهو الأمر الذي بدأه في رحلتنا الأولى إلى ذلك المكان في العام الماضي حيث لم يكن معنا أوروبي واحد. تمنيت الذهاب إلى هناك أيضًا، لكنني اضطررت للبقاء على الجزيرة لعدم استطاعتنا تحمل نفقات أي مركب تنقلنا خصيصًا إلى هناك. ضايقني هذا الأمر بشدة وغادرت تلك البلاد دون أن أرى ما بداخل ذلك المعبد المثير الذي شغفنا به طوال السنة الماضية. ولا زلت أعيش على أمل أن أراه ولا أستطيع الانتقال من هذا الموضوع إلى غيره دون الإشارة ولو قليلاً إلى تحيز بعض رجال بلادي الذين منحوا الحق للآخرين أثناء زيارتهم لأبي سمبل بعد فترة من الوقت وليس للرجل الذي يستحق هذا الحق، فضربوا بذلك مثلاً لليبرالية وحب الحقيقة في زماننا هذا. فلابد لبعض الرحالة أن يضحوا بالحقيقة نظرًا لخوفهم المطلق من الكلام اتقاءً لشر وأحقاد بعض زملائهم.

أخبرني واحد ممِّن كانوا هناك أن المراكبي وكذلك الخادم الخاص بمستر سولت الذين صحبوا مستر بيتشي لهم من الفضل في المساعدة في هذا الشأن كما للرجال الآخرين إلا أنهم لم يكونوا من الإنجليز. ولو كنت هناك لساعدت في رفع الرمال كما فعلوا بقدر ما تسمح به قوتي ولطالبت بمثل ما نالوا من الفضل والاستحقاق.

أقمت في أثناء غياب زوجي فوق قمة معبد أوزوريس في تلك الجزيرة وتمكنت من تشييد حجرتين مريحتين بمساعدة بعض الجدران الطينية. أشيع أن هناك لصوصًا على الجزيرة المقابلة، لكنني أرى أنها حيلة ليروا تأثير ذلك عليَّ. كما رأيت أن من

الأصح اتخاذ الحيطة والحذر حتى من أولئك البرابرة الذين عينهم زوجى لحراستى. كان فى صحبتى آنذاك خادم ظل معنا لبضع سنوات؛ كانت أسلحتنا النارية دائمًا على أهبة الاستعداد وجعلنا حراسنا يرون أننا لسنا خائفين علهم يخبرون أصدقائهم أن لدينا كمية كبيرة من البارود والذخيرة فى استقبالهم. ومن المعروف أن الناس يخشونك عندما يعرفون أنك لا تخشاهم. كانوا على علم بوجود مجموعة من الأمتعة معى، كما رأوا بعض الملاعق والشوك الفضية التى جىء بها لاستعمال مستر بيتشى واعتاد الخادم أن يُطْلِعَ العرب والنوبيين عليها ويجعلهم ينظفونها. فهؤلاء الناس إذا ما رأوا خزانات أو صناديق خاصة بالأوروبيين ظنوا أنها مليئة بالذهب والفضة لاسيما بعد رؤيتهم أن مثل هذه الأشياء التافهة من الملاعق والشوك مصنوعة من تلك المعادن. كانت النسوة اللاتى يقطنَّ مختلف القرى التى تقع على الجانب الآخر من النيل يزرننى كل يوم وقد اعتدن على عبور النهر على ظهر مركب ramouse وأحيانًا ما يجلبن خرزة أثرية أو اثنتين من العقيق الأحمر أو القليل من الشعير وبعض البيض والبصل حيث يحصلن فى المقابل على الخرز الزجاجى أو النظارات الصغيرة. جاءت إحدى معارفى القدامى من العام الماضى كى ترانى خاصة سارة الودودة بصحبة المرأة العجوز الطيبة التى حيتنى بحرارة وظلت على حفاوتها بى إلى النهاية. كانت هذه المرأة العجوز أكثر من قابلت من الناس فى حياتى مرحًا وأريحية؛ فلم تكن تعمد إلى السخرية من إنجلترا نفسها، لكن كان لها الكثير من الملاحظات الملموسة على عاداتنا وتقاليدنا. قُتل زوج هذه المرأة واثنان من الفتيان الصغار فى معركة مع قبيلة أخرى جاء ذكرها فيما أورده صديقنا العزيز بوركهارت فى الصفحة السادسة من ذكر جزيرة فيلة. وفى يوم من الأيام رأت بعضًا من القماش الخشن عندى، فطلبت منى بنبرة متواضعة للغاية إذا كان لدىَّ قطعة قماش قديمة من نفس النوع لتضعها على رأسها لأنها لا تملك شيئًا، فتسعد بذلك سعادة بالغة. أخبرتها سأنظر إذا كان لدىَّ هذا الشىء لأننى أعمل من خلال مبدأ اكتسبته من الخبرة الثمينة وهو ألا أعطى أحدًا أى شىء على الفور؛ وفى اليوم التالى أعطيت لها قطعة من ذلك القماش. لا أستطيع أن أصف الفرحة التى انتابتها عندما تلقت هذه الهدية، لكنها قالت لى بعد أن فحصتها إنها نظيفة جدًا وإنها

ستفسد رأسها؛ لذا لابد أن تجعلها متسخة قبل أن تضعها على رأسها. والسبب الذى ذكرته لذلك أن قطعة القماش النظيفة ستمتص كل الدهن من شعرها لاسيما أن كل أنواع الشحم أو الزبد أو الزيت شديدة الندرة صعبة المنال بالإضافة إلى الجمال الذى يضفيه لمعان الشحم على الشعر، كما أنه يحمى الرأس من حرارة الشمس المحرقة. أرادت الذهاب معى إلى بلدى bellad تقصد قريتى أو وطنى (إنها لا تعرف أى مدن خلاف استنبول أو مصر)، وقالت لى إنها سترتدى ملابس الفرنسيين أو أى شيء أعطيه لها وستصنع لى الخبز وتطهو الطعام أو أى شيء آخر أريده وكان الشرط الوحيد الذى طلبته هو أن أعطيها خبزًا أبيض وليس خبز الذرة. لو كانت تتحدث العربية لأخذتها معى، فهؤلاء النسوة ولاشك لا يتصفن بالتعصب الذى تتسم به النساء العربيات.

فى يوم من الأيام جاء إلى جماعتى اثنا عشر من الطيور الداجنة وأخبرنى أحد الأهالى بإلقاء نظرة عليها لأنها لم تكن صالحة للأكل لكونها مليئة بالطفيليات وتقرح جلدها وطلب منى ألا أخبر أحدًا عمن قال لى ذلك. فلما وجدت أن ما قاله لى كان صحيحًا، أردت أن أعرف من أين جاءوا لى بهذه الطيور، لكن هذا كان سرًا لم يجرؤ أحد على البوح به. كل ما تمكنت من معرفته أن عشرة طيور منها أتت به امرأة من الجزيرة المقابلة واثنين من الشيطانة – كما يسمونها – التى تسكن المعبد الصغير وهى المرأة التى واجهتها بشدة أثناء زيارتى الأولى فى العام الماضى؛ وطلبت منى النسوة ألا أتركها وشأنها وقلن إنها امرأة تثير الاشمئزاز وغير ذلك من السباب، لكننى ولاعتقادى أنها أرسلت بكل هذه الطيور إلىّ لم أكن لأترك هذه الواقعة تمر هكذا لأننى كنت مضطرة للبقاء فى الجزيرة لمدة أطول مما يعرفن. لاحظت أن النسوة لم يسدين إلىّ النصيحة سالفة الذكر على وجه الجد لأنهن جميعًا كن يرتعدن خوفًا منها. طلبت من أحد الصبية – وهو من أهالى المنطقة كما صحبنا فى رحلتنا الأولى – أن يأخذ زوجًا من تلك الطيور ويذهب بها إليها طالبًا منها أن تعطيه زوجًا أفضل منها أو تعيد لنا المال؛ فضحكت المرأة وقالت إنها لن تعطيه هذا ولا ذاك مما جعلنى أكثر تصميمًا على النيل منها. فى اليوم التالى ذهبت بنفسى مع الصبى ورجل مسن وطلب الصبى منى أن آخذ مسدسى معى لئلا تصيبنى بأذى وأخذت المسدس وخبأته تحت معطفى لا

حسابًا لها، بل كي يعرف من جاءوا معى أن معى مثل ذلك السلاح. فلما رأتنى آتية نادت على أمها ظنًا منها أنها تخيفنى بذلك، بينما ظلت المرأة الأخرى واقفة على بعد مسافة ملحوظة ولم تجرؤ أن تقترب. طلبت من الرجل المسن أن يطالب بطيور أفضل أو بالمال، فأهانتنى المرأة العجوز إهانة بالغة هى وابنتها ورأيت أن الوقت قد حان للكلام معهما بنبرة الأمر. فانفجرت فيهما مصرة على أن يتوقفا عن الكلام. فلما رأت الأم أننى لم أخف منهما شرعت فى البكاء والعويل وظلت تضرب نفسها وتضع التراب فوق رأسها وهى تصرخ أنهم ضاعوا. غادرت المكان مهددةً بالانتقام إن لم يرسلوا لى المال أو الطيور. وعندما رأت أنها لم تستطع السيطرة علىَّ، أرسلت لى فى صباح اليوم التالى من يخبرنى بأنها تريد السلام معى وأنها سترسل لى زوجًا أفضل من الطيور. فأرسلت من يقول لها إنها لابد أن تأتى به بنفسها. جاءت هى وأمها ومعها زوج أفضل من الطيور وقبَّلت يدى وتوسلت إلىَّ أن أنسى هذا الموضوع. قلت لها إن الموضوع لا يتعلق بالطيور أو المال، لكننى لا أسمح لأى أحد أن يفرض شيئًا علىَّ ثمَّ أعطيتها زوج الطيور الذى جاءت به هدية منى لها وأعطيتها بعض الخرز. بعد ذلك دعوت صديقتى سارة وأعطيتها الطيور العشرة الأخرى؛ فهى لم تتمتع بمثل هذا الثراء طيلة حياتها. قالت لى إن الطعام الوحيد الذى تتناوله يوميًا هى وزوجها وطفليها هو طبق صغير من الذرة المسلوقة فى الصباح والقليل من الخبز المصنوع من الذرة أيضًا ونفس الشىء فى المساء. قالت إن باستطاعتها تنظيف الطيور بغسلها بالماء والملح. وعاد السلام مرة أخرى إلى الجزيرة، وكم كانت السعادة البالغة التى غمرت سائر النساء عندما رَأَيْنَ أننى قضيت على الشيطان الأكبر. فقد اعتادت تلك المرأة أن تضرب أطفالهن إذا استطاعت الإمساك بهن لأنه لم يكن لديها أطفال.

هناك شىء لابد من لفت النظر إليه وهو ما لم أفكر فى الإشارة إليه حتى قراءتى للصفحة رقم ١٤٦ من كتاب بوركهارت عن النوبة عن حوادث القتل المروعة التى يرتكبها النوبيون ضد زوجاتهم. واعترانى شعور بالدهشة حينما كانت النسوة يقصصن علىَّ الكثير من التفاصيل بخصوص هذه المرأة؛ ذلك أنها اعتادت أن تستغلهن أسوأ استغلال فى بعض الأحيان لدرجة أنهن لم يخبرن زوجها، فالنساء

العربيات يمكنهن القيام بهذا بالإضافة إلى المبالغة فى تصوير الحقائق. وجاءتنى الإجابة من إحدى الفتيات البربريات الصغيرات أنهن لو فعلن ذلك لعمد زوجها إلى تقطيعها إربًا إربًا ورميها فى النيل إلى جانب قيام أزواج النساء الأخريات بضربهن إذا ما فعلن هذا. أما رأيى بخصوص هذا الموضوع أن هؤلاء النسوة لم يرثن الحكمة أو الفطنة عن طبع بشرى فيهن ولكن تعلمنها خوفًا من عواقب مثل هذه المشاجرات بين القبائل المختلفة.

إن حكاية الطيور أو الدواجن التافهة أقل شأنًا من أن تذكر، إلا أن رجلاً من بلادى سمح لنفسه بقدر كبير من الحرية والتساهل فى هذا الموضوع الذى لا يتميز إلا بحركات المهرجين الرخيصة وتقليد كل من فى صحبته كالقرد وتصويرهم تصويراً ساخرًا دون أن يفرق بين صديق وعدو لاسيما الضعفاء من النساء والشيوخ دونما أى اعتبار لآداب اللياقة العامة أو الذوق؛ فانتهزت هذه المناسبة لملاحظة سلوكه. إننى أشعر بالأسف والاحتقار فعلاً لرجال يجدون المتعة والتسلية اليومية فى تشويه سمعة أى إنسان قد لا تشتهيه أنفسهم الخبيثة الفاسقة. ولأن أخلاقى محافظة كأخلاق البعض من الرجال الأفاضل الطيبين، فإن هذا منحنى مجالاً كافيًا للرد على هذه المجاملة باهتمام. وسوف أرد بالكلمة العربية "معلهش" على كل شىء حسب مقامه.

عاد زوجى من أبى سمبل وغادرنا بعد عدة أيام إلى الأقصر. ذهبت عند عودتى إلى ذلك المكان إلى محل إقامتى القديم الذى أغلقوه بجدران من الطوب. ولسوء الحظ اتخذ الزوج زوجة أخرى أثناء غيابى وبنى لها غرفة ملتصقة بجدران منزلنا الذى كانت تغطى قمته الحصر. كانت الزوجة الأولى ابنه خال الزوج، كما تزوجت أخته بأخيها؛ وحظيت هذه الزوجة وفقًا لهذه الرابطة المزدوجة على عدد من المزايا التى لا تتمتع بها النساء بوجه عام. كان هناك شجار ونزاع مستمر كل يوم، فعندما يهدد زوجها بأن يرسلها إلى بيت أهلها، يبعث أخوها له برده أنه لو أرسل زوجته إلى بيتها مرة أخرى، فإنه سيفعل المثل مع أخته. وبالطبع انتحت الحماة العجوز التى كانت عمتها جانبًا بابنه أخيها على انفراد - لا حبًا فيها - وإنما منعًا لعودة ابنتها إلى بيت أهلها مرة أخرى،

ولسوء الحظ أنها عقدت آمالها كلها عليَّ. تسبب المسيحيون فى القرية بالكثير من الأذى وحملوها على مقاومة الزوجة الأخرى، وعندما وصلت ظنت أننى سأتولى الموضوع وكانت تقول لزوجها عندما تأتى "ستى" - تقصدنى بذلك - فإنها لن تسمح له بالإبقاء على زوجته الجديدة لأنها تعرف أننا أصدقاء وظنًا منها نظرًا لتدخل النساء المسيحيات الأحمق فى عادات المسلمين وتقاليدهم أننى لابد أن أحنو حذوهم. كل ما استطعت أو أردت عمله هو أن أسدى لها النصيحة الحسنة وبينت لها أن ما تفعله خطأ ومناقض لقوانين بلادها، فللرجل الحق وفقًا لهذه القوانين فى الزواج من أربع زوجات إذا كان فى استطاعته الإنفاق عليهن وهو ما يستطيعه زوجها، ولذلك فإن من حقه أن يتزوج بزوجتين أخريين، فإنه لو لم يرسلها إلى بيت أهلها لعدم وجود أطفال لديها على الأقل فإن لديها طفلة واحدة تبلغ من العمر أربع سنوات، فإنه ربما جعلها الأخيرة ليعاملها كجارية. ورغم أن تقليد الزواج من أربع زوجات يرجع إلى زمان بعيد جدًا، فإن هؤلاء الزوجات يكرهن بعضهن البعض كراهية شديدة. فالحيل الخبيثة والملتوية التى يَلْعَبْنَها والكراهية التى تشب بين الأخوة تسيطر على تفكيرهم باستمرار. وقلما يعرف الزوج بالحيل التى يَلْعَبْنَها بين بعضهن البعض، فهن مضطرات لإظهار روح الدعابة والمرح أمامه، هذا فى حالة إذا كان زوجًا يعرف كيف يسيطر على أسرته. شعرت بالكثير من الود لهذه المرأة على أساس اهتمامها بى فى العام الأول حينما أصاب المرض عينيَّ ولم أَزُرْ الزوجة الجديدة حفظًا للود بينى وبينها، ولكنى بذلت كل ما أستطيع من جهد لإصلاح ذات البين وإذا خرجت فى الغالب كل نساء القرية للاحتفال بأى عيد من الأعياد، فإنها تحبس داخل الدار تحسبًا لأى شجار يقع معها، توسطت لها عند زوجها بأن يسمح لها بالخروج بصحبة أمها وأخواتها، فلما سمح لها بالخروج ندمت وقالت إنها لا نقود معها كسائر النساء، فأعطيتها بعض المال. وأثناء محاولتى أن أجعلها تتأقلم مع وضعها قالت لى لكن الرجال عندكم يكتفون بزوجة واحدة، فأخبرتها أن قوانيننا وديننا لم يسمح لهم بالزواج من أكثر من واحدة.

اعتدت الذهاب إلى الكرنك كل مساء. وكنت واثقة أننى سأجد المنزل فى حالة من الفوضى العارمة عند عودتى. كان لها جماعة كبيرة يتشيعون لها خاصة كل النساء

المسيحيات - لا عن حب أو صداقة - بل لأن المرأة الأخرى من أهالى الكرنك. والمعروف أن أهالى الكرنك والأقصر ليسوا على وفاق أبداً. أما الأخوات اللاتى حملن أخاهن أصلاً على الزواج من أخرى لتعاليها وكبرها عليهن فهن الآن فى سعادة بالغة من جراء معاناة هذه المرأة. وذات مساء وجدت الفناء عند عودتى إلى البيت مزدحمًا بالناس الذى كانوا يلقون بالحجارة والطوب وأى شىء يمكن أن تقع أيديهم عليه على غرفة الزوجة الجديدة. وعندما دخلت توقعوا منى أن أتدخل. لم تقتنع بأى شىء سوى أننى سأشترك معها فى هذا الشأن الخطير جدًا، لكنها لما اقتنعت أننى لن أرأس حزبها لأننى أخبرتها أن الإنجليز لا يتدخلون على الإطلاق فى قوانين أو عادات الآخرين وتقاليدهم، فثارت ثائرتها ضدى وأخفت ذلك فى صدرها؛ ومارست كل ألوان الحيل الحقيرة التى تستطيع أى امرأة عربية القيام بها مثل المجىء بالليل بهدوء وتعكير جرة الماء التى نتركها صافية دائمًا ليلاً كى نشرب منها فى اليوم التالى ثم تعمد إلى عمل ضوضاء لمنعى من النوم. وفى إحدى الليالى رأيناها تشعل النار فى الحصر التى تغطى سقف بيت الزوجة الأخرى. وأنا على ثقة بأنها وضعت شيئًا ما فى الماء الذى استخدمته فى إعداد الإفطار لى ذات صباح لإصابتى بعدها بمرض شديد. تلقيت بعض العلاج، لكننى ظللت فى حالة من الضعف الشديد لعدة أيام. لم أشك بها فى تلك اللحظة، لكننى سرعان ما لاحظت التغير فى سلوكها. وتعرضت لنفس الموقف بعد هذه الحادثة بحوالى أسبوعين. أخذت حذرى بعد تلك المرة ألا أطلب منها القيام بأى شىء لى وبعدها ذهبنا للإقامة فى بيبان الملوك عند مدخل أحد مقابر الملوك. وعندما ذكرت الموضوع لعثمان الاسكتلندى، قال لى إنه واثق بأنها أعطتنى شيئًا كى تضر صحتى لأنهم أشبعوا بعضهم البعض من تلك الحيل على حد قوله. غادرنا هذا المكان بعد ذلك بفترة قصيرة قاصدين القاهرة.

وجدت من المستحيل البقاء فى ذلك المكان حينما وصلنا إلى هناك، كما أننى لن أرحل ثانية إلى طيبة. أقنعت زوجى بأن يسمح لى بزيارة الأراضى المقدسة. كانت هذه الفكرة هى التى جعلتنى أزور مصر فى المقام الأول، وقد انتهزت هذه الفرصة لعلمى بأن الظروف ربما تحول بينه وبين زيارته التى يعتزم القيام بها إلى ذلك المكان وأننى بذلك سأضطر إلى الرحيل دون زيارتها.

غادرت القاهرة على هذا الأساس يوم الخامس من يناير من عام ١٨١٨، ووصلت إلى دمياط يوم العاشر، ومكثت بها لمدة شهرين بسبب إهمال وكيلنا. أقمت لمدة شهر فى بيته أى فى الغرف الخاصة بأمه منتظرة بفارغ الصبر سماع أن المياه كافية لخروج السفن من البوغاز، وذات يوم كنت فوق سطح البيت، فرأيت سفينة تخرج. شعرت بالغيظ حينما رأيت أننى ما زلت محتجزة هناك فى الوقت الذى تبحر فيه سائر المراكب. تحدد مرورى على ظهر أحد المراكب فى اليوم التالى لوصولى هناك على وعد بأن أكون أول من يغادر ثم اضطرت بعدها للبقاء لمدة شهر. أصررت على الصعود إلى ظهر السفينة وهو ما قمت به فى تلك الليلة على أمل فى الرحيل كل يوم، احتجزت لمدة شهر آخر. وأخيراً غادرنا ووصلنا إلى يافا يوم التاسع من مارس، ثم غادرناها يوم الحادى عشر قاصدين الرَّامة Rama التى قضينا الليل بها ووصلنا إلى أورشليم (القدس) يوم الثانى عشر من مارس. لا أستطيع أن أنسى الأثر الذى خلفته رؤيتى لأسوار ذلك المكان الخالد لأول مرة. وصلت هناك تماماً فى الوقت الذى شهدت فيه الاحتفال الكاثوليكى الذى استمر فى الثلاثة أيام الأخيرة من أسبوع الآلام داخل المبنى الذى يغطى الضريح المقدس. قدم موندريل Maundrell أحد مواطنى بلادى الذى أكن له الكثير من التقدير والاحترام وصفاً يتميز بالدقة المتناهية لدرجة شعرت بعجزى عن كتابة رواية أفضل.

ذهبنا إلى الأردن فى اليوم الأول من مايو. أعطانى أحد التجار المسيحيين من أورشليم – الذى تربطه بقنصل بلادنا فى يافا صلة قرابة – بغلاً وسائقاً يعتمد عليه كى يصحبنى. انطلقت قبل الحاكم الذى يذهب لحماية الحجاج الذين كانوا على جانبى الطريق فى انتظار إشارة الرحيل فى الوقت الذى وصلت فيه عند الحدود حيث لا يجرؤ أحد أن يتقدم أكثر. وعندما رآنى أحد السود الذين يعملون هناك كحرس على ظهر البغل هناك، انطلق مهرولاً يملؤه الغضب ناحيتى وضرب بغلى المسكين طالباً منى أن أتوقف. فلما حاول أن يمسك بالبغل، عمدت إلى ضربه بالكرباج ضربة تفاداها، ولوَّح لى بسيفه كنوع من التهديد. عندئذٍ توقف البغل ونزلت عنه وأنا مصممة على التمسك بموقفى إلى النهاية. قلت له ألا يجرؤ على أن يمسنى ومضيت فى السير تاركة ورائى

كلاً من البغل والسائق الذى تملكه الخوف من إصرارى على المضى فى السير. ونظرت ورائى بعد خروجى من الحدود واندهشت لما رأيت الرجل يقود البغل ورائى.

كان أملى أن أصل إلى وادى أريحا قبل وصول وفود الحجاج. ونظراً لعدم وجود أى أحد يمكننى الاعتماد عليه، تمنيت أن أجد مكاناً أمكث فيه بعيداً عن الزحام ووصلت فى الوقت المناسب لأضع يدى على موضع شجيرتين دون أن أكون ملزمة أمام أى أحد. جعلت الرجل يغطيهما بالشيلان العربية كى استظل من الشمس وبقيت هناك حتى مغادرتنا إلى الأردن. وفى أثناء فترة بعد الظهيرة قابلنى أحد الرحالة الأوروبيين أثناء تنزهه تعرفنا عليه فى مصر وعرض علىَّ بأدب أن يقدم لى أى خدمات يمكنه القيام بها فى ذلك المكان، لكننى أعمل فى تلك الرحلات من خلال مبدأ لا يتغير وهو ألا أعتمد على أى أحد حتى لا يقال "لولاى" أو "لولانا" ما استطاعت المضى فى الرحلة، أو إذا جاز التعبير، فإننى لم أسلم من التلميحات الحقيرة من جانب أحد مواطنى بلادى الذى "من جانبه، لا يستوعب أن أناساً يمكن أن يكونوا من الرومانسية المفرطة بحيث ينطلقون فى السفر دون أن يكون لديهم ما يكفى من المال للإنفاق على الرحلة".

أخبر الرحالة الأوروبى الذى ذكرته سلفًا الفريق الإنجليزى عن مكانى وتلطف البعض منهم وجاء لزيارتى، كما دعونى لزيارة خيمتهم وهو ما رفضته بحزم. فبالرغم من أننى المرأة الأوروبية الوحيدة هناك، فإننى فضلت أن أبقى حيث كنت بدلاً من أن أعرض نفسى لبعض من الإهانات الظريفة التى يحترف بعض الفريق توجيهها إلى النساء. إلا أننى شعرت فعلاً بشىء من الخوف حين أرخى الليل سدوله على المكان.

كان الرجل الفاضل الذى استعمل خادمى الذى أراد العودة إلى إنجلترا من اللطف بمكان لما سمح للخادم بأن يأتى إلىَّ ليحرسنى حتى وقت المغادرة. شعرت بشىء من الخوف، رغم أننى أخذت حذرى ألا أجعل أى أحد يدرك ذلك خاصة عند السماح للحجاج بالدخول إلى المخيم ولم أدخل معهم حيث لم يكن هناك مكان أذهب إليه. صحيح أنه كان يمكننى الانضمام إلى عدد من النساء السوريات، لكننى سأتعرض للكثير من المتاعب فى اليوم التالى لأنهن سيعملن على نشر الخبر بين

الحجاج أننى امرأة. لم يكن هناك ما يدعو للخوف لوجود الخادم معى للرد على الحراس أثناء مرورهم لأننى لم أكن لأطلب من السائق المسكين الذى كان معى أن يتحلى بالشجاعة الكافية للرد عليهم. امتطيت ظهر بغلى قبل بزوغ الفجر فى الوقت الذى تحرك فيه كل الحجاج وانطلقنا جميعًا. أجد من المستحيل وصف هذا المنظر. الإبل والخيول والبغال والحمير مختلط بعضها ببعض، والنساء والأطفال يصرخون ويبكون وهم معلقون على جانبى الإبل فى سلال. كنت معرضة لخطر للسقوط من فوق بغلى بسبب احتكاكهم بى. كل ما عمله خادمى هو قيادة البغل بغض النظر عما فوق ظهره، فى بعض الأحيان فى الظلام الدامس، وفى أوقات أخرى يبدو لى فوضى المنظر من الوهج الصادر عن قدور النار والحراس الزنوج يهرولون هنا وهناك لبقاء الحجاج مع بعضهم البعض.

وصلنا إلى الأردن وقت بزوغ الفجر. كان السواد الأعظم من الحجاج من اليونانيين الذين أخذوا معهم رداءًا جديداً للاستحمام به فى نهر الأردن؛ ثم يطوونه على الفور ويبللونه كما هو ثم يفتحونه ويجففونه عند عودتهم إلى وادى أريحا. وعندما يصلون إلى أورشليم، فإنهم يأخذون بعض الشموع التى أضيئت عند النار المقدسة التى نزلت من السماء إلى الضريح المقدس فى يوم عيدهم ويرسمون علامة الصليب على الرداء المذكور بفتيل الشموع سالفة الذكر. ويحتفظ بهذا الرداء حتى يوم الوفاة، كما يدفنون فيه ككفن على اعتبار أن نار الجحيم ليس لها تأثير على أولئك الذين يرتدون هذه الأردية.

بعد أن تلقينا قسطًا من الراحة لدى عودتنا إلى الوادى، انطلقنا مرة أخرى إلى أورشليم التى وصلنا إليها فى وقت متأخر من الليل بعد أن تملكنا التعب والإرهاق.

وبعد ذلك قابلت أسرة كريمة من أورشليم وهى أسرة لقيت منها كل أدب واحترام، فلما سمعوا بأننى أنوى الذهاب إلى الناصرة قبل أن أغادر الأراضى المقدسة إذ كانوا ينوون الذهاب إلى هناك أيضًا، دعونى إلى الانضمام إلى صحبتهم وهى فرصة رحبت بها كل الترحيب. ولما جاء الحجاج بأعداد غفيرة، سلكوا أكثر الطرق أهمية حسب ما

ذكر فى الكتاب المقدس ولا تخلو هذه الطرق دائمًا من خطورة أن يمر بها اثنان أو ثلاثة. غادرنا أورشليم يوم الثامن من مايو عام ١٨١٨ ووصلنا إلى الناصرة يوم ١٤ من نفس الشهر حيث أقمت.

كنت أنوى البقاء هناك لبعض الوقت، لكن العرب المسيحيين الذين يعملون فى دير الراهبات أشاعوا خبرًا فى القرية أننى من الشخصيات العظيمة فى زى متنكر. وعلى هذا الأساس لم أستطع أبدًا الخروج دون أن تلحق بى حشود من النساء والأطفال. وبعد أن رأيت كل ما هو شائق فى ذلك المكان، غادرت بعد ثمانية أيام. عيَّن لى المشرف على الحج مكارى مسيحى Mokaro للذهاب معى. وغادرت الناصرة يوم الجمعة الموافق الثانى والعشرين من مايو فى المساء بغرض السفر طوال الليل تحسبًا من حرارة الشمس لاسيما أننى كنت وحدى وتجنبًا للقاء أى من القبائل العربية. وبعد أن ذهبت الشمس إلى مخدعها وصلنا إلى موضع به بعض الخيام السوداء الطويلة الخاصة برعاة والى عكا، ووفقًا لعادات هؤلاء ظنوا أننى رجل من ملابسى، فأخذونى إلى خيمة الرجال وتنضم النساء إلى هذه الخيام، لكن لم تجرؤ أى منهن على الظهور. قدموا لى القهوة ولبن الماعز الطازج وذبحوا جديًا صغيرًا. تناولنا الطعام معًا فى جو من الضيافة والود لم نعهده فى أوروبا. إننى ممتنة كل الامتنان إلى الجبن الذى يتحلى به المكارى لعدم إفشائه السر بأننى امرأة. وتوسل إلىَّ بأن أظل هناك حتى الساعة الثانية عشر فهو الوقت المناسب للمغادرة. وبعد موافقتى على ذلك، وضعت حقيبة السفر تحت رأسى وغطيت نفسى بثوب فضفاض ذى غطاء للرأس واستعددت للنوم، لكن البراغيث التى حضرت للترحيب بوصولى صممت على ألا تجعلنى أنام. ولسوء حظى أنها - أى البراغيث - لم تمنع المكارى من النوم. وعندما أيقظته، طلبت منه الاستعداد للرحيل، فرفض ذلك رفضًا تامًا مُدَّعيًا على سبيل التحجج بأنه وأثناء مرورنا على مختلف الخيام التى ربما كان من بها نائمًا فى فراشه، إلا أن الكلاب ليست كذلك، وأنها - أى الكلاب - ستنطلق فى عدوها نحونا وغير ذلك الكثير والكثير من الأكاذيب. كان الصبر دوائى الوحيد حينما رأيت أننى لن أتغلب عليه، وبعد الكثير من الإقناع، غادرنا يوم الثالث والعشرين قبل ساعة من وقت بزوغ الفجر. لم أتعرض سواء فى مصر أو النوبة لمثل هذه الحرارة الرهيبة الخطرة كما تعرضنا لها فى هذا اليوم.

ويمكننى الآن الدخول فى الكثير من التفاصيل، فعلى سبيل المثال رأيت عند سطوع الشمس مخيماً للعرب فى خيامهم. الكل مشغول فى إعداد الجبن واللبن الخاثر والقشدة، والنساء يخضخضن الزبد فى قِرَبٍ من جلد الماعز معلقة وسط ثلاثة عصى باستمرار. وأثناء مضينا فى السير قابلنا عدداً من العرب تعلو ملامحهم الهمجية؛ وذلك لم يؤد فقط إلى خوف المكارى المسكين، بل كان سيثير رعب مونشهاوزن[1] Munchausen نفسه لو كان معنا، ولابد أن أقول إننى لم أشعر بالجرأة عن نفسى. ووصلنا فى المساء عند أكثر القرى التركية التى رأيتها بؤساً وشقاءً فى حياتى كلها. لم أذهب لشيخ البلد - كما هى العادة - لأننى أعلم أن المكارى لابد أنه أخبره عنى. ذهبت إلى فناء محاطٍ بسور يخص عدداً من المساكين الذين اعتبرتهم أكثر الناس بؤساً فى مصر، وشعرت بأننى أميرة - مقارنة بهؤلاء الناس فى القرية - ثبتت أقدامها على بقعة من الأرض على أمل أخذ قسط من الراحة بعد عناء اليوم والليلة التى قضتها. وفى أثناء تناولى لبعض الخبز والخيار، وهو الطعام الوحيد الذى استطعت الحصول عليه هناك، جاءنى عدد من الرجال والنساء والأطفال وقالوا إننى مررت بذلك الطريق حتى أتفادى دفع الجزية المفروضة على المسيحيين. تركت الفرمان الخاص بى فى أورشليم وشرعت فى التفكير فيما يجب عمله لأن الأوروبيين معفون من دفع الجزية وصممت على عدم الدفع. عندما طلبت من المكارى أن يخبر الناس بأن يبتعدوا عنى لأنه لا حق لهم بالمطالبة بأى شىء منى؛ توسل إلىَّ بدلاً من أن يكلمهم أن أعطى هؤلاء الناس بعض المال وإلا قد يحدث لنا ما لا يحمد عقباه. نفد صبرى عندئذٍ لما فهمت الحيلة. أشرت إليهم بنفسى بأن يذهبوا بعيداً، لكنهم ما زالوا على إصرارهم وعنادهم؛ فنهضت واقفة بأسلوب يبدو منه التهديد وبدأت فى فتح حقيبتى. ولعلم المكارى أننى لا أحمل فى حقيبتى سوى المسدسات، بدأ يخبرهم بأن يتفرقوا. لم أكن على حق حينما اشتكيت من العدد القليل من البراغيث فى الليلة السابقة فى خيمة الرعاة لأن العذاب العظيم الذى تعرضت له

(١) مونشهاوزن Münchhausen: هو الفرايهر كارل فريدريش هيرونيموس من مونشهاوزن (١٧٢٠-١٧٩٧). جندى ألمانى ولد فى بودنفردر. خدم كضابط خيالة فى الحملات العسكرية الروسية ضد الأتراك العثمانيين، وذاع صيته من خلال ما حُكى عنه من قصص مغامراته وحيله المبالغ فيها. [المترجم.]

هذه الليلة لا يمكن أن تصف بشاعته الكلمات فلابد أن البراغيث كانت بالآلاف. فأصحاب الخيمة أنفسهم – الذين اعتادوا على تلك البراغيث إذا جاز التعبير – لم يستطيعوا النوم بسلام وظلوا يحكون أنفسهم بشكل مثير للأسى، بل وصل بهم الأمر فى بعض الأحيان إلى النهوض من الفراش وهز أجسامهم والمشى هنا وهناك، لكن لم يبدو أنهم مدركون للسبب وراء هذا العذاب. وربما حصلت على نوع من التقدير إذا عدنا بالزمن إلى الوراء فى أسبانيا أثناء محاكم التفتيش المقدسة نظرًا لتحملى قدرًا لا خلاقَ لأحد به من العذاب المهين.

غادرنا قرية البراغيث يوم الرابع والعشرين قبل سطوع الشمس بساعتين. وكانت البلد التى مررنا بها حسنة الزراعة، بل أفضل ما رأيت منذ تركت أوروبا. ورأيت كميات هائلة من التين الهندى.

وصلنا إلى دير الرَّامة الساعة الواحدة وذهبت إلى الفراش على الفور ولم أتناول أى طعام من كثرة التعب ليس من الرحلة إذ كان هينًا، بل من الليالى الرهيبة التى قضيتها. وقضيت قسطًا من الراحة فى هذا المكان الهادئ المريح حتى يوم السابع والعشرين. يتميز موقع هذا الدير بالروعة والجمال، فمن فوق قمته يمكن رؤية منظر بديع للبلد يمتد عدة أميال. وغادرنا قاصدين أورشليم يوم الأربعاء حيث ذهبت للبقاء هناك فى انتظار مجىء زوجى على أساس أن هذه كانت نيته فى الأصل. وفى تلك الأثناء حاولت كل جهدى لدخول هيكل سليمان temple of Solomon (تقصد المسجد الأقصى)، لكن دون جدوى رغم كثرة ما تلقيت من وعود.

إذا أراد الأتراك ترميم أى مبنى من المبانى، فإنهم يرسلون إلى عكا وغيرها من المدن طلبًا للعرب المسيحيين المساكين الذين يقومون بكل الأعمال الشاقة، رغم أنهم لا يسمحون لأى مسيحى بدخول الهيكل (أى المسجد). ورغم هذا التناقض الذى يتصفون به، فإنهم يسعدون بأن يطلبوا من المسيحيين ترميم أو بناء أماكنهم المقدسة، وحينما ينتهون من العمل، فإنهم يطهرونها من نجسهم. كان هذا حالى حينما وصلت إلى أورشليم، والعمال قائمون على ترميم المعابد. كان كل المسيحيين الذين اشتركوا فى

هذا العمل تقريبًا من الكاثوليك. وكانوا يقيمون بالطبع فى موضع خصصه الدير للحجاج والأوروبيين، وهو المكان الذى أقمت فيه لأن النساء لم يكن مسموحًا لهن بالإقامة فى الدير. دار فى خاطرى أثناء اختلاطى اليومى بهؤلاء الناس أننى يمكن أن أدخل المعبد عن طريقهم. بعد أن فقد الرجال كل أمل فى مساعدتى، أفهمنى أحد الرجال أنه يمكننى الدخول لو تمكن الرجال من الحصول على تصريح دخول لزوجاتهم حيث سمحوا لهم بالدخول حينما جاءوا بدايةً لترميم المعبد، فلو أننى ارتديت ملابسى مثلهن؛ عندئذٍ يمكننى الدخول معهن. كان خطة لا بأس بها، إلا أن المعبد كان قد اكتمل تقريبًا، ولم يعبأ الأتراك بإجبارهم على ذلك. لكنهم لم يخبرونى بعدم استطاعتهم الحصول على تصريح، بل على العكس أخبرونى بحصولهم عليه وأن باستطاعتى الدخول مع نسائهم. وأحضروا لى الملابس بناء على الوقت المحدد. بعد أن ارتديت ملابسى وغطيت وجهى غطاء مريحًا فى يوليو وحشرت قدميَّ فى حذاء ضيق طويل الرقبة عالى الكعب، لكنه كان بالنسبة لى كحذاء "سندريلا" الزجاجى، وكنت على استعداد لتحمل أى شىء عدا عدم الذهاب وانطلقنا. ولا أستطيع وصف الأحاسيس التى شعرت بها ما بين خوف ورجاء. وبعد هبوطنا إلى التل لبعض الوقت زاحفين كالحلزون إذ لم تجرِ العادة بالسير سريعًا هناك، وبالإضافة إلى ما تحملت من ألم بسبب إصبع قدمى الذى جُرِحَ لاندفاعه بسبب الكعب العالى، وصلنا إلى جبل صهيون حيث الكنيسة Moska التى تناول عندها مخلصنا المبارك عشاؤه الأخير مع تلاميذه، وحيث يوجد قبر كل من الملك داود وسليمان. وعندما رأيت هذه الأماكن من الخارج فى أول زيارة لى هناك، عرفت أنه يمكننى الدخول فى أى وقت مقابل دولار واحد. وبدأت النساء فى التهامس فيما بينهن ثم نادين أزواجهن ظنًا منى لكى يصحبوننا إلى المعبد، لكن لا يمكن لأحد أن يتخيل مدى قسوة الإحباط وخيبة الأمل التى شعرت بها حينما علمت أن هذا هو المعبد. فعندما حكم هؤلاء الرجال علىَّ كأى من زوجاتهم، رأوا أنه يمكنهم اعتبار هذا مثل المعبد والحصول فى المقابل على البقشيش منى. عرفت ما أضمروه فى صدورهم، لكن بعد فوات الأوان. وفى ظل خيبة الأمل التى شعرت بها وما فرضوه علىَّ من أمر واقع وحالة قدميَّ والخزى الذى أحسست به بسبب خداع هؤلاء

النسوة لي؛ رفضت الدخول وبدأت في توجيه التقريع واللوم لهم على الحيلة التي أرادوا لعبها معي. وعندما علموا أنني عرفت أن هذا المكان ليس المعبد، ارتسمت على وجوههم ملامح الذهول والبلاهة للحظات، وفي النهاية شرعوا في تقديم الحجج والاعتذارات بقولهم إنهم سمعوا للتو بأنهم لن يستطيعوا الحصول على تصريح لزوجاتهم بالدخول، لكنني لم أكن في مزاج يسمح لي بسماع تلك القصص. أخبروني – ظنًا منهم أن هذا سيُسَرِّي عني – أن رمضان سيبدأ في غضون أيام معدودة، وعندئذٍ سيكون من السهل العمل على الدخول إلى هناك. فقدت كل الثقة، بل وأصبحت لا أعبأ بأي شيء يقولونه. وبعد أن أفرغت مشاعري قليلاً، ذهبت إلى الكنيسة. رجعت من هناك في غاية الألم وأغلقت الباب على نفسي في حجرتي ولم أدع أيًا من النساء تقترب مني. هؤلاء النسوة أرسلن لي بكل الاعتذارات الممكنة مصحوبة بآلاف الوعود. بعد ذلك ذهبت إلى بيت لحم وإلى سانت جيوفاني[٢] St. Giovanni وإلى الصحراء حيث كان يعظ الناس، وإلى الوادي حيث قتل داود جالياط. بدأت أعد العدة بعد عودتي للرحيل إلى القاهرة المحروسة Grand Cairo مستنقع الرذيلة والشر لأن زوجي أرسل لي خطابات تفيد عدم وجود أي فرصة أمامه لزيارة سوريا في الشهور القادمة على الأقل. وأثناء استعدادي للرحلة، وصل بحار مستر بانكس إلى أورشليم بحثًا عن طبيب الدير نظرًا لمرضه في يافا. رافق هذا المراكبي زوجي لبعض الوقت في النوبة. انتهزت هذه الفرصة لعدم ثقتي بترجمان الدير بأن يذهب إلى كاتب scrivan المعبد الرئيسي وأخبرته بما سأعطيه له لو تمكن من إدخالي إلى هناك. عاد المراكبي وأخبرني أن الرجل سيرد عليه في المساء. كانت هذه مجرد محاولة لأنني فقدت كل أمل في الدخول. كما أخبرني المراكبي أيضًا أن الكاتب قال إنه كان من الممكن أن يسمح لي بالدخول لو كنت رجلاً. ولما سمع المراكبي هذا الكلام فكَّر طبعًا في سيده الذي كان يتمنى دخول هذا المعبد منذ عامين. وبعد بضعة أيام وبعد إعداد العدة لكل شيء وتجهيز البغال، أخذت صبيًا صغيرًا يبلغ من العمر تسع سنوات وهو ابن حارس المكان، كما يعرفه الرحالة جيدًا، وأخبرته بأني

(٢) سانت جيوفاني St. Giovanni: هو الاسم الإيطالي للقديس "جون" أو يوحنا المعمدان. [المترجم]

يرينى الطريق إلى الباب الذى يفضى إلى الأرض التى يوجد المعبد بها. تركت الصبى عند البوابة ومضيت فى السير ببطء. وصلت إلى نصف الطريق المؤدى إلى الدَّرَج حينما رآنى أحد الأتراك من على بُعد، لكنه لم ينتبه إلىَّ لارتدائى ملابس كالأتراك. ارتديت حذاءً أسود صبغته بهذا اللون الأسود من أجل أسبوع الآلام لدخول الأراضى المقدسة، وهو الحذاء الذى قررت ارتداءه طوال الوقت فى الأراضى المقدسة، وهو ما ارتديه فى هذه اللحظة. حجبت الأعشاب حذائى عن الأنظار، وإلا لعُرِفَ منه أننى مسيحية. وأخيراً وصلت إلى الدَّرَج شمالاً الذى يفضى إلى المنصة التى يوجد عندها قدس الأقداس[٣] Holy of Holies. ووجدت نفسى فوق المعبد فى الوقت الذى فكرت فيه عما إذا كنت سأمضى فى السير أم لا. هنا قررت أن أعيد التفكير ثانيةً، لكننى مضيت فى السير دون وعى وعبرت الباب عند الجانب الشرقى ووصلت إلى باب الجانب الجنوبى الذى كان يتميز بنقوش عليه ويتجه نحو دَرَج مقابل للدَّرَج الذى أتيت منه. مررت مضياً إلى الباب عند الجانب الغربى، ومنه إلى ذلك الباب عند الجانب الشمالى، ومررت مرة أخرى من الباب عند الناحية الشرقية ووصلت ثانيةً إلى الباب الجنوبى الذى نظرت منه لأرى بعض الأعمدة الرخامية أو الجرانيتية فى الداخل. ثم غادرت المكان مرة أخرى بغرض الاستطلاع عما إذا كان هناك أى أتراك فى الطريق. وصلت إلى الباب الغربى للمرة الثانية عندما لاحظت أن رجلاً يتبعنى، لكننى لم أجرؤ على النظر إليه. وقال لى بالإيطالية أثناء مروره "اتبعينى" ومضى فى سيره كأنه لم ينتبه إلى وجودى. تملكتنى الدهشة، لكننى عندما نظرت إليه وجدته رجلاً مسيحيًا لى معرفة وطيدة بزوجته التى كانت تعيش فى نفس الحى الذى أقمت فيه وكان الرجل كثيراً ما يقول لى إنه لو لم يكن خائفًا من المسيحيين الآخرين لعمل على دخولى المعبد. ومن

(٣) قدس الأقداس Holy of Holies: يعادل قدس الأقداس أو المكان المقدس فى الهيكل ما يُعرف باسم خيمة أو قبة العهد أو الشهادة. وفى العهد القديم، هى الخيمة التى أنشأها موسى حيث يُحفظ صندوق العهد أو الشهادة (الذى تحفظ فيه مخطوطات القوانين اليهودية) (انظر سفر الخروج ٣١-٢٥، ٤٠-٣٥). وتمثل هذه الخيمة أو القبة وجود الرب. لكن مما يبدو (انظر صموئيل الأول ٣:٣) أن هذه القبة استبدلت بمبنى دائم فى سِلْوام (بالقرب من أورشليم) قبل زمن داود ملك إسرائيل ويهوذا. [المترجم.]

أسفٍ أن المسيحيين شديدو الغدر والخيانة ويشى بعضهم ببعض عند الأتراك مما يجعل هؤلاء الناس يكرهون المسيحيون ويحتقرونهم بشدة.

استنتجت بالبديهة أنه سيأخذنى إلى نفس المبنى، لكننى تبعته فى صمت لعدم قدرتى على الكلام معه. هبطنا الدَّرَج الجنوبى ومررنا بنافورة ماء تستمد ماءها من حمامات سليمان فى بيت لحم. ولهذا الماء قداسة لدى كلٍ من الأتراك (المسلمين) والمسيحيين على السواء، وكان يسمح لكل رجل أثناء العمل هناك بأن يحمل إلى بيته إبريقًا كبيرًا من هذا الماء لاستعماله الخاص كل ليلة واعتادت النساء إعطائى بعضًا من ذلك الماء كهدية لها قيمتها. وبعد مرورنا ببعض أشجار الأرز وصلنا إلى المسجد الكبير وهو مبنى كبير وفقًا لعلى بك هو الأقصى. وحسب ما أورده على بك فى صفحة ٢١٥ أن أيًا من الحكام المسلمين لا يجرؤ على السماح للكفار بدخول منطقة مكة أو معبد أورشليم. وينظر إلى تصريح كهذا كنوع من التدنيس المهين للمقدسات؛ وبالتالى لن يحترمه الناس وسيقع الكافر ضحية جرأته الحمقاء. ويشكل هذا الصرح المعمارى الركن الجنوبى الشرقى من مدينة أورشليم ويحتل الموقع الذى أقيم عليه سابقًا هيكل سليمان.

ولعلنا نجد بعض التناقض فى رواية على بك سالفة الذكر عند التفكير فى التصريح الذى حصل عليه د. ريتشاردسون للدخول، لكن هذا الطبيب قدم خدمة إلى كابودى ڤيردى Capodi Verde بوصفه طبيبًا، ولما لم يعرف الأخير كيف يرد هذه الخدمة بطريقة ترضيه هو شخصيًا، حيث أراد أن يُظْهِرَ له عظيم التقدير والامتنان لهذه الخدمة التى أداها له؛ فمنحه تصريحًا بدخول المحراب المقدس، وهو تصريح ليس فى استطاعة الإمبراطور (تقصد السلطان) نفسه أن يمنحه. صحيحٌ أنه قادر على إصدار فرمان بتلك القوة، لكن عندما يصل هذا الفرمان إلى أورشليم، وبعدما يعرض عليهم، فإنهم يقولون إنهم لا يرفضون السماح لهم بالدخول بموجب الفرمان، لكنه لم ينص على أى شىء بخصوص السماح لهم بالخروج. وعلى هذا الأساس يُسْمَحُ له بالدخول إلى هناك إن شاء على الرحب والسعة، لكن عليه أن يتذكر أنه إذا أراد

الخروج، فلابد له من اعتناق دينهم وإلا لقى حتفه بأبشع صورة وهى الحرق حيًا. هذه هى المعلومات التى حصلتها أثناء إقامتى فى أورشليم ولست أرى سببًا للشك فى حقيقة هذا الخبر.

خلع الرجل نعليه عند الدخول ووضعهما تحت إبطه. وخلعت حذائى أيضًا، لكننى تركته عند الباب أثناء لهفتى على دخول هذا الأثر ومضيت خلف الرجل. هذا المكان ملىء بالأعمدة الكبيرة بعضها من الجرانيت، وتتنوع أشكال رؤوس هذه الأعمدة المؤسسة على الطراز العثمانى البدائى، ولم أستطع النظر عليها بعد الذى رأيته فى مصر. دخلت تجويفًا وجدت بداخله شباكًا كبيرًا، وهناك رأيت أحد المسيحيين وهو قائم على العمل. وهو رجل معروف ذلك أن والى عكا أمر بجدع أنفه بعد فترة قليلة من وجود الفرنسيين هناك. وأخبرنى أن هذا هو الموضع الذى أخذ فيه القديس سمعان(٤) St. Simon والقديسة آن(٥) St. Anne مُخَلِّصنا فى أحضانهم وتبنوا له. وهناك بعض أعمدة صغيرة من الرخام والجرانيت فى هذا المكان. وأثناء سيرى حتى نهاية هذا الأثر حيث الشبابيك التى تطل على سِلْوام Siloe، جعلونى أرى مكانًا فى الجدار يقال إنه

(٤) القديس سمعان St. Simon: القديس سمعان كان أحد الحواريين الاثنى عشر للمسيح عليه السلام. ظهر اسمه فى أربع قوائم فقط من الاثنى عشر حواريًا فى العهد الجديد. وسُمى سمعان بالزيلوت، وهى كلمة يونانية تعنى المتحمس أو المتعصب، وفى إنجيل لوقا ٦:١٥ وأعمال الرسل ١:١٣ وفى متىْ ١٠:١٤ ومرقص ٣:١٨ سُمى بالكنعانى، وعلى الأرجح أنه يمثل الآرامى المتعصب.

قام سمعان بالتنصير فى مصر وفقًا لتقليد حديث. ثم سافر مع القديس يهوذا للتنصير فى بلاد فارس أو إيران، وقيل إنهما ماتا فى سبيل دينهما هناك. يتقاسم القديس جودى العيد الدينى للقديس سمعان فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى ٢٨ أكتوبر. وتحتفل الكنائس الأرثوذكسية بالعيد الدينى للقديس فى ١٠ مايو. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية.]

(٥) القديسة آن St. Anne: كانت القديسة آن زوجة عمران وأم مريم (عليها السلام) ذكرت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت ما فى بطنى محررًا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم﴾ آل عمران: ٣٥. وقد ذكر حافظ بن كثير فى قصص الأنبياء أنها كانت من العابدات، وكان زكريا نبى ذلك الزمان زوج أختها أشياع، وخال مريم عليها السلام وكانت عاقرًا فسألت الله الولد ونذرت إن هى ولدت أن تجعل ما تلد خادمًا لبيت المقدس. ولما أرضعتها خرجت بها إلى المسجد ودفعتها إلى العُبَّاد المقيمين به فتنازعوا أيهم يكفلها واقترعوا فخرجت القرعة لزكريا عليه السلام. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية.]

يقع أصلاً عند موضع باب كان مخلصنا يخرج منه وهناك أيضًا حَجَر يقال إنه يحمل قالب قدم مخلصنا. وبالقرب من هذا الموضع هناك درج صغير يشبه منبر الوعظ عندنا يصعد إليه الكهنة أو القسس - على ما أظن - للوعظ أو الصلاة بالناس. صحبني الرجال إلى حجرتين صغيرتين، إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار، وهما تحت الترميم كما تملؤهما القمامة والركام. وأخبروني أنهما حجرتان مقدستان بناء على صلتهما بمخلصنا، لكنني لم أفهم السبب. ولن أحاول أن أقدم وصفًا لهذا المكان، فأنا لا أعرف إلا القليل جدًا من كلمات اللغة العربية، كما أنني لا أجيد الإيطالية، ولو كنت على دراية بهما لما أفادني ذلك هنا بشيء لأن هؤلاء الرجال لا يعرفون هاتين اللغتين، لكنهم اكتسبوا أثناء خدمتهم في القداس وهم صبية - إذا جاز التعبير - لغة خليطًا من الإيطالية والبرتغالية والإسبانية. لهذا اكتفيت بالنظر دون الفهم ولم أحْظَ بمزية أن يشرح لي أحد ما كل شيء. وبعدما رأيت كل شيء في ذلك المكان، توقعت العودة من نفس الطريق الذي أتيت منه. ولاحظ الرجل أنني لا أرتدي حذائي، فسألني عما فعلته به وتذكرت أنني تركته عند الباب قبل دخولي. حاولت الخروج للبحث عن حذائي، لكنه أوقفني قائلاً إنه سيذهب للبحث عنه بنفسه. وبقيت في التجويف سالف الذكر. وعاد الرجل دون أن يرجع بالحذاء وقال إن أحد الأتراك رآه وأخذه كشاهد ضده لأنه سمح لأحد المسيحيين بالدخول. وبدا على الرجل الخوف والرعب. ولم أعرف إن كان كل هذا حقيقة أم لا. وأعطاني زوجًا من الأحذية الحمراء. شعرت بشيء من الغيظ لضياع حذائي الثمين أكثر من قلقي وخوفي من العواقب وأخبرته بثقة أنه لابد أن يأتي لي بالحذاء، ووعدته بأن أعطيه بقشيشًا إذا أحضره لي وهو ما فعله في اليوم التالي. بعدها صحبني إلى الخارج عند باب صغير وظننت أنه سيريني المزيد من الأشياء، لكنني وجدت نفسي خارج الأثر في مكان موحش، ورغم أنني سألته أكثر من مرة عن هذا المكان الذي صحبني إليه، فإنه لم يُجِبْ عليَّ، وأشار إليَّ بعدم الكلام، لكنني سرعان ما اكتشفت - للأسف - المكان الذي ذهبنا إليه حينما رأيت أننا على مقربة من الدير الأرمني. تركت الصبي المسكين عند الباب ولم يعرف ما الذي دهاني. وبعد حوالي الربع ساعة من عودتي، جاء ذلك الصبي إلى محل إقامتنا باكيًا وظل يضرب

نفسه قائلاً إننى ضللت الطريق بعد انتظاره بعض الوقت عند الباب، ولما دخل وجرى مهرولاً فى كل أنحاء المكان بحثًا عنى لم يجدنى هناك. وتحول هذا اليوم إلى يوم شجار ومنازعات لأننى وجدت لدى عودتى النجارين والكَتَبَة scrivans وزوجاتهم يتشاجرون مع بعضهم البعض لأننى تمكنت من الدخول بدونهم؛ وبالتالى فقدوا ما وعدتهم به من بقشيش وظلوا يلومون بعضهم البعض بأن كلاً منهم أخذنى إلى هناك خلسة. وعلم الأب كوراتو الأسبانى Padre Curato بالفوضى التى عمت الحى الذى كنا فيه، فى الوقت الذى أغلقت فيه الباب على نفسى فى هدوء تام دون أن ألاحظ الشجار الدائر فى الفناء، والحق أقول إننى لم أعلم أن هذه المشاجرات دارت بشأنى. وعندما أتى الأب إلى غرفتى، كانت أول كلمة قالها لى: هل صحيح يا سيدتى أنك ذهبت إلى الهيكل؟ أنا مدركة أن مَرَدّ قلق الأب المسكين هو خوفه أن يصل هذا الأمر إلى علم الأتراك؛ وبالتالى سيأتون إلى الدير طلبًا لمبلغ من المال وهو ما اعتادوا القيام به بين الحين والآخر بأى حجة واهية. أجبته بأننى ذهبت إلى مكان علمت أن مخلصنا كان فيه، كما رأيت حجراً مطبوعًا عليه أثر قدم مخلصنا الذى شرفت بالانحناء عليه لتقبيله. من الواضح أنه جاء إلىَّ فى حجرتى لتوبيخى، لكن الأب الورع حينما عرف أننى امرأة مسيحية صالحة، لم يسعه إلا أن يقول لى باللغة الإيطالية: "يا لها من شجاعة!" وأخبرنى أن أكبر الرهبان سنًا هناك لا يجرؤ على السير فى الشارع الذى يؤدى إلى الهيكل وهو الأمر الذى صدقته تمامًا. وفى المساء جاءت النساء المسيحيات اللاتى يسكنَّ فى هذا الحى إلى حجرتى راضيات عن أنفسهن لعدم ذهاب أى أحد معى إلى الهيكل، وجلسن حولى على الأرض، يتملكهن العجب بين الحين والآخر ثم رفعن أيديهن قائلات إن الرب أنقذنى. وعندما أعربت عن أسفى لعدم تمكنى من الذهاب إلى قدس الأقداس عند المنصة، صِحْنَ عجبًا ورسمن الصليب وقلن إن المسيح ومريم العذراء أنقذانى من الدخول إلى هناك، وإلا لاحترقت وغير ذلك الكثير والكثير. غير أننى رأيت أن من الحكمة مغادرة أورشليم بعد غدٍ بيوم إلى يافا. وحين وصولى إلى منزل وكيل أعمالنا الشرقى رأيت مستر بانكس الذى بدأ يتماثل للشفاء من الحمى. اضطررت للانتظار بعض الوقت قبل أن أجد رحلة إلى دمياط. وفى تلك الأثناء فهمت من مراكبى

مستر بانكس أنه اشترى له زيًا أرناؤوطيًا متعللاً بالذهاب إلى الرَّامة لبضعة أيام بسبب مرضه ليمر سريعًا على أورشليم وينطلق رأسًا إلى الهيكل. كانت خطة لا بأس بها، فلا شيء أسهل من هذا، فإذا اعتبر محمدٌ أرناؤوطيًا، فإن باستطاعته أن يجعل الناس ترى مستر بانكس كواحد من بني بلاده الذى لا يتحدث أى لغة غير لغة بلاده لأن من غير المتوقع أن يعرف الرجل الأرناؤوطى أيًا من اللغتين العربية أو التركية وتدرب على يد المراكبى على ممارسة شعائر الصلاة، فما من شكٍ حينئذٍ من نجاحه.

شعرت بالارتياح والألفة مع النساء المسيحيات اللاتى سنحت لى الفرصة بمخالطتهن فى أورشليم وبيت لحم والناصرة أكثر مما شعرت به فيما دونها، وكن يتمتعن باحترام أزواجهن وتقديرهن أكثر مما رأيت فى أى مكان آخر منذ غادرت إنجلترا، نظرًا لأن وضع النساء المسيحيات والأهالى فى مصر ليس بأفضل من وضع المسلمين. وتعودت على الاختلاط بهم كل يوم أثناء فترة إقامتى التى دامت بضعة شهور فى الأراضى المقدسة ولا سيما فى أورشليم. يمتاز هؤلاء الناس خاصةً بالنظافة والنظام فى بيوتهم رغم أن الأثاث لديهم لا يضم أى كراسى أو مناضد، لكنهم ووفقًا لعاداتهم يفخرون أشد الفخر بأثاث بيوتهم الصغيرة مثل الفراش ذى الأغطية الجميلة واللحاف المصنوع من القطن المطبوع، وهى أشياء لها بعض الأهمية فى سوريا إلى جانب طاقم رائع من فناجين القهوة والصور المعلقة على الجدران، فهم مغرمون بالزينة فى بيوتهم، لكن لكل شىء فى البيت استخدامه ورفاهيته. وهؤلاء النسوة هن زوجات النجارين والكتبة الذين كانوا يعملون فى المعابد، لذا اعتدت على مشاهدة كل عاداتهم. فَجَرَتِ العادة لديهم على غسل الملابس يوم الجمعة أو السبت وتنظيمها وطيها بأفضل ما يكون النظام وتنظيف المنزل كله ليوم الأحد الذى يقضونه فى جو يملؤه الهدوء والسلام، فليس عليهم سوى تحضير طعام العشاء الخفيف، ودائمًا ما يتناول الزوج والزوجة والأب والأم والأطفال الطعام معًا، وأحيانًا يدعون بعض الأصدقاء لتناول العشاء معهم يوم الأحد أو يخرجون للتمشية. يمتاز السواد الأعظم من النساء اللاتى عرفتهن بالجمال، بل إن البعض منهن يعتبرن جميلات حتى فى إنجلترا. قابلت شابة متزوجة بارعة الجمال وفقًا لفكرتى عن الجمال الأنثوى، فبشرتها البيضاء مختلفة عن

ذلك البياض الشاحب الذى تراه كثيراً فى الشرق. فلم أرَ منذ مجيئى إلى هذا المكان وجهًا يسر من ينظر إليه كوجهها، إن هناك شيئًا معبرًا للغاية فى ملامحها ألا وهو عيناها الواسعتان الدعجاوان الزرقاوان، وبهما شىء من الصفاء الساحر قلما تقابله فى تلك البلاد. تمتاز عيونهم بوجه عام باللون الأسود مما يسر الناظر إليها لو عبرت عن احتشام وتواضع، لكن بعض العيون هناك تصيبك بالتقزز من نظراتها التى تتسم إما بشدة الجرأة أو الغباء. زرت أسرة تنتمى إلى أحد التجار المسيحيين - وأنا لا أعنى هنا تاجراً كالتجار عندنا، لكنه ومع ذلك كان رجلاً موسرًا، ففى بيته تتوفر كل وسائل الراحة المنزلية، بل كل ما يعتبر من وسائل الرفاهية حتى فى إنجلترا. وصحبت إحدى السيدات حينما كنت فى أورشليم لزيارة هذه الأسرة. أما فى بيت لحم فالأتراك يخافون من المسيحيين خوفًا شديداً. وذات يوم ذهبت لزيارة زوجة المراكبى وأسرته. ثم دخلت البيت امرأة مسلمة مسكينة، ودهشت آنذاك لتواضعها إذ كانت المرأة المسيحية تعاملها كأنها جارية. قام المسيحيون بمذبحة قُتِلَ فيها عدد كبير من الأتراك منذ حوالى خمسين عامًا وكانت هذه المرأة تنتمى لبعض الذى قُتِلوا. ومما رأيت تمتع النساء المسيحيات فى تلك الأماكن بوضع أفضل من غيرهن سواء من حيث شئونهن المنزلية والاهتمام والرعاية التى يعاملن بها. أما فى مصر فالنساء المسيحيات لا يأكلن مع أزواجهن إلا فيما ندر.

حجز لى وكيلنا الإنجليزى حجرة صغيرة على ظهر سفينة تركية، ودعانى كى يصحبنى لأرى حديقة خاصة به ذلك أن السفينة لم تكن لتغادر إلا فى اليوم التالى، فما كدنا نصل إلى هناك حتى جاء رجل يجرى وراءنا قائلاً إن السفينة ستبحر على الفور، وبسبب هذا الخطأ لم أتمكن من شراء أى طعام لهذه الرحلة. ولحسن حظى أن اتفق أن قابلت رجلين إيطاليين فى يافا جاءا من رحلة الحج إلى أورشليم يعمل أحدهما فى الصفيح أو القصدير، بينما خصص الآخر وقته لتجارة الشمع بكل فروعها وهى تجارة مطلوبة فى مصر. كان هذان الرجلان يرغبان فى زيارة الإسكندرية مباشرةً، لكنهما لما لم يتمكنا من السفر فى رحلة مباشرة، وعندما عرفا أن زوجى إيطالى، قبلا أن يذهبا معى إلى القاهرة ظنًا منهما أنها رحلة قصيرة لا تستغرق سوى

يومين أو ثلاثة، لكنها تستغرق وقتًا أطول من ذلك فى بعض الأحيان. ولولا هذين الرجلين لما تمكنت من الوصول إلى القاهرة على قيد الحياة لاستمرار المتاعب التى سببتها لى الحُمَّى الصفراء.

وعمل أحد الخدم البرتغاليين لدى مستر بانكس الذى تركناه فى يافا مع الرجلين الآخرين على إرسال أمتعتى إلى الشاطئ والحصول على القليل من الطعام مما يستطيعون الحصول عليه فى تلك الساعة المتأخرة من الليل. نزلنا إلى الشاطئ بغرض الصعود إلى ظهر السفينة. وتناهى إلى علمنا عند وصولنا إلى بوابة الميناء أن الوالى كان هناك، لكنه سيرحل عنه فى غضون دقائق معدودة. وسألت القنصل بعد الانتظار لمدة نصف ساعة كاملة عن السبب الذى يدعونى إلى الانتظار بهذه الطريقة، فأخبرنى أنه لا يوجد أى بوابة أخرى للخروج غير تلك البوابة التى يجلس عندها الوالى، ولا يستطيع أحد الخروج من هذه البوابة إلا حين يغادرها. فأخبرتهم إنهم إذا كانوا جميعًا عبيدًا للأتراك، فإننى لست جارية. ولعلمى أن أحدًا من هؤلاء الرجال الشجعان الأفاضل لن يجرؤ على التفوه بكلمة إلى الأتراك، أخذت فى الشكوى بلغة إيطالية ركيكة وبلغة عربية أكثر ركاكة من تعرضى للأسر على يد الترك فى يافا. فقال لى أحد الأتراك الأفاضل الذى كان ينتمى فى الماضى إلى الساحل البربرى والذى زار إنجلترا ويدعونه جبريل طار Gibraltar بلغة إيطالية يتقنها إن الوالى سيرحل فى وقت قصير وطلب منى التحلى بالصبر. فأخبرته بلغة عربية مكسرة أن الإنجليز ليسوا عبيدًا للأتراك أقولها بصوت عالٍ حتى يسمعنى الوالى.

لم أتخيل بالطبع أن كلماتى يمكن أن يكون لها أى أثر، حيث ذهب هذا الرجل إلى الوالى الذى غادر المكان على الفور وسعدت برحيله. ورأى وكيلنا الإنجليزى الشرقى من الحكمة القول إن الوالى أراد رؤيتى حينما عرف أننى امرأة. وهذا غير صحيح، ولو كان هذا هكذا، فإننى ممتنة له لأنه أخبر الوالى أننى امرأة. جرت العادة على أن يصحب الرجل أيًا من الإنجليز لدى وصولهم لمقابلة الوالى ويرى هذا الرجل بما يدعم أفكاره الراقية عن الوقار والكرامة أن الإنجليز ليسوا كرماء فى هداياهم ويشيد بعظمة

ثروة سيدى الإنجليزى، لكنه عندما علم أننى لست امرأة ثرية رغم عدم اختلافى عن الآخرين بالنسبة للكرم الذى أبديه مقابل ما يعاملنى به الناس معنويًا أو ماديًا، فما من شك أنه أخبر الوالى بأننى لست ذات حيثية، ظنًا منه - رغم أنه لا يجرؤ على إظهار أهميته أمام الإنجليز - أن الوالى عندما يسمع هذا القول سيعاملنى على أساسه بأى شكل من الأشكال، فإذا كان هذا هو فكره، فإن الكلام الذى قلته على مسمعٍ منه ومن قومه جعله يشعر بالدونية. صعدنا إلى ظهر السفينة التى كانت مثقلة بالبضائع والناس. ولكم كانت محنتى ومصيبتى حينما رأيت الكابينة التى حُجِزَت لى مقابل مائة وثلاثون قرشًا ممتلئة عن آخرها بالبطيخ وامتلأ ظهر السفينة بالعساكر الأرناؤوط مما جعلنى أشعر بالقلق بسبب ما رأيته فى مصر منهم. ورغم شعورى بالتعب فور صعودى على ظهر السفينة، فإننى أصررت على الوصول إلى الشاطئ لتقديم شكوى للقنصل. كانت المركب تسير جنبًا إلى جنب مع السفينة، وأثناء إصرارى على الذهاب وطلبى نقل أمتعتى إلى المركب، وجدت أنهم نقلوها سراً، وذهبت كلماتى سدى. طلب منى الرجلان المسكينان اللذان كانا معى - وهما لا يعرفان إلا أقل القليل عن عادات الترك ولا يفقهون لغتهم - ألا أقول أى شىء لهم حبًا وكرامة فى مريم العذراء لأننا تحت سيطرتهم. ورغم مرضى الشديد، طلبت منهما ألا يظهرا لهؤلاء الناس أنهما خائفان على الإطلاق. ظللت على ظهر السفينة حتى ساد الظلام وكنا فى حالة من الفوضى كما هو الشائع فى السفن التركية التى لا يحكمها نظام أو تسيرها بوصلة سوى النجوم ثم يفخرون بعد ذلك بأنهم أكثر حكمة من الأوروبيين. أصررت على إزالة كل ما بالكابينة من متعلقات بموجب العقد. بعد الكثير من الشد والجذب وبعد كل محاولاتهم منع إخراج البطيخ من الكابينة، توصلنا فى النهاية إلى إخراج جزء من البطيخ مع نقل الباقى فى صباح اليوم التالى وأنزلوا أمتعتى وأقمت فى الكابينة كما توقعت لنفسى. تغيرت الرياح، وبعد ثلاثة أيام من الطقس المعاكس، اضطررنا إلى الرسو فى قبرص التى قضينا فيها ثلاثة أيام. بدأنا الرحلة مرة أخرى إلى دمياط وتأخرنا كثيراً بسبب هدوء الرياح. أخيراً وصلنا إلى ذلك الميناء بعد ثلاثة عشر يومًا منذ غادرنا يافا. ولم أعانى أثناء السفر فى المحيط ما عانيته أثناء هذه الرحلة الصغيرة. ولابد أن أتوجه

بالشكر والعرفان مرة أخرى للسلوك المحترم والمهذب إضافة إلى المساعدة التى تلقيتها على يد هذين الرجلين لأننى عانيت من المرض طوال الوقت الذى قضيته على ظهر تلك السفينة. ففى هذه اللحظات تظهر معادن البشر وشعرت بالأسف لأننى لم أستطع أن أبدى لهما من الكرم أكثر مما سمحت به إمكانياتى المادية المحدودة. فأى مبلغ من المال ليس كثيراً مقارنة بالمساعدة التى قدموها لى.

ولدى وصولى إلى دمياط وفى غضون الفترة القصيرة التى بلغت ستة أشهر عرفت أن أم القنصل وأخته اللتين عشت معهما شهراً من الصداقة والود وافتهما المنية، وتوفيت الأم عن عمر يناهز الأربعين والأخت عن عمر يناهز ثمانية وعشرين عاماً تاركةً وراءها زوجًا محبًا مكلومًا وأربعة صبيان يتحلون بالوسامة. لم يسعنى إلا التفكير مع العرب بأن الرب كان معى حقًا، لأن أخًا أصغر للقنصل يبلغ من العمر تسع سنوات رجع إلى المنزل يومًا ما وهو مصاب بحمى شديدة فى الوقت الذى كنت فيه هناك وأخبرتنى الأم بذلك الأمر، فقدمت لها قليلاً من الشاى صنعته له فتصبب الصبى عرقًا، وفى اليوم التالى أصبح حاله أفضل. إن ذهابى للسفر على ظهر السفينة - رغم غيظى من احتجازى فى دمياط هذه المدة الطويلة - هو ما أنقذ حياتى لأنه ورغم تحسن حالة الصبى، فإن المرض لم يفارقه وما هى إلا أيام معدودة بعد رحيلى حتى أصابته حمى عنيفة وخبيثة أصابت الأم ثم أصابت ابنتها أيضًا ووافتهما المنية معًا. لم أستطع أبدًا إقناعهم بالبعد عن تناول الكثير من الأشياء التى قلت لهم إنها مضرة ويأتى الرد الوحيد على ذلك: ماذا أفعل؟ أنا أحب هذه الأشياء والرب سيرعانى. تنشغل النساء المنغلقات على أنفسهن هناك بتناول كل ما تقع أيديهم عليه من نفايات الطعام للوصول إلى البدانة، فما من عجب إذن أن يصبن بالأمراض دائمًا. ولو بقيت معهم، لكان من المحتمل أن أصل إلى نفس المصير بأن أصاب بهذه الحمى منهم.

غادرنا إلى القاهرة حيث توقعت أن أقابل زوجى بعد الراحة لمدة خمسة أيام فى بيت إحدى قريبات القنصل، ومكثت بالقاهرة شهرين أثناء ذلك الوقت الذى جاءوا فيه بعبد الله أمير الوهابيين أسيراً لدى الأتراك حتى يرسلوه إلى القسطنطينية لضرب

عنقه. وبعد سؤالى عن اليوم الذى سيصل فيه الأمير إلى القاهرة، أخذت مملوكًا فرَّ هاربًا من دنقلة وظل لبعض الوقت مع زوجى فى أبى سمبل. وصل المملوك الآن إلى القاهرة وانتهزت هذه الفرصة لمرافقته فى البلدة. انطلقنا مع بزوغ الفجر ودخلنا وخرجنا من تلك المدينة حتى تملك منا التعب، ولأن كل عربى يروى لنا رواية مختلفة عن الطريق الذى سيدخل منه الأمير، وأخيرًا سمعنا أنه وصل ثم صعد إلى القلعة، فلما وصلنا إلى هناك وجدنا أنه لم يصل بعد. ذهبنا إلى أحد المقاهى التى تطل على البوابة بأكملها، وبعد الانتظار قرابة الساعة وشرب القهوة والتدخين، عرفنا أخيرًا أنه مقيم فى بيت كاخيا بك حيث اجتمع كل الأتراك هناك لرؤيته، وعندئذٍ فقدت كل أمل فى رؤيته. إلا أننا انطلقنا مرة أخرى للبحث عنه، لكننى عندما وصلت إلى بيت كاخيا بك توقفت عن السير حينما رأيت عددًا من الأتراك وشعرت بأن الخوف يتسرب إلىَّ لأنهم مختلفون تمامًا عن العرب وأحسست بشىء من الخجل من الدخول. وفى النهاية سألت المملوك عن الإجابة التى سيردّ بها إذا سأله أى أحد عنى. فردَّ قائلاً إنه سيخبرهم بأننى مسلمة إنجليزية. ارتديت ملابس المماليك واستجمعت كل ما أمكننى من شجاعة، لكننى شعرت بشىء من عدم الارتياح خوفًا من أن يكتشف الأتراك أننى امرأة، لو لم أخطئ التقدير فلن يتحرشوا بى، لكننى سأثير حاسة الفضول لديهم.

مضيت خلال فناء واسع، ثم دخلت حجرة صغيرة حيث كان الأمير عبد الله جالسًا يبدو عليه التعب الشديد وفهمت أنه كان مريضًا فى الطريق إلى هنا. وأرسل الباشا عربته لتسير به بعض الطريق، غير أنهم عملوا على شد وثاقه بالأصفاد الحديدية. أظن أنه فى الثامنة والعشرين أو الثلاثين من عمره ويتميز بملامح معبرة ومريحة للغاية، ولعل الموقف الذى هو فيه جعله يبدو أكثر مما هو عليه بالنسبة لى. لم يتكلم إلى أحد. ولهذا الأمير أخٌ له ملامح فلاح سوقى، وظل يتحدث إلى كل تركى من الأتراك لاسيما إلى علماء الدين منهم طلبًا فى إقناعهم بأنه لم يحاربهم قط رغم أن أخاه دخل فى حرب معهم. وبعد أن أمضينا بعض الوقت فى النظر إليه، طلبوا من الجميع الخروج لإتاحة مكان للآخرين. وخرجت من المكان بشجاعة أكبر مما دخلت به وسعدت كثيرًا لإرضاء فضولى بهذه السهولة.

بعد أن انتظرت شهرين فى القاهرة، مع تقديرى أن زوجى بحاجة لبعض الوقت قبل أن يستطيع العودة، قررت البدء فى رحلة ثالثة إلى طيبة يصحبنى فيها المملوك سالف الذكر. ذهبت إلى بولاق وحجزت قاربًا صغيرًا به قمرتين صغيرتين أحدهما للأمتعة والثانية للنوم فيها ودفعت مقابلها ١٢٥ قرشًا. غادرت القاهرة يوم السابع والعشرين من نوفمبر ووصلت إلى أخميم يوم الحادى عشر من ديسمبر ليلاً. وبدء تساقط الأمطار الغزيرة المصحوبة بالرعد والبرق بعد غروب الشمس بساعة واحدة واستمر سقوط الأمطار طوال الليل كالسيول. تبلل الفراش والأغطية تمامًا وظلت مبللة هكذا لعدة أيام، ورغم توقف المطر، إلا أن المياه جاءت على شكل سيول من الجبال عبر الأراضى لتصب فى النيل على الجانبين لعدة أيام بعد ذلك. وصلت إلى الأقصر يوم السادس عشر وعرفت أن زوجى رحل إلى فيلة، وعبرت النيل واتخذت منطقة بيبان الملوك(*) مقامًا لى. وأخبرنى الرجال الذين تركناهم لحراسة المقبرة فى غياب زوجى عن الأمطار الغزيرة فى الليلة التى ذكرتها سلفًا، ورغم كل ما بذلوه من جهود، فإنهم لم يستطيعوا منع المياه من دخول المقبرة وحملت هذه المياه معها الكثير من الطين والوحل، كما تشققت بعض الجدران وسقطت بعض القطع الأثرية بسبب الحرارة المرتفعة والبخار الناتج عن الرطوبة. فلما سمعت بهذا ذهبت إلى المقبرة ولم يسعنا عمل أى شىء سوى أن نطلب من عدد من الصبية إخراج الطين الرطب خارج المقبرة لأن الجدران ستظل تتشقق طالما أن هناك رطوبة. وصل زوجى قبل الكريسماس أو عيد

(*) سأنتهز هذه المناسبة لأذكر حادثة صغيرة بما يعطى فكرة عن مدى شروع هؤلاء الناس فى الثأر والانتقام. ولعدم وجود أى أحد يعمل على حراستى غير الرجال، أخذت لهذا السبب فتاة صغيرة هى أخت زوج المرأة فى الأقصر التى كانت شديدة الحنق علىّ لرفضى زعامة الحزب الذى قادته ضد الزوجة الثانية لزوجها، وهى التى ظننت أنها أعطتنى شيئًا ليضر بصحتى على هذا الأساس. كنت متحيزة جدًا لهذه الفتاة الصغيرة وتحدثت معها بعد بضعة أيام من وصولى عن زوجة أخيها وأخبرتها أننى أعرف ما فعلته معى. رأيت أن ملامح الخوف بدت على وجه الفتاة، وأخبرتنى فى اليوم التالى أنها تريد الذهاب لرؤية أمها، لكنها لم ترجع مرة أخرى. وأعربت عن دهشتى لهذه الحادثة عندما أخبرتنى إحدى النساء المسيحيات بعدما قلته لها إن الفتاة خائفة من البقاء معى خوفًا من أن أنتقم منها بسبب ما فعلته بى زوجة أخيها كما جرت العادة على ذلك بينهم.

الميلاد بيومين وعبر النيل إلى الكرنك فى عيد القديس ستيفن لإلقاء نظرة على مواقع الأرض المختلفة التى بدأ التنقيب فيها أثناء محاولة لاغتياله. بعدها أصبت بحمى شديدة خبيثة أدت بى بعد هذا الرعب والخوف إلى الإصابة باليرقان أو الصفراء. أرسلت رجلاً كى يحضر لى بعض العلاج من أى طبيب فى أخميم، فعاد بعد خمسة أيام بحوالى نصف أوقية من حمض الطرطير[٦] tartar وملعقتين صغيرتين من الراوند[٧] rhubarb. ولحسن حظى أن تصادف وصول رجلين إنجليزيين أثناء رحلتهما للعودة من النوبة إلى القاهرة، فأعطيانى بعض الكلوميل[٨] calomel، وكانت هذه خدمة عظيمة لى لا زلت أذكرها بعظيم الشكر والامتنان.

بعد ذلك ودعنا طيبة وانطلقنا عائدين إلى القاهرة. وفى أثناء الرحلة أخبرنى المملوك بوجود مركب كبير تُقِلُّ أربع سيدات تركيات رجعن لتوهن من رحلة حجٍ إلى مكة وفى طريقهن الآن إلى القسطنطينية. توقفن لمدة ليلتين حيث كنا وأعربن عن رغبتهن فى رؤيتى عندما سمعن بوجود امرأة إنجليزية على مركبنا. وأرسلت المملوك إليهن حينما توقفنا ليلاً ليقول لهن إننى سأسعد بزيارتهن. وجاء الرجل الذى أُرْسِلَ معهن لمرافقتهن مع المملوك حتى يأتى بى. وأثناء صعودنا إلى ظهر المركب، طرق الرجل على الباب وأخبرهن بالتركية أننى أقف على الباب. فُتِحَ الباب بما يكفى لدخولى إلى جناح maish به حجرتان كبيرتان. ولدى دخولى وجدت السيدات جالسات على وسائد فاخرة وضعت فى أنحاء الحجرة. واستقبلننى بالكثير من الدماثة والأدب. جلست خادمتان أمام الباب الأوسط لملاحظة ما يجرى والاستعداد لتقديم القهوة والشربات والبرتقال، ورغم أنهن لا يفقهن كلمة واحدة فى اللغة العربية، كما لا أفقه أنا

(٦) الطرطير tartar: مستحضر طبى كان الناس يستخدمونه للمساعدة على القىء. ويستعمل حاليًا لمساعدة المرضى على تخفيف السعال من ثم استخراج البلغم والمخاط. ويتم تحضير هذا العقار من أكسيد الأنتيمون وطرطرات البوتاسيوم. وفى حالة استعماله بكميات كبيرة فإن تأثيراته السامة قد تكون عنيفة، ولهذا فإنه ينبغى ألا يستعمل إلا إذا نصح الطبيب بذلك. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

(٧) الراوند rhubarb: الرواند وهو عشب من الفصيلة البطباطية ذو منافع طبية. [المترجم]

(٨) الكلوميل calomel: مركب كيمائى زئبقى يستعمل مطهرًا أو مسهلاً. [المترجم.]

كلمة واحدة فى التركية، لكن النساء لا تعوزهن الحيلة إذا أردن الكلام. وقف المملوك خارج الباب كى يخبرنى بلغة عربية مختلطة ببضع كلمات من الإيطالية ما تقوله السيدات، وبهذه الطريقة تمكنًا من إقامة حوار لبعض الوقت. وبدأن يخبرننى عن الرحلة المقدسة التى قمن بها وعن التعب الذى لقينه. ثم أخذن فى السؤال عن المكان الذى أتيت منه لأن المملوك أخبر رجالهن بأننى ذهبت إلى الحج فى أورشليم. فقلن كم أنا محظوظة للذهاب إلى هناك لأن هذا المكان يعتبره الأتراك مدينة مقدسة على أساس اعتبارها إحدى مواضع الإسراء من مكة إلى جانب أنها تضم قبر كلٍ من النبى سليمان وداود. وأعربن عن عميق إعجابهن ودهشتهن عندما أخبرتهن أننى زرت قبريهما. ولكم كانت دهشتهن إذ كيف يعرف الإنجليز أى شىء عن الملك داود وسليمان ويعقوب ويوسف على أنهم ينتمون إلى المسلمين. وأخبرتهن أنهم ينتمون إلينا على حد سواء وأخذت أذكر لهن الكثير من الأسماء المختلفة المذكورة فى العهد القديم مثل آدم وحواء وقابيل وهابيل وإبراهيم وإسحاق وسارة، وأخبرتهن أن سارة هو اسمى وموسى وهارون وكل ما خطر ببالى من أسماء وقلت لهن إن المسيح ينحدر من سلالة داود. فبدأن هن بالسؤال أولاً عن مريم العذراء وعن مخلصنا وبدا عليهن السرور. يُكِنُّ المسلمون احترامًا عميقًا للسيدة مريم العذراء وكذلك لمخلصنا. فهذه الأماكن مقدسة بالنسبة لهم فيما عدا قبر مخلصنا، بل ويضحكون من ركوعنا فى الضريح لأنهم يقولون إن المسيح روحٌ وبالتالى لا يمكن لأحد أن يصلبه وأن رجلاً فى مثل شكله وهيئته صُلِبَ بدلاً منه. لم أرغب فى أن أبدو بمظهر الواثق بنفسه إذا ما حاولت معارضة غيرى أو إبداء معرفة أكثر منهم لأن معارفى محدودة للغاية، لكن ووفقًا لرواية على بك عن المسلمين فإن مخلصنا تشبه على هيئة يهوذا الذى صُلِبَ بدلاً منه. كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ ففى الإصحاح رقم ٢٧ من إنجيل متّى St. Matthew رقم ٥، ذهب يهوذا وشنق نفسه. ورفعت السيدات أعينهن وأيديهن فى تعجب، وسألننى إذا ما كنت أعرف القراءة ولأننى أعرف كل من ينتمى إليهم، فكيف لا أعرف محمداً. وأخبرتهم أنه رجل عظيم.

الطريقة الوحيدة لكسب ود هؤلاء الناس هى التغاضى عن أفكارهم المتعصبة قليلاً إذا أردنا الوصول إلى أى ميزة، فمن خلال خبرتى الضئيلة وجدت أن المسلمين من

أسهل الشعوب التى تتحول إلى المسيحية، ورغم أن البعض سينتقد هذا الرأى، فإننى أرى أن أكثر الأديان المناسبة لهم هى كنيسة إنجلترا البروتستانتية على أساس بساطتها لأن مزاجهم لا يتحمل أى نوع من التماثيل أو الصور (الأيقونات). ورغم أننى لا أؤيد مطلقًا فرض دينى على أى أحد، لكن ومع الجهود المبذولة لترجمة الكتاب المقدس المجيد إلى كل اللغات، فإننى أتمنى أن يُتَرْجَم كتاب الصلوات لوجه الله إضافة إلى كلا العهدين القديم والجديد، وليس هذا قسرًا أو فرضًا على أحد، وإنما متروك لحرية من يريد القراءة. وأعنى هنا تلك النسخ المترجمة إلى اللغات الشرقية.

سألننى عما إذا زرت استنبول أو القسطنطينية من قبل، فقلت إننى لم أزرها لكننى أتمنى لو استطعت. وأخذن فى مدح هذه المدينة قائلاتٍ بأنها أفضل مكان فى العالم، كما تمنين أن يريننى هناك.

حرصن طوال هذا الوقت على معرفة إذا ما كنت أضع أيًا من المجوهرات على رأسى تحت قبعتى، ولكى يعرفن ذلك خلعن المناديل المتعلقة بغطاء رأسهن حتى يريننى مجوهراتهن. ولاحظت شيئًا من الرقة واللطف فى تعاملهن معى خوفًا من إيذاء مشاعرى. ولم اندهش لرؤية ما لديهن من لآلئ وألماس، بل لعودتهن من رحلة إلى مكة دون أن يتعرضن للسطو والسرقة. صحيح أن محمد على ترك قواتٍ هناك فى ذلك الوقت، لكن الطريق تحفها المخاطر فى بعض الأحيان. رأيت الآن ما لديهن من مجوهرات وكانت هذه وسيلة لا بأس بها لرؤية مجوهراتى. لا جدوى من القول إننى لا ارتدى أى مجوهرات، لكننى أعرف كيف أرضى فضولهن. كل النساء مغرمات غرامًا شديدًا بالشعر الطويل، لكنهن قلما يتمتعن به لسبب أو لآخر، وكان شعرى أطول قليلاً عما اعتدن أن يرينه. أخبرتهن أننى لا أستطيع ارتداء أى شىء من متعلقات النساء لاضطرارى السفر فى ملابس الأتراك. ورأين على ما يبدو أننى على صواب وسألننى إذا كانت النساء فى إنجلترا يرتدين اللآلئ والألماس والأقراط والأساور وغير ذلك من الأسئلة. خلعت قبعتى وأريتهن شعرى، فقمن وجعلن يتحسسنه للتأكد من أنه شعرى الحقيقى وبدأن فى حوار طويل بينهن عليه.

كان من بين السيدات الأربع أم وابنتها التى تزوجت منذ بضع سنوات، لكنها لم تنجب أى أطفال الأمر الذى دعاها إلى زيارة الحرم المقدس فى مكة. وأريننى الكثير من الهدايا التذكارية التى جلبنها من هناك. أخبرننى أن أزواجهن يعملن كتبة لدى السلطان وأنهن سيذهبن إلى بيت خليل بك بمجرد وصولهن إلى القاهرة حتى يصلن إلى الإسكندرية، وتمنينا أن نرى بعضنا البعض كل ليلة إذا توقفنا فى نفس المكان، فإذا لم يتسنَّ ذلك ففى القاهرة. وافترقنا على مودة وصداقة على أمل اللقاء مرة أخرى، ولاشك أننى سأذكرهن بدعوتهن لى إذا قُدِّر لى الذهاب إلى القسطنطينية. أرسلت لهن بعض قطع من الصابون الفاخر من أورشليم فرحن بها فرحًا كبيرًا. وعند الوصول إلى القاهرة انشغلت كثيراً بالاستعداد لمغادرة ذلك المكان إلى الإسكندرية ولم أتمكن من زيارتهن. ورآهن المملوك هناك، فأرسلن معه رسالة يقلن فيها إنهن ذاهبات إلى الإسكندرية أيضاً لمدة يوم أو يومين وأنهن يتمنين مقابلتى فى ذلك المكان.

وعند وصولى إلى رشيد مكثت بها بعض الوقت، وبهذا ضاعت فرصة لقائى بأولئك السيدات مرة أخرى. قرر زوجى الذهاب إلى ليبيا ووفر لى الإقامة المريحة فى أحد البيوت فى رشيد يعود إلى أحد التجار الإنجليز بالإسكندرية الذى كان لطيفًا معه وسمح له باستعارة المنزل، وغادر زوجى متجهًا إلى ليبيا بعد توفير المخزون من الطعام الذى يشكل شراؤه خطرًا علىَّ لأن الطاعون بدأ يطل علينا بوجهه القبيح، كما عيَّن رجلاً ينادى علىَّ كل يوم لشراء اللحم والخبز والخضراوات وما إليها.

شاركتنى الصحبة فى سجنى الظباء والخراف والماعز والدواجن. كما جمعت عدداً كبيرًا من الحرباوات، لكننى لم أتمكن أبداً خلال فترة تجربة استمرت خمسة أشهر أن أجعلها تعيش أكثر من شهرين. يعمد العرب فى الوجه البحرى عند صيد الحرباء على القفز فوقها أو رشقها بالحجارة أو ضربها بالعصى مما يجرحها كثيراً. أما النوبيون فإنهم يستلقون بهدوء على الأرض حتى تهبط الحرباء من فوق أشجار النخيل فيمسكونها من ذيلها ويثبتون عصا فيه حتى لا يتعرض جسمها لأى إصابة.

لست أسعى إلى وصف الحرباء بأكثر مما تمكنت من ملاحظته بنفسى، فتلك الحيوانات ظلت معى لعدة شهور. ففى المقام الأول، تتميز تلك الحيوانات بشدة العناد

مع بنات جنسها ولا ينبغى أبدًا حبسها معًا لأنها تأخذ فى عض ذيول وأرجل بعضها البعض. وللحرباء أنواع ثلاثة تتسم ألوانها بالغرابة والتميز - فعلى سبيل المثال - أكثر الأنواع شيوعًا هى بوجه عام الحرباء ذات اللون الأخضر أى أن الجسم كله أخضر تحدده - فى حالة هدوئها - خطوط سوداء وصفراء منتظمة بديعة الجمال على الجانبين كأنها مرسومة. وهذا النوع متوفر بكثرة ولا يتمتع بأى لون آخر غير الأخضر الفاتح أثناء النوم أو الأصفر الباهت للغاية أثناء المرض. لم يبقَ لى من حوالى أربعين حرباء كانت لدىَّ فى العام الأول فى النوبة سوى واحدة وهى حرباء صغيرة الحجم جدًا من النوع الثانى الذى يتميز بالخطوط الحمراء. عاشت إحدى الحرباوات معى ثمانية أشهر واعتدت على أن أثبتها معظم ذلك الوقت على زر معطفى، كما اعتادت هى على الاسترخاء على كتفى أو رأسى. لاحظت أننى لو حبستها فى غرفة لبعض الوقت، فإنها تعمل على استنشاق الهواء إذا ما وضعتها فى الهواء الطلق، ولو وضعتها على بعض نبات السُّمْسَق فإن له عليها أروع تأثير على الفور حيث يتحول لونها إلى أزهى ما يكون، ولعل سبب ذلك يعدّ لغزًا بالنسبة للكثير من الناس. فإذا لم يتغير لون الحرباء إذا حُبِسَت فى البيت، إلا حينما أخرجناها إلى حديقة ما، فربما يعزى تغير ألوانها إلى رائحة النباتات، لكن فى حال وجودها فى البيت، فإننا نلاحظ أنها تغير لونها كل عشر دقائق، فأحيانًا تتخذ اللون الأخضر الصريح، وفى أحيانٍ أخرى تظهر كل ألوانها الجميلة، أما فى حالة سَوْرة الغضب، فإنها تتحول إلى اللون الأسود الداكن وتنفخ نفسها لتصبح كالبالون لتتحول من واحدة من أكثر الحيوانات جمالاً إلى أشدها قبحًا.
صحيح أن الحرباء شديدة الغرام بالهواء الطلق، فإذا وضعتها عند أحد النوافذ حيث لا مجال لرؤية أى شىء، فما أسهل أن ترى المتعة التى تشعر بها؛ فتبدأ فى ابتلاع الهواء ويصبح لونها أكثر لمعانًا. وأظن أن تغير لونها راجع بدرجة كبيرة إلى الحالة المزاجية التى تعتريها، كما أن أتفه الأشياء يمكنها أن تؤدى بها إلى حالة مزاجية سيئة، فلو حاولت أن تعترض طريقها أثناء مرورها فوق الطاولة لتحولها إلى طريق آخر، فإنها لن تغير الطريق وستصر على ذلك فى عناد شديد، أما إذا فتحت فمك لها فإنها تستشيط غضبًا وتأخذ فى الدفاع عن نفسها بالانتفاخ والتحول إلى اللون الأسود، بل وتصدر

فحيحًا كفحيح الأفاعى فى بعض الأحيان، لكن ليس بصورة متكررة. كانت الحرباء الثالثة التى أحضرتها معى من أورشليم أكثر الحرباوات تميزًا من بين كل ما اقتنيت، فطبعها إذا جاز التعبير يتسم بشدة الدهاء والخبث. ولا تنتمى هذه الحرباء إلى الفصيلة ذات اللون الأخضر، بل إلى فصيلة ذات لون كئيب مائل إلى البنى ولم تغير هذه الحرباء لونها سوى مرة واحدة خلال شهرين. اعتدت عند وصولى إلى القاهرة على أن أجعلها تزحف فى الغرفة وفوق الأثاث. وأحيانًا تبدأ فى التفكير - إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً - لتختبئ منى لكن فى مكان تستطيع أن ترانى منه، وفى أحيان أخرى تعمد عند خروجى أو دخولى إلى الغرفة إلى أن ترقق من نفسها بدرجة تجعلها تقريبًا على مستوى أى سطح تتواجد عليه، وبذلك لا أتمكن من رؤيتها. وخدعتنى هذه الحرباء كثيراً. فذات يوم افتقدتها لبعض الوقت وتصورت أنها مختبئة فى مكان ما فى الغرفة، لكننى ظننت بعدما بحثت عنها دون جدوى أنها خرجت من الغرفة وهربت. وأثناء المساء وبعد أن أضأنا الشمعة وذهبت إلى سلة ذات يد، رأيت الحرباء هناك، لكن مع اختلاف لونها اختلافًا كليًا عن أى حرباء رأيتها من قبل؛ فالجسم كله والرأس والذيل بنى مع بقع سوداء، وكذا بقع بديعة الجمال من اللون البرتقالى الداكن حول البقع السوداء. وشعرت بلا شك بكثير من السعادة، لكن ألوانها اختفت حينما أقلقتها على العكس من باقى الحرباوات، وبعد هذه الحادثة جعلت عادتى أن أنتبه إليها أول شىء فى الصباح فى الوقت الذى ترى فيه نفس الألوان. وبعد ذلك بفترة من الزمن، تمكنت الحرباء من الهرب من غرفتى وأظن أنها خرجت إلى أحد الحدائق القريبة. أحسست بالغيظ الشديد لدرجة أننى كنت سأرصد عشرين دولاراً لاستعادتها مرة أخرى، رغم أنها لم تكلفنى أكثر من ثلاثة بنسات لعلمى أننى لن أتمكن من العثور على أى حرباء مثلها، وفعلاً بعد ذهابى إلى رشيد رأيت ما بين خمسين إلى ستين حرباء كلها خضراء وصفراء وسوداء، لكن تعرضها للكثير من الإصابات من جراء صيد العرب لها أدى إلى نفوقها بعد شهر أو ستة أسابيع. والحرباء من الحيوانات التى يصعب قتلها للغاية. أعددت قفصين مقسمة إلى أقسام منفصلة بغرض أخذها معى إلى إنجلترا، ورغم أننى طلبت من العرب الذين اعتادوا أن يحضروها لى

الإمساك بها من الذيل، وجدت أنهم جرحوها جروحًا بالغة بأيديهم، فإذا ضغطت على جسمها مرة واحدة، فإنها لن تعيش مطلقًا أكثر من شهرين. ومن السهل رؤية أماكن الإصابات أثناء نومها ليلاً نظرًا للونها الفاتح جدًا أثناء نومها، فإن الجزء المصاب سواء على الجسم أو الرأس من العظم يبدو شديد السواد رغم أن لونها الأخضر قد يحول دون رؤية الإصابات بوضوح. وتعتمد الحرباء فى طعامها أساسًا على الذباب ولا تموت الذبابة فور أن تبتلعها الحرباء لأننى عندما أخذتها ووضعتها على يدى شعرت وبسهولة بطنين الذبابة داخل فمها بسبب الهواء الذى يستنشقونه داخلها، فتنتفخ كثيرًا لاسيما عندما تريد أن تقفز إلى ارتفاع كبير بأن تملأ نفسها كالبالون وعند هبوطها لا تصاب بأى أذى سوى الفم الذى يصاب برضوض بسيطة لأنه أول ما يلامس الأرض منها. وفى بعض الأحيان لا تشرب الحرباء لمدة تتراوح ما بين ثلاثة وأربعة أيام، لكنها إذا أخذت فى الشرب فإنها تستمر لمدة نصف ساعة تقريبًا. أمسكت كأسًا فى يدى فى الوقت الذى أراحت فيه الحرباء مخالبها الأمامية على حافته، بينما تريح مخالبها الخلفية على يدى. كما تقف منتصبة على أقدامها أثناء الشرب، وترفع رأسها لأعلى كالطيور. وتخرج الحرباء لسانها من فمها بطول جسمها لتمسك بالذبابة على الفور ويرجع ثانيةً إلى فمها كالزنبرك. كما تشرب حساء لحم الضأن أيضًا وعرفت ذلك حينما وضعت طبقًا من الحساء والأرز على الطاولة حيث توجد، فذهبت إلى الطبق فلما وصلت إليه بدأت الشرب وحاولت تناول بعض الأرز بدفعه بفمها نحو جانب الطبق الذى حال بينه وبين الحركة ووضعته فى فمها بطريقة شديدة الصعوبة والغرابة.

طلب أحد أساتذة التاريخ الطبيعى عندما كان فى إيطاليا إرسال اثنين من هذه الحرباوات من الساحل البربرى، لكنهما لم يعيشا طويلاً وشرحهما وصاغ فكرته عن تغير لونها بأن ذلك مرجعه إلى وجود أربع طبقات من الجلد الرقيق للغاية مما يؤدى إلى تغير ألوانها. وينوى هذا الأستاذ نشر أفكاره قريبًا. ربما كان ذلك هو السبب، لكننى على يقين تام ومهما كانت النتائج أن ألوانها المختلفة غريبة ومتميزة ومستقلة عن بعضها البعض بل وعن أنفسها. ويمكننى التدليل بالمزيد من التعليقات، ونظرًا لافتقادى القدرة على شرحها، فإننى اكتفى بالوصف الموجز الذى أسلفته عن هذه الحيوانات.

عندما أتيحت لى الفرصة لتغيير الرجل الذى يشترى لى الطعام والشراب، أشار الناس علىَّ برجل آخر وهو يهودى. ورأيت أننى لو استطعت الحصول على بعض نسخٍ من الكتاب المقدس من القنصل البريطانى فى الإسكندرية، فإننى سأتمكن عن طريق هذا الرجل من توزيع بعضها بأن أعده بربح، ومن المعروف أن هؤلاء الناس لا يرفضون المال إذا استطاعوا إليه سبيلاً. كتبت إلى الإسكندرية طلبًا لبعض النسخ وطلبت من مستر لى Mr. Lee أن يوضح لى الوسيلة التى يرغب المجتمع فى أن تُتَّبَعَ لتوزيعها نظراً لجهلى التام بها. وجاءت الإجابة كما يلى: "أما بالنسبة للمال، فإن هذا الشأن آخر ما نهتم به" تاركًا الأمر كله لى. وأمرت اليهودى بأن يذهب إلى كل المسيحيين ويخبرهم بأمر الكتب التى أحضرتها. وفى ذلك الوقت كان الطاعون عنيفًا بالخارج، ولم يكن من المهام اليسيرة أن تجد طريقة لتوزيع نسخ الكتاب المقدس دون خطورة أن تصاب بالعدوى نظراً لأن الورق قابل لنقلها بسهولة. وطلب أول مسيحى يأتى إلىَّ أن يرى النسخة، فلابد للمرء أن يفكر كثيراً قبل أن يقرر إنفاق مبلغ ضخم كثلاثين قرشًا أو ثلاثة دولارات. جلست عند أعلى الدَّرَج وصعد هو بعض السلالم ووقف بالقرب منى بما يسمح له بالقراءة وأنا أقلب الصفحات ثم اشتراه بعد الكثير من الجدل، وحاول التقليل من قيمته على أمل الحصول عليه بسعر أرخص كما هى العادة فيما يتعلق بالبيع والشراء. وطلبت من هذا الشاب أن يخبر أصدقائه عن المكان الذى يمكن منه الحصول على نسخ أخرى، إلا أن هذا من أجل المحبة بين المسيحيين بعضهم البعض، وكاد الفخر الذى شعرت به لكونى الوحيدة التى تمتلك هذا الكتاب القيم أن يتحول إلى فشل لخطتى، لولا اليهودى الذى وعدته بأن أعطيه بقشيشًا فى حال بيع كل النسخ. أما الرجل الثانى فهو كاتب أو مشرف على مصنع الكتان وأخذ خمس نسخ. شعرت بكثير من الرضى عن نجاحى، فهذه ست نسخ من أصل ثمانية. وفى نفس اليوم الذى أخذ فيه هذا الرجل نسخته من الكتاب المقدس إلى بوابة منزل الوالى كما هى العادة هناك، ورآه يقرأ فى هذا الكتاب القيم، فطلب منه أن يخبره عن مضمونه وسأله أن يلقى نظرة عليه. فقال له بأن يقرأ بعضًا منه والظن أنه قرأ تلك الأجزاء فى العهد القديم التى يعرف أن الأتراك على دراية بها. واستفسر عن المكان الذى حصل منه على هذه

النسخة، فأخبره الرجل من بعض الإنجليز المقيمين فى رشيد، فأرسل إلى سنيور لينزا Signor Lenzza وكيل أعمالنا هناك، وطلب منه الحصول على نسخة وأرسل إليه ثلاثين قرشًا ثمنًا لها. أما النسخة الأخرى المتبقية بعتها إلى أحد الأقباط. ولو كان الأمر متعلقًا بأى سبب آخر، لما تحملت فى صبر الإهانات المقيتة التى يتعرض لها أى إنسان يعمل على بيع الأشياء إلى هؤلاء الناس الذين يعتقدون بطبيعتهم أنك تبيع لهم من منطلق المصلحة أو الربح. وتعرضت للإهانة البالغة من آخر شخص بعت له على وجه التحديد، لكن بهذه المناسبة لم أعبأ به. وأخبرنى الجميع أن بعضًا من أصدقائهم اشتروا النسخة بدولارين بالإسكندرية، لكننى حين رأيت حرصهم على اقتنائها، اضطررت للتمسك بمطلبى الأول وهو ثلاثين قرشًا رغم كل ثرثرتهم. ولأننى إنجليزية، أردت أن أصوغ مبدأ يعرف العرب الذين يتعاملون معى من خلاله أن كلمتنا واحدة، فعندما يعرفون أناسًا يتصفون بالدقة فى تلك النقطة، فإنهم سيعاملونهم بقدر أكبر من الاحترام والثقة فى أى تعامل تجارى معهم فى المستقبل.

بعد بيع كل النسخ، أرسلت إلى مستر لى طلبًا للمزيد وأخبرته عن السبب الذى دعانى إلى توزيعها حينما أرسل إلىَّ بالرد التالى: "تتراوح تكلفة نسخة الكتاب المقدس من خمسة وأربعين إلى خمسين قرشًا، لكن لأن الغرض الأساسى هو توزيع هذه النسخ، فيمكن التصرف فيها بسعر ثلاثين قرشًا، إذا تعذر الحصول على مبلغ أكبر، فهناك بعض الناس القادرين على الدفع أكثر من غيرهم". وسأرجع إلى من يعرفون العرب أو الأقباط حقًا ليقولوا لنا إذا كان من الممكن أن يحدث هذا فعلاً فى بلد كهذا أى أن يدفع شخص أكثر من شخص آخر. ولماذا لم يخبرنى بهذه المعلومة فى الخطاب الأول عندما طلبتها منه؟ أعترف أننى شعرت بالغيظ فى تلك اللحظة. فإذا أخبرت أيًا من المسيحيين العرب أن الأوروبيين يوزعون تلك الكتب بدافع الإنسانية والمحبة بين الأخوة ونشر كلمة الرب وأنهم يحصلون عليها بأقل من سعر التكلفة من منطلق المحبة بين المسيحيين، فإنه يجد ذلك أمرًا يستعصى على الفهم، فهب أن أحدًا شرح هذا المبدأ وهو أن العرب الأكثر ثراء من غيرهم لابد أن يدفعوا أكثر ثمنًا للنسخة نظرًا لبيع النسخ للعرب الفقراء بأقل من سعر التكلفة، فإن هذا الشرح والوعظ سيذهب أدراج

الرياح، بل سيحول ذلك وبدرجة كبيرة توزيع نسخ الكتاب المقدس لأن هؤلاء الناس سيظنون أننا نريد أن نفرضه عليهم. ولو استطعنا إنشاء مدارس وفقًا لنفس المبدأ كما هو الحال فى الهند حيث الالتزام بالأخلاقيات، فإننا سنحصد ثمرة ترجمة الكتاب المقدس المبارك. لكن من المؤسف أن أهالى مصر من المسيحيين غير ملتزمين أخلاقيًا على الإطلاق، وأنا لا أرى أى أمل فى تحسن هذا الوضع وهم خاضعون تحت الحكم التركى، فالقدوة السيئة أم الشرور جميعًا.

أرسل مستر لى نسخًا أخرى من الكتاب المقدس وبدأت أفقد همتى وحماسى لثقتى بأننى لن أستطيع بيع النسخة بأكثر من ثلاثين قرشًا لأنها لم تكن تباع بمثل هذا السعر المرتفع من قبل. لم أبعْ إلا نسختين وهو ما وعدت به ثم أعدت الباقى.

كان نبات العشور oshour الذى ذكره نوردن Norden وجاء ذكره مؤخرًا على لسان الشيخ إبراهيم أثناء رحلتنا الأولى إلى النوبة فى أغسطس ١٨١٦ فى أحسن حالاته. واندهشت عندما فحصت واكتشفت النسيج الناعم (الحريرى) من الداخل، فيمكن الاستفادة من هذا النبات إذا ما زُرِعَ بطريقة سليمة. أما الثمرة فأحجامها متباينة، رأيت البعض منها فى حجم بيضة النعام أو أكبر حجمًا، كما أن قشرتها الخارجية مليئة بعصارة لزجة شبيهة باللبن، ويوجد القرن الذى يحتوى على الحرير فى المنتصف، وتفصله عن القشرة الخارجية خيوط ليفية تلتف حولها. فإذا قطعت أحد الفروع، فإن العصارة تتدفق بكميات كبيرة. وهذا النبات لا يُزْرَع على الإطلاق. ومن خبرتى القليلة التى اكتسبتها أصبحت على يقين بأنه سينتج غزلاً جيدًا. جمعت بعضًا من الحرير وكذلك بعض القرون الداخلية. وأحسست أننى مهتمة للغاية بهذا النبات لاسيما أن المملوك الذى ذكرته سلفًا أخبرنى حينما رأى مدى شغفى به أن الناس فى دنقلة يصنعون كل حبالهم من فروع هذا النبات وأنها أقوى بكثير من الحبال المصنوعة من سعف النخيل. وبناء على وصفه، فإنهم يصنعون الحبال منه بنفس الطريقة التى نستخدمها مع نبات القُنّب hemp. ويوجد هذا النبات فى سوريا والوجه البحرى والقبلى بمصر والنوبة واليونان على أكثر تقدير. وأظن أنه سينمو بشكل ممتاز فى مالطة نظرًا

لعدم احتياجه تربة جيدة، كما رأيته ينمو بالقرب من الجبال والأراضى ذات التربة الرملية حيث تتوافر المياه العذبة. ورغم أننى لم أذهب إلى الجزر الأيونية(٩) Ioinian Islands، فإننى أرى أنه سينمو بشكل جيد هناك. وينتج هذا النبات من الغزل فى حالته الطبيعية أكثر بكثير مما ينتجه نبات القطن، وعصارة هذا النبات لها تأثير قابض. أنا أرى أن هذا النبات لا ينبغى أن يُجْمَع قبل أن يجف تمامًا لأن هذا من شأنه أن يعطى قوة ومتانة للحرير. ويتطلب النسيج بعض المعالجة بعد إخراجه من القرون لأن أقل قدر من الهواء يفسده ويدخل فى العيون.

(٩) الجزر الأيونية Ioinian Islands: هى مجموعة من الجزر تقع فى البحر الأيونى وتتبع اليونان. وتتألف هذه المجموعة من أربع جزر كبيرة وعدد من الجزر الصغيرة. وتقع على مسافة من الساحل الغربى لبر اليونان. وتبلغ مساحة هذه الجزر فى مجموعها ٢٣٠٧ كم٢، وعدد سكانها نحو ١٨٣,٠٠٠ نسمة. هذه الجزر كثيرة التلال ولكنها نضرة كثيرة الخضرة. مناخها رطب ولطيف فى الشتاء وجاف وحار فى الصيف.

تتصدر الزراعة والسياحة قائمة الفعاليات الاقتصادية فى الجزر الأيونية. المحاصيل الزراعية الرئيسية هى الحبوب والزيتون والكروم. ومما يشجع على جذب السياح المبانى التاريخية وأنواع الرياضة المائية، وليس فى الجزر سوى أنشطة صناعية ضئيلة تنحصر فى إنتاج المنسوجات وتعليب الأغذية.

أدت هذه الجزر دورًا نشطًا فى الحياة الاجتماعية والسياسية لليونان القديمة. وفى القرن الثالث قبل الميلاد وقعت تحت الحكم الرومانى. وفى عام ٣٥٩م، أصبحت جزءًا من الإمبراطورية البيزنطية. وابتداء من القرن الرابع عشر، وقعت هذه الجزر تدريجيًا تحت سيطرة البندقية. وقد ظلت الجزر الأيونية جزءًا مهمًا من إمبراطورية البندقية الاستعمارية حتى سقوط جمهورية البندقية عام ١٧٩٧م. وعندها بدأت فرنسا حكمها لهذه الجزر. ولكن بريطانيا استولت على الجزر عام ١٨١٥م. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

ملحق

يضم شرح

بعض الرموز الهيروغليفية الأساسية(*)

بتصرف من مقالة بعنوان مصر فى ملحق بدائرة المعارف البريطانية
مع حواشٍ إضافية

(*) يضم هذا الملحق المعلوم الأبجدى واللغوى الذى كان معروفًا حتى زمن المؤلف، ومن المفهوم أن علم المصريات قد تطور بعد ذلك تطورًا كبيرًا. [المراجع]

ملحق

يضم شرح بعض الرموز الهيروغليفية الأساسية بتصرف من مقالة بعنوان مصر فى ملحق بدائرة المعارف البريطانية مع حواشٍ إضافية.

من المؤسف حقًا أن رجالاً من وطننا رغم كل هذا النشاط والحماس الذى أبدوه، سواء الرحالة منهم أو المقيمون فى مصر، فإن انتباههم لم يتحول بَعدُ إلى موضوع يفوق غيره فى أهميته بسبب التقدم العظيم فى معرفتنا بالتاريخ والأدب القديم لهذه البلاد وهو اكتشاف الأجزاء المفقودة أو بعض النسخ المكررة من حجر رشيد Stone of Rosetta" ثلاثى اللغات" أو ثلاثى الأبجديات، وهو أثر تمكنًا من خلاله تكوين فكرة عامة عن طبيعة ومضمون أى رمز هيروغليفى معين باقتفاء الدراسات التى توفر عليها مؤلف مجهول بدرجة لم يتوقعها أحد، وقدم شرحها إلى جمعية الآثار ونعنى به مستر راوز بافتون Mr. Rouse Boughton إلى جانب نسخ من بعض بقايا المخطوطات التى جلبها هذا الجنتلمان معه من مصر. ("علم الآثار"، مج. ١٨، ص ٦١ , "مجلة المتحف"، رقم ٦ و٧). أحرز كل من مستر دى ساسى Mr. de Sacy ومستر أكربلادMr. Akerblad بصفة خاصة بعض التقدم فى التعرف على معنى الأجزاء المتعددة من النقش الثانى من الحجر، لكنهما لم يضعا النقش المقدس فى اعتبارهما، وتُرِكَ هذا الأمر للدراسات البريطانية للاستفادة الدائمة من أثر ظل بلا فائدة رغم أنه رمز فخر ومجد للإنجليز....

يظهر من كتلة أو عمود البازلت الأسود الذى عثر عليه الفرنسيين أثناء الحفر فى أحد المواقع فى رشيد ويستقر الآن فى المتحف البريطانى بقايا ثلاث أبجديات متباينة، وتنتهى المعلومات عند الأبجدية الأخيرة وهى باللغة اليونانية بأن القرار صدر باستخدام ثلاث أبجديات مختلفة وهى الأبجدية المقدسة وأبجدية البلاد والأبجدية

اليونانية. ولسوء الحظ أن السواد الأعظم من الأولى مفقود، كما تعرضت بداية الثانية ونهاية الثالثة للتآكل؛ من ثمَّ ليس لدينا أى نقاط اتفاق محددة يمكننا الانطلاق منها فى محاولاتنا لفك شفرة الحروف المجهولة. ولا تزال الأبجدية الثانية التى يحسن بنا أن نَصِفَها بالكلمة اليونانية enchorial وتعنى حرفيًا الحروف المحلية أو "المتعلقة بالبلد" فى حالة ممتازة بما يكفى – رغم ما يعتريها من تشوه قرب البداية – للسماح لنا بمقارنة الأجزاء المختلفة مع بعضها البعض، ومع الحروف اليونانية وبنفس الطريقة التى كنا سنتبعها لو كان الحجر كاملاً. وبالتالى، فإننا لو نظرنا نظرة فاحصة إلى الأجزاء ذات الصلة – كلٌ فى موضعه – بالنسبة لنصين مكتوبين باليونانية تظهر فيهما كلمتى "الإسكندر" Alexander و"الإسكندرية" Alexandria ، فإننا سرعان ما ندرك مجموعتين متمايزتين من الحروف تشبه بعضها البعض ومن ثمَّ نرى أنها تمثل هذين الاسمين. وأول من أدلى بهذه الملاحظة هو مستر دى ساسى فى خطابه المتعلق بهذه الأبجدية. هناك مجموعة صغيرة من الحروف تتكرر بشكل ملحوظ فى كل سطر تقريبًا، وهى إما نهايات ولواحق أو أداة شائعة الاستخدام، ولذلك لابد من عدم إطلاق الحكم حتى يأتى الحرف فى موضع حاسم وبعد معرفة معانى بعض الكلمات الأخرى، عندئذٍ سيسهل معرفة معنى الحرف وهو حرف "الواو" (واو العطف) and. تكررت المجموعة المتميزة الأخرى من الحروف تسع وعشرين أو ثلاثين مرة فى الأبجدية المحلية أو الشعبية ولم نجد فى المقابل هذا التكرار فى اليونانية فيما عدا كلمة "ملك" king بمشتقاتها وتكررت حوالى سبع وثلاثين مرة. وهناك مجموعة رابعة من الحروف تكررت أربع عشرة مرة فى الأبجدية الشعبية بما يتفق بعض الشيء مع اسم "بطليموس" Ptolemy الذى تكرر سبع مرات فى اليونانية، وبوجه عام فى النصوص ذات الصلة بتلك النصوص فى الأبجدية الشعبية حسب موضع كل منها. وبالمقارنة، فإننا تعرفنا على اسم مصر رغم تكراره فى الأبجدية الشعبية بصورة أكبر بكثير من تكراره من الأبجدية اليونانية التى تستبدله بكلمة البلاد أو البلد فحسب أو تحذفها تمامًا. وبعدما توصلنا إلى عدد كافٍ من النقاط المشتركة، سنعمل فى الخطوة التالية على كتابة النص اليونانى فوق الشعبى بطريقة تظهر فيها الجمل والعبارات التى تأكدنا منها متفقة قدر الإمكان، ومن الواضح

حينئذٍ أن الأجزاء البينية من كل أبجدية ستظهر قريبةً للغاية من الجمل والعبارات ذات الصلة بالأبجدية الأخرى.

لابد فى أثناء هذه العملية من الإشارة إلى أن السطور فى الأبجدية الشعبية تكتب من اليمين إلى اليسار كما هى عادة المصريين القدماء حسبما أخبرنا به هيرودوت، ويشير تقسيم الكلمات والعبارات المختلفة بوضوح إلى الاتجاه الذى تُقْرَأ منه، ومن المعروف أن النقوش الهيروغليفية المميزة والمحفورة على كثير من الآثار تختلف فى اتجاه حروفها، فهى دائمًا ما تواجه يمين الرائى أو شِماله حسب الجهة التى تنظر إليها الصور الرئيسية فى الألواح، أما فى حالة عدم وجود ألواح، فإنها دائمًا ما تنظر إلى اليمين، ومن السهل بيان أنها تُقْرَأ دائمًا ابتداءً من الأمام وحتى نهاية كل صف. إلا أن المصريين القدماء على ما يبدو لم يكتبوا من الأمام إلى الخلف أو العكس كما هو الحال عند معظم الإغريق. لكن فى كلتا الحالتين كانت كل الحروف المستخدمة مقلوبة تمامًا فى هذين الوضعين المختلفين كما لو كنا نرى الحروف من خلال كوب زجاجى أو مطبوعة بالمقلوب كالأختام.

اكتشفنا فى النهاية بعد متابعة المقارنة بين الأبجديات وفق ترتيبها معنى القسم الأكبر من كلمات اللغة الشعبية أو المحلية، ولاحظنا من خلال نتائج الدراسة بعض الاختلافات الطفيفة فى شكل ونظام بعض أجزاء النقوش المختلفة والمشار إليها فى "الترجمة التقريبية" المنشورة فى "علم الآثار" Archaeologia و"مجلة المتحف" Museum Criticum...

لعل من المتوقع أن تفضى بنا الحروف الأخيرة من الأبجدية الشعبية التى تأكدنا من معانيها – رغم ضياع الجزء المقابل له فى اليونانية – إلى معرفتنا بالعبارات الأخيرة من الحروف الهيروغليفية المميزة التى ظلت على حالها دون أن يعتريها التآكل. لكن الاتفاق بين الحروف النهائية فى كلتا الأبجديتين لا يتسم بالدقة بأى حال من الأحوال، ولا يمكن التوصل إلى حل فى هذا الشأن إلا بافتراض أن الملك ذُكِرَ بالاسم فى الأبجدية الأولى، لكن لم يُشَرْ إلا إلى ألقابه فى الثانية. فى ظل هذا التباين الطفيف،

ومع العلم بأن اسم بطليموس ورد ثلاث مرات فى أحد النصوص باللغة الشعبية بينما لم يظهر فى اليونانية سوى مرتين، بدأنا فى تحديد هذا الاسم بين كلمات الأبجدية المقدسة الذى يتضح للعيان بمجرد النظر لأول وهلة على النقوش. فإذا لم يُؤَدِّ عدم الاتفاق فى تكرار ورود الاسم فى اللغتين إلى ضرورة البحث الطويل والمضنى كشرط لا غنى عنه لحل الكثير من هذا الغموض، فإننا توصلنا من خلال هذه الخطوة الجيدة إلى معيار سليم نوعًا ما للأبجدية المقدسة قياسًا إلى الأبجديات الأخرى، ويبدو الآن أن حوالى نصف سطور هذه الأبجدية – أى المقدسة – مفقودة تمامًا، أما ما تبقى منها فهو متآكل بشدة. ويمكن التوصل إلى معيار كهذا بطريقة أخرى وهى تحديد المواضع التى وردت فيها أكثر الكلمات تميزًا مثل "الإله" god و"الملك" king" و"الكاهن" priest و"الضريح" shrine على مسطرة مستقيمة فى الأجزاء الأخيرة من الأبجديات الأخرى وعلى مسافات متناسبة والمسافات الفعلية من النهاية ثم محاولة إيجاد الحروف المقابلة لها بين النقوش الهيروغليفية فى الأبجدية الأولى بتغيير ميل المسطرة حتى تتناسب مع كل الأطوال الممكنة لسطور تلك الأبجدية مع السماح دائمًا بنطاق معين من المرونة لتباين أطوال العبارات والتعبيرات الاصطلاحية المختلفة بين الأبجديات. انطلاقًا من هذه الخطوات لم يعد من الصعوبة التيقن من أن دلالة كلمات مثل "الضريح" و"الكاهن" تمثلت فى صور للأشياء المدلول عليها، ويبدو أننا توصلنا إلى نقطة البحث الدقيق حينما تصبح الكلمات معبرة تمامًا، وتمثل الأساس الصلب للمزيد من النتائج. ولا يزال من اليسير تحديد معانى كلمات مثل "الإله" و"الملك" من خلال موضعها بالقرب من اسم بطليموس...

أ. الآلهة

٢,١ دائمًا ما تظهر كلمة "الإله" God سواء فى النقوش على حجر رشيد أو فى الكثير من النقوش الأخرى على شكل حرف يشبه البَلْطَة التى ظهرت بشكل متكرر فى مدينة أبو كسلاح فى يد المحاربين، بل ووجدت بين الأسلحة الحديثة التى نقشها دينون

حفراً. وعادةً ما يستبدل هذا الحرف فى نصوص مشابهة تنتمى لمخطوطات مختلفة – أو فى المخطوطة نفسها – بصورة إنسان جالس أو واقف دون أذرع أو أقدام واضحة المعالم، له رأس إنسان أو رأس صقر أو باز، وفى بعض الأحيان يظهر الحرف منحرفًا عن الرسم السليم لمصطلح مجرد أو عام إلى جانب رؤوس الحيوانات المختلفة وفقًا لرسم الإله الذى يمثله الحرف. لكن يبدو فى نقوش حجر رشيد أن هذا الرمز هو الوحيد الذى يتناسب مع الآلهة بصفتها "القضائية" Judicial ، كما تكرر عدة مرات فى مصطلح "قانونى" lawful، ص ١٥١ . ولهذا التفسير أيضًا ما يبرره تمامًا من خلال شهادة بلوتارك Plutarch حيث "كانت تمثل القضاة judges نقوش لأشخاص بلا أيدى".

٣ . يبرز معنى "الإلهة" أو "الربة" Goddess من خلال البلطة أو الشخص الجالس بالإضافة إلى الخصائص الأنثوية على شكل نهاية أو لاحقة بوجه عام، لكن الحرف البسيط يشير فى بعض الأحيان إلى الآلهة والربات دون تمييز. ونلاحظ وجود شكلى نصف الدائرة وقطع الناقص oblique oval الذين يميزان الأنثى فى معظم أو كل أسماء الإناث على مختلف الألواح. يمكننا تمييز الخط المتعرج المتعلق بأسماء الإناث فى الأبجدية الشعبية على حجر رشيد فى نهاية كل من أسماء الإناث الخمسة التى وردت فى النقش. وعادة ما يظهر المقطع الدال على التأنيث كبادئة وهذا يتفق مع المقطع القبطى Ti الذى يميز الأنثى. لابد لنا من الإشارة إلى أن نصف الدائرة مسئول عن حرف T فى بعض المواضع الأخرى، ودائمًا ما يعبر عنه فى الخط المتصل الحرف الذى يطلق عليه أكريلاد T أو D وهو بالضبط الحرف T فى اللغة السريانية. الحية أو الأفعى المنتصبة وقوفًا رمز للألوهية وتوجد على التابوت الأخضر المسمى بمقبرة الإسكندر وكذلك فى غير ذلك من المواضع بدلاً من الحروف العادية الأخرى. وفى حالات نادرة، نجد أن نصف الدائرة تظهر دون شكل قطع الناقص oblique oval.

٤ . تتكون صيغة الجمع "الآلهة" Gods من تكرار الحرف ثلاث مرات أو عن طريق وضع ثلاث شرطات بعد الحرف أو قبله فى بعض الأحيان. وتتحد الشرطات فى النقش الشعبى على شكل خط متعرج، وتظهر بهذه الهيئة قبل الحرف الرئيسى وبعده، إلا أن

الخط الآخر أكثر استقامة من الخط الأول بوجه عام. أما المثنى فيعبر عنه تكرار الحرف مرتين فحسب.

٥ . عادةً ما تظهر الكرة المجنحة التى تبدو أحيانًا مفلطحة كالبيضة لكنها فى الغالب حمراء اللون تحلق فوق أحد الأبطال وتوجد بوجه عام على قمة بعض أبواب المعابد. وهناك كرة شبيهة بالأولى تتصل أحيانًا برأس وذيل أفعى تحمل رمز "الحياة" life وهو الحرف الشائع للتعبير عن أى من الآلهة. لذا ليس هناك اعتراض على النظر إلى هذه الصور باعتبارها ترجع إلى "أجاثوديمون" Agathodaemon أو "تشنوفيس" Chnuphis من بين الكُتّاب الإغريق. وأحيانًا ما نجد نفس الرمز فى أحد نصوص اللغة أو النقش بجوار الصورة؛ ومن ثَمَّ يمكننا التيقن من المعنى بشكل كبير .[إلا أن الحرف الصحيح الدال على هذا الإله فى اللغة الهيروغليفية هو صورة اليد التى تمسك بقضيب معوج]...

٦ . يرتبط الرمز الذى يطلق عليه فى الغالب "اسم" Hieralpha أو الحرف المقدس A فى حجر رشيد بالإله "بتاح" Phthah أحد الآلهة الرئيسية عند قدماء المصريين (أو الإله فولكان Vulcan عند الرومان). والثابت من خلال الكثير من المنحوتات الأخرى أن الشىء المقصود فى التصوير ما هو إلا محراث أو مجرفة لعزق الأرض، كما يخبرنا أويسيبياس (يوسيبوس) Eusebius نقلاً عن أفلاطون أن الإله فولكان عند قدماء المصريين يعتبر مخترع آلات الحرب والزراعة. وتستخدم قاعدة التمثال أو البكرة بدلاً من المحراث فى الكثير من النقوش الأخرى. يخبرنا هورابوللو Horapollo أن الإله فولكان يتمثل فى صورة خنفساء، كما يوجد المحراث على ثلاث جوانب من مسلة كيرشر المونتيكالية Monticoelian obelisk of Kircher والخنفساء على الجانب الرابع، لكن هورابوللو قلما يأتى بالرأى الصواب، فأسماء الآلهة المختلفة عادةً ما تتبدل على قمة المسلة نفسها، وليس هناك دليل قاطع على استبدال المحراث بالخنفساء كما هو الحال دائمًا عند قاعدة التماثيل. وتُستخدَم الخنفساء كثيرًا للدلالة على اسم أحد الآلهة الذى يحمل الخنفساء فوق رأسه أو يظهر على هيئة الخنفساء، وفى حالات أخرى تشير

الخنفساء إشارة واضحة إلى التوالد أو التناسل وهو المعنى الذى يعزى إلى هذا الرمز فى كل العصور القديمة، وبالتالى فمن الممكن أن يُستخدَم فى بعض الأحيان كمرادفٍ لبتاح باعتباره أبًا للآلهة. لا يوجد المحراث كاسم لشخص حقيقى إلا فى حالات شديدة الندرة، بل ويصعب تحديد الشكل الأساسى للإله فولكان عند قدماء المصريين حينما كانوا يعبدونه، لكنه ظهر على قرص لتمثال ردئ لحورس Horus ويرجع لمتحف بورجيا Borgian museum برأس بار ويحمل رمحًا، لكنه فى ذكر الطقوس العظيمة فى كتاب "وصف مصر" Déscription de l' Egypte، الآثار جـ ٢، لوحة ٧٢، عمود ١٠٤ يتمثل على هيئة شخص له رأس إنسان، وهذا تغير شائع للغاية فى بعض الحالات الأخرى بصدد هذين التمثالين رغم أن التغير لم يمتد ليشمل تبادل رؤوس الحيوانات مع بعضها البعض.

٧ . يمكننا التعرف على الإله "آمون" Ammon (أو الإله جوبتر Jupiter عند الرومان) من خلال مجموعة من الأدلة المختلفة رغم عدم امتداد أى خيط من خيوط الأدلة لمسافة طويلة. ويدل على هذا الإله تصوير لشخص برأس كبش سواء على التابوت الأخضر أو على المعبد فى فيلة Elephantine، ويظهر كذلك على شكل جرة ماء يصحبها أحيانًا وليس دائمًا طائر، إلا أن جرة الماء هذه تحولت بصفة دائمة الآن فى الخط المتصل فى المخطوطات إلى حرف يشبه حرف Z، ويرمز هذا الحرف فى النقش الشعبى على حجر رشيد إلى اسم الإله جوبتر؛ وهذه حقيقة تؤكد ما أورده كُتَّاب الإغريق الذين رأوا أن الإله جوبتر عند قدماء المصريين يمثله شخص له رأس كبش. عثر على تمثال مشابه فى إدفو أو أبوللينوبوليس ماجنا Apollinopolis Magna وإسنا أو لاتوبوليس Latopolis، والظاهر أن المعبد بإدفو كان مخصصًا لأمينوفيس Amenophis أو ممنون Memnon. ويبدو أنه كان يسمى "عاشق آمون" lover of Ammon أى "ميمون" Miamun وهو اسم لا يختلف كثيرًا عن "ممنون" Memnon.

٨ . يبدو أن المنجمين اللاتين اقتبسوا الشكل الفلكى الشائع للشمس من أساتذتهم فى مصر لأنه ليس من المرجح أن يعمد كل من قدماء المصريين واللاتين على

وضع نقطة عند مركز الدائرة دون أن يكون بينهما أى نوع من الاتصال، أما الدائرة وحدها كما ورد ذكرها لدى بعض الكُتّاب الإغريق فهى رمز الشمس. ويشير هذا الحرف إلى الإله "رع" Re أو Phre متبوعًا بقضيب مستقيم ويلتف فى الغالب حول الدائرة جسد أفعى ويتبعها غالبًا شكل بيضاوى وذراع. يتشابه الاسم الشعبى للشمس مع نظيره فى اللغة الهيروغليفية وفقًا للمخطوطات، كما تستخدم دائرة مشابهة ذات أشعة تخرج منها - رغم أن تلك الأشعة نادرًا ما تظهر فى خطوط مستقيمة (ملحوظة ١٦٠) - بمعنى "يلقى الضوء على" أو "يؤدى إلى اللمعان والشهرة"، كما لاحظ بعض الفرنسيين الذين أقاموا بمصر فى الكثير من المخطوطات وجود إشارة واضحة إلى الضوء...

٩ . يمكننا أن نرجع اسم "ريا" Rhea - دون أن نقع فى الخطأ - إلى شخصية نسائية تصحب الشمس على نحو شائع، وتتميز بالكثير من ألقابها رغم أن الدليل سيصبح قاطعًا لو وُجِدَ الاسم متصلاً بصورة الأم على لوحة ميلاد إيزيس. تتمثل هذه الشخصية على توابيت المومياوات بوجه عام وهى منشورة الجناحين وأحيانًا بلا أجنحة على ألواح أخرى، لكنها فى كلتا الحالتين تحمل دائرة فوق رأسها لترمز إلى الشمس. ولو نظرنا إلى التماثل فى الاسم الهيروغليفى فقط لترجمناه ليعنى زوجة أو أخت آمون.

١٠ . ليس الإله "أيوه" Ioh إله القمر من الآلهة التى يرد ذكرها كثيرًا، غير أنه من السهل ترجمة معنى الحرف من خلال شكله وكذلك من وجوده كجزء من كلمة "فم" فى موضع آخر. (رقم ١٧٩) وفى دندرة تصحب هذا الحرف صفة الرب أو الإله دون أى نهاية دالة على التأنيث وكذا فى عدد من نصوص الرسائل فى إحدى المخطوطات التى أرسلها مستر بانكس إلى إنجلترا، وهو ما يؤيد الرأى القائل بأن المصريين القدماء كانوا يعتبرون أيوه ذكرًا فى الأساطير ومذكرًا فى النحو. ومن المعروف أن الإغريق والرومان أحيانًا ما يجعلون مين Men أو لونوس Lunus مذكرًا رغم أن اسم الكوكب مؤنث، لكننا لسنا على يقين تام فى هذه المسألة لأن الحرف ليس مصحوبًا بأى نوع من التصوير للإله فى المخطوطات.

١١ . يرتبط الوصف التاريخى للإله "تحوت" Thoth (أو الإله هرميس Hermes عند الإغريق) باعتباره كاتب أو رسول أوزوريس ومخترع الكتابة بالشخص الذى يبدو على الدوام واقفًا أمام أوزوريس وهو يكتب بالقلم أو بالإزميل على لوح مربع أو مستطيل الشكل. كما يظهر بشكل دائم برأس طائر أبى منجل، وتمثل صورته واقفًا على مقبض اسم هذا الطائر باللغة الهيروغليفية لأن من المعروف أن أبا منجل هو رمز تحوت؛ وبالتالى فإننا نجد المقابل الهيروغليفى للحروف (ملحوظة ١٠٣) كثيرًا بين ألقابه. وتؤكد كل هذه الحالات الحرف الحقيقى الذى يمثله وهو ما توصل إليه زويجا Zoega وغيره بطريق الحدس والتخمين فقط. أما الاسم الشعبى فهو مشوه للغاية، إلا أن المخطوطات تبين حرفًا يمكن أن يكون بمثابة حلقة وصل وصيغة مختصرة أخرى من الاسم تنحرف عن الأصل شيئًا فشيئًا وهى ببساطة المرادف الشائع للريشة، ويبدو أنه يقصد بها الطائر كله أو لعلها مجرد إشارة للريشة التى عادةً ما نجدها بارزة عند نهاية المقبض. اكتشفنا أن تحوت هو أكثر الآلهة شيوعًا بعد أوزوريس فى الطقوس العظيمة، والراجح أن مومياوات أبى منجل التى وجدناها بكثرة إنما حُفِظَت باسمه. تتصل نصف الدائرة مع الشرطتين المائلتين تحت المقبض باللقب "عظيم وعظيم" فى حجر رشيد ذلك أن هذا الحرف يدل على الثنائية بوجه عام. وغالبًا ما يُستخدم السُلم مع ثمان شرطات وحرفين آخرين أيضًا كلقب بل وكمرادف لتحوت أحيانًا بما يعنى "موزع الثروات أو راعى القوانين الثمانية فى البلاد". فيخبرنا ديودوراس Diodorus أن القوانين الأساسية بمصر وُضِعَت فى ثمانى كتب.

١٢ . وجدنا اسم "أوزوريس" Osiris مقترنًا باللقب "مقدس" فى الغالبية العظمى من كل النقوش الأسطورية التى اكتشفت، ويمكننا من خلال هذه الحقيقة وحدها أن نستشف أنه لابد أن يكون الإله الرئيسى لمصر آنذاك. فإذا تعرفنا تمامًا على الأبجدية الشعبية فى حجر رشيد التى تتفق بدورها تمام الاتفاق والأبجدية فى المخطوطات بشأن صورة العين والعرش، فإنها – أى المخطوطات – تمدنا بذلك الجزء المفقود من الحجر الذى يشتمل على الاسم منقوشًا باللغة المقدسة. ويُلْحَق هذا الاسم أيضًا بوجه عام بالشخص العظيم الذى يوجد فى آخر كل المخطوطات تقريبًا وعلى توابيت

المومياوات وهو يحمل خطافًا وسوطًا أو مروحة يد التى تنتشر صورها الصغيرة المستقلة بذاتها بشكل كبير. نجد فى النقوش المنحوتة أن العين تسبق العرش عامةً؛ أما فى الكتابة المتصلة على المخطوطات وعلى توابيت بعض المومياوات التى ترجع إلى عصور لاحقة، فإن العين أحيانًا ما تأتى بعد العرش. ربما توصل بلوتارك Plutarch إلى المعلومة الصحيحة بخصوص هذا الحرف، لكنه أطلق عليه خطأً اسم "العين والصولجان" – وهو خطأ وقع فيه نظرًا لاعتماده على الذاكرة، ولم يُعترَف بهذه الصيغة كاسم لأى إله رغم ورود رمز شبيه به فى بعض الألواح. تتميز الصورة التى تمثل أوزوريس برأس إنسان أو باز غير محددة المعالم، لكن ليس أيًا من رؤوس الحيوانات الأخرى. وأحيانًا ما تُستخدَم الدمعة، ملحوظة ١٠٠، أيضًا لترمز إلى أوزوريس وكذلك أبيس Apis ومنيوس Mneuis اللذين يعتبران صورًا منه. يظهر الاسم دائمًا على المبانى الأثرية بكل أنواعها كلقب للشخص المتوفى، وهذا هو السبب لتكرار وروده بهذه الشكل.

١٣ . يمكن التعرف على "آريوريس" Arueris فى الأساطير المصرية القديمة (أو الإله أبوللو Apollo عند الرومان) من خلال المقارنة بين مختلف النقوش والجزء الخاص بهيرمابيون Hermapion الذى حفظه آميانوس مارسيلينوس Ammiannus Marcellinus كترجمة للنقوش على إحدى المسلات، لكنها لا تتفق معها تمامًا رغم أن أسلوبها يتشابه كليةً وأسلوب النقوش المصرية القديمة بوجه عام. وتتطابق البداية تمام التطابق مع بداية كل المسلات الموجودة على الأرض تقريبًا على افتراض أن الباز ما هو إلا جزء من اسم آريوريس، وهو احتمال وارد للغاية توصلنا إليه من ألواح المسلات المختلفة بالإضافة إلى تصوير الإله الذى يتميز بشكل الباز إلى جانب قضيبين، ويصف ابن شخص آخر يبدو أنه الشمس؛ وهو الإله أبوللو كما أسماه هيرمابيون وآريوريس وفقًا لبلوتارك.

١٤ . من الطبيعى أن يشار إلى "إيزيس" Isis أخت أوزوريس وزوجته من خلال صورة العرش إلى جانب النهاية المؤنثة، وتظهر صور الإناث التى تُعرف منذ زمن طويل بأنها صور إيزيس بألقاب أخرى أكثر من مرة وهى تحمل العرش على رأسها، وهذا أسلوب شائع لتصوير مختلف الشخصيات على الألواح. تعيننا المخطوطات – كما

سبقت الإشارة - إلى اكتشاف حلقة الوصل بين الأبجدية أو اللغة المقدسة والشعبية وتزويدنا بما يفتقده حجر رشيد رغم أن أوجه التشابه بينهما واهية بدرجة لا ترضينا دون الاعتماد عليها. وتتمثل الربة وفقًا للوصف السابق بوجه عام فى صورة أنثى تقف عند رأس أو أقدام إحدى الجثث وأمامها صورة أنثى أخرى، كما نجد نفس الصور عند النهايات المقابلة للعديد من التوابيت؛ وبالتالى فإن التشابه بين إيزيس وبرسيفونى[1] Proserpine باعتبارها حامية لرفات الموتى يتسق تمامًا وهذه الصور. وتبدو إيزيس على أحد الجعارين scarabaeus التى جلبها مستر لى Legh من مصر، وفى أحد النقوش الهيروغليفية فى فيلة بأنها من نسل بتاح. وغالبًا ما تحمل - أى إيزيس - فى يدها صولجانًا مفروقًا من أسفله ومن أعلاه زهرة لوتس، بينما يحمل أوزوريس صولجانًا شبيهًا بصولجانها إلا أنه برأس حيوان، لكن أحيانًا ما تتصف الآلهة الأخرى بهذه الألقاب. وتتخذ إيزيس شكل الأفعوان الخرافى كما نرى على أحد قوارب التابوت الأخضر، وعلى مومياء ليثولاير Letheuillier وكلاهما فى المتحف

(١) برسيفونى Proserpine : إلاهة أو ربة جميلة فى زعم كل الأساطير اليونانية والرومانية. يطلق عليها الإغريق اسم كور بينما يسميها الرومان بروسربينا. وتزعم الأساطير أنها كانت ابنة ديميتر سريز وهى فى الأساطير الرومانية ربة الزراعة والخصب، وأبوها زيوس (المشترى) رب الأرباب. وتتناول الأساطير قصة بحث ديميتر عن ابنتها برسيفونى التى اختطفها حادس (بلوتو) إله الموت.

فى يوم من الأيام، بينما كانت برسيفونى تقطف الأزهار فى أحد المروج الخضراء، انشقت الأرض عن حادس الذى أسرها وحملها إلى مملكته فى العالم السفلى لتصبح زوجًا له. أصيبت ديميتر بالحسرة، وحزنت حزنًا ملك عليها فؤادها لفقد ابنتها برسيفونى، وجابت العالم من أقصاه إلى أقصاه بحثًا عنها دون جدوى.

غضبت ديميتر على الآلهة لأنها فرطت فى اختطاف ابنتها، لذا عزمت على ألا تسمح للمحاصيل بالنمو ثأرًا لفقد ابنتها. وهنا أمر زيوس رب الأرباب حادس أن يعيد برسيفونى حتى يعود للأرض نماءها وخصبها. إلا أن برسيفونى كانت قد أكلت - أثناء تواجدها تحت العالم السفلى - من ثمار الرمان التى ترمز إلى الزواج. وبتناولها ثمار هذه الفاكهة فقد دخلت فى زواج مع حادس لا يمكن إبطاله.

وللخروج من هذا المأزق، عقد زيوس حلاً وسطًا بين ديميتر وحادس تقضى برسيفونى بمقتضى هذا الحل ثلثى العام مع أمها، والثلث الباقى مع حادس. لذا فإن الأرض تصير جافة قاحلة فى المدة التى تقضيها برسيفونى مع حادس وهى فصل الصيف، وهى بذلك تعكس حزن ديميتر وعدم قبولها بما جرى. وفى الشتاء، عندما تكون برسيفونى مع أمها فإن المحاصيل تنمو وتزدهر؛ لذا يقوم المزارعون بزراعة المحاصيل فى فصل الشتاء الرطب البارد. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

البريطانى. نشر هاميلتون Hamilton بعض النقوش الإغريقية ترجع إلى فيلة والمعبد الصغير بدندرة يتبين منها أن إيزيس كانت الربة الرئيسية لهذه المعابد؛ كما جاءت النقوش الهيروغليفية – فيما يختص بما نُقِلَ – بنفس المعنى تمامًا.

١٥ . لم يكن لإيزيس من مرافق دائم سوى "نفتاح" Nephthe، واسمها يتشابه بعض الشيء مع اسم إيزيس ويلحق به ميزان أو حوض، لكن المربع المحيط بالعرش يظهر مكتملاً وينفصل الميزان عنه أحيانًا وبينهما دائرة؛ وبهذا الشكل ندرك من الاسم أنه أحد الحروف التى تعنى المعبد. (رقم ٨٧). ومن الراجح أيضًا أن ما عُثِرَ عليه فى دندرة وغيرها فى أحد المعابد الصغيرة أو الأضرحة، وفى مكان رأس أحد الأعمدة هو رأس نفتاح، وليس من المستبعد أن يكون المعبد الكبير بدندرة مخصصًا لها حيث أن بلوتارك ذكر أن الاسم الإغريقى لأفروديت Aphrodite ليس إلا مرادفًا لنفتاح. صحيحٌ أن ميلاد إيزيس يبدو مصورًا على أحد الأسقف، لكن هذا لا يستتبع أن تكون إيزيس الربة الرئيسية للمعبد. كما أن الرأس التى تحمل ضريحًا من الصور الشائعة التى تزخرف آلة الصلصلة[٢] sistrum، وهذا يتفق تمام الاتفاق ورأى بلوتارك وهو أن صور رأس نفتاح وإيزيس على السواء توجد أحيانًا على هذه الآلات الموسيقية.

١٦ . يشير رمز الطائر فى القفص – وهو فى الغالب ما نجده فى المخطوطات – مصحوبًا بصورة لطفل إلى حرف بمعنى "ممرضة" أو "مرضعة" nurse، ويمكننا ترجمة هذا المعنى مرتبطًا بالربة "بوتو[٣] " Buto مرضعة حورس وبوباستيس Bubastis.

(٢) آلة الصلصلة sistrum : آلة طرب تعتمد على الخشخشة أو الصلصلة فى مصر القديمة أثناء الرقص أثناء طقوس الاحتفال بالخصوبة. وتثبت بهذه الآلة حلقات معدنية ترتبط بعصى دون إحكام. [المترجم]

(٣) الربة بوتو Buto: ربة الولادة وحامية الأطفال، وهى ربة مصر السفلى (أى منطقة دلتا النيل). وتظهر هذه الربة فى التصاوير على شكل أفعى الكوبرا أو الكوبرا المجنحة. من أسمائها أيضًا "وادجيت" Wadjet أو "بيت واچيت" وهى ربة عاصمة الإقليم السادس من أقاليم الدلتا الذى عرف باسم "خاست" أو "خاستت" أو "سخوت"، ويرمز لها بالصلّ الذى كان يزين تاج فرعون شمال الدلتا (التاج الأحمر) حاميًا له من أعدائه لينفث السم عليهم إذا اقتربوا إليه بسوء، ويعرف هذا المكان الآن باسم "تل أو كوم الفراعين" الذى يقع فى قلب الدلتا على بعد ١٢ كم من مدينة دسوق بمحافظة كفر الشيخ، وتبلغ مساحتها ١٨٠ فدانًا. [المترجم]

وتظهر صورتها على التابوت المسمى باسم نافورة العشاق بالمتحف البريطانى برأس البان، أما فى المعبد الغربى فى فيلة فهى ذات رأس إنسان وترتدى فوق رأسها قرنين، وتجلس بالقرب من إيزيس وحورس، وهو الأمر الذى يجزم بصحة الاسم.

١٧ . يبدو أن الاسم الشعبى "لحورس" Horus مشتق من صورة باز يتبعها أحد الحروف الذى يعنى إيزيس، ويتفق هذا الترتيب بشكل كبير والفرضية القائلة بأن اسمه الشائع هو حورسياسى Horsiesi. تشكل صورة الطفل الرضيع (ملحوظة ١٣٣) والسلسلة والعقدة بوضوح جزءًا من الاسم على تمثال لحورس نحته مونتفوكن Mont-faucon (الآثار، الشرح جـ ٢، ص ٣٠٢)، وعلى مسلة من بوسك Bosc فى الملحق الإضافى للعمل نفسه. وفى بعض الحالات تحل ريشة تلى الطفل الرضيع محل الطائر كما فى كتاب كايلس Caylus "مختارات" Recueil جـ ٤ لوحة ١٣ .

١٨ . يتميز الإله "باماليس" Paamysles الذى جاء ذكره عند الكثير من الكُتَّاب باعتباره برايباس المصرى بألقابه المعروفة. وفى الغالب يظهر هذا الإله فى التصوير بيد واحدة فقط ترتفع نحو زاوية شىء كالسوط أو مروحة اليد معلقة فوقه...

ب. الملوك

٣٣, ٣٤ يخبرنا بلينى Pliny أن مسفريس Mesphres أو مستايريس Mestires هو الذى أنشأ المسلة "السكندرية"Alexandrian، لكن نظرًا لاختلاف قراءة المخطوطات المختلفة، وبما أنه لا يوجد أى ملك باسم مستايريس فى كتابات الكُتَّاب الآخرين، فلنا أن نعتبر أن "مسفريس" هو مسفريس أو مستايريس الذى خلف أمه أمرسيس Amersis على العرش حوالى ١٧٠٠ ق.م. بل ربما بعد ذلك بقرن أو قرنين. ويشمل الاسم الهيروغليفى لأبيه على الإله تحوت؛ فالراجح إذن أن المقصود من هذه الإضافة هو "تحتمس" Thuthmosis عند المؤرخين، ويقال إنه جَد مسفريس. تضم المسلة بالإسكندرية التى تعرف الآن باسم مسلة كليوباترا Cleopatra's Needle ثلاثة صفوف

على كل جانب كغيرها من المسلات، وتظهر شتى الأسماء فى الصفوف الوسطى والخارجية، ويمكننا أن نفترض من هذه الحقيقة وكذا من العمق الكبير للنحت الذى نلاحظه بوجه عام فى الصف الأوسط أنه نُحِتَ أولاً ثم جاء أحد الملوك ليضيف الصفين على كل جانب فى وقت لاحق. إلا أن مسلة "لاتيران" Lateran تتميز بظهور اسم مسفريس فى كل الصفوف على مختلف الجوانب. أما مسلة "مدينة القسطنطينية" Con- stantinopolitan بها صف واحد فقط على كل جانب بالإضافة إلى اسم مسفريس ابن تحتمس.

٣٥ . تظهر على مسلة كيرشر الإسبانية Isean عبارة "ابن مسفريس وصفىٌّ بتاح"؛ ومن ثَمَّ لابد لنا أن نميز الملك باسم "مسفرامتس" Misphragmuthosis وهو ابن مسفريس وولى عهده.

٣٧-٣٩ ورد ذكر التمثال ممنون فى العديد من النقوش الإغريقية القديمة، وهو التمثال الذى احتُفِىَ به فى كل العصور القديمة لما يتمتع به من قوى موسيقية شهدها سترابو بنفسه رغم أنه لم يستطع أن يحدد بشكل قاطع إذا ما كان الصوت صادراً عن التمثال أم عن بعض الوقوف. وجدنا فى أحد النقوش كلمة فامينوث Phamenoth لكن ليس بمعنى موعد أو تاريخ، بل كمرادف لمنون الذى يعتبر ولاشك مطابقًا لفامينوف Phamenoph وهو الاسم المصرى الذى أطلقه عليه بوسانياس Pausanias وكذلك آمينوف Ammenoph أو أمينوفيس Amenophis الذى أطلقه مانيتو Manetho وغيره ولا يختلف عنه إلا بافتقاده لأداة التعريف. إلا أن هناك بعض الشك فيما يتعلق بالشخص أو الملك الذى ينتمى إليه تمثال أمينوفيس. ويُرجِع مانيوثو ممنون إلى الملك الثامن من الأسرة الثامنة عشر الذى ربما أطلق عليه اسم أمينوفيس الثانى، لكن مارسهام Marsham أرجعه إلى أمينفتيس Ammenepththes الخاص بمانيوثو أو أمينوفيس الرابع لأنه يرى أساسًا أن ملكًا واحداً ممن خلفوا سيزوستريس سيذيع صيته ذيوعًا فى آسيا، بل وافترض أنه جاء بعد هوميروس الذى لم يذكره حسب قوله رغم أن هسيود Hesiod يطلق عليه اسم ابن تيثوناس Tithonus وأورورا Aurora. لكن اسم ممنون ورد بالفعل فى الأوديسة حيث يلمح عوليس Ulysses إلى جماله فى حديث

له مع ظل أخيل Achilles، وقلما ذكر هسيود أى ملك ينحدر نسبه من الآلهة فهذا التقليد لم يكن سابقًا لعصره بزمن طويل؛ ومن هذا نَخلُص إلى أن تقليد مانيوثو أفضل من مجرد تخمينات مارسهام. وفى الوقت نفسه لا يمكننا أن نطلق عليه اسم ممنون ابن تحتمس، فاسم أبيه لا يتفق واسم ذلك الملك. كما أن هناك حقيقة أخرى ستفضى بنا إلى أمينوفيس الثالث الوسط بين هذين النقيضين وهو ابن رمسيس ميمون أو رمسيس عاشق آمون، ويبدو أن أمينوفيس نفسه شيَّد معبدًا لآمون فى جزيرة إلفانتين، ويطلق عليه اسم ميمون فى العديد من النقوش الهيروغليفية التى لا تزال موجودة هناك؛ وبالتالى لاشك أن اسم ممنون مشتق فى الأصل من ميمون. وجدنا إلى جانب مختلف التماثيل فى مجمع ممنون آثارًا ترجع إلى نفس الشخص فى كل بقعة من بقاع مصر رغم أنها أكثر عددًا فى طيبة والمناطق المجاورة لها. ويتضح الاسم على كل الربات ذوات رؤوس السباع والمنحوتة من الجرانيت الأسود الموجودة الآن فى المتحف البريطانى وعلى غيرها من الآثار مما بحوزة مستر بانكس. ويخبرنا بروس Bruce أن المجموعة الأولى من هذه الآثار بيعت بسعر كبير لصالح دوناتى Donati ملك سردينيا مما حثَّ أهالى الجزيرة على بذل الجهد المضنى فى الحفر فى الرمال بحثًا عن المزيد من الآثار. ويحمل المبنى الذى يطلق عليه الفرنسيون اسم مقبرة أوزيمانדياس Osymandyas اسم ممنون أيضًا، ويعلق سترابو بقوله إن من المحتمل أن يكون ممنون وإسمنديس Ismendes اسمين لنفس الشخص. كما عُثِر على الاسم أيضًا فى الكهوف فى بيبان الملوك على بعض التماثيل التى تصور أوزوريس، وفى بعض النقوش بأمبوس (كوم أمبو) وكذلك على أحد أختام دينون لوحة ٩٨ . وقدم مستر بولوك Mr. Bullock إلى المتحف البريطانى جعرانًا من حجر شديد الصلادة وجدنا عليه اسم ممنون واسم أمه وأبيه اللذين سنطلق عليهما اسم تيثوس Tithous وإيوا Eoa للإبقاء على وجه التشابه بين الأسطورتين، لكن دون التأكيد على أن تيثوس هذا هو الذى بنى المتاهة التى يرجع بعض الكُتَّاب إنشاءها إلى ملك يسمى تيوثوس Tithoes أو إسمنديس. يَرِد اسم الأم وحده أيضًا وهو "أم الربة" على ظهر خنفساء فى مومياء جوردن Gordon لوحة ٢٢؛ وهو الأمر الذى يزيل أى شك ينشأ عن ضياع النهاية المؤنثة من الاسم، كما

يوجد اسم الأب على ختم مربع الشكل بحوزة مستر لى. وهناك نسخة أخرى من النقوش الموجودة على جعران مستر بولوك على الجعران الخاص بمستر بالين Mr. Palin، والذى استخدمه أحد الكهنة اليونانيين فى أثينا لمدة طويلة فى ختم خبز عيد الفصح اليهودى. (دو بوا، بيريز جرافيه، باريس، ١٨١٧، لوحة رقم ٥، ملحوظة رقم ٥) ولم يبقَ من الرأس الجميل الذى جىء به من الممنونيوم إلى المتحف البريطانى مؤخراً سوى جزء من اسم الأب الذى لا يبدو أنه اسم والد ممنون رغم تطابق الحروف الثلاثة الأولى، إلا أن الحرف الرابع هو قاعدة التمثال التى تمثل بتاح، كما عُثِرَ على اسم مشابه لذلك الاسم على بعض التماثيل والمسلات الأخرى بمصر وكذلك على أحد التماثيل الأصغر حجماً المصنوع من الجرانيت الأحمر أتى به مستر هاميلتون من جزيرة إلفانتين.

٤٠، ٤١ تتميز المسلة الموجودة فى هليوبوليس بكل ما يميز الآثار القديمة الخالدة، ويتناسب قصر النقوش وبساطتها مع رجوعها إلى فترة تاريخية موغلة فى القدم. ويذكر بلينى أن ميتريس Mitres أو مستايريس هم أول من شيد المسلات بهليوبوليس، كما ذكر أيضًا سوذيس Sothis ورمسيس – كما هو واضح – باعتبارهم من الملوك الذين تركوا صروحًا أثرية تدل على عظمتهم فى نفس المكان. ويمكننا رؤية الاسم الرئيسى على المسلة الموجودة الآن بالمطرية أيضًا فى الكثير من النقوش الأخرى، لكن مع استبدال اسم الأب باسمين آخرين؛ وبذلك فإن أرجح الاحتمالات نسبة اسم الابن إلى العديد من الأشخاص، هذا بالإضافة إلى الأصوات التى تنتمى إلى حروف مختلفة، وهو الأمر الذى يتفق تمام الاتفاق مع رمسيس، ذلك أن اسمه يتكون من رع Re بمعنى "الشمس" وميس Mes بمعنى "ولادة" وشيش Shesh بمعنى "زوج"، وبذلك يمكننا أن نطلق عليه اسم "رعمسيس" Remesses، كما يمكننا اعتبار "هيرون" Heron والد رمسيس الأول اشتقاقًا من هيرمابيون، رغم احتمالية أن يكون والده هو أرمياس Armais وفقًا لمانيثو، لكن ليس لدينا ما يكفى من دليل لربطه بذلك الاسم. ويبدو أن رمسيس آخر كان ابنًا لسيزوستريس، كما يُنسب رمسيس ثالث إلى أمنفتيس Ammenphthes وفقًا لرواية مانيثو الذى يتفق مع رامبسينيتوس Rhampsinitus حسب رواية هيرودوت، ورمفيس Remphis حسب رواية ديودوراس Diodorus الذى ذُكِرَ

باعتباره ولى عهد بروتس Proteus، ولعله رمسيس الذى يظهر على أفاريز مونتاجو Montagu وفيكورونى Ficoroni (النقوش الهيروغليفية، ٧، Ou، ٩، If)، الذى يبدو من خلال التشابه مع الأجزاء المختلفة من العمل أنه معاصر تقريبًا لسيزوستريس. (النقوش الهيروغليفية، ٧، .H.I) كما يوجد تمثال آخر لرمسيس عند الأسود عند نافورة أكوا فيليس Aqua Felice بالقرب من حمامات ديوكليتيان Diocletian بروما، وهو الملك الذى يتشابه اسم والده قليلاً مع الاسم الذى يفترض نسبته إلى أرسنوى، الملحوظة رقم. ٦٠ .

٤٢، ٤٣ يذكر بلينى أن المسلة التى شيدها أغسطس فى "معسكر مارتيوس" Campus Martius من أعمال سيزوستريس، وهناك ما يكفى من الوثائق للدلالة على تطابقها مع تلك المسلة التى ظلت مدفونة طويلاً بالقرب من مونت شيتوريون Monte Citorio وكذا مع الرسومات التى أتى بها زويجا وغيره. ومن المفترض أن تضم هذه النقوش فى عهد بلينى ملخصًا وافيًا عن المعرفة الفيزيقية والفلسفية عند قدماء المصريين، لكن لإضفاء المصداقية على هذا الرأى لابد أن نعترف بأن الأمراء قديمًا كانوا يؤمنون بأفكار مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الأفكار الشائعة آنذاك فيما يختص بالأهمية النسبية للعلوم البحتة ورخاء البلاد وازدهارها والمجد العسكرى. فإذا كان سيزوستريس ابنًا لأمينوفيس، فإنه لا يمكن أن يكون الملك الحاكم الوارد ذكره فى هذه المسلة، لكن يمكننا أن نرجعها بكل ثقة إلى "فيرون" Pheron ابن "سيزوستريس" الذى شيد مسلتين وفقًا لرواية هيرودوت، ويمكن النظر إلى تكرار اسم سيزوستريس كأب باعتباره متوافقًا بشكل كافٍ وشهادة بلينى. كما عُثِرَ على نفس الأسماء – مع اختلافات طفيفة – على تمثال صغير من البازلت، متقن الصنع بدرجة كبيرة، ويوجد حاليًا فى المتحف البريطانى، وهى الأسماء التى نسخها دينون من أحد النقوش فى الممنونيوم. (لوحة رقم ١١٨)

٤٤ . كان "نانكوريوس" Nuncoreus – وفقًا لرواية ديودوراس – كما ورد اسمه أيضًا عند بلينى، ويمكننا النظر إليه باعتباره ابن سيزوستريس الذى ورد ذكره على

أفاريز مستر مونتاجو. ورد الاسم أيضًا فى فيلة وكذلك - مع بعض التغيرات الطفيفة - على مذبح من البازلت رسمه كايلس (المختارات جـ ١ لوحة ١٩)، ويوجد الآن بمكتبة الملك بباريس. ويمكننا أيضًا رؤية آثار الاسم نفسه على كتلة من الحجر الرملى فى المتحف البريطانى، كما نسخه نوردن بحالته القديمة باعتباره جزءًا من أساس عامود الصوارى بالإسكندرية، ويرد الاسم أيضًا على جزء من تمثال جاء به مستر هاميلتون من طيبة.

٤٥ . يُعْرَف "بروتس" Proteus أو سيرتس Certus أو من يعرف فى مواضع أخرى باسم أمنفيتيس بأنه ملك جاء خلفًا لأحد الملوك يسمى رمسيس، ويمكننا بكل تأكيد الإشارة إلى هذا الاسم باعتباره اسم والد رمسيس على أفاريز مونتاجو وفيكوروني، التى تتميز جميعها بإتقان الصنعة وروعتها.

٤٦، ٤٧ حين نحصل على دليل أكثر إيجابية، فإننا سنطلق اسم "أمانوفيس" Amaenupthes و"أنيسيس" Anysis على الملكين الوارد ذكرهما على التابوت المصنوع من الحجر الحصبائى الأخضر، ويفترض أنهما عاشا تقريبًا فى عهد أمينيفيس أو أمينوفيس الخامس وولى عهده أزوخون Osochon. ويمكننا قراءة اسم الأب باعتباره "مانيوبتاح" دونما أية صعوبة، مع افتراض أن يلحق الاسم بعض الألقاب. هناك أيضًا مسلتان لنفس الملك جيء بهما من القاهرة وتقفان الآن بالقرب من التابوت فى المتحف البريطانى، ويشبه أسلوب النحت إلى حد ما الأسلوب الذى شاع أيام سيزوستريس Sesostris ومن خلفه من الملوك. من اللافت للنظر أن كلا الاسمين لا يمكن أن يكون الإسكندر لتكرار اسم الأب بشكل أكبر بكثير من اسم الابن، وهو أمر محال لو كان الاسم المقصود هو فيليب، كما أن الإسكندر لم يكن له ولد يحتمل أن يرد ذكره فى تابوته. كما أنه ليس من المحتمل على الإطلاق تشييد الإسكندر لأى مسلات فى ممفيس أو فى ما جاورها من المناطق. لا يرد ذكر الإله آمون وسط ألقاب الملك ولا يتمتع إلا بمكانة ضئيلة بين عدد لا يُحصى من الآلهة الواردة فى الألواح. عثرنا على كلٍ من الاسمين - دون أى إضافة - منحوتين على تعشيقة من النحاس الأحمر فى "رحلات"

لورد فالينسيا Lord Valentia التى عُثر عليها فى بيبيت Behbeit وهى الأتاربيتشيس أو أفروديتبوليس القدماء وتقع على فرع النيل الذى يمتد حتى دمياط.

٤٨–٥٠ علمنا من بلينى أن سنوسرتيوس Senneserteus أو سمنيسايرتايوس Semnesyrtaeus الذى حكم مصر إبان زيارة فيثاغورث لها هو الذى شيَّد المسلة "الفلامينية" Flaminian التى تقف الآن بالقرب من بورتا ديل بوبولو فى روما، وهى الأصغر من بين مسلتين وضعهما أغسطس سابقًا فى سيرك ماكسيموس لتستخدم كقائم للمِزْوَلة الشمسية. والظاهر أن هذا الملك اتبع نفس النهج مع بسمتكوس Psammuthis أو "بسمتك" Psammis، والبرهان على ذلك أقوى بكثير مما سواه لأن الفترة المقصودة ليست بعيدة للغاية. ووفقًا لهيرودوت فإن نيكوس Necos أو "نخاو" Nechao هو والد ساميس. ويظهر الاسمان على كل السطور الوسطى من المسلة، كما يظهر اسم الأب على عمود لتمثال إيزيس فى ملحق مونتفوكون Supplement of Montfaucon. أما المسلة السالوستية Sallustian التى يبدو أنها نسخة من المسلة الفلامينية فيظهر عليها الاسمان.

٥١ – ٥٢ من بين أكثر الأسماء شيوعًا من كل ملوك مصر حسبما ظهر فى عدد كبير من الآثار هى تلك الأسماء التى اعتبرها كيرشر Kircher خطأ نوعًا من التعاويذ أو التمائم التى أطلق عليها اسم الألواح المفتومنديسية Mophthomendesian. ولا تظهر هذه الأسماء إلا على ثلاثة مسلات صغيرة فقط هى مسلات كيرشر "المديسية" Medicean و"الماهوتية" Mahutean و"المونتيكالية" Monticaelian، غير أنها توجد أيضًا فى السطور الخارجية من المسلة السكندرية ومسلتا الأقصر والمسلة الفلامينية والمسلة السالوسيتية، ولم نجد أى من الأسماء فى غير هذه المسلات. ولابد أن نرجعها إلى أحد ملوك مصر المتأخرين، وليس هناك أى من الملوك يرجح قيامه بهذا العمل أكثر من "أحمس" Amasis وهو رجل ذو أهمية كبيرة وفى الوقت نفسه ذو شخصية تنم عن حرصٍ ودهاء. ليس أمامنا خيار سوى المفاضلة بينه وبعض الملوك الذين ثاروا ضد الفرس، وبين هؤلاء الملوك الذين يبدو أنهم لم يتمتعوا بالرفاهية أو الأموال التى تسمح بإنشاء مبانٍ عامة ذات روعة وبهاء. يضم اسم أبيه كاسم نخاو حرفًا يدل على الإله فولكان ويمكن أن

يطلق عليه "مانيوفتيس" Maenuphthes، لكنه لم يكن ابنًا لأى ملك. وجدنا كلاً من الاسمين فى أحد السطور الوسطى من المسلة الفلامينية، ويظهر الملك على ذلك الجانب فى اللوح وهو يعلن البيعة والولاء لسلفه الذى يحتل قائمة الشرف على الجوانب الأخرى.

٥٦ . ليس هناك مجال للشك فى معنى اسم "بطليموس" Ptolemy كما ورد فى حجر رشيد، إلا أنه ليس من السهولة تحديد هويته فى بعض الحالات الأخرى حيث تغير الاسم على ما يبدو بسبب عوامل الاختصار أو التآكل أو المزج. من الأمور الشائقة بالنسبة لهذا الاسم وغيره من أسماء الأعلام الأخرى تتبع بعض المراحل التى مرت بها الكتابة الأبجدية تطوراً عن الهيروغليفية، وهى عملية يمكن أن تتضح لنا إلى حد ما من خلال الطريقة التى تعبر بها اللغة الصينية الحديثة عن مزيج من الأصوات الأجنبية حيث تصبح الحروف بكل بساطة "صوتية" عن طريق علامة مناسبة بدلاً من الإبقاء على معناها الطبيعى، وتقترب هذه العلامة فى بعض الكتب المطبوعة الحديثة كثيراً من الحلقة أو الدائرة التى تحيط بالأسماء الهيروغليفية. ويبدو الاسم الشعبى لبطليموس من أول وهلة مختلفًا تمام الاختلاف عن الاسم الهيروغليفى لدرجة أنه من المستحيل استنباط أحدهما من الآخر دون معرفة بأشكال رسم الحروف منفصلة حسبما يتأكد لنا من مقارنة المخطوطات. ومن الواضح أن البداية والنهاية أجزاء من الحلقة التى تحيط بكل أسماء الأعلام فى اللغة المقدسة فيما عدا أسماء الآلهة. ويتصل القالب المربع وشبه الدائرة فى كل المخطوطات على الدوام بالحروف التى تشبه حرفى P و T لأكربلاد التى تجدها فى بداية الاسم الشعبى. أما الحرف التالى الذى يظهر على شكل عقدة فهو ليس بضرورى فى حد ذاته، فغالبًا ما يُحذَف فى اللغة المقدسة ويُحذَف دائمًا فى اللغة الشعبية. ويناظر الأسد حرف LO لأكربلاد، ودائمًا ما يعبر عن الأسد حرف شبيه بهذا فى المخطوطات؛ فالخط المائل المقطوع يمثل الجسم والخط المستقيم يمثل الذيل، والأرجح أن هذا الحرف لم يُقرأ Lo بل Ole، على الرغم أن كلمة Oili تترجم فى القبطية الأكثر حداثة إلى كبش، ولدينا أيضًا كلمة Eiul التى تعنى الظبى وتصبح صورة الظبى بخط اليد أقرب إلى شكل الأسد. يشير الحرف التالى كما هو معروف إلى "المكان" أو Ma بالقبطية، ومما يبدو أنها تُقرأ إما Ma أو M فقط ودائمًا

ما يعبر عن هذا الحرف بخط اليد حرف M وفقًا لأبجدية أكربلاد. تتصل الريشتان - مهما يكن ما يقصد بهما من معنى طبيعي - بالخطوط الثلاثة المتوازية في النص الشعبي، ويبدو أن تلك الخطوط تُقرأ باعتبارها I أو E في أكثر من موضع؛ ويقصد بالخط المنحنى على ما يبدو صفة عظيم، وتُقرأ Osh أو Os ذلك أن الكلمة القبطية Shei تناظر تقريبًا حرف "سيجما" Sigma في اللغة الإغريقية. فإذا وضعنا كل هذه العناصر مع بعضها البعض حصلنا بالضبط على "بطليمايوس" Ptolemaios وهو الاسم اليوناني أو ربما "بطليميوس" Ptolemeos كما يبدو في اللغة القبطية. وتعبر الاختلافات الطفيفة في الكلمة في أجزاء مختلفة من النص الشعبي عن اختلافات في النطق أو التشكيل.

٧, ٥ يظهر لقب "المخلِّصيْن" Soteres في صيغة المثنى بشكل واضح في حجر رشيد، ويتضح من هذه الكلمة بعينها اسم طويل في معبد إدفو لابد أن المقصود به "الإلهان المخلِّصان" إضافة إلى الكثير من الألقاب الشرفية مثل "خادما بتاح ورمزا النصر ووليا فرى Phre ومحظيا النيل والزوج المقدس في الإمبراطورية".

٨, ٥ زوجة بطليموس المخلِّص وأم فيلاديلفوس Philadelphus هي "برينيس" Berenice التي عُثِرَ على اسمها على أحد الأسقف في الكرنك في العبارة التالية "بطليموس و.. برينيس، الإلهان المخلِّصان". ومن خلال هذا الاسم نجد أمامنا مثال آخر لاندماج كل من الكتابة المقطعية والأبجدية بطريقة لا تختلف اختلافًا جذريًا عن مجموع الكلمات والأشياء المضحكة التي يجد الأطفال فيها التسلية أحيانًا، ورغم أن هذه المقارنة أثارت غضب ووربورتون Warburton، فإن القول بأن "الفرق بين ما هو سامٍ وما هو وضيع ليس إلا خطوة واحدة فقط" صحيح في بعض الأحيان. يتخذ أول حرف من الاسم الهيروغليفي نفس الشكل بالضبط إلى جانب صورة سلة في بيبان الملوك يطلق عليها في الوصف "سلة ..."panier a anses"، والسلة في القبطية تعرف باسم Bir. يقصد بالشكل البيضاوي الذي يشبه العين دون إنسانها "إلى" وهي في القبطية الحرف E، أما الخط المتموج فيعني "مِن" ولابد أن الحرف N هو ما يشير إلى معناه والريش حرف I ويبدو كرسي القدمين الصغير غير ضروري، أما الإوزة فهي Ke

أو Ken، ويذكر كيرشر أن كلمة Keensoü مقابل كلمة إوزة، لكن كلمة Esoü تعنى اجتماعى أو ميال للعيش فى جماعة تمييزًا لها عن الشهرمان(٤) sheldrake المصرى ويقترب أصل الكلمة التى جاء منها الاشتقاق من اسم الإوزة فى الكثير من اللغات الأخرى. ومن ثمَّ نحصل حرفيًا على كلمة "بيرينيس" Birenice أو إذا ما دعت الضرورة إلى إضافة حرف N، كلمة "بيرينيسن" Birenicen فى حالة النصب التى يخلط المصريون القدماء بينها وبين حالة الرفع. ليست الحروف الأخيرة إلا النهايات الدالة على التأنيث. ويضرب لنا النص الشعبى مثلاً حيًا على التنوع المسموح به فى أسلوب التعبير عن الاسم الواحد. ليس هناك أدنى تشابه بين الحرف الأول وبين السلة، لكن الحرف الأول والثانى معًا يستخدمان بصورة شائعة جدًا فى المخطوطات كصورة مضطربة لقارب يطلق عليه اسم بارى Bari أو ربما بيرى Bere لأننا نشك أن كيرشر لم يحتج إلا برأى ديودوراس بالنسبة لكلمة بارى؛ ومن ثمَّ استخدام كلمة Berezouts للدلالة على عربة أخرى. ربما اشتق حرف N الشعبى من الخط الأفقى الممتد إلى أعلى عند أحد طرفيه وكذلك الشرطات الثلاث بالنسبة لحرف I، أما الزاويتان فيدلان على كلمة Ke لأن من الشائع أن تُرْسَم صورة للطائر بمثل هذا الأسلوب؛ وبالتالى نحصل على كلمة بارينيس Barinice أو بيرينيس Berenice من خلال اندماج للحروف مختلف عن السابق.

٥٩-٦٥ كان المعبد فى أومبوس (كوم أمبو) مخصصًا لعبادة أريوريس أبوللو وفقًا لما وجدناه فى النص اليونانى الذى نسخه مستر هاميلتون "باسم المقدس بطليموس فيلوميتور وكليوباترا وأولادهما إلى أريوريس أبوللو Arueris Apollo والآلهة الأخرى فى المعبد عن طريق رجال وفرسان فى الإقليم(٥) Nome. "لذا فإننا نتوقع أن نجد فيه أسماء هؤلاء الملوك جنبًا إلى جنب مع بعض أو كل البطالمة الأوائل، وعلى هذا الأساس يمكننا تحديد بعض الألقاب التى ميزت هذه الحقبة والحقبتين السابقتين عليها بلا صعوبة، لكننا لم نكتشف حتى الآن أى شىء يمكن اعتباره دالاً دلالة واضحة على

(٤) الشهرمان Sheldrake : نوع من البط المصرى. [المترجم]

(٥) الإقليم Nome : أحد أقاليم اليونان اليوم، وكان إحدى الولايات الإدارية فى مصر قديمًا. [المترجم]

اسم الملك فـيـلاديلفـوس Philadelphus وزوجـتـه الملكة أرسـينوى Arsinoe أو الملك يورجيتيس Euergetes وزوجته برينيس Berenice رغم الاستعانة ببعض المساعدة فى التعرف على تلك الأسماء من النص الشعبى بحجر رشيد. إلا أننا وجدنا فى نفس المعبد اسمًا مركبًا كما هو واضح فيه تلى صورة الأفعى الخرافية ريشتان وخط أعوج، وإذا عقدنا مقارنة بين النص الشعبى والمخطوطات، فإننا سنَخلُص إلى أن الأفعوان الخرافى لابد أن يكون رمزًا "ليورجيتيس" إلا أن الجزء من الاسم السابق عليه ليس برينيس، لكنه لابد أن يكون وحسب كل الاحتمالات "أرسينوى" بنت يورجيتيس. لكن يبدو من المحال علينا أن نقارن الحروف المستخدمة بالأصوات لأن الحروف تأتى أحيانًا بترتيب معكوس وهو ما لا يحدث بالنسبة للأصوات. يظهر لنا أن الاسم يتكرر كثيرًا فى مواضع حيث تأتى أكثر أجزاء الاسم أهمية على صورة ربع دائرة وريشتين وخط أعوج أو مقطوع، وفى أماكن أخرى مثل دندرة تضاف صور الطائر واليد والشكل البيضاوى، ومن الجائز أن تكون ربع الدائرة تعبيرًا عن العدس الذى يعنى بالقبطية "أرشين" Arshin وهو ما يكفى وحده لتحديد الاسم. ورد الاسم فى دائرة البروج الشهيرة فى دندرة، وبكثرة فى فيلة، وربما قادنا ذلك فيما بعد وبكل سهولة إلى اكتشاف الاسم الهيروغليفى لفيلاديلفوس. تأكد لنا اسم فيلوباتر Philopater من خلال وجود الحرف الدال على كلمة "أب" فى حجر رشيد رغم أن هذا الحرف متآكل للغاية ولن يكن بالإمكان تحديده بدون هذه المصادفة. عُثِر على الاسم فى المعبد "الكبير" بإدفو، بشكل أكثر تميزًا عن الاسم الموجود فى أومبوس (كوم أمبو)، كما تكرر عدة مرات فى الكرنك. ولا يتميز اسم "إبيفانيس" Epiphanes فى أى نص من النصوص الأخرى على الإطلاق بالحروف التى يتكون منها فى نقوش حجر رشيد (ملحوظة ١٢١)، إلا أننا دائمًا ما نجد رمزًا مرادفًا استخدم فى حجر رشيد للدلالة على كلمة "منير" حيث الترجمة اليونانية للاسم هى إبيفانيس، ولا يقصد بهذا الحرف الذى يأتى وسطًا بين بلطتين فى مواجهة بعضهما البعض إلا "الإله أو الآلهة اللامعة". ويتكرر الاسم بهذا الشكل كثيرًا فى فيلة، وفى المعبد الكبير فى إدفو حيث يبدو أنه الأحدث. أما بالنسبة "لفيلوميتوريس" Philometores، فإن لدينا حرفًا يوجد فى بعض الآثار

الأخرى ويقصد به كما هو واضح كلمة "أم" وعُثرَ على الاسم الذى يضم هذا الحرف عدة مرات فى معبد بأمبوس (كوم أمبو). وفى قوص أو مدينة أبوللينوبوليس بارفا Parva Apollinopolis هناك نص يونانى آخر خاص بفيلوميتوريس وأولادها، لكن يبدو أن أسماء الملوك مفقودة فى النقوش الهيروغليفية التى نسخها دينون، ولم يبق منها سوى اسم أمير صغير، وتناول مونتفوكون تمثال هذا الأمير بالوصف فى كتابه "الملحق"؛ ونظراً لورود الاسم نفسه على الحزام بالإضافة إلى عبارة "ابن الملك بطليموس"، فإن لنا المبرر إذاً فى تمييز هذا الشخص بإطلاق اسم "كليوباتريديس" Cleopatrides عليه. تقدم ألقاب الشرف الإلهية التى تعزى كثيراً فى هذه النقوش إلى الملوك الحكام تفسيراً للنقوش اليونانية بخصوص "آلهة مصر Synthronous" التى ترد مراراً، وكذلك وصف "الإلهين التوأم" كما يطلق على الملك فيلاديلفوس وزوجته الملكة فى النص اليونانى من حجر رشيد.

د. الحيوانات

٧٣ . تدل صورة الشخص الجالس على الأرض وهو يمد يده ضمناً على معنى كلمة "رجل" أو إنسان وهو بالتأكيد معنى الكلمة الشعبية التى تقابلها عادةً فى المخطوطات، لكن غالباً ما يظهر أن الشكل يفقد هذا المعنى إذا جاءت مركبة.

٧٤ . يقصد بالأفعى ذات القرنين التى تسعى زحفاً كما يتضح فى بعض أجزاء من حجر رشيد ضمير الغائب للعاقل المذكر him أو غير العاقل it، رغم أن لها معانٍ أخرى إذا وردت مركبة. ومن الجدير بالملاحظة أن الحرف الشعبى وكذلك الحرف فى المخطوطات يشبه حرف y الذى يشبه كثيراً حرف F فى القبطية وهو أيضاً يعنى "ضمير الغائب للعاقل المذكر" وكلمة hof أو hfo هى ما اصطلح عليه فى القبطية للدلالة على الأفعى؛ ومن ذلك نرى أن تلك المصادفة تمدنا بخيط آخر عن أصل الأبجدية.

٧٥-٧٨ ثبت أن صور الثور الصغير والكبش والظبى والسلحفاة تأتى أحياناً تمثيلاً للأشياء التى تشبهها بوقوعها فى النقوش التى تصحبها الألواح، رغم أن البعض منها يتمتع بدلالة مجازية. غالباً ما يظهر الكبش بقرنين أحدهما حقيقى والآخر خيالى.

٧٨*. يتسم التمساح بصورة مميزة للغاية فى إحدى المخطوطات التى أرسلها مستر بانكس إلى إنجلترا، ويظهر فى النص مراراً من خلال صورة تمثله. أما الإله ذو رأس التمساح فهو شخص مستقل تعبر عنه صورة لنفس الحيوان وذيله مطوى تحته.

٧٩ . تبدو الحية أو "الأفعى الخرافية" بصورة غير واضحة تماماً فى حجر رشيد لدرجة أنه لا يمكننا معرفة الشيء الذى تمثله هذه الصورة دون المقارنة مع النقوش الأخرى؛ إلا أن السياق كافٍ لتحديد معناها عن طريق فحص هذا الأثر فحسب.

هـ . الجمادات

٨٠ . الأجزاء الأساسية من اسم مصر هى المربع والساقية ويقصد بها "الأرض الرخاء". وبالإضافة إلى هاتين الصورتين أو أصولهما، فإن الكلمة الشعبية تتسم فى البداية بحرف يقابل بوجه عام ذراعًا يمسك بريشة أو بشعلة مصباح وهو رمز يرتبط أيضًا بمصر فى سطر من السطور فى حجر رشيد. وذكر كل من هورابوللو وبلوتارك أن الشعلة والقلب استخدما فى اسم مصر، لكن تكرار الكلمة بهذا الشكل يرجع استخدامها على أوجه متعددة. ولا يلاحظ وجود مجموعة الحروف نفسها المستخدمة بوجه عام على الحجر فى غيره من النقوش.

٨١ . لا يمكننا تحديد اسم "ممفيس" Memphis دون بعض الشك، ذلك أن السطر الذى يضم هذا الاسم فى النقوش الهيروغليفية غير واضح فى أحيان كثيرة.

٨٤ . من المعروف أن السلم يقصد به كلمة "بلد" وربما يمثل حقلاً بأقسامه، لكننا فى شك إذا ما دخل هذا الرمز نفسه فى أى من أسماء آريوريس (ملحوظة ١٣) لأن النحت على حجر رشيد لم يكن مكتملاً بأى شكل من الأشكال.

٨٥ . من الجدير بالملاحظة أن اليسوعيين لاحظوا أن الساقية التى تدل على "الأرض" تشبه الحرف الذى يعنى كلمة "حقل" فى اللغة الصينية القديمة، لكن هذا ليس إلا رأيًا واحداً من بين عدد من الآراء المتشابهة التى بررها البرهان والدليل الناجع. (الترجمة الفلسفية. ١٧٦٩ . لوحة ٢٨).

٨٦ . يبدو أن النجم يتعلق "بنجم" حقيقى من خلال نقوش مصاحبة لدائرة البروج. وللكلمة فى مواضع أخرى معنىً مجازى يشير إلى أحد أفراد الحاشية أو "الروح الحارسة".

٨٧ . يوجد المربع المفتوح فى كل من مجموعتى الحروف التى تأتى بوجه عام للدلالة على كلمة "معبد" وتدل الريشة على الزخرفة أو التقديس والشكل المستطيل سواء المقصورة أو الكرسى المقدس، كما يظهر فى بعض الأحيان الحرف الدال على الإله ضمن ذلك الشكل. تتحول الريشة من آن لآخر إلى شكل يميل إلى الشكل البيضاوى، فى الوقت الذى تغير فيه شكل المربع قليلاً، ويمكننا ملاحظة الفرق فى النقوش الأخرى إلى جانب النقوش على حجر رشيد.

٨٨ . يشبه الحرف الذى يمثل "الضريح" الشىء الذى يدل عليه لدرجة أنه أكثر الحروف التى تمكننا من التعرف عليها من بين كل ما عثرنا عليه فى حجر رشيد. أما الحرف التالى فإنه يدل على كلمة الكاهن، ويؤكد لنا الحرفان معًا حقيقة ذلك التفسير. يشتق الحرف الشعبى للضريح من التمثال الجالس الذى يصحبه دائمًا.

٨٩ . ولابد أن المربع المفتوح الذى ورد فى كلمة "مسكن" ومعبد على السواء يقصد بها كلمة "منزل" أو مبنى، وربما قُصِدَ بها الحجر فحسب.

٩٠ . يقع "العرش" أو كرسى الحكم فى عدد كبير من الألواح. ومن الواضح أن أساس الدلالة يكمن فى الحرف الذى يدل على التمثال، ملحوظة ١٠٢، إلا أنه يضم فى بعض الحالات فى بعض النقوش الأخرى المعنى المجازى لمقر أو مسكن...

٩٢ . يتضح من النص الأول من حجر رشيد الحروف التى تدل على "التاج الملكى" [وهو عبارة عن خط فوق شكل بيضاوى]، وتتشابه هذه الحروف كثيرًا مع النصوص المقابلة لها فى الأبجدية الشعبية بما لا يجعلنا نتردد فى الإقرار بالصلة الوثيقة بين هذين النمطين من الكتابة دون البحث عن المزيد من الأدلة والبراهين.

٩٣ . تدل على الزخارف المقدسة ثلاث ريشات مثبتة إلى عارضة تحملها ذراعان. يتكرر الجزء المتبقى من الحرف كثيرًا كنهاية أو لاحقة يبدو أنها تقابل اللاحقة - ments فى اللغة الإنجليزية.

٩٤-٩٩ . من السهل التعرف على القارب أو السفينة والرمح والقوس والسهم والمبخرة والنعش بمقارنة مختلف الألواح بنصوصها. ترد السفينة كثيراً للدلالة على المراكب المقدسة التى تنقل فيها الآلهة رغم أنها لا تصحبها المياه دائماً. لكن من الجدير بالملاحظة أن المصريين القدماء خصصوا السفن للشمس والقمر بدلاً من العربات لأنها - أى السفن - تسير بانسيابية فى السماء. ومن الجلى أن الجزء الأول من الكلمة الشعبية التى نفرض أنها حرف B يتفق تماماً والحرف الذى نجده دائماً فى المخطوطات مكتوباً بالهيروغليفية بخط اليد باعتباره الجزء الأول من وصف السفينة.

١٠٠ . يتضح من بعض الصور التى تمثل "الدمعة" أنها تعبر تماماً عن الشيء المراد وصفه، ويفسر هذا التشابه إلى جانب وجودها المتكرر فى كلمتى جثة ونعش معنى الكلمة بما يكفى. وتظهر أيضاً فى بعض الأحيان داخل إطار كإله غريب، لكنها على الوجه الأعم ترمز إلى أوزوريس أو أبيس أو منيوس Mneuis. ومن الشائع أن نجدها على هيئة شكل منفصل فى نوع من أنواع الفخاريات المطلية باللون الأخضر، ولعلها كانت تُلبَس بدلاً من خاتم الحداد كتذكار لصديق راحل. ويطلق عليها بوجه عام جزء من ذوات الحوافر equi sectio ويفترض أنها تمثل رأس حصان أو مقدم سفينة، فى حين جعلها المبدع كيرشر phallus oculatus. ومن بين الآثار التى اقتناها لورد ماونتنوريس Lord Mountnorris بمصر عين تُرى من الأمام وهى تذرف الدموع.

١٠١ . يقصد بالحرف الدال على كلمة صورة "رجل مصقول"، وتظهر اليدان المقترنة بالعين وهى تحمل مجدافاً كرمز "للعمل". ويدل نفس الحرف مع تغير طفيف فى شكل العين على المجدف (ملحوظة ١٣٦).

١٠٢ . ليس هناك حرف دال على معنى مصقول أو مشغول فى كلمة "التمثال" الجالس، إلا أنه متبوع بخط منحنى وهو لقب يدل على الاحترام ولعله يقابل كلمة Osh "عظيم". ويقع الخط المنحنى نفسه على التابوت العظيم من الصخر الحصْبائى الأخضر ويأتى كتجسيد لإحدى خصال أوزوريس وهى "العظمة" على الأرجح. وغالباً ما تستبدل فى المخطوطات بالعصا المشقوقة، ويظهر كلاهما بخط اليد على هيئة شكل يشبه رقم ٩

أو ٤ (بالأرقام العربية). وأحيانًا يأتى هذا الحرف فى النص الشعبى على هيئة خط واحد سواء كان مستقيمًا أو منحنيًا من الجوانب مكونًا زاوية كجزء من K.

١٠٣ . يدل على "الرسائل" حرف يصور بعض المواد المستخدمة فى الكتابة وهى لا تختلف كثيرًا عن حامل المحبرة التى صورها كتاب الرسائل Recueil لكايلس الذى يتكون من أنبوبين متوازيين بينهما مسافة وله غطاء ومتصل بسلسلة بدلاً من المفصلة. وإلى جانب النص المعروف بحجر رشيد، فإن الحرف يظهر فى الكثير من المخطوطات بالقرب من صورة لتحوت وهو يكتب، كما عُثِرَ أيضًا على الحرف الشعبى المناظر له فى عبارة "الكتابات المقدسة" فى بداية النص.

و. صفات وأفعال

١٠٨ . يأتى "العنخ" crux ansata الذى يطلق عليه أحيانًا مفتاح النيل عادةً كرمز للألوهية، لكن معناه الصحيح هو الحياة كما افترض لاكروز Lacroze بحق رغم أن رأيه بخصوص أصل الحرف غير متسق وشكل أقدم معالمه وأكثرها دقة، ولا يظهر هذا الحرف بوضوح مثلما يأتى إلى جانب قنطرة أو صنبور مياه. وأعلن الكهنة المصريون القدماء، وفقًا لسقراط وروفينوس Rufinus، للفاتحين المسيحيين فى عهد ثيودوسيوس Theodosius الذين كانوا يعتزمون هدم السيرابيوم[٦] Serapeum بالإسكندرية أن الصليب الذى ينحتونه كثيراً فوق معابدهم ما هو إلا رمز الحياة الآخرة. ويفهم بعض

(٦) السيرابيوم: تحتوى سراديب السيرابيوم فى منف، المنقورة تحت سطح الأرض، على عجول أبيس المدفونة. اكتشفه ماريت فى سنة ١٨٥٠-١٨٥١، فوجد به ٢٤ تابوتًا من الجرانيت والبازلت، لا تزال فى مواضعها، ويزن أثقلها حوالى سبعين طنًا. وبه حجرة بنيت فى السنة الثلاثين من حكم رمسيس الثانى، وجدت سليمة كما وُجد أثر قدم آخرٍ مصرىٍ يغادر المكان قبل إغلاقه، ولا يزال ذلك الأثر واضحًا. أعاد بطليموس الأول النشاط فى السيرابيوم القديم، وذلك بإدخاله الإله الجديد سيرابيس. وكان يقوم بالخدمة فيه رهبان متطوعون (القاطوع)، ويشمل مصحة حيث يفد المرضى طلبًا لمعجزة الشفاء. وأمام المدخل بهو على جانبيه تماثيل، وأقيمت بقربه تماثيل الشعراء والفلاسفة الإغريق، على شكل نصف دائرة. [المترجم نقلاً عن معجم الحضارة المصرية القديمة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦]

الكُتّاب هذه الجزئية من النص على أساس صلتها بالصليب الذى لا مقبض له، وهو ما نراه فى بعض الحالات الشاذة، كما ورد مرتين بالفعل فى حجر رشيد، لكن يبدو أن هذا الرمز يدل على معنى قوة الحماية بدلاً من الخلود. واتفق، ربما بمحض الصدفة البحتة، أن أحد الصيغ المختصرة لكلمة "إله" التى تستخدم بوجه عام فى اللغة القبطية تقترب كثيراً من هذا الحرف فيما عدا أن ذراعى الصليب داخل دائرة.

١٠٩ . تأتى كلمة "الخلود" أو "الأبدية" ببساطة على شكل أفعى تقف فى قوس مائل بلا قرون، أما الأفعى التى تلتهم ذيلها وتلتف حول نفسها لتصنع دائرة فلا توجد على الإطلاق بين الرموز المصرية القديمة. ويقول هورابوللو أن الصورة الدالة على الخلود هى لأفعى تخفى ذيلها تحتها. وتسمى هذه الأفاعى Uraei التى تعنى الأفاعى الخرافية فى اللغة اليونانية، وهذا يتفق تماماً مع معنى كلمة Uro فى القبطية التى تعنى "ملك"، لكن هذا الوصف يتفق أكثر مع كلمة "حية صغيرة" asp فى حجر رشيد وهو ما يتصل أيضاً بصور الآلهة رغم أنها لا تدل دلالة دقيقة على معنى الخلود.

١١٠ . من الصفات الشائعة الصليب مع الأفعى بمعنى السرمدى أو "الخالد" أينوبياس Aenobias، أما الخط المموج فهو فى الغالب حرف جر أو لاحقة بمعنى "مِن" of أو "إلى" to أو "من أجل" for، كما يبدو أنه مرادف لكلمة قبعة (لوحة ١٧٧). تسرع كل الكُتّاب تقريباً فسلّموا بأن هذا الحرف لابد أن يكون ذا صلة مباشرة بالماء أينما وُجِد، رغم أننا وجدناه مكرراً فى كل سطر من سطور حجر رشيد فى الوقت الذى لم يرد فيه ذكر الماء مرة واحدة. لكن الحقيقة هى أن الأصل يبدو أنه جدول ماء أو أى سائل آخر يتدفق "مِن" إناء ويُصَبّ "على" بعض الأشياء الأخرى، لكن فكرة السائل سقطت تماماً من الاستخدام العام للحرف ولم يبقَ سوى "أداة الصلة"، كما نُسيَت بالمثل القبعة أو الطاقية وأُشيرَ إلى الصلة برأس من يرتديها من خلال شكلها فحسب. فى هذا الحرف المركب هناك مقطعان متشابهان تقريباً هما شبه الدائرة والخط ويظهر هذا التشابه من خلال استبدال شبه دائرتين من حين لآخر فى الحروف المركبة. أحد هذين المقطعين يدل على الصلة بين الحياة والخلود "الحياة إلى الأبد"، أما الآخر فهو لتحويل العبارة المركبة الجديدة إلى صفة "حى إلى الأبد".

١١١ . يرد المثلث أو الهرم كثيراً بين غيرهما من رموز الرخاء والسعادة، كما عثرنا عليه على إفريز مونتاجو وفيكوروني بمعنى القربان أو الهدية بوجه عام، في الوقت الذى ظهرا فيه في موضع آخر بمعنى قربان بشكله المعروف؛ وبذلك لا يتسنى لنا سوى تفسيرها باعتبارها دالة على "البهجة" أو السرور أو الرخاء. (النقوش الهيروغليفية Mqr V، Uqu؛ ٩ Re، Rl؛ V Uq، Urs).

١١٢ . يُشار إلى "السلطة" من خلال صولجان ذى رأس حيوان غالبًا ما نجده فى يد الآلهة، وعادةً ما يمثل إلى جانب الصليب والهرم والمذبح رمزًا للنعم التى يحظى بها من ترضى الآلهة عنهم. وقلما تستخدم هذه الكلمة فى نصوص النقوش وإن وردت مرة فى حجر رشيد.

١١٣، ١١٤ . يدل على كلمة "الاستقرار" - سواء فى حجر رشيد فى غيره - المذبح الذى يبدو مثبتًا فى الأرض كأى عمود. فإذا جاء مكرراً، فإن هذا يدل على الفعل "يؤسس" أو "ينشئ"، لكنه غالبًا ما يأتى مفرداً وكرمز منفصل بوجه عام مصحوبًا بحروف أخرى ذات معنى مشابه، وأحيانًا ما يوجد كحرف مستقل مكونًا من الخزف المطلى بالزجاج. يبدو المذبحان فى غاية الوضوح فى بعض الرسائل والمخطوطات وهى ذات فائدة كبيرة إذا ما قورنت بالكتابة الكهونتية(٧) hieratic، لكن الكلمة المستخدمة فى النص الشعبى فى حجر رشيد مشتقة على ما يبدو من أصل مختلف.

١١٦ . تتفق كل من كلمة ثور صغير وذراع ويقعان بوجه عام فى بداية النقوش على المسلات بصورة كبيرة والصفة "قوى" فى ترجمة هيرمابيون Hermapion. وتستخدم الذراع فى الكثير من الحالات الأخرى فى الكلمات المركبة.

١١٧ . يدل غصن الشجر ولعله سعف النخيل على "النصر" بالإضافة إلى شبه الدائرة والدائرة التى يسبقها الخط المموج فى بعض الأحيان.

(٧) الكتابة الكهنوتية hieratic: نمط من الكتابة متعلق بشكل من أشكال الكتابة المصرية القديمة أبسط من الهيروغليفية. [المترجم]

١١٨ . يشبه الحرف الدال على الثروة إلى حد ما دلالة "الذهب" (ملحوظة ١٠٥)، لكن وبدلاً من القوس، فإن لدينا خطًا ذا زوايا يبدو أنه كان مخصصًا لذراعين تحملان المزهرية. وتقترب الصورة كلها أيضًا من شكل الجيب أو صرة المال كما تظهر في الرسومات مرارًا.

١١٩ . من الواضح أن المربع المفتوح المنحنى إلى الداخل يعنى "البهاء" أو العظمة رغم عدم اليقين من الشيء المطلوب تصويره. وفى بعض الحالات، يُستبدل هذا الشيء بالهلال للصلة بينه وبين الشمس، وللقمر معنىً مزدوج.

١٢٠، ١٢١ . يعبر المربع المفتوح عن كلمة "لامع" أو "شهير" فى حجر رشيد لأن "البهاء" والشكل البيضاوى الذى يعنى الإضافة أو الاحترام مما يجعلها صيغة تفضيل، والساقان التى تعبر عن مفهوم "الحمل" أو الاقتناء؛ ومن ذلك نحصل على الصفة "اللامع" أو "إبيفانيس". وعادةً ما يلى هذه العبارة فى بعض المخطوطات تصوير لطائر أو ما يناظره ونصف قوس وهى بمثابة دلالة على زيادة قوة الصفة.

١٢٥ . للعين سواء جاءت بالبؤبؤ أو بدونه، وسواء سبقها الخط المتموج أم تلاها دلالة مشابهة إلى حد ما لكل هذا، وغالبًا ما تستخدم فى استهلال النقوش الشرفية. ويقصد بالعين "الشعيرة الدينية" أو التيه والإعجاب فى حجر رشيد. أما الحرف الشعبى المقابل له فيعبر ببساطة عن كلمة "الفعل" لأن نفس الكلمة فى اليونانية تعنى "يفعل" و"يضحى".

١٢٩ . يشير تكرار الإوزة المصرية أو الشهرمان إلى جانب الدائرة فوقه ومجيئها بين اسمى علم إلى معنى هذه الحروف التى تتصل بالعلاقة بينها، ولابد أنه يعنى "ابن". فربما دلت الدائرة على البيضة، لكن القرص يظهر باللون الأحمر فى النحت الملون، أما المحيط فأبيض. ويشبه الحرف الشعبى الشكل الذى تعبر عنه بعض أنواع الطيور عادةً فى المخطوطات. كما لاحظ مستر بايلى Mr. Bailey أيضًا أن الطائر يأتى بين اسمى علم، وربط بين هذا وبين تشينالوبيكس Chenalopex الذى ذكره هورابوللّو إذ جاء للتعبير عن كلمة ابن على أساس شجاعتها فى الدفاع عن أولادها. كان من المتوقع أن

تفضى هذه الصفة إلى تبنيها كرمز للأبوة أو الأمومة، إلا أن ملاحظات علماء الطبيعة المحدثين بخصوص الشهرمان أو "تادورن" بوفون tadorne of Buffon أكدت على وجود تلك الخاصة فى الطائر موضع الدراسة، ويعتبر طائر تادورن بوفون بوجه عام هو تشينالوبيكس، كما يشبه إلى حد كبير أفضل الرسومات الهيروغليفية للطائر، رغم أن الألوان ليست طبيعية كما ظهر فى كتاب "وصف مصر".

١٣٣ . تعبر عن "الطفل" أو "الرضيع" صورة شخص منحنٍ كأنه جالس وهو يضع إصبعه على شفته. يتضح هذا من خلال النقش ثلاثى (اللغات)، لكننا نزداد يقينًا من خلال إحدى اللوحات فى كتاب "وصف مصر" (الآثار جـ ٢ اللوحة ٨٦، ص ١)، تتمثل فيها صورة بهذا الشكل باعتبار أنها مستقاة مباشرة من الأب وهو ما توحى به صورة الخنفساء التى تدخل فمه. توفر لنا المخطوطات هنا بعض الخطوات القيمة حيث يتصل الحرف الشعبى بالنقوش الهيروغليفية المميزة. كما عُثِرَ أيضًا على شكل آخر يقابل الخنفساء فى النص الشعبى بمعنى ابن أو ذرية.

١٣٤، ١٣٥ . يقصد بالدائرة إلى جانب ذراع تتصل بخط ذى زوايا "المدير" أو "القائد"، فالخط ذو الزوايا يقصد به التعبير عن جزء من الدفة، كما يدل نفس الحرف مضافًا إليه صورة لقارب على ربان السفينة أو "قائد دفتها" كما يتضح من أجزاء متعددة من التابوت الأخضر. كما توجد الدائرة والذراع فى الحرف الذى يدل على كلمة "يكرس".

١٣٦ . يعنى الذراعان اللتان تمسكان بمجداف وتتصلان بشىء أشبه بقطاع من دائرة "المجدف"، وربما دلت على العامل بوجه عام كما هو الحال فى كلمة "صورة".

١٣٧ . ساق أحد النباتات لعله القصب يليه صورة حشرة تشبه الدبور أو الذبابة النِّمسية[8] ichneumon، لكن المقصود منها النحلة، وشكلين من أشباه الدوائر هى

(٨) الذبابة النمسية أو الزنبور النمسى ichneumon: حشرة تعيش متطفلة على الحشرات والعناكب الأخرى، وتنمو يرقة هذه الحشرة – فى معظم مراحلها – داخل الحشرات الأخرى غير كاملة النمو. وينمو بعضها داخل أجسام العناكب أو يرقات الكائنات الأخرى. ويبلغ طول الزنبور النُّمسى ما بين ٠,٣ و٥سم. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الأنثى لديها عضو يبلغ طوله أكثر من ١٥ سم يطلق عليه اسم حامل البيض. =

الرمز الكامل "للملك"، غير أن القصب غالبًا ما يستخدم وحده للدلالة على نفس المعنى، كما تأتى الحشرة أحيانًا بدون القصب. يقول بلوتارك إن ورقة الشجر، أو ورقة التين Thrion تدل على الملك، كما يخبرنا هورابللو أن النحلة تدل على الشعب المطيع للملك؛ ومن ثمَّ يمكننا تأويل هذا الرمز باعتباره "ملك الشعب". إلا أن أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus يؤكد ببساطة أكثر أن الملك تعبر عنه النحلة. يبدو من المخطوطات أن بداية الحرف الشعبى الذى يقرؤه مستر آكربلاد Phu مشتقٌ من الآثار الأولية الدالة على القصب وشبه الدائرة والخط المتموج والإله الجالس بمعنى "الملك الإلهى" وهى مجموعة من الصور غالبًا ما تظهر على التابوت الأخضر وفى غيره للدلالة على أى من الملوك والأمراء. يمثل باقى الحرف الشعبى لاحقة تتكون من نصف دائرة وإناء تضاف عادةً إلى الاسم للتعبير عن الاحترام مثل الإناء واللولب بالنسبة للإله نيلوس Nilus.

١٣٨ . يدل على كلمة "الشرط" أو الإخضاع حرف يشبه إلى حد ما مذبحًا به قربان من الزهور، لكنه ربما دلَّ على كأس زهرة وهناك حشرة تحوم فوقها.

١٣٩ . يستخدم التاج فى كلمة "مملكة" على سبيل المجاز للدلالة على صاحبه وهو استعمال شائع فى الكثير من اللغات الحديثة.

١٤٠ . يمكننا اقتفاء أثر الحرف الدال على كلمة "إراقة (الخمر) كقربان" فى النقوش المقدسة بحجر رشيد؛ وبالتالى يستحيل تفسير شكله الأصلى دون الرجوع إلى الآثار الهيروغليفية الأخرى. ويشبه إبريق الماء الطويل الذى يصب منه شخص حانٍ لظهره جدول ماء مزدوج إلى حد ما أباريق الماء التى تحملها امرأة مصرية حديثة كما تصورها إحدى اللوحات فى الطبعة الثانية من كتاب مستر لى Mr. Legh.

= ويتكون هذا العضو من ثلاث جدائل دقيقة تشبه الخيوط تدخل فى تكوين أنبوب حامل البيض، وتنزلق هذه الجدائل الثلاث للأمام والخلف لنقل البيض أسفل الأنبوب الحامل للبيض. وبعض أنواع هذه الحشرة يقوم بثقب الأشجار بواسطة حامل البيض، حيث تضع بيضها فى ثقوب تسكنها يرقات الخنافس والأنواع الأخرى من الزنابير. هذه الحشرة مهمة فى الزراعة، حيث إنها تتغذى بالعديد من الحشرات الضارة بالمزروعات. ويوجد فى العالم أكثر من ٦٠,٠٠٠ نوع من هذه الحشرة. [المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

١٤١، ١٤٢ . أحيانًا ما تأتى المزهرية مع الغدير وحدهما حيث يظهران مرارًا فى الحرف الدال على "الكاهن"، ولابد أن هذا متعلق بنوع معين من "الطقوس" التى يؤديها الكهنة تقترب من طبيعة إراقة الخمر فى قربان للإله. ويظهر الخط فى حجر رشيد على هيئة منحنىً بسيط وليس متموجًا، كما أن المزهرية لا تظهر فى التصوير بشكل مميز. وأحيانًا تحل القدم محل الشخص الجالس كما هو الحال فى كلمة "فرد من أفراد الحاشية" والحرف الشعبى ليس إلا صورة مقربة من هذا الشكل أكثر من الصورة الكاملة.

١٤٣ . "الكهنوت" ببساطة هو "الحالة" التى يوجد عليها "الكاهن" ويناظر الحرف الذى يبدأ بهذه البادئة بالبادئة القبطية Met وبالنهاية اليونانية Eia.

١٤٤ . تستخدم زينة الرأس عمومًا للإشارة إلى الشخص الذى يرتديها، كما توجد الزهور خصوصًا أزهار اللوتس فوق رؤوس الكهنة وفى النقوش المصاحبة لها على السواء. ويتفق معنى كلمة "الكهنوتى" تمامًا فى ظل هذا السياق حيث يوجد هذا الحرف، رغم أنه لا يمكننا استنتاج ذلك باليقين المطلق بالمقارنة مع النص اليونانى.

١٤٥ . ليس من اليسير بمكان معرف السبب الذى يجعل من شكل كالإبزيم دالاً على معنى كلمة "اجتماع" أو "جمعية" ولعل هذا يرجع إلى أن الجزء العلوى كان فى الأصل على هيئة هلال بما يدل ضمنًا على كلمة شهرى، وعادةً ما يأتى الميزان أو الصحن فى الجزء السفلى لتدعيم بعض القرابين التى تثبت عموديةً داخلها؛ ومن ثمَّ يُقصَد من مجموعهما "المعرض الشهرى".

١٤٦ . تتحول كلمة "إله" إلى نعت بإضافة الخط المتموج والقطرة الطويلة مما يحولها ببساطة إلى كلمة "مقدس"، فإذا كان للقطرة أى معنى آخر، فإنه لا يمكن أن يتعلق إلا بمعنى العبادة أو التبجيل والتوقير لأن الحرف الذى أضيفت إليه البادئة فى النص الشعبى بما يناظر الميزان أو الصحن يأتى فى مواضع أخرى للدلالة على كلمة "الشرف" أو "الانتباه". وتستخدم الدائرة والخط المتموج فى بعض الحالات الأخرى بطريقة مشابهة للربط بين حرف وآخر مثل الاسم والنعت.

١٤٧ . تتكون الصفة "مقدس" أو مخصص للعبادة من غصن أو جذر ثلاثى الشعب يعقبه خط منحنٍ. وتأتى هذه الصفة كثيراً بالقرب من بداية النقوش وعلى المسلات وغير ذلك من المواضع.

١٤٨ . يقصد بالصليب المائل الصغير فوق ذراع إلى جانب ريشة على ما يبدو الفعل "يعطى" وربما يقاتل ويدافع ذلك أن للكلمة Ti فى القبطية هاتين الدلالتين. وغالبًا ما تسبقها دائرة وشبه دائرة.

١٤٩ . يقصد باليد التى تحمل المثلث أو الهرم فى إفريز مونتاجو وفيكوروني الفعل "يقدم" قربانًا كما هو الحال أثناء إراقة الخمر لأحد الآلهة.

١٥٠ . وجدنا كلمة "يخصص للعبادة" فى حجر رشيد عبارة عن خط منحنٍ وشخص جالس إلى جانب الدائرة والذراع التى تتصل بالدفة ويسبقها الحرف الذى يعنى "مقدس"، لكننا لسنا على يقين تام من رجوعها إلى نفس العبارة.

١٥١ . تشتق كلمة "قانونى" أو "شرعى" من الإله بصفته القضائية ويسبقه طائر بين شبه دائرتين ولابد أنها تعنى "بموجب" التى تناظر اللاحقة أو النهاية ful فى اللغة الإنجليزية. وأحيانًا ما يستبدل الخط المنحنى الذى تدعمه ساق نبات كمرادف لصورة القاضى.

١٥٢– ١٥٤ . هناك شبه كبير بين الحرف الدال على كلمة "خير" وشكل العود الذى يبدو لنا فى حجرة آلات الهارب بين سراديب الموتى، ولعلها تشير ضمنًا إلى صوت الموسيقى الباعث على السرور. أما صيغة الجمع فى ظل وجود الميزان أو الصحن التى توحى بمعنى "إسباغ النِعَم" يتكون منها النعت "مُتَناوِل" (من التناول فى المسيحية) Eucharistus وهى كلمة ذات أكثر من معنى فى اليونانية فهى إما تعنى ممتن أو "كريم" وهذا المعنى الأخير لابد أنه هو المعنى المقصود فى هذا النص لأن "الهدايا النافعة" أو "المباهج" ربما جاءت بصيغة الجمع، لكن ذكر ليس بالشيء اليسير بالنسبة لكلمة "الشكر أو الامتنان". كما عثرنا على العود دالاً على معنى الخير فى

أجزاء أخرى من النقش. ولا يمكن التوصل إلى الحرف الشعبى المشتق من كلمة الميزان دون الرجوع إلى المخطوطات التى يتضح منها دائمًا وجود شكل وسيط ربما جاء لإدراك أحد الخطوط التى تساند الميزان.

١٥٥ . يقصد بشبه الدائرة بالإضافة إلى الشرطتين المائلتين كلمة "عظيم" ضمن اسم تحوت الذى يطلق عليه فى النص اليونانى من حجر رشيد هرميس "العظيم والعظيم"، فى الوقت الذى يعبر فيه هذا الحرف دائمًا عن معنى المُثنى. وتشبه صفة تحوت فى النص الشعبى قليلاً التاج إلى جانبه شبه دائرتين وهو ما نجده بكثرة وسط ألقاب أوزوريس لاسيما إذا جلس للقضاء بين الناس.

١٥٥*. تعبر حروف حجر رشيد عن نوعى رداء الرأس الذى ترتديه مختلف الآلهة للدلالة على الإقليم "الجنوبى" (مصر العليا) و"الشمالى" (مصر السفلى) من البلاد. كما عثر أيضًا على هذين الحرفين معًا فى التابوت الأخضر كاسمين من أسماء الآلهة ذُكِرا معًا فى واحد أو اثنين من النصوص فى بعض المخطوطات وفى أحد النقوش فى فيلة؛ ورغم أن التصوير غير واضح على الإطلاق بخاصة فى حجر رشيد، فإننا لا نشك فى أن غطاء رأس أوزوريس يعنى – فى هذه الحالة – "أعلى منزلة" بينما تعنى بالنسبة لهايبريون Hyperion وغيره من الشخصيات "أدنى منزلة".

١٦٠ . تظهر الحلقة التى تدل ضمنًا على "الاسم" وتميز أسماء الأعلام فى مواضع أخرى كمحاكاة للمُلصَق أو العلامة التى يطلق عليها "تعويذة" أو "تميمة" فى النص اليونانى من حجر رشيد، ويظهر عليها غالبًا اسم الشخص.

١٦١ . القرص الذى تنبعث منه الأشعة واحد من الحروف القليلة التى يساعدنا فيها الشكل إلى حد ما على تحديد المعنى الذى عُرِفَ بأنه "منير"، رغم أن المصريين القدماء جانبهم الصواب إلى حد ما فى وصفهم لحركة الضوء حينما جعلوها تنبعث فى خطوط منحنية كتلك التى تصفها أى قذيفة عادية.

١٦٢ . يستخدم كلٌ من القالب المربع وشبه الدائرة والسلسلة بوضوح بمعنى "عاشق" أو محبوب وهى تناظر كلمة Mai القبطية. وأحيانًا يغير المربع وشبه الدائرة مواضعهما بالتبادل فى الحرف الشعبى، كما تتغير فى أحيان أخرى إلى الشكل البيضاوى.

١٦٣ . تتمثل كلمة "الحامى" أو المُخَلِّص عن طريق نوع من أنواع نبات النَّفل[٩] أو البرسيم trefoil ذى الساق الطويل وهو ما يناظر الصليب أو المسلة فى النص الشعبى، إلا أن الحرف يتخذ شكلاً أكثر بساطة فى التركيب فى نصوص أخرى، كما يتميز فى مواضع أخرى بشىء أشبه بالجذر بصلى الشكل.

١٦٤، ١٦٥ . يأتى الإطار الذى يشبه السلم تدعمه ساق نبات فى بعض الأحيان كجزء من رداء الرأس، لكن من الصعب القول إذا ما كان يمثل أى شىء آخر. فإذا تلاه صورة ذراع وساقين، فهذا يدل على الفعل "ينشئ" أو "يرفع". وتتسم هذه المجموعة من الحروف بظهورها بكثرة، كما يشكل الخط المنحنى أو العمود المقسوم أحيانًا جزءًا منه. أما فى القبطية، فإن الفعل "ينشئ" أو "يرفع" يدل على معنى التعبير "يطأ بقدمه" set on foot وهو ما يحتفظ بشىء من وجه التشابه مع الحرف الهيروغليفى. لكن استبدال الريشتين بساقين لا يغير المعنى بشكل محسوس؛ لكن السياق الذى يأتى فيه يتطلب كلمة "يُعِد" أو يشيد.

ز. العلاقات

١٦٦ . يدل شكلان بيضاويان إلى جانب شبه دائرة وذراع بشكل واضح على معنى "لكى". ويبدو أن الشكلين البيضاويين يدلان على معنى إلى أو "من أجل"، بينما تدل الذراع على الحركة أو "الفعل" لأن that فى الإنجليزية تعادل that الألمانية التى تعنى "عمل" أو "فعل". وتدل نفس هذه المجموعة من الحروف فى موضع آخر على معنى

(٩) النفل أو الشجرة الثلاثية الأوراق trefoil : اسم يطلق بصفة عامة على عدة أنواع من النباتات، لها أوراق مركبة مكونة من ثلاث وُرَيْقات مثل البرسيم. وهو يطلق بصفة خاصة على مجموعة اللوتس التى تنتمى إلى فصيلة (البازلاء). وتوجد أفراد متعددة من هذه الفصيلة فى المناطق المعتدلة من نصف الكرة الأرضية الشمالى. وثمة نبات ثلاثى الورق يطلق عليه اسم رجل الطير، سمى كذلك لأنه يحمل عناقيد من الأكمام تشبه إلى حد بعيد رجل الغراب. وتحتوى فصائل (أنواع) الشجرة الثلاثية الورقة الأخرى رجل طير المستنقعات، الذى يوجد بكثرة فى أرض المراعى الرطبة.[المترجم نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية]

"بالإضافة إلى" فى الوقت الذى يُحذَف فيه أحد الشكلين البيضاويين. أما ما يقابل المعنى فى القبطية هى كلمة Hina أو Ethbe.

١٦٧ . الرموز المستخدمة للدلالة على معنى كلمة "حيثما" أو "أينما كان" يقصد بها "عند" و"فى" و"واحد" أو "فى" و"مكان" و"واحد" كلٌ على حدة، فإذا ما استبدلنا آخر اثنين، فإننا سنحصل على الكلمة القبطية E-U-MA .

١٦٨ ، ١٦٩ . يقصد بالذراع والسلسلة "واو العطف" أو "أيضًا" وأحيانًا يحل الشكل البيضاوى محل الذراع دون أن يحدث تغير كبير فى المعنى، كما توجد هذه المجموعة من الحروف بمعنى "مع" أو "معًا". والظاهر أن المفهوم الأساسى فى هاتين الكلمتين هو "يضع" و"مع" أو "يضيف" و"مع". وتفصل الذراع والسلسلة بين اسمى بطليموس وبيرنيس فى الكرنك.

١٧٠ . يدل نصف القوس أو الشوكة التى تناظره تمامًا يليها تجعيدتان وشبه دائرتين على معنى "علاوة على ذلك". ويشبه التكرار ما تتميز به الكثير من الأفعال القبطية حيث تدل ضمنًا على استمرارية الفعل بوجه عام.

١٧١ . تدل كلٌ من العُقدة أو حبل الرفع (المقلاع) إلى جانب شبه دائرتين وثلاثة أشكال بيضاوية على معنى "بالمثل". تمثل العُقدة دلوًا مخصصًا لواحد من زوج محمول على سارية كما تظهر مرارًا فى الألواح؛ ومن ثمَّ لابد أنها تعنى "رفيق"، ولذلك فإننا نجدها فى أحد الصفات الشائعة للملوك، وعلى المسلات وغيرها من الأماكن، فإذا أضيف إليها الدائرة والعارضة فإنها تعنى "رفيق الشمس" أو ببساطة "شبيه الشمس". تستبدل الرموز بالتبادل فى الحرف الشعبى لكلمة "بالمثل"، كما تتكرر العُقدة مرتين.

١٧٢ . يأتى البوم الدال على معنى فى كمرادف لنصف القوس الذى يُفهَم أحيانًا بمعنى "كل". يأتى كلا هذين الحرفين أيضًا فى الكثير من المواضع حيث لا يُنظر إليهما إلا باعتبارهما ألقابًا دالة على الاحترام لكنها ليست جوهرية بالنسبة للمعنى وهما يشبهان فى ذلك البادئة القبطية M وهى أداة لا يسهل إدراك كنهها ولا ترجمتها. من

الجدير بالملاحظة أن حرف M بين أبجدية آكربلاد هو الحرف الشعبى الذى يقابل كلاً من هذين الرمزين.

١٧٣، ١٧٤ . يستخدم الأرنب البرى فوق خطين متموجين سواء لوحده أو مع صورة لرأس وشرطة ودائرة وشرطة التى تدل منفصلة على معنى فوق upon أو فوق over أو "عند"، ومن الملاحظ أن هناك علاقة مشابهة فى القبطية بين Ehrei و EJO كما أن Jo أو Dcho تعنى رأس أيضًا. أما الحرف الشعبى فيتضح من خلال بعض أشكاله أنه محاكاة رديئة لأحد الحيوانات. دائمًا ما تظهر الرأس فى المخطوطات من خلال حرف يشبه حرف ?فى اليونانية، وربما كان هذا هو أصل الحرف القبطى Janjia إذا كان مشتقًا من الهيروغليفية، وربما دلَّ على كلمة مركبة من "دلتا" و"تشى" ch .[يُنطَق أحد الحروف الأرمينية الذى يشبه فى الشكل كالجيم غير المعطشة أو Dzh].

١٧٧ . القبعة أو غطاء الرأس الذى يقع فى المنتصف بين "صورة" و"ملك" لا تدل إلا على معنى "مِنْ" أو "من أجل" وغالبًا ما تستبدل بالخط المتموج فى النصوص التى تتكرر كثيراً، ويناظر كل من هذين الخطين الكلمة القبطية Nte أو على الأرجح N وهى تستخدم أيضًا فى بعض الأحيان لاشتقاق النعت من الاسم مثل Nnub ذهبى من Nub وتعنى ذهب.

ح. الزمن

١٧٨ . تعبر عن كلمة "اليوم" كما هو متوقع "بهاء" "الشمس" أو الشروق.

١٧٩ . تتكون الكلمة الدالة على معنى "الشهر" من الهلال المقلوب بالإضافة إلى أحد النجوم والشمس، كما يضاف إلى هذه الكلمة أحيانًا شبه دائرة وميزان أو صحن. ويقول هورابوللو إن معنى الشهر يتضح من خلال سعف النخيل أو الهلال المقلوب، إلا أن الهلال لا يظهر بوضوح على الإطلاق فى حجر رشيد لدرجة لا تسمح بالتعرف عليه إلا عن طريق الرجوع إلى النقوش المناظرة له.

١٨٠ . يعبر الخط المعوج مع نتوء بسيط فى المنتصف عن معنى كلمة "سنة" ويبدو أن هذا يدل على نبات أو برعم حولىٍّ، ومن الشائع أن تتبعه شبه دائرة وقالب أو شرطة.

١٨٢،١٨٣ . يتميز الشهر السادس "أمشير" بنصف عدد الأهلة التى تميز الشهر الثانى عشر وهو "مسرى". ولاشك أن هذه العلاقة ستتضح أكثر إذا اكتشفنا ما يشبه التقويم فى هذا الكم الهائل من الأدب المصرى القديم الذى لا يزال موجوداً لدينا. ولا يحق للمخطوطة التى يطلق مونتفوكون عليها اسم التقويم أن تُسمَّى بهذا الاسم لمجرد أنها مقسمة إلى اثنا عشر عموداً.

ك . الأعداد

١٨٦ . تعبر الخطوط القصيرة عن "الآحاد" كما هو الحال بالنسبة للأرقام الرومانية I. لاحظ مستر آكرбلاد أول ثلاثة أرقام فى السطر الأخير من الأبجدية المقدسة بحجر رشيد فى الوقت الذى لا يفى النص اليونانى بالغرض، ولم يبقَ من الكلمات سوى كلمتى "الأول والثانى"؛ وهذه الملاحظة وحدها كافية للبرهنة على أن الحروف الهيروغليفية تتصل بلغة حقيقية وليست مجرد زخارف للزينة كما يتوهم البعض.

١٨٧-١٩٦ . يقابل الخط الملتوى الذى يميز "الأعداد الترتيبية" كلمة Mah فى القبطية حيث يأتى كبادئة بالنسبة للأعداد الأصلية بنفس المعنى. وتستخدم النقاط "الثلاث" بوجه عام بعد أى كلمة من الكلمات للدلالة على الجمع، لكنها إذا جاءت الكلمة للدلالة على عدد، فإنها عادةً ما تأتى فوق بعض الحروف الأخرى مباشرة، ويتميز هذا العدد فى النص الشعبى بالخطوط المائلة التى ترتبط ببعضها البعض.

١٩٧ . لدينا الكلمة اليونانية pi بالنسبة للعدد "عشرة" سواء جاءت على هيئة مربع أو دائرة، ولا يقتصر هذا على حجر رشيد فحسب، بل يتعداه إلى الكثير من المواضع الأخرى.

١٩٨ . وجدنا الرقم "سبعة عشر" مرتين كتاريخ فى حجر رشيد، لكن الرقم ١٨ يَرِد فى النص اليونانى الذى يشير ضمنًا إلى نفس الفترة الزمنية فى موضع آخر، كما أن الكلمات الشعبية غير واضحة بدرجة لا تجعلنا قادرين على الحكم بتطابق الرقمين أو اختلافهما، لكن الفرق فى يوم ليس ذا أهمية تذكر لأن الاحتفال "بإنشاء الدولة" يمكن أن يبدأ فى يوم السابع عشر من أمشير ليستمر لليوم التالى وهو تاريخ المرسوم.

١٩٩، ٢٠٠ . يعبر الحرف الشعبى الدال على كلمة "ثلاثين" - بالنسبة للسنين - عن نفس الحرف المستخدم فى مواضع أخرى للدلالة على "اليوم الثلاثين"، لكن الأرقام تأتى مضطربة غير واضحة على الدوام بخط اليد، كما تعتريها العديد من الانحرافات عن النسق المعتاد للأبجدية المقدسة؛ فالعدد "أربعين" مثلاً فى النص المميز المتعلق بمستشارى أوزوريس الاثنين وأربعين يعبر عنه خط واحد إلى جانب شرطة فوقه.

٢٠١-٢٠٣ . يدل الشكل الحلزونى الذى يشبه رقم ٩ بالإنجليزية على العدد "مائة"، كما تدل الدائرة المسننة مضافًا إليها صليب على العدد "ألف" ويأتى هذان الرقمان فى الكثير من النقوش إلى جانب الآحاد والعشرات بما لا يدع مجالاً للشك بشأن الأعداد التى تمثلها. ويتبين هذا خصوصًا بعد النظر فى أحد النقوش "التى يُعتقد أننا عثرنا عليه فى الكرنك"."وصف مصر". الآثار جـ ٣ . لوحة ٣٨ . ص ٢٦-٣٠ .

٢٠٤ . تتميز "صيغة الجمع" بكتابة الحرف ثلاث مرات أو بوضع ثلاث شرطات بعده، وربما قبله وإن كان ذلك فى حالات نادرة جداً، وفى أحيان أخرى تأتى صيغة الجمع أيضًا بتكرار جزء من مجموعة من الرموز مرة واحدة فقط. عادةً ما تتصل الشرطات الثلاث فى المخطوطات بعلامة معوجة تسبق الكلمة وتليها أحيانًا فى النص الشعبى، بينما تتحول العلامة الثانية فى حالات أخرى إلى خط رأسى واحد يعمل على تحديد نطاق الكلمات التى يراد صياغتها فى الجمع؛ وجاء ذلك نتيجة لرداءة التعبير فلزم الاستعانة بهذه الوسيلة أكثر منها فى الأبجدية المقدسة. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه العلامة الثانية موجودة دائمًا فى النقش الشعبى وهو ما لابد أن يكون عليه الحال لو كانت الكلمة أبجدية لأن الكثير من صيغ الجمع فى المصرية القديمة تنتهى كما

تنتهى صيغ المفرد بالضبط، وحتى إذا اختلفت صيغة الجمع عن المفرد، فإن ذلك لا يتسنى من خلال إضافة أى نهاية قياسية...

موضوعات الآثار المصرية القديمة والسمة العامة لها

باستطاعتنا تكوين فكرة عامة عن طبيعة النقوش على الآثار المصرية القديمة الرئيسية الباقية من خلال معرفتنا بالحروف الهيروغليفية. وعلى الرغم من تعدد هذه الآثار، فليس من بينها ما لا يمكن الإشارة إليه باعتباره من النقوش على المقابر أو المتصلة بالقرابين؛ ويبدو أن النقوش الفلكية والتاريخية غير موجودة لأن الكلمات الدالة على الأعداد لم تأتِ بالشكل كما افتُرِضَ بالضرورة فى سجلات هذا الوصف، ولم نجد بين النقوش ذات الطبيعة التاريخية سوى المعبرة عن النصر وهى مميزة فى الغالب، لكنها دائمًا ما ترجع أيضًا إلى نقوش القرابين لأن كل مَن يروى أعماله البطولية سيرى من الحكمة أن ينسب المجد إلى أى من الآلهة، كما أن كل مَن يدون هذه الأعمال يميل عامةً إلى مزج الألقاب الشرفية الإلهية بالمديح. من المؤكد فعلاً أن المصريين القدماء لم يعتادوا تأليه أى من البشر، إلا أن حجر رشيد هو المرجع الوحيد الذى يأتى فيه ملوك مصر بنفس عدد آلهتها. ولوحظ هذا التقليد فى آثار ترجع إلى فترة زمنية متقدمة جدًا وهو ما يعتبر فى بلد كهذا نوعًا من الانحطاط سواء باعتبار سخافة تحول الملك إلى إله أو استثناؤه من بين جموع العامة؛ إلا أن التملق والمديح أكثر عرضة للخطأ عن طريق الإثبات لا الحذف، وبالتالى فإننا لا نجد حدودًا فاصلة بوجه عام بين كلمتى ملك وإله. تشكل النقوش على المقابر من خلال الاهتمام الذى يوليه قدماء المصريين لجنازات الموتى السواد الأعظم من الأدب المصرى القديم، كما تقدم لنا بعض الخصائص المميزة للغاية إذا ما درسناها مقارنة بغيرها. ويبدو أن المغزى العام وراء كل هذه النقوش، وكما هو متوقع من شهادة هيرودوت، هو توحد الشخص المتوفى مع الإله أوزوريس أو ربما مع إيزيس إذا كانت المتوفاة أنثى، كما أن موضوع أكثر الرسومات شيوعًا هو استقبال الآلهة الرئيسية لهذا الشخص الجديد الذى يتصل بهم

الآن على النحو الذى تعبر عنه النقوش كلٌ على حدة، ويبدو أن شرف التمجيد الذى يصل إلى حد التأليه وهو ما منحه الرومان القدماء لأباطرتهم والمحدثون لقديسيهم امتد على يد قدماء المصريين ليشمل الخاصة من الناس على كل الأصعدة. وهذا يتطلب مقارنة شاملة لهذه النقوش لمعرفة طبيعتها بدقة لأنها قلما تضم اسمًا محاطًا بحلقة أو دائرة بشكلها المعتاد، وأحيانًا يتكرر أحد الأسماء المميزة كثيرًا مسبوقًا باسم أوزوريس كما هو الحال فى التابوت الأخضر بالمتحف البريطانى، وهناك مجموعة معينة من الحروف – فى معظم الحالات الأخرى – ذات صلة واضحة بالشخص المذكور، وتأتى هذه الحروف بعد الرموز الدالة على أوزوريس بدلاً من اسمه؛ وبالتالى إما أن تُحذف الدائرة ببساطة أو يستخدم اسم جديد غامض فى بعض الأحيان يتكون عادةً من ألقاب الآلهة المتعددة ويناظر فى الغالب الاسم الحقيقى. ولابد أن لتلك العبارة المتكررة أى صلة بالمتوفى وهو ما يبرهن عليه عدم التشابه على الإطلاق بين أى مخطوطتين عند المقارنة، فى حين تتشابه كل الأجزاء الباقية تقريبًا من المخطوطات والنقوش فى الكثير من شتى الحالات الأخرى، بل تتشابه بعضها فى الكل تقريبًا، ويمكننا ملاحظة نفس هذه العبارة فى مخطوطات كلٍ من لورد ماونتنوريس ومستر بانكس، وتظهر هذه العبارة فوق رأس الشخص الذى يقف بين ربَّتين لكى يَمْثُل فى حضرة أوزوريس الحقيقى بشخصه وبصفته القضائية وحوله مستشاروه وميزان العدل أمامه. (هيروغليفى ,EFGef ٥). وفى هذه الحالة تتكون العبارة من أسماء "هايبريون" والشمس يسبقها قالب وذراع تقدم قربانًا (اللوحة ٧٨، O)، ويمكن ترجمته دون أى تكلف "نصير هايبريون وفرى". وفى أحد المخطوطات الصغيرة التى نحتها دينون، يتبع الجزء الذى يشبه العبارة المميزة فى المخطوطات الأخرى اسم أحد الملوك مطابق تقريبًا لاسم والد ممنون المزيف فى المتحف البريطانى، أحدهما يظهر به الحرف الأول من الأبجدية المقدسة بشكل واضح، بينما يحمل الآخر آثار قاعدة التمثال وهى الكلمة المناظرة لها...

تغطى توابيت المومياوات والتوابيت الحجرية الكبيرة بوجه عام رسومات شبيهة تمامًا ببعض تلك الرسومات الموجودة فى المخطوطات. تظهر اللوحة القضائية كثيرًا

وسط التوابيت وفوقها إيزيس ونفتاح على الجانبين وتأتى ريا فى المنتصف ناشرة جناحيها. تشغل المساحة السفلية صور عشرين أو ثلاثين من الآلهة الرئيسية يقدم لها المتوفى بصفته الروحانية فروض الطاعة والولاء، ولعل ما يميز كلاً منهم العلاقة التى تربطه بالصورة الجديدة لأوزوريس. أما فى المقابر، فإن الأشخاص أقل عدداً بوجه عام، وعادةً ما تظهر نفس الآلهة كما هو الحال على التوابيت الملونة، لكن دون تكرار الشخص المتضرع، ووفقًا لترتيب يخضع لقليل من التغيير. ويطلق على التابوت الجرانيتى الضخم الذى جاء من القاهرة إلى المتحف البريطانى المعروف سابقًا باسم نافورة العاشق اسم أبيس كجزء اسمه المميز. وبدا هذا لأول وهلة دليلاً على وجود مومياء أبيس داخل التابوت عن طريق حساب حجمها، لكننا عندما وجدنا رموز الآلهة الأخرى فى الأسماء الروحية فوق العديد من الآثار الأخرى، لم يعد هذا الاستنتاج قاطعًا بصفة مطلقة...

لدينا مثال قَيِّمٌ للغاية لأحد النقوش المخصصة للعبادة على نطاق واسع ويتمثل فى مرسوم محفوظ فى حجر رشيد، فإلى جانب فائدته فى تقديم الدليل الوحيد لفك شفرة الحروف الهيروغليفية، فإنه يعطينا أيضًا فكرة عامة عن أسلوب سجلات هيئة الكهنوت المصرية القديمة. المسلات هى أعظم الآثار المعبرة عن النصر وهى مخصصة للشمس حسبما يخبرنا بلينى، ومعنا كل الحق فى الافتراض بأن ترجمة أحد هذه النقوش التى حفظها أميانوس مارسيلينوس بعد هيرمابيون تضم تمثيلاً حقيقيًا لجزء من مضمونها لاسيما أن "أبوللو القوى" من هيرمابيون يتفق تمامًا مع الباز والثور والذراع التى عادةً ما تحتل بداية كل نقش من النقوش. وتتبع هذه الرموز عامةً عدد من الألقاب الفخرية التى لا تتصل دائمًا ببعضها البعض اتصالاً وثيقًا، وغالبًا ما نجد بينها لقب "إله الحية الحاملة للأكاليل" إلى جانب الألقاب الأخرى، وتسبق مباشرة اسم الملك واسم والده على أساس أن هذا الملك هو الموضوع الأساسى للنص.

ملاحظات

على لوحات مستر بلزوني

تقدم لنا اللوحات المصاحبة لعمل السيد بلزوني فرصة ممتازة لتوضيح وتأكيد بعض تفسيرات الحروف الهيروغليفية التى نُشِرت بمقال مصر بالملحق الخاص بدائرة المعارف البريطانية.

اللوحة رقم (١). يتمثل الملك فى الصورة الرئيسية لسرداب الموتى جالسًا على العرش أو كرسى الحكم، ويظهر على حزامه أو إزاره اسم الملك "بسمتك"، ملحوظة ٥٠ من مقال مصر.

يُقصَد بالقرص أو الدلاية المربعة التى تتدلى من الرقبة إما "تقبله الشمس" وربما "متميز بإنشاء إحدى المسلات". ويُرى على الصولجان أو العصا التى تُمسكها اليد أحد النقوش لهذا الغرض. "الإله الخيِّر، مسبغ النعم والمسرات على كلا القطرين، حامى الشعائر الدينية، الملك أوزوريس بسمتك ابن نخاو، رفيق الشمس وأوزوريس". تحتوى الأعمدة الخمسة من النقوش الهيروغليفية فوق المذبح على نص مشابه مع إدخال بعض الألقاب والصفات الإضافية.

يمثل النسر الذى يُحلق فوق الملك نوعًا من العبقرية الحارسة، ويمسك هذا النسر بحلقة أو دائرة تعمل فى بعض الحالات الأخرى على دعم الريش (الدال على المكانة) أو غير ذلك من النياشين. يدل النص بين النسر والرأس ضمنًا على "الحارس الملكى على كلا القطرين، المبتهج أو المتألق، العظيم، الحى، القوى". لكن إذا نظرنا إلى النقوش الأخرى، ولاسيما الأفاريز الخاصة بمستر مونتاجو، سنجد أن الخط ينتمى إلى النسر

أكثر منه إلى الملك. ويضم العمود الأفقي وراء الصورة عدداً من الألقاب والصفات المشابهة. "خادم الآلهة، الحي، الراسخ، القوي، الحارس العظيم للشعائر المقدسة، مالك الثروات، زينة الكهنوت، النبيل، المشرق كالشمس، الأبدي، المضفي الشرف على أسلافه". وليس هناك ما يكفي للرجوع إليه بالنسبة لكل الكلمات المستخدمة هنا، ورغم أن بعضها ليس ترجمة دقيقة للرموز، فإنها على الأقل تصوير محتمل لها.

المذبح أمام الصورة مثقلٌ بقربان مكون من مادة ما مقسمة إلى شرائح، لكنها متماسكة ككتلة واحدة. وسواء كانت هذه المادة من الفاكهة أو الكعك أو أي شيء آخر، فإننا نجد ما يلي مكتوباً: "الكهنة الذين يقومون على شئون احتفالات الإله الخيِّر يكرمونه بهذه الطقوس والشعائر، الحي، الجبار، ولي النعم في البلاد". تواجه هذه الكلمات الصورة السابقة، كما تنتمي إلى الصور التي يُفترض أنها تنظر إلى الملك سواء تمثلت في أي جزء آخر من الرسومات أم لا.

اللوحة رقم (٢). ينشر النسر الحارس هنا كلا جناحيه ويمسك في كلٍ من قدميه حلقة بها ريشة مثبتٌ بها مقبض. ونرى فوق الجناح الأيسر للنسر ما يلي: "الإله الخيِّر، مسبغ النعم على كلا القطرين؟ بسمتك، المبتهج والمتألق، الحي" وفوق الجناح الأيمن "ابن باسط المسرات؟ نخاو، رفيق الشمس". ينقسم الجزء الأسفل من اللوحة نصفين، كل منهما يناظر الآخر أو انعكاس له تماماً أو ذلك ما ينبغي أن يكون، رغم أن بعض الكلمات تظهر مقلوبة بشكل خاطئ. يظهر النسر ممسكاً برمز الحياة والحلقة بمخلب واحد وهو واقف على وسادة أو سجادة التي ينظر إليها بوجه عام باعتبارها وعاء أو حوض، إلا أنها تمثلت هنا على شكل شيء مسطح، ويأتي أسفلها غطاء رأس الكهنة ذي الزهور، ولعله يوحي بسمو وقداسة الأشياء فوقه، فالنسر يشغل على الأقل موقع الشرف، وربما كان موضوع الاحترام والتوقير الذي أشارت إليه كلمات الأعمدة الثلاثة التي تواجهه؛ ونحصل من ذلك على نص يشبه تماماً ذلك النص المنقوش على المسلات بوجه عام. يرمز الباز والكرة الأرضية إلى الشمس أو إلى ابنه أريوريس، ومن الصعب تحديد أي الآلهة هو المقصود هنا حيث نرى تصويراً للأفعى الخرافية واقفة أمامه

كدلالة على الشرف أو الألوهية. ويدل الثور والذراع معًا على صفة "الجبار". ويتكرر طائر البوم كثيرًا لدرجة أنه قلما يؤثر على المعنى، وإن دلَّ بوجه عام على الاحترام، ويليه كلمة أو حرف يشبه نصف زهرة مركبة يقصد بها "بهجة" من خلال النصوص التي وردت بها، وأحيانًا ما تُستبدل – على سبيل المثال – بالعود الذى يدل على "خيِّر" أو "كريم" ويرمز الصولجان بالريشة والقماش الملحق به إلى "السيادة" ويعنى الخط المعوج الصفة "عظيم"، وربما دلت الصولجانات المزهرة على كلمة "مزدهر"، كما يُشير الصليب ذو المقبض إلى كلمة "حى". ودائمًا ما يحيط بهذه الرموز مربع ذو هامش كما لو كانت راية أو شعارًا ويقف فوقه الباز، ويبدو أنها أقرب إلى التمثيل المجازى أو الرمزى من حروف أو كلمات تنقل أى معنى محدد تعبر عنه تلك الكلمات منفصلة وهو شىء كما يلى: "الشمس الرائعة، الجبار، منبع البهجة والمسرات، الحاكم الأعظم، المزدهر فى الحياة والجمال" [حامى.]وفى العمود الثانى "الملك أوزوريس بسمتك" [القوى والمبجل .]والعمود الثالث "ابن 'المحارب' نخاو أوزوريس". وفى الواقع يبدو أوزوريس أكثر قليلاً من "مكاريوس" فى النص اليونانى، إلا أن أوزوريس حينما يظهر بصفته الشخصية كقاضٍ أو ما شابه، فإن بعض الصفات المميزة تصاحب اسمه بوجه عام كالتى توجد فى السطر الخامس من اللوحة الأولى.

اللوحة رقم (٣). توجد أسماء بسمتك ونخاو التى تعلو تعويذتهما أقراص وريش معلقة فوق كراسى صغيرة ذات إطار من القماش المتدلى منها هنا فى المنتصف بين ثلاث صور فى مواضع مختلفة، وتمثل كل هذه الصور الربة المجنحة الحارسة التى توجد بكثرة على توابيت المومياوات، وربما دلت على ريا. كما توجد الأسماء على كل من جانبى الصورة العلوية ناشرة جناحيها، وبلا أى إضافة أكثر من "الملك أوزوريس بسمتك، ابن نخاو". ونجد فوق جناحى الصورة "الشرف الأبدى للربة القوية، ابنة العبقرى الخيِّر Good Genius الذى يقوم على إطاعة أوامر كبير الآلهة، "قائدة" ابن مسبغ النعم على مصر قطرى البلاد الجنوبى والشمالى". ويتكرر جزء من هذا النص فوق كل من الصور السفلى وهو "الربة ابنة" العبقرى الخيِّر. يختلف الحرف الأخير على كلا الجانبين، فعلى أحدهما شكل شبه منحرف فقط وعلى الآخر وعاء أو سجادة وشبه دائرة وعارضة ذات حافة بارزة.

:

اللوحة رقم (٤)، (٥). هذه رسومات تصور بسمتك وهو يقدم فروض الطاعة والولاء أو قل وهو يحتضن الإلهين المتصلين من عند الأقدام، ويبدو أنهما تجسيد لبعض الصفات التى يتمتع بها أوزوريس. يظهر اسم الملك فوق صورته فى اللوحة رقم (٤) يليها لقب تابع ل?ولكان أو المخلص لعبادة بتاح. ونجد فوق صورة الإله الذى يمسك بسوط أو مدراس للقمح وخُطّاف ما يلى "ابن الإله القوى الكريم المبجل، الحافظ، القاضى العظيم؛ تُقدم له الشعائر الإلهية للكهنوت". وتضاف اللحية إلى غطاء الرأس قبل الأذن كما هو الحال فى الكثير من الحالات الأخرى. الإله فى اللوحة الخامسة تجسيد لصفة "الاستقرار" وتأتى صورة لعينين دامعتين بين اللوحتين السفليتين أو نصف التمثال واليدين اللتين تمسكان بالخُطّاف ومِدراس القمح. وفوق صورة الملك نجد عبارة الملك أوزوريس مسبغ "النعم على البلاد". بسمتك القوى.

نجد فوق قرنى الإله الممتدتين عبارة إله الاستقرار، صورة "طبيعة الأشياء الإلهية". وخلف الساقين "الشعائر الإلهية إلى الاستقرار القوى، الراعى العظيم للشعائر المقدسة، كما يعلنها الكهنوت" شبيه بالشمس.

اللوحة رقم (٦)، (٧)، (٨). تعرض اللوحات الثلاث التالية أكثر الملامح المميزة لكل زخارف سرداب الموتى، فهى تضم شيئًا يشبه الموكب يبدأ بأربعة رجال حمر عليهم ثياب بيض، يتبعهم إله ذو رأس باز ثم (اللوحة رقم ٧) أربعة رجال بيض ذوى لحىً سوداء كثيفة وعصابة رأس بيضاء بسيطة تلتف حول شعرهم الأسود ويرتدون ثيابًا مخططة ومطرزة من الحواف، ويأتى بعد ذلك (اللوحة رقم ٨) أربعة رجال من الزنوج ألوان شعورهم مختلفة، ويرتدون أقراطًا دائرية كبيرة وثيابًا بيضاء طويلة مثبتة بحزام فوق الكتف، وأخيرًا ثلاث رجال بيض ذوى لحىً صغيرة ومتموجة الشعر، ويمتازون بضعف الريش فوق رؤوسهم وبالوشم، كما يرتدون الأردية المرقطة مثل جلود الحيوانات المفترسة. ويميل مستر بلزونى إلى النظر إلى الرجال الحُمر باعتبارهم مصريين والرجال ذوى اللحى السوداء باعتبارهم يهودًا وذوى الوشم باعتبارهم فُرسًا. وتتفق هذه الآراء المبنية على الحدس تمامًا وتاريخ الفترة الزمنية المعنية؛ فمن المعروف سواء

من التاريخ المقدس ومن خلال هيرودوت أن نخاو والد بسمتك خاض حروبًا ضد اليهود والبابليين، كما ذكر هيرودوت حملته العسكرية ضد الأحباش. وبذلك يمكننا النظر إلى هذا الموكب باعتباره مكونًا من الأسرى الذين سقطوا فى حروبه رغم أنهم ليسوا مقيدين بحبل كما نرى صور الأسرى عادةً على الآثار الأخرى، لكنهم وكما قيل يبدون واقفين فوق ظهر أفعى كبيرة كما لو جاءت بهم قوى خارقة للطبيعة ليخضعوا لسلطان الملك المنتصر.

ونجد فى سفر أخبار الأيام الثانى الإصحاح الخامس والثلاثين، ٢٠ هذا النص "بَعْدَ كُلِّ هذَا حِينَ هَيَّأَ يُوشِيَّا الْبَيْتَ صَعِدَ نَخُو مَلِكُ مِصْرَ إِلَى كَرْكَمِيشَ لِيُحَارِبَ عِنْدَ الْفُرَاتِ. فَخَرَجَ يُوشِيَّا لِلِقَائِهِ. ٢١ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رُسُلاً يَقُولُ:]مَا لِي وَلَكَ يَا مَلِكَ يَهُوذَا! لَسْتُ عَلَيْكَ أَنْتَ الْيَوْمَ وَلكِنْ عَلَى بَيْتِ آخَرَ أُحَارِبُهُ وَاللهُ أَمَرَ بِإِسْرَاعِي. فَكُفَّ عَنِ اللهِ الَّذِي مَعِي فَلاَ يُهْلِكَكَ 22 .[وَلَمْ يُحَوِّلْ يُوشِيَّا وَجْهَهُ عَنْهُ بَلْ تَنَكَّرَ لِمُقَاتَلَتِهِ وَلَمْ يَسْمَعْ لِكَلاَمِ نَخُو مِنْ فَمِ اللهِ بَلْ جَاءَ لِيُحَارِبَ فِي بُقْعَةِ مَجِدُّو. ٢٣وَأَصَابَ الرُّمَاةُ الْمَلِكَ يُوشِيَّا فَقَالَ الْمَلِكُ لِعَبِيدِهِ:]انْقُلُونِي لأَنِّي جُرِحْتُ جِدًّا 24 .[فَنَقَلَهُ عَبِيدُهُ مِنَ الْمَرْكَبَةِ وَأَرْكَبُوهُ عَلَى الْمَرْكَبَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي لَهُ وَسَارُوا بِهِ إِلَى أُورُشَلِيمَ فَمَاتَ وَدُفِنَ فِي قُبُورِ آبَائِهِ. وَكَانَ كُلُّ يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ يَنُوحُونَ عَلَى يُوشِيَّا" وأيضًا فى الإصحاح السادس والثلاثين، ١ "وَأَخَذَ شَعْبُ الأَرْضِ يَهُوآحَازَ بْنَ يُوشِيَّا وَمَلَّكُوهُ عِوَضًا عَنْ أَبِيهِ فِي أُورُشَلِيمَ. ٢ كَانَ يَهُوآحَازُ ابْنَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ وَمَلَكَ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ فِي أُورُشَلِيمَ. ٣ وَعَزَلَهُ مَلِكُ مِصْرَ فِي أُورُشَلِيمَ وَغَرَّمَ الأَرْضَ بِمِئَةِ وَزْنَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَبِوَزْنَةٍ مِنَ الذَّهَبِ. ٤ وَمَلَّكَ مَلِكُ مِصْرَ أَلِيَاقِيمَ أَخَاهُ عَلَى يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ وَغَيَّرَ اسْمَهُ إِلَى يَهُويَاقِيمَ. وَأَمَّا يَهُوآحَازُ أَخُوهُ فَأَخَذَهُ نَخُو وَأَتَى بِهِ إِلَى مِصْرَ". كما يخبرنا سفر إرميا الإصحاح السابع والثلاثون أنه فى عهد صدقيًا ابن يُوشِيَّا الذى مَلَكَ بدلاً من كُنْيَاهُو بن يَهُويَاقِيمَ خرج جيش فرعون "مِنْ مِصْرَ. فَلَمَّا سَمِعَ الْكِلْدَانِيُّونَ الْمُحَاصِرُونَ أُورُشَلِيمَ بِخَبَرِهِمْ صَعِدُوا عَنْ أُورُشَلِيمَ" لكن ما لبث أن أعاد نَبُوخَذْنَصَّرُ الكلدانيين مرة أخرى، واستولى على المدينة وأخذ صدقيًا معصوب العينين يرفل فى الأغلال إلى بابل. ويتفق التاريخ الذى رواه هيرودوت والكثير من هذه التفاصيل اتفاقًا دقيقًا بقدر توقعاتنا. ففى الكتاب الثانى.

"أصبح نيكوس Necos ابن بسمتكوس Psammetichus حاكمًا على مصر وهو الذى شرع فى حفر القناة المؤدية إلى البحر الأحمر التى استكمل العمل فيها داريوس Darius الفارسى فيما بعد. يبلغ طول القناة مسافة أربعة أيام بحرًا وعرضها يسمح لسفينتين شراعيتين كبيرتين بالإبحار فيها جنبًا إلى جنب وتأتى مياهها من النيل. تبدأ القناة قليلاً شمال مدينة بوباستيس Bubastis حتى باتوموس Patumus وهى مدينة فى شبه جزيرة العرب لتصب فى البحر الأحمر. بدأ الحفر أولاً فى الجزء الذى يقع فى سهول مصر بالقرب من الجزيرة العربية، ويمتد على طول هذا السهل الجبل الذى توجد به المحاجر حتى يصل إلى ممفيس، وتمتد القناة لمسافة طويلة على سفح ذلك الجبل من الغرب إلى الشرق، ثم تتحول جنوبيًا عبر طريق فى الجبل نحو الخليج العربى Arabian gulf. الآن يبلغ طول أقصر وأسرع ممر يصل بين البحر الشمالى أو المتوسط والبحر الجنوبى أو الأحمر حيث يبدأ عند جبل كاسيوس Casius وهو الحد بين مصر وسوريا ألف إستاد[1] stadia. هذا أقصر طريق، إلا أن القناة أطول بكثير لأن مجراها غير مباشر. وأدى حفر هذه القناة فى عهد الملك نيكوس إلى هلاك ١٢٠ ألف مصرى. وبعد ذلك توقف الملك عن الاستمرار فى الحفر بسبب نبوءة أعلنت أنه لا يعمل إلا لصالح البرابرة أو الأجانب، كما شغل نفسه فى عمليات ذات طبيعة عسكرية مثل بناء السفن الشراعية الضخمة على كل من سواحل البحرين المتوسط والأحمر، ولا تزال آثار الأرصفة والمعدات المستخدمة لبناء وتصليح السفن موجودة حتى الآن، وتلك السفن التى استخدمها كلما سنحت له الفرصة لذلك. "وخاض نيكوس معركة ضد السوريين فى مجدولاس (مجدو) Magdolus وهزمهم وبعد المعركة استولى على مدينة كاديتيس Cadytis وهى إحدى كبرى المدن فى سوريا". كما أهدى الرداء الذى كان يرتديه أثناء هذه الانتصارات إلى أبوللو وأرسله إلى برانتشيس Branchis فى ميليسيا Milesia. وبعد أن حكم لمدة ست عشرة سنة كاملة، وافته المنية تاركًا العرش لابنه بسمتك. لكن بسمتك لم يحكم سوى ست سنوات وتوفى بعد قيامه بحملة عسكرية فى الحبشة، وخلفه

(١) الإستاد stadium: وحدة قديمة لقياس الأطوال تعادل حوالى ١٨٥ مترًا. [المترجم]

ابنه "أبرياس" Apries الذى كان أوفر ملوك زمانه حظًا باستثناء جده الأكبر بساميتيكوس الذى حكم البلاد لمدة خمس وعشرين سنة".

ويأتى ذكر مدينة كاديتيس مرة أخرى فى الكتاب الثالث على أساس أنها "تتبع شوام فلسطين" وكذلك "باعتبارها مدينة لا تقل كثيرًا عن سارديس(٢) Sardes" ؛ وبذلك يتوفر لدينا الدليل الكافى على أنها تعنى أورشليم التى كان يطلق عليها فى بعض الأحيان مدينة "قادش" أو المدينة المقدسة.

هذا الاتفاق بين التاريخ المقدس والعلمانى بهذا الشكل الواضح فى سرداب الموتى شيء ملفتٌ للنظر بدرجة لا تسمح لنا بالبحث عن تفسير لذلك. لكن لابد لنا من الاعتراف بوجود بعض الصعوبات للتوفيق بين اسم بسمتك وبعض الآثار الأخرى ولاسيما مع أحد الآثار المهمة للغاية يأتى فيها ذكر ملوك مصر التى اكتشفها مستر بانكس فى أبيدوس. وعلى هذا الأساس لا يأتى سوى ملكين بين بسمتك هذا وممنون القديم؛ وبالتالى إن كان بلينى محقًا فيما ذكره عن هذه المسلة، فلابد أن يكون التراث الشعبى خاطئًا بشأن التمثال الذى يُفترض أنه يمثل ممنون. ليس من الصعب الاعتراف بذلك فالخطأ فى أى تراث شعبى وارد، لكن الصعوبة الأكبر تكمن فى النقش الذى عثر عليه مستر بانكس فوق ساق التمثال فى أبى سمبل وجاء فيه ذكر بسمتك، فإذا كان هذا هو بسمتك نفسه وهو ما يبدو الاحتمال الأرجح من جوانب معنية؛ فإننا نستنتج من ذلك أن الملك الذى شيَّد ذلك المعبد أقدم من بسمتك. لكن من المؤكد أن بسمتك كان سابقًا على مؤسس ذلك المعبد؛ ونستنتج من ذلك إما رجوع بسمتك إلى فترة زمنية متأخرة جدًا كما يشير إلى ذلك استخدام الحرف اليونانى Ψ فى النقش، أو عدم تشييد هذه المقبرة على شرف ابن الفرعون نخاو. كما لاحظ أحد العلماء البارعين

(٢) ساردیس Sardes: مدينة قديمة تقع فى تركيا بالقرب من مدينة أزمير الحالية، وكانت عاصمة مملكة ليديا، وترجع آثارها القديمة إلى عام ١٢٠٠ ق.م. غير أن هناك آثارًا أخرى تدل على أن المدينة أقدم من ذلك التاريخ. وقد احتلها الفرس عام ٥٤٥ ق.م تقريبًا، ودمرت هذه المدينة وأعيد بناؤها عدة مرات إلى أن دمرها الفرس أخيرًا فى سنة ٦١٥ ق.م. [المترجم]

فى دراسة الآثار المصرية القديمة، ووفقًا لشهادة هيرودوت (الكتاب الثانى ص ١٦٩) أن جميع ملوك هذه الأسرة دفنوا فى سايس[٣] Saïs، وأنه لابد لنا من رفض هذا الدليل أو الاعتراف بأن بسمتك أو نخاو ليسا الشخصين المقصودين فى التصوير. إلا أننا نأمل أن تقدم لنا الأبحاث فى المستقبل المادة التى ستمكننا من التخلص من هذه الصعوبة وغيرها من الصعوبات التى تُغلِّف التسلسل الزمنى لملوك مصر.

اللوحة رقم (١٣). من المحال بعد حذف النقش أن نحدد الربة أو الملكة التى يراد التضحية بالثور الصغير من أجلها.

اللوحة رقم (١٤). ويبدو من النقش أن صورة الأنثى ترجع إلى الملكة "أم" أحمس المذكور فى مقال مصر رغم أنها نُسخت بسرعة.

اللوحة رقم (١٥). ربما تحدد من النقش إذا كان أبيس هو المقصود بهذا الثور أو أى حيوان آخر من نفس الفصيلة.

اللوحة رقم (١٦). هذه اللوحة رديئة بشكل لا يسمح لنا بتكوين أى فكرة بشأن معنى النقش. ونجد فيها ما يلى "خادم المعبد الملكى ... الإله الحى".

اللوحة رقم (١٧). تتصل صورتا أنثى وثلاث أفاعى خرافية فى هذه اللوحة بإله واحد فقط، وهو نفس الإله الذى ظهر ناشراً جناحيه فى اللوحة رقم ٣، كما أن لكل النقوش نفس الأهمية تقريبًا. وليس من النادر أن نرى الأفعى الخرافية مستخدمة كتجسيد لربة يظهر اسمها فوقها.

(٣) سايس Saïs: عاصمة الإقليم الخامس من أقاليم الدلتا والذى سمى "نيت الشمالى"، تركزت فيه عبادة "نيت" إلهة الحرب عند قدماء المصريين، وهى المدينة المعروفة الآن باسم "صا الحَجَر" وهى من المدن المصرية القديمة ذكرها جوتييه فى قاموسه فقال: إن اسمها المصرى الدينى Hat Neit ومعناها قصر الإله نت، واسمها المدنى Sauo والأشورى Sai والرومى "سايس" Saïs والقبطى Sa، ومنه اسمها العربى "صا". وكانت قاعدة القسم الخامس وهو قسم Saïte بالوجه البحرى. عرفت فى العهد العثمانى باسم "صا الحجر" نسبة إلى ما تخلف من أطلالها من بقايا أحجار معبدها القديم، وآثار مدينة صا القديمة لا تزال مرئية بجوار القرية الحالية من الجهة الشمالية. [المترجم]

اللوحة رقم (١٨). الربة التى تصورها هذه اللوحة هى بوتو Buto الخاصة بمقال مصر. وأكثر ما يلفت النظر بشأن هذه الصورة ثيابها الضيقة المقسمة إلى أشكال سداسية غير منتظمة دون أى اعتبار للتغير الذى طرأ على شكلها من جراء بروزها، وهذا ما يدحض الحجة القائلة بسطحية السجادة أو الحوض؛ وهو استنتاج يرجع إلى تقسيم سطحها إلى مربعات متساوية. كما يضم كل خط عمودى أو مائل من الأشكال السداسية نقشًا يحتوى على اسم وألقاب "الإله الخيِّر بسمتك، ابن نخاو"؛ وتظهر الربة بزيها المميز ترحيبًا به. تمسك الربة يد الملك اليمنى بيدها اليسرى، بينما تقدم له بيدها اليمنى درعًا لوقاية الصدر تعلقه حول رقبتها، وهو ما يبدو "الأليثيا" Alethia أو "حقيقة" ديودوراس Diodorus الذى يخبرنا بأن رئيس القضاة كان يرتدى "درعًا للصدر مرصعًا بالجواهر وهو ما أطلق عليه اسم الحقيقة .... ونطق بالحكم الخاص بزملائه على هيئة لمس الفريق الفائز برمز العدالة الذى يرتديه". مقال مصر. جـ ٥ .

يوجد اسم الملك على حزامه وفوق رأسه كما تصاحبه فى بعض الحالات الأخرى بضعة من الألقاب والصفات كالمعتاد. ويتبع اسم الربة أيضًا علاقتها "بالإله العظيم" ولا يسهل إدراك كنه هذه العلاقة بشكل واضح دائمًا.

اللوحة رقم (١٩). يجلس أوزوريس على عرش الدولة تحمله أعمدة أو أقدام وسط رمز الاستقرار المناسب جدًا لهذه المناسبة، بينما يدخل كل من رمزى الحياة والسيادة فى الصورة، فى الوقت الذى يمسك فيه أوزوريس بخُطَّاف فى كلٍ من يديه ومدراس القمح فى اليد اليسرى أيضًا. ويقدم "أريوريس" ابن الشمس له الملك الذى يظهر اسمه على حزامه وفوق رأسه كما يتبين من النقوش وراءه. أوزوريس هو ملك الآلهة المتوج، وتقوم على شئونه إحدى الربات التى يشبه اسمها اسم بوتو مع إضافة إطار أو أداة لتسوية الأرض بعض الحرث أو ربما قفص تحمله أيضًا فوق رأسها؛ ومن الواضح أنها مقصودة للدلالة على خاصة مميزة، بل لعلها تدل على إله آخر. لا نعرف عن خصائص بوتو سوى أنها حاضنة أطفال أوزوريس وإيزيس، وأحيانًا تُصور على أنها رفيقة إيزيس، وتأتى عامةً بقرون، وأحيانًا أخرى برأس بقرة، إلا أن أداة تسوية الأرض

ليست بشكل عام واحدة من رموزها. يتسم ثوب أوزوريس هنا وفى الصور التى تجسد صفاته وألقابه فى اللوحة رقم (٥) بالبياض التام وهو الثوب المعتاد لأوزوريس حسب رأى بلوتارخ، رغم أنه يتصف فى بعض الأحيان بالسواد. تتوج الكرة الأرضية المجنحة اللوحة بأكملها تصحبها النقوش التى تأتى دائمًا كلما ذُكِرَ هذا الإله. ويبدو أن الرموز التى تكون الاسم هى العارضة المتموجة واليد، ويقصد بالكلمات التالية "الأب المقدس للقوى الحارسة، الحى، الذى لا يغيره شىء، المهيمن، والراعى".

اللوحة رقم (٣٥). "ساكيت" ولعله مشتق من كلمة "سينسكيتا" **Senskita** ذلك أن النص وردت فيه عبارة **Senskitic Isis**.

المؤلف فى سطور :

جيوفانى باتيستا بلزونى (١٧٧٨-١٨٢٣) رحالة وأثرى إيطالى ولد بمدينة بدوا بإيطاليا. توجه بلزونى بعد دراسة الهندسة الهيدروليكية بروما إلى إنجلترا عام ١٨٠٢، وعمل هناك لاعبًا للسيرك مستغلاً بنيانه الجسمانى القوى حتى عام ، ١٨١٥ بعد ذلك سافر إلى مصر حيث عمل بجمع الآثار لصالح المتحف البريطانى. ونجح بلزونى خلال عامين من إقامته بمصر فى نقل التمثال النصفى لرمسيس الثانى - المعروف باسم "ممنون الصغير" - من طيبة إلى المتحف البريطانى بلندن. كما زار معبد إدفو، وأزال الركام والرمال التى تراكمت على مدخل المعبد الضخم بأبى سمبل، وقام أيضًا بعمليات البحث والتنقيب فى الكرنك. وفى عام ١٨١٧، زار وادى الملوك حيث اكتشف مقبرة الملك المصرى القديم "سيتى الأول" التى تضم تابوته الفخم المصنوع من المرمر الأبيض (الموجود حاليًا فى متحف سوين بلندن). وفى عام ١٨١٨، أصبح بلزونى أول إنسان يتمكن من دخول هرم خفرع فى عصرنا الحديث، كما كان من أوائل الأوروبيين الذين زاروا واحة سيوة، وتمكن أيضًا من التعرف إلى أنقاض يُظن أنها مدينة برينيس القديمة التى تقع على البحر الأحمر. رحل بلزونى عن مصر إلى إنجلترا عام ١٨١٩، وفى العام الذى يليه نشر كتابه المعروف باسم "سرد بعمليات البحث والاكتشافات الحديثة داخل الأهرام والمعابد والمقابر والكشوف الأثرية بمصر والنوبة"، وهو الكتاب الذى يطالعه القارئ العربى باللغة العربية لأوّل مرة.

المترجم فى سطور :

○ علاء الدين محمود عبد الرحمن.

○ من مواليد دولة الكويت عام ١٩٧٦ .

○ تخرج فى كلية الألسن – قسم اللغة الإنجليزية – جامعة عين شمس عام ١٩٩٨، ويعمل حاليًا مدرسًا مساعدًا للغة الإنجليزية بالأكاديمية الحديثة بالمعادى.

○ حصل على درجة الماجستير فى اللغة الإنجليزية بكلية الألسن – جامعة عين شمس عام ٢٠٠٤ . عنوان الرسالة (دراسة نقدية ثقافية لديوان الشاعر كاونتى كَلِن "عُمْدَة أشعارى").

○ شارك فى عدد من المؤتمرات القومية والدولية فى مجالات اللغويات والترجمة والأدب والنقد، ونشرت له عدة مقالات علمية فى عدد من المجلات والدوريات العلمية والثقافية.

○ عمل فى حقل الترجمة فى مختلف مجالات العلم والمعرفة وترجم الأعمال التالية:

- كتاب "خط سكة حديد الحجاز" – مؤسسة التراث بالرياض – "تحت الطبع".
- موسوعة جينيس للأرقام القياسية (بالمشاركة مع مترجمين آخرين) – المجموعة الثقافية المصرية – عام ٢٠٠٠ .
- كتاب "سبعة آلاف عام من المجوهرات" (بالمشاركة مع مترجم آخر) – دار الكتاب العربى بالقاهرة – "تحت الطبع".

○ عمل فى حقل حقوق الإنسان وله عدة مقالات وعروض للكتب فى دوريتَىْ "سواسية" و"رواق عربى" – مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

المراجع فى سطور :

○ د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ.

○ باحث ومترجم متفرغ، ترجم العديد من الرحلات، نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب، منها "رحلة بيرتون ٣ ج"، "رحلة رودلف ٣ ج"، "رحلة بيتس"، و"ر. "ة فَ"رتيما (الحاج يونس المصرى)، الخ.

○ راجع وترجم بعض الدراسات للمجلس الأعلى للثقافة منها "الزمر الحاكمة فى مصر فى العهد العثمانى".

○ ترجم المجلدين الأخيرين فى قصة الحضارة لول ديورانت - نشر المجمع الثقافى فى أبى ظبى ودار الجيل بلبنان، بالإضافة لأعمال أخرى نشرتها الجهة نفسها.

○ نشرت له جامعة الملك سعود "رحلة بلى للرياض"، واشترك مع بعض إخوانه السعوديين فى ترجمة أعمال أخرى.

○ شارك فى الإشراف الأكاديمى وترجمة عدد من الموسوعات ("الموسوعة الإسلامية"، و"مجموعة أعمال محضير محمد عن الأمة الإسلامية").

○ اهتم أخيراً بالترجمة فى مجال الإسلاميات ومقارنة الأديان، ومن أعماله فى هذا المجال ترجمة أعمال منتجمرى وات: "محمد فى مكة"، و"الإسلام والمسيحية"، "والقضاء والقدر"، ... إلخ.

○ أخر ترجماته سلسلة كتب جورج بوش (الجد الأكبر) عن الإسلام والمسيحية منها ("محمد مؤسس الدين الإسلامى وإمبراطورية المسلمين"، و"تفسير رؤيا حزقيال" - نشر دار المريخ بالرياض - المملكة العربية السعودية.

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	چون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	چورچ چيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوڤا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إڤيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	ڤيسواڤا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديڤيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	چان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورچ سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	چون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	چون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	چيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	چان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديڤيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روچر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	پول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩- الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنچامين باربر	أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت دينا وچون فاين	أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روچسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢- السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبـة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	چوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	چى أنبال وألان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	پول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألڤين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣- عامل المنجم (رواية)	پيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسپوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً	چيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثان	على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى پاركر	على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	پاول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديڤيد هربت لورانس	طاهر محمد على البريرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	چوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧- الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١- الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ووابرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤- هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	چورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روچر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥- سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦- مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- أقدم لك: فتجنشتين	چون هيتون وچودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا   جين هوب وبورن فان لون   إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٤- أقدم لك: ماركس   ريوس   إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٥- الجلد (رواية)   كروزيو مالابارته   صلاح عبد الصبور

٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ   جان فرانسوا ليوتار   نبيل سعد

٣٠٧- أقدم لك: الشعور   ديفيد بابينو وهوارد سلينا   محمود مكي

٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة   ستيف جونز وبورين فان لو   ممدوح عبد المنعم

٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ   أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت   جمال الجزيرى

٣١٠- أقدم لك: يونج   ماجى هايد ومايكل ماكجنس   محيى الدين مزيد

٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى   ر.ج كولنجوود   فاطمة إسماعيل

٣١٢- روح الشعب الأسود   وليم ديبويس   أسعد حليم

٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)   خايير بيان   محمد عبدالله الجعيدى

٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم   جانيس مينيك   هويدا السباعى

٣١٥- جرامشى فى العالم العربى   ميشيل بروندينو والطاهر لبيب   كاميليا صبحى

٣١٦- محاكمة سقراط   أى. ف. ستون   نسيم مجلى

٣١٧- بلا غد   س. شير لايموفا- س. زنيكين   أشرف الصباغ

٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة   مجموعة من المؤلفين   أشرف الصباغ

٣١٩- صور دريدا   جايترى سبيفاك وكرستوفر نوريس   حسام نايل

٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج   مؤلف مجهول   محمد علاء الدين منصور

٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)   ليفى برو فنسال   بإشراف: صلاح فضل

٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى   دبليو يوجين كليناور   خالد مفلح حمزة

٣٢٣- فن الساتورا   تراث يونانى قديم   هانم محمد فوزى

٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)   أشرف أسدى   محمود علاوى

٣٢٥- عالم الآثار (رواية)   فيليب بوسان   كرستين يوسف

٣٢٦- المعرفة والمصلحة   يورجين هابرماس   حسن صقر

٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)   نخبة   توفيق على منصور

٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)   نور الدين عبد الرحمن الجامى   عبد العزيز بقوش

٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)   تد هيوز   محمد عيد إبراهيم

٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت   مارفن شبرد   سامى صلاح

٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى   ستيفن جراى   سامية دياب

٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى   نخبة   على إبراهيم منوفى

٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥   نبيل مطر   بكر عباس

٣٣٤- لقطات من المستقبل   أرثر كلارك   مصطفى إبراهيم فهمى

٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية   ناتالى ساروت   فتحى العشرى

٣٣٦- متون الأهرام   نصوص مصرية قديمة   حسن صابر

٣٣٧- فلسفة الولاء   جوزايا رويس   أحمد الأنصارى

٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى   نخبة   جلال الحفناوى

٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)   إدوارد براون   محمد علاء الدين منصور

٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط   بيرش بيربروجلو   فخرى لبيب

٢٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٢٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	يونه نداثى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	چيرالد پرنس	عابد خزندار
٢٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	پول ديڤيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليپ تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديڤيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديڤيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	چوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	چينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليڤى بروڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوڤا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السِّيد	تراث شعبى إسبانى	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	چان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	ڤيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	ڤرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١- بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	چى ڤارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥- اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧- العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨- النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠- فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١- تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢- أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤- كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥- كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦- ربما كان قديساً (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧- سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩- الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠- الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١- كوكب مرقّع (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢- كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣- العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨- استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩- محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠- الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢- إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣- الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤- الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥- موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧- أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨- أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩- بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذى حَدَثَ فى حَدَث، ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧- للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨- النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير روناند ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	پاتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦- أقدم لك: چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومی بابا	ثائر دیب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكى	جون ماهر وجودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	پول ڤاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج١)	پاتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	چان چينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكليود وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	الكسياد	الأميرة أناكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين ڤان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	چون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	چى دى موپاسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روچر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	پول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	چيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غربال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتاة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاييم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	چيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زاراتيت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيڤيان	منى البرنس
٧٠٢-	مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	جوستينيان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانڤيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	چونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: ڤالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوچيا والثقافة	إيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام چونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	پول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	چون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج٢)	پاتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	چيرار دى چورج	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	چيرار دى چورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور دارويني	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	چوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريڤور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوچيا لغات العالم	ل.ج. كالڤيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروری
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	پاتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

٧٥٩- النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠- الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرچينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢- المسلم عدواً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣- الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥- ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦- الشرق المتخيل	تييرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧- الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨- حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩- أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠- السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١- السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢- بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣- دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	چون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤- الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥- مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧- الانفجار الأعظم	چيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨- صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠- من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١- الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢- المسرح المسكون	مارڤن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣- العولمة والرعاية الإنسانية	ڤيك چورج وبول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤- الإساءة للطفل	ديڤيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥- تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦- المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧- العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨- سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩- الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبى
٧٩٠- الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢- دراسات حول القصص القصيرة لإدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣- ثلاث رؤى للمستقبل	چون جريڤيس	رءوف وصفى
٧٩٤- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥- مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف اليمبى
٧٩٦- آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

٧٩٧- الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨- الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩- سلم السنوات	أن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠- قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١- نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢- مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣- التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس باترسون	عزة الخميسى
٨٠٤- سوسيولوجيا الدين	دانييل هيرفيه-ليجيه وجان بول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥- من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦- الطبقة العليا المتوسطة	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧- يحى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨- الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديڤيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١٠- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١١- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن التعيمى
٨١٢- تلمل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣- لم أخرج من ليلى (رواية)	أنى إرنو	نورا أمين
٨١٤- الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥- فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦- العدو الأمريكى	فيليب روجيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧- مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨١٩- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨٢٠- هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١- هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢- فن الرباعى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣- وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤- لغة الدراما	داڤيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧- أمل مطروح: البدو والمستوطنون والذين يفضون المظلات	دونالد پ.كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨- النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين	رمسيس شحاتة
٨٢٩- مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠- رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١- تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين وليوبولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢- تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٣)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨٣٣- الفلسفة الألمانية	ڤرنر شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤- كنز الشعر	ذبيح الله صفا	محمد علاء الدين منصور

٨٣٥-	تشيخوف: حياة فى صور	بيتر أوربان	علاء عزمى
٨٣٦-	بين الإسلام والغرب	مرثيدس غارثيا	ممدوح البستاوى
٨٣٧-	عناكب فى المصيدة	ناتاليا فيكو	على فهمى عبدالسلام
٨٣٨-	فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكى	لبنى صبرى
٨٣٩-	أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين وبورين فان لون	جمال الجزيرى
٨٤٠-	الخواتم الثلاثة	جوتهولد ليسينج	فوزية حسن
٨٤١-	هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٨٤٢-	منظومة مصيبت نامه (مج٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣-	من روائع القصيد الفارسى	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤-	دراسات فى الفقر والعولمة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥-	غياب السلام	نيكولاس جويات	طلعت الشايب
٨٤٦-	الطبيعة البشرية	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧-	الحياة بعد الرأسمالية	مايكل ألبرت	أحمد محمود
٨٤٨-	تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)	يوليوس فلهاوزن	عبد الهادى أبو ريدة
٨٤٩-	سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠-	الخيال، الأسلوب، الحداثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١-	الطب التجريبى (ميراث الترجمة)	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢-	العلم والحقيقة	ريتشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمى
٨٥٣-	العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٤-	العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٥-	فهم الاستعارة فى الأدب	چيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦-	القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانثيسكو ماركيث بيانو بيانويا	عائشة سويلم
٨٥٧-	نادچا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامرى
٨٥٨-	جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمانز	بيومى قنديل
٨٥٩-	السياسة فى الشرق القديم	إيف شيمل	مصطفى ماهر
٨٦٠-	مصر وأوروبا	ڤان بملن	عادل صبحى تكلا
٨٦١-	الإسلام والمسلمون فى أمريكا	چين سميث	محمد الخولى
٨٦٢-	ببغاء الكاكادو	أرتور شنيتسلر	محسن الدمرداش
٨٦٣-	لقاء بالشعراء	على أكبر دلفى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤-	أوراق فلسطينية	دورين إنجرامز	عبد الرحيم الرفاعى
٨٦٥-	فكرة الثقافة	تيرى إيجلتون	شوقى جلال
٨٦٦-	رسائل خمس فى الآفاق والأنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧-	المهمة الاستوائية (رواية)	ديڤيد مايلو	صبرى محمد حسن
٨٦٨-	الشعر الفارسى المعاصر	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩-	تطور الثقافة	روبن دونبار وآخرون	شوقى جلال
٨٧٠-	عشر مسرحيات (جـ١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١-	عشر مسرحيات (جـ٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢-	كتاب الطاو	لاوتسو	محسن فرجانى

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات فى الموسيقى الشرقية (جـ١)	هنرى جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع فى العربية	موريتس شتينشنيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستنيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغانى شيراز (جـ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغانى شيراز (جـ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإرهاب	جان بودريار	بدر عرودكى
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سعدى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراغى	مخدومقلى فراغى	الصفصافى أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أتوود	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادى الفوضى (رواية)	فريدريش دورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	ديفيد جورج هوجارث	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عبد العزيز حمدى
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة الفقى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج١)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج٢)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار فى القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هويدى
٩٠٧-	أرثو.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز جيرو	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	ديفيد كوزنز هوى	خالدة حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	جووست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠-	بروميثيوس بلا قيود	دافيد س. لينديس	مى رفعت سلطان

٩١١- غبار النجوم	جون جريبين	عزت عامر
٩١٢- ترجمات يحيى حقى (جـ١) (ميراث الترجمة)	روايات مختارة	يحيى حقى
٩١٣- ترجمات يحيى حقى (جـ٢) (ميراث الترجمة)	مسرحيات مختارة	يحيى حقى
٩١٤- ترجمات يحيى حقى (جـ٣) (ميراث الترجمة)	ديزموند ستيوارت	يحيى حقى
٩١٥- المرأة فى أثينا: الواقع والقانون	روجر جست	منيرة كروان
٩١٦- الجدلية الاجتماعية	أنور عبد الملك	سامية الجندى وعبدالعظيم حماد
٩١٧- موسوعة كمبريدج (جـ١)	نخبة	إشراف: أحمد عتمان
٩١٨- موسوعة كمبريدج (جـ٤)	نخبة	إشراف: فاطمة موسى
٩١٩- موسوعة كمبريدج (جـ٩)	نخبة	إشراف: رضوى عاشور
٩٢٠- خليل جبران: حياته وعالمه	جين جبران و خليل جبران	فاطمة قنديل
٩٢١- لله الأمر (رواية)	أحمدو كوروما	ثريا إقبال
٩٢٢- الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى	ميكيل دى إيبالثا	جمال عبد الرحمن
٩٢٣- ملحمة حرب الاستقلال (شعر)	ناظم حكمت	محمد حرب
٩٢٤- حتشبسوت: عظمة وسحر وغموض	كريستيان دى روش نوبلكور	فاطمة عبد الله
٩٢٥- رمسيس الثانى: فرعون المعجزات	كريستيان دى روش نوبلكور	فاطمة عبد الله
٩٢٦- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٩٢٧- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٩٢٨- سجون الضوء	كيتى فرجسون	عزت عامر
٩٢٩- نشأة الإنسان (مجـ١)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣٠- نشأة الإنسان (مجـ٢)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣١- نشأة الإنسان (مجـ٣)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣٢- حدائق السحر فى دقائق الشعر (ميراث الترجمة)	رشيدالدين العمرى	إبراهيم الشواربى
٩٣٣- اللاعقلانية الشعرية	كارلوس بوسونيو	على منوفى
٩٣٤- محنة الكاتب الأفريقى	تشارلز لارسون	طلعت الشايب
٩٣٥- تاريخ الفن الألمانى	فولكر جيبهارت	علا عادل
٩٣٦- بيولوجيا الجحيم	إد ريجيس	أحمد فوزى عبد الحميد
٩٣٧- هيا نحكى (قصص أطفال)	أحمد ندالو	عبدالحى سالم
٩٣٨- الأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر	بيير بورديو	سعيد العليمى
٩٣٩- سجن العقل	ستيفن جونسون	أحمد مستجير
٩٤٠- اليابان الحديثة: قضايا وآراء	مجموعة مقالات	علاء على زين العابدين
٩٤١- الجماليات لم يولدن بعد	أى كوينى أرماه	صبرى محمد حسن
٩٤٢- القرن الجديد	إريك هوبسبوم	وجيه سمعان عبد المسيح
٩٤٣- لقاء فى الظلام	مختارات من القصص الأفريقية	محمد عبد الواحد
٩٤٤- الكونترباص	باتريك زوسكيند	سمير جريس
٩٤٥- أحلام يقظة جوال منفرد (ميراث الترجمة)	جان جاك روسو	ثريا توفيق
٩٤٦- الزار ومظاهره المسرحية فى إثيوبيا	ميشيل ليريس	محمد مهدى قناوى
٩٤٧- ماوراء المعنى والحقيقة	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٩٤٨- أفريقيا منذ عام ١٨٠٠	روناك أوليفر وأنتونى أتمور	فريد جورج بورى

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
-٩٤٩	مقبرة الصدأ	أندريه فيش	نافع معلا
-٩٥٠	فى علم الكتابة	چاك ديريدا	منى طلبة وأنور مغيث
-٩٥١	الاتهام (رواية)	فريدريش دورينمات	عماد حسن بكر
-٩٥٢	العبد ومسرحيات أخرى	أميرى بركة	نعيمة عبد الجواد
-٩٥٣	مختارات من الشعر الإسبانى (جـ٢)	نخبة من الشعراء	على عبد الروف البمبى
-٩٥٤	الأصول الاجتماعية للسياسة التوسعية فى عهد محمد على	فرد لوسون	عنان الشهاوى
-٩٥٥	الطب والأطباء	سيلڤيا شيفولو	ماجدة أباظة
-٩٥٦	نعم، ليست لدينا نيوترونات	أ. ك. ديونى	سمير حنا صادق
-٩٥٧	الحركات الاجتماعية: (١٧٦٨-٢٠٠٤)	تشارلز تلى	ربيع وهبة
-٩٥٨	أصوات على هامش الحرب	مريام كوك	صلاح حزين
-٩٥٩	الموريسكيون فى الفكر التاريخى	ميغيل أنخيل بونيس	وسام محمد جزر
-٩٦٠	محمد على الكبير	الأمير عثمان إبراهيم وكارولين وعلى كورخان	هدى كشرود
-٩٦١	شعر الرعاة (ميراث الترجمة)	مختارات من الأدب اليونانى	محمد صقر خفاجة
-٩٦٢	مدخل إلى الفلسفة	وليام جيمس إيرل	عادل مصطفى
-٩٦٣	منتخبات شعرية	حسن رضا خان الهندى	فاطمة سيد عبد المجيد
-٩٦٤	أصول التطرف	كيمبرلى بليكر	هبة رءوف وتامر عبد الوهاب
-٩٦٥	روح مصر القديمة	آنا رويز	إكرام يوسف
-٩٦٦	ما وراء الطبيعة فى إيران (ميراث الترجمة)	محمد إقبال	حسين مجيب المصرى
-٩٦٧	فن الحرب (مجـ ١)	سون تزى	هشام المالكى
-٩٦٨	عالم الخوارق	ج. كوير	كمال الدين حسين
-٩٦٩	التليفزيون خطر على الديمقراطية	كارل بوبر وچون كوندرى	مجدى عبد الحافظ
-٩٧٠	ربما فى حلب ذات يوم وقصص أخرى	نخبة	أحمد الشيمى
-٩٧١	الأدب الفارسى القديم (ميراث الترجمة)	پاول هورن	حسين مجيب المصرى
-٩٧٢	الإسهامات الإيطالية فى عهد محمد على باشا	مقالات مختارة	عماد البغدادى
-٩٧٣	تطور فن المعادن الإسلامى	أولكر أرغين صوى	الصفصافى أحمد القطورى
-٩٧٤	فكرة التطور عند فلاسفة الإسلام	مجدى عبد الحافظ	هدى كشرود
-٩٧٥	وقائع انتحار موظف عمومى	مايكل بيرس	حسن عبد ربه المصرى
-٩٧٦	تفهم ذهنية مدمن المُسكرات	أرنولد لودڤيج	صبرى محمد حسن
-٩٧٧	التعبير عن الانفعالات فى الإنسان والحيوانات	تشارلس داروين	مجدى المليجى
-٩٧٨	الإسلام خواطر وسوانح (ميراث الترجمة)	الكونت هنرى دى كاسترى	أحمد فتحى زغلول باشا
-٩٧٩	الأدب والالتزام من باسكال إلى سارتر	بونوا دونى	محمد برادة
-٩٨٠	الكلمات المفاتيح	رايموند ويليامز	نعيمان عثمان
-٩٨١	الكلمة للبنت	فيرنانديث موراتين	السيد عبد المنعم محمود
-٩٨٢	اللغة والإنترنت	ديڤيد كريستال	أحمد شفيق الخطيب
-٩٨٣	روح الاجتماع (ميراث الترجمة)	چوستاف لوبون	أحمد فتحى زغلول باشا
-٩٨٤	التلفزيون ونمو الطفل	چوديت ڤان إفرا	عز الدين جميل عطية
-٩٨٥	طيبة ونشأة إمبراطورية	كلير لالويت	ماهر جويجاتى
-٩٨٦	... وفيتنام و...	إريش فريد	يسرى خميس
-٩٨٧	مشروع السلام الدائم (ميراث الترجمة)	إيمانويل كانط	عثمان أمين

٩٨٨- أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ٢) — نخبة — عبد الرحمن الخميسى

٩٨٩- الصوتيات واللغة الفارسية — يد الله ثمرة — حمدى إبراهيم حسن

٩٩٠- الصوفيون — إدريس شاه — بيومى قنديل

٩٩١- الإنسانيون الجدد: العلم عند الحافة — جون بروكمان — مصطفى إبراهيم فهمى

٩٩٢- بلزونى فى مصر — چيوفانى بلزونى — علاء الدين عبد الرحمن

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢١٩٣٣ / ٢٠٠٥